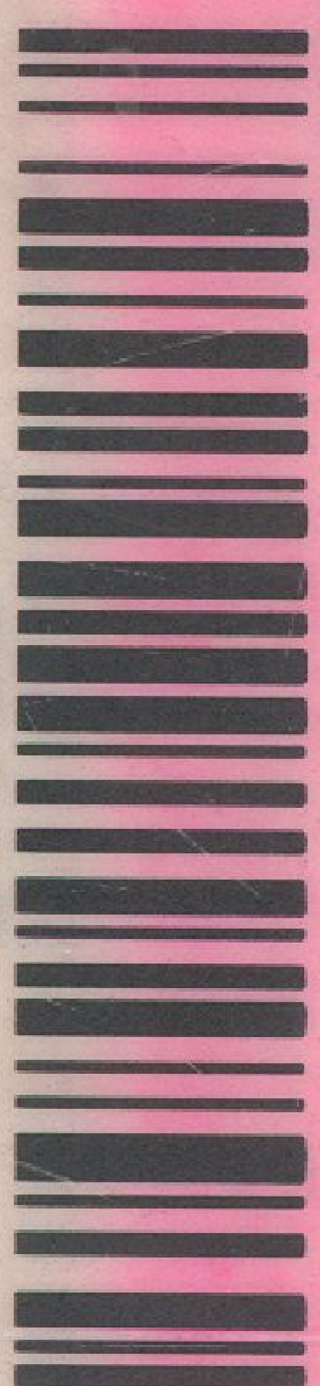
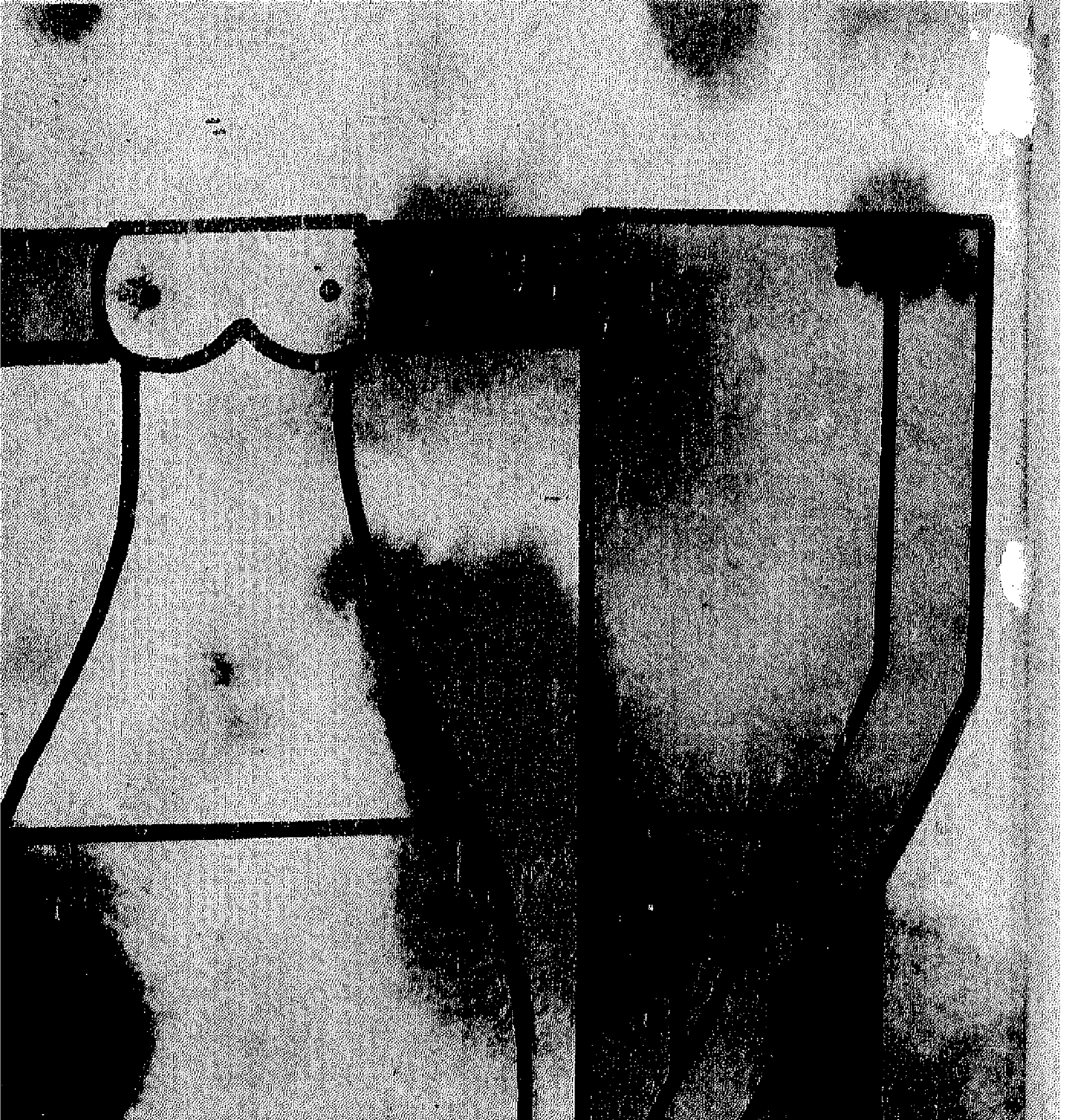



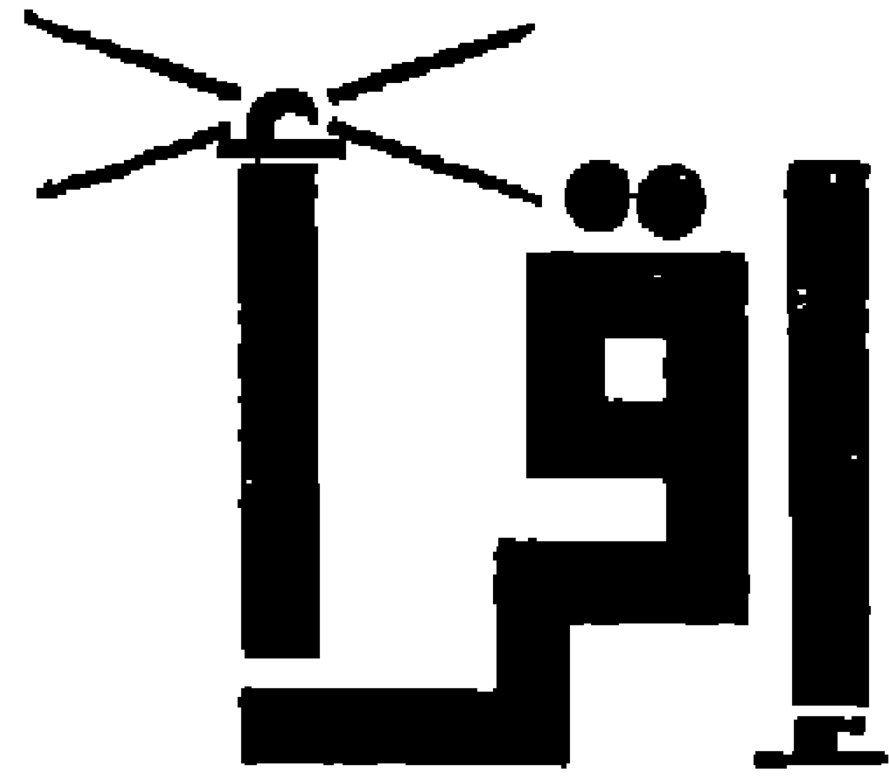
اقرأ

الدكتور ابراهيم فهيم

النفسُ والبَدن



لبنان ١٠٠ ق . ل   سوريا ١٠٠ ق . س   الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع الخليج العربي ١٥٠ ف السعودية ٢ ريال
عدن ٢,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليما   ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٢٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم



مجلة تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

الدكتور إبراهيم فهيم

النفس والبدن

اقرأ ٣٣٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٦ - ديسمبر سنة ١٩٧٠

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

مقدمة المؤلف

تقدمت العلوم الطبية فى السنوات الأخيرة تقدماً لم يكن يتوقعه أكثر العلماء تفاؤلاً ، وأصبحنا بفضل الاكتشافات الحديثة الكثيرة ، لا نخشى الأوبئة والأمراض التى كان يذهب ضحيتها الملايين فى كل عام ؛ فلم تعد للتيفوس أو التيفود أو الطاعون أو الجدرى أو الالتهابات الرئوية وما إليها سطوة الماضى ، فقد دالت دولة الميكروبات المسببة لها ، وأصبحت تعجز عن مقاومة قاتلات الميكروب ومركبات السلفا أكثر من بضعة أيام ، كما دلت التجارب على أن استخدام مبيدات الحشرات والمطهرات الحديثة وغيرها من وسائل الصحة والوقاية ، سلاح فعال فى الفتك بالحشرات الناقلة للميكروبات ، والوقاية من الأوبئة والأمراض السريعة الانتشار ، ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من تقدم وسائل التشخيص ، بحيث أصبح تشخيص العلة الجثمانية — فى أغلب الأحوال — أمراً يسيراً أكيداً لا يحتمل الشك ، زادت نسبة الوفيات الناشئة عن الأمراض المصحوبة بارتفاع الضغط ، وتصلب الشرايين واضطرابات القلب زيادة كبيرة ، وفى اعتقادى أن ما أحرزه العلم من تقدم فى وسائل التشخيص وابتكار العقاقير فى ميدان الطب الباطنى لم يستفد منه الكثيرون من المرضى الاستفادة المرجوة ، فقد كانت الاستفادة فى أغلب الأحوال مؤقتة . . لأنهم ليسوا مرضى بأجسامهم بقدر ما هم مرضى بنفوسهم وأعصابهم .

إن العدو الأكبر فى معركتنا اليوم ضد المرض هو الأعصاب الثائرة المضطربة ، وعلاج هذه الأعصاب فى يدك أنت وحدك ؛ فقد تولد بأعصاب رقيقة مرهفة ، ولكن فى وسعك أن تنظم حياتك ، وأن تمارس

عادات تنعم بفضلها بهدوء لا يفسد صحتك وينغص عليك عيشك ؛ وقد تولد بجهاز سليم قوى ؛ ولكنك تسلك فى حياتك مسلكاً يدفعك إلى الانهيار دفعاً ؛ فتنتابك علل لا تفيد فى علاجها العقاقير مالم تبادر بتغيير مسلكك وتنظيم حياتك . لذلك لن أحدثك فى هذا الكتاب حديثاً طبياً خالصاً، ولن أحدثك حديثاً نفسياً خالصاً ؛ وإنما سيكون حديثى مزيجاً من هذا وذاك . فأنت لا تستطيع أن تعيش صحيح الجسم ما لم يكن جهازك العصبى سليما، ولن يكون جهازك العصبى سليماً مالم يكن جسمك سليما . ولقد صدق أفلاطون منذ أكثر من ألفى عام ، حين كان يردد لمريديه : « إن أكبر خطأ يقع فيه الأطباء اليوم فى علاج الجسم البشرى أنهم يفصلون بين النفس والجسم » .

إننى أود أن تقرأ هذا الكتاب بإمعان ، وأن تعمل جاداً على تطبيقه فإنك لن تتذوق طعم الحياة وأنت ثائر الأعصاب مضطرب النفس ، ولن ينعم أبناؤك وزوجك بما تهيئه لهم من أسباب الرغد والترف مادمت مريض النفس مضطرب الأعصاب . إن الاضطرابات النفسية والعصبية « أمراض معدية » تنتقل إلى ذويك ومخالطيك . وهذا هو السر فى أن كثيرين من رجال الأعمال والتجار والمحامين والجامعيين وحتى الأطباء ، يعيشون فى هذه الأيام فى أجواء عاصفة مريرة ، وقل أن تجد بين ذويهم من لا يشكو علة مزمنة — برغم أنها ليست مستعصية — لم تفد فى علاجها مختلف الأقراص والحقن. إن هؤلاء لا «يموتون» ولكنهم « يقتلون » أنفسهم .

إلى هؤلاء أقدم كتابى هذا ، راجياً أن أحقق الغرض الذى أهدف إليه وهو أن أمهد الطريق أمام أكبر عدد من المواطنين فى مصر وبلاد الشرق العربى لحياة سعيدة خالية من المرض .

دكتور إبراهيم فهيم

الفصل الأول

هل يمكن أن تعيش سليماً . . ؟

إن البشر لا يولدون متساوين فى تكوينهم الجسمى والعقلى والنفسى ، فأنت تولد متميزاً ، لا يشبهك أحد ، لأن الوراثة تجعل منك شخصاً مختلفاً عن غيرك كل الاختلاف ، وثمة طفل يولد وجسده يمكن أن يصمد لمتاعب الحياة عشرين عاماً فقط ، وآخر يولد مكتسباً صفات يمكن أن تصل بعمره حتى الخمسين ، وثالث يولد بإمكانيات البقاء حتى المائة والعشرين .

وكما ينبغى ألا نتوقع من سيارة مختلة المحرك ، القوة والسرعة ودرجة الاحتمال التى نتوقعها من سيارة جيدة الصنع سليمة الأجهزة ، فإنه لا يمكن لطفل هزيل ، ولد لأبوين مريضين ، أن تتوافر له فرصة البقاء وسلامة الجسم التى تتاح لطفل ولد لأبوين قويين صحيحى الجسم .

ومع ذلك فإن كل إنسان يمكن أن يعيش سنى حياته بطريقة تمكنه من الاستمتاع بأفضل ما يمكن أن تقدمه له الحياة من مباهج ومسرات ؛ فأسلوب حياة المرء تتوقف عليه — إلى حد كبير — حالته الصحية والنفسية ، وهذا الأسلوب من اختصاصه وحده وعليه أن يحدده بنفسه .

وليست الصحة هى الخلو من المرض فحسب ، بل هى كذلك فى الإحساس بالحيوية والشعور ببهجة الحياة . ويحدث هذا عندما تعمل جميع أعضاء الجسم بانتظام وانسجام ، فيكمل كل عضو وظائف الأعضاء الأخرى ويستجيب الجسم كله فى سرعة ويسر ، لأى واجب يلقى إليه ، أو طارئ يطرأ عليه .

والشخص غير المريض قد يكون رخواً كسولا . يقوم بأعماله اليومية « الروتينية » بعد جهد وعناء . ويظل يقاوم الكسل وفتور الهمة ؛ ولكنه لن يصمد طويلا . إنه أشبه بسيارة محركها قوى سليم ولكن صاحبها يهوى قيادتها وهو ضاغط على الفرامل .

إن أكثر الشباب لا يدرك أهمية الصحة ، على الرغم من الشواهد الكثيرة التى تؤكد أهميتها ، فكم من مريض يملك من المال ما يمكنه من الظفر بكل ما تشتهيه نفسه من متاع ؛ ولكنه برغم ذلك يتمنى لو خسر ماله واستعاد صحته .

الصحة أمر طبيعى

قصدت الطبيعة أن نكون جميعاً أصحاء . وكما يرفق مهندسو الآلات الدقيقة تعليمات تتبع عند إدارة هذه الآلات ؛ حتى لا تفسد أو تبلى قبل الأوان ؛ كذلك وضعت الطبيعة نظماً — كشفت عنها الخبرة الطويلة والبحوث العلمية الحديثة — إذا اتبعتها ضمنت سلامة أجهزة جسدك حتى نهاية المدة المقررة لعملها . والطبيعة أعظم واق لك وأنجع علاج للكثير من أمراضك وأوجاعك ؛ إذا أتحت لها الفرصة لكى تعمل ، وسلكت فى حياتك مسلكاً يتمشى مع نظمها وتعليماتها .

لا تعاند الطبيعة ، ثم تتوقع من الطبيب أن يقدم لك المعجزات . إن أكبر خدمة يمكن أن يؤديها لك الطبيب ، تدخل فى نطاق الوقاية لا فى نطاق العلاج ؛ فهو لا يستطيع أن يصلح ما تفسده أنت بتهورك وإهمالك . ولكنه يستطيع أن يعاونك على الاحتفاظ بصحتك إن كنت صحيحاً ؛ ويمكنك من أن تعيش بمرضك أطول مدة ممكنة .

تستمتع خلالها بأقصى ما يمكن من الشعور بالحيوية والإحساس ببهجة الحياة .

ثلاث صور من الناس

وأنا وأنت إزاء الصحة ، واحد من ثلاثة :

١ — شخص يغلو فى تطبيق القواعد الصحية ، حتى يصبح أسيراً لها . إنه فى كل صباح يحصى عدد ساعات نومه ، ويراجع فى كل مساء ما أكله وما شربه ، وذهنه متعلق دائماً بدقات قلبه ، فإن أسرع قليلا تملكه الخوف ، وإن أبطأ قليلا خيل له أن نهايته قد اقتربت . إنه لايشرب من كوب فى مطعم ، ولا يستعمل أدوات غير أدواته مهما اضطرته الظروف إلى ذلك خشية المرض ، وحديثه فى معظم الأوقات — فى بيته وفى عمله — يدور حول الظواهر الكثيرة التى « ينفرد » بها فى رأسه وصدره ، وقلبه ، ومعدته ، وعلى مر الأيام يتزايد اضطراب نفسه ، واضطراب أعصابه ، فتنهار جميع أجهزة جسمه ، وتختل وظائفها .

٢ — شخص ثان يضرب بجميع النصائح المتعلقة بالصحة عرض الحائط . إنه يؤمن بالفلسفة القائلة : « كل واشرب وامرح فقد تموت غداً » . ولعلنا لا نعيب مسلك هذا الشخص ، لو أن فى استطاعة الإنسان أن يأكل ويشرب ويمرح ويستمتع بأوقات طيبة طول الوقت ، ثم تنتهى حياته وهو غارق فى ملذاته ، ولكننا لا نسيطر على حياتنا ، وإذا لم نلتزم الحكمة فى شبابنا ، فإننا لا نلبث أن نقع فريسة للأمراض والأوجاع ، ونرزح ما بقى من حياتنا تحت نير آلام جثمانية ونفسية لا حصر لها . ويزيد من إحساسنا بالألم ، شعورنا بأننا أصبحنا عبئاً ثقيلا على الغير ، وأننا قد جنينا على أبنائنا وذوينا بحرمانهم من معاونتنا ورعايتنا ، نتيجة للإهمال والتهور والإسراف فى المراحل الأولى من العمر .

٣ ــ وبين هاتين الصورتين المتناقضتين : صورة أخرى تعد من الناحية الطبية صورة مثالية . إنها صورة الشخص الذى يسير فى جميع أطوار حياته بقدمين ثابتتين وخطى وئيدة ، فى طريق وسط ، مؤمناً بأن الاعتدال هو حجر الزاوية للحياة الصحيحة السعيدة ، ومؤمناً أيضاً بأن درهم وقاية خير من قنطار علاج : ولذلك فإنه يعرف نقط الضعف فى جسمه ــ وكلنا لا يخلو من ناحية حساسة فى جسمه ، تتأثر بسرعة لأقل المؤثرات ــ ويعرف عن خبرة ما يثير هذا الضعف فيتفاداه فى غير هم أو قلق . وهو يثق بأن الطبيعة كفيلة بتحقيق ما يهدف إليه من صحة بدنية ونفسية وعقلية ، طالما هو لا يقف فى طريقها ، بل يعاونها فى أداء مهمتها . مثل هذا الشخص قد يقضى ليلتين ساهراً حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه يأوى إلى فراشه مبكراً فى الأمسيات الخمس الباقية من الأسبوع ، وهو إذا أفرط فى تناول الطعام يوماً ، قلل منه فى اليوم التالى . وإذا أجهد نفسه صباحا ، عمد إلى الراحة التامة مساء ، لذلك تراه فى معظم الأوقات هادئ النفس والأعصاب يفيض بشراً ونشاطاً وحيوية .

الاعتدال طريق الصحة

الطبيعة تريد أن نلتزم الاعتدال فى كل شىء ، فإذا غالينا فى عمل أو فكر أو عاطفة أنذرتنا الطبيعة بالألم . فالذين يسرفون فى التهام الطعام والذين يسرفون فى تجويع أنفسهم ، والذين يكثرون من النوم ، والذين لا ينامون ، والذين لا يكفون عن الضحك ، والذين لا يضحكون ، والذين لا يكفون عن البكاء ، والذين لا تعرف عيونهم الدموع ، والذين يسرفون فى رهافة الحس ، والذين لا « يحسون » والذين يكثرون من



الكلام ، والذين يعمدون دائما إلى الصمت ، والذين ينفقون بسخاء ، والذين يسرفون فى البخل ، والذين يتخذون دائماً موقف الهجوم والإيذاء ، والذين يتخذون دائماً موقف الاستكانة والاستسلام ، والذين يريدون أن يكونوا دائماً فى عزلة ، والذين لا يطيقون أن يبقوا وحدهم لحظات ، والذين يسرفون فى الاهتمام بالنظافة ، والذين يكفرون بها ، والذين يندفعون فى الحياة وكأنهم فى سباق ، والذين يتراجعون إلى الوراء لتهيبهم مواجهة الحياة — أولئك جميعاً يشقون ويتألمون ، وأولئك جميعاً يتعرضون لعقد نفسية ومتاعب جثمانية لاتلبث أن تضعف مقاومتهم وتسىء إلى صحتهم .

لذلك أدعوك — إذا أردت أن تعيش سليماً صحيحاً بغير مرض — أن تراجع نظام حياتك ، وأن تبدأ على الفور فى انتهاج خطة الاعتدال والتعقل والاتزان فى كل شىء . إن مضايقات الحرمان من عادة استعبدتك لا تقاس بالآلام التى تتهددك إذا أسرفت فى ممارسة هذه العادة . ابحث عن الطريق الوسط . وسر فيه باستمرار ، فهو الطريق الوحيد نحو الصحة النفسية والبدنية والعقلية .

الخوف من المرض

تروى أسطورة أن شخصاً لقى ملاك الموت فى الطريق ، فقال له : « إلى أين أنت ذاهب ؟ » فأجاب : « إننى ذاهب لأنشر وباء فى المدينة القريبة ، كى أحصد أرواح خمسة آلاف نسمة من أهلها » . واتفق أن التقى الرجل بملاك الموت بعد بضعة أيام ، فقال له : « لماذا كذبت على وقتلت خمسين ألفاً من أهل المدينة بدلا من خمسة آلاف فقط ؟ » فأجاب : « لم أكذب عليك : لقد فتك الوباء بخمسة آلاف

فقط كما قلت لك ، أما الخمسة والأربعون ألفاً الآخرون فقد ماتوا من الخوف ! » .

إن الخوف من المرض يسبب لكثيرين المرض ، إذ يشعرون دوماً أن حياتهم وحياة ذويهم فى خطر ؛ ويتزايد هذا الخوف تدريجياً حتى يشل تفكيرهم ، وينغص عليهم حياتهم ، ويمتص حيويتهم ونشاطهم . والخوف الطارئ المعتدل أمر طبيعي ، فهو فى هذه الحالة يكون وسيلة لتمكيننا من التخلص من الأخطار التى تحدق بنا . فلو أن شخصاً صوب نحونا بندقية ، كان الأثر الطبيعي أن نخاف أولا ، ثم نتحفز للدفاع أو الفرار ثانياً ، غير أن البعض يتخيل ، عندما يشير إليه أحد الأشخاص بأصبعه ، أنه يوجه نحوه بندقية ، ويسبب له هذا الخوف قلقاً واضطراباً عصبياً يؤدى إلى اضطراب جميع وظائف أجهزة الجسم ، الذى يظهر فى صور مرضية مختلفة .

ولكن كيف يسيطر الخوف على نفوس هؤلاء ؟ الغالب أن مرجعه أنهم قضوا حياتهم منذ نعومة أظفارهم فى جو من الخوف . والخوف يظهر حيث يختفى الحب . فالطفل يولد فى هذه الحياة بغير سند ، وهو يحس إحساس الشخص الضال فى غابة واسعة الأرجاء تضم أكثر الوحوش ضراوة وافتراساً ، فإذا وقف والداه إلى جواره يغمرانه بالحب والعطف والرعاية أحس بالأمان والسعادة والراحة النفسية . أما إذا ضن عليه أبواه بالحب أو أهملاه ، أحس بأنه مكروه غير مرغوب فيه ، وأن والديه يتمنيان موته . ويظل هذا الإحساس عميقاً كامناً فى نفسه ، يحرمه متعة الصحة وبهجة الحياة عندما يكبر .

وأنا أحب أن أوجه حديثى بهذه المناسبة إلى الآباء والأمهات الذين يبذلون أقصى الجهد لتوفير جميع ما يحتاج إليه أبناؤهم ماديا ، ويعنون

كل العناية برعايتهم الصحية ، ولكنهم يحرمونهم أهم ما يحتاجون إليه وهو « الحب » فيحولون بذلك بينهم وبين الصحة النفسية والجثمانية فى طفولتهم وفى شبابهم .

هؤلاء الآباء والأمهات يخطئون فى حق أولادهم أكبر الخطأ ، فالعناية بصحة أولادهم أمر له أهميته ، والعناية بتثقيفهم فى المدارس التى تهيئ لهم أجواء صالحة، شيء جميل ، وتوفير الأموال التى تتيح لهم أن يبدءوا حياتهم العملية بداية طيبة، فضل لا ينكر أثره ، ولكن هذه الجهود لا تعادل أثر الحب والعطف والحنان والتشجيع فى نفوسهم . فإذا حرموا الحب تعرضت نفوسهم لمختلف ألوان العقد والاضطرابات ، وظلت هذه العقد تنمو معهم وتكبر ، حتى إذا ما بلغوا مرحلة الشباب بدأت آثارها تظهر فى صور متعددة من الأعراض المرضية التى لا تجدى فى علاجها العقاقير أو الوسائل الطبية المعروفة .

مثل هؤلاء يتسم سلوكهم فى الحياة بطابع الشذوذ ، وتنعكس على تصرفاتهم آثار الخوف من كل شيء، من المرض ، أو الفقر ، أو الموت ، أو لقاء الناس، ويمتزج هذا الخوف غالباً بالحقد والضغينة وسرعة الغضب والميل إلى الانطواء على النفس خشية أن تنكشف نفوسهم المريضة . والجسم لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كانت داخله نفس مريضة .

علاج الخوف

كيف نتخلص من الخوف ، وكل ما حولنا يبعث عليه ؟

مهما تأصلت جذور الخوف فى نفسك ، ففى وسعك أن تتخلص منه ومن آثاره . إذا عمر قلبك بالإيمان بأن ثمة قوة عليا ترعاك وتحنو عليك ،

فإذا كنت قد حرمت حب الأبوين وحب أقرب الناس إليك ، فإنك لن تحرم هذا الحنان الإلهى إذا لم تعرض عنه وتكفر به .

والإيمان سهل إلى درجة يصعب توضيحها . إنه الثقة الكاملة بالله ، والاعتماد الكلى عليه فى كل ما يخرج عن نطاق نشاطنا وإمكانياتنا . إنه ثقة الطفل الذى لا يفكر فى الغد ، ولا يقلق لوباء أو مجاعة أو حريق أو حرب طالما هو فى رعاية والديه . ولكن هذه الثقة يجب ألا تعوق أداء واجباتنا ، أو تعفينا من نتائج أخطائنا. أد واجبك على الوجه الأكمل ، وألق بعد ذلك كل همومك ومخاوفك على خالقك .. هذه هى الوسيلة الوحيدة الأكيدة للتخلص من الخوف .

ولا تعجب إذ يحدثك طبيب عن الإيمان ، ولكنى أصارحك بأننا معشر الأطباء كلما تعمقنا فى البحث ، وزادت خبرتنا فى متابعة أطوار المرض وحالات المرضى ، أحسسنا إحساساً عميقاً بأن ثمة قوة عليا تسيطر على الأجهزة البشرية الدقيقة العجيبة ، وشعرنا بأن يداً عليا تتحكم فى مصايرها .

ومعظم العلماء يشاركوننا هذا الإحساس . قرأت لأحدهم مقالا يقول فيه : « إذا لم تكن قد اختبرت أثر الإيمان فى حياتك ، فنصيحتى أن تبادر بتجربة هذا الاختبار ، فإنى أومن بأن هناك قوة عليا ، وأومن بأثر الالتجاء إليها عند الحاجة . وأومن بأنها خير مبدد للقلق ، بل إنها الوسيلة الوحيدة للتخلص منه ، وتحرير النفس من المخاوف ، وبث الطمأنينة والسلام فيها » .

الفصل الثانى

أعصابك الثائرة

قلت فى مقدمة هذا الكتاب إن عدونا الأكبر فى معركتنا – اليوم – ضد المرض ، هو الأعصاب الثائرة المضطربة ، ولذلك فإننى سأخصص عدداً غير قليل من صفحات هذا الكتاب للحديث عن العصبية ، وأثرها على الصحة . وسأحاول أن أرسم لك الطريق للتحكم فى أعصابك والاحتفاظ بها سليمة هادئة .

ما هى « العصبية » ؟

ليست (العصبية) مرضاً ، وإنما هى عارض لاعتلال فى الصحة يرجع إلى واحد من أسباب عدة ، بعضها عضوى بحت ، وبعضها نفسى بحت. وكثيراً ما يسأل المريض ، بعد أن يوضح له الطبيب أثر التوتر العصبى وسرعة الانفعال على صحته : « ولكن ما هو أحسن علاج للعصبية ؟» ومادامت العصبية ليست مرضاً ، فن الواضح أنه ليس هناك ما يمكن أن يطلق عليه « أحسن علاج لها » . والوسيلة لتفاديها ، هى معرفة سببها فى كل حالة ومحاولة استبعاده أو التخفيف من أثره .

ومما لاشك فيه أن ثمة أشياء عامة تفيد فى جميع الحالات ، فالتحكم فى العواطف ، وشغل الذهن بأشياء بهيجة ، وممارسة الرياضة الكافية فى الهواء الطلق ، تفيد جميعاً أى شخص عصبى مهما كان سبب عصبيته ، ولكن هناك حالات كثيرة يستلزم علاجها معاونة الطبيب ، لكى يتبين سبب هذه الظاهرة ، وقد يكتشف أن كل ما تحتاج إليه هو تعديل عاداتك ونظام معيشتك كما أنه قد يكتشف أن « عصبيتك » نتيجة علة عضوية لا تفطن إليها ، أو علة نفسية تحتاج إلى علاج نفسى .

ومن الأسباب العضوية لهذه الحالة ضعف البصر . فإجهاد العينين يكون أحياناً فى مقدمة هذه الأسباب ، وكذلك تسوس الأسنان وأمراض الفم والزور والأنف ، وكل ما يسبب اضطراباً فى الجهاز الهضمى .

والشخص الذى يتناول كميات معتدلة من غذاء كامل ، تهضمه معدته فى يسر ، ويتمثله جسمه بسهولة ، غالباً ما يشعر بالانتعاش والحيوية ، والإحساس بدوره يجعله ينظر إلى الحياة فى تفاؤل . ولكن إذا قل الطعام عن حاجته اليومية أو زاد ، شعر بتغييرات فى إحساساته العصبية قد لا يفطن إلى سببها فيصبح سريع التأثر لأقل المؤثرات الخارجية فالشىء الذى كان عادة لا يسبب له سوى إحساس طفيف بالضيق ، يغدو سبب قلق عميق ، والإجهاد العصبى يلحق دائماً بركاب القلق .

فإذا كنت عصبياً فراجع قائمة طعامك ؛ فإذا اكتشفت أنك تأكل أكثر مما ينبغى ، أو تأكل أقل مما ينبغى ، أو كنت لا تدقق فى اختيار ألوان الطعام ، أو تكثر من « الحوادق » أو الحلوى ، فأنت تسمم جسمك ، وتفسد أعصابك . وتعاطى المشروبات الكحولية ، والإسراف فى شرب الشاى والقهوة يحدثان نفس الأثر .

وقد يحلو للبعض أن يحرم نفسه ألواناً ضرورية من الطعام — وخاصة اللبن — بحجة أنها تسبب اضطراباً معدياً أو لأن طبيباً نصحه مرة ، خلال توعك أصابه أو مرض طارئ ، بالامتناع عنها . إن الاعتقاد بأن اللبن مثلا يسبب غازات فى المعدة ، أو اضطراباً فى الهضم ، يرجع إلى إحساس وهمى . ولو أن هؤلاء استبعدوا هذا الوهم وتناولوه ، لتبين لهم خطأ اعتقادهم . والعصبيون الذين يشكون من سوء التغذية أو النحافة الزائدة ينبغى أن يكثروا من تناول اللبن بالذات . إن للبعض حساسية لأنواع معينة من الأطعمة ، ولكن هؤلاء — لحسن الحظ — قلة . والقاعدة التى يجب أن يتبعها

أغلب الناس ، أنه لا ضرر من تناول أى نوع من الأطعمة المغذية . إذا وجدت الإرادة : وتوافرت الرغبة لتناوله .

أعراض الإجهاد العصبى

إن عدداً غير قليل من المرضى الذين يترددون على عيادات الأطباء فى هذه الأيام يشكون من انهيار الأعصاب ، وإن كثيرين غيرهم فى طريقهم إلى الانهيار . وقد يبدو أن هذه الحالات تأتى مفاجئة بغير إنذار ، ولكن الواقع أنها نتيجة تطور تدريجى ، وتسبقها إنذارات عدة لو تنبهنا لها فى مرحلة مبكرة ، لتهيأت الفرصة لتفاديها وما يصحبها من مآس.

وأحد الإنذارات الشائعة هو العجز المفاجئ عن النوم العميق ، فمن يجد صعوبة فى الاستغراق فى النوم ، أو تتخلل نومه الأحلام المفزعة أو ما يعرف باسم « الكابوس » أو يتكرر حدوث هذه الأحلام لشخص لم يتعودها ، كل ذلك من أمراض الإجهاد العصبى .

ويدل على هذا الإجهاد أيضاً : الإحساس بتعب شديد عند اليقظة فى الصباح ، وهذه الظاهرة شائعة بين كثيرين ممن يبلغون أواسط العمر : وهى فى أية سن قد ترجع إلى أسباب خارجية بحتة ، كالنوم فى غرفة رديئة التهوية ، ولكنها إذا اقترنت بأعراض أخرى كانت نذيراً بالإجهاد العصبى .

والشخص الهادئ الأعصاب ، حين يثور لأتفه الأسباب ينبغى أن يدرك أن جهازه العصبى –لسبب أو لآخر– قد بدأ يخرج عن طوره . « فالعصبية » المفاجئة علامة شائعة لضعف الجهاز العصبى . ونحن نعرف أن المرء حين يتعب لأى سبب ، يصعب تحكمه فى أعصابه ، فإذا غدت صعوبة التحكم فى الأعصاب عادة ، أو صحب سرعة

« النرفزة » ميل إلى الإحساس باليأس والضيق ، وعدم الاهتمام بنواحي النشاط العادية لغير سبب ظاهر ، وجب الاشتباه فى أن الجهاز العصبي قد أجهد إلى ما بعد درجة الأمان .

ومن أعراض الإجهاد العصبي أيضاً ضعف القدرة على التفكير السليم ، والتذكر ، وتركيز الانتباه ، ويصحب هذه الحالة أحياناً عجز عن الاستقرار والبقاء فى مكان واحد لأية فترة من الوقت ، ولو كان الجو الذى يسود المكان هادئاً بهيجاً .

والصداع المستمر المتكرر عارض عضوى يدل أحياناً على الإجهاد العصبي ، وكذلك « وش » الأذنين واضطرابات الهضم المفاجئة . وقد تبدأ نوبة الانهيار العصبي بفقدان الثقة بالنفس ، وظهور أحاسيس مفزعة ، فتستولى الشكوك على المصاب ويخشى مقابلة الناس ، وتنتابه مخاوف لا أساس لها خاصة بعمله أو صحته ، فيشرع يقيس درجة حرارته عدة مرات فى اليوم ، أو يغسل يديه باستمرار لكى يتجنب عدوى الميكروبات ، أو يتأثر تأثراً بالغاً بالأصوات المفاجئة ، أو عند القرع على باب مسكنه ، أو عند سماع صوت إدارة محرك سيارة ، أو زحزحة مقعد ، أو صياح مرتفع ، ونحن جميعاً قد نتأثر نفس التأثير للأصوات المفاجئة ، ولكن ليس بصفة مستمرة .

هذه ليست جميع الأعراض التى تصحب جهازاً عصبيا مهدداً بالانهيار ، ولكنها أكثر الأعراض شيوعاً ، وعندما تبدأ فى الظهور ينبغى المبادرة باتخاذ الحيطة حتى لا تزداد الحالة سوءاً .

التحكم فى العواطف

لو عرف الناس أن « العصبية » لا تورث ، وأنها ليست فى الواقع سوى عادة سيئة يمكن الإقلاع عنها ، لقلت حالات الانهيار العصبي .

إن الأمراض العصبية يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم يشمل الأمراض التى ترجع إلى سبب عضوى يؤثر تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبى ،وقسم يضم أمراضاً يكون فيها الجهاز العصبى سليما ، ولكنه لا يؤدى وظائفه كما ينبغى .

وعندما تراجع تاريخ مصاب بمرض من أمراض القسم الأخير . تجد أنه اكتسب منذ مرحلة الطفولة المبكرة عادة الانسياق وراء عواطفه وأحاسيسه المرهفة ، فإذا لم تلب رغبة له ، تمرغ على الأرض وأخذ يضرب بيديه الهواء ويصيح ويصرخ حتى تجاب رغبته . أو يستسلم للحزن والبكاء فى صمت على انفراد .

وفى هذه المرحلة المبكرةمن العمر ،يكون من السهل -بطرق علمية - تدريب الطفل على التحكم فى عواطفه ، والحيلولة دون سيطرة شعوره على تفكيره وسلوكه ، ولكن الآباء والأمهات لا يقدرون أهمية البدء بتدريب الأطفال على التحكم فى عواطفهم وهم لا يزالون صغاراً .

إنهم قد يؤنبونهم ويعاقبونهم ولكنهم لا يدربونهم ، فتنمو معهم العادة حتى تصبح أصيلة فيهم ، وتصبح نفوسهم تربة خصبة لكثير من الأمراض النفسية والعصبية ، وتعرضهم أقل الصدمات العاطفية أو المتاعب العائلية أو الأزمات المالية للإصابة بالانهيار العصبى .

ولذلك كان التدريب المبكر على قوة الإرادة ، والاهتمام بالتحكم فى العواطف ،أسلم الطرق للوقاية من كثير من الأمراض العصبية الشائعة اليوم . على أنه إذا لم يتم هذا التدريب ، وكنت تشكو من اضطراب عصبى ، فإن إعادة تدريب الإرادة أمر ميسور .

يحدث أحيانا أن يشكو مريض من آلام متكررة فى الظهر ، تكون مرة فى الجزء الأسفل منه ومرة أخرى فى الجزء الأوسط ، وأحيانا

فى الجزء العلوى ، وقد تنتقل إلى أعلى الكتفين والذراعين . و بفحص المريض لا يظهر سبب عضوى لهذه الآلام ، والغالب فى هذه الحالة أن تكون الآلام نتيجة تركيز الذهن فى منطقة الظهر لسبب ما ، كأن تكون هناك علة عضوية فى وقت من الأوقات سببت ألم الظهر ، ولكنها عولجت بنجاح ، أو زالت من تلقاء نفسها ، ولكن المصاب تملكته عادة تركيز ذهنه فى الأجزاء التى آلمته ، فإذا به يعانى من الآلام حتى بعد زوال سببها العضوى . ولذلك يتحول تفكيره بحكم العادة — لأقل إحساس بالتعب أو الضيق — نحو ظهره . وتركيز التفكير قد يكون كافياً لأن يسبب الألم .

إن مثل هذا الشخص ينبغى أن يسعى إلى تحويل تفكيره إلى شىء آخر حالما يشعر ببوادر الألم ، كأن يلعب الورق ، أو يزور صديقاً ، أو يغادر البيت للنزهة ، أو يقرأ كتاباً ممتعاً ، وحين يتحول تفكيره من مصدر الألم يغلب أن يزول إحساسه بالألم .

والشىء نفسه يحدث إذا كنت تعانى الصداع العصبى . فالصداع يكون فى بعض الحالات وليد آلام تنتاب المرء « بحكم العادة » . فالمؤكد أن تركيز الذهن فى أى جزء من أجزاء الجسم يمكن أن يسبب ألماً فيه . وبدلا من تناول المسكنات فى هذه الحالة ، ينبغى أن تعالج الصداع بتحويل التفكير عن رأسك وتفادى الإجهاد العصبى الذى يؤدى إليه .

الإيحاء بالصحة

من الحقائق الثابتة أن كل فكرة ترسخ فى الذهن لها ، إلى حد ما ، أثرها الموجه على السلوك ، وبالتالى على الصحة . وإذا كان التفكير فى الألم يسبب الألم ، والإيحاء بالمرض يسبب المرض ، فإن الإيحاء بالصحة يمهد الطريق إلى الصحة . ومن هنا ، كان من أهم أسباب نجاح الطبيب فى عمله

إدراكه هذه الحقيقة ، واهتمامه إلى جانب تشخيص المرض ووصف العلاج المناسب بتبديد مخاوف المريض ، ومحاولته التهوين من آثار علته ، وبث روح التفاؤل فى نفسه ، وغالباً ما تكون نتيجة العلاج ناجحة بقدر تمكن الإيحاء بالصحة من نفسه . وفى وسعك أن توحى لنفسك — ولغيرك أيضاً — باستمرار بالصحة فتغدو صحيحاً معافى .

القلق وأولاده

القلق من أكثر الأشياء ضرراً على الصحة ، فهو يجعل النوم — فى الغالب — مستحيلا ؛ وبغير نوم يستحيل أن تكون صحيحاً ، إذ يسبب ذلك اضطراب وظائف أكثر أجهزة الجسم ، وبطء الدورة الدموية ، ويؤثر فى عمل القلب والكلى والكبد والمعدة ، فضلا عن أنه — فى أغلب الأحوال — من أقوى العوامل الكامنة وراء الاضطرابات العصبية والعقلية .

والقلق يمهد لكثير من العواطف الهدامة . فالغيرة ، والخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، ومعظم ألوان الضيق النفسى هى « أولاد » القلق ؛ وهى تنخر كالسوس فى الأجسام السليمة ، فتضعف مقاومتها وقوتها .

والقلق — بتأثيره الهدام على الجسم والذهن — من أقوى الدوافع على الرذيلة والجريمة ، فلولاه لضعف الإقبال على المكيفات والخمور والمخدرات ، ولولاه لقلت حوادث الانتحار ؛ فإذا كنت من ضحايا القلق ، فحاول أن تهرب من شباكه وأن تتفادى سمومه بأسرع ما تستطيع . قد تقول : « وما السبيل إلى الفرار ؟ لقد حاولت أن أتخلص منه ولكن دون جدوى وكلما رغبت فى الخلاص عذبنى القلق بسياطه . يبدو أن قوة إرادتى قد انهارت وذهبت إلى غير رجعة » .

والرد على هذا القول أن الإخفاق فى التغلب على القلق ليس — حتماً —

دليلا على انهيار قوة الإرادة ، وإنما يعنى إساءة استعمال قوة الإرادة؛ فبدلا من اعتزام « عدم التفكير » فيما يقلقك ، حول تفكيرك إلى شيء آخر ، فهذا أسهل بكثير ، وإتمامه يعنى التخلص من القلق .

لا تحاول أن تهزم القلق بطريق مباشر ، وإنما حاول أن تتغلب عليه عن طريق استبدال الأحاسيس المؤلمة الهدامة التى يفرضها عليك ، بأحاسيس أخرى بناءة تمتزج بالبشر والأمل والتفاؤل . سخر قوة إرادتك فى المبادرة بالاهتمام بأوجه نشاط سارة مفيدة . اقرأ كتباً مسلية توحى بالبهجة والثقة والإيمان . مارس هواية مفيدة . ضاعف اهتمامك بعملك . ابحث عن الأفكار السارة ، فكلما ملأت ذهنك بهذه الأفكار ضاق الحيز الذى يمكن أن تشغله الأفكار السوداء ، وبقدر نجاحك فى تثبيت الأفكار البناءة ، يهدأ أعصابك وتخف حدة غضبك ، ويزول القلق .

والقلق قد يكون نتيجة التشاؤم ، والميل إلى التفكير فى الجوانب المظلمة من الأشياء . وتوافر هذا الميل يوفر الظروف المهيئة لاعتلال الصحة ، إن كل يوم يمر لا يخلو من متاعب ومضايقات ، فإذا ظللنا نجتر هذه المتاعب ، اضطربت أعصابنا ، واضطربت تبعاً لذلك وظائف أجسامنا ، فإذا كنت من هذا الطراز ، فراجع قبل أن تذهب إلى الفراش أحداث اليوم ، وتخيل أنك تمسك بميزان . ضع فى إحدى الكفتين الأحداث التى ضايقتك ، وفى الكفة الأخرى الأحداث التى كانت فى صفك ، وسوف تجد ، إذا كنت أميناً مع نفسك ، أن الكفة الأخيرة ترجح الأولى كثيراً .

إن هذه العادة البسيطة تفيد كثيرين ممن يميلون إلى التشاؤم والأسى والشك والخوف ، وتجعلهم ينظرون إلى متاعب الحياة نظرة فلسفية ،

وبالقدر الذى به « يتفلسفون » سوف يلمسون تحسناً غير متوقع فى صحتهم ونشاطهم .

وإذا كان القلق يضعف الجسم ، فإن الجسم الضعيف يورث القلق لذلك ننصحك أن تتشبث بنشاطك وحيويتك ، فالرجل الضعيف فاتر النشاط ، يتأثر تأثراً بالغاً بالأحداث المسببة للقلق .

زد حيويتك تزد فرصك للاستجابة بتعقل للأحداث والمتاعب والكوارث المفاجئة . إن الرجل السليم ذا الطاقة الإيجابية ، لايجد وقتاً للقلق ، إنه يجد أشياء أخرى كثيرة تشغله ، إن القلق يصيب أصحاب الطاقات المحدودة البطيئة . فإذا أردت أن تهرب من القلق ، فاخرج إلى الهواء الطلق يومياً . واقض وقتاً خارج جدران المنزل أو المكتب بقدر ما تستطيع ، حاول أن تمشى ثلاثة أو أربعة كيلو مترات يومياً ، فالمشى رياضة سهلة تنشط الدورة الدموية ، ولا تهرب من الهواء الطلق وأنت داخل البيت ، فسوء التهوية من أهم العوامل المساعدة على القلق . خف من الهواء الفاسد . ولا تخف من الهواء النقى ، فالأول يسمم الجسم والثانى يطرد السموم . وكلما كان الهواء الذى تستنشقه نقياً تحسنت صحتك . وكلما تحسنت صحتك تحررت من داء القلق .

توأم القلق

إن الحياة الشاقة المجهدة ليست حتماً حياة عليلة ضارة ، ولكنها تكون ضارة حينما تقترن بالقلق أو بتوأم القلق « العجلة » . إنك إذا حللت العجلة تبينت أنها تتركب من نفس عناصر القلق . ومعظم الناس يتناسى هذه الحقيقة ، فهم إذ يصابون باضطرابات نفسية أو عصبية ينكرون أن للقلق يداً فى ذلك ، ولكنهم يعترفون فى أحاديثهم أنهم يجدون أنفسهم منساقين فى تيار الحياة الجارف بسرعة عجيبة . فإذا قلت لهم :

إن العجلة لون من القلق لا يصدقون ، فنى كل مرة يسرع المرء — عن إرادة أو غير إرادة — تسيطر على نفسه فكرة الخوف من التأخير ، وهذه الفكرة تنطوى على القلق .

والواقع أن العجلة قد تكون مجرد عادة — كما يقول معظم المتعجلين ولكنها لا يمكن أن تخلو من بعض عناصر الخوف والإجهاد العاطفى . فالمتعجل يقع دائما تحت نير إحساس — قد لا يدرك مصدره — بخوف ممتزج بالقلق ، وهو الإحساس الذى يكمن دائما وراء القلق والعجلة ، ويسبب اضطراب الجهاز العصبى وأجهزة الجسم عامة . .

لا تتعجل ، وسر فى طريق الحياة بخطى معقولة بغير إسراع وبغير تباطؤ ، فهذا من أهم السبل المؤدية للصحة ، وهو فى الوقت نفسه من أهم عوامل السلام النفسى والسعادة والنجاح .

هواة المتاعب

وهناك فئة من الناس ، آفتها الكبرى عدم الثقة بالحياة ، إنهم يتوقعون أن يسير كل شىء على غير مايشتهون. إنهم يعتقدون — سلفاً — أن كل يوم يمر سوف يواجههم بسلسلة متلاحقة من المتاعب . وعقيدتهم هذه تتحقق دوماً ، لا لأن « سوء الحظ » يحالفهم كما يتوهمون ، وإنما لأن هذا الشعور يسبب لهم اضطرابا نفسياً يؤثر على أجسادهم وأذهانهم ، فيضعف تفكيرهم ويضطرب ، فيسلكون سلوكاً يجلب لهم المتاعب التى يتوقعونها .

إنك إذا كنت متشائماً نفر منك الناس ، وعاق التشاؤم تقدمك فى عملك . ومهما كانت كفايتك ، فإن الرؤساء وأصحاب الأعمال يفضلون أن يتعاملوا مع المبتسمين والمتفائلين . وإذا كنت كفئاً حقاً ، فإن تشاؤمك سوف يحطم كفايتك تدريجياً ؛ لأن التشاؤم يسمم الجسم والذهن .

إن التشاؤم يكون أحياناً نتيجة صحة معتلة . ولكنه فى الغالب نتيجة تفكير خاطئ ، وعادات سيئة . فنحن كثيراً ما نسمح للأحداث التافهة أن تزعجنا ، وتضايقنا ، وتشل نشاطنا ، فإذا تأخر طعام الإفطار ، أو نسى بائع الصحف أن يترك الصحيفة ، أو إذا لم يقف سائق الأوتوبيس فى المحطة فى أثناء انتظارنا فى الصباح ، ضاقت صدورنا واسودت الدنيا فى أعيننا . وإذا فاتنا موعد ، أو سقطت ساعةلنا فتحطمت ، لم نستطع أن نتذوق للحياة متعة طول اليوم ، وعندئذ تضطرب أعصابنا ، وتختل وظائف أجسامنا .

ينبغي أن نتحكم فى هذه الأحاسيس ،فلا نسمح لأثرها بالبقاء فى نفوسنا أكثر من لحظات . وإذا لم يكن من الميسور عدم المبالاة بها إطلاقا ، فبدلا من أن نهيئ لها الفرصة كى تتحكم فينا وتغرس فى نفوسنا عادة التشاؤم ، ينبغى أن نستبدل بالأحزان التى تشوه بهجة الحياة المشاعر البهيجة التى تنعشنا وتبعث النشاط فى أجسامنا ، إن الحزن والتشاؤم ليسا علاجاً للمتاعب .. بل هما يضاعفانها .

نظرتك إلى العمل

وأنت تقضى فى عملك وقتاً غير قصير ، لذلك أحب أن ألفت نظرك إلى ضرورة الإقبال على العمل بنفس راضية منشرحة ، فتعتبر العمل أكبر نعمة فى الوجود . إن كثيرين يتمنون لو تيسرت لهم الأحوال ، أن يمتنعوا عن العمل ويعمدوا إلى الخمول والكسل . ولو تحققت أمنيتهم لتملكهم الندم ، فالامتناع عن العمل من عوامل اختلال الصحة نفسياً وجسدياً . إن عملك هو حياتك . فينبغي أن يكون من بواعث السرور

فى نفسك والنشاط فى جسدك : إذا عرفت كيف تكيف ظروفك وسلوكك لما يتطلبه هذا العمل .

التعب الزائف

ومن الخطأ أن ترغم نفسك على مواصلة العمل عندما تحس بالتعب . ولكن حذار من « التعب الزائف ». تمر ببعض مضطربى الأعصاب فترات يجهدون فيها أنفسهم وكان يمكن ألا يسبب لهم هذا الإجهاد ضرراً لو أنهم عمدوا إلى الراحة بعد الإجهاد . وقد يمضون بعد الإجهاد وقتاً لا يعملون فيه شيئاً ، ولكنهم فى هذه الفترة يجترون إحساسهم بالتعب وتبحث أفكارهم عما ينتظر أن يجلبه لهم التعب من علل وأمراض ، وتظل هذه الأحاسيس نشيطة فى أذهانهم توحى إليهم بالتعب من حين لآخر . فتبدو عليهم مظاهر التعب المعروفة لأقل مجهود يبذلونه برغم ما يتعاطونه من عقاقير مقوية ، وبرغم تأكيد الأطباء لهم بسلامة أجسامهم . وأفضل سبيل للتخلص من هذه الحالات هى تحرير الذهن من صور التعب الزائفة التى رسبت فى أعماق النفس ، بأن تحول اهتمامك إلى شىء آخر . لا تركز ذهنك فى حالتك الصحية . وحول أفكارك إلى شىء أو أشياء أخرى ، ولو إلى ممارسة هواية بسيطة كجمع طوابع البريد ، فكلما زاد اهتمامك بهذه الهواية تخلصت من نوبات « التعب الزائف » .

أسباب التعب

على أن التعب ليس « زائفاً » كله . وهو إنذار الطبيعة بقرب نفاد الطاقة العصبية أو الذهنية ، وضرورة الراحة لتعويض ما استنفد منها .

وثمة عوامل تعجل هذا الشعور عند الأصحاء . فإذا لم يتناول المرء طعاماً كافياً ، أو لم يحرص على تنويع الطعام لتوفير العناصر الغذائية الضرورية له ، فإنه يكون سريع التعب ، وقد تنتابه أحاسيس مستمرة من التعب ، وفي هذه الحالة لا يعوض التعب بساعات إضافية من النوم : لأن المرء في هذه الحالة يحتاج إلى الاهتمام بغذائه .

وإهمال تجديد الهواء سبب آخر لسرعة التعب . إن الآلة البشرية تحتاج إلى قدر كبير من الهواء النقي كي يحفظها متأهبة لبذل النشاط والجهد . فالحرص على فتح النوافذ ، والنزهة في الهواء الطلق . قد يكفيان للشعور بالراحة . وعدم نظافة الجلد سبب آخر لسرعة التعب ، وكذلك إجهاد العينين وتسوس الأسنان وعسر الهضم .

وكلما أحب المرء عمله ، استطاع أن يقضي فيه مدة أطول دون الشعور بالتعب . والواجب التوقف عن العمل عند بدء الشعور بالتعب الحقيقي .

وثمة تعب ذهني يزعج كثيرين ، وإن كان لا يختلف في منشئه عن التعب العادي . ومن أعراض هذا التعب ، ضعف الذاكرة ، وصعوبة تركيز الانتباه ، والعجز عن مواجهة مطالب الحياة ، ويغلب أن يكون القلق وراء هذا النوع من التعب . فالقلق يسبب سوء الهضم ، واضطراب الدورة الدموية ، وهذان يؤثران في تغذية المخ ، وبالتالي في قدرته على تأدية وظائفه ، ومعظم الذين يشتغلون بالأعمال الذهنية يهملون الرياضة ويهملون الخروج إلى الحدائق العامة ، بل إنهم يهملون تهوية مكاتبهم وغرفهم . ويشكو طلبة الجامعات وتلاميذ المراحل الدراسية المتقدمة من هذا اللون من التعب ، فالطالب الذي يستذكر دروسه في ظروف سيئة ، لا يمكن أن يكون ذهنه صافياً . وأغلب الطلبة يهملون الرياضة

والهواء النقى : فيركبهم القلق وتنتابهم المخاوف خشية الرسوب فى الامتحانات ، وهذه العوامل كثيراً ما تشل نشاطهم الذهنى .

وأهم علاج لهذه الحالة هو الراحة والاستجمام فضلا عن تنمية عادة التحكم فى العواطف ،حتى يمكن التغلب على أى اتجاه للقلق ، والعناية بالصحة عامة ، بالاهتمام بالعينين والأذنين والأنف والزور والأسنان ، والعناية بالتغذية ، والحرص على الرياضة ، وحسن التهوية وعامل آخر هام فى العلاج هو تعود إراحة خلايا المخ عن طريق «اللعب» .

اللعب والاستجمام

إذا أردت أن تحافظ على صحتك فتدرب على « اللعب » كما تتدرب على العمل . والذين يهملون اللعب ، ولا يؤمنون بفائدة الاستجمام ، مثل الذين يهملون العمل ولا يؤمنون بفائدته ، يعانون غالباً من ألوان الاضطرابات العصبية .

أعرف شاباً ناجحاً يعمل بإحدى المؤسسات الكبيرة ، قضى عشر سنوات فى عمله ، لم يقم خلالها بإجازته السنوية إلا لبضعة أيام متقطعة . وكان يقضى أيام الراحة الأسبوعية فى إنجاز الأعمال التى لم تتم خلال الأسبوع . كان عمله يستغرق كل وقته وتفكيره . ثم رأى بعد هذه السنوات الطويلة ، وهذا المجهود الشاق ، أن يقوم بإجازة طويلة ، وإذا هو يشعر بعد أيام من إجازته « بتنميل » فى ساقيه وذراعيه يعاوده من حين لآخر ، ويزحف أحياناً إلى وجهه ورقبته ، فاستولى عليه القلق خشية أن تكون هذه الأعراض بوادر شلل .

وقد دل فحص الشاب على خلوه من أى سبب عضوى للشكوى ، ومع ذلك لم تذهب عنه هذه الأعراض إلا بعد أن عاد إلى عمله ، ليجرفه

التيار من جديد . إن أمثال هذا الشاب كثيرون ، عملهم يستغرق كل تفكيرهم : فلا يعرفون الرياضة أو الترفيه ، ولا مزاج لهم فى فن أو موسيقى أو مسرح ، ولا تروقهم قراءة رواية أوكتاب يتناول شيئاً يخرج عن محيط عملهم . لذلك فإنهم حين يتوقفون عن العمل لا يجدون ما يشغل أذهانهم فينشغلون بأنفسهم . فتتراءى لهم ألوان منوعة من الأوهام والأعراض العصبية . وقد يظل العمل مسلاة لهؤلاء « وعلاجا » لهم ولكنهم سوف يعجزون عن العمل يوماً ، وهنا يهددهم « الفراغ » بما يصحبه من انهيار عصبى يحيل حياتهم جحيماً .

لا تقع فى هذا الخطأ ، ولا تدع عملك ينسيك مباهج الحياة البريئة التى هيأتها لكى تستمتع بها . تعلم رياضة تروقك . ومارس هواية مفيدة تحول ذهنك بعيداً عن عملك دون أن ترهقك . وكلما زاد الخلاف بين طبيعة العمل الذى تقوم به وهذه الهواية ، استراحت خلايا المخ فى أثناء ممارستها . هذه الهواية — إذا أحسنت اختيارها — لا تطرد التعب فحسب ، وإنما تزيد نشاطك الذهنى وتساعدك على أن تكون صحيح الجسم والنفس.

الخمول انتحار بطيء

إن الجسم الخامل أشبه بآلة معطلة ، والآلة إذا تركت بغير عمل تراكم عليها الصدأ وتآكلت شيئاً فشيئاً ، فى حين أنها لو استعملت بانتظام لعمرت وقتاً طويلا . إن « الكسل » يسبب فسادها وعطبها . والآلة البشرية كالآلة الميكانيكية خلقت للنشاط والعمل . إن جميع أجهزة الجسم الدقيقة المعقدة من عضلات وغدد وأعصاب ، ينبغى أن تعمل كى تظل سليمة أطول مدة ممكنة . وهى إذا لم تعمل تراكم عليها الصدأ فى صورة سموم تؤثر فى وظائف الجسم ، والشخص الخامل يتحدى

قوانين الطبيعة ، وهو يدفع ثمن هذا التحدى من أعصابه .

إن الأعصاب الضعيفة تصاحب العضلات الرخوة الضعيفة دائماً، وأحب أن ألفت هنا نظر القارئات — بوجه خاص — فبعضهن يهملن استعمال عضلاتهن ، فيبقين فى الفراش حتى ساعة متأخرة من الصباح ، ويقضين اليوم فى الزيارات وقراءة الصحف والروايات ويلقين عبء تنظيف البيت وإدارة شئونه على الخدم ، فتصاب أعضاؤهن الداخلية بالخمول ، ويضعف جهازهن العصبى ، وتنتابهن أعراض مرضية كثيرة لا يجدى فى علاجها سوى العمل والحركة والنشاط.

والكسل الذهنى ليس أقل ضرراً بالصحة من كسل العضلات ، فالعقل الخامل يغدو تربة خصبة للقلق والمخاوف وعدم القناعة والرضا ، وهذه بدورها تؤثر على أجهزة الجسم وخاصة الجهاز العصبى .

لا تخف من الأرق

والخوف من عواقب الأرق أشد ضرراً من الأرق نفسه ، وهذا الخوف يبدأ غالباً بعد بضع ليال من أرق مفاجئ ، ثم يغدو عاملا رئيسياً فى تحويل الأرق المؤقت إلى أرق مزمن . وعواقب الأرق التى يتصورها الكثيرون أغلبها وهم . فالأرق ليس ضاراً بالدرجة التى ترتسم فى أذهان الكثيرين ، ولو أمكن إقناع المصابين بالأرق بهذه الحقيقة لقل عددهم كثيراً .

وليس معنى هذا أننا نستطيع أن نعيش أصحاء بغير نوم ، ولكن الطبيعة لا تتركنا بدون نوم ، إنها تعمد إلى أن تضعنا فى « حالة وسط » بين النوم واليقظة ، فى أثناء فترات يقظتنا . وهذه اللحظات التى نغفو فيها ونصبح خلالها كأننا فى حلم ، تكفى لإنعاشنا وتعويض جانب غير قليل مما فاتنا من فوائد النوم . وهذا هو السر فى أن كثيرين ممن يزعمون

أنهم لم يناموا لبضع ليال يحتفظون أحياناً بصحة جيدة ومظهر طيب : ذهناً وجسماً .

وقد أجرت إحدى الهيئات العلمية تجربة على ثلاثة أشخاص . حرصت على أن يظلوا بغير نوم لمدة تسعين ساعة متواصلة ، وقد دلت التجربة على أنه بالرغم مما بدوا عليه من يقظة — ومن اعتقادهم هم أنهم لم يناموا فعلا — مروا بهذه « الحالة الوسط » عدة مرات . وعندما كانت توجه إليهم أسئلة خلال هذه اللحظات ، كانت إجابتهم تدل على أنهم كانوا يحلمون .

فإذا كنت تشكو من الأرق ، فأبعد عن ذهنك صور العواقب السيئة التي تتوهمها للأرق ، فهي لن تحدث لك قط . فالأرق لن يؤدي بك إلى الجنون كما تتوهم ، ولكن الخوف من الأرق هو الذي يسبب الانهيار العصبي الذي يمهد الطريق إلى عواقب جثمانية وذهنية وخيمة ، وإذ تتخلص من هذه الصور السوداء ، تكون قد خطوت خطوات واسعة نحو التخلص من الأرق نفسه .

والمصاب بالأرق يتخيل أحياناً أنه لا علاج لأرقه المزمن ، والواقع أن النوع الوحيد من الأرق الذي لا علاج له ، هو العجز عن النوم المصحوب بأمراض عضوية لم يجد لها الطب حتى الآن علاجاً ، فالآلام التي تصاحب هذه الأمراض القليلة النادرة قد تسبب الأرق ، وقد يحدث الأرق نتيجة لإثارتها للمخ . ولكن في تسع وتسعين حالة من مائة حالة ، يكون المصابون بالأرق سالمين من الأمراض العضوية . والمشكلة الكبرى عندهم أنهم بثوا في أنفسهم عن وعي أو عن غير وعي أنهم لن يناموا ولو أنهم استطاعوا أن يتغلبوا على هذه العقيدة : لاتضح لهم أنهم يستطيعون أن يناموا — كبقية الناس — نوماً عميقاً .

إن مشكلة النوم تتوقف إلى حد كبير على تنظيم ساعات المساء ، فمن الضرورى ألا تشغلها بأشياء تقلقك أو تثيرك . قم بلعبة هادئة أو اقرأ كتاباً مسلياً أو طالع مجلة مصورة ، أو تحدث حديثاً طريفاً مع صديق حتى يتهيأ لك الهدوء الذهنى الذى يمكن أن ينتقل بك إلى دنيا النوم .

وهناك أشياء « مادية » تساعد على النوم ، فمن تمنعهم أقدامهم الباردة عن النوم ينبغى أن يحرصوا على تدفئتها ، ومن يمنعهم الجوع من النوم يفيدهم تناول كوب من لبن دافئ قبل النوم مباشرة . ومن يصيبهم الأرق بعد الإجهاد الشديد . أو بعد يوم من الخمول ، ينبغى أن ينظموا أعمالهم خلال النهار .

ويشكو البعض من النوم المتقطع فهم يستيقظون مرات قبل موعد اليقظة . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب بعضها عضوى وبعضها ذهنى . إن البعض يذهبون إلى أسرتهم بمعدة فارغة تمشياً مع الفكرة القائلة بأن الأكل قبل النوم يسبب اضطراباً ، فإذا مازال تعب الجسم بعد ثلاث أو أربع ساعات من النوم ، وأصبح النوم أقل عمقاً ، بدأت إحساسات الجوع توقظ النائم . وهو أحياناً لا يفطن إلى حقيقتها . وفى هذه الحالات يفيد كوب من اللبن أو قليل من البسكويت — قبيل النوم مباشرة . أكثر من أى علاج آخر .

وأحياناً يكون النوم المتقطع نتيجة القلق — بسبب موعد اليقظة فى الصباح مثلا — فالذين يقيمون فى الضواحى وتضطرهم أعمالهم للحاق بقطار الصباح يغلب أن يصبح نومهم متقطعاً ، وسوء تهوية غرف النوم يحول أيضاً دون النوم الهادئ العميق . وكذلك أغطية السرير إذا كانت ملساء أكثر مما يجب أو خشنة أكثر مما يجب ، وأيضاً الإحساس بالبرد الشديد أو الحر الشديد .

ويستيقظ البعض أحياناً من النوم فجأة ، وهم يحسون كأن قلوبهم توشك أن تتوقف عن العمل . ومرجع هذا الإحساس فى الغالب امتلاء المعدة ، وخاصة إذا كان المرء نائماً على جنبه الأيسر . وكثرة الغازات فى المعدة قد تؤدى إلى الإحساس نفسه بسبب الضغط على الحجاب الحاجز ويحدث هذا عند المتقدمين فى السن ، فى الليالى التى يأوون فيها إلى مخادعهم وهم مجهدون ، وكذلك عند الشابات والشبان المصابين بالأنيميا عندما يبذلون جهداً أكبر من طاقتهم المعتادة خلال النهار ؛ ومالم تكن هناك علة فى القلب ، فإن هذا الإحساس لا يعنى شيئاً ، ولا ضرر منه إطلاقاً .

وبين العصبيين طائفتان يصابون بهذا الإحساس : طائفة النحاف الذين لا يأكلون القدر الكافى من الطعام ؛ وطائفة المنطوين على أنفسهم الذين لا يخرجون لاستنشاق القدر الكافى من الهواء الطلق فى أثناء النهار ، أما فى حالة الأطفال فيغلب أن يكون الاضطراب فى النوم نتيجة علة عضوية أو اضطراب نفسى يستلزم علاجاً .

الأحلام المزعجة

لقد كان ، ولايزال ، البعض يظن أن الأحلام المزعجة نتيجة مباشرة لعسر الهضم ، وأن الوسيلة الوحيدة لتفاديها هى الامتناع عن تناول الأطعمة العسرة الهضم ، ولكن التجارب دلت على أن كثيرين من متعودى هذه الأحلام يستمرون فى أحلامهم برغم احتياطاتهم الغذائية . كما لوحظ أن كثيرين من أصحاب المعدات الضعيفة لا يصابون بهذه الأحلام مهما كانت مغامراتهم فى التهام الطعام .

إن مرد هذه الحالات فى الغالب « نفسى » فكل امرئ مر بتجارب أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً ؛ وبمرور الوقت نسى العقل الواعي هذه

التجارب ، ولكنها رسبت فى العقل الباطن ، وظلت حية تؤثر فى حياة المرء وسلوكه بطرق مختلفة ، ومن هذه الطرق الأحلام . فالأحلام المزعجة دليل على أن المرء يخفى فى عقله الباطن أفكاراً وذكريات غير سارة ، وعندما يسترجع المرء هذه الذكريات ويحللها ويتعرف عليها تزول الأحلام المزعجة .

وقد يستيقظ المرء أحياناً وهو يحس بثقل فوق الصدر يعوق التنفس ويمنع تمدد الرئتين ، فيبذل محاولات عنيفة لكي يحرر أطرافه ولاسيما ذراعيه بقصد إزاحة الثقل الجاثم فوق صدره ، ولكن عضلة واحدة لا تتحرك فيلجأ إلى الأنين بصوت مرتفع ، إذا أسعفته قواه على ذلك ، ولكن يبدو أن كل محاولة يقوم بها تستنفد البقية الباقية من قوته ، فإذا ترك لحاله ، فإنه يظل على هذه الحال نحو دقيقة أو دقيقتين يستعيد بعدهما قوته .

وفى بعض الحالات يستمر هذا « العجز » الوقتى نحو عشر دقائق ، وبتكرار هذه الحالات ينزعج المرء كثيراً ، وهى دون شك حالات عصبية غير عادية ، ولكنها ليست ذات خطر ، فهى فى الواقع ليست سوى امتداد « لكابوس » أصيب به وهو نائم ، ولكن المصاب لا يتذكر الحلم المزعج ، لأن حالة العجز المفاجئة تنسيه الصور التى تراءت له خلال النوم ، لقد كان يحلم حلماً مزعجاً أراد أن يهرب منه باليقظة . ولكنه لم يستطع أن ينتقل مباشرة من حالة النوم إلى حالة اليقظة التامة فمر بحالة « نصف يقظة » من أعراضها هذا العجز المخيف .

ألوان من الصداع

يمكن تقسيم الصداع إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يكون عارضاً خفيفاً لحالة مرضية فى الجسم ، ويدخل فى نطاق هذا القسم الصداع

الناجم عن العيوب البصرية وأمراض الكليتين وضغط الدم وما إلى ذلك .

والقسم الثانى يكون نتيجة خروج على النظام الصحى ، مثل الإكثار من الطعام وإدمان المكيفات ، والنوم فى غرف سيئة التهوية وما إليها . ومن أكثر هذه الأسباب شيوعاً إجهاد العينين على الرغم من أن قليلين يدركون مدى الآثار السيئة لإجهاد العينين ، والسهولة التى يمكن أن تجهد بها العين فى ظروف المعيشة الحالية .

إن تكوين العين — منذ العهود الأولى عند ما كان الإنسان يعيش فى الكهوف ويتجول فى الغابات باحثاً عن صيد يقتات به — يهيئها أصلا للرؤية من بعيد ، ولكن مع تقدم المدنية — وخاصة بعد اختراع الطباعة وتطور الفنون الصناعية — قلت الحاجة للرؤية من بعيد ، وظلت هذه الحاجة تقل حتى أصبحت مهمة العين تكاد تكون مقصورة على رؤية الأشياء القريبة . ويبدو أنه لم يمر وقت كاف لكى تمر العين بالتطورات الضرورية للوظائف الجديدة التى استلزمتها مستحدثات العصر . ومن هنا ، فإن كثيرين يعانون آثار الإجهاد البصرى الذى يظهر غالباً فى صورة صداع متكرر من حين لآخر .

ولتفادى هذا النوع من الصداع يجب استعمال النظارات المناسبة ، كما ينبغى الاستعانة بظروف ضوئية تقلل الإجهاد . على أنه من الأهمية بمكان إعطاء العين فترات راحة متكررة . ولا حاجة لأن تكون هذه الفترات طويلة ، فإذا كان عملك يتطلب قراءة ، أو كتابة ، أو رسماً ، أو ما إلى ذلك ، لبضع ساعات كل يوم ، فإن تحويل نظرك نحو شيء بعيد لبضع ثوان من حين لآخر سوف يخفف جهد القراءة القريبة أو النظر القريب المستمر . ويفيدك أيضاً أن تغلق عينيك بضع ثوان ، وأن

تدع عضلات جسمك كلها تتراخى ، أو أن تترك مكانك وتتمشى قليلا فى المكتب أو تنظر من النافذة إلى بعيد .

وإذا كنت تستقل عربة أو قطاراً من بيتك إلى مكان عملك أو العكس فاجعل هذه الفترات أوقات راحة لعينيك ، واحذر القراءة فى أثناء السفر بقدر المستطاع . فالضوء يغلب ألا يكون مناسباً ، وتأرجح العربة أو القطار يزيد جهد العينين ، ولا تركز بصرك باستمرار فى الأشياء المختلفة التى تمر بها السيارة ، وينبغى أيضاً ألا تقرأ أو تكتب أو تقوم بأعمال دقيقة وعلى عينيك نظارات شمس ، فذلك كثيراً ما يسبب الصداع . وصداع الإجهاد العصبى قد يكون أيضاً نتيجة وضع خاطئ أثناء الجلوس للقراءة أو الكتابة .

أما النوع الثالث من الصداع ، فقد أشرنا إليه من قبل ، وهو صداع لا تسببه حالة عضوية بقدر ما يأتى من تركيز الاهتمام بالأحاسيس المختلفة فى الرأس ، والذين يشكون من هذا النوع من الصداع أكثر ممن يشكون من أى نوع آخر ، ولو أن هؤلاء ركزوا أذهانهم فى أى شىء آخر غير رؤوسهم لزال الصداع .

ولكن هذا لا يعنى أن معظم ألوان الصداع وهمية . إنها دائماً حقيقية ولكن كثيراً منها نفسى وعصبى أكثر مما هو عضوى ، وعلاجها كذلك ينبغى أن يعتمد على وسائل نفسية أكثر من اعتماده على العقاقير .

إن العقاقير المسكنة تزيل الصداع العصبى دائما ، ولكن الشفاء يكون نتيجة عقيدة المصاب فى جدوى هذه العقاقير ، فالفائدة التى يحصل عليها هى فى الغالب نتيجة « إيحاء » وهى نتيجة مؤقتة ، وحين يطرأ شىء يحول الاهتمام إلى الرأس مرة أخرى يبدأ الصداع من جديد .

فإذا كنت ممن يشكون من هذا اللون من الصداع ، فغير أسلوب تفكيرك ، تبرأ من الصداع المزمن المتكرر الذى حرت فى علاجه .

بيتك

إن توافر الشروط الصحية فى البيت أمر ضرورى . لاشك أنك توليه عناية خاصة . ولكن هذا ليس سوى عنصر ثانوى فى البيت . للذين يحبون أن يحافظوا على سلامة أعصابهم . إن أثر البيئة فى توجيه خلق الإنسان وسلوكه أمر لم يعد ينكره أحد . ولكن البيئة ليست الأشخاص الذين يحيطون بالمرء فحسب . وإنما هى الأشياء الصامتة التى لا تنبض بالحياة أيضاً ، فهى تؤثر فى أعصابه أثراً طيباً أو ضاراً .

وإن كنت تقضى وقتاً غير قصير فى بيتك ، فإن زوجتك وأولادك يقضون فيه معظم أوقاتهم ، ولذلك فإن « الجو » الذى يسود البيت من العوامل المهمة فى المحافظة على سلامة الأعصاب أو الإضرار بها أكثر من أى عامل خارجى فى أى مكان آخر . والواقع أن كل شىء فى البيت يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر فى أعصاب ساكنى البيت ، فطراز الأثاث ولونه وطريقة ترتيبه ، قد يكون له تأثير قوى على الأعصاب وأحياناً يكون تبديل الأثاث كافياً لاستعادة الصحة وهدوء الأعصاب لساكنى البيت . وغرفة الطعام قد تحفز على الأكل بشهوة ، وقد تنفر من الطعام وألوان ستائر النوافذ وسجاجيد الغرف قد تكون من بواعث المرح والنشاط والتفاؤل ، وقد توحى بالضيق وتبعث على انقباض النفس .

وازدحام الأثاث فى البيت يوحى لضعاف الأعصاب أحياناً بأن

البيت أشبه بالسجن ، والصور التى تعلق على الجدران قد توحى بطرد اليأس والخوف والتعب وإشاعة الإيمان والتفاؤل ، وهى أحياناً تشع إيحاءات بالقوة والنبل والمثل العليا .

وطبيعة أجسامنا تجعل كل مانراه أو نسمعه — حتى ونحن مشغولون بأشياء أخرى — ينتقل مباشرة إلى أذهاننا ، لكى يصبح جزءاً من تكويننا النفسى ، وكلما تكررت مرات انتقال هذه الأشياء إلى الذهن عظم أثرها وتعمق ، فإذا كانت هذه الأشياء توحى بالخير والجمال والقوة ، فإن تأثيرها على تكوين الخلق يكون طيباً ، أما إذا أوحت بالشر والقبح والضعف فإن أثرها يكون ضارًّا .

والآن وقد حدثتك عن كثير من الجوانب الحيوية لهدوء الأعصاب أرجو أن تكون قد اقتنعت بأهمية اعتناق فلسفة الهدوء والاعتدال فى حياتك ، وضرورة تغيير كثير من العادات التى تثير أعصابك . فليس هناك وسيلة لحفظ أجهزة جسمك الدقيقة سليمة حتى سن متقدمة إذا أطلقت العنان لعواطفك وغرائزك ، وتعذر عليك التحكم فى أعصابك .

الفصل الثالث

كن طبيب نفسك

لاشك أنك قرأت أو سمعت كثيراً عن خطورة قيامك بتطبيب نفسك ؛ ولكنك لم تقرأ كيف تقوم بهذه المهمة دون خطر . وعلى الرغم من التحذيرات الكثيرة من الإهمال فى استشارة الطبيب عند أول بادرة للمرض ، فإن جميع الأطباء يعلمون أن الإنسان العادى لا يمكن أن يعيش دون أن يصاب فى كل عام بعدد من نوبات البرد . أو الصداع أو سوء الهضم أو الإمساك . أو الإسهال وماشابهها . ويهدف الطبيب إلى أن يكون المرء حكيماً فى علاج هذه الحالات البسيطة ، وأن يكون على بينة من أثر إساءة استعمال الأدوية الشائعة لعلاجها ، وأن يعرف متى يكون فى حاجة فعلية لاستشارة الطبيب .

إن كثيرين وكثيرات يتصورون خطأ أن الإنسان الصحيح لا يمرض إطلاقاً ؛ فكثيراً ما يستولى القلق على الأمهات لأن أبناءهن أو بناتهن قد يصابون بنوبتين أو ثلاث نوبات من البرد خلال موسم الشتاء ؛ أو أنهم يصابون بالإمساك من حين لآخر ، أو أنهم أصيبوا بنزلة معوية فى إحدى المرات . ومثل هذه الأم تسىء فى الواقع لأولادها وبناتها أكثر مما تفيدهم ؛ فهى إذ تسعى لأن تحول بينهم وبين هذه التوعكات التى لابد منها ، تطلب المستحيل ، وتأبى أن تواجه الواقع وهى فى الغالب تغرس فى نفوس أولادها الاعتقاد الخاطئ — الذى يغلب أن يشب معهم — بأن صحتهم أقل من المستوى العادى .

وكنتيجة لسوء فهمهم معنى الصحة ؛ يعتقد البعض بأن تناول العقاقير بانتظام أمر طبيعى جداً . فأنت لاشك تعرف صديقاً أو أكثر يتناول

باستمرار جرعات للكبد وأخرى لسوء الهضم والصداع وما إليها ، دون أن يفطن إلى خطر المداومة على هذه العقاقير .

لقد رسخت فى أذهان معظم الأشخاص العاديين – مع مرور الوقت – فكرة عن تطورات صحتهم خلال العام . ولعلك اكتشفت فعلا ، أنك تصاب بنوبتين من البرد فى السنة ، وأنك عندما تجهد نفسك أكثر من المعتاد ، يغلب أن تصاب بنوبة خفيفة من الإسهال أو الصداع . والغالب أنك اكتشفت أيضاً دواء أصبحت تفضله لعلاج هذه النوبات فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بأس من استعماله حتى تزول النوبة . ومادام سبب العلة واضحاً ، ولا يقترن بأعراض غير عادية ، ولم تزد آلامك أو مضايقاتك فى أثناء النوبات ، وكذلك عدد مرات الإصابة بها ، فلا حاجة لأن تقلق بسببها .

ولكن إذا حدث تغيير مفاجئ فى نظام هذه التطورات ، كأن يصاب شخص لم يصب بصداع قط ، بآلام فى الرأس ثلاث مرات فى الأسبوع ، أو إذا تحول اتجاهه الطبيعى للإمساك إلى اتجاه للإسهال ، وجب أن يستشير الطبيب ، على الرغم من أن العلة قد تبدو خفيفة ، وعلى الرغم من أنها قد تستجيب للأدوية التى يشتريها من الصيدلية بغير « تذكرة دواء » . وإذا وجدت أنك أصبحت تعتمد أكثر فأكثر وبصفة مستمرة – على نوع معين من العقاقير ، وخاصة الأدوية المنومة أو الملينات فينبغى أن تناقش الأمر مع الطبيب .

وإذا سلمنا بأن صحة الشخص العادى عرضة للمد والجزر ، فإن هذا لا يعنى أن نسرع إلى الصيدلية كلما أحسسنا باضطراب فى الجسم . ينبغى أن ندرك أن هناك أشياء كثيرة طبيعية وجدت لكى تساعد الجسم على التغلب على الأمراض البسيطة ، وعلى المحافظة على الصحة أو تحسينها

وبين هذه الأشياء الراحة ، والرياضة ، والغذاء . والتدليك ، والتدفئة أو التبريد ، وما إليها .

فالراحة عامل جوهرى لمقاومة بعض نوبات المرض التى تتردد عليك وعلاجها. فإذا لم تكن الراحة ميسورة فلا أقل من تغيير « الروتين » الذى تتبعه فى عملك ، فهذا قد يكون أكثر فائدة من إضافة ساعات من النوم . والرياضة لها أثر يعادل أثر الراحة أحياناً ، وخاصة إذا تضمنت تغيير المناظر أو صحبة أشخاص جدد ، أو القيام بنشاط تحبه ، وحتى المشى أو اللعب مع أطفالك قد يحسن روحك المعنوية وينشط عضلاتك كما ينشط عمل كل عضو حيوى فى جسمك ، من القلب إلى الأمعاء والغدد .

والغذاء الصحى ، والاحتفاظ بوزن الجسم المناسب ، لهما أثرهما الطيب فى الصحة وعلاج بعض الحالات . خذ مثلا حالات الإمساك والإسهال . فالإمساك المزمن يمكن مقاومته بالإكثار من الفاكهة أو عصيرها ، والخضر الطازجة ، مع الإقلال من المواد النشوية مثل الأرز والمكرونة والحلوى الجيلاتينية واللحوم . والميل إلى الإسهال يقاوم بالإكثار من الأطعمة المرغوب فى الإقلال منها فى حالات الإمساك . وآلام العضلات نتيجة المجهود الشاق والإحساس بالتعب الشديد ، يزيلها ويخففها كثيراً التدفئة أو الاسترخاء فى حوض به ماء دافئ لمدة ربع ساعة. والتدليك أيضاً يفيد ، ما لم يكن بالمنطقة المتألمة التهاب أو احتقان أو انسلاخ أو احتمال كسر ، فهو علاج ومهدئ فى الوقت نفسه .

وبعض الوصفات « البلدية » يفيد فى الحالات المرضية البسيطة ، خذ مثلا الوصفة القديمة لعلاج احتقان الزور بالغرغرة بماء يحتوى على قليل من الملح (نحو ملعقة متوسطة فى كوب ماء) فقد دل الاختبار على أنها أكثر فائدة فى تخفيف التهابات الحلق من أى نوع من العقاقير

الشائعة المخصصة لهذا الغرض ، واستنشاق قليل من هذا المحلول الملحى ثم استخراجه مرة أخرى ، يفيد فى تخفيف احتقان الأنف .

وتستطيع الأم علاج بعض توعكات الأطفال بملاحظة الصلة بينها وبين الجو النفسى الذى يمهد إليها—فقد تضطرب معدة الطفل إثر زجره أو خدش شعوره ، ولن تنفع العقاقير فى هذه الحالات ، ولكن ينفعها معرفة الأسباب المؤدية إليها وتفاديها ، والشيء نفسه يحدث أحياناً مع الزوجات والأزواج .

وينبغى ألا تستعمل الأدوية التى تشترى بغير استشارة الطبيب إلا بعد أن تقرأ جيداً التعليمات المرفقة بها . وحاول أن تطبق هذه التعليمات بدقة ، فكل دواء يمكن أن يغدو خطراً إذا استعمل جزافاً أو بطريقة مخالفة للتعليمات . خذ مثلا قطرات الأنف ، فهى إذا استعملت بكثرة يمكن أن تجفف الغشاء المخاطى للأنف أو تسبب احتقاناً مؤقتاً فيه ، وقد تؤدى إلى التهاب الجيوب الأنفية . وقطرات الأنف الزيتية ينبغى استعمالها بحذر شديد وخاصة وقت النوم ، فإذا تعاطاها طفل صغير السن أو شيخ متقدم السن أو شخص منهوك القوى ، فقد يتسرب الزيت إلى الرئتين ، ولأنه لا يمكن امتصاصه ، فقد يسبب نوعاً مزمناً من الالتهاب الرئوى .

وأقراص التهابات الحلق يمكن أن تكون أيضاً ضارة إذا استعملت بكثرة . وعقاقير الكحة يحتوى بعضها على مواد تثير بعض المصابين بالحساسية ؛ ولذلك فإنه من المستحسن دائماً أن تسأل طبيبك عن أدوية الكحة التى تناسبك وتناسب أولادك . واستعمال الزيوت المعدنية « كالبارافين » كملين باستمرار يحرم الجسم فى الغالب من بعض الفيتامينات الضرورية له . وإذا أعطيت للأطفال بالقوة فإن قليلا من الزيت قد

يتسرب إلى الرئتين . والأسلم في حالة الملينات أن تستشير طبيبك عن النوع الذى تستعمله .

والأدوية القاتلة للميكروبات ينبغى ألا تستعمل إلا بإرشاد الطبيب. فهو وحده الذى يعرف مدى فائدتها ، ومقدار الجرعة الواجب استعمالها ، فإذا لم تؤخذ الجرعة المناسبة فإنها قد تكسب الميكروب مقاومة ضد الدواء . واستعمال هذه الأدوية يسبب أحياناً مضاعفات لا يستطيع مواجهتها بسرعة ونجاح سوى طبيب يدرك هذا الاحتمال .

أما العقاقير المنومة ، فإن بعضها يحتوى على مواد قد تسبب — إذا أخذت لمدة طويلة — نقصاً فى «كريات» الدم البيضاء . وبالتالى تضعف مقاومة الجسم وقدرته .

وثمة تحذير آخر ، أن خزانة أدويتك فى البيت تتطلب تنظيفاً تاماً كل ستة أشهر . فأكثر الأدوية — مثل أفلام التصوير — لا تصلح إلا لمدد معينة . وعندما تنتهى هذه المدة يجب أن تستبعد نهائياً . والأقراص التى يبدو عليها التفتت أو يتغير لونها يجب أن تستبعد ، وكذا السوائل إذا ظهر بها راسب أو تغير لونها .

الغذاء وأثره فى الصحة

بدأت هذا الفصل بكلمة عامة حاولت أن أضع فيها خطاً فاصلا بين مهمتك ومهمة الطبيب فى المحافظة على سلامتك . والواقع أن مهمة الطبيب — برغم دقتها وخطرها — ليست شيئاً بالنسبة لمهمتك أنت ، وخاصة فيما يتصل بجانب الوقاية من المرض وبتهيئة الجسم لمقاومته . والتغذية من أهم العوامل التى ينبغى أن تحرص على تنظيمها لتحقيق ما تنشده من صحة. وهى متشعبة النواحى ، يستوعب البحث فيها مجلدات ، لذلك سأتناول بإيجاز أهم الجوانب التى تعنيك فى هذه الناحية .

التغذية الجيدة

بدون تغذية جيدة ، يستحيل أن تستمتع بالصحة التي تنشدها أو تحس بالحيوية والنشاط ، كما يستحيل أن تتقي المرض أو تتخلص منه فسوء التغذية يؤذى الصحة بطرق كثيرة مختلفة . وأعني بسوء التغذية عدم الحرص على توازن العناصر الغذائية التي تتناولها . فالبدانة إحدى نتائج سوء التغذية ، فهي في الغالب دليل على الإكثار من الأطعمة النشوية والدهنية على حساب العناصر الأخرى الضرورية ، والنحافة الزائدة غالباً ما تكون نتيجة عدم تزويد الجسم بالوحدات الحرارية اللازمة له . وسوء التغذية كثيراً ما يؤدى إلى سرعة توتر الأعصاب ، وتشوش الفكر ، وصعوبة تركيز الذهن ، وسرعة التعب . وقد يؤدى إلى ضعف القدرة التناسلية ، وسرعة الإصابة بالأمراض المعدية .

وثمة أمراض معينة تكون نتيجة مباشرة لسوء التغذية وعدم احتوائها على النسب الضرورية من الفيتامينات . مثل بعض حالات التهابات الأعصاب ، والتهابات العين المتكررة ، وبعض الأمراض الجلدية ، ونزيف اللثة ، وأمراض الشرايين والقلب ، واضطرابات الأمعاء . وأحياناً يمهد سوء التغذية لمرض عقلي لا تصاحبه أعراض مرضية بالجسم .

وعلى الرغم مما تقرؤه في تحديد أنواع الفيتامينات التي يسبب نقصها الأمراض أو الأعراض التي سبق أن أشرنا إليها ، فإنه ينبغي أن تعلم أن التغذية مهمة معقدة ، وأنه لا يمكن أن يعزى مرض معين إلى نقص معين في التغذية . ومن هنا وجب أن يشمل العلاج الصورة بأكملها ، وأن يسد النقص في جميع جوانب التغذية .

أعراض سوء التغذية

إن الأعراض الأولى لسوء التغذية، تكون فى العادة أعراضاً عامة، ولا يمكن ملاحظتها أو تحديدها بوضوح، فسرعة التعب، والشعور بإنهاك القوى، وسرعة «النرفزة» والإصابة بنوبة مرضية بعد أخرى: كلها من أعراض سوء التغذية، وإن كانت هذه الأعراض قد تكون وليدة متاعب نفسية وعاطفية إذا لم تكن لأسباب عضوية.

ومن الحكمة دائماً — فى هذه الحالات — أن تراجع بدقة عادات الأكل عندك، وأن تبدأ نظاماً جديداً يوفر لك جميع العناصر الغذائية اللازمة، فإذا لم يصحب هذا النظام الجديد تحسن أو بعض تحسن: خلال شهر أو نحوه، فمن الخير أن تزور الطبيب لكي يفحصك.

والشخص البالغ الذى يقل وزنه باستمرار، أو الطفل الذى لا ينمو فى الطول أو يزيد فى الوزن بانتظام، قد يكون فى حاجة إلى زيادة نسبة البروتينات أو «السعرات» الحرارية فى غذائه. وعلى الرغم من أن الطفل الصحيح الجسم لا يكتسب كل شهر زيادة فى الوزن بصفة مستمرة، غير أن توقفه عن الزيادة فى الوزن خلال بضعة أشهر ينبغي أن يكون مدعاة للاهتمام.

إن احمرار اللسان المصحوب بفقدان الشهوة للطعام واضطرابات المعدة قد يدل على نقص «النياسين» أحد مركبات فيتامين «ب». والجلد الخشن أو ما يبدو فى مظهره مثل جلد الإوزة باستمرار، يمكن أن يعني نقصاً فى فيتامين «ا»، والإحساس بوخز فى الذراعين والساقين واليدين والقدمين أشبه بوخز الدبابيس والإبر — وخاصة إذا كانت هذه الأحاسيس فى جانبي الجسم فى وقت واحد — قد تدل على نقص فيتامين

«ب ١ » ، واحمرار الجلد وتشقق جانبي الفم يشيران إلى نقص فيتامين « ب ٢ » وهذه الحالة شائعة عند الأطفال فى مرحلة النمو . واللثة المتورمة التى تنزف لأقل ضغط تعنى نقص فيتامين « ج » واستعداد الكبار لسرعة تسلخ الجلد والجروح يدل على نقص فيتامين « ج » أو « ك » وتأخر المشى أو الإحساس بالألم عند المشى وتقلصات اليدين والقدمين عند الأطفال ، قد يشيران إلى نقص فى الكالسيوم وفيتامين « د » .

الأغذية الضرورية

يمكن تقسيم الأغذية الضرورية للجسم إلى فئات :

١ ـ اللحوم والدجاج والسمك والبيض ، ويضاف إليها الفول والبسلة المجففة .

٢ ـ اللبن والجبن .

٣ ـ الخضر ذات الأوراق الخضراء والبطاطس والخضر الأخرى .

٤ ـ الموالح وعصير الفواكه والطماطم .

٥ ـ الخبز .

٦ ـ الزبد والسمن والمواد الدهنية الأخرى .

وعلى هذا ينبغى أن نتناول من كل هذه الفئات بقدر ، على ألا نشعر أننا نتبع فى غذائنا برنامجاً يومياً لا يتغير ، فالمهم أن تستوثق أن عائلتك تحصل على ما يكفيها من الوحدات الحرارية « السعرات » وأن غذاءها يتضمن قدراً مناسباً من المواد البروتينية مثل اللحم أو الدجاج أو السمك أو البيض أو الجبن واللبن كل يوم .

على أنى لا أحب أن تشغل ذهنك بمهمة حساب العناصر الغذائية

التى تتناولها ، فهى مهمة معقدة تفقدك متعة الطعام ، كما أكرر ما سبق أن أكدته من ضرورة الاعتدال فى الأكل ، وتفادى التخمة التى تؤدى إلى عسر الهضم ، وبالتالى إلى سوء التغذية . كما أننى أعارض فكرة استبعاد اللحوم من الغذاء ما لم ير الطبيب ذلك فى بعض الحالات المرضية . فاللحوم من أهم مصادر البروتينات لبناء الخلايا وتعويض ما يبلى من أنسجة الجسم .

لقد ظل البعض يشكك فى فائدة اللحوم ويغالى فى بيان أضرارها حتى بضع سنوات مضت ، عندما أجريت عدة تجارب على لفيف من الإسكيمو الذين يعيشون فى أقصى الشمال . ولا يأكلون سوى اللحوم وبعض الفطريات التى تنمو هناك ، بعكس الإسكيمو الذين يعيشون فى الجنوب ، فإنهم يأكلون كميات كبيرة من المواد السكرية والدقيق والفاكهة المجففة . وقد دل فحص الفريقين ، على نطاق واسع ، أن حالات ارتفاع ضغط الدم بين أهل الشمال لا وجود لها إطلاقا ، فى حين أن ارتفاع ضغط الدم وما يتبعه من أمراض كان شائعاً بين أهل الجنوب بنسبة شيوعه فى البلاد المتمدينة ، ووجد أن مستوى الصحة عند الفريق الأول أعلى بكثير منه عند الفريق الثانى .

ومن الشواهد التى تتخذ للتدليل على أن الإنسان خلق لكى يجمع بين أكل اللحوم وأكل النباتات ، تكوين أسنانه . فالفم مزود بنوعين من الأسنان : القاطعة والطاحنة . فهل كانت الطبيعة تمدنا بهذين النوعين معاً ، لو أنها أرادتنا من أكلة اللحوم فقط ، أو من أكلة النباتات فقط ؟

التنويع فى الطعام

والتنويع فى الطعام أمر ضرورى . فعلى الرغم من أننا نعرف الآن

الكثير عن الفيتامينات ، ونعرف مصادرها ووظائفها بالتحديد ، فإنه لا يستبعد أن تكون هناك فيتامينات مفيدة يحتاج إليها الجسم ، ولكنها لم تكتشف بعد ، فلا تقصر طعامك على أنواع معينة ، أو على الأغذية التى تحبها ، فقد يكون فى الأغذية الأخرى من العناصر ما يحتاج إليها جسمك أنت بالذات ، وليس اشتهاء الشىء دائماً دليلا على حاجة الجسم إليه . خذ مثلا الأطفال ، إنهم مرات يقبلون على نوع معين من الطعام إقبالا كبيراً ، فيعوقهم ذلك عن تناول أنواع أخرى هم فى أشد الحاجة إليها. ومن هنا ينبغى منعهم من الإفراط فيه .

وأحياناً تسيطر على الطفل وعلى البالغين — فى بعض الحالات — شهوة مجنونة لتناول أشياء غير صحية كالجلود ، أو المشمع ، أو رؤوس عيدان الكبريت ، أو الملح ، وما إلى ذلك. وهذه حالات تستلزم المبادرة باستشارة الطبيب ، وقد تحتاج إلى علاج نفسى .

هذا إلى أن شهوة المرء للطعام عرضة للمد والجزر ، لأسباب متعددة لا دخل للمرض فيها ، فإذا شعرت بفقدان الشهوة للطعام يوماً أو بضعة أيام ، فلا تقلق ولا تدع نفسك بغير طعام لانعدام الشهوة ، بل ساعد نفسك بأغذية صحية سهلة الهضم .

الفيتامينات الصناعية

ويتساءل كثيرون : هل من الحكمة تعاطى فيتامينات إضافية من الصيدليات بصفة مستمرة تفادياً لما قد يكون فى التغذية من نقص ؟

الواقع أن الجسم إذا حصل على القدر المناسب له من الطعام المنوع المعد إعداداً جيداً فإنه لا يحتاج إلى فيتامينات إضافية ، مادام الجسم قادراً على استيعاب وتمثيل الأغذية التى يتناولها . ولكن البعض لا يستفيدون

من الأغذية التي يتناولونها الاستفادة المرجوة ، نتيجة لبعض أمراض الكبد ، أو البنكرياس ، أو القرح ، أو نوبات المغص والإسهال المزمنة وما إليها . وفي هذه الحالة يجب تعاطي فيتامينات إضافية ويستحسن أن تكون باستشارة الطبيب .

وعندما يتعذر عليك — لسبب مؤقت من الأسباب — أن تحصل على غذاء منوع كامل ، أو على أطعمة طازجة كافية ، كأن تكون في رحلة تستغرق وقتاً ، فإنه ينبغي أن تتعاطى فيتامينات إضافية ، ولكن بشرط ألا تتجاوز الكمية المحددة في النشرة المرفقة بها . وأحياناً يتسبب التعود على استعمال البارافين كملين في نقص فيتامين « ا » أو « ك » فهو يمتص هذه الفيتامينات ويحول دون استيعابها . فإذا كان استعماله ضرورياً يجب استعمال فيتامين إضافي يعوض ما يفقده الجسم منه .

إعداد الطعام

على أنني أحب أن أوجه لربة البيت كلمة موجزة تتصل بإعداد الطعام ، فمما لاشك فيه أن الطعام يمكن أن يفقد الكثير من قيمته الغذائية إذا أسيء إعداده . فلكي تضمن ربة البيت تفادي ذلك ينبغي أن تراعي مايلي :

١ — لا تتجاوزي كمية الطعام الضرورية للوجبة الواحدة — وخاصة اللحوم — فإن التسخين المتكرر يفسد بعض العناصر الغذائية والفيتامينات في اللحوم والخضر ، وخاصة فيتامين « ج » وفيتامين « ب » المركب .

٢ — لا تستعيني بدرجات حرارة أعلى مما ينبغي عند إعداد الطعام وخاصة اللحوم ، فالحرارة الزائدة تعني فقدان بعض الفيتامينات والعناصر المعدنية المهمة للجسم ، والأفضل أن تطيلي مدة الطهي مع استخدام

درجات من الحرارة المنخفضة .

٣ ـ استعملى أقل قدر ممكن من الماء فى الطهى . لأن الماء يذيب بعض العناصر المعدنية والفيتامينات . واستعملى السائل الناتج من الأطعمة المطهية كلما، كان ذلك ميسوراً . إن هذه السوائل تفقد كثيراً من عناصرها الغذائية عندما تختزن . وإذا استعملت الخضر المحفوظة ، فسخنيها فى الماء الذى تحتوى عليه العلبة .

٤ ـ احتفظى بالسلطة والفاكهة ـ عدا الموز ـ باردة ، واستعملى عصير الفاكهة بعد عصرها مباشرة أو بعد فتح العلب المحفوظة فيها مباشرة . مع مراعاة عدم استعمال عصارات من معادن يدخل فى تركيبها النحاس ، فهو يساعد على سرعة فساد بعض الفيتامينات ، وإذا كان لابد من حفظ العصير مدة طويلة ، فاحتفظى به بارداً فى وعاء مملوء إلى حافته ومغلق إغلاقاً جيداً ، فتعريض هذا الفيتامين للهواء يعجل بفساده .

وكلمة أخرى عن الغذاء فى أثناء الحمل والرضاعة . إذا كان غذاؤك قبل الحمل جيداً منوعاً ، واستمر على ذلك بعد الحمل دون أن يحدث ما يحول دون استفادة الجسم منه وتمثيله . كالغثيان أو القىء واضطرابات الهضم أو النزيف وما شابه ذلك فإنك لا تحتاجين إلى كميات إضافية من الكالسيوم والفيتامينات خلال الأشهر الستة الأولى من الحمل . فالسبب فى وصف الكالسيوم والحديد والفيتامينات فى الأشهر الأولى هو التعويض عن سوء التغذية السابق للحمل أو تعويض ما يفقده الجسم بسبب الغثيان أو القىء وغيرهما من المتاعب التى تقترن بالحمل عند بعض السيدات . أما خلال أشهر الحمل الثلاثة الأخيرة ، فإنك تحتاجين إلى وحدات حرارية وبروتينات وكلسيوم وفيتامينات أكثر مما تستهلكينه عادة .

والأم المرضع تحتاج دائماً إلى تناول غذاء كامل ، مضافاً إليه

وحدات حرارية معادلة الوحدات المستخلصة من لتر ونصف لتر من اللبن الذى ترضعه لوليدها . وهذه الوحدات الإضافية ينبغى أن تستخلص من أغذية غنية بالكالسيوم والبروتينات .

وأحب أن ألفت نظرك يا سيدتى إلى أن ضعف الشهوة للأكل لا يولد مع طفلك ، ولكنه يكتسب ؛ وغالباً ما يكون ذلك بسبب قلقك عليه ومبالغتك فى الاهتمام بأمر تغذيته . فعلى الرغم من اختلاف أمزجة الأطفال وطباعهم ؛ وعلى الرغم من أن عملية « التمثيل الغذائى » تختلف فى السرعة والانتظام من طفل لآخر ؛ فإنه ليس ثمة طفل صحيح الجسم منشرح الصدر لا يحب أن يأكل . فالشهوة المضطربة عند طفل لا يشكو علة عضوية تدل على اضطراب عاطفى أو نفسى . فلا تلجئى إلى التهديد أو التوسل ، ولا تظهرى لطفلك اهتماماً زائداً أو قلقاً بسبب غذائه . اتركيه يأكل ما يشتهيه من طعام ويمتنع عما لا يشتهيه فى حدود المعقول . وحاولى أن تكون أوقات الأكل على الأقل أوقاتاً مريحة .

ويغلب أن تظهر أعراض سوء التغذية عند الطفل فيما بين سن السابعة والعاشرة ؛ فهو يكون فى هذه السن أكثر اهتماماً باللعب ، فى حين تزداد سرعة نموه ؛ ولذلك فإنه يستحسن مساعدته ببعض الفيتامينات أو العقاقير المحتوية على الحديد .

والأنيميا من أعراض سوء التغذية ؛ وهى دليل على نقص فى عنصر الحديد اللازم للجسم ؛ أو نقص فى البروتينات أو نقص من الناحيتين ، ولكن الأنيميا التى تصاب بها النساء أحياناً ، هى فى الغالب نتيجة عجز الجسم عن تعويض ما يفقده من دم أثناء العادة الشهرية ، فالمرأة خلال سنواتها النشيطة تحتاج إلى حديد أكثر من حاجة الرجل إليه . ويمكن مواجهة هذه الحالة عادة بغذاء خاص غنى بالحديد والبروتينات وأحياناً يكون الحديد الإضافى ضرورياً .

البدانة

ويسوقنا الحديث عن التغذية إلى البدانة ، والشخص البدين فى عرف الطب هو من يزيد وزنه بنسبة ١٥٪ – أو أكثر – عن الوزن المناسب لعمره وطوله . والبدانة كما أشرنا تكون فى الغالب نتيجة عدم توازن عناصر التغذية فى الطعام والإفراط فى الأكل . ومحاولة التخلص منها أو تفاديها من ضرورات الصحة الجيدة ، فهى تمهد الطريق لكثير من الأمراض مثل السكر وارتفاع ضغط الدم وأمراض الشرايين وسرعة تكون حصيات الكلى والمرارة ، وهى غالباً ما تؤدى إلى التهاب المفاصل ، التى تنوء بحمل وزن الجسم وأرطال الدهن المكدسة فيه ، كما تزيد العبء على القلب والدورة الدموية .

وأنا لا أريد أن أحدثك عن حالات البدانة التى ترجع إلى اضطرابات فى الغدد ، فعلاج هذه الحالات – وهى لحسن الحظ قليلة جداً – من اختصاص الطبيب. ولكن يهمنى أن أنبهك إلى ما تسببه لنفسك، بإهمالك وإفراطك فى الطعام، وما يتبعهما من ترهل فى الجسم وتكور فى الكرش من متاعب صحية ونفسية .

إن البعض يعلل بدانته بأنها وراثية ، فمادام الوالدان بدينين ، أو أحدهما بديناً، فلا ذنب للأبناء إذا اكتنزت أجسامهم شحماً يكاد يشل حركتهم . ولكن الواقع أن التشابه بين أمثال هؤلاء وذويهم ، ليس فى تكوين الجسم الطبيعى ، وإنما فى عادات الأكل واختيار ألوان الطعام ففى أغلب البيوت تعد وجبات الطعام لكى تشبع رغبات الوالدين وترضى شهوتهم بغض النظر عن فائدتها أو أثرها على الصحة أو وزن الجسم ، والصغار يقتدون عادة بالكبار ، لذلك لم يكن عجباً أن يشبوا على التلهف

على الأطعمة الدسمة والحلوى وتعود الإفراط فى الطعام ، وأن تترهل أجسامهم مثل ذويهم - إن لم يزيدوا عليهم فى هذا المضمار .

ولو سلمنا جدلا بأن الوراثة تلعب دوراً فى البدانة — وهذا لم يثبت عمليًّا — فإن أمثال هؤلاء يستطيعون أن يتخلصوا من البدانة إذا شاءوا ، وأنا لا أحب أن تفكر فى التخلص من الزائد من وزنك إذا كانت هذه الزيادة تروح بين ثلاثة كيلوجرامات وخمسة كيلوجرامات ؛ فمثل هذه الزيادة تعتبر « احتياطيًّا » يمكن الالتجاء إليه عند الحاجة .

ولا أحب أن تلتزم حرفيًّا بالأرقام التى تتضمنها الجداول الموضوعة للأوزان المناسبة للأطوال فالوزن المثالى لشخص ما قد يكون وزناً غير مناسب لشخص آخر . وإن كان الشخصان من طول واحد وعمر واحد . فهيا كل الأجسام تختلف من شخص لآخر اختلافاً غير قليل ؛ فشخصان فى الثلاثين من العمر — طول كل منهما خمس أقدام وست بوصات — قد يكون بينهما فارق فى الوزن قدره خمسة كيلو جرامات . ومع ذلك فإن كلا منهما يكون وزنه مثاليًّا ، لأن محيط صدر أحدهما أربعون بوصة فى حين أن محيط صدر الآخر ثلاثون بوصة فقط ، وقد يكون الفارق فى الوزن حتميًّا لاختلاف فى عرض الكتفين . ومن هنا ، فإن ذوى الأحجام الصغيرة قد يعدون بدينين برغم أن أوزانهم لا تتجاوز الوزن العادى المدون بالجداول .

إن الوزن الصحيح الذى يناسبك ، هو الوزن الذى تعمل فيه أعضاء جسمك على خير وجه ، فلا تلهث لأقل مجهود ، ولا تعجز عن بذل مجهود إضافى إذا اضطرتك الظروف للعجلة ، وهو الوزن الذى يبدو فيه مظهرك وسيماً متناسقاً .

فإذا كنت تحس على ضوء هذا التعريف أنك بدين ، وجب أن

تفكر فى التخلص من زيادة الوزن لا عن طريق الصوم عن الطعام أو الرياضة العنيفة المجهدة . أو العقاقير التى تعرض فى الأسواق ، فهذه فى الواقع أخطر على صحتك من الشحم نفسه . صحيح أنك ستفقد عن طريقها جانباً من وزنك ولكن الإنسان يمكن أن يفقد جانباً كبيراً من وزنه عن طريق الإصابة بالتيفود أو الالتهاب الرئوى أو غيرهما من الأمراض الخطرة الأخرى .

إذا كنت تريد أن تقلل من وزنك ، فإن مجرد الرغبة لا تكفى ، ينبغى أن تعمل وتجاهد لتحقيق هذا الهدف . ولابد من الوقت والصبر والمثابرة . لقد استغرق تراكم الشحم فى جسمك وقتاً غير قصير ، ولذلك فإنه من المستحسن– بل من الضرورى لصحتك – أن يستغرق التخلص منه وقتاً . فمن الخير لمن يريد نقص وزنه ٢٤ كيلو جراماً – مثلا – أن يفقد كيلوجراماً واحداً كل أسبوعين لمدة عام ، من أن يفقد القدر كله فى ستة أشهر .

ومما لا شك فيه أن البعض يستطيعون أن يتخلصوا من الزائد من أوزانهم بسرعة وسهولة أكثر من الآخرين ، كما أن البعض يستطيعون زيادة وزنهم بسرعة أكبر من غيرهم ، والبعض يستطيعون أن يقوموا بألوان عنيفة من الرياضة دون أن تتأثر صحتهم ، ويستطيعون أن يقللوا من الطعام دون أن يتأثر نشاطهم . فلا تدع المقارنات تثبط همتك . وثق أنك تستطيع أن تتخلص من بدانتك مهما استغرق ذلك من وقت أطول مما يستغرقه غيرك ، بشرط ألا تيأس ، أو تستسلم فى أول الطريق أو منتصفه ، أو أن تتصور أنك تستطيع فى بضعة أيام أن تمحو كتلا من الشحم تكدست فى أشهر أو فى سنوات .

وإذا شئت أن تتبع نظاماً صحياً للتخلص من البدانة وجب أن تمزج

بين النظام الغذائى « الرجيم » والرياضة فى آن واحد . ولكى نوضح ذلك علمياً . نقول : إن الطعام وقود نحرقه فى « أفران » أجسامنا ، والنشاط الجثمانى هو النيران التى نحرقه بها . فإذا لم يكن هناك توازن بين الاثنين ، أى إذا لم تكن النيران كافية لحرق الوقود كله ، اكتنز المتبقى منه فى الجسم على هيئة شحم . فإذا أكلنا مثلا من الأطعمة ما يمد الجسم بثلاثة آلاف وحدة حرارية كل يوم ، وحرقنا منها ألفى وحدة حرارية فقط فى نشاطنا الجثمانى والذهنى ، فإن المتبقى يختزن فى الجسم على هيئة شحم .

ومن جهة أخرى ، إذا حرصنا على الإقلال من الطعام بحيث نتناول ما يمدنا بألفى وحدة فقط ، وزدنا النشاط الجثمانى بحيث يمكن أن يحرق ثلاثة آلاف وحدة ، اضطررنا إلى استهلاك ألف وحدة يومياً من الشحم المختزن بالجسم . وفى الوقت نفسه سيحفظ النشاط الجثمانى والرياضة عضلات الجسم قوية نشيطة . وبذلك نتفادى الضعف والهزال الذى يصحب التخلص من البدانة عن طريق « الرجيم » وحده .

ولكن أى أنواع الرياضة نمارس ؟ إن المشى يفيد جداً ، وإذا شئت فالعب التنس ، أو كرة السلة ، أو أى نوع من الرياضة المريحة التى تستهويك ، فعندما يقترن النشاط الرياضى بالمتعة والحماس ، تكون النتائج أسرع ولمدد أطول . أما التمارين الرياضية التى تملى عليك إملاء فإنها تغدو مع مرور الوقت روتينية بغيضة ، فإذا لم تكن لك قوة إرادة فائقة فإنه يغلب أن تكف عن ممارستها .

والنظام الغذائى مشكلة أخرى . ولذا ينبغى أن نتفادى « الرجيم » الذى يستبعد بعض العناصر الغذائية المهمة للجسم . فسواء أكان وزننا فوق المعتاد أم أقل من المعتاد ، فإن أجسامنا تحتاج إلى كمية معينة من الطعام لكى تؤدى وظائفها الطبيعية ، وهذه الكمية ينبغى أن تحتوى

على مقادير معينةمن جميع العناصر الغذائية . فإذا كانت الكربوهايدرات (المواد النشوية والسكرية) تمد الجسم بوحدات حرارية أكثر من الأطعمة الأخرى ، فإنه لا ينبغى أن تستبعد كلية من الطعام بأية حال ، هذا إلى أن قصر الطعام على أنواع معينة يقتل الشهوة تدريجياً ، وينفر المرء من تناول هذه الأنواع ، بحيث يجد المرء نفسه بعد مدة مندفعاً إلى تناول أى طعام آخر .

احرص على أن تقلل من تناول المواد الكربوهايدراتية ، وعوض ذلك بالخضر الطازجة وخاصة ذات الأوراق الخضراء والفاكهة الطازجة واللحوم الحمراء . ولاحظ أنك مهما أقللت من الطعام ، ينبغى أن تبذل نشاطاً يكفى لاستنفاد الوحدات الحرارية التى أمدك بها الطعام الذى تناولته ، وإلا تحول الباقى منها إلى شحم .

وعلى البدين أن يمتنع عن شرب الخمر ، فهى فضلا عن ضررها بالصحة بوجه عام ، تتأكسد بسرعة كبيرة داخل الجسم ، وبذلك تحول دون إذابة الشحم المترسب فى الجسم .

وللنوم علاقة كبيرة بزيادة الوزن ، فى ساعات الراحة والنوم نستنفد القليل من الطاقة الحرارية . وعلى الرغم من أن النوم ضرورى للصحة ، فإن كثيرين يقضون فى النوم ساعات أكثر مما ينبغى ، فإذا كنت متعوداً أن تكتفى بسبع أو ثمانى ساعات ، ثم بدأت تنام من ١٠—١٢ ساعة ، كان لابد لك من أن تزيد نشاطك بالنسبة نفسها خلال ساعات اليقظة ، وإلا زاد وزنك وترهل جسمك . ومن هنا ينبغى أن تحاول اليقظة قبل الموعد الذى تعودته بنصف ساعة أو ساعة ، وسوف تحس بأنك أكثر نشاطاً واستعداداً لمواجهة أعباء اليوم .

ويلجأ البعض للحمامات التركية كوسيلة للتخلص من البدانة ،

بما تستنفده من الماء الزائد بالجسم الذى يخرج عرقاً يتصبب ، ولكن النتيجة فى الغالب مؤقتة : إذ سرعان ما يعمل الجسم على تعويض المفقود منه .

والفكرة الشائعة من أن الامتناع عن شرب الماء يساعد على التخلص من البدانة ، فكرة لا أساس لها . فنحن سواء كنا بدينين أو كنا نشكو من النحافة ، ينبغى أن نشرب كفايتنا من الماء وإلا عرضنا أنفسنا لكثير من الاضطرابات الجثمانية ، والتدليك أيضاً لا يفيد الفائدة المرجوة ، إن له فوائد كثيرة فى بعض الحالات المرضية ، ولكن الاعتماد عليه كبديل للرياضة عند محاولة التخلص من البدانة . اعتماد خاطئ .

كيف تقاوم النحافة ؟

إذا كنت تشكو من النحافة الزائدة ، فأنت أحد ثلاثة :

١ ـ قد تكون من أسرة عرف معظم أفرادها بالنحافة الزائدة ، أى قد تكون النحافة وراثية فى العائلة . وفى هذه الحالة ، لا فائدة من محاولة التخلص منها . فإذا كنت نحيفاً ، ولم تستطع أن تزيد وزنك بمختلف الطرق سنة بعد أخرى ، وكنت سليما لا تشكو مرضاً ، فنحافتك نحافة طبيعية لا تقلق بسببها .

٢ ـ قد تكون نحافتك بسبب اعتلال صحتك ، أو اضطراب أساسى فى إحدى وظائف جسمك ، فإذا كان وزنك أقل من المعتاد ، وظل ينقص خلال بضعة أشهر متوالية ، فالراجح أن يكون السبب راجعاً إلى اضطراب وظائفى أو إلى بؤرة فى مكان ما بجسمك . وفى هذه الحالة أيضاً لا تضطرب ، لأن الاضطراب لن يؤدى إلا إلى نقص إضافى فى وزنك ، وعليك فى هذه الحالة أن تستشير طبيبك الباطنى ، وطبيب

أسنانك . فهما اللذان يستطيعان أن يحددا ما إذا كانت النحافة ناتجة عن تلف الأسنان أو « اللوزتين » أو بسبب نشاط ضار لغددك الدرقية أو النخامية أو لأية بؤرة أخرى تفرغ سموماً فى جسمك . فإذا عرف السبب وعولج ، فإنه فى تسع حالات من عشر حالات سوف يأخذ وزنك يزداد على الفور .

٣ ـ قد تكون حالتك ـ كما هى الحال مع معظم الذين يشكون من النحافة ـ نتيجة إهمال التغذية والصحة عامة ، فإذا قرر طبيبك أنك سليم من المرض ، وكانت أسنانك سليمة ، ولم تكن نحافتك وراثية ، فنى وسعك أن تزيد وزنك إذا اتبعت نظاماً صحياً ، من حيث الغذاء والرياضة والاستجمام والنوم ، يتلخص فيما يلى :

١ ـ أكثر من الأطعمة الدهنية والنشويات مع عدم الإخلال بتوازن العناصر الغذائية فى طعامك . وتناول اللحوم « المدهنة » والزبدة والجبنة والبندق والجوز ، والشيكولاتة والبطاطس والفول السودانى ، والكريمة والسكر .

٢ ـ حاول أن تكثر من أكل الموز أو تشرب اللبن بين وجبات الطعام .

٣ ـ زيت السمك علاج للنحافة قديم ، ولكنه مفيد إذا تناولته باستمرار أو على الأقل فى موسم الشتاء .

٤ ـ إذا كانت شهوتك للطعام عادية ، فلا ترغم نفسك على الإكثار ، فهذا لن يزيد وزنك ، ولكنه فى الغالب لن يسبب لك إلا سوء الهضم .

٥ ـ حاول أن تقلل من التدخين وشرب الشاى ، فالإكثار منهما يضعف الشهوة للطعام .

فإذا أردت أن تتخلص من النحافة ـ وكنت سليما لا تشكو مرضاً ـ فتأكد أن شهوتك بخير ، وكل باعتدال مراعياً زيادة نسبة المواد الدهنية

أو النشوية في غذائك .

والرياضة المعتدلة عنصر هام في مقاومة النحافة ، وخاصة الرياضة التي تقوى عضلات البطن .

ولعل من أصعب المهام ، أن تقنع شخصاً مفرطاً في النحافة – رجلا كان أو امرأة –أن يأخذ قسطاً كافياً من الراحة ، أو يأخذ الأمور ببساطة أو يكف عن القلق ويعمد إلى الاسترخاء ، فالشخص النحيف يغلب أن يكون متوتر الأعصاب ، لا يستطيع أن يبقى في مكانه ساكناً . فهو يجرى – أو يكاد يجرى– كلما هم بالمشى.وهو يحتفظ بعضلاته في أغلب الأوقات متوترة ، وكأنه يتوقع أن يجرى إلى مكان ما في أية لحظة ، ويلتهم الطعام بسرعة حتى لا « يضيع » وقتاً نفيساً يمكن أن ينفق في شيء آخر . وهو دائم القلق : يخشى دائماً ألا تسير الأمور على ما يرام . إن مشكلة مثل هذا الشخص ، مشكلة نفسية بحتة . وإلى أن يسلك مسلكاً مخالفاً ، ويتعلم كيف يستجم وكيف يهدأ ، فإنه سوف يتعذر عليه أن يزيد وزنه .

والنوم ضرورة للذين يشكون من النحافة . ينبغى أن يناموا ثمانى ساعات على الأقل ، وينبغى أيضاً أن يشربوا الماء بوفرة ، إن كثيراً من النحاف والنحيفات تبدو أجسامهم وكأنها قد جفت ولم يعد بها أثر من الماء . والدم وأنسجة الجسم جميعاً إذ تحرم من الكمية المعتادة من الماء تؤخر أو تعطل وظائف الجسم . فشرب لترين أو ثلاثة لترات من الماء كل يوم يساعدك على زيادة وزنك .

وعليك بعدهذا أن تستنشق الهواء النقى وأن تتعرض لأشعة الشمس الهادئة بقدر ما تستطيع ، وإذا كنت تعانى من إمساك مزمن فبادر بمحاولة تصحيح هذا الوضع ، فمادام جهازك الهضمى يحتفظ بفضلات

فى داخله . فأنت تحتفظ بسموم فى جسمك تضعف الفائدة المرجوة من أية تغذية تحصل عليها .

نظم حياتك : نم ، واعمل ، والعب ، وكل فى فترات منظمة بقدر المستطاع ، ولا تغير برنامجك من يوم لآخر . كن صبوراً ، وتذكر أن إضافتك شيئاً إلى وزنك أصعب من أن تقلل منه ، لذلك لا تتوقع المعجزات . فخلال الأسبوع الأول أو الأسبوعين الأولين من محاولة زيادة وزنك وإعادة بناء جسمك ، يغلب ألا تضيف إليه أوقية واحدة . بل إنك قد تفقد كيلو أو أكثر . ولكن رقم الميزان سوف يكون فى جانبك بعد ذلك ، إذا داومت على تنفيذ برنامجك بدقة وانتظام .

أثر المكيفات

الشاى ، والقهوة ، والتدخين ، ما أثرها على الصحة ؟

إن بعض المتزمتين يصورونها سموماً تضعف الصحة وتسمم الجسم ، أما الآخرون فيصورونها مفيدة للصحة وضرورية للاستمتاع بمباهج الحياة ، والحقيقة تقع فى مكان متوسط بين هذين الرأيين .

القهوة والشاى والكاكاو

يمكن معالجة موضوعي القهوة والشاى معاً ، فالعنصر الفعال فى كليهما هو « الكافيين » ، ومع أن أوراق الشاى تحتوى على أكثر من ضعف نسبة الكافيين الموجودة فى حبات البن ، فإن الفنجان العادى من كل من المشروبين يحتوى على حبة ونصف حبة من الكافيين ، وهى الجرعة التى توصف عادة عندما يشار باستعمال الكافيين لأغراض طبية .

أما الكاكاو ، فإنه يحتوى على مادة اسمها العلمى « ثيوبرومين» تشبه الكافيين فى تركيبها الكيمائى ، وآثارها الفسيولوجية ، غير أنها أقل منهما إثارة للمخ . والقيمة الغذائية للكاكاو ، بغير لبن أو سكر ، تافهة لا يعتد بها .

وقد درست آثار الكميات المختلفة من الكافيين على الجسم دراسة شاملة دقيقة . والثابت الآن أن جرعة الكافيين فى فنجانين من القهوة أو الشاى تزيد فى العادة سرعة ضربات القلب ، وسرعة التنفس وعمقه ، وتوليد الجسم للحرارة بما يتراوح بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ وأثرها على الهضم ليس محدداً ، فهى تسبب للبعض بطء الهضم وللبعض الآخر سرعة الهضم ، ولا تؤثر على عملية الهضم إطلاقاً عند الآخرين . ولكن من آثار الكافيين المشتركة عند الجميع زيادة إفراز البول ، وإن لم يعرف بعد أتسبب إثارة الكليتين المستمرة بواسطة الكافيين ضرراً لهما أم لا ؟

والكافيين عند البعض ينشط الجهاز العصبى نشاطاً ملموساً . فيزيد القدرة على التفكير والعمل الجسمى والذهنى ، ولكنه يسبب للبعض الأرق والعصبية وأحيانا الصداع ، ولو كان بنسبة معتدلة .

وهذا الاختلاف فى أثر الكافيين المباشر يلقى ضوءاً على السر فى الاختلاف الكبير فى الآراء العلمية عن فائدة أو ضرر القهوة والشاى . على أن الراجح أن شرب الشاى والقهوة بمقادير معتدلة ، ليس ضاراً بالصحة ، هذا باستثناء الذين لهم حساسية للكافيين ، أو المصابين بأمراض عصبية ، وبعض أمراض أخرى معينة ، فإنهم ينبغى أن يمتنعوا عن شربهما ، أما الإفراط فى شربهما فهو ضار بغير شك .

هل تمتنع عن التدخين . . ؟

يحتوى التبغ على مادة تعرف بالنيكوتين ، هى مركب زيتى لا لون له ، وهى فى حالة التركيز تعدّ من أقوى السموم المعروفة ، فنقطة مركزة واحدة منه توضع على لسان خنزير ، أو فوق جلد أرنب فى موضع أزيل منه الشعر تكفى لأن تقتلهما . وإذا حقن شخص فى وريده ، بمقدار أقل من جزء من خمسين جزءاً من النقطة ، فإنه يسبب له نقصاً فى سرعة ضربات القلب ، وارتفاعاً فى ضغط الدم ، وانخفاضاً فى درجة حرارة الجلد .

ومقدار النيكوتين الذى يمتصه الجسم من التبغ يختلف باختلاف نوعه وطريقة استعماله . فإذا سحق التبغ واستعمل سعوطاً ، فإن نسبة النيكوتين التى يمتصها الجسم تكون أعلى من نسبتها عند المضغ ، والمضغ بدوره يسبب امتصاصاً أكبر من التدخين ، وتدخين الغليون « البيب » يسبب امتصاصاً أكبر من تدخين السيجار ، والسيجار أكبر من السيجارة . وفى حالة الدخان الرطب يكون الامتصاص أكبر منه وهو جاف .

والتدخين يسبب أحياناً الصداع ، والدوخة والأرق ، وسرعة استثارة الأعصاب وقد تتأثر بسبب الإفراط فيه قوة الإبصار ، وأحياناً يؤثر فى عمل القلب والجهاز التنفسى فيسبب ألماً فى منطقة القلب وعدم انتظام فى ضرباته ، بل إنه قد يكون من العوامل المساعدة على « فشل القلب » ويعتقد البعض أن هناك رابطة بين التدخين والذبحة الصدرية وارتفاع ضغط الدم . وأحياناً يسبب الإفراط فى التدخين ـ لما يحتويه التبغ من مواد تثير الأغشية المبطنة للجهاز التنفسى ـ « كحة » مزمنة أو التهاباً

مزمناً فى الأنف والحلق .

وقد ثبت علمياً أن تدخين السيدة الحامل : يزيد سرعة النبض عند الجنين . وقد وجد أن أربع أوقيات من لبن أمهات يدخن ما بين ست لفافات وثمانى لفافات فى اليوم تحتوى على نيكوتين يكفى لقتل ضفدع .

بعد أن عرفت هذه الحقائق : هل ينبغى أن تمتنع عن التدخين إذا كنت من المدخنين ؟ برغم الدراسات الكثيرة لآثار التبغ على الإنسان والحيوان وعلاقته بسرطان الرئة فإننا لا نستطيع أن نعطى جواباً قاطعاً عن النتائج الحقيقية للتدخين المعتدل على الصحة ، ونعنى بالمعتدل أربع أو خمس سجائر فى اليوم : فمما لاشك فيه أن تأثر الإنسان بالتبغ يختلف اختلافاً كبيراً من شخص لآخر . وهناك أمثلة لحالات اضطربت فيها ضربات القلب واستمر الاضطراب بضعة أيام وأحياناً بضعة أسابيع بسبب التدخين المعتدل ، أما الإفراط فى التدخين ، فهو ضار بغير شك .

فإذا رأيت بعد الموازنة بين « المتعة » المؤقتة التى تحصل عليها من التدخين وبين النفقات ، واحتمال تعريض صحتك للضرر ، أن تستمر فى التدخين ، فإنى أنصح بما يلى :

- لاتدخن أكثر من خمس سجائر فى اليوم .
- لا تستنشق أو تطرد الدخان من الأنف .
- ليكن تدخينك بعد الأكل مباشرة .
- توقف عن التدخين لمدة شهر أو أكثر كل عام .
- دع الطبيب يفحصك من حين لآخر .

المشروبات الكحولية

أما المشروبات الكحولية ، فهى تسمم جسمك . فالمقادير الكثيرة

منها تشل مركزاً عصبياً بعد آخر ، حتى تؤدى إلى فقدان الوعى . والكميات المتوسطة منها تؤثر فى قوة التفكير والقدرة على التركيز والذاكرة والحكم على الأشياء .

ومن آثارها الفسيولوجية تمدد الأوعية الدموية التى ينشأ عنها احمرار الجلد والإحساس بالدفء ، وهذا يصحبه عادة هبوط قليل فى ضغط الدم ، وزيادة فى سرعة ضربات القلب .

وقد لوحظ أن الالتهابات الرئوية تشيع بوجه خاص ، وبدرجة خطرة بين المفرطين فى شرب الخمر ، ويؤيد ذلك الاختبارات العلمية على الأرانب ، فقد ثبت أنها أكثر عرضة للإصابة بميكروبات الالتهابات الرئوية إذا حقنت بالكحول أو الأثير تحت الجلد . وشرب الخمر يؤثر تأثيراً ضاراً على الجهاز العصبى ، فيسبب ارتجاف اليدين واللسان ، كما يسبب سرعة « النرفزة » وسرعة النسيان ، وبلادة الذهن ، وأحياناً يؤدى الإفراط فيه إلى الصرع . وهو يؤثر أيضاً فى الجهاز الهضمى ، إذ يضعف الشهوة للطعام — على خلاف ما يتوهم البعض — ويسبب الإمساك المزمن.

وهو يسبب تغيرات واضحة فى الكبد ، ويؤدى إلى نوع من التصلب أو التليف ، حتى لو شرب باعتدال . وقبل التليف يتضخم الكبد ، وأحياناً يتورم الطحال ، وتتأثر الكليتان ، والقلب والشرايين ، وأحياناً يؤدى إلى « هلوسة » فى البصر والسمع ، فيرى المدمن صوراً وهمية لفيران أو ثعابين ، أو يسمع أصواتها ويتوهم أنها تزحف نحوه أو على جسمه ، مما قد يؤدى به تدريجياً إلى الجنون .

وتدل إحصاءات شركات التأمين على أن نسبة الوفيات بين « المعتدلين جداً فى شرب الخمر » تزيد بنسبة ١٨ ٪ عنها بين من لا يشربون

إطلاقاً . والاعتدال هنا معناه زجاجة من البيرة أوكأس من الويسكي يومياً .

وأغلب الذين يتورطون فى علاقات جنسية تؤدى بهم إلى أمراض تنغص عليهم حياتهم ، يكون تورطهم نتيجة شرب الخمر.

هذا إلى أن شرب الخمر يمنع تقدم علاج الأمراض التناسلية ، وينشط العدوى الكامنة . ولعلك اقتنعت الآن بضرورة الامتناع عن الخمور أياً كان نوعها، وأياً كانت مقاديرها . فهى تسمم جسمك وتعطل أكثر أجهزتك ، وتبلد ذهنك ، و « تقصف » عمرك ، بعد أن تشقيك ، وتنغص عليك حياتك ، وتحطم شخصيتك ، بل إنها قد تذهب بعقلك .

استفد من الطبيعة

إن الطبيعة تعطينا أفضل ما فى الوجود بغير ثمن ، فالهواء النقى وأشعة الشمس والماء ، كل هذه الأشياء وغيرها ، لا تكلفنا شيئاً ، ولعلنا لهذا لاندرك قيمتها .

ولو أن شخصاً يشكو من أعراض واضحة لسوء التغذية ، رفض أن يتناول لقيمات قليلة لا تهمناه بالغباء والجنون . وبرغم ذلك ، فإن كثيرين يقفون موقفاً مشابهاً بعدم إفادتهم من أهم العناصر التى تهب الصحة والحيوية والنشاط وهى : الهواء النقى وأشعة الشمس والماء .

الهواء النقى

إن الهواء النقى أحد دعائم الصحة الرئيسية . والذين يعيشون ويعملون فى أماكن مزدحمة لا يتجدد هواؤها ، والذين يهملون الإفادة من الهواء

الطلق فى الحدائق العامة وعلى شواطئ البحار ، أو فى أعالى الجبال ، سوف يجدون – إن عاجلا أو آجلا – أن أعصابهم تزداد توتراً، وصدورهم تزداد ضيقاً ، وعقولهم تأخذ فى التبلد ، وأجسامهم تغدو أقل مقاومة للمرض . وبعبارة أخرى هم يسلبون أنفسهم الحق الطبيعى للصحة ، لأنهم ينكرون على أنفسهم نصيباً كاملا من أعظم دعائم الصحة المجانية .

ولكن الاستمتاع بالهواء النقى يمكن – ككل شيء آخر – أن يساء استعماله فالتنفس العميق للهواء النقى فى الصباح مثلا ، عادة طيبة . ولكن الذي يقفز من فراشه ليفتح نافذة غرفته ويقف أمامها مواجهاً تياراً بارداً جداً لكى يستنشق الهواء ، يغلب أن يصاب بالتهاب رئوى . وتهوية غرفة النوم بانتظام وفى كل الأوقات شيء جوهرى ، ولكن هذا لايعنى أن تدع تياراً بارداً يكتسحها وأنت نائم ، فتجنب التيارات الهوائية ضرورة بدهية .

والتنفس وظيفة طبيعية تلقائية ، المفروض فيها أن يكون استنشاق الهواء من الأنف ، حتى تتاح الفرصة لتدفئته وتخليصه من الأتربة والمواد الغريبة العالقة به قبل دخوله إلى الرئتين ، كما أن المفروض ألا يكون التنفس قصيراً جداً أو عميقاً جداً « كما يتعمد البعض ذلك تطبيقاً لرأى مشكوك فى صحته » . ولو أن الجميع تنفسوا كما أرادت الطبيعة لهم أن يتنفسوا وحرصوا على ملء رئاتهم بالهواء النقى – ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا – لقلت نوبات الكحة والبرد والاحتقان ومتاعب الرئتين عما هى عليه الآن قلة ملموسة.

فى الأيام التى يصفو فيها الجو ، اهرب من بيتك إلى أحضان الطبيعة ، أنت وزوجتك وأولادك – وخاصة إذا كنت من سكان المدن المزدحمة – واقض أطول وقت ممكن مستمتعاً بالهواء النقى حتى توفر لنفسك جانباً كبيراً من نفقات علاج الكحة ونوبات البرد ومضاعفاتها .

أشعة الشمس

وأشعة الشمس أقوى مطهر أوجدته الطبيعة ، فهي تفتك بالجراثيم والميكروبات ، وقد عرف منذ زمان طويل أن لها خواص علاجية . فالشمس عامل علاجي شاف ، كما أنها عامل وقائي من المرض والضعف . ولو عنينا بالغذاء والرياضة ، وظللنا نعيش في مكان مظلم رطب لما أمكننا أن نعيش أصحاء ، لذلك ينبغي أن نحرص على أن تكون الغرف التي يقيم بها أطفالنا وأماكن مذاكرتهم ولعبهم معرضة لأشعة الشمس تعرضاً كافياً .

الماء

أما الماء فهو من الدعامات الأولى للصحة . إنه مخفف ضروري للأطعمة التي نأكلها . وهو العامل الرئيسي للتخلص من جميع سموم الجسم خلال مسام الجلد ، أو خلال الكليتين والأمعاء والرئتين ، وفي الجو الحار يشرب الشخص العادي ماء كافياً ، ولكن في الجو البارد لا يشرب الناس القدر الكافي منه ، على الرغم من أهميته للجسم في أثناء البرد شتاء بقدر أهميته في أثناء الحر صيفاً .

ومن المشاهدات الطبية ، أن سيدة كانت كثيرة الإصابة بنوبات البرد برغم عنايتها بغذائها وبالنزهة والرياضة في الهواء الطلق . وكانت تنام ساعات كافية في أثناء الليل . ومع ذلك كانت تحس بأن صحتها تتدهور بسبب نوبات البرد المتلاحقة التي كانت تصاب بها دون أن تعرف السبب المؤدي إليها . واكتشف الطبيب المعالج أنها تقلل من شرب الماء ، حتى إنها لم تكن تشربه إطلاقاً في بعض الأيام . فنصحها

بالمبادرة بشرب كوب من الماء عند اليقظة صباح كل يوم دافئاً أو بارداً حسبما يروق لها —وأن تكرر ذلك بعد العشاء— وفيما بين الأكل تشرب مرتين أو ثلاث مرات أخرى . وبعد بضعة أسابيع أحست بتحسن ملموس فقلت إصابتها بنوبات البرد ، وزال عنها الإمساك المزمن الذى كانت تشكو منه .

ولا يعنى هذا أن الماء يمنع نوبات البرد ، ولكنه يساعد الجسم على التخلص من سمومه وعلى قوة مقاومته ، بل فى دفاعه ضد ميكروبات البرد .

استفد إذن من الهواء النقى ، وأشعة الشمس ، والماء ، بقدر ما تستطيع ؛ فهذه هى «وصفة» الطبيعة للصحة ، ووصفات الطبيعة لن تجد لها مثيلا .

فائدة الرياضة

يستمتع البعض بصحة طيبة دون أن يمارسوا أى لون من ألوان الرياضة ، أو يمارسونها نادراً جداً ، ولكن الغالبية منا يشعرون بنشاط أوفر ، وينامون نوماً أعمق ، ويشعرون ببهجة الحياة شعوراً أقوى إذا مارسوا بانتظام رياضة معتدلة حبيبة إلى نفوسهم .

وأوضح أثر للرياضة المنتظمة ، تقوية العضلات وتنشيط أكثر وظائف الجسم ، فضربات القلب تقوى وتزداد سرعة ، والتنفس يزداد عدداً وعمقاً ، وتوليد الحرارة وإفراز العرق يزداد .

والطاقة التى تستنفدها الرياضة تستخلص من أكسدة « احتراق » العناصر الغذائية . وخاصة المواد الكربوهايدراتية والدهنية . وكنتيجة لذلك تقوى الشهوة للطعام وتنشط عملية التخلص من الفضلات والسموم ، كما ينشط النمو عند الأطفال . هذا إلى أن الرياضة تخفف من توتر العضلات ومن التعب الذهنى .

ولكن ما هو نوع الرياضة الذى يلائمك ؟ وكم من الوقت ينبغى أن تقضيه فى ممارسته؟إن الأطفال فى مرحلة النمو ، والشباب فى مقتبل العمر ، يجدون لذة فى ممارسة الرياضات العنيفة المجهدة ، إنهم يتعبون لدرجة الإرهاق؛ ولكنهم سرعان ما يتخلصون من أثر التعب بعد فترة راحة قصيرة. ويختلف الحال مع متوسطى العمر والمتقدمين فى السن ، فبالنسبة لهؤلاء الاعتدال فى الرياضة من الأهمية — بل من الضرورة — بمكان .

ولكن ماذا يقصد بالاعتدال ؟ إن الاختلاف فى التكوين الجثمانى كبير جداً بدرجة يصعب معها تحديد نوع الرياضه أو الوقت الذى يستحسن إنفاقه بالنسبة لعمر معين . فباراة تنس تستغرق ساعة قد تكون مفيدة جداً لشخص فى الأربعين.ولكنها مضرة جداً لشخص آخر فى السن نفسها. إن حد الأمان فى الرياضة يتوقف على حالة القلب ، والعضلات ، ونوع الرياضة ، ودرجة الانتظام التى تمارس بها ، ولذلك فإنك إذا أردت أن تستفيد من الرياضة ، وجب أن تفحص نفسك من وقت لآخر لمعرفة حالة القلب والصحة عامة . فإذا لم يكن بالجسم عيب عضوى فمارس الرياضة التى تهواها على ألا تصل إلى درجة الإرهاق فى رياضتك .

وإذا شعرت بعد ممارسة الرياضة ، بالحاجة إلى الاسترخاء ، بعد بعض التعب فإن هذا الأمر مرغوب فيه ، ولكن التعب إلى حد الإرهاق قد يسبب أضراراً من الخير أن تتفاداها .

إن الرياضة لا يمكن أن تشفى الأمراض العضوية . أما الأمراض التى تنشأ عن اضطراب أو كسل فى وظائف أعضاء الجسم ، مثل بعض حالات الإمساك والصداع والعصبية التى تتفاقم — بسبب أعباء الحياة العصرية ومطالبها — فقد يخفف من حدتها لعب التنس ،

أو ركوب الخيل ، أو صيد السمك ، أو السباحة ، وما إليها . وأفضل أنواع الرياضة فى هذه الحالات ما ينشط جسمك ، ويبعد فى الوقت نفسه المتاعب والهموم عن ذهنك .

اعتدال القامة

والقامة المعتدلة ارتباط وثيق بالصحة، فالكتفان المقوستان ، والعمود الفقرى المنحنى ، يلقيان عبئاً إضافياً على عضلات الساقين والظهر . والبطن البارز يسمح بارتخاء الأعضاء الداخلية ، وهذا الارتخاء بدوره يؤثر فى وظائفها . وهو يعمل على سرعة الإحساس بالتعب ، والتعب يساعد على عدم اعتدال القامة ، وهكذا تجرى الأمور فى حلقة مفرغة .

لقد نجحت الدعاية التى تهدف إلى ترويج عقاقير الكلى ، فى ربط آلام الظهر بأمراض الكليتين فى أذهان الكثيرين . والواقع أن أمراض الكليتين قليلة الحدوث ، وعندما يصاب بها المرء يندر أن تصحبها آلام فى الظهر . ومن جهة أخرى ، فإن آلام الظهر الشائعة يغلب أن تكون نتيجة عدم الحرص على اعتدال القامة أثناء الجلوس أو الوقوف ، أو وجود عيب فى إحدى القدمين أو فى كلتيهما معاً . والتخلص من آلام الظهر فى هذه الحالة ، لا يكون باستعمال عقاقير الكلى وإنما بتصحيح السبب المباشر للألم .

وقد يكون عدم اعتدال القامة نتيجة ميل وراثى ، أو عادة ، أو نتيجة تعب مزمن ، أو عدم تمرين واستعمال الظهر والبطن والساقين استعمالا كافياً ، أو لهذه الأسباب جميعاً .

ولتحسين هذه الحالة تفيد الرياضة فائدة ملموسة ، ولكن الاهتمام وقوة الإرادة والراحة قد تكون لها الفائدة نفسها ، بل إنه إذا كان التعب

والإجهاد هما العاملين المهمين فى عدم اعتدال القامة ، فإن الراحة تكون أجدى من الرياضة .

ومهما يكن من سبب تقوس الظهر والكتفين ، ففرص علاجهما إبان الطفولة تكون كثيرة ؛ وتقل تدريجياً كلما تقدم العمر ، فعادات الطفل فى الوقوف والجلوس والمشى وما إليها تكون فى دور التكوين ، وعضلاته وأربطة أنسجته تكون غضة مرنة ، وعظامه لينة .

حافظ على قدميك

وتعب القدمين بسبب عدم ملاءمة الحذاء ، يسبب أحياناً ألماً فى الظهر أو الرأس ، كما قد يسبب سرعة التعب وسرعة « النرفزة » لذلك احرص على أن يكون حذاؤك دائماً مريحاً ، ومن السعة بحيث تظل أصابع القدمين فيه مستقيمة غير مضغوطة ، أى يكون بينها و بين السطح العلوى فراغ .

والأحذية ذات الكعوب العالية تسبب آلاماً كثيرة لبعض السيدات فى أقدامهن وظهورهن ، إذ يضطر الجسم لبذل جهد خاص لحفظ توازنه عند استعمال هذه الأحذية فى أثناء المشى ، هذا فضلا عن أن الأحذية ذات الكعوب العالية تؤدى أحياناً إلى تقوس الظهر ، ودفع الأمعاء ومحتويات البطن إلى الخارج .

إن بعض السيدات يستطعن استعمال الأحذية ذات الكعوب العالية طوال حياتهن دون ضرر أو إحساس بالألم ، وأخريات قد يستعملنها سنوات دون أن يحسسن بشىء ، ولكن يأتى وقت يكون غالباً فى أواسط العمر — أو بعده — تثور فيه القدمان ويثور الجسم على هذا الوضع غير الطبيعى ، ويترجم الجسم ثورته بآلام متعددة تتخذ صوراً مختلفة .

والمشاهد أن السيدة التى تستعمل أحذية ذات كعوب عالية باستمرار ،

تصاب عضلات الجزء الخلفي من ساقيها أحياناً بشيء من الخمول والقصر نتيجة عدم الاستعمال . فإذا حاولت مثل هذه السيدة أن تستبدل بهذه الأحذية أخرى لا كعوب لها إطلاقاً ، ألقت جهداً شديداً على الأوتار المتصلة بكعب القدم . ولذلك ينبغي أن يكون الانتقال بالتدريج ، من كعب عال إلى كعب متوسط الارتفاع ، وهكذا .

على أن أكبر عيوب القدم المؤلمة ، هو ما يعرف بالقدم المسطحة ، وفى هذه الحالة « يتفلطح » التقوس الطويل الممتد من الكعب إلى أصبع القدم الكبير . ولو أخذت « بصمة » القدم المصابة بالتفلطح — أى لو وضعت هذه القدم وهى مبتلة على قطعة من الكاوتشوك الجاف مثلا — لكانت الصورة المنطبعة على الكاوتشوك تمثل مستطيلا بنفس العرض تقريباً ابتداء من الكعب حتى أطراف الأصابع ، فى حين أن الصورة المنطبعة للقدم العادية تكون ضيقة فى الوسط ، عريضة عند الكعب والأصابع .

وبعض الأشخاص يولدون بهذا العيب ، ولا يتألمون بسببه ، إلا بعد أن يلقوا جهداً كبيراً على أقدامهم . أما الذين تتفلطح أقدامهم بسبب الأحذية غير الملائمة ، أو عدم تمرين القدم تمريناً كافياً وما إلى ذلك ، فإنهم يشعرون بآلام مختلفة ، ويحسون بإجهاد شديد بعد المشى قليلا أو فى أثناء الوقوف .

وأحياناً يحدث تفلطح فى النصف الأمامى من القدم يسبب ألماً فى الأصابع الثلاثة الخارجية يمتد إلى وسط القدم . وينبغى ألا يتخذ أى إجراء لعلاج هذا العيب أو غيره من عيوب القدم قبل استشارة أخصائى .

وقد وجدت القدم للمشى ، ولكن استخدام السيارات فى الانتقال والمصاعد للصعود إلى الأدوار العليا فى المكاتب والمنازل ، [جعل] مجال المشى ونشاط القدمين يقل شيئاً فشيئاً . وكنتيجة لذلك أخذت عضلات

القدم تضعف وتتراخى ، وبدأت تظهر المتاعب التى يشكو منها الرجل العصرى والسيدة العصرية . وأفضل طريقة لتفادى هذه المتاعب الحرص على المشى وقتاً –ولو يسيراً– كل يوم ، مع الحرص على استخدام أحذية صحية مريحة .

الراحة والاسترخاء

وإذا كانت الرياضة المعتدلة المناسبة من مقومات الصحة . فإن الراحة الجثمانية والذهنية فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب ، من أهم العوامل لاسترداد النشاط ومقاومة الأمراض .

إن الإحساس بالتعب هو فى الواقع إحساس بالألم نتيجة تأثير مواد سامة معينة على المراكز العصبية فى المخ ، وهذه المواد السامة قد تتكون فى العضلات كنتيجة ثانوية لأكسدة العناصر الغذائية حتى تتولد الطاقة اللازمة لمواجهة النشاط الجسمى . وقد تكون وليدة بؤرة أو مرض بالجسم ، وقد تمتص هذه السموم من الجهاز الهضمى أو الجهاز التنفسى .

ومهما يكن مصدرها ، فإنها تتسرب إلى الدم وتدور معه فى جميع أجزاء الجسم مسببة الإحساس بالتعب ، كإنذار وقائى يهدف إلى وقف النشاط العضلى أو الذهنى قبل أن تنهار هذه العضلات أو كنذير بأن ثمة مرضاً بالجسم يحتاج إلى علاج .

وعلى الرغم من اهتمام أكثر العائلات بالتغذية والسكن والملبس وإتخام الأطفال بالمقويات والفيتامينات ، فإنه قل من يهتم بمقاومة التعب والإجهاد . أو يحرص على تكوين رصيد من الصحة عن طريق الراحة والنزهة فى أيام العطلة وأشهر الإجازة فى الصيف .

راجع نفسك :.. كيف كانت صحتك وصحة عائلتك خلال أشهر

الشتاء الماضي ؟ هل كنت أنت وأولادك ضحية لنوبات متكررة من البرد والكحة والتعب والهزال ؟ إن مثل هذه النوبات لا يمكن الوقاية منها في شهر ديسمبر أو مارس ، ولكن تستطيع أن تقي نفسك عواقبها لو عنيت بنزهة أولادك واستمتعت معهم بما يقدمه لك الصيف من فرصة للراحة وتجديد النشاط. فالصيف إذا استغل استغلالا حكيما — هو أفضل مقو لك ولأولادك ، يدوم أثره طول العام .

فالإنسان بحكم تكوينه يحتاج إلى أشهر الصيف المشمسة لتكوين رصيد من الصحة ييسر له استئناف النشاط خلال الفصول التالية التي تستلزم منه ومن بنيه نشاطاً مضاعفاً مجهداً، كما تواجهه بعدد من الأمراض التي تستلزم قوة مقاومة غير يسيرة .

والإنعاش النفسي الذى يهيئه لنا الصيف من الأهمية بمكان ، فهو فصل المرح والاجتماع بالأصدقاء والأحباء، إذ يأخذ معظم الناس إجازتهم في هذا الوقت ، ويذهبون جماعات إلى الشاطئ أو إلى أعالي الجبال أو إلى البحيرات والأماكن الخلوية الأخرى .

وفي أشهر الصيف يبطؤ نشاطنا ، وتفتر حيويتنا، فيحفزنا ذلك كما تحفزنا الظروف المحيطة بنا إلى النظر إلى الحياة وشئونها نظرة فلسفية هادئة تخفف من توتر الأعصاب ، وغليان النفوس ، ودوران الرؤوس ، وما إليها من عوامل تأتي في رأس قائمة مسببات اضطرابات القلب والمعدة والغدد وكثير من أمراض الحساسية الشائعة .

والإجازات هدفها الأول أن تجعلنا نحس بالراحة والنشاط ، لا أن تسبب لنا التعب والإجهاد، نتيجة قلة النوم ، أو الإسراف في السباحة ، أو الرياضة ، أو المشي . والأطفال خاصة ينبغي أن يعودوا إلى البيت مرحين فرحين لا مجهدين متعبين . فإذا كان عملك ذهنياً ولا يستلزم

منك بذل أى مجهود جثمانى طوال العام، فلا تسرف فى المشى أو السباحة . ولا تشترك فى رحلات مجهدة بمجرد وصولك إلى المصيف ، وإنما نظم إجازتك بحيث تهيئ لنفسك ولجميع أفراد أسرتك أكبر الفرص للاسترخاء والراحة والرياضة المعتدلة والإفادة من أشعة الشمس والهواء الطلق النقى .

ومن المفيد جداً أن تعود نفسك — فى غير أيام الإجازات — الاسترخاء المنتظم ، فهو من أهم عوامل المحافظة على الصحة والحيوية خلال سنين طويلة من الحياة المجهدة النافعة . اقض وقتاً على مقعد مريح وعيناك مغلقتان وعقلك ساكن هادئ لا يفكر فى شيء ، وكل عضلة من عضلاتك مسترخية استرخاء تاماً ، ولعلك لا تستطيع ذلك فى أول الأمر أكثر من دقائق معدودة ، ولكنك ينبغى أن تزيد هذه المدة إلى نحو خمس عشرة دقيقة ، مرة أو مرتين كل يوم .

أمراض الحساسية

ترجع نسبة غير قليلة من الأمراض الشائعة اليوم إلى « الحساسية » ، حتى لقد أصبحت « الحساسية » كلمة تتردد على ألسنة كثيرين وكثيرات ممن يترددون على عيادات أطباء الأمراض الجلدية ، وأطباء الأنف والحنجرة وأطباء العيون ، وأطباء الأمراض الباطنية ، ففضلاً عن أمراض الحساسية المعروفة : الإكزيما ، والرمد الربيعى ، والربو ، وحمى القش ، فإن قائمة أخرى من الأمراض — آخذة فى الزيادة — من المعتقد أنها — أصلا — وليدة الحساسية ، منها : الصداع الشقيق ، وتقلص القولون ، والتهابات الجيوب الأنفية ... إلخ .

وهناك عدد كبير من الناس تظهر عليهم — برغم ما يبدو عليهم من صحة — أعراض الحساسية من حين لآخر : نوبات عطس مفاجئة ،

أو إصابات جلدية لا يعرف سببها ، أو نوبات إسهال لا يمكن تفسيرها ، أو كحة مزمنة ، أو إفرازات مستمرة من الأنف . فماذا يجعل المرء « حساسا » أو — كما اصطلح المجمع اللغوى على تسميته — « تحساسا » ؟هل يولد بهذا الداء ؟ وهل هو وراثى ؟ وهل الإصابة آخذة فى الزيادة ؟ وما هو الدور الذى تلعبه النواحى العاطفية فى إظهاره ؟ وهل من وسيلة لتفاديه أو مقاومته ؟

من المؤكد الآن أن المرء لا يولد حساساً ، فالطفل لا تبدو عليه أعراض الحساسية عندما يتعرض لأول مرة لشىء يمكن أن يثيرها ، وإنما تظهر عليه الأعراض ، فيأخذ فى العطس أو حك الجلد أو فرك العينين وغير ذلك ، بعد أن يتمكن منه أثر الشىء المثير ، وهذه هى الطريقة التى يتمكن بها هذا الأثر ويزمن :

إن أجسامنا مزودة بعدد من الحواجز ، مثل الجلد ، والغشاء المخاطى المبطن للأنف والأمعاء . والغرض من هذه الحواجز أن تحول دون دخول المواد غير المرغوب فيها إلى مجرى الدم عن طريق الشعيرات الدموية العديدة المجاورة . وهذه الحواجز تؤدى مهمتها — بوجه عام — على أكمل وجه. ولكن يحدث أحياناً أن تتسرب أجسام غريبة إلى الدم . وهذا التسرب يحدث عند الأصحاء ، كما يحدث عند المصابين بالحساسية. وفى الحالتين، يجند الجسم قواه لمحاربة هذه المواد حالما تمتزج بالدم. ولكنها فى الحالة الأولى لا يمكن أن تجد لها مقاماً ، إذ سرعان ما يتلاشى أثرها دون أن تسبب ضرراً . أما عند « التحساس » أو الحساس فإن المعركة تتجه اتجاهاً آخر . صحيح أن الجسم فى أول الأمر يكسب المعركة . ولكنه خلال الأيام أو الأسابيع التالية يتغير الوضع ، فهذه المواد الغريبة تكون لنفسها — بطريقة لم تفهم بوضوح بعد — حواجز وقائية. فإذا تركزت هذه المواد فى أنسجة معينة من الجسم أصبحت الخلايا حساسة بدرجة أن أى اتصال جديد بالمادة

المثيرة ويطلق عليها طبيًّا اسم « أنتيجن » يسبب ما يشبه الانفجار.

فإذا كان ذلك فى أنسجة الرئتين ، أصيب المرء بنوبة ربو . وإذا كان فى موضع ما فى الجلد ، ظهرت أعراض بعض أنواع الأرتيكاريا . وإذا كان فى الغشاء المبطن للأمعاء حدث قىء أو مغص ، أو كان فى الغشاء المخاطى للأنف ، والعينين ، ظهرت أعراض « حمى القش » ... وهكذا .

ومن هنا نتبين لماذا تعجل بنوبات الحساسية أشياء يأكلها المرء أو يلمسها أو يتنفسها مع الهواء الداخل إلى رئتيه . فمن الأطعمة التى تعد من مثيرات الحساسية : البيض واللبن والسمك ، وغيره من الكائنات البحرية والشيكولاته ، والفراولة وما إليها . ومن العقاقير المثيرة للحساسية عند البعض : الأسبيرين ، والكينين ، والسلفا ، ومن المواد التى تثير الحساسية عن طريق التنفس لقاح الزهور والأتربة وغبار القطن وروائح القطط وما إليها.

وقد أوضحنا أن المفروض نظريًّا أن أول مساس لهذه المواد بأنسجة الجسم لا يحدث أعراضاً مرضية . ولكن دلت المشاهدات على أن بعض الأطفال الرضع يصابون بأعراض الحساسية حالما يعطون ملعقة من عصير برتقال أو قطعة من بيضة ، مما لم يجد الباحثون له تفسيراً ، إلى أن اكتشف أن الأجنة يمكن أن تتأثر أجسامها بأطعمة تسرف الأم فى تناولها ، كأن تتعاطى يومياً أربع أو خمس بيضات — وخاصة إذا كانت نيئة أو نصف مسلوقة — أو تشرب لترين من اللبن ، أو تأكل نصف كيلو من البندق وما شابه ذلك .

وهذه عشر نصائح للأمهات تفيد مراعاتها فى تجنب إصابة أولادهن بالحساسية :

١ — ينبغى أن تراعى الأم فى أثناء الحمل تنويع الطعام الذى تتناوله ، وألا تسرف فى تناول ألوان معينة مهما كانت صحية ومغذية ،

فإذا وجدت ميلا شديداً لأنواع محددة ، فلتأكلها بعد أن توضع على النار مدة طويلة (لا تقل عن ثلاثين دقيقة) فى هذه الحالة يقل احتمال تسرب جزئياتها من خلال الحواجز الطبيعية للجسم إلى مجرى الدم ، كما أنها تغدو سهلة التحول بواسطة العصير الهضمى إلى مواد لا تثير الحساسية .

٢ ــ لا تبكرى فى إعطاء الطفل أطعمة خارجية قبل السن المحددة لكل لون من ألوان الطعام . واحرصى عند إعطائه طعاما جديداً أن يكون مطهياً جيداً ، وقدميه له فى كميات صغيرة وفى فترات منتظمة ، ولا ترغميه على تناوله مهما بدا لك أنه صحى ومفيد .

٣ ــ عند بدء إعطاء الطفل أطعمة خارجية ، ابدئى بنوع واحد فى المرة الواحدة ، وباعدى بين كل نوع وآخر ، حتى إذا ظهرت أعراض الحساسية ، أمكن معرفة النوع المثير لحساسيته بسهولة .

٤ ــ حاولى أن يكون أثاث الغرفة التى ينام فيها الطفل بسيطاً ، وليس بها وسادات بداخلها ريش ، أو لعب محشوة بالقطن ، وجنبيه استنشاق الأتربة فى أثناء تنظيف الغرف أو تنظيف السجاجيد .

٥ ــ يكون الطفل أكثر عرضة للإصابة بالحساسية بعد نوبات الإسهال الشديدة ، أو الاضطرابات المعدية ، وفى أثناء دور النقاهة . لذلك احرصى على إعطائه خلال هذه الفترات طعاماً تام النضج (وضع على النار مدة كافية) ، وتجنبى إعطاءه ألواناً جديدة من الطعام خلال هذه الفترات . واحترسى من إعطائه كميات كبيرة فى أثنائها من عصير الفاكهة الطازج أو البيض أو الحلوى التى تحتوى على نسبة كبيرة من البيض .

٦ ــ بعض المواد والسوائل القاتلة للحشرات تحتوى على مادة تعرف باسم « بيرثريام » اتضح أنها من المثيرات القوية للحساسية ، لذلك ينبغى تجنب استعمالها .

٧ – لا تستعملى قاتلات الميكروبات لعلاج الطفل بدون استشارة الطبيب ، فقد اتضح أن هذه العقاقير عندما تعطى عن طريق الفم – إذا تيسر ذلك – يكون احتمال إثارتها للحساسية أقل مما لو أعطيت حقناً .

٨ – راقبى الأعراض الأولى للحساسية عند الطفل ، وبادرى بعلاجها . إن أعراض الحساسية تتشابه كثيراً مع أعراض بعض الأمراض الأخرى والأم الحكيمة ينبغى ألا تتشكك بمجرد إصابة ابنها باحمرار فى فخذيه ، أو بقع حمراء فى جلده ، أو نوبة عطاس مفاجئة ، أو كحة أو إسهال أو مغص ، أو اضطراب معدى ، فى أنه مصاب بالحساسية ، ولكن إذا تكررت بعض هذه الأعراض أو تكررت جميعها ، وخاصة إذا لم تكن مصحوبة بارتفاع فى درجة الحرارة ، فينبغى أن تستشيرى الطبيب .

٩ – لا داعى للقلق إذا اتضح أن هذه الأعراض نتيجة «حساسية» بالفعل ، ففى حالات كثيرة تزول هذه الأعراض من تلقاء نفسها مع تقدم الطفل فى السن . هذا إلى أن تفادى المثيرات – إذا عرفت – يحول دون ظهور النوبات . وعند الطبيب الآن وسائل تمكنه من معرفة هذه المثيرات ، وعلاج الحساسية فى مراحل الطفولة بحيث لا تتطور ولا تزمن .

١٠ – على الرغم من أن الحساسية اضطراب عضوى فإن الاضطرابات النفسية ، والعاطفية ، من العوامل المهيئة – بل المعجلة – لها . ولذلك كان من المهم لوقاية الطفل من النوبات مراعاة الجوانب النفسية ، وتهيئة الجو الملائم لنمو الطفل نمواً عاطفياً سليماً .

منافذ العدوى

معظم الإصابات التى يتعرض لها المرء تدخل ميكروباتها الجسم عن طريق الأنف والفم ، فالبرد العادى ، والأنفلونزا ، والتهاب اللوزتين

والالتهاب الرئوى ، والحمى القرمزية ، والدفتيريا ، وشلل الأطفال ، إلى آخر قائمة الأمراض الطويلة ، تجد طريقها إلى الجسم من هذين المنفذين . ولسنا فى حاجة إلى بيان تكرار أهمية غسل اليدين ، وخاصة عند الأطفال وتعويدهم تجنب وضع الأصابع فى الفم ، واستعمال أكواب خاصة للشرب وعدم التعرض للمصابين بهذه الأمراض ، وما إلى ذلك من قواعد صحية تعد من الدعائم الأولى لمقاومة المرض وتفاديه .

الأنف

والأنف هو المنفذ الطبيعى لدخول الهواء إلى الرئتين ، ولكن البعض – وخاصة الأطفال – يتنفسون مرغمين من أفواههم ، بسبب التهاب فى الجيوب الأنفية ، أو الزوائد الأنفية ، أو وجود لحمية فى الأنف ، أو الإصابة المتكررة بنوبات البرد نتيجة «الحساسية» أو لعيب خلقى فى الحاجز الأنفى .

والجيوب الأنفية فجوات فى عظام الوجه تتصل بفتحتى الأنف من طريق فتحات صغيرة . وهى تبطن بغشاء يعتبر امتداداً للغشاء المخاطى للأنف ، ويحدث أحياناً حينما تستمر نوبة برد حادة بضعة أيام دون تحسن ملموس ، أن يمتد الالتهاب إلى الأغشية المبطنة للجيوب ، وخاصة الجيوب السفلية التى لا يسهل تصفية الإفرازات منها .

ومن العوامل المهيئة لالتهاب الجيوب الأنفية تنظيف الأنف بعنف والحساسية والسباحة عندما يكون الأنف تحت الماء ، وكذلك رطوبة الجو الزائدة ، والاستعمال الخاطئ « للبخاخات » وقطرات الأنف ومطهراتها فى أثناء نوبات البرد الحادة .

والتهاب الجيوب الأنفية يزول فى كثير من الحالات بتحسن فى الحالة

الصحية العامة، وما يتبعها من زيادة قوة مقاومة الجسم ، ونشاط القوى الطبيعية للإصلاح ، أو بالاستعانة ببعض الوسائل البسيطة مثل التدفئة أو استنشاق البخار ، أو الراحة . على أن النوبة قد تشتد فى بعض الحالات بحيث يتجمع الصديد داخل الجيب . ويصحب الحالة ألم وصداع ؛ وأحياناً ارتفاع فى درجة الحرارة ، وآلام فى جميع أجزاء الجسم وكذلك الإصابة بكحة مزمنة ، وسرعة الإحساس بالتعب . وأحياناً تنتقل العدوى عن طريق الدم من الجيوب الأنفية إلى أجزاء أخرى فى الجسم مثل المفاصل أو الكليتين أو القلب أو المخ .

ومن هنا تتبين أهمية التأكد من سلامة الجيوب الأنفية ، والمبادرة بعلاجها فى حالة الاشتباه فيها ، تفادياً لكثير من الأمراض والاضطرابات التى لا تفيد العقاقير فى شفائها طالما ظل السبب بدون علاج .

والحاجز الأنفى حاجز يفصل بين فتحتى الأنف ، وهو من الناحية النظرية ينبغى أن يكون مستقيما ، ولكنه يندر أن يكون كذلك . ومع أن معظم تشويهات الحاجز الأنفى لا أثر لها إطلاقاً — أو أن أثرها ضئيل — فإنها قد تكون فى وضع يهيئ لسرعة الإصابة بالبرد ، وتكرار التهاب الجيوب الأنفية . وفى هذه الحالة يمكن تعديل الحاجز بجراحة بسيطة .

متى تستأصل اللوزتان ؟

يعتقد كثيرون أن اللوزتين لهما وظيفة وقائية من نوع ما ، ولكنه لم يقم الدليل على ذلك . واللوزتان تكونان عادة كبيرتى الحجم فى مرحلة الطفولة ، ثم يأخذ حجمهما فى النقصان مع التقدم فى السن ، وثمة ثلاث حالات يستحسن استئصال اللوزتين فيها :

١ — تكرار الإصابة بالالتهابات الحادة فى اللوزتين.

٢ – تضخم اللوزتين إلى الحد الذى تسببان فيه انسداد الأنف وقناة يوستاكى .

٣ – إذا كانت اللوزتان متقيحتين وتعتبران بؤرة عدوى فى الجسم .

واستئصال اللوزتين ليس جراحة خطرة إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة عند إجرائها ، على أنه ينبغى ألا يتوقع الآباء والأمهات المعجزات بعد استئصالهما ، فهما تستأصلان فى أحيان كثيرة بغير مسوغ كاف ولكن استئصالهما يكون احتياطاً لا مفر منه .

قوة السمع

بعض أنواع الصمم يمهد له قبل ولادة الطفل ، وبعضها يظهر فى مراحل العمر الأولى ، والبعض الآخر يظهر مع التقدم فى العمر . على أن معظم أنواع الصمم وثقل السمع يرجع إلى التهابات فى الأذن الوسطى ، أو عائق يحول دون التنفس الطبيعى من الأنف ، أو بؤرة فى الجيوب الأنفية أو اللوزتين ، أو الأسنان ، أو المرارة ، أو فى أى عضو آخر من أعضاء الجسم ، أو إلى السموم التى تفرزها فيروسات الحمى القرمزية أو الدفتريا أو الزهرى ، أو إلى تراكم الصماخ فى قناة الأذن الخارجية ، أو إلى بعض الأمراض الناشئة من سوء التغذية أو اضطرابات الغدد .

أما التهابات الأذن الوسطى ، فإنها تنشأ عن عدوى تصل من الحلق عن طريق « قناة يوستاكى » . وعند الأطفال تكون هذه القناة أكثر استقامة وسعة منها عند البالغين ، ولذلك تنتقل العدوى بسهولة إلى الأطفال . والتهاب الأذن الوسطى مهما كان حاداً – ولو كانت طبلة الأذن مفتوحة – لا يسبب ضعفاً فى السمع مالم تتكرر نوباته .

ومضاعفات الدمامل التى تظهر بداخل الأذن يمكن إلى حد كبير تفاديها إذا هيئت للحالة العناية اللازمة . والذى يحدث أحياناً أن يهم الوالدان بأذن الطفل إذا كانت إفرازاتها كثيرة ، فإذا جفت هذه الإفرازات ، تصوروا أن الحالة قد انتهت وأهملا الاهتمام بها ، فتتفاقم الحالة وتظهر آثارها بعد حين فى صورة قد يعز معها العلاج ، والسمع إذا فقد استحال فى أغلب الحالات استعادته .

وتفادى عدوى الأذن يتوقف إلى حد كبير على تفادى عدوى الأنف والحلق، وسرعة علاجها إذا أصابتها أو أصابت الجسم عدوى. و يتوقف كذلك على استئصال اللوزتين المريضتين والزوائد الأنفية ، وتفادى تنظيف الأنف بعنف . فذلك يؤدى إلى متاعب فى الأذن قد تسبب ضعف السمع .

أما الصمم الذى قد ينشأ من الحميات أو الإصابة بالزهرى فيمكن تفاديه بالعناية الطبية اللازمة .

أما صماخ الأذن إذا تراكم وتجمد – كما يحدث أحياناً – بحيث يغطى طبلة الأذن ويؤثر على السمع ، فيمكن إزالته بغسيل الأذن –بلطف– بماء دافئ . فإذا لم يفد هذا فينبغى استشارة الطبيب . ويجب مراعاة عدم استعمال أدوات صلبة لتنظيف الأذن ، فهى تؤذيها .وتتسبب فى نقل العدوى إليها .

والسباحة والغوص فى الماء لا ضرر منهما على السمع إذا كانت طبلة الأذن سليمة ، واتخذت الاحتياطات اللازمة ، بحيث لا يقوم المرء بالسباحة مثلا وهو مصاب بنوبة برد أو عدوى فى أذنه أو بعد إجراء جراحة فى أذنه، بدون الحرص على منع الماء من الوصول إلى أذنه الوسطى .

تسوس الأسنان

وثمة علاقة وطيدة بين سلامة الأسنان والصحة عامة . والتسوس من

العوامل الأولى الشائعة التى تسبب فساد الأسنان . وقد أجريت دراسات واسعة النطاق لمعرفة أسبابه، دلت على أنه لا يرجع إلى سبب واحد ، وإنما إلى عدة أسباب متشابكة منها : الغذاء ، والوراثة ، وإفرازات الغدد الداخلية ، والعوامل الآلية ، والعناية بنظافة الفم .

ومما لاشك فيه أن أسس سلامة الأسنان ينبغى أن تهيأ منذ السنوات الأولى من العمر ، بل ينبغى أن تهيأ فى أثناء فترة الحمل ، فغذاء الحامل يلعب دوراً فى سلامة أسنان الطفل بعد ولادته ، وقد دلت البحوث الأخيرة على أنه لا يوجد عنصر غذائى واحد يمكن أن يعزى إلى نقصه سرعة تسوس الأسنان ، فقد كان يظن أن الكلسيوم وفيتامين « د » الذى ينظم الإفادة من المعادن فى الجسم ، هما العاملان الأكثر أهمية فى هذه الناحية ، ولكن اتضح أخيراً أن عنصر الفوسفور لا يقل أهمية عن الكلسيوم ، إن لم يزد عنه لضمان سلامة الأسنان .

واللبن والسمك ، وبعض أنواع الخضر ، غنية بالكلسيوم والفوسفور فى وقت واحد ، أما فيتامين « د » فإنه يكاد ينعدم فى الأغذية الطبيعية خلال فصل الشتاء ، ولكنه يسهل الحصول عليه من زيت كبد الحوت والفيتامينات الصناعية . ولذلك من المستحسن للمحافظة على أسنان الأطفال الحرص على تنويع الأطعمة التى تقدم لهم ، وأن يراعى أنهم يتناولون قدراً كافياً من اللبن وعصير البرتقال والفاكهة الطازجة ، ولابأس من مساعدتهم بفيتامين « د » أو بزيت السمك ، هذا فضلا عن اهتمام الأم بغذائها فى أثناء الحمل والرضاعة .

ولما كان التسوس نتيجة مفعول الأحماض ، التى ينتجها تحلل الأطعمة — بواسطة البكتريا — على ميناء الأسنان ، ثم على الطبقة الرخوة الداخلية ، ولأن مقدار التحلل وتكوين الحامض يكونان بنسبة أكبر

كلما كثرت فضلات الطعام المتبقية فى الفم ، فإن نظافة الأسنان تعد من العوامل المهمة لسلامتها .

ويقول الأخصائيون إن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً فى سلامة الأسنان ، بدليل ما يشاهدونه من أسنان سليمة لا تصاب بالتسوس إطلاقاً عند أناس يشكون من سوء التغذية ، ولا يبدون أى اهتمام بنظافة أفواههم وأسنانهم . فى حين توجد حالات أخرى يكثر فيها التسوس عند أشخاص لايشك فى عنايتهم بالتغذية ، ونظافة أفواههم وأسنانهم . والمرجح أن أهم العوامل الأخرى ، هى الوراثة وغدد الإفرازات الداخلية .

وتصل أحياناً أنواع من البكتريا الضارة إلى جذور الأسنان ، مكونة فى أول الأمر التهاباً بسيطاً فى المنطقة العظمية التى « يبيت » فيها الضرس . ومالم يتكون خراج يجد منفذاً إلى السطح العلوى ، فإن هذه العدوى تظل دفينة غير ملحوظة ، فتتسرب السموم ، وأحيانا البكتريا نفسها ، إلى الدم فينقلها إلى جميع أجزاء الجسم مسببة آلاماً مختلفة والتهابات فى المفاصل والكليتين وصمامات القلب . إذا كان الالتهاب فى جذور ضرس فى الفك العلوى ، فإنه قد يسبب أحياناً نوعاً من التهاب الجيوب الأنفية يعد من أشد الأنواع إيلاماً . والعلاج الوحيد لمثل هذه الحالات بعد اكتشافها خلع الضرس الذى يخفى البؤرة المتقيحة .

أما اللثة فإنها قد تصاب بالتهاب حاد ، فتتورم ويصبح لونها داكناً وتنزف دماً لأقل ضغط ، وقد يكون هذا الالتهاب نتيجة نقص فى التغذية ، أو إثارة آلية ، أو عدوى من بكتريا . ويبدو أن فيتامين « ج » أكثر أنواع الفيتامينات اتصالا بسلامة اللثة ، وقد لوحظ أن الاهتمام بتناول كوب من عصير البرتقال ، أو ما يعادل عصير ليمونة واحدة يومياً ، يشفى بعض هذه الحالات من الالتهاب . أما الإثارة الآلية فقد

تكون نتيجة استعمال خاطئ لفرشة الأسنان ، أو تراكم الرواسب الجيرية على الأسنان عند موضع اتصالها باللثة .

ولاشك فى أن تدليك اللثة ، وتدريب الأسنان بمضغ الأجسام الصلبة يساعدان على أن تكون الدورة الدموية منتظمة والفم سليما . ولذلك فإنه ينبغى عدم الإكثار من استعمال أحد جانبى الفم وترك الجانب الآخر بغير استعمال لحاجة ضرس فيه إلى إصلاح أو حشو أو لأى سبب آخر .

وإذا كان التهاب اللثة مصحوباً بصديد ، عرفت الحالة طبياً باسم « بيوريا » وليس ثمة غسيل للفم أو معجون أو مسحوق للأسنان يمكن أن يشفيها . ولذلك يلزم المبادرة بعلاجها عند أخصائى .

وأحياناً تنبعث من الفم رائحة كريهة ، وهذه قد تكون نتيجة تسوس فى الأسنان ، أو نتيجة تحلل فضلات الطعام بين الأسنان أو من احتقان بالأنف أو الجيوب الأنفية أو من تقيحات باللوزتين ، أو من مواد طيارة تنبعث من الدم فى أثناء مروره بالرئتين ، ولتفادى هذه الرائحة ، ينبغى معرفة سببها والعمل على إزالته ، وفى حالة انبعاثها من الدم مع الهواء الخارج من الرئتين يفيد جداً الإقلال من تناول المواد الدهنية .

حافظ على بصرك

لا تستطيع العين البشرية أن تقاوم طويلا إذا أسيء استعمالها ، ولكنك إذا كنت تتوقع منها خدمة ممتازة عاماً بعد آخر ، وسنة بعد أخرى، فينبغى أن توليها الكثير من العناية . فإذا كنت تستخدمها أغلب الأوقات فى الرؤية القريبة ، يجب أن تريحها من حين لآخر بالنظر إلى شيء بعيد .

والعين تكون عرضة لسرعة الإجهاد والتعب فى أثناء المرض ، وفى دور النقاهة ، ولذلك ينبغى أن تريحها خلال هذه الفترات . وهى إلى ذلك تحتاج إلى وقاية عند إصابة الجسم بأمراض معدية وخاصة الحصبة .

وعادة القراءة فى الفراش باستمرار تسبب إجهاد العينين ، لأن الكتاب ، أو المجلة أو الجريدة ، لا تكون فى الوضع المناسب المريح للعين ، كما أن الإضاءة لا يكون وضعها مناسباً ، ويغلب ألا تكون كافية وكذلك القراءة على ضوء مهتز أو فى قطار متحرك ، فالضوء الوفير الثابت الموضوع فى مكان مناسب أمر جوهرى لراحة العينين وعدم إجهادهما عند الاستعمال .

وحين تظهر أعراض إجهاد العينين أو اضطراب الرؤية ينبغى استشارة أخصائى . على أنه من المهم أن تدرك أن حالة العينين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحالة الصحة العامة ، ولذلك فإن اضطراب البصر قد يكون وليد مرض معين بالجسم ، وقد يتفاقم ويزيد بسبب ضعف الصحة ، كما أن إجهاد العينين قد يسبب أعراضاً مرضية فى أجزاء بعيدة من الجسم لم تكن تخطر على بال .

وثمة حقيقتان ينبغى أن يفطن إليهما القارئ :

أولا : لقد تقدم الطب تقدماً كبيراً فى التغلب على عيوب البصر وأمراض العين حتى إن كثيراً من الحالات التى كان ينظر إليها على أنها حالات ميئوس منها — منذ عشرين عاماً — أصبحت تعالج الآن بنجاح كبير ، لذلك لا داعى للقلق والخوف عند اضطراب البصر لسبب أو لآخر .

ثانياً : استشارة الطبيب فى الوقت المناسب عن متاعب عينى طفلك يعد كسباً لنصف المعركة .

فمن نواحى تقدم الطب فى هذا المجال استعمال قاتلات الميكروب

ـوخاصة البنسلين ـ فى علاج الأمراض السرية لدى الأمهات بنجاح قبل أن تؤذى هذه الأمراض عينى الجنين قبل ولادته ، واستعمال عقاقير السلفا فى علاج الأرماد المختلفة ، والتقدم الجراحى فى علاج الكتاراكت وغيرها من العيوب البصرية ، وكذلك معرفة العلاقة بين الصحة عامة وبين قوة البصر .

هذا هو الجانب المضىء من الصورة . ويمكن أن يكون أكثر إشراقاً إذا قام الآباء والأمهات بواجبهم فى العناية بعيون أبنائهم وبعيونهم هم أنفسهم .

إن الكثيرين يعلمون أن البصر لا يكون كامل النمو عند الولادة ولكن قليلين يعلمون أنه يستمر فى التقدم والنمو حتى سن السابعة أو الثامنة . وهذا يعنى أنه إذا كان طفلك ـ وهو فى الرابعة من عمره مثلاً ـ يشكو من عيب يضعف قدرته على الرؤية ، فإن النمو العادى لنظره قد يضطرب اضطراباً شديداً مالم يعن بعلاج هذا العيب .

ولكن ما هى الأعراض التى تشير إلى وجود عيب بالبصر يستلزم استشارة الطبيب ؟

إن عينى الطفل الصغير قد تعمل فى اتجاهين مضادين ـ كما لو كان مخموراً أو كأنه « أحول » بعض الشىء ـ وهذا عادى جداً حتى الشهر السادس أو الثامن . ولكن بعد هذه السن ينبغى أن تعمل العينان معاً عندما ينظر إلى شىء متحرك ، فإذا تبينت أن إحدى عينيه أو عينيه معاً بعد هذه السن تتحركان فى غير انسجام وجب عرضه على أخصائى .

وليس صحيحاً ـ كما يظن البعض ـ أن « الحول » يشفى من تلقاء نفسه مع تقدم السن . إنه يمكن أحياناً تصحيحه باستعمال النظارات وعمل تمرينات يصفها الطبيب . ولكن إذا لم يؤد ذلك إلى تحسن مطرد خلال سنة ،

وجب إجراء جراحة ، ولا داعى للخوف من هذه الجراحة ، فهى لا يمكن أن تؤذى العين .

وإذا لاحظت أن ابنك لا يستطيع أن يميز الأشياء البعيدة أو أنه يشكو كثيراً من آلام فى الرأس أو يشكو من أن عينيه تؤلمانه ، أو يحس فيهما بحرقان ، أو لا يرى جيداً فينبغى أن تعرضه على أخصائى لفحصه . ولعل من المستحسن دائماً أن يفحص أحد الأخصائيين عينى الطفل عند أول التحاقه بالمدرسة ، وعلى الرغم من نجاحه فى الكشف الطبى ورؤيته العلامات جيداً عند اختبار قوة بصره ، فهذه العلامات لا تروى قصة جميع العيوب التى يشكو منها طفلك .

وليس صحيحاً ما يقال من أن استعمال الطفل للنظارات وهو صغير يزيد حاجته إليها واعتماده عليها . بل العكس هو الصحيح ، فإن استعمال النظارات دائماً فى مرحلة الطفولة قد يعنى استغناءه عنها كلية بعد سنوات . فالنظارة المناسبة تسهل له الرؤية وبذلك تهيئ الطريق لنمو بصره نمواً عادياً بحيث لا يعوقه عائق. وسوف يخبرك الطبيب الذى يقوم بعمل النظارة عن المدة التى يلزم استعمال النظارة خلالها .

ولا ريب أن التغذية الجيدة المنوعة تساعد كثيراً على الاحتفاظ بسلامة البصر وتفادى أنواع العدوى المختلفة التى تصيب العينين . فالإكثار من الحلوى مثلا قد يجعل طفلك أكثر عرضة للإصابة بعدوى دمامل العين . والأنيميا تسبب سهولة الإصابة بدمامل العين كما تسبب سرعة إجهادها .

ومن العوامل المهمة التى تساعد على سلامة عينى الطفل تعويده الجلوس إلى مكتبه جلسة صحية فى أثناء الكتابة أو القراءة أو الرسم ومنعه من القيام بها وهو مستلق على بطنه ، أو على الفراش أو فى ضوء غير كاف ؛

وتعوده عدم حك عينيه بيده ، وأن يحتفظ بيديه وأظافره دائماً نظيفة وأن يستعمل « فوطة » للوجه خاصة به ، وما إلى ذلك من الاحتياطات الصحية .

الوقاية بالتطعيم

الرياضة ، والهواء النقى ، والطعام الجيد المنوّع والراحة تزيد مقاومة الجسم للمرض ، وهى ضرورية للمحافظة على الصحة ، ولكنها لا تقى الجسم الأمراض المعدية التى تنتقل بسهولة وسرعة من شخص لآخر . فالبطل الرياضى فى عنفوان صحته لا تقل فرص انتقال عدوى الجدرى أو الحمى القرمزية أو الحصبة وغيرها من الأمراض المعدية إليه عن صديق له يقضى معظم أوقاته جالساً إلى مكتبه إذا لم يتخذ الإجراءات اللازمة .

إن مقاومة الجسم للأمراض المعدية تتوقف على حيازة الجسم لمواد وقائية معينة . والجسم قد ينتج هذه المواد بنفسه ، وقد يحصل عليها من شخص آخر ، أو حيوان سبق أن أنتجها .

وجسم الإنسان أو الحيوان ينتج هذه المواد حينما يحفز على إنتاجها بسبب وجود ميكروبات تسبب أمراضاً أو وجود إفرازات سامة لهذه الميكروبات .

ومن الناحية العملية قد يحدث ذلك نتيجة الإصابة بالمرض أو نتيجة إدخال بعض الميكروبات الميتة ، أو ميكروبات أضعفت لدرجة كبيرة أو كميات صغيرة جداً من إفرازاتها السامة فى الجسم . وتعرف الطريقة الأخيرة « بالتطعيم » .

ولا يمكننا أن نتصور كيف كان الجدرى مثلا مرعباً وفظيعاً قبل أن يعرف التطعيم ، ولقد كان من الأمراض التى لا مفر من الإصابة بها ،

مثل الحصبة اليوم . كان الجدرى مرضاً من أمراض الطفولة ، مثل السعال الديكى والحصبة . وقدر عدد الذين ماتوا ضحية هذا المرض فى أوربا وحدها ، خلال القرن الثامن عشر بنحو ٦٠ مليون نسمة .

والجدرى مرض معد ينتشر حيث يجد الوسيلة للانتشار بغض النظر عن الجو أو التربة أو السن ، وهو لا يميز بين فقير وغنى ، نظيف أو قذر والطريقة الوحيدة للتحكم فيه ووقفه ، هى رفع درجة مقاومة الجسم له عن طريق التطعيم .

ومن هنا كانت أهمية « التطعيم » الذى لم يعد أحد يشك فى جدواه — بل فى ضرورته — لا ضد الجدرى وحده بل ضد الدفتريا والتيفود والسعال الديكى وشلل الأطفال وغير ذلك من الأمراض .

ولايزال أمام العلماء مجال واسع لإعداد لقاحات ضد كثير من الأمراض المعدية ، تزيد مقاومة الجسم لميكروباتها وفيروساتها بحيث يستطيع الجسم أن يتغلب عليها ويفتك بها إذا هاجمته خلال الفترة التى تكسبه فيها هذه اللقاحات حصانة ضدها .

الفصل الرابع

« حياتك الجنسية »

عند بدء سن البلوغ تقتحم حياة الشاب قوة جديدة جبارة طاغية تزيد مشاكله الصحية والاجتماعية تعقيداً ، إذ تستيقظ القوى الجنسية الكامنة من سباتها ، وتبلغ أوج اندفاعها نحو الجنس الآخر . ويزيد من قوة هذا الاندفاع ما تفرزه الغدد التناسلية من هورمونات مما يخلق للناشئ الصغير مشكلة عويصة ، تتطلب مجهوداً جباراً لضبط النفس من خطر التطلع إلى الاختبارات الجنسية .

على أن الدافع للفتيان فى سن ١٤ و ١٥ إلى الانزلاق فى مهاوى اختبارات جنسية قد يكون حب الاستطلاع أكثر مما تبعثه الغريزة من قوة اندفاع .

ويتسم الشباب عادة بالنزق والطيش والتهور والتقلب السريع ، والتدهور من أوج الأمل وقمة الرجاء ، إلى مهاوى اليأس القاتل . ويرجع معظم حوادث انتحار الشباب اليافع لأسباب تبدو لنا واهية تافهة .

ولكن معقد الرجاء فى الشباب هو ما يكمن فى أعماق نفوسهم من مثالية رفيعة .

وهكذا تتصارع فى الشاب قوتان هائلتان ، القوى الجنسية الطافية على السطح ، والمبادئ المثالية والدينية الراسبة فى أعماق النفس البشرية منذ أقدم العصور .

ونحن لا نريد للشباب صراعاً عنيفاً ، ولا حرباً داخلية تولد الخوف

والقلق والعقد النفسية ، ولكننا نريد فهماً عميقاً لمشاكل الجنس لا تتعارض والمثالية المرموقة .

نريد للشباب أن يبتعد عن عواصف الجنس ، ويبتعد كذلك عن الخيال ليعيش فى الواقع الهادئ المعتدل .

فالاعتدال يجب أن يكون دستور حياتنا ، حتى فى العواطف البريئة فإن تعلق الأب بابنته والأم بابنها لو زاد عن حد الاعتدال يصبح من العسير على الأبناء والبنات الفكاك من أسر التعلق بوالديهم والاتجاه بعواطفهم نحو الوضع الصحيح لتكوين أسر جديدة سعيدة .

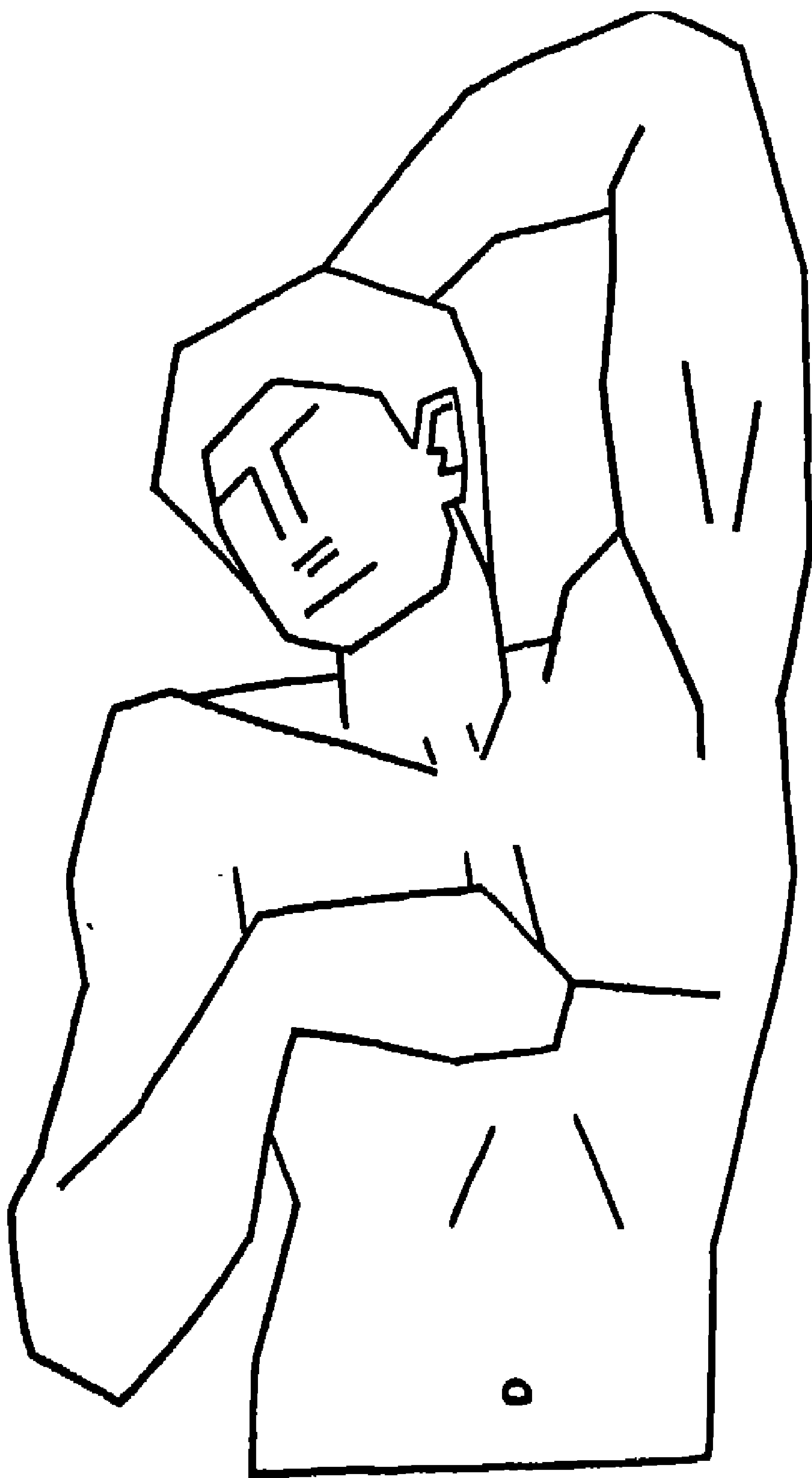
والزواج هو وحده الذى ينظم العلاقات الجنسية لأسباب لها أهميتها القصوى وحيويتها الكبرى ، وقد اكتسبها الجنس البشرى وتميز بها عبر القرون .

والزواج فى بدء البلوغ الجنسى أمر عسير المنال ، إذ أن أمام البالغ الصغير سنوات طويلة من الدراسة والتحصيل ليصبح قادراً على تحمل الأعباء الاقتصادية والاجتماعية التى يلقيها عليه الزواج .

فهناك فترة طويلة تتراوح بين ٨ سنوات و ١٥ سنة بين سن البلوغ التى تلح فيها الغريزة الجنسية على الشاب إلحاحاً عنيفاً ، والسن التى يمكن أن ينهض فيها بأعباء الزواج .

وهذا هو الوضع الذى يخلق المشاكل الجنسية بمختلف درجات العنف ، ويتوقف مبلغ خطورتها على الفرد نفسه ودرجة تمرسه ، ومقدار نضج شخصيته .

ولابد من الاعتراف بأن هذا الوضع صعب وشاذ ، ولابد أيضاً من مجابهته وتكييف حياتنا وتقبله كأمر واقع ، فهذه هى ضريبة المدنية . فى البلاد المتأخرة والقبائل البدائية ، ينتشر الزواج المبكر فضلا عن



زواج الأطفال ؛ ولذلك لا توجد هذه الفترة الحرجة فى حياتهم .

ولكن علينا ألا نبتئس من هذه الفترة القلقة ، فقد عوضتنا المدنية الجزاء مضاعفاً ، إذ ارتقت العواطف وتهذبت النفوس ، وأصبح الزواج أمراً سامياً روحياً مقدساً وليس مجرد إشباع رغبة مادية كالطعام والشراب كما هو الحال فى هذه القبائل المتأخرة . ونعتقد أن التسامى بالغريزة الجنسية ، وحصر الفكر فى بناء المستقبل المرموق ، والتمسك بأهداب الدين يساعد الشاب على اجتياز هذه الفترة الحرجة بسلام ؛ وهو أساس السعادة فى الحياة الزوجية المقبلة .

والواقع أن المعلومات الوثيقة عن فسيولوجية الجنس على جانب كبير من الأهمية ، فإننا قد نتسامح فى الجهل بوظائف القلب أو التنفس أو الهضم ، فلن يؤثر ذلك فى دقات القلب أو خلجات الرئة ، أو تقلصات المعدة والأمعاء . أما اعتناق فكرة خاطئة أو ترويج معلومات مضللة فى أمور الجنس ، فذلك يسبب أمراضاً نفسية عنيفة ، تقود إلى حلقة مفرغة من الهموم والمتاعب .

الأعضاء التناسلية

تحقق الأعضاء التناسلية هدف الطبيعة الأعظم فى حفظ النوع ، ويتم ذلك فى الحيوانات بطريقة آلية بحتة ، أما الإنسان المتحضر فقد أحاط الحياة الجنسية بهالة من العواطف الرقيقة ، وبنى عليها الحب والأسرة والأطفال ، وربط بها خلاصة ما فى الدنيا من جمال وبهجة ، وتمثل فيها أسمى ما فى الحياة من معان .

وتفرز الخصية الحيوانات المنوية التى تختزن فى الحويصلة وتصل إلى الخارج عن طريق قناة مجرى البول التى تخترق عضو الذكر ، ويحيط

بها نسيج إسفنجي ملىء بالأوعية الدموية .

ويفرز المبيض فى المرأة البويضات التى تنضج منها بويضة واحدة كل شهر ، ثم تنفجر وتصل إلى سطح المبيض ، ويحدث هذا عادة فى منتصف الدورة الشهرية للأنثى ، وتصل البويضة عن طريق قناة خاصة إلى الرحم .

والرحم عضو عضلى فى منتصف الحوض ، والجزء الأسفل منه يعرف بعنق الرحم ويبرز داخل المهبل .

وعندما يلتقى حيوان منوى ببويضة فهذا يشير ببدء حياة جديدة .

الطمث

وبدء الطمث معناه أن الفتاة قد بلغت سن النضج الجنسى وأن الإخصاب عندها أصبح ممكناً ، وفى كل شهر يتضخم الغشاء المخاطى المبطن للرحم ، ويصبح معدًّا لاستقبال البويضة الملقحة ، فإن لم يحدث تلقيح فإن هذا الغشاء المتضخم يتساقط ويقذف خارجاً مختلطاً بكمية من الدم . وهذا ما يعرف بالحيض الشهرى أو الطمث ، وتتكرر هذه العملية كل شهر بتأثير هورمونات خاصة .

ويبدأ الطمث عادة فى سن ١٢ — ١٤ ، غير أنه فى بعض الأحوال النادرة قد يبكر فيبدأ فى سن العاشرة أو يتأخر إلى سن ١٦ — ١٨ سنة .

ويجب أن تعلم الفتاة شيئاً عن هذا الأمر حتى لا يزعجها أول طمث .

وبما أن الطمث أمر عادى ، فالطبيعى ألا يصاحبه أى ألم غير أننا نأخذ على بعض الأمهات تسمية الطمث « بالمرض الشهرى » فتنشأ

الفتيات وقد علق بأذهانهن هذا الوهم الخاطئ مما قد يسبب أوخم العواقب .

وفى الأحوال النادرة التى يصاحب الطمث فيها ألم شديد يجب المبادرة باستشارة الطبيب لتلافى هذه الأعراض .

وغالباً يزول هذا الألم بممارسة بعض أنواع الرياضة الخفيفة ولو مجرد السير على الأقدام مسافات طويلة . ويحسن تجنب القفز والرياضة العنيفة فى أثناء الطمث ، أما مجرد السير فى اليوم الأول فمن شأنه أن ينشط الدورة الدموية ويمنع احتقان المبيض الذى هو سبب الألم .

ويجب تجنب الحمامات الباردة أو الساخنة ، ويجوز استعمال الماء الدافئ فى درجة حرارة الجسم للنظافة .

وواجب كل أم أن تشرح لابنتها بلباقة المعلومات الوافية عن العادة الشهرية ، ابتداء من سن ١١ أو ١٢ لينطبع فى ذهن الصغيرة حقيقة هذا الأمر العادى الطبيعى الذى لا يمكن أن يكون مرضاً يستوجب الاعتكاف فى الفراش أسبوعاً من كل شهر .

الاحتلام

الاحتلام دليل نضج الخصيتين ، ويجب أن ينظر إليه الشاب ووالداه على أنه أمر طبيعى الحدوث .

وقد يبدأ الاحتلام فى سن مبكرة تروح بين التاسعة والعاشرة ، وقد يتأخر إلى سن ١٦ ، أو ١٧ . وهذا لا يعنى شيئاً ذا بال . ولا علاقة له بالنمو أو ظهور اللحية أو الشارب .

وفى بعض الحالات يكون الاحتلام كل ليلة ، وفى أحوال أخرى يحدث مرة واحدة كل شهر ، وإن انتظام مواعيده أو اضطرابها ،

ليس له دلالة خاصة ، ويجب ألا يبذل أى جهد للتحكم فيها ، لأن هذا الجهد سيخفق حتما ، وسيولد عند الناشئ الصغير شعوراً بالعجز والنقص يكون له أسوأ الأثر فى حياته .

ويعتقد الكثيرون خطأ أن فقدان السائل المنوى معناه فقدان مصدر ثمين للطاقة ، وتعطيل كبير للحيوية .

والواقع أن السائل المنوى مجرد إفراز يجب أن يخرج من الجسم ولا علاقة له مطلقاً بالحيوية ، ولا يمكن أن يكون مصدراً للطاقة ، ولا يستفيد الجسم من وجوده شيئاً .

ونعتقد أن مصدر هذا الزعم هو الخلط بين السائل المنوى وإفراز الخصية الداخلى الذى يصل إلى الدورة الدموية ويعرف بهورمون الجنس ، وهو الذى يؤثر فعلاً فى جميع خلايا الجسم ، وله علاقة كبرى بالنمو وعمليات التمثيل الغذائى .

ويجب أن يعلم اليافع من والديه أو من أصدقائه طبيعة الاحتلام ومصدره ، كما يجب أن يعرف بأنه لا يضر بأية وظيفة من وظائف الجسم . فجهله بذلك يسبب له اضطرابات نفسية منشؤها الإحساس بالإثم والشعور بالعجز عن التحكم فى وقف هذا الأمر الطبيعى .

وأكثر الأبناء يخجلون من مصارحة ذويهم فى الشئون الجنسية ، لذلك ينبغى أن يشجعهم الآباء على مناقشة هذه الموضوعات لتصحيح معلوماتهم عنها وتبديد جهلهم بها .

العادة السرية

العادة السرية من المشكلات الجنسية القليلة التى أثير حول نتائجها كثير من المعلومات الخاطئة المضللة .

فى العصور الوسطى ، كان الرأى السائد أن هذه العادة تسبب قائمة طويلة من الأمراض ، وأنها تضعف القوى الطبيعية والعقلية ، وتقتل الإرادة وتتلف القوى الجنسية وتؤدى إلى الجنون .

وقد سجلت حالات انتحار كثيرة كانت نتيجة انتشار مثل هذه التعاليم ، ومما ساعد على اتهام هذه العادة بأنها سبب أمراض عديدة أن هذه الأمراض لم يكن لها وقتئذ سبب معروف .

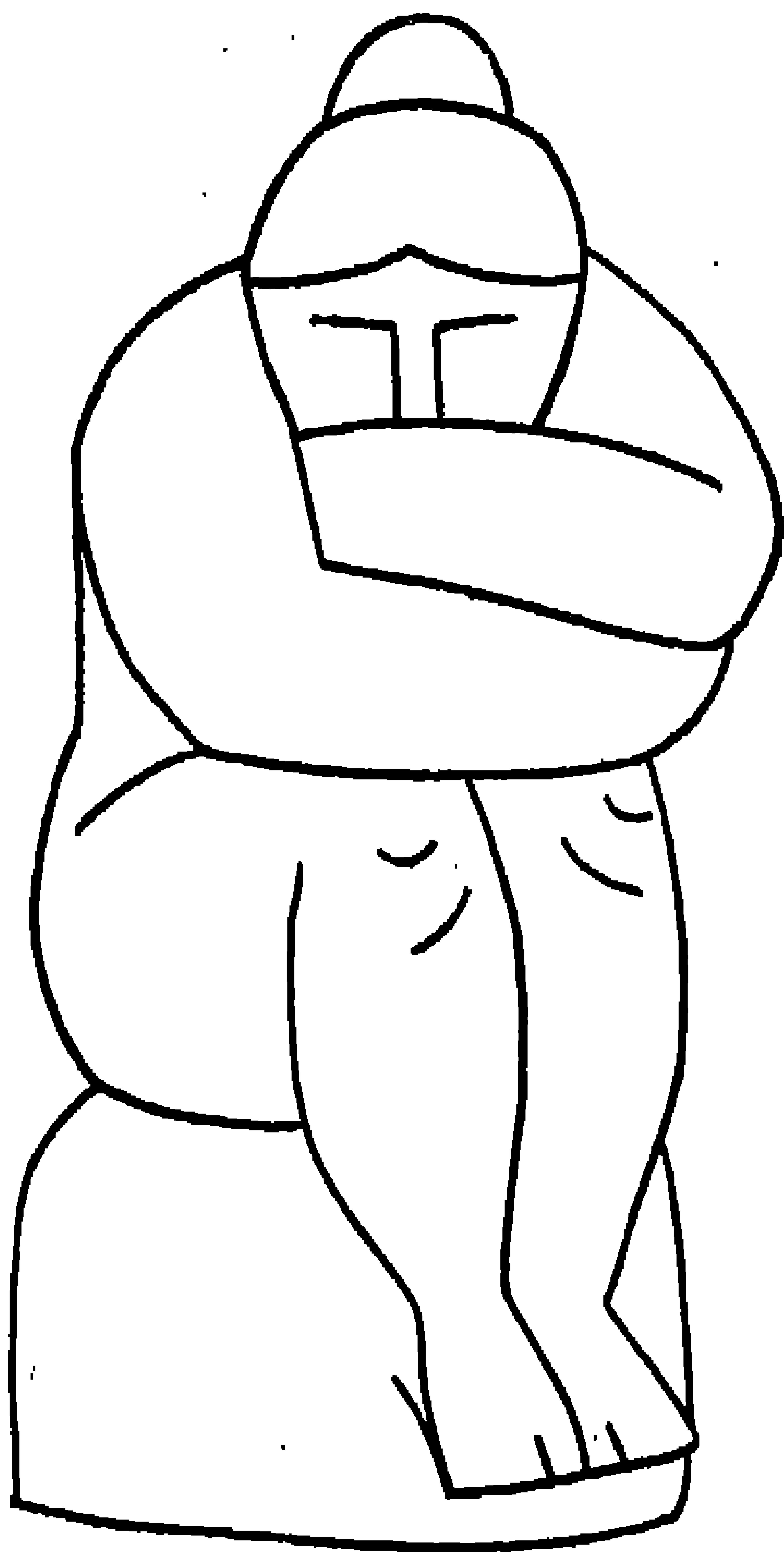
فإذا مرض شاب بالتشنج العصبى ، فما أسهل اتهام العادة السرية بأنها السبب ، وإذا أصيب آخر بفقدان الشهوة إلى الطعام فهى كذلك أس البلاء .

ولقد ثبت الآن بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا ضرر على الصحة من ممارسة العادة السرية باعتدال ، كما اتضح من الإحصاءات الدقيقة أن ٩٢ ٪ من الشباب فى سن البلوغ يمارسونها ، وإنما الضرر الأكبر لهذه العادة هو التوهم أن لها ضرراً .

وهذا ليس معناه أننا نؤيد ممارسة العادة السرية ، فهى ليست أمراً طبيعياً ، والشبان يصعب عليهم الاعتدال ، فهم مغرمون بالاندفاع والمغالاة ، ولابد من أن نؤكد أن الإكثار من ممارسة هذه العادة هو تضييع للجهود فيما لا طائل تحته ، وتبذير للحيوية فى سن يحتاج فيها الفتى والفتاة إلى تعبئة كل الطاقة لتكوين الشخصية وتحصيل العلم وتنمية الخلق وبناء المستقبل .

تأثير الغذاء

وللغذاء الذى نأكله ، والعمل الذى نمارسه ، والمؤثرات التى تتعرض لها حواسنا أثر فى الرغبة الجنسية .



وتزداد قيمة هذه العوامل بعد الأربعين ، عندما تخبو فورة الشباب وتبدأ قوى الجسم الحيوية فى الاضمحلال .

ومنذ العصور القديمة عرف الإنسان أن لبعض أنواع الأطعمة أثراً مقوياً للجنس ، فحرم الفراعنة تناول السمك على الكهنة حتى لا تشتعل فيهم نيران الرغبة فتؤثر فى قدسيتهم .

ويحتفظ السمك إلى هذا اليوم بشهرته فى هذا الميدان ، وفى قصة السلطان صلاح الدين والدرويش الذى اختاره لتعليم جواريه ، ما يشير إلى الأثر المباشر للطعام ، فقد ظل الدرويش محتفظاً بطهارته حتى ضل بعد وجبة سمك شهية .

والمشاهد أن سكان المدن الساحلية التى تستهلك كمية كبيرة من السمك يتميزون بوفرة عدد أطفالهم .

ومن الأغذية الجنسية التى لها شهرتها التاريخية الحمام والديوك الرومى والبيض والبطارخ ولحم الضأن ، ولعل من الطريف أن نذكر « الروشتة » التاريخية للتقوية الجنسية التى كانت تستعمل فى القرون الوسطى بنجاح كبير : يغلى رطلان من لحم الضأن وقبضة من البقدونس وثلاثة رؤوس كبار من القرنبيط ، كل فى وعاء خاص لمدة ساعة ثم يمزج الجميع ويغلى المزيج لمدة ربع ساعة بعد إضافة كمية قليلة من الماء ، ويؤخذ منه فنجان كل ثلاث ساعات فى اليوم الأول ، ثم فنجان واحد صباحاً فقط بعد ذلك .

والغريب أن الإنسان قد اكتشف أن لهذه الأطعمة خاصية تقوية الرغبة الجنسية قبل أن يعرف شيئاً عن تركيبها ، وقد أثبتت التحاليل الحديثة أن هذه الأغذية غنية بالفوسفور والحديد ، والفوسفور له علاقة خاصة بتقوية الأعصاب ، والحديد له دور هام فى تقوية الدم .

القصور الجنسي

العنة أو الارتخاء حدث خطير يهدد الحياة الزوجية تهديداً كبيراً ، وقد يفصم عراها نهائياً ، إذ تفقد غرضها الأساسي وهو تكوين الأسرة وحفظ النسل .

والعنة نوعان : عضوى ونفسي ، والارتخاء العضوى يسببه مرض يمكن الكشف عنه والتعرف عليه . أما النفسي فيرجع إلى حالة عصبية أو عقلية . ويحتاج كلا النوعين إلى اهتمام الطبيب وعنايته . ويشمل القصور الجنسي العضوى ضعف الرغبة والارتخاء وسرعة القذف ، وقد ينشأ القصور فجأة أو يأتى تدريجياً .

وأسباب القصور العضوى كثيرة ، فأى مرض يؤثر على الأعضاء قد يسببه ، وكذلك تلعب الأمراض التناسلية دوراً هاماً فيه ، والتهابات الأعضاء الداخلية وبخاصة الحويصلة المنوية التى هى مخزن السائل المنوى وغدة البروستاتا التى تحيط بمجرى البول من الداخل . و « بروستاتا » كلمة لاتينية معناها حارس ، وإفرازها لازم لحيوية الحيوانات المنوية . وبغيره يفقد الرجل قدرة التناسل ، ونقص إفرازات الغدد ، وبخاصة غدد الجنس قد يسبب العنة . كما ينشأ القصور بسبب أورام فى أعضاء التناسل وأمراض الأعصاب التى تغذى هذه الأعضاء تسبب ارتخاء فجائياً كاملا .

وكثرة استعمال بعض العقاقير وإدمان الخمور والمخدرات ، تضعف القوى الجنسية على نقيض ما يظنه كثير من الناس خطأ .

ويحسن أن ننبه كذلك إلى أن الإفراط فى العلاقات الجنسية والضعف العام ، واستعمال مانعات الحمل والإمناء فى الخارج وغيرها من الطرق غير الطبيعية قد يؤدى إلى القصور الجنسي .

والإمناء فى الخارج عادة شائعة كطريقة لمنع الحمل وتحديد النسل ، ويعتقد الكثيرون أنها خالية من الضرر ، والواقع أنها كثيراً ما تسبب التهابات الحويصلة المنوية ، وبالتالى ضعف القوى الجنسية .

وعندما تضمحل الصحة العامة تنقص القوى الجنسية . كما أن ضغط الدم المنخفض قد يسبب الارتخاء . وأمراض السكر والدم والقلب والكلى تقلل الرغبة والحيوية .

أما القصور النفسى الناشئ عن اضطرابات عقلية وعصبية ، فيمكن تحديد بعض أسبابها وأهمها الخوف والغضب والنفور والخسائر المالية والقلق والإجهاد فى العمل وغيرها .

ويقابل حالة القصور الجنسى عند الرجال ، ما يعرف بالبرود الجنسى عند النساء الذى سرعان ما يقودهن إلى الانهيار العصبى ، وينشأ البرود الجنسى عن أسباب كثيرة منها : انعدام الثقة فى الزوج ، والخوف من الحمل ، والجزع من الإضرار بالجهاز التناسلى ، والصدمات العصبية والنفسية ، وكراهية الزوج ، والازدراء الطبيعى بالعلاقات الجنسية .

الكبت الجنسى

أثير جدل كبير حول موضوع الكبت الجنسى ، فبينما يعتقد البعض أنه يسبب تلف الأعصاب والأضرار الخطرة بالصحة ، يعتقد البعض الآخر أنه مفيد للجسم .

والواضح أنه ليست لدى الناس فكرة صحيحة عن هذا الأمر . وقد عاش إسحاق نيوتن أعزب طوال حياته حتى توفى فى سن الخامسة والثمانين ، ومن مذكراته الشخصية ثبت أنه عاش حياة طاهرة تماماً ، والمعروف أنه عاش طوال حياته سليماً بغير مرض ، أما قواه العقلية فقد بلغت

أوج القمة والعظمة كما تشهد بذلك نظرياته العلمية الخالدة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الفيلسوف سقراط عاش حياة أبعد ما تكون عن الفضيلة ، والواقع أن أصابع الاتهام تكاد تجمع على شذوذه الجنسى ، ومع ذلك فإن صحته الجسمية والعقلية لم تتأثر بعاداته الجنسية الممقوتة .

وفى الحياة العملية شاهدنا حالات امتناع تام عن العلاقات الجنسية دون أن يكون لذلك أدنى أثر على الصحة العامة ، لأن الغريزة الجنسية عند هذه الفئة ضعيفة أصلا ، فلم تكن هناك رغبة قوية تحتاج إلى إرادة أقوى لكبح جماحها ، مثل هؤلاء الناس يعيشون حياة العزوبة ولا يفكرون فى الزواج ، وليس لذلك أى أثر على صحتهم الجسمية والنفسية .

ومن جهة أخرى فحالات الكبت الجنسى فى الأفراد العاديين لها نتائج وخيمة ، وليس من سبب يجيز للمتزوجين الانقطاع عن العلاقات الزوجية بحجة توفير حيوية الجسم أو ما شابه ذلك من علل .

ومن الصعب فى الأمور الجنسية وضع قواعد عامة ، فلكل حالة ظروفها الخاصة التى يجب أن تعالج فى ضوئها .

تحديد النسل والصحة

لا يمكن القول أن تحديد النسل ضار أو مفيد بوجه عام ، فهو موضوع متشعب النواحى ، إذ أن له علاقة بالصحة والدين والاجتماع والاقتصاد ، ولكل من هذه النواحى مسوغات فى مصلحة تحديد النسل وأخرى فى غير مصلحته .

والواقع أن محاولة تجنب الحمل مع الحرص على التمتع بالعلاقات الجنسية : أمر عرفه الإنسان منذ أقدم العصور ، ولم يخرج سببه إذ ذاك عن أمرين : إما الخوف من افتضاح الأمر فى حالة العلاقات غير المشروعة . وإما اتفاق الزوجين على عدم إنجاب الأبناء لسبب ما . أما المسائل الاقتصادية والصحية فلم تكن لتخطر على بال أحد ، إذ لم يكن الفكر الإنسانى قد بلغ هذه الدرجة من التقدم .

وأول إشارة إلى تجنب الحمل وتحديد النسل جاءت فى التوراة . وفى عهد الإغريق القدماء ، لم يشر أرسطو فى كتاباته إلى موضوع منع الحمل أدنى إشارة ، بل أوضح انتشار ممارسة الإجهاض ، وقتل الأطفال ، هذه الملاحظة لها أهميتها إذا علمنا أن أرسطو وأبقراط قد توسعا فى الكتابة عن الأمور الجنسية .

وحتى عندما دب الفساد فى الإمبراطورية الرومانية ، وانحلت الأخلاق ، لا نجد إشارة إلى طرق منع الحمل إلا ما يدل على انتشار الطرق البدائية مثل الإمناء من الخارج ، وبعض الإشارات العابرة والمعلومات السطحية عن فترة الأمن عند النساء .

وظلت هذه الطرق وحدها تستعمل لمنع الحمل حتى بعد اكتشاف الكينا والمطاط فى القرن السابع عشر ، إذ لم تعرف خواص الكينا فى قتل الحيوانات المنوية ، ولم تصنع أكياس المطاط الواقية من الحمل إلا منذ عهد قريب جداً ، ونعلم ذلك من الرجوع إلى قاموس الدكتور جيمس الذى ظهر عام ١٧٤٣ ، وهو أكبر القواميس الطبية ، إذ لا نجد فيه شيئاً عن منع الحمل ، مع أنه توسع فى شرح الأمور الجنسية الأخرى ، وأخذ خلاصة المراجع السابقة ، حتى إنه نقل نصوصاً مما كتبته الدكتورة إسباسيا أول طبيبة بين النساء فى التاريخ .

وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما استرعى موضوع تحديد النسل أنظار المفكرين من الرجال والنساء .

والواقع أن مالثوس يعد أول من اهتم بهذا الأمر من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعية ، ويمكننا أن ندرك السر فى تجاهل هذا الموضوع طيلة هذه الفترة إذا علمنا أن سلطة بابوات روما التى بدأت تتزايد منذ القرن السادس عشر كانت قد بلغت ذروتها ، وأن كل كتابة تمس موضوع تحديد النسل من قريب أو بعيد كانت تعرض كاتبها لحكم الإعدام ، وقد نفذ حكم الإعدام شنقاً فى آنى بسبات وورادلو عام ١٨٧٧ لبيعهما منشوراً عن تحديد النسل .

وعقب هذا الحادث مباشرة عدل مالثوس القانون وأباح مناقشة موضوع تحديد النسل . ومنذ ذلك الحين نظر الناس إلى تحديد النسل كأحد مستلزمات المدنية الحديثة التى يستشيرون فيها الطبيب بغير حرج .

ونعتقد أن هناك — بجانب الاعتبارات الاقتصادية — دواعى طبية تحتم تحديد النسل هى :

١ — تنظيم فترة راحة بين كل حمل وآخر ، لا تقل بأية حال عن سنتين ، فإن ذلك يسمح بعودة الأم إلى حالتها الطبيعية . ويحول دون إصابتها بأمراض نقص الكالسيوم والضعف العام .

٢ — تحسين صحة النسل ، فإن كثرة الحمل تسبب فى النهاية إنجاب أطفال ضعاف البنية .

٣ — مرض أحد الوالدين يستلزم تحديد النسل ، حفظاً للمستوى الصحى للجيل المقبل .

٤ – فى حالة إصابة أحد الوالدين بأمراض مزمنة فى الكلى أو الرئة أو القلب أو الأعصاب .

٥ – عقب إجراء جراحة للأم فى الحوض أو البطن : لإعطاء فرصة كافية لالتئام الأنسجة .

ومن حسن الطالع اكتشاف أقراص تؤخذ عن طريق الفم وتمنع الحمل ولا تستلزم أكثر من المواظبة على ازدراد قرص واحد يومياً ، من اليوم الخامس لبدء الطمث حتى اليوم الخامس والعشرين .

الفصل الخامس

كيف تعيش سعيداً في شيخوختك ؟

قصدت الطبيعة أن يكون متوسط عمر الإنسان مائة وعشرين عاماً قياساً على ما يشاهد من أن متوسط أعمار الطيور والحيوانات يعادل فى الغالب تسعة أمثال السن التى تصل فيها إلى مرحلة البلوغ .

فإذا كان هذا هو ما قصدته الطبيعة من حيث العمر ، فقد قصدت أيضاً أن يظل « الخط البيانى » للصحة والقوة فى تقدم وارتفاع حتى سن الستين أو السبعين على الأقل ، ثم يأخذ فى الهبوط تدريجياً حين تبدأ عوامل الانحلال تدب فى خلايا الجسم ، فتضعف مقاومته ، وتظهر أعراض الأمراض ، التى تعرف فى الطب باسم « الأمراض الانحلالية » أو « أمراض الشيخوخة » وهى أمراض يستطيع « الشيخ » أن يحيا — على الرغم منها — هانئاً سعيداً مستمتعاً ببهجة الحياة ، إذا عرف منشأها وحرص على اتباع نظام خاص فى غذائه وأسلوب حياته يتلاءم معها .

فحديثى فى هذا الباب موجه إلى الشيوخ الذين تجاوزوا سن الستين ، وقد يستفيد منه الذين أساءوا إلى أنفسهم ، فسمحوا لعوامل الانحلال أن تدب فى خلايا أجسامهم ، وللشيخوخة أن تهاجمهم قبل الأوان .

انحلال الخلايا

بتقدم العمر تبدأ خلايا الجسم تنحل ، ولا يمكنها الاستجابة الطبيعية لأوجه النشاط اليومية ، ولذا تتسم تصرفات الشيوخ بالبطء فى كل شىء : فى السير ، وفى الكلام ، وفى الحركة ، وفى النشاط ؛ ولكنهم يخلعون على هذا

البطء لقب « الوقار » وهو فى الحقيقة « عجز » عن الحيوية والنشاط .

وقد يخفى الوقار اضطراباً فى وظائف الجسم . فمن المهم أن نكتشف سبب أقل انحراف فى هذه الوظائف لإصلاحه فى الوقت المناسب أو لوقف استفحاله على الأقل .

وخير سبيل للوصول إلى هذا الهدف هو أن يتعود المرء فحص حالته فحصاً طبياً شاملا كل عام ، والمدهش أنه بالرغم من الأهمية الكبرى لهذا الفحص ، فإنه قل من يعنى به ، وقليل من الأطباء من يعلق على هذا الفحص أهمية خاصة ، فعندما يذهب هذا الشخص لطبيبه وهو لا يشكو شيئاً ليطلب فحص حالته فقط ، فالغالب أن يجتهد الطبيب فى التخلص من الشيخ السليم المتمارض : وقد يمازحه قائلا : « وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ » .

والواقع أن الفحص السنوى للصحة العامة يجب أن يبدأ بالاستفسار الكامل عن حالة الشخص الاجتماعية ، وعاداته فى العمل ، والأكل ، والنوم ، ثم بعد ذلك تبدأ المناقشة فى الأعراض التى تشير إلى اضطراب أعضاء خاصة مثل النظر ، والسمع ، أو صعوبة التبول والتبرز ، أو ضيق التنفس والخفقان .

وبعد ذلك يبدأ الفحص ، الذى يجب أن يكون شاملا ، فيسجل وزن الجسم ، ولون الجلد ، ونتيجة التحليل الكامل للبول ، ويفيد عمل اختبار ترسيب الدم ، الذى — برغم أنه لا يختص بمرض معين — يثبت الخلو من عدة أمراض خطيرة عندما تكون نتيجته عادية ، فإذا كانت النتيجة إيجابية مرتفعة فإن ذلك يحفز الطبيب على البحث عن السبب .

ولابد من فحص قاع العين ، واختبار السمع أيضاً . ويفحص القلب والرئة بالأشعة النظرية ، وأى ظل يبعث على الشبهة ينبغى أن تحقق

صورته بالأشعة . ويقاس ضغط الدم ، ويعمل بيان رسام القلب الكهربائى ، ويفحص البطن ، والشرج ، والحوض فى النساء .

أما مدى الأبحاث التى تلى ذلك فيتوقف على نتائج الاختبارات السالفة الذكر . وليس من المعقول أن نفحص المعدة والأمعاء بالأشعة بعد تناول الباريوم فى كل شخص . فإن هذا يكلف مالاً طائلا ووقتاً كبيراً ، وقد عمدت إحدى الهيئات الطبية مرة إلى فحص ١٠٠٠ عابر سبيل بالأشعة للمعدة والأمعاء لمعرفة مدى انتشار سرطان المعدة ؛ فاكتشفت ثلاث حالات فقط . وعندما أحصت تكاليف هذا الإجراء ، وجدت أنها أنفقت ثلاثة آلاف جنيه لفحص هذه المجموعة ، ومعنى ذلك إنفاق ١٠٠٠ جنيه لاكتشاف حالة سرطان واحدة فى المعدة .

وعندما يشكو متقدمو السن من اضطرابات الهضم ، أو من فقدان الشهوة أو إمساك مفاجئ أو إسهال مفاجئ ، أو تبادل الإسهال والإمساك المفاجئين ، فلابد من عمل صورة بالأشعة للمعدة والأمعاء .

وهناك اختبارات أخرى ، وفحوص معملية كثيرة ، تجرى فى حالات خاصة ، تترك لتقدير الطبيب المعالج ، ولكننا نحب أن نؤكد ضرورة عناية كل من المريض والطبيب بالفحص الشامل السنوى كل العناية .

وعلى الطبيب أن يقرب إلى ذهن مريضه ، مغزى بعض الأعراض الهامة التى تصادف متقدمى السن ، ليسرع فى الاستشارة ، كلما أحس بشىء منها .

فنقص الوزن ، وفقدان الشهوة ، والضعف العام ، كل هذا قد يتأتى من نقص التغذية أو زيادة إفراز الغدة الدرقية ، أو السرطان .

وجفاف الجلد ، والحكة ، قد لا تعنى سوى الشيخوخة ، ويمكن إصلاح الحالة بالهورمونات ، كما قد تنشأ بسبب كثرة الاستحمام ،

والإسراف فى استعمال الصابون ، مما يزيل المادة الدهنية التى تشحم الجلد ، دون أن يعوض ذلك باستعمال « الكريم » وبخاصة أن المادة الدهنية التى توجد تحت الجلد تقل عند متقدمى السن . وقد تنشأ الحكة بسبب مرض عام فى الجسم . وكثرة ظهور البقع الزرقاء على الجلد دليل نقص فيتامين « ج » أو ضعف الشعيرات الدموية .

وإذا حدث نزيف من الشرج وجب ألا يمر ذلك ببساطة ، وألا يعزى إلى وجود البواسير ، ولو كانت هذه البواسير موجودة فعلا ، ففى السن المتقدمة كثيراً مايأتى هذا النزيف من مناطق الأمعاء العليا . حيث قد يكتشف ورم أو قرحة . والنزيف المهبلى يستلزم هو الآخر فحصاً دقيقاً للتحقق من السبب .

وصعوبة التبول لدى الشيوخ تنتج من تضخم البروستاتا ، وهذا المرض يأتى ببطء زائد ، لدرجة أن المريض لا يحس بتقدم الحالة إلا مؤخراً ، فمن الحكمة أن تستشير الطبيب مبكراً . أما فى النساء فتكون صعوبة ضبط البول بسبب ضعف عضلات الحوض من جراء التمزقات التى تحدث فى أثناء الولادة وتقدم العمر .

وكثير من متقدمى العمر يشكون من آلام روماتزمية قد تكون فى العضلات ، أو المفاصل أو العمود الفقرى ، وينشأ هذا الألم من انحناء الظهر ، أو من تآكل العظام ، أو من اضمحلال غضاريف المفاصل ، أو من الإصابة بميكروب ، وكل هذه الحلات تستلزم الفحص الدقيق والعلاج المناسب .

ويجب ألا تهمل الأورام فى أى مكان ، بل يجب أن تكون سبباً هامًّا للإسراع فى استشارة الطبيب .

ويتضح مما تقدم أنه من الخطأ أن تعزى الأعراض التى يشكو منها

متقدمو السن إلى الشيخوخة وجدها ، فهى غالباً تدل على أمراض وتنبئ عن علل يمكن علاجها ، أو على الأقل وقف استفحالها .

غذاؤك بعد الستين

الغذاء وقود الجسم يمده بالطاقة اللازمة للنشاط ، ولتعويض مايتلف من الخلايا ، وهذا الوقود يجب أن يتناسب مع ما يقوم به الشخص من أعمال .

وبتقدم العمر ، يقل النشاط الحيوى للجسم ، ويقل تبعاً لذلك ما ينفقه من طاقة ، فإذا زاد « الوقود » عن الحاجة ، تكدس الزائد شحماً ، يضاف إلى وزن الجسم ، وإن قل ينقص الوزن وينحف الشخص .

ولا يمكن الاعتماد على الشهوة للطعام ، إذ أن الإسراف فى الأكل قد يصبح عادة تلازم الشيخ ، فيتناول الكميات التى كان يتناولها إبان عنفوانه ، ومن ذلك تحدث البدانة .

ويلعب سوء التغذية دوراً هاماً فى شيخوخة الخلايا ، وليس المقصود بسوء التغذية قلة الغذاء فقط ، ولكنه يشمل أيضاً عدم توازنه ، وسوء اختياره ، أو كثرته بالنسبة لاحتياجات الجسم الفعلية .

وما يحتاج إليه متقدمو العمر هو الإكثار من البروتين اللازم لحيوية الأنسجة ، إذ أن الجسم لا يختزنه ، ومن هنا يجب أن نمده به يومياً وأغنى مصادر البروتين هى اللحوم والجبنة والسمك ، والبيض ، واللبن والجوز ، واللوز ، والبندق .

كما أنه يجب الحرص على مد الجسم بكميات كافية من الكلسيوم للمحافظة على صلابة العظام ، ويتوافر الكلسيوم فى اللبن ، والجبنة ، والكرنب ، والفول الأخضر ، والجزر .

ويجب الحرص على مد الجسم بكميات كافية من الحديد اللازم لبناء

كريات الدم الحمراء ، التى تحمل الأكسجين إلى مختلف الأنسجة ، كى يتم احتراق الأغذية الوقودية . والحديد كذلك عنصر ضرورى لحيوية كل خلية ، ومصادر الحديد الغنية هى صفار البيض، والكبد ، والخضر، والسبانخ، والخبز ، والحبوب ، واللحوم ، والقراصيا ، والزبيب، والبلح .

ويجب الإكثار من الفيتامينات فى هذه السن، ويحسن عدم الاكتفاء بمصادرها الغذائية وحدها ، بل تدعيمها بتناول حبة أو اثنتين يومياً من المستحضرات الطبية التى تحتوى على مجموعة كاملة من الفيتامينات المركزة .

وننصح بالإقلال من ملح الطعام بقدر المستطاع ، إذ أن المزيد من الملح ، يحتفظ بسوائل زائدة فى الأنسجة ، بطريق الضغط الإسموزى مما يلقى المزيد من الأعباء الثقيلة على القلب « العجوز » .

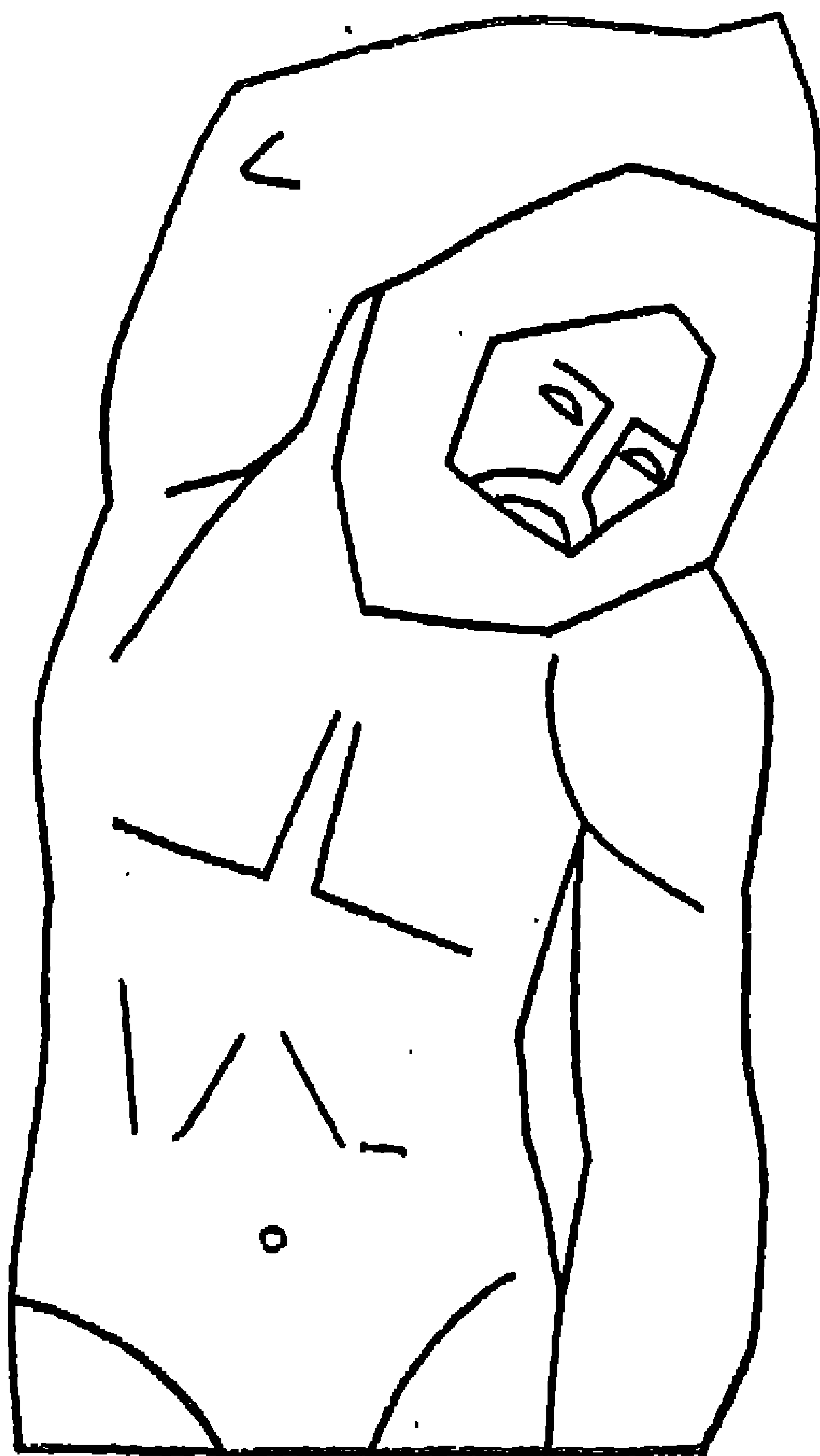
ويجب الإقلال من تناول المشويات ، مع العناية بزيادة نضج الأطعمة عن المعتاد ، أما الخضر فتغلى فى كمية قليلة من الشوربة .

وننصح ألا يملأ الشيخ معدته بالطعام ، مع توزيع الكمية اليومية على وجبات صغيرة متعددة .

الجلد

بتقدم العمر يصبح الجلد رقيقاً ويفقد مرونته ، وتختفى الطبقة الدهنية من تحته فيفقد تماسكه ، ويتجعد ، ويلمع ويتساقط منه الشعر لاضمحلال جذوره ، وتقل الغدد التى تفرز العرق والدهن الذى يشحمه ، ولذلك يجف الجلد وتسمك الأظافر ، وخصوصاً ظفر إبهام القدم ، وكل هذا يجب ألا يقلق البال .

وقد تحدث مضايقات ناشئة عن جفاف الجلد ، إذ يصبح أكثر



تعرضاً للإصابات . ويزيد فى جفاف الجلد : كثرة استعمال الماء والصابون ، وعليه ننصح بالمداومة على استعمال « الكريم » « واللانولين » لترطيب الجسم .

والحكة العامة « الهرش » أمر شائع فى متقدمى السن ، وهى عادة تصاحب الشيخوخة ، ولكن يجب أن نتحقق من عدم الإصابة بالسكر أو مرض « هودجيكين » وهو نوع من السرطان يتضخم فيه الطحال وغدد الرقبة .

ويجب فحص الدم للتحقق من عدم الإصابة بأحد هذه الأمراض النادرة ، وعندما يثبت أن السبب الوحيد هو الشيخوخة — وهذا هو الغالب — فإن استعمال « الكريمات » الموضعية وحقن خلاصة الخصية للرجال ، وخلاصة المبيض للنساء تشفى تماماً هذه الحكة .

وتظهر أحياناً أورام جلدية بارزة فى المواضع المعرضة للشمس ، وهذه يحسن استئصالها ، إذ قد تتحول إلى سرطان ، ومن الملاحظ أن سرطان الجلد ينشأ بكثرة فى الفلاحين والملاحين وغيرهم من ذوى المهن التى يتعرض الإنسان فيها كثيراً للشمس ، والمشاهد أن الشمس — مثل أشعة إكس — قد تحدث تغيرات سرطانية فى الجلد . وقد حدث ذلك لكثير من الأطباء عند بدء استعمال الأشعة ، ولكن هذا ليس معناه ألا نتعرض للشمس وألا نفحص بالأشعة ، ففى الإسراف فى التعرض لكل منهما كل الضرر ، أما الاعتدال فهو طريق الأمن والسلام .

والجلد الحساس « العجوز » لا يتحمل الاحتكاك ، ويتعرض كثيراً للالتهابات ، ونجد ذلك فى مواضع الاحتكاك المتواصل فى الجسم ، مثل بين الفخذين ، وتحت الإبطين ، وخلف النهدين فى النساء ، إذ يتجمع العرق ، وتتكاثر الميكروبات ، فيحدث الالتهاب .

وأهم نواحى العلاج تغطية هذه الأجزاء بالقطن أو الشاش بعد وضع مرهم ملطف كمرهم « البوريك » ، وقد يحتاج الأمر لاستعمال « السلفا » موضعياً ، أو البنسلين حقناً ، وعند الشفاء تستعمل بودرة « الطلق » .

والشيب والصلع من مظاهر تقدم العمر ، والعوامل الوراثية هى التى تحدد بدء هذه العلامات ، فكثيراً ما يحدثان فى سن مبكرة ، بل فى مطلع الشباب فى بعض العائلات ، وليس فى الوقت الحاضر عقار أو علاج يحفظ للشعر نموه ولونه .

الأمراض المعدية

يلعب الميكروب اليوم دوراً صغيراً فى الأمراض ، ومنذ عهد قريب ، كان ميكروب الالتهاب الرئوى أهم أسباب الوفاة ، ولكن اكتشاف السلفا والبنسلين قد غير هذه الصورة القاتمة تماماً .

ولا يهب تقدم العمر مناعة ضد نزلات البرد ، فمعظم الشيوخ يعانون منها ومن مضاعفاتها ، كالنزلة الشعبية . ولضعف حيوية الأنسجة لا يتخلص الشيخ بسهولة من نزلات البرد ، وليس هناك عقار يقضى على « فيروس » الزكام ، ولكن استعمال الأسبيرين ومضادات « الهستامين » تهب راحة مؤقتة ، ولكنها لا تزيد من المقاومة ، ولا تمنع هجوم الميكروبات الثانوية ، التى تسبب التهاب الجيوب الأنفية ، والنزلات الشعبية والالتهاب الرئوى الشعبى ، ولذلك كان من الحكمة البدء بإعطاء البنسلين أو غيره من مبيدات الميكروب لمنع هذه المضاعفات أما عند حدوث الالتهاب الرئوى ، فيجب أن ننظر إلى الأمر بعين الحذر والاعتبار ، فإن كل إصابة بهذا المرض ، تزيد فى ضعف الرئة ، وتزيد فى فقدها المرونة ، وتهيئ الطريق لإصابة جديدة . ويتعرض متقدمو

السن دائماً للالتهابات الرئوية . وخاصة عند ملازمة الفراش فترة طويلة ، فهذا وحده عامل يساعد على حدوث المرض .

وفى هذه المرحلة من العمر ، تضعف الأغشية المخاطية الواقية فى الحنجرة ويسهل دخول الميكروبات من الأنف إلى الرئة ، ووجود صديد فى اللثة والأسنان يمهد السبيل لإحداث خراج الرئة .

ويعتاد متقدمو السن تعاطى « البارافين » لمنع الإمساك ، وكثيراً ما يضل جزء منه طريقه إلى الحنجرة والرئة ، ويسبب نوعاً من الالتهاب ، لذلك يجب الحذر عند تعاطى مثل هذا العقار .

وقضاء الشتاء فى الأقصر أو أسوان أو حلوان يفيد الشيوخ . وعندما ترتفع درجة الحرارة ولا تستجيب « للسلفا » أو « البنسلين » أو غيرهما من مبيدات الميكروب الحديثة ، يغلب أن تكون الإصابة نتيجة « فيروس » فلايزال معظم « الفيروسات» يقاوم أثر هذه العقاقير . وفى جميع الأحوال . تجب العناية بمتقدمى السن ، حيث إن المناعة الطبيعية لديهم ضعيفة والأنسجة منحلة ، ممايستلزم فحص الطبيب للقلب ، والرئة ، والكلى ، والكبد ، والجهاز الهضمى ، بين الحين والآخر .

وقد كانت « الحمرة » العدو الأكبر الذى يتربص بالشيوخ . فالجلد مضمحل ، وأقل عدد من الميكروبات « السبحية » يدخل من شقوقه قادر على إحداث الحمى والتسمم ، أما الآن فتكفى بضع حقن من البنسلين للقضاء التام على الميكروبات «السبحية» ومرض «الحمرة» الذى تسببه .

أمراض الدم

الأنيميا الشائعة المعروفة بالأنيميا الثانوية « فقر الدم » ليست مرضاً فى الدم أو فى الأعضاء التى تصنع الدم ، ولكنها تنشأ بسبب نقص

مادة الحديد فى غذاء الإنسان ، وفى مصر عامل آخر يزيد فى حدة فقر الدم ، وهو الإصابة بديدان الإنكلستوما ، وتعرف أنيميا الإنكلستوما باسم « الرهقان » .

ويختزن الجسم الحديد لصنع كريات الدم الحمراء ، ولا يحتاج إلا قدراً ضئيلا من الحديد هو ١٥ مليجراما يومياً ، ولا يسبب نقص الحديد نقصاً فى عدد كرات الدم الحمراء ، ولكنه يسبب نقص ما تحويه من مادة الهيموجلوبين الحمراء ، ولذلك يبدو لون الإنسان أصفر باهتاً . ونقص الحديد فى الغذاء يسبب بمرور الأشهر والأعوام هذه الأنيميا . وأهم الأغذية المحتوية على الحديد هى اللحوم والخضر ، وقد تنشأ الأنيميا بسبب فقدان الأسنان ، أو الحساسية للغذاء ، أو عمل « رجيم » لعلاج قرحة المعدة ، وأى نزيف مزمن يسبب فقر الدم ، مثل وجود بواسير أو نزيف الأنف المتكرر ، الذى يحدث بسبب ارتفاع ضغط الدم . وقد يحدث نزيف شديد من قرحة المعدة ، أو الاثنى عشر ، ونزيف الأورام المبيضية فى السيدات المتقدمات فى السن ونزيف الحيض الشهرى قبل ذلك . وقد لا يبدو أى مصدر للنزيف ، ولكن فحص البراز يثبت وجود دم ، وهذا ينشأ عن قرح وأورام القناة الهضمية . فعند وجود أنيميا يجب الفحص الكامل المدعم بالأشعة للجهاز الهضمى ، لمعرفة السبب وخاصة عند متقدمى السن ، ذوى النخاع العظمى الضعيف .

وفى الحالات المتوسطة من الأنيميا لا يشكو المريض إلا من ضعف عام ، ولكن عندما تشتد الحال ، وينزل معدل الهيموجلوبين لأقل من ٦٠ ٪ فإنه تظهر أعراض يشترك فيها القلب ، فوظيفة الهيموجلوبين هى نقل الأكسجين من الرئتين إلى الأنسجة ، وعندما تقل نسبتها يقل تبعاً لذلك الأكسجين اللازم للأنسجة فيجتهد القلب فى تعويض ذلك الأكسجين ، وعليه قد يحدث هبوط القلب .

وأساس علاج الأنيميا هو معرفة السبب ، فإذا كان غذائياً ، وجب وصف الغذاء المناسب ، وإذا كان بواسير وجب استئصالها ، كما توصف بعض العقاقير المحتوية على الحديد . أما فيتامين « ب ١٢ » فهو لازم لبناء الهيموجلوبين ويحسن إعطاؤه .

وعقاقير الحديد تسبب إمساكاً ، يجب إصلاحه بالملينات ، أما الأنيميا الخبيثة فهى أكثر شيوعاً فى السن المتقدمة ، وسببها نقص إفراز خاص من الغشاء المخاطى المبطن للمعدة يتحد مع بعض أنواع الطعام ، مكوناً عنصراً يختزن فى الكبد ، ويلزم لتنبيه النخاع العظمى لصنع كريات الدم الحمراء .

ويشكو المريض من أعراض الأنيميا العادية المشار إليها سابقاً ، ويشعر بالإضافة إلى ذلك باضطرابات فى الإحساس وحركة الساقين . وتحليل الدم وعصارة المعدة يؤكد التشخيص ، والعلاج بسيط ميسور بإعطاء حقن فيتامين « ب ١٢ » .

ويجب أن يدرك المريض أن هذا العلاج يجب أن يستمر مدى الحياة وألا ينقطع عنه بمجرد تحسن الأعراض ، إذ أن أسوأ ما فى هذه الحال أن كل مرة تعود فيها الأنيميا تؤثر على أعصاب الساق ، وقد يصل الحال إلى العجز التام عن الحركة فلا يمكن إصلاحه . ولا عذر للمريض فى الانقطاع عن العلاج ، إذ أنه لا يزعج مطلقاً ، وقد تكفى حقنة فى الشهر أحياناً . وعلى أية حال يجب أن يكون المريض تحت الإشراف الطبى المستمر .

وعلى النقيض من الأنيميا ، قد تزيد كريات الدم الحمراء زيادة كبيرة أحياناً ، وقد تكون هذه الزيادة أولية أو ثانوية ، تنشأ فى المصابين «بالأمفيزيما» والنزلة الشعبية إذ لا تتمكن الكريات من امتصاص الأكسجين فيعوض الجسم عن ذلك بزيادة عددها ، وفى هذه الحال يزرق الجسم

لقلة الأكسجين ، وعلاج هذا النوع من الزيادة الثانوية لكريات الدم الحمراء ، هو معالجة السبب الذى أحدثها .

أما زيادة كريات الدم الحمراء الأولية فليس لها سبب معروف ويرتفع العدد من ٥ ملايين كرة لكل سنتيمتر مكعب من الدم إلى ١٠ ملايين ويرتفع الهيموجلوبين إلى ١٥٠ ٪ ويحدث نزيف من الأنف أو الأمعاء أو الرحم ، وتحدث جلطات داخلية فى الشرايين والأوردة ، بكل مضاعفاتها التى تتوقف على موقع الشريان أو الوريد ، وتعالج هذه الحالة الآن بالفوسفور المشع ، والعلاجات القديمة هى فصد الدم وتعريض العظام والطحال للأشعة .

واللوكيميا هى زيادة كرات الدم البيضاء ، وفى بعض حالاتها يتضخم الطحال ، وفى البعض الآخر تتورم الغدد الليمفاوية. –

والكورتيزون يزيل اللوكيميا الحادة التى تصيب الصغار مؤقتاً ، واللوكيميا لا تصيب متقدمى السن إلا نادراً ، وهى من النوع المزمن الذى قد يستمر عدة سنوات ، بغير أعراض مزعجة .

أمراض الرئة

الكحة المزمنة ، والنزلات الشعبية ، والالتهابات الرئوية ، وتقدم العمر ؛ هى العوامل التى تفقد الرئة مرونتها وتعطل وظيفتها فى التمدد والانكماش فى أثناء الشهيق والزفير ، وتؤدى إلى صعوبة التنفس لأقل مجهود .

ويتعرض البعض للالتهاب الرئوى مرة أو أكثر كل شتاء ، ولا يعنون بعلاج الكحة المستمرة مع أن كل التهاب جديد يزيد فى تلف الرئة ويقود إلى الربو الشعبى ، مما يلقى أعباء ثقيلة على البطين الأيمن ، فيضعف القلب ، وقد يفشل فى النهاية فى تأدية مهمته .

وتبدأ مآسى الجهاز التنفسى عادة بزكام قد نستصغر شأنه ونهمل أمره ، ثم يتلوه نزلة شعبية فالتهاب رئوى . فتجنب الزكام ، والراحة التامة عند الإصابة به . عامل مهم فى توقى أمراض الجهاز التنفسى . ويفيد — كما سبق أن ذكرنا — جو الأقصر وأسوان وحلوان والتدفئة بوجه عام.

ولا تؤثر مبيدات الميكروب كالبنسلين ونظائره على « فيروس » الزكام، ولكنها تمنع مضاعفاته كإصابة جيوب الأنف والرئة بالميكروبات؛ ولذلك فإنه من الحكمة استعمال هذه العقاقير منذ بداية المرض .

وفى الأحوال العادية ، يجب تجنب ما يهيج الغشاء المخاطى المبطن للرئة ، وفى مقدمتها دخان التبغ ، أما المصابون بالنزلات الشعبية والكحة المزمنة ، فعليهم الامتناع عن التدخين تماماً ، وعدم العودة إليه مطلقاً . كما يجب ألا يتعرضوا للغبار والأتربة التى تزيد نوبات الكحة ، كما يحدث كثيراً للخبازين والكناسين وعمال النظافة وذوى الأعمال المتربة .

وضيق التنفس والكحة وزرقة الشفتين وأطراف الأصابع قد تنشأ بسبب فشل القلب أو الرئة أو كليهما ، وعلى الطبيب أن يشخص أساس العلة .

والكحة المزمنة قد تؤدى إلى «الفتق» إذ تزيد فى الضغط داخل البطن . وتجبر الأعضاء الداخلية على النفاذ من الأمكنة الضعيفة فى جدار البطن . مثل « الأرب والسرة » وموضع التئام فتحات العمليات .

والربو أنواع كثيرة ، فمنه ما ينشأ عن هبوط حاد فى البطين الأيسر مما يحدث احتقاناً فى الرئة ، ويتحسن هذا النوع بعلاج القلب .

أما الربو الشعبى الحاد ، فينشأ بسبب زيادة حساسية المريض لمؤثر خاص : قد يكون التراب ، أو حبوب اللقاح ، أو ريش الحيوانات ، أو السمك ، أو اللبن ، أو البيض ، أو بعض أنواع الفاكهة . ويجب تمييز الربو الشعبى من النزلة الشعبية الرئوية .

ويستفيد مرضى الربو الشعبي الناشئ عن زيادة الحساسية من تجنب ما يثير النوبات والتطعيم بكميات متزايدة من خلاصات بروتينية منوعة ، وباستنشاق الأدرينالين واستعمال مستحضرات الكورتيزون .

وأهم قاعدة عامة ، للمحافظة على سلامة الصدر ، هى وجوب الفحص بالأشعة لكل شخص يشكو من مرض مزمن فى الرئة ، سواء كانت هذه الشكوى نزلة شعبية أو ربواً ، أو مجرد كحة لم تستجب للعلاج السريع ، فبذلك فقط يمكن اكتشاف السل فى أول مراحله ، وسرطان الرئة المبكر ، كما يحسن التحليل المتكرر للبصاق .

الروماتزم

ليس الروماتزم مرضاً قائماً بذاته ، ولكنه اسم يطلق على مجموعة كبيرة من الأمراض هى روماتزم المفاصل ، والعضل والأنسجة ، وروماتويد المفاصل الصغيرة وعرق النسا ، واللمباجو وغيرها .

والروماتزم بهذا الوصف الشامل هو أكثر الأمراض شيوعاً ، وتزداد مضايقاته بتقدم العمر . ونحو ٢ ٪ من المصابين بأحد الأمراض الروماتزمية يعجزون تماماً عن العمل ، غير أنه يندر أن تحدث الوفاة بسبب أحد هذه الأمراض .

ولايزال سبب الأمراض الروماتزمية مجهولا ، وأكثر الأنواع شيوعاً عند متقدمى السن هو « التعظم » المفصلى .

وفى هذا المرض يتآكل الغضروف الكائن وسط المفصل ، وتتكون زوائد عظمية جانبية تحد من حركة المفصل ، ويبدو أن سبب هذا المرض هو تقدم السن ، وتبادل عمليات هدم وبناء الأنسجة . ، ولذا يبدو الأثر واضحاً فى المفاصل التى يقوم عليها ضغط كبير مثل الركبة والعمود

الفقرى . والبدانة تزيد من حدة المرض ، بالإضافة إلى أية أخطاء فى ميكانيكية الجسم ، مثل القدم المسطحة ، أو الكسور القديمة .

ولا ينشأ هذا المرض بسبب الميكروب ، وعليه فلا توجد له أعراض عامة مثل ارتفاع درجة الحرارة أو نقص الوزن ، أو الأنيميا ، وتبقى الأعراض محلية فى المفصل المصاب وما يحيط به من أنسجة ويزداد ببطء على مر الأيام .

ولا يوجد علاج يرجع المفصل لحالته الطبيعية ، ولكن يمكن وقف تقدم المرض والمحافظة على حركة المفصل ووظيفته ، وهذه نقطة هامة يجب على المريض أن يعرفها منذ البداية ، حتى لا ييأس من العلاج ويعرض عن إتمامه ، عندما يرى أن مفصله لم يعد لطبيعته الأولى ، وأن التحسن ليس ملموساً .

ويستهدف العلاج ألا يتعرض المفصل لإصابات جديدة ، وأن تخف أعباؤه ، ولهذا يجب التخلص من زيادة الجسم على الوزن المقرر ، كما يجب إصلاح القدم المسطحة ، ولا ينبغى أن نلزم المريض بالرقاد فى الفراش ، بل نطالبه بألا يجهد مفاصله ، وإذا كانت الركبة هى المصابة فعليه ألا يقف كثيراً ، وأن يمتنع بتاتاً عن صعود الدرج ، وعندما يكون العمود الفقرى هو المصاب يستعمل المريض نوعاً من الدرع الواقى للظهر . وبهذه الاحتياطات يزول الألم ، ويعيش المصاب حياة عادية برغم وجود المرض .

والروماتزم العضلى مرض منتشر يتميز بإحساس بآلام فى مختلف العضلات والأنسجة ، وليس لهذا المرض سبب معروف . لقد كان الرأى السائد إلى عهد قريب أنه يرجع إلى وجود بؤرة تقيح فى الجسم : فى الأسنان أو اللوز أو جيوب الأنف ، أو المرارة ، أو غيرها مما يفرز ميكروبات وسموماً تصل إلى العضلات المصابة فتسبب التهاباً ، وعلى أساس هذه

النظرية الخاطئة استؤصلت آلاف من الأسنان واللوز والمرارة دون جدوى .

ومن الغريب فى ألم الروماتزم — الذى لم يعرف الطب له سبباً حتى الآن — أنه يكون فى أسوأ حالاته فى الصباح بعد راحة طول الليل . ويخف تدريجاً كلما قام المرء بنشاطه اليومى . وتنتقل الآلام من جهة لأخرى . والمصابون بالروماتزم شديدو الحساسية للتغيرات الجوية لدرجة أن بعضهم يمكن أن يتنبأ بالأمطار والعواصف قبل حدوثها .

ويفيد فى هذه الحالات استعمال الأسبرين بكميات كافية . ويلزم الاحتياط لتغيرات الجو المفاجئة .

وهناك نوع من الروماتزم يصيب الكتف ، ويفيد فى علاجه الكورتيزون. أما تقلصات عضلات الساق المفاجئة ، فتتحسن بالتدليك والتدفئة واستعمال الكينين .

« وروماتويد » المفاصل الصغيرة يصيب الأصابع فتتورم قاعدتها وتصبح مغزلية الشكل ولا يمكن تحريكها ، وقد تنحرف الكف بأكملها ، وهو مرض مزمن ، يتحسن ويسوء ، وتلزم له الرعاية الطبية المستمرة . ويفيد استعمال الكورتيزون بين حين وآخر .

وفى عرق النسا يشعر المريض بألم فى الجزء الخلفى من الفخذ والساق ، وقد يكون سببه « روماتزم » كما قد ينشأ عن أسباب أخرى ، منها انزلاق الغضروف ، أو تضخم البروستاتا ، أو الأورام التى تضغط على عصب خاص يمتد خلف الفخذ والساق مسببة الآلام العنيفة التى يشكو منها المريض ، ويحدد مكان انتشارها واتجاهها بكل دقة .

واللمباجو هو التهاب الأغشية التى تحيط بعضلات الظهر ويستجيب عادة لعقاقير الروماتزم العادية كالأسبيرين والساليسيلات ، مع تدفئة الجزء المصاب .

وعندما يوقظ الإنسان ليلاً ألم حاد فى إبهام القدم ، يعقبه تورم هذه الأصبع ولمعان جلدها مع ارتفاع درجة الحرارة والرعشة ، فهذا دليل إصابة حادة بمرض النقرس ، وينشأ هذا المرض عن اضطراب الهضم وتمثيل الأغذية « البيورينية » مثل اللحم والسمك ، فتزداد نسبة حامض اليوريك فى الدم ، وتترسب أملاحه فى جهات متعددة بالجسم ، وبخاصة حول المفاصل وغضاريف الأذن .

وتلعب الوراثة دوراً فى تهيئة أسباب هذا المرض الذى يختص الرجال بنسبة عالية من إصاباته . والأغذية البيورينية والخمور من أقوى عوامل إحداث هذا المرض .

وقد تحدث نوبة النقرس الحادة عند المهيئين عقب إصابة طفيفة ، وقد يكون ضغط الحذاء على إبهام القدم هو العامل المباشر لاختيار النقرس لهذا الجزء بالذات لبدء نوبته . ويلعب الغذاء دوراً رئيسياً فى علاج مرض النقرس ، برغم وجود عقاقير فعالة .

وفى النوبة الحادة لابد من تعاطى بذور اللحلاح ، أو عنصرها الفعال المعروف « بالكولشسين » ، فهذا العقار هو الوحيد الذى يجدى فى أثناء النوبة الحادة ، ويؤخذ – تحت إشراف الطبيب – إلى أن تزول الآلام كافة .

ويندر أن يصيب النقرس نحيفاً ، فهو يفضل البدينين دائماً . ولذلك يجب أن ينقص وزن المريض إلى الوزن الطبيعى له بالتقليل من كميات الطعام ، هذا بالإضافة إلى أن كثرة الغذاء – بغض النظر عن نوعه – تزيد فى نسبة حامض اليوريك . ويجب أن يخلو الغذاء من المواد البيورينية بقدر الإمكان . وأهم الأغذية البيورينية : اللحوم والسمك وبخاصة لحم الأعضاء الحلوية مثل الكبد والكلاوى والمخ والبنكرياس المعروف بالحلويات ، ويجب الامتناع عن القهوة والشاى والكاكاو والخمور .

الجهاز الهضمى

يشكو كثيرون من اضطرابات المعدة والأمعاء. وقددلت الإحصائيات الدقيقة على أن أكثر من ٥٠ ٪ من الحالات ناشئة عن اضطرابات فى وظيفة هذه الأعضاء ، وليس من أمراض عضوية .

ويهيمن على الجهاز الهضمى مجموعتان من الأعصاب إحداهما تعمل على انقباض عضلاته ، والأخرى تعمل على ارتخائها . وعندما نكون فى كامل صحتنا تعمل هذه الأعصاب فى سهولة ويسر وتوازن ، على خلط الطعام دون أن نشعر ، ولكن عندما يختل هذا التوازن بسبب القلق والتوتر ، أو المؤثرات العاطفية ، أو بسبب عدم مراعاة القواعد الصحية فى التغذية ، يتغلب أثر إحدى المجموعتين ، فإن زاد مفعول المجموعة القابضة أحسسنا بتقلص ومغص وقىء وإسهال أو إمساك تشنجى ، وإن زاد مفعول المجموعة المسئولة عن ارتخاء العضلات ، يحدث تأخير فى سير الغذاء ، وفى التخلص من الفضلات ، فتتجمع الغازات ، ويحدث انتفاخ فى البطن ، ونحس بهذه المضايقات .

والواقع أن كلمة سوء الهضم تستعمل بغير ضابط لوصف أية مضايقات فى الجزء الأعلى من البطن ، وهى قد تنشأ عن أسباب كثيرة منها التافه ومنها الخطر ، وقد يكون السبب مجرد الإفراط فى الأكل ، وقد يكون جلطة فى الشرايين التاجية أو سرطان المعدة .

والمقصود بسوء الهضم هو الإحساس بالامتلاء فى الجزء العلوى من البطن ، تحت الضلوع مباشرة ، مصحوباً بتقلصات أو « حرقان » وتأتى هذه الأعراض بعد الأكل ، خصوصاً بعد أكلة كبيرة ، وقد يكون السبب هو الإسراع فى الأكل ، أو الإفراط فى الأكل ، أو تناول الطعام فى أثناء نوبات الغضب والقلق والعصبية ، وأى من هذه العوامل يمكنه

أن يشيع الاضطراب فى وظيفة المعدة .

ويشعر كثير من الناس بالتعب بعد لون معين من ألوان الغذاء ، وفى غالب الأحيان يحدث هذا التعب لسبب آخر ، ولكننا نسرف فى اتهام هذا الغذاء أو ذاك . وهكذا نضيف إلى قائمة الممنوعات جديداً فى كل فترة ، إلى أن يصبح غذاؤنا ناقص العناصر ، مما يسبب أعراض سوء التغذية.

والواقع أن هناك أغذية مثل السمك ، واللبن ، تسبب الحساسية وتحدث « أرتيكاريا » لدى بعض الأشخاص ، ولكن موضوع الحساسية متشعب دقيق . وللتحقق منه يجب أن نلاحظ الأرتيكاريا للتثبت من أنها حدثت من هذا الغذاء المعين .

ومن الحكمة الاهتمام بشكوى سوء الهضم ، وردها إلى واحد من أسبابها الكثيرة كالتهاب المعدة ، أو قرحة المعدة ، أو قرحة الاثنى عشر أو سرطان المعدة ، أو أمراض القلب المختلفة .

وعلاج الأحوال العادية من سوء الهضم هو اتباع قواعد الصحة الغذائية فيجب أن نلزم الاعتدال فى تناول الطعام ، كما يجب أن نبتعد عن الأطعمة التى حققت التجارب أنها تسبب لنا المضايقات . وينبغى أن نحذر من بلع كميات كبيرة من الهواء مع الطعام والشراب ، لأنه ينفخ المعدة ويسبب سوء الهضم .

ومعظم الناس يرى أن زيادة الحموضة هى سبب سوء الهضم فيتعاطون مختلف أنواع القلويات ، مثل بيكربونات الصودا ، والأملاح الفوارة . والواقع أن استعمال هذه المستحضرات بين حين وآخر لا ضرر منه ، ولكن ليس من المصلحة المداومة على استعمالها . كما أن هناك أحوالا يضر فيها استعمال الصوديوم . ولذلك تنبغى استشارة الطبيب ليصف الدواء المناسب .

والإمساك عرض شائع فى جميع الأعمار ، ولكنه أكثر شيوعاً بين

متقدمى العمر . وينشأ الإمساك عن أسباب كثيرة منها عدم التعود على مواعيد منتظمة لتفريغ الأمعاء ، أو نقص التغذية والسوائل ، أو ضعف فى عضلات الأمعاء والبطن كنتيجة للخمول والضعف العام ، أو كثر استعمال المسهلات والحقن الشرجية ، أو اضطراب الأعصاب التى تهيمن على حركة الأمعاء الغليظة بسبب الإرهاق فى العمل ، أو التوتر والقلق ، أو الإفراط فى التدخين ، أو الإكثار من شرب القهوة ، أو قلة النوم ، وقد تسبب آلام البواسير الإمساك .

ومع أن الإمساك عرض بسيط شائع ، فإن حدوثه فجأة عند متقدمى العمر ، يجب أن يسترعى كل اهتمام. والإسهال الفجائى عندهؤلاء الأشخاص له أيضاً دلالة هامة ، فضلا عما يعنيه تبادل الإسهال والإمساك .

والقاعدة الصحية السليمة التى يجب أن نؤكدها ، هى أن أى تغيير فى مواعيد تفريغ الأمعاء يخالف ما اعتاده الشخص المتقدم فى العمر ، قد يكون أول إنذار لحالة تستلزم المبادرة باستشارة الطبيب لفحص شامل مدعم بالأشعة.

وعلاج الإمساك العادى يجب أن يبدأ بوضع مواعيد ثابتة لتناول الطعام ، وأخرى لتفريغ الأمعاء ، والمحافظة على توازن الغذاء ، وعدم استعمال المسهلات بصفة منتظمة ، وتقوية عضلات البطن بممارسة بعض التمرينات الرياضية ، والسير مسافات طويلة ، وركوب الخيل ، والإكثار من الفاكهة والخضر والسلطات ، وإضافة « الردة » للخبز ، ويمكن الاستعانة بزيت البارافين أو « الآجار » أو « لبوس الجليسرين » ، كما يفيد البعد عن التوتر والعصبية والاعتدال فى مواجهة أعباء الحياة ، والنوم الكافى والإقلال من القهوة والتدخين .

قرحة المعدة

لا يعرف الطب سبباً معيناً لقرحة المعدة والاثنى عشرى ، ولكن المعروف

أن هناك عدة أسباب مهيئة للمرض ، هي زيادة الحموضة ، وتكوين الجسم الطبيعي ، والعصبية .

والغشاء المخاطي المبطن للمعدة والاثني عشري ، له القدرة على البقاء مغموراً في الوسط الحامضي القوي ، وتحدث قرحة المعدة ، إذا زادت هذه الحموضة لدرجة كبيرة ، أو إذا ضعفت مقاومة الغشاء المخاطي لدرجة كبيرة أيضاً ، أو إذا حدث كلاهما معاً ، وهذا هو الغالب .

وأعراض القرحة هي الألم في منطقة المعدة ، عقب الأكل ، بساعة أو اثنتين ، ويخف هذا الألم عند تناول الطعام أو استعمال بيكربونات الصودا . وقد يوقظ الألم المريض من نومه ، حيث تشتد نوبة الألم عندما تكون المعدة فارغة ، وليس بها من الطعام ما يعادل زيادة الحموضة ؛ وهذا هو السبب في رسم خطة العلاج بحيث يتناول المريض وجبات صغيرة متعددة على فترات قصيرة .

وعندما تظهر هذه الأعراض لأول مرة ، ينبغي أن يفحص المريض فحصاً دقيقاً مدعماً بالأشعة . ومن المهم التحقق من أن القرحة ليست سرطانية ، خصوصاً إذا بدأت الإصابة بها في سن متقدمة .

وقد يحدث نزيف من القرحة ، يسبب القيء الدموي ، أو البراز الدموي ، كما قد تسد فتحة البواب . وإذا انثقبت تسبب التهاب البريتون الحاد . وكل من هذه المضاعفات يستدعي علاجاً طبياً سريعاً ، كما قد تستدعي الحالة التدخل الجراحي .

وعندما تشتد أعراض القرحة ، يجب ألا يغادر المريض الفراش وأن يتبع نظاماً غذائياً خاصاً . وبما أن قرحة المعدة مرض مزمن ، يزيد في حدته الإجهاد العصبي والبدني ، فقد يستدعي الأمر تغيير نوع العمل ونظام الحياة نفسه ، إذ يجب الابتعاد عن الأعمال التي تحتاج

إلى مجهود بدنى أو عقلى كبير ، مثل قيادة السيارات وإدارة البنوك والشركات وأعمال البورصة ، وهى مهام لا تناسب مرض القرحة ، إذ أن الحياة الهادئة ، البعيدة عن المنغصات تعمل على تحسين القرحة ، أكثر من أى علاج طبى أو غذائى .

ومن الملاحظات الطريفة ، أن أعراض القرحة تشتد عند مديرى المصارف فى أثناء نظر الميزانية السنوية ، وتزول الأعراض تماماً عندما يذهبون لقضاء إجازة فى مكان بعيد .

والواقع أن الغشاء المخاطى المبطن للمعدة والأمعاء يتعرض لنفس التغيرات التى يتعرض لها الجلد بفعل المؤثرات النفسية . فهو يحمر خجلا ، ويقشعر فزعاً ، ويحتقن غضباً ، ولهذا تأتى ظروف على الغشاء المخاطى تجعله يعجز عن مقاومة حموضة المعدة ، فتتكون القرحة وتشتد أعراضها .

ويتلخص العلاج الطبى والجراحى فى مقاومة الحموضة . فى الحالة الأولى ، يستعين الطبيب « برجيم » غذائى مع بعض العقاقير ، وفى الحالة الثانية يستأصل الجراح الجزء من المعدة المسئول عن إفراز الحامض .

ويجب أن نبدأ بالعلاج الطبى . حيث توصف القلويات مثل إيدروكسيد الألومنيوم ، كما يوصى بالامتناع عن التدخين والخمور ، والإقلال من القهوة والشاى ، كما تعطى كذلك كمية كافية من الفيتامينات أما الغذاء فيتناوله المريض كل ساعتين .

وإذا لم تستجب القرحة لهذا العلاج ، أو حدثت مضاعفات كالنزيف أو الانثقاب ، فلابد من التدخل الجراحى ، لاستئصال جزء من المعدة ، وهى جراحة مأمونة العواقب عندما تتوافر الخبرة .

أورام الجهاز الهضمى

القناة الهضمية من المواضع التى يكثر فيها تكون السرطان ، فثلث

أنواع السرطان فى الرجال ، وخمس أنواعه فى النساء يبدأ فى المعدة . أما سرطان الأمعاء الغليظة فتبلغ نسبته ١٥ ٪ من مجموع أنواع سرطان الأعضاء الأخرى . وقد يبدأ السرطان فى الشفة ، أو فى اللسان، أو فى المعدة ، أو فى الأمعاء ، أو فى المستقيم ، وفى معظم الأحوال يبدأ السرطان بعد الخمسين ، وتزداد الإصابة به كلما تقدم العمر .

والمشكلة الكبرى فى أنواع السرطان جميعها هى التشخيص المبكر للمرض ، وعليه فإن أية قرحة مزمنة فى الشفة ، أو فى اللسان ، تستلزم أخذ عينة منها وفحصها ميكروسكوبياً ، فإذا ثبت وجود خلايا سرطانية ، أمكن العلاج بالجراحة أو بالراديوم .

أما تشخيص سرطان المعدة المبكر فأمر دقيق ، إذ أن أعراضه مبهمة تنحصر فى تكرر نوبات سوء الهضم ، وفقدان الشهوة للطعام ونقص الوزن ، والضعف العام وبعض آلام البطن. والطريقة الوحيدة للتحقق منه ، هى الفحص بالأشعة بعناية فائقة . ولذلك ننصح من تخطى الخمسين من عمره أن يعرض نفسه للفحص بالأشعة عندما يشعر بضيق فى منطقة المعدة . وحبذا لو أمكن تنظيم هذا الفحص وجعله جماعياً فى كل عام ، غير أن هناك صعوبات عملية تعترض هذا النظام الجماعى السنوى ، ولو أن التجارب التى أجريت على نطاق محدود فى بعض البلاد الأوربية ، أمكن بواسطتها اكتشاف خمس حالات سرطانية فى كل ألف حالة .

ونحو ٥٠ ٪ من حالات سرطان المعدة التى تشاهد فى المستشفيات الكبيرة قد فاتها أوان العلاج الجراحى ، إذ لم تشخص فى الوقت المبكر المناسب ، حيث يجرى الاستئصال التام ، وحيث فرص الشفاء الكثيرة .

وصعوبة البلع خصوصاً إذا صاحبه إحساس بأن الطعام قد ضل طريقه إلى المعدة ، سبب هام للإسراع فى الفحص بالأشعة . للتمييز بين ضيق الجزء الأسفل من المرىء ، أو أورام المرىء ، أو سرطانه .

ويجب تطبيق هذه المبادئ العامة على سرطان القولون ، فأى إمساك مفاجئ أو إسهال مفاجئ ، أو تبادل الإسهال والإمساك المفاجئين عند متقدمى العمر ، يجب أن يكون داعياً هاماً للفحص بالأشعة .

ويجب ألا يغيب عن البال أن ظهور بواسير لأول مرة فى سن متقدمة ، قد يكون ناشئاً عن سرطان المستقيم . والبواسير عبارة عن أوردة متمددة ، فلذلك يجب ألا يقنع الطبيب بتشخيص البواسير ، بل عليه أن يتحرى أسبابها.

وجميع هذه الأورام يمكن علاجها والتخلص منها بالتشخيص المبكر والاستئصال التام الكامل بالجراحة .

وهناك ورم قولونى يسمى أميبوما ، إذ أنه ناشئ عن الإصابة بالأميبا ، ومن أهم مميزاته أنه يتلاشى تماماً بواسطة حقن الإميتين . وتنتشر أمراض الأميبا فى مصر والهند والسودان ومعظم المناطق الحارة حيث يكثر الذباب. والأميبا كائن حى ميكروسكوبى الحجم يعيش فى المياه ، وعلى سيقان النباتات المائية . وتتلوث الخضر ومياه الشرب بأكياس الأميبا هستولتكا إما مباشرة ، وإما بواسطة الذباب ، وتنتقل مع الطعام إلى الإنسان وتمر بالمعدة دون أن تتأثر بإفرازاتها ، وتصل إلى الأمعاء الدقيقة حيث يذوب الكيس الخارجى بتأثير عصارة البنكرياس ، وتستقر فى الأمعاء الغليظة . وهناك تتحين الفرص ، وتتحالف مع الميكروبات المحلية للتمكن من مهاجمة الغشاء المخاطى فى الوقت المناسب محدثة به تقرحات عديدة .

والسبب فى أزمات أميبا القولون وصعوبة علاجها ، هو أن الأميبا تتحصن داخل كيس من إفرازها عندما تجد أن الوسط فى الأمعاء لا يلائم نشاطها ، وإذ ذاك لا يؤثر فيها أى عقار ، وهى تنتهز الفرص المواتية لتعاود الهجوم من جديد . ونظراً لصمود أكياس الأميبا وعدم وجود العقار الكفيل بالقضاء المبرم عليها ، ينبغى تبادل استعمال العقاقير الأميبية لفترة طويلة من الزمن ، للحصول على أحسن النتائج النسبية .

الكبد والمرارة

يتعرض الكبد كبقية أعضاء الجسم ، لأمراض متنوعة قد تصيب أوعيته الدموية أو خلاياه ، وهى إما أن تكون التهابية أو اضمحلالية . كما قد يحدث مرض تليف الكبد علاوة على الأورام الحميدة والخبيثة .

وقد دلت التجارب الحديثة على قدرة خلايا الكبد الفذة على التجدد لتعويض ما يتلف منها ، كما ثبت أن وقاية الخلايا الكبدية تستدعى عناية تامة فى جميع الأحوال ، مهما اختلف نوع المرض .

والثابت أن الغذاء الغنى بالمواد النشوية والبروتينية ، والقليل من الدهن ، يناسب مرضى الكبد بالإضافة إلى حقن الجلوكوز ، وملح الطعام ، والأحماض الأمينية ، وخلاصة الفيتامينات المركزة ، وأملاح الصفراء وفيتامين « ك ». وعلى مريض الكبد أن يحتفظ بوزنه الطبيعى المناسب لطوله وعمره ، وأن يتجنب التوابل والأغذية المهيجة . كما يجب تجنب الخمور بجميع أنواعها تجنباً تاماً ، إذ أنها معاول هدم لخلايا الكبد المريض . ويحسن الاستعانة بالعقاقير المحتوية على الكولين الذى يقوم بمهمة عربات النقل ، فيحمل الدهن من الكبد إلى مختلف أعضاء الجسم وبذلك يمنع تكدس الدهن فى خلايا الكبد ، لأن إصابة الكبد بالدهن هى أولى مراحل تليف الكبد ، التى يعقبها مرض الاستسقاء .

والبلهارسيا المنتشرة فى مصر تؤدى إلى تليف الكبد ، لذلك ننصح باستعمال كبسولة يومياً من العقاقير المحتوية على الكولين والتى تعرف بواقيات الكبد .

ومن وظائف الكبد الهامة تنقية الدم من السموم وصنع بعض الفيتامينات . غير أن خلايا الكبد وحدها هى القادرة على صنع أملاح الصفراء ،

ذات الأهمية القصوى فى هضم الدهنيات . وتختزن الصفراء وتتركز فى المرارة . وتركيز الصفراء فى المرارة يساعد على تكوين الحصى بها . وحصى المرارة منتشر جداً ، وقد لا يسبب أية أعراض أو مضايقات وقد اتضح من فحص جثث المتوفين أن ٣٠ ٪ من النساء ، و ١١ ٪ من الرجال يصابون بعد الستين من أعمارهم بحصى المرارة .

وسبب تكون حصى المرارة غير معروف تماماً . وهناك أنواع من الحصى : فحصى الكولسترول يكون عبارة عن حصاة كبيرة واحدة تنتج من ترسيب الكولسترول من الصفراء . أما الحصى المتكون من الكلسيوم وملونات الصفراء فيكون صغيراً كثيراً . وقد نجد منه مئات فى المرارة .

وعندما تظل الحصيات ساكنة فى المرارة لا تسبب أى عرض ولكن عندما تنتقل من مكانها إلى القناة المرارية تسبب ألماً عنيفاً يعرف بالمغص المرارى . وأعراضه ألم فى المنطقة العليا للجزء الأيمن من البطن ، ينتشر إلى الخاف ، أو إلى الكتف اليمنى ، وقد يكون مصحوباً بقيء . وعندما تقفل الحصاة القناة المرارية ، يحدث نوع من اليرقان ، يعرف باليرقان الانسدادى ، الذى يكتسب فيه بياض العين لوناً أصفر ، كما يصطبغ الجلد فيه باللون الأصفر أيضاً ، ويتحول لون البول إلى أحمر قاتم ، ويكون لون البراز أبيض ، وقد يشكو المريض من حكة شديدة ، كما قد تبطئ دقات قلبه نظراً لامتصاص أملاح الصفراء . وقد يحدث التهاب المرارة فى وجود أو غيبة الحصيات ، وقد يكون حاداً يشبه ألم « المصران الأعور » ، كما قد يكون مزمناً .

والتهاب المرارة المزمن يسبب انتفاخ البطن ، وسوء الهضم ، وقد تشتبه الأعراض مع قرحة المعدة ، أو أى سبب آخر لعسر الهضم ، وفى الغالب لا يحتمل المريض الأغذية الدهنية .

وتشخيص هذا المرض ليس يسيراً ، إذ يحتاج لعمل صورة بالأشعة

بعد مرور ١٢ ساعة من تناول دواء يسمى «رابع يودور فينول فثالين» ، وهذا الدواء يفرزه الكبد ، ويتركز فى المرارة ، ونظراً لاحتوائه على اليود ، فإنه يعطى ظلاً فى صور الأشعة ويبدو شكل المرارة واضحاً .

ثم يعطى المريض غذاء دهنيًا مثل « ساندوتش زبدة » وتؤخذ صورة أخرى بعد أربع ساعات ، فإذا كانت المرارة سليمة ، فإن حجمها يبدو فى الصورة الأخيرة أصغر من حجمها فى الصورة الأولى ، نظراً لأن الدهن ينبه المرارة للامتصاص ، وتفريغ محتوياتها التى تساعد على هضم الدهنيات ، فإذا لم يحدث هذا الصغر فى الحجم ، كان ذلك دليلا على تليف جدر المرارة ، بسبب التهابها المزمن .

واستئصال المرارة جراحيًا — بسبب الالتهاب المزمن — يبرره وجود الحصيات ، أما فى حالة عدم وجود حصيات فنرى التريث فى هذا الاستئصال ، إذ أنه لا يجدى فى كثير من الأحيان .

والعلاج الطبى لأمراض المرارة يعتمد بنوع خاص على الغذاء . ومعظم مرضى المرارة من البدينين الذين ينبغى إنقاص وزنهم إلى الوزن المناسب للطول والسن ، كما يجب عليهم الامتناع عن أكل الزبدة ، والكريم ، وصفار البيض ، وزيت الزيتون ، واللحوم البيضاء ، والسمك . وتجنب الإمساك باستعمال ملين كل صباح ، وهذا يساعد على تفريغ محتويات المرارة . وقد يصف الطبيب أملاح الصفراء ، وبعض الأدوية المضادة لانقباض العضلات الرخوة .

الجهاز البولى

يتكون الجهاز البولى من الكليتين ، والحالبين ، والمثانة ، وقناة مجرى البول . ووظيفة الكلى إخراج المواد غير المرغوب فيها مع البول ،

وكذلك حفظ التفاعل الكيميائى للدم ثابتاً بإفراز الزائد من إيونات الصوديوم والبوتاسيوم والكلورور وغيرها .

وللكلى السليمة قدرة كبيرة على مواءمة حاجة الجسم . ويهيمن على بعض وظائفها هورمون الفص الخلفى من الغدة النخامية . وترتبط وظيفتها بمقدار الدم الذى يمر فيها كل لحظة ، والواقع أن تأدية الكلى لمهمتها على الوجه الأكمل بشير بسلامة الدورة الدموية .

والكلى عبارة عن مرشحات عضوية ، تسمح بمرور الزائد من الأملاح والماء ، والمواد السامة من الدم ، وتفرزه على هيئة سائل ملون هو البول . ولا تسمح الكلى السليمة بمرور الزلال أو السكر ، إذا كانت نسبته فى الدم لا تتجاوز ١٢, ٪ .

وأهم أمراض الكلى هى الالتهابات والحصيات . أما الالتهاب الكلوى ــ المعروف باسم مرض « برايت » نسبة إلى اسم مكتشفه ــ فهو أحد المضاعفات الخطرة لكثير من الحميات ، وبخاصة الحمى القرمزية فى الأسبوع الثالث ، وكذلك الحصبة والجدرى والدفتريا . كما أنه قد يعقب التهاباً متكرراً فى اللوزتين ؛ أو بيوريا مزمنة فى الأسنان ، أو نتيجة أية بؤرة تقيح أخرى فى الجسم . وقد يحدث كذلك فى أثناء فترة الحمل والنفاس ، وقد ثبت أن التعرض للبرد وتعاطى المواد الكحولية من العوامل الهامة التى تقلل مقاومة الكلى وتسهل إصابتها بالالتهاب .

ويمكن الوقاية من الالتهاب الكلوى بتجنب البرد وعدم تعاطى الكحول وتفادى الإجهاد ، ويجب على المريض بالحمى سرعة العلاج المبكر . مع تناول كمية كافية من القلويات مثل سترات الصودا ، كما يجب علاج بؤرة التقيح فى الجسم سواء أكانت فى اللوزتين أم فى الأسنان أم فى أى عضو آخر .

والتهاب الكلى هو أحد العوامل التى تهيئ الطريق لتكوين الحصى ،

إذ تفقد الأغشية المبطنة نعومتها ، مما يسهل ترسيب الأملاح عليها ، كما أن نقص فيتامين «ا» له التأثير نفسه ، إذ أن نقصه يسبب « تخشن » سطح هذه الأغشية . وكذلك اضطراب التمثيل الغذائي يسبب تركيزاً في الأملاح ، مما يسهل رسوبها على شكل حصيات ، خصوصاً عندما تكون هناك نواة ترسيب : مثل بويضات البلهارسيا أو أي عائق آخر .

وللوقاية من الحصيات الكلوية ، أو لمنع تكرر حدوثها يجب العلاج الكامل من البلهارسيا ، واستعمال مطهرات المجاري البولية ، وتناول كميات كافية من فيتامين « ا » وتجنب الإسراف في تناول اللحوم ، والكبد ، والقهوة ، والشاي والكاكاو ، والشيكولاتة ، وغيرها من الأغذية الغنية بقاعدة « البيورين » التي يتخلف عن هضمها وتمثيلها حامض البوليك أو « اليوريك » .

وهذه الالتهابات المختلفة ، والحصيات المتنوعة ، هي أهم الأسباب التي تعجز الكلى عن تأدية وظيفتها الرئيسية ، وهي تحرير الدم من السموم والمخلفات ، فينشأ عن ذلك المرض المعروف بالتسمم البولي ، أو داء البولينا . ومن أعراض هذا الداء الصداع الشديد ، وقيء وتشنج في العضلات ، وعسر في التنفس ، وأخيراً غيبوبة طويلة قد تعقبها الوفاة ؛ ولا تظهر هذه الأعراض طالما كان ثلث الكلية سليماً .

ولا يوجد عقار يشفي مرشحات الكلى التالفة ، لتستأنف القيام بوظيفتها الحيوية . ولم توفق الجراحة نهائياً إلى استنباط وسيلة لاستبدال كلى سليمة بالكلى المريضة ، لحيوان أو إنسان حديث الوفاة ، قياساً على نجاحها في استبدال قرنية شفافة بقرنية العين المعتمة لذلك اتجه تفكير العلماء إلى ابتكار جهاز يعمل على أساس فكرة تفريق المواد البلورية السامة ، التي تشبه البولينا ، من المواد الهامة كزلال الدم ، بواسطة غشاء شبه نفاذ يسمح بمرور الأولى ولا يسمح بمرور الثانية . وبذلك

تستطيع السموم والأملاح المرور خارجه مع الاحتفاظ ببلازما الدم داخله .

وقد ابتكر جهاز الكلية الصناعية البروفسور كولف الهولندى فى أثناء احتلال الألمان لبلاده ، واحتفظ به سراً طيلة مدة الحرب حتى لا ينتفع به العدو .

وهو يتكون من أسطوانة تدار بواسطة محرك كهربائى ملفوفة حولها أنابيب من السيلويدين ، النصف الأسفل منها مغمور فى حمام به محلول خاص .

ويمر الدم من الشريان الذراعى خلال الجهاز ، فيتخلص من السموم والشوائب ويرجع أنقى نسبياً إلى الوريد الفخذى ، ويعود ثانية من الجهاز وإليه ، وهكذا دواليك . وهذا الإجراء لا يسبب عناء ، ولا يحتاج إلى مخدر ، بل إن كل ما يلزم هو جهاز لنقل الدم يعوض الدم الموجود داخل أنابيب الكلية الصناعية ، الذى هو فى الواقع خارج الدورة ، أما المدة اللازمة لتنقية الدم نهائياً بحيث يصبح طبيعياً — إذ تنخفض نسبة البولينا من الأرقام التسممية العالية « ٣٠٠ مليجرام فى المائة » إلى الأرقام العادية « ٤٠ مليجراماً فى المائة » — فهى فى المتوسط من ثلاث ساعات إلى ست ساعات — وقد أمكن بواسطة الكلى الصناعية إنقاذ ضحايا التسمم البولى من موت محقق .

وأهم الحالات التى تستعمل فيها الكلية الصناعية بنجاح ، هى التسمم البولى الذى يعقب بعض العمليات الجراحية ، نتيجة توقف الكلية مؤقتاً عن إفراز البول ، والذى ينشأ عن تضخم البروستاتا ، أو عن حصاة فى الكلية أو الحالب ، أو عن التهاب كلوى حاد ، أو تناول مادة سامة للكلية مثل الجرعات الكبيرة من مركبات السلفا التى يجب أن تستعمل بإشراف الطبيب وليس اعتباطاً كما هو حادث الآن .

ويجب على مرضى الكلية الحذر من إجهاد الكلية المريضة ، وتوقى

حدوث التسمم البولى والاستسقاء ، ومراعاة نظام غذائى يكفل المحافظة على حيوية الأنسجة من الاضمحلال . ويمكن الإكثار من المواد النشوية ، وعدم الإسراف فى تناول المواد الدهنية . أما المواد الزلالية فتتغير كميتها حسب حالة الكلية ، فتارة يجب الإقلال منها ، وتارة يجب الإكثار منها ، ويحسن أن يكون ملح الطعام قليلا دائماً وتمنع الخمور منعاً باتاً ، ويجب تعاطى المواد القلوية مثل سترات البوتاسيوم الفوارة من حين لآخر .

تضخم البروستاتا

كلمة بروستاتا معناها حارس ، وهذه الغدة تحرس فتحة المثانة ولها إفراز هام لحيوية الحيوانات المنوية ، وتقوم فى أسفل قناة مجرى البول بين المثانة وعضو الذكر ، وتبدأ غدة البروستاتا فى التضخم بعد الخمسين من العمر .

وقد دلت الإحصائيات على أن ٦٦ ٪ من الرجال فى سن السبعين تتضخم عندهم البروستاتا ، غير أن أعراض المرض لا تظهر إلا فى خمس هذه الحالات فقط .

ومنشأ هذا التضخم غير محدد تماماً . وهناك نظريات عدة لتفسير هذا السبب ، منها أنه تورم عادى ، ومنها اضطراب نسبة الهورمونات ، وعلى أساس هذه النظرية يعالج التضخم بحقن هورمونات الخصية مثل « البراندرين » وغيره .

وتضخم البروستاتا يضيق مجرى البول ، ويسبب صعوبة التبول واحتقان القناة البولية ، ويشعر المريض بالرغبة فى التبول كل فترة وجيزة ، مع الإحساس بألم بالغ ، ويستيقظ من نومه مرات عديدة لتفريغ

المثانة .. والتعرض للبرد وتعاطى الخمور يزيد الحالة سوءاً .

وبمرور الوقت يزيد الانسداد ، وتتمدد المثانة ولا يمكن تفريغ كل محتوياتها ، فيختزن جزء من البول قد يبلغ ½ لتر ، وهذا يسبب ضغطاً خلفياً يوسع الحالب وحوض الكلى ، ويضر الكلى نفسها . وهذا فضلا عن تكاثر الميكروبات فى المثانة ، مما يسبب بها التهاباً قد يصعد إلى الكلى فيضاعف من خطورة الحال .

ومن السهل تشخيص تضخم البروستاتا ، فالأعراض التى يشكو منها المريض تتحدث عن المرض ، وللتحقق يضع الطبيب الإصبع فى الشرج ليلمس مقدار التضخم ، ويمكن قياس البول المختزن عقب سحبه « بالقسطرة »

وتضخم البروستاتا مرض بطىء ، ويجدى فيه كثيراً اتخاذ الاحتياطات الصحية ، وهى تفريغ المثانة عند الشعور بالحاجة إلى التبول ، وتجنب الخمور ، كما يفيد تدليك البروستاتا . أما العلاج بهورمون الخصية فقد يفيد فى بعض الأحيان ، غير أنه يجب ألا نسرف فى استعماله وأن نتجنبه تماماً عند الاشتباه فى سرطان البروستاتا ، إذ أنه يساعد على سرعة انتشار هذا النوع من السرطان ، ونفضل استعمال حقن هورمون المبيض ، فهو يساعد على انكماش غدة البروستاتا ، ولا خطر منه على سرطانها ، بل على النقيض من ذلك ، فهو يستعمل بنوع خاص فى حالة سرطان البروستاتا ، لتخفيف الآلام الشديدة التى يعانيها المريض ، ويغنى عن استعمال حقن المورفين .

وعند صعوبة التبول ، تفيد تدفئة منطقة المثانة ، وخير الطرق لذلك هى الجلوس فى الماء الساخن لأكبر درجة يمكن للجسم تحملها ، فهذا يزيل تقلص فتحة المثانة ويسمح للبول بالمرور . فإذا فشل هذا الإجراء ، وجب استدعاء الطبيب فوراً لعمل « قسطرة » .

وثمة حالات تستلزم المبادرة بإجراء عملية لاستئصال البروستاتا ، وإنه لمما يبعث على الدهشة أن نجد شيخاً فى التسعين من عمره يعانى من ضغط الدم وتصلب الشرايين وأمراض القلب : ومع ذلك يتحمل فى سهولة ويسر عملية استئصال البروستاتا .

وهناك نوعان من العمليات . فى النوع الأول تفتح المثانة ، أما فى النوع الثانى فطريق الوصول إلى البروستاتا هو إدخال المنظار فى قناة مجرى البول .

ويجب ألا يغرب عن البال احتمال الإصابة بسرطان البروستاتا ، ومن ثم يجب التشخيص المبكر ، ليمكن الاستئصال الجراحى .

ولا توجد البروستاتا فى النساء ، ولذلك استرحن من اضطراباتها وأمراضها ، غير أن لديهن الرحم ، والثدى ، وهما أكثر الأمكنة تعرضاً للسرطان .

ويبدأ سرطان الثدى بورم موضعى قد لا يسبب أى ألم ولابد أن نؤكد ضرورة أخذ عينة من هذه الأورام وفحصها الباثولوجى بالميكروسكوب للتحقق من عدم وجود سرطان ، وتشخيص الحالات المبكرة منه حتى يتسنى استئصالها بالجراحة .

البلهارسيا

ينتشر مرض البلهارسيا فى الجمهورية العربية المتحدة ، كما ينتشر فى كثير من البلاد العربية الأخرى كالعراق ، وليبيا ، وتونس ، ومراكش وفلسطين ، والسودان ، وفى كثير من البلاد الإفريقية مثل زنجبار ، وتنجانيقا ، وروديسيا ، وجنوبى إفريقيا ، ونيجيريا وساحل الذهب وساحل العاج ، وسيراليون ، ومنطقة الكونغو وغيرها . كما توجد البلهارسيا

فى الصين واليابان والفلبين ، وجنوب شرقى آسيا . وتتوطن بلهارسيا الأمعاء فى فنزويلا والبرازيل .

على أن مصر تنفرد من بين هذه البلاد كلها بأنها تحوى أكبر عدد من المصابين بالبلهارسيا البولية ، أو بالبلهارسيا المعوية ، أو بهما معاً . ولم يجد استعمال حقن « الطرطير » فى استئصال شأفة هذا المرض من مصر لأن عدد المصابين به من أبنائها يبلغ عشرة ملايين أكثرهم من القرويين الفقراء الذين لا تمكنهم أعباء الحياة من الانقطاع عن طلب الرزق خلال الفترة التى يتطلبها العلاج ، وهى لا تقل عن شهر .

وإهمال علاج هذا المرض فى مراحل العمر الأولى يمهد لمجموعة من الأمراض تظهر أعراضها بوضوح مع التقدم فى السن .

فالبلهارسيا البولية تمهد الطريق لحصيات المثانة والحالب ، وضيق مجرى البول ، وتمدد حوض الكلى وفروعه ، والتقيح وسرطان المثانة .

والبلهارسيا المعوية تسبب نوعاً من الدوسنطاريا ، علاوة على أورام المستقيم الحميدة والخبيثة ، وتضخم الطحال ، وتليف الكبد وسرطانه أحياناً ، والاستسقاء .

ولذلك لم يكن عجيباً ، أن تكون مكافحة هذا المرض هى الشغل الشاغل لكثير من العلماء والباحثين المصريين . وتهدف جهودهم إلى تحسين طريقة العلاج المستعملة ، وإيجاد وسيلة فعالة لمقاومة انتشار هذا المرض .

وقد تم اكتشاف مادة « الفؤادين » عام ١٩٣١ ، وثبتت صلاحية هذه المادة لعلاج البلهارسيا عن طريق الحقن العضلى . وبذلك أمكن علاج حالات الأطفال والسيدات البدينات بعد تعذر علاجهن بالحقن الوريدى بمادة الطرطير .

وكذلك أمكن ، بعد أبحاث مضنية ، إيجاد مادة تقتل القواقع الناقلة لطفيل البلهارسيا فى الترع والقنوات ، وهذه المادة هى كبريتات النحاس بنسبة خمسة أجزاء إلى كل مليون سنتيمتر مكعب من مياه الجدول المراد تطهيره . وقد ثبت أن هذه النسبة لا تضر الإنسان أو الأسماك أو الحيوانات المستأنسة أو النباتات المصرية المختلفة التامة النمو ، كما أنها لا تؤثر فى إنماء البذور .

ولاشك أن إبادة القواقع الناقلة لطفيل البلهارسيا كفيلة باستئصال شأفتها ، وتطهير أرض الوطن منها . فالمعروف أن هذه القواقع هى التى تساعد على التوطن ، ولذلك لم تتوطن فى إنجلترا ، أو الهند ، أو أستراليا برغم إصابة الكثيرين من أبنائها بالبلهارسيا فى أثناء تجنيدهم فى مصر لخلو هذه البلاد من القواقع السالفة الذكر .

وفى سبيل إبادة القواقع فى مصر ، قام معهد الأبحاث بمحاولات أخرى على نطاق واسع ، مستخدماً « الجامكسان » و « الدلتاكسان » والفينول خماسى الكلور ، لمعرفة أثر كل منها على قواقع البلهارسيا .

ومنذ وقت غير بعيد حاول العالم البرازيلى « دياس » تربية قواقع البلهارسيا لإجراء بعض تجاربه عليها ، ولشد ما كانت دهشته عندما وجد أنها هلكت كلها فى حين كان يهدف بتجربته إلى إكثارها وتنميتها . وعند فحص هذه الظاهرة الغريبة ، تمكن من فصل فيروس خاص يقتل القواقع ، وسرعان ما حمل فيروسه العجيب فى حقيبته وحضر طائراً إلى مصر ، بلد البلهارسيا ، حيث أخذ يجرى تجاربه مع بعض الأطباء المصريين ، لتطهير القواقع من ترعة إمبابة . حيث أمضى عدة أشهر يدرس ويدقق ويفحص .

أما من حيث العلاج ، فقد أمكن استنباط وسيلة لتقصير المدة اللازمة للشفاء التام ، من شهر كامل ، إلى ما يتراوح بين خمسة أيام وعشرة أيام ،

حسب الحالة الصحية العامة للمريض ، من حيث سلامة القلب والكلى .

ولاشك أن تقصير فترة العلاج ، يعود على الدولة بفوائد صحية واقتصادية جمة .

ويوالى الأخصائيون تجربة مشتقات « الميراسيل » وهو العقار الألمانى الذى يعالج البلهارسيا عن طريق الفم على هيئة أقراص ، غير أنه من ناحية الوقاية سوف يساعد على القضاء على البلهارسيا تنفيذ وتعميم المشروعات الصحية فى القرى وانتشار التعليم بها، فيحذر أهالى الريف الاستحمام والخوض فى مياه الترع والبرك والمساقى ومزارع الأرز التى تهدى إليهم هذا المرض الوبيل .

الغدد الصماء

الغدد الصماء ليس لها قنوات ، ويعرف إفرازها باسم « الهورمون » وهو يصل إلى الدم مباشرة ، ويؤثر فى جميع أجهزة الجسم .

والغدد الصماء هى جزر لانجرهان بالبنكرياس ، والغدة النخامية التى فى قاع الجمجمة ، والغدة الدرقية فى مقدمة الرقبة ، والغدد جارات الدرقية ، والغدة فوق الكلوية ، والمبيض والخصية .

وأكثر الاضطرابات لدى متقدمى السن تنشأ عن جزر لانجرهان ، والغدة الدرقية والغدد الجنسية .

الغدة الدرقية

زيادة إفراز الغدة الدرقية ليست نادرة فى متقدمى السن وهى تسبب جحوظ العينين . والغدة الدرقية تنظم عمليات التمثيل الغذائى فى الجسم ، وعندما يزيد نشاطها ، تزيد كمية الأكسجين المستهلك فى الأنسجة ،

ويمكن التحقق من ذلك بتحليل هواء الزفير . ومن أعراض زيادة إفراز هذه الغدة ، نقص الوزن ، والضعف العام، والأرق ، وخفقان القلب، والإسهال ، وإذا أهملت الحالة يحدث هبوط القلب .

وللغدة الدرقية خاصية امتصاص اليود ، ويمكن استعمال اليود الذرى لتشخيص الحالة . وإلى عهد قريب كانت العملية الجراحية هى العلاج الوحيد ، أما الآن فإنه بإعطاء اليود الذرى كشراب عن طريق الفم يمكن خداع الغدة الدرقية ، فتمتصه بنهم ، باعتباره يوداً عادياً وبهذه الوسيلة نحطم من خلايا الغدة القدر الذى نريد ونستغنى عن الاستئصال الجراحى .

وهناك الآن عقاقير تمنع تكون هورمون الغدة الدرقية المعروف « بثلاثى يودور الثيرونين » ولذلك فإنها تفيد فى علاج هذه الحالة .

« والجواتر » هو تورم الغدة الدرقية ، وقد يكون مصحوباً بزيادة أو نقص إفرازها . وعند نقص إفراز الغدة الدرقية ، يقل استهلاك الأكسجين فى الأنسجة ، وتبطئ جميع العمليات الحيوية ومنها وظائف خلايا المخ، وتبطئ كذلك دقات القلب ، ويسمك الجلد وتنتفخ الجفون ويسقط الشعر ، ويحس المريض بالبرودة دائماً . ويستجيب هذا المرض للعلاج بهورمون الغدة الدرقية ، الذى يمكن تعاطيه عن طريق الفم .

مرض السكر

تكثر الإصابة بالسكر بين الشيوخ ، وهو مرض يتميز بعجز الجسم عن الانتفاع بالسكر الذى يمتص من الطعام ، فيطرد فى البول ، ولتسهيل مهمة إخراجه تفرز الكلى البول بكثرة ، ولهذا نجد أن من أعراض السكر إفراز كمية كبيرة من البول ، تحتوى على مادة سكر الجلوكوز .

وسبب مرض السكر نقص إنتاج هورمون الأنسولين ، الذى يصنع فى خلايا البنكرياس تلك الغدة الهضمية التى توجد خلف المعدة — والبنكرياس يفرز عصارة هاضمة، تصل عن طريق قناة خاصة إلى الاثنى عشرى ، لتفتيت جزئيات الطعام البروتينى والدهنى والنشوى وتحويل كل هذا إلى مواد بسيطة قابلة للامتصاص ، ويحتوى البنكرياس كذلك على مجموعة من الخلايا تسمى جزر لانجرهان ، تفرز هورمون الأنسولين ، الذى يصل إلى الدم مباشرة ، والغريب أنه قد لا تحدث تغييرات فى تركيب هذه الخلايا تفسر مظاهر مرض السكر ، والواقع أن سبب هذا المرض ليس بهذه البساطة . فهناك عوامل متشابكة ، منها الغدة النخامية التى تسيطر على إفراز الأنسولين ، وخلايا « ا » الموجودة فى نفس جزر لانجرهان ، والتى تفرز هى الأخرى هورموناً يسمى « جلوكاجون » يضاد مفعول الأنسولين .

ولا يؤدى نقص الأنسولين إلى اضطراب هضم وتمثيل النشويات وحدها ، ولكنه يعطل أيضاً تمثيل الدهنيات ، مما ينشأ عنه حموضة الدم ، والغيبوبة التى قد تعقبها الوفاة .

ولا يعرف للآن سبب نقص الأنسولين ، ولكن الملاحظ أن مرض السكر ينتقى عائلات معينة ويختار ضحاياه من البدينين .

ويختلف مرض السكر فى متقدمى السن عنه قبل الأربعين ، ففى الأطفال والشبان يعد هذا المرض خطراً ، وتصعب السيطرة عليه، وقبل اكتشاف الأنسولين كان يسبب الموت المحقق ، والآن يحتاج إلى رعاية طبية مستمرة .

أما مرض السكر فى الشيوخ ، فهو أمر يسير ، يندر أن يسبب حموضة فى الدم أو الغيبوبة ، وقد لا يحتاج إلى أنسولين أو حتى إلى اتباع نظام غذائى خاص .

وهناك علاقة وثيقة بين مرض اسكر وتصلب الشرايين ، وارتفاع ضغط الدم ، ومعظم مرضى السكر ، سواء من الصغار أوالكبار ، يصيبهم تصلب الشرايين ، بغض النظر عن العناية بالعلاج .

والحقيقة الهامة التي نحب أن نوضحها ، هي أن مرض السكر لا يؤثر في حياة الشيوخ ، ولكن الذي يؤثر فيهم هو تصلب الشرايين ، سواء أكانت شرايين القلب ، أم الساق ، أم المخ ، أم الكلى .

ويبدأ السكر فى الشيوخ ببطء ، وقد يكتشف مصادفة فى أثناء الفحص الروتيني للبول ، ولو أن كل فرد اهتم بالفحص الشامل السنوى الذى سبق أن أكدنا أهميته ، لاكتشفت حالات السكر فى بدئها ، وقد يزول مرض السكر نهائياً من البدينين بمجرد إنقاص وزنهم .

ومعظم سكر الشيوخ يعالج بنجاح بتنظيم الغذاء وحده ، وبإنقاص الجسم إلى الوزن الطبيعى ، ويلاحظ أن أى ارتفاع فى درجة الحرارة يسىء إلى الحالة ، ولذلك يتطلب علاجاً سريعاً بمبيدات الميكروب .

ومن حسن الحظ أن لاحظ أحد العلماء نقص كمية السكر فى دم المرضى فى أثناء العلاج بمركبات السلفا . وقد استحدثت مركبات كيمائية قريبة الشبه من السلفا وأخرى من «اليوريا» ، وقد ثبت أنها تفيد فى علاج السكر لدى متقدمى السن ، عند تعاطيها كأقراص ، عن طريق الفم .

وعندما تتصلب الشرايين التاجية التي تغذى عضلة القلب يلاحظ أهمية عدم إنقاص السكر سواء بالغذاء أو بالأنسولين أو بالأقراص سالفة الذكر ، فإن ذلك يعرض هذه الشرايين للانسداد بالجلطة الدموية ، مما قد يسبب السكتة القلبية .

وتصلب شرايين الساق شائع فى مرض السكر ، وقد يؤدى إلى « الغنغرينا » . وتحدث تغيرات أيضاً فى شرايين الكلى ، وفى شرايين شبكية العين ، كما أنه من الشائع أيضاً حدوث التهاب أعصاب الأطراف .

البول السكرى الكاذب

ينشأ مرض البول السكرى الكاذب عن نقص إفراز هورمون الفص الخلفى للغدة النخامية .

ويشعر المريض فى حالة الإصابة به بالظمأ البالغ ، وكثرة التبول . كما يشعر بذلك مريض السكر ، وإن كان هذا المرض لا علاقة له مطلقاً بمرض السكر ، ولذلك دعى بمرض السكر الكاذب ، فالبول فى هذا المرض لا يحتوى على السكر ، وكثافة بول مريض السكر الكاذب ١٠٠١ وكثافة الماء ١٠٠٠ وكثافة البول العادى وبول مريض السكر ١٠١٥ .

ولا يعرف الطب سبباً لاضطراب هذا الجزء من الغدة النخامية ، الذى يؤدى إلى هذه الأعراض المزعجة ، ونرجح أنها أسباب عصبية .

وعلى المريض بهذا الداء أن يوطن نفسه على المداومة على استعمال حقن خلاصة الفص الخلفى للغدة النخامية . ويفضل المحلول الزيتى منه حقنة كل يومين أو ثلاثة .

ويمكن استعمال مسحوق مجفف من هذه الغدة « كنشوق » ويجب على المريض عدم الإسراف فى استعمال « النشوق » أو الحقن لأنهما لا يستعملان إلا عند الحاجة ، وبالقدر الذى يحسّن الأعراض فقط ، وإلا فإنهما يسببان احتجاز الماء فى أنسجة الجسم .

الغدد الجنسية

عندما تبلغ الأنثى سن اليأس ، وينقطع الطمث فى نحو سن الخمسين ، تحدث أعراض مزعجة ، منها الصداع ، وارتفاع ضغط الدم ، والإحساس بالضيق والعصبية .

وقد اتضح أن ذلك يرجع إلى اضمحلال المبيض وتوقفه عن إفراز هورمونيه ، ولذلك يوصف «الإسترون» و «البروجستيرون» وهما هورمونا المبيض ، لإزالة هذه الأعراض .

وهناك حالات التهاب الثدى فى النساء الذى قد يمهد لتكون سرطان الثدى . وقد ظهر أن حقن الإناث بهورمونات الخصية يمنع هذا التحول الخطر .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن حقن الرجال بهورمونات المبيض يخفف الآلام العنيفة التى يعانيها مرضى سرطان البروستاتا ، وأنها قد تغنى عن حقن المورفين .

أمراض القلب والشرايين

أمراض القلب والشرايين أكثر الأمراض شيوعاً ، وإليها ترجع نسبة كبيرة من الوفيات فى معظم البلاد المتحضرة ، غير أن الخوف من هذه الأمراض يرجع لأسباب أعمق ، متأصلة فى النفس البشرية منذ أقدم العصور . إذ كان يعتقد أن القلب منبع الحياة ، ومكمن العواطف ، لذلك نضفى على اضطرابات القلب ، أهمية أكبر من تلك التى نضفيها على اضطرابات الأعضاء الأخرى كالمعدة ، أو الكبد ، أو الكلى .

وأهم الأمراض التى تصيب القلب تنشأ بسبب تصلب الشرايين التاجية التى تغذى عضلة القلب نفسها ، أو ارتفاع ضغط الدم الذى يلقى عبئاً ثقيلا على عضلة القلب ، فتتمدد ثم تضعف ، أو تلف صمامات القلب ، أو ازدياد إفراز هورمون الغدة الدرقية ، كما أن هناك عوامل

عصبية كثيرة ، تسبب اضطرابات وظائف القلب ، ينشأ عنها الإحساس بالضيق والتوتر والقلق البالغ ، مع أنها لا تسبب أبداً تلفاً مستديماً فى عضلة القلب ، ولا تحدث الوفاة مطلقاً .

تصلب الشرايين

يصيب تصلب الشرايين صمامات القلب أو الأوعية الدموية .وأول تغير يحدث هو ترسيب طبقة دهنية على سطح الشريان الداخلى ، مما يسبب تلفاً وتليفاً فى بعض أجزائه . وهذا بدوره يؤدى إلى ترسيب مواد جيرية . والنتيجة النهائية لهذه العمليات هى ضيق الوعاء المريض ، مما يعوق مرور الدم به ، وقد ينتهى هذا إلى إغلاق الوعاء تماماً ، وفى أحوال أخرى يتسبب بطء مرور الدم به فى إحداث جلطة بداخله ، تسبب انسداداً مفاجئاً .

وتصلب الشرايين مرض منتشر بين متقدمى السن ، للدرجة أنه عد ضربة لازب للشيخوخة وضريبة لتقدم العمر .

غير أن دراسة شرايين المتوفين فى سن الثمانين والتسعين دلت على أن الكثير منها لم يكن به أى تصلب ، كما شوهدت حالات تصلب شرايين فى الصغار ، مصحوبة باضطراب فى هضم وتمثيل المواد الدهنية ، وأهمها مادة « الكولسترول » ونسبة الكولسترول فى الدم يمكن قياسها بسهولة ، وقد لوحظ أن تصلب الشرايين يصاحبه دائماً ارتفاع فى نسبة الكولسترول فى الدم .

وثمة دليل آخر على علاقة تصلب الشرايين بالغذاء يبينه لنا التوزيع الجغرافى للمرض ، ففى شمال الصين وأوكيناوة ، حيث الطعام قليل ، واللبن والزبدة والبيض — وهى المواد الغنية بالكولسترول — تكاد تنعدم، نجد

أن تصلب الشرايين يكاد ينعدم هو الآخر ، وفى الحرب الأخيرة نقصت نسبة الوفيات بسبب تصلب الشرايين فى إسكندناوة لقلة الغذاء عامة ، وقلة المواد الدهنية على وجه الخصوص باستثناء الدانمركيين ، الذين فضلوا أكل الجبن والزبد ، وامتنعوا عن تصديرها إلى ألمانيا ، وفى بريطانيا نقصت الإصابات بتصلب الشرايين ، بسبب توزيع الطعام بالبطاقات فى أثناء الحرب و بعدها .

ومن ذلك يتضح أن الوقاية من مرض تصلب الشرايين ، تستلزم تناول غذاء خفيف قليل الدهن . ولا ريب فى أن أهم أسباب انتشار هذا المرض فى مصر والشرق العربى ، أننا نحب الأكل بشراهة ونهم عجيبين .

على أن هناك عوامل أخرى تلعب دوراً هاماً فى انتشار المرض ، منها عامل الوراثة ، وعدم قدرة الجسم على تمثيل مادة الكولسترول . فيجب على كل منا أن يعمل على إنقاص وزنه إلى الوزن المناسب للطول والسن . وأن يتناول الطعام بالقدر الذى يحافظ بالضبط على هذا الوزن ، وأن يكون الغذاء قليل الدهن .

وعندما يكون مرض تصلب الشرايين شائعاً بين أفراد الأسرة ، فهذا نذير يلزم الفرد بالاهتمام البالغ باتباع نظام غذائى دقيق منذ فجر حياته ، ليتسنى له الوقاية من هذا المرض .

وتصلب الشرايين مرض خطر ، إذ يختار الشرايين التاجية ، أو شرايين الأطراف أو المخ مسرحاً لمضاعفاته التى تهدد الحياة تهديداً مباشراً .

تصلب الشرايين التاجية

وتصلب الشرايين التاجية ، التى تغذى عضلة القلب ، يسبب نوعاً من الألم العنيف يعرف بالذبحة الصدرية . وتشخيص الحالة يعتمد إلى

حد كبير على شكوى المريض ووصفه لنوع الألم ، وتوقيته ، ومداه ، وعلاقته بالقيام بمجهود .

وهناك مجموعة من الأمراض تسبب آلاماً ينسبها الناس خطأ إلى ذبحة الصدر ، وهى التهابات البلور ، وضيق المرىء ، والتصاقات الرئة ، والروماتزم العضلى ، والتهابات العمود الفقرى ، وزيادة حساسية الأعصاب .

وإنه لمن سوء الحظ أن أى ألم فى الصدر ، وبخاصة فى الجهة اليسرى ، يسبب للناس قلقاً بالغاً ، ويضيع من الأطباء وقتاً طويلا ينفقونه فى بث الطمأنينة فى النفوس ، والإقناع بسلامة القلب .

ولابد أن نؤكد أن كثيرين من مرضى الذبحة الصدرية يعيشون حياة طويلة سعيدة . وقد تزول الذبحة نهائياً فى بعض الأحوال ، إذ بمرور الزمن تكبر الفروع الصغيرة للشرايين التاجية ، وتكفل تغذية عضلة القلب بدلاً من الشرايين الأصلية المتصلبة الضيقة .

ويمكن لمريض الذبحة القيام بأعماله اليومية فى حدود إمكانيات قلبه المريض . ومن حسن الحظ أن لدينا مقياساً دقيقاً لا يخطىء فى تقدير هذه الإمكانيات ، هو الشعور بالألم ، وهذا فى الواقع هو العلامة الحمراء التى تنذر بالوقوف عند هذا الحد من الجهد .

ويجب ألا تملأ المعدة بالطعام ، فتعدد الوجبات الصغيرة أفضل من وجبة واحدة كبيرة . ويحسن تناول الملينات ، ويسمح بتناول القهوة والشاى باعتدال ، لما فيهما من منبهات خفيفة للقلب ، وهذه المنبهات تحسن مرور الدم فى الشرايين التاجية .

تصلب شرايين الساق

وكما أن تصلب الشرايين التاجية يسبب آلاماً تعرف بالذبحة الصدرية ،

كذلك تصلب شرايين الساق يسبب آلاماً عنيفة عند السير ، قد تضطر المريض إلى الوقوف ، وتسمى بالتقلصات المفاجئة .

ومع أن التدخين لا يؤثر كثيراً على مصير الذبحة الصدرية ، فإن ضرره محقق فى حالة تصلب شرايين الساق ، فهو يزيد فى تضييقها ، وبذلك يزيد فى تقليل كمية الدم التى ترد إلى عضلات الساق والقدم . ولذلك كان الإقلاع عن التدخين شرطاً هاماً لتحسين هذه الحالة ، مع العناية بالقدم ، حيث إن قلة توارد الدم يجعل الالتهابات والتقرحات بطيئة الشفاء والالتئام ، وقد يصل الأمر إلى « الغنغرينا » .

ويجب ألا تستعمل الأحذية الضيقة ، أو الجوارب الضاغطة ، أو الاستعانة بالماء الساخن للتدفئة ، والحذر عند قص الأظافر .

وبالمداومة على الرعاية الصحية ، والفهم الدقيق لتطورات المرض ومضاعفاته ، والعمل على توقيها تتحسن الحالة تدريجاً .

تصلب شرايين المخ

تصلب شريان المخ ، الذى يغذى مركز الحركة ، يسبب الشلل النصفى ، وهو ما يطلق عليه الناس اسم « النقطة » وفيه تصاب اليد والساق بالشلل ، وقد يفقد النطق ، إذا كان الشلل فى الجهة اليمنى من الجسم ، وتتحسن الساق عادة قبل اليد .

وتلعب قوة إرادة المريض دوراً فعالا فى استعمال أطرافه عندما تدب فيها الحركة ، والشخص الذى أصيب بالنقطة مرة واحدة ، يعيش فى فزع دائم من تكرارها ، وهذا أمر طبيعى ، ولكنه ضار ، ففى كثير من الأحيان لا تتكرر المأساة ، ويعيش الإنسان حياة طبيعية منتجة .

ولعل أروع مثال لذلك العالم البكتريولوجى الشهير لويس باستير ، فقد عاش ٢٨ عاماً بعد إصابته بالشلل النصفى ، وسجل فى هذه الفترة أعظم اكتشافاته العلمية الخالدة فى عالم الميكروبات .

روماتزم القلب

روماتزم القلب هو مرض الطفولة وفجر الحياة ، ومن يصاحبه المرض حتى سن متقدمة يحتاج إلى عناية خاصة ، لمقاومة الميكروبات التى تزيد الحالة سوءاً .

فالتهاب اللوزتين والحلق قد يسبب مزيداً من تلف صمامات القلب ، فتجب المبادرة بعلاج هذه الالتهابات بالبنسلين وما شابهه فى الوقت المناسب ، ويحسن استعمال البنسلين البطىء ، أو أقراص السلفا ، كسلاح وقائى كلما كان هناك احتمال للإصابة بهذه الالتهابات .

وعندما يستدعى الحال خلع أحد الأسنان ، يجب استعمال البنسلين قبل وبعد هذه العملية ، إذ أن ما يصاحبها من تلف للأنسجة يسمح للميكروبات بالوصول إلى مجرى الدم ، وهذه الميكروبات لا يحلو لها الاستقرار والنمو ، إلا على صمامات القلب التالفة ، مسببة مرضاً بالغ الخطر ، يعرف باسم « التهاب غشاء القلب تحت الحاد » .

أوهام حول القلب

يفزع الكثيرون من أى ألم فى الجهة اليسرى من الصدر أو أى ضيق فى التنفس أو الإحساس بدقات القلب ، مع أنه باستثناء ألم الذبحة ، ليس هناك عرض آخر يؤكد وحده مرض القلب .

فضيق التنفس قد ينشأ من البدانة، أو اضطراب الرئة أو الأنيميا بالإضافة إلى أمراض القلب .

وتورم القدمين لا يعنى حتما هبوط القلب ، فقدينشأ عن أمراض الكلى ، والأنيميا الشديدة والأوردة المتمددة واضطرابات الدورة الدموية فى الساق ، أو سوء التغذية ، وبخاصة نقص البروتينات .

والخفقان ، أى الإحساس بدقات القلب ، يحدث بعد القيام بمجهود، وعند الخوف المفاجئ، وقد يحدث للشخص السليم الخالى من مرض القلب ، بسبب زيادة حساسية الأعصاب .

أما « الدقة » الزائدة المفاجئة ، التى يهرع بسببها الناس إلى الأطباء فزعين ، ويطلقون عليها اسم « القفزة » فهى تحدث بسبب التعب ، أو الإفراط فى التدخين ، أو الإكثار من تجرع القهوة أو لغير ما سبب .

مثل هؤلاء الناس يمرضون وهم أصحاء ، ويحتاجون إلى كثير من الصبر والأناة والإقناع ، وبسط الحقائق ، وتوضيح الأمور لانتزاع مرض الوهم الخبيث من نفوسهم .

ضغط الدم

ضغط الدم هو القوة التى يندفع بها الدم داخل الشرايين ، محدثاً ضغطاً على جدرها يروح تقديره العادى بين ١٢٠ — ١٤٠ مليمتراً من الزئبق ، عند انقباض عضلة القلب ، و ٨٠ — ٩٠ مليمتراً عند انبساطها .

ويكون الضغط لدى بعض الناس أقل من هذا القدر ، وهؤلاء

عادة نحاف الجسم ، طوال القامة ، وليس هذا علامة مرض معين ، بل على النقيض من ذلك فإن فرصة ذوى الضغط المنخفض كبيرة فى حياة طويلة سليمة خالية من أمراض القلب والشرايين ، ولا يحتاجون عادة إلا إلى العناية بالتغذية ، وممارسة الرياضة البدنية لبناء أجسامهم .

وقد ينشأ ضغط الدم المنخفض عن الضعف والأنيميا ، وفى دور النقاهة من الأمراض الشديدة .

أما عندما يكون انخفاض ضغط الدم ناشئاً عن مرض « إديسون » أو الصدمة أو انسداد الشرايين التاجية بجلطة دموية ، فهذه حالات خطرة تستدعى علاجاً سريعاً .

وفيما عدا هذه الحالات النادرة ، فإن انخفاض ضغط الدم يجب ألا يقلق بال أحد .

أما ذوو الضغط المرتفع فيجب أن يألفوا الحياة به . لا أن يعيشوا له ، فكثيرون يبالغون فى الخضوع لجهاز قياس ضغط الدم ، ويصرون على قراءته كل وقت ، ويقلقون لارتفاع عشر درجات أو عشرين درجة . والواقع أن فائدة هذا الجهاز هى وضع معدل يكون أساساً لرسم حياة هادئة بعيدة عن القلق والانزعاج الذى لا يجدى سوى ازدياد الحالة سوءاً .

وأول ما يجب أن يدركه مريض بارتفاع ضغط الدم ، هو أن سير هذا المرض طويل وتدريجى ، وأن هناك سنوات طوالا تمر دون أن يعكر الصفو أمر ذو بال .

ونحب أن نؤكد حقيقة هامة ، هى أن أساس علاج ارتفاع ضغط الدم هو « الاعتدال » : الاعتدال فى الأكل وفى العمل ، وفى اللهو ، وفى طلب المشورة الطبية . فليس هناك علاج لارتفاع ضغط الدم الأولى ، ولكن توجد وسائل مختلفة لخفضه ، وتعديل سيره ، وتعويق

اطراد زيادته ، ومنع مضاعفاته .

وفى مقدمة هذه الوسائل ، إنقاص الوزن إلى القدر الطبيعى ، فارتفاع الضغط وحده عبء ثقيل على القلب ، يجب ألا نضيف إليه عبء البدانة التى لا خير فيها .

وفى الحالات المبكرة من المرض ، لا داعى مطلقاً لتحديد أنواع الطعام ، فقد ثبت خطأ الرأى القديم الذى ينصح بمنع اللحوم الحمراء والبيض وكل مايسبب نقصاً خطراً فى البروتين ، ويمكن أن يسمح بالتوابل.

ويحتل ملح الطعام اليوم مكان الصدارة فى قائمة الممنوعات ، وكل مريض بالضغط أو القلب يعرف تماماً أهمية تجنب ملح الطعام ، والواقع أنه من الحكمة تقليل ملح الطعام فى الأحوال المتوسطة ، إذ لا يفيد كثيراً الامتناع التام عنه ، أما فى الأحوال التى يبلغ فيها الارتفاع درجة تسبب أعراضاً ملموسة ، فالغذاء الخالى من الملح تماماً يصنع العجائب وإن سر نجاح غذاء الأرز فى تخفيض الضغط ، ليس فى الأرز نفسه ولكن فى كونه قليل الملح .

وطبيعى أن ممارسة هذا النظام القاسى فى التغذية ، يجب أن يكون تحت إشراف الطبيب .

ويسمح بتناول القهوة والشاى باعتدال . والواقع أن الكافيين فى هذه المشروبات يفيد أحياناً فى إزالة صداع الضغط ، والتدخين الخفيف لا ضرر منه ، بل إن ذلك يفيد فى بعض الأحيان ، إذ يمنع القلق ، ويهدئ الأعصاب .

ويحسن أن يستمر مرضى الضغط فى القيام بأعمالهم العادية ، وأن يخففوا من طموحهم ، ويروضوا أنفسهم على الهدوء وتفادى القلق والتوتر العصبى .

إن ساعات العمل الطويلة أقل ضرراً من عمل ساعة واحدة بتوتر زائد .

فالموظف الذى يشغل ذهنه بالعلاوات والترقيات ، والطبيب الذى يحمل عبء كل مريض ، والعامل الذى يتبارى فى سرعة الإنتاج ، كل أولئك يعملون على زيادة الضغط المرتفع ، فبإجراء تعديل بسيط فى نظام الحياة ، يمكن أن يؤدى كل منهم عمله العادى ، على أن يتوقف عند التعب ، لينال قسطاً من الراحة ، وأن يوزع إجازته السنوية الطويلة على عدة إجازات قصيرة ، موزعة على طول العام. ويستحسن استعمال المسكنات والملينات عند الحاجة .

ولما كان العصب السمبثاوى هو المهيمن على تضييق الشرايين ، فهو يعد عاملا رئيسياً فى رفع الضغط ، ولذلك استحدثت عقاقير كثيرة تهدف جميعاً إلى الحد من نشاط هذا العصب وتقليل مفعوله ، فتتسع الشرايين ويهبط الضغط ، وهى عقاقير شديدة الفعالية ، ومتى استعملت بذكاء وحكمة فإنها تؤدى إلى أفضل النتائج .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٤٧٤٧

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

الكتاب القادم

اقرأ

في اللغة والأدب

الدكتور
ابراهيم مدكور

اقرأ

الدكتور إبراهيم بيومى مدكور

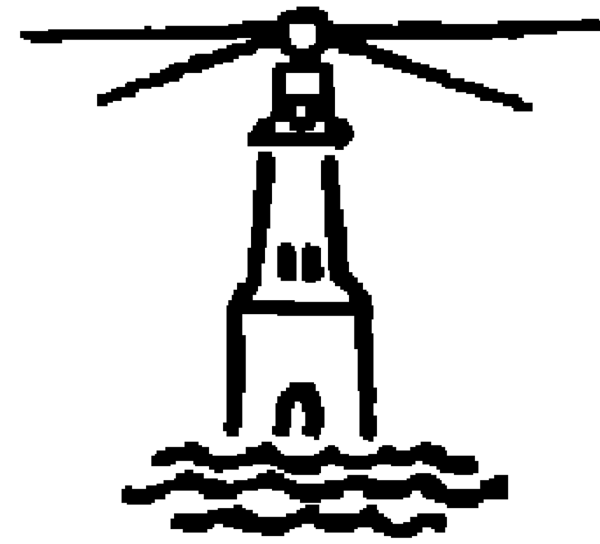
فى اللغة والأدب





مجلة تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

الدكتور إبراهيم مدكور

فى اللغة والأدب

اقرأ ٣٣٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٧ – يناير سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

إيضاح

نعمت بصحبة الخالدين زمناً غير قصير ، فعادوا بى إلى دراسات صرفتنى عنها شئون شتى ، ووجهونى نحو مشاكل فى اللغة والأدب ، عرضت لكل واحدة منها فى استقلال وتحت تأثير ظروف خاصة . وقد عاودت النظر فيها أخيراً ، فلمست ما بينها من صلة ، وتبينت أنه تجمعها وحدة ، وأنه يمكن أن يرد قسمها اللغوى إلى أبواب ثلاثة .

فنها ما يدور حول بعض القضايا اللغوية الكبرى ، كتطور اللغة ، والصلة بينها وبين الفكر ، والقياس ، والتعريب ، والنحو العربى فى نشأته وتطوره ، ومنزلة العربية بين اللغات العالمية الكبرى ؛ وهذا هو موضوع الباب الأول .

ومنها ما يعالج لغة العلم بوجه خاص ، فيعرض لخصائصها ومميزاتها ، ولحق العلماء فى وضعها وصياغتها ، ويشير إلى شىء من تاريخها ، وما انتهت إليه اليوم فى لغتنا العربية ، وقد جمع ذلك كله تحت الباب الثانى .

ومنها أخيراً ما يفصل القول فى فن المعجمات ، ويبين تطورها وماوصل إليه المعجم الحديث ، ويقف قليلا عند لون من التأليف المعجمى لم يلحظ فى ترتيبه وتبويبه إلا مجرد نطق الكلمة ، وهو ما سمى المعجم الأبجدى ، وأدرج هذا كله تحت الباب الثالث .

وأما الأدب فلم يحظ إلا بباب واحد ، درست فيه بعض جوانب الشعر والقصة ، وأثيرت مشكلتان كثيراً ما كانتا موضع أخذ ورد ، وهما

مشكلة متن اللغة ، ومشكلة تيسير الكتابة العربية ، وأشير إلى بعض مميزات أدبنا المعاصر .

وإذا كانت هذه الموضوعات قد عولجت منفصلة وفى مراحل زمنية متعددة ، فإن فى جمعها ما يزيدها وضوحاً ويعين على فهمها . ونعتقد أنها لاتزال تشغل الأذهان ، ومن الخير أن تلقى عليها أضواء متلاحقة .

الباب الأول

فى اللغة

مجمع اللغة العربية والأكاديمية الفرنسية[1]

الأكاديمية الفرنسية ، منذ قيامها ، نموذج احتذى فى بلاد كثيرة ، فلم يكد يمضى عليها خمس وعشرون سنة حتى أخذ الإنجليز فى محاكاتها بإنشاء « الجمعية العلمية الملكية» الخالدة . وعلى نحو من هذا أسست الأكاديميتان الألمانية والروسية ، وبعض أكاديميات أخرى أوربية كالأكاديمية الإسبانية والبلجيكية .

وفى القرن العشرين قامت فى العالم العربى مجامع علمية ولغوية فى دمشق والقاهرة وبغداد ، وكانت الأكاديمية الفرنسية إلى مدى بعيد نموذجاً لها . وأود أن أقف قليلا عند واحد منها ، وهو مجمع اللغة العربية ، وسأعرض لشيء من تاريخه وتكوينه ونظام العمل فيه وإنتاجه ، مقارناً ذلك بالأكاديمية الفرنسية .

* * *

وفكرة إنشاء مجمع لغوى بمصر ليست بنت القرن العشرين ، بل تصعد إلى القرن الماضى . فقد لاحظ الأستاذ الإمام (١٨٤٩–١٩٠٥) ، وهو ممن عاشوا فى باريس زمناً ، أننا فى حاجة إلى مجمع شبيه

(١) مترجم بتصرف مع إضافات عن بحث بالفرنسية ألقى فى « السربون الجديدة » بباريس عام ١٩٦٤ .

بالأكاديمية الفرنسية ، يعنى بتاريخ اللغة ، ويزودها بمصطلحات علمية وحضارية جديدة ويضع فيها معجمات لغوية حديثة — وفى أخريات القرن الماضى اشترك هو نفسه فى « مجمع البكرى» الذى لم يعمر طويلا، وإن دارت حول مقترحاته مناقشات طويلة فى الصحافة اليومية والشهرية . وفى أوائل هذا القرن بدأت محاولات أخرى ، وعلى رأسها ما اضطلع به لطفى السيد ، وهو من أصدقاء محمد عبده وممن تثقفوا ثقافة فرنسية كاملة . فقد دعا مرة أخرى إلى إنشاء مجمع لغوى ، وأنشأ فعلا فى عام ١٩١٦ ما يسمى « مجمع دار الكتب » ، الذى ضم صفوة من شيوخ اللغة وأدبائها ، وكان هو أمينه العام . وقد تابع هذا المجمع نشاطه إلى أن اعترضت ثورة سنة ١٩١٩ سبيله ، فتوقف تماماً ، وأريد له أن يستأنف العمل عام ١٩٢٣ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة .

ولست فى حاجة أن أشير إلى أن هذه المحاولات كلها قامت على جهود خاصة، ولم تتدخل الدولة فى الأمر إلا عام ١٩٣٢، يوم أن أنشئ مجمع اللغة العربية بصفة رسمية . وكان لطفى السيد أيضاً وراء ذلك ، وهو دون نزاع الأب الحقيقى لمجمع اللغة العربية .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإن الأكاديمية الفرنسية سبق لها أن سارت فى الطريق نفسه ، فقد بدأت مؤسسة حرة يرعاها فريق من الكتاب والأدباء الذين كانت تجمعهم لقاءات دورية فى بيوت بعضهم ، ولم يعترف بها رسميا إلا بعد مرور ٤٠ سنة على قيامها . فقد شاء ريشيليو أن يضع هذه الجماعة الأدبية تحت كنفه ، وأن يباهى بأنه « حامى الأكاديمية الفرنسية » .

* * *

إلا أن مجمع اللغة العربية لم يقف فى تكوينه عند الحدود التى رسمتها الأكاديمية الفرنسية ، وحرصت فيها على أن تقصر عضويتها على الفرنسيين .

وبعكس هذا شاء مجمع القاهرة أن يكون مؤسسة عربية لا وطنية ، وتلك فكرة ذهب إليها من قبل لطفى السيد عند إنشاء « مجمع دار الكتب ». وكان أعضاء مجمع اللغة العربية فى البداية ٢٠ ، نصفهم من المصريين، والنصف الآخر عرب ومستعربون ، وتقاسمت تونس ولبنان وسوريا والعراق فيما بينها الخمسة العرب ، وتقاسمت ألمانيا وإنجلترة وفرنسا وإيطاليا الخمسة المستعربين – واختير هؤلاء جميعاً لكفايتهم ورسوخ قدمهم فى علوم الأدب واللغة ، دون اعتبار آخر.

واحتفظ مجمع اللغة العربية بهذا الطابع إلى النهاية ، والتزم بتخصيص مقاعد لغير المصريين إلى حد أنه فى عام ١٩٣٩ لم يستطع أن يعقد اجتماعه السنوى لتعذر وصول الأعضاء الأجانب ، بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية . واضطر على أثر ذلك أن يزيد أعضاءه ، فصاروا ٣٠ منهم ١٠ من غير المصريين . وبقيت هذه النسبة محترمة فى الجملة أو عادت إلى النصف مرة أخرى . فنى سنة ١٩٤٦ ، رفع عدد الأعضاء إلى ٤٠ ، محاكاة للأكاديمية الفرنسية فى الغالب ، منهم ١٠ غير مصريين ، وفى عام ١٩٥٥ صاروا ١٢ مع بقاء العدد الكلى كما هو ، وفى عام ١٩٦٠ بلغوا العشرين إلى جانب ٤٠ من المصريين .

وعلى غرار الأكاديمية الفرنسية حرص مجمع اللغة العربية على استقلاله الإدارى والمالى ، ونماه شيئاً فشيئاً ، فلا يتدخل أحد فى ترشيح أعضائه الجدد ولا فى انتخابهم ، وآثر أن يبقى ذلك عملا مجمعياً داخلياً . وهنا يختلف بعض الشئ عن الأكاديمية الفرنسية ، فإن هذه تحت تأثير ظروف خاصة فرضت على من يريد الانضمام إليها أن يتقدم بطلب خاص ، ولا بأس من أن يزور الأعضاء ويسعى إليهم . الأمر الذى ينفر منه أعضاء مجمع اللغة العربية ، ويرغبون فى أن يتم الترشيح

والانتخاب فى داخل الأسرة وبمحض اختيارها . وإذا ما أحرز المرشح الأغلبية المطلوبة صدر الأمر الملكى أو القرار الجمهورى بتعيينه . ولم تخرج الحكومة على ذلك إلا مرة واحدة عام ١٩٤٢ ، كما حدث فى الأكاديمية إبان الثورة الفرنسية .

ولم يكن بمجمع اللغة العربية فى البداية إلا هيئة واحدة مكونة من المصريين وغيرهم ، وكانت تعقد اجتماعاتها لمدة شهر ونصف كل عام . وفى سنة ١٩٤٠ قسم إلى هيئتين : مجلس ، ومؤتمر . ويشتمل المجلس على الأعضاء المصريين الذين يعقدون اجتماعاً كل أسبوع على الأقل لمدة ثمانية أشهر فى السنة ، من أول أكتوبر إلى آخر مايو . ويشتمل المؤتمر على أعضاء المجمع جميعاً ، مصريين وغير مصريين ، ولا بد له أن يعقد كل عام دورة على الأقل تتفاوت مدتها بين أسبوعين وستة أسابيع . وعليه أن ينظر فيما أقره المجلس فى دور انعقاده السابق . ولا تصبح قرارات المجلس نهائية إلا بعد أن يوافق عليها المؤتمر .

وإلى جانب الأعضاء العاملين ، أخذ مجمع اللغة العربية بنظام الأعضاء المراسلين الذين يغذونه بما يشاءون من بحوث ودراسات ، ولهم حق حضور جلسات المجلس والمؤتمر ، دون الاشتراك فى التصويت . وفى المجمع الآن نحو مائة وعشرين عضواً مراسلا من أطراف الدنيا المختلفة ، بين شرقيين وغربيين ، إفريقيين وآسيويين ، أوربيين وأمريكيين ، ممن لهم ولوع بالعربية وحرص على خدمتها ؛ وفى هذا ما عزز الطابع العلمى والعالمى للمجمع . وقد أمده بعض هؤلاء الأعضاء المراسلين بدراسات لها وزنها ، وفى وسعهم أن يعينوه على معالجة مشاكل اللهجات المحلية والاستعمالات الإقليمية .

ولا يكتفى المجمع بجهود أعضائه ، بل يستعين بالخبراء والمتخصصين فى أبواب الثقافة المختلفة ، وهم فى الغالب أساتذة جامعيون ، أو فنيون

ممتازون ، وفى قوائمه اليوم منهم ما يزيد على المائة . ويشترك الخبراء فى لجان المجمع ومجلسه ومؤتمره ويشرحون وجهة نظرهم ويدافعون عنها ويؤدون للعلم واللغة خدمات جليلة .

ويعدّ المجمع جيلا من الباحثين والمحررين ، ينهجون نهجه ، ويدربون على طرائقه فى البحث والدرس ، ومنهم من أشرب بروحه وأصبح جزءاً منه ، وهم عماده الأول وجهازه الثابت . ومن الخطأ أن يظن أن إنتاج المجمع ثمرة جهود أعضائه وحدهم ، بل للخبراء وهيئة التحرير فى ذلك نصيب ملحوظ .

وبفضل هذا التعاون الشامل بين المصريين وغير المصريين ، بين المجمعيين وغير المجمعيين ، استطاع مجمع اللغة العربية فى خلال مدة قصيرة نسبيًّا أن يعالج مشكلات شتى فى متن اللغة وأصولها ، فى نحوها وصرفها ، ولم تفته بعض الصعوبات المدرسية كالإملاء والكتابة العربية. وسنلقى نظرة سريعة على إنتاجه بوجه عام .

* * *

ونحن نعلم أنه لم يحدد للأكاديمية الفرنسية يوم تكوينها مهمة واضحة ، واكتفى قرار إنشائها بأن نص على أن هدفها هو : « أن تحفظ على الفرنسية — رشاقتها ، وأن تجعلها قادرة على سد حاجات العلوم والفنون». وقد اضطر فينلون فى خطاب استقباله فى أوائل القرن الثامن عشر أن يحدد هذا الهدف ، وحصره فى خمسة أمور : المعجمات ، والنحو ، والخطابة ، والشعر ، والإملاء ، ولكن هذا البرنامج لم يلتزم فى دقة .

وبعكس هذا حدد غرض مجمع اللغة العربية منذ نشأته ، وأريد به خاصة أن يحرص على سلامة اللغة وتيسيرها ، وأن يغذيها وينميها بما هى فى حاجة إليه من ألفاظ ومصطلحات ، وأن ينهض بالمعجم العربى ويجعله ملائماً لفن المعجمات الحديث . ولم تلبث هذه الأهداف أن

اتضحت أمامه ، وأخذ يعدلها ويرسم مناهج تحقيقها ووسائل الوصول إليها ، وأصبحت له فى ذلك تقاليد واضحة .

وللعربية ماض طويل يعرفه المجمع ويقدره ، ولكنه يؤمن بأنها لغة حية تتغير وتتبدل كسائر الظواهر الاجتماعية ، وقد مرت بها تطورات مختلفة على مر الزمن ، ولم يبق محل للقول بأنها استقرت عند أوضاع لاتقبل التغيير والتبديل . فهناك استعمالات قديمة وأخرى حديثة ، وأساليب جاهلية أو عباسية وأخرى عصرية ، وفصحى الأمس تختلف عن فصحى اليوم . ومن حقنا أن نقيس ونشتق كما قاس الأقدمون واشتقوا ، بل من حقنا أن نعرب ونضيف إلى لغتنا ألفاظاً أخذت من لغات أخرى .

وعلى هذا سار مجمع اللغة العربية منذ خمس وثلاثين سنة ، وتوسعة لمتن اللغة وتيسيراً للقياس والاشتقاق وضع طائفة من القواعد أفادمنها الباحثون والدارسون . وقد أخرجت عام ١٩٦٣ تحت عنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ولم يبق من طبعتها الأولى شئ يذكر . وأضاف إليها فى العام الماضى (١٩٦٩) مجموعة أخرى تحت عنوان : « فى أصول اللغة » ، وهى تسير على نهج المجموعة الأولى فى التجديد والتيسير ، وأصبحنا لانشك اليوم فى أنا نملك اللغة ، وليست هى التى تملكنا ، وفى وسعنا أن نستخدمها كما نريد ، ما دمنا لانخرج عن أصولها ومبادئها .

وقد عنى المجمع بالمصطلح العلمى عناية خاصة ، « والعلم لغة أحكم وضعها » . وللعلوم الإسلامية مصطلحات قديمة احتفظ ببعضها وأهمل كثير منها ، ثم جاء العلم الحديث بكشوف وحقائق جديدة لابد لها من قوالب لفظية تؤديها . وفى أوائل القرن الماضى قامت فى مصر حركة علمية تلكأت فى السير قليلا ، ثم ما لبثت أن نشطت ، وزاد نشاطها فى القرن الحاضر ، ومست الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية وحضارية جديدة ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التى دفعت إلى التفكير فى إنشاء مجمع لغوى .

وقد شغل مجمع اللغة العربية فعلا منذ نشأته بالمصطلح العلمي كثيراً ، ووقف عليه معظم جلساته ، واستطاع أن يقر منه عشرات الآلاف في شتى العلوم والفنون وأخرجها في مجموعات خاصة تعد نواة للمعجمات العلمية . وقد بدأ في إخراج بعض هذه المعجمات ، ويأمل أن يتوسع فيها . ونستطيع أن نقرر أنه أضحى اليوم أكبر مؤسسة تعنى بالمصطلح العلمي والحضاري في العالم العربي . ويحرص دائماً على أن يقابل المصطلح العربي بنظيره في الفرنسية أو الإنجليزية أو فيهما معاً ، وربما كان بعض المصطلحات العربية أدق في معناه من اللفظ الأجنبي . وهنا يختلف مجمع اللغة العربية عن الأكاديمية الفرنسية التي وكلت أمر المصطلح العلمي لسواها ، ولم تقبله في معجمها إلا في طبعته الرابعة، بعد مرور مائة عام على نشره .

وفي العربية معجمات لغوية كثيرة، ولعلها في هذا من أغنى اللغات، ولم يخل عصر من عصورها من ظهور معجم لغوي جديد . وإذا كنا لم نقف عليها جميعها ، فقد وصل إلينا منها قدر لانزال نرجع إليه ونعول عليه، ومنه ماترجم إلى بعض اللغات الأوربية . وفي هذه المعجمات القديمة مادة غزيرة ، ومعلومات متنوعة ، وثروة لغوية قيمة . ولكنها في مادتها مقصورة على أساليب الجاهلية وصدر الإسلام، ولاتسلم بمااستحدثته العصور التالية من تراكيب واستعمالات . ومنهجها لا يتفق مع فن التأليف المعجمي الحديث ، فتبويبها معقد، وتعريفاتها غامضة أو خاطئة .

وقد تنبه المجمع إلى نواحي النقص هذه ، وأخذ يعد لإخراج معاجم حديثة تقوم على أساس من المنهج التاريخي على نحو « معجم أكسفورد » في الإنجليزية ، واعتداد بالجانب الموسوعي « كمعجم لاروس » في الفرنسية . وشاءت المصادفات أن يكون بين أعضاء المجمع لغوي ألماني كبير هو الدكتور فيشر وقف خمسين سنة من حياته على المعجم العربي ، أعد مادة لمعجم

تاريخي تعاقدمع المجمع على إخراجه ، ووقفت الحرب العالمية الثانية مع الأسف في سبيل ظهوره . فلم ير المجمع بدا من أن يضع بنفسه «معجمه الكبير» ، وقضى زمناً غير قصير في تحديد أهدافه ورسم منهجه وجمع مادته ، وهاهو ذا يخرج الآن سنة ١٩٧٠ الجزء الأول منه ، ويأمل أن تليه تباعاً الأجزاء الأخرى .

وقد أخرج عام ١٩٦٠ « معجمه الوسيط» ، وهو خطوة هامة في سبيل التأليف المعجمي ، يسجل الفصيح ، ويضم إليه المحدث والمولد ، ويأخذ بالترتيب الهجائي في التقسيم والتبويب . فسد حاجة ، وأقبل عليه الباحثون والدارسون ، ولم تلبث طبعته الأولى أن نفدت . والمجمع الآن بصدد إخراج الطبعة الثانية ، بعد أن أدخل عليها ما أدخل من تهذيب وتنقيح . وما أشبهه ببعض المعاجم الحديثة ، كمعجم « لاروس الصغير » .

* * *

وهنا أيضاً نجد مجمع اللغة العربية ابن القرن العشرين ، ينتج أكثر مما أنتجت أكاديمية القرن السابع عشر ، وينزل عند حاجات العصر ومقتضياته . فيلتزم في معجماته تبويباً أيسر ، وتعريفات أوضح . ويأخذ بقدر من المصطلحات العلمية ، ويشرحها شرحاً دقيقاً فنياً. وقد ترددت الأكاديمية الفرنسية طويلا في أن تثبت في معجمها الوحيد المصطلحات العلمية ، برغم نموها وتجددها ، ورفضت حتى الآن أن تفسح للأعلام مكاناً . أما المولد والمحدث فقد أنكرته إنكاراً باتاً طوال قرنين كاملين ، ولم تأخذ به إلا في القرن العشرين ، وبتحفظ تام .

٢

الفكر واللغة

اللغة ابتكار من أبدع ما وصل إليه الإنسان، وأداة تمتاز بكثير من الدقة والإتقان، ووسيلة ناجعة من وسائل الاتصال والتفاهم بين الأفراد والجماعات. وهي ظاهرة متشعبة النواحي، أثارت ألواناً شتى من البحث والدراسة. وإذا تركنا جانباً ما يتصل بها من دراسات أدبية ونحوية وصرفية، فإنها وجهت إلى بحوث أخرى متعددة.

فعرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى، ويبينوا أعضاء النطق والصوت ورسموا فى اختصار الجهاز العضوى للغة. وعالجها علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهنى والدلالات اللغوية، وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها، ومقارنين بين اللغات البدائية واللغات المتحضرة، ومعلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات. ونظر إلى اللغة أخيراً على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى ويحكى الأحداث، بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها.

ودون أن نعرض لهذه النواحى المختلفة، نود فقط أن نوجه النظر إلى ما بين الفكر واللغة من صلة، وفى هذه الصلة ما يلقى كثيراً من الضوء على مناقشاتنا، وبخاصة ما يتصل منها بالمصطلحات ووضعها، والمترادفات وقيمتها، وألفاظ الحضارة وتجددها، والتعبيرات المبتكرة ومدى الحاجة إليها. ولاشك أن المعنى وثيق الصلة باللفظ الذى يؤديه، لأنه ثوبه ووعاؤه، وبدونه يضل ويصبح كأن لاوجود له، فلا يمكن تبادله بين الأفراد،

ولا استحضاره فى ذهن الفرد الواحد ، وقديماً قالوا : « التفكير حديث نفسى » ، ومن هنا ارتبط التفكير باللغة ، وبالأخص فى صوره السامية كالحكم والاستدلال .

* * *

وإذا تأملنا الفكر واللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به . فاللغة فى نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهنى والميول والاتجاهات النفسية . وما لغة الأطفال إلا حركات وإشارات تبعث عليها غرائز واستعدادات ، فيدفع الطفل يده إلى الأمام مشيراً إلى التقدم ، أو إلى الخلف مشيراً إلى التراجع ، وكل تلك حركات تعبر عن انفعالات داخلية . ولاتلبث هذه الحركات أن تتحول إلى إشارات ، والإشارات إلى أصوات ، والأصوات إلى ألفاظ وجمل. وهكذا تنشأ اللغة فى تدرجها الطبيعى ، وتقوم على أساس سيكلوجى .

لم يؤثر الفكر فى نشأة اللغة فحسب ، بل أسهم أيضاً بنصيب ملحوظ فى حفظها والإبقاء عليها ، لأن تعلم اللغة بين أبناء الجيل الواحد يعتمد على السماع والحفظ ، وتبادلها بين الأجيال المتلاحقة لاسبيل إليه إلا بالنقل والرواية . ودعامة ذلك كله الذاكرة والحافظة « ولولا الذاكرة ما كانت لغة » كما يقولون . وقد يكون فى الكتابة ما يرفع عن كاهلنا اليوم بعض عبء الاحتفاظ باللغة ، ولكن كم من جماعات لها لغات تداولتها وتوارثتها دون أن يكون للكتابة فيها أثر ملحوظ ، وإنما عولت على الذاكرة وحدها . وكلنا يعلم أن قوة التذكر أوضح فى حياة البداوة منها فى حياة الحضر ، لأن المتحضرين فى اعتمادهم على القلم والقرطاس يضعفون ذاكرتهم ويقللون استخدامها ، على أن الكتابة نفسها لايمكن أن تتعلم وتكتسب إلا بقسط ضرورى من الحفظ والتذكر .

وللحياة الفكرية أثر آخر فى نهضة اللغة ونموها ، إذ لولا تجدد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ ولاتنوعت التراكيب . ولولا عمق الفكرة وتجددها ما كانت دقة اللفظ وتخيره ، وكم يشعر المتكلم أو الكاتب أن اللفظ أوالتعبير الذى استعمله لا يؤدى تماماً المعنى الذى يريده ، فيحاول البحث عن غيره ليكون أكثر ملاءمة . وثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعاً لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم والفنون . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن عصر ازدهار اليونانية قد اقترن بتلك النهضة الفلسفيةوالفنية التى عرفتها أثينا فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . وقد لوحظ أيضاً أن أسماء الذوات تغلب أسماء المعانى فى اللغات البدائية ، لأن البدائيين لايلجئون كثيراً إلى التعميم والتجريد . وتساهم فكرة الزمن بنصيب أوضح فى لغة المتحضرين منه فى لغة الشعوب الهمجية . وتبادل العلوم والفنون بين الأمم لايقتصر على تبادل الأفكار بل يصاحبه أيضاً تبادل بعض الألفاظ والأساليب الدالة عليها ، وكثيراً ما كشفت هذه عن أصل تلك .

* * *

وللغة بدورها أثر قوى فى التفكير ، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته ، ذلك لأن الدال والمدلول متلازمان ، وقل أن يستحضر أحدهما فى الذهن بدون الآخر . وقد سبق لأرسطو أن قال تلك الجملة المشهورة التى قدر لها أن تحيا مع الزمن ، وهى : « ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية » ، وفى مقدمة هذه الصور تجىء الرموز اللغوية . ولم يحاول أحد نقض هذه القضية إلا فى القرن التاسع عشر ، يوم أن جاءت مدرسة ڤورتسبورج ، وذهبت إلى أن هناك ضرباً من التفكير مجرداً من تلك الصور الذهنية كتفكير الأطفال الذى تمليه طائفة من الميول والغرائز ، أو كتلك اللمحات والخواطر التى تمر بالذهن عابرة وكأنها معنى مجرد من كل كساء .

ودون أن نقف طويلا إزاء هذين الرأيين المتقابلين ، نود أن نلاحظ أن الحدس ليس إلا ضرباً من التفكير ، وهناك ضروب أخرى ذات حلقات

لايمكن ربط بعضها ببعض إلابواسطة الرموز اللغوية . على أن الحدس نفسه قد يستصحب لفظاً أو ألفاظاً ، ولذا قالوا إن المرء يفكر فى كلامه قبل أن يتكلم عن تفكيره . فالتفكير السامى أو التفكير المنطقى الذى هو سلسلة من الحكم والاستدلال لاغنى له عن اللفظ والعبارة .

والألفاظ فوق هذا هى الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض ، وإذا كانت المدلولات متنوعة ، فمن اللازم أن تتنوع الدوال تبعاً لها . ولاشك فى أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا ، عموماً وخصوصاً ، جنساً ونوعاً . ولولا الألفاظ ما أمكن تقسيمها وتصنيفها ، ولاتحليلها وتركيبها . وآية الفكر الدقيق تعبير دقيق يؤديه ، والعبارة المحكمة تؤدى عادة إلى تفكير محكم . وبهذا تنوعت العلوم ، وتحددت موضوعاتها ، وامتاز كل منها بمصطلحاته . وما العلم إلا لغة أحكم وضعها .

واللغة أخيراً سبيل تداول الأفكار وتبادلها ، فهى التى تنقلها من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وإلا بقيت وقفاً على أصحابها ومحبوسة فى صدورهم . وإذا كان التفكير الفردى يخضع للمجتمع ويتأثر به ، فإن للغة دخلا كبيراً فى هذا الخضوع والتأثير . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى وتيسير تبادلها ، وفضل لغة على أخرى يرجع فى قسط كبير إلى اتساع تداولها وكثرة المتخاطبين بها .

* * *

فى وسعنا أن نقرر إذن أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير ، فإنها هى أيضاً شرط أساسى لوجوده وتحققه على وجه كامل . هذه هى صلة الفكر باللغة ، وهى فيما يبدو صلة تفاعل وتلازم ، وقد ترتبت عليها آثار متعددة ، يعنينا أن نشير إلى اثنين منها فقط . أولهما أنه يمكن أن تدرس الحياة العقلية فى ضوء الحياة اللغوية . فمثلا ضعف النطق أو بطؤه يؤذن بضعف ذهنى ، والأطفال لايعبرون عن أحكامهم عادة بجملة وإنما

يكتفون بكلمة أو بعض كلمة . ومن هنا نشأ علم النفس اللغوى الذى يرمى إلى تفسير بعض الظواهر النفسية فى ضوء الدراسات اللغوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله « دى شوسير » بالنسبة للغة الكبار ، و « بيابجيه » بالنسبة للغة الأطفال ، و « ليفى بريل » بالنسبة للجماعات البدائية . وإذا كانت الدراسات السيكلوجية قد أفادت كثيراً فى الخمسين سنة الأخيرة من تقدم البيولوجيا والفسيولوجيا والباثولوجيا ، فإنها استمدت أيضاً فى هذه الفترة مادة لابأس بها من الدراسات اللغوية .

* * *

وفى تاريخ الأدب ظواهر لها دلالتها السيكلوجية ، فيلاحظ أن ازدهار الآداب يقترن دائماً بازدهار العلم والحياة العقلية ، وأنه حين يعتدى على الحرية الفكرية ويعم الظلم والطغيان يسود الغموض والرمز فى الألفاظ والأساليب ، ولتلك الحرية الفكرية التى نعم بها الأثينيون القدامى شأن فى وضوح لغتهم وصفائها . وإذا كانت المترادفات تعد ثروة لغوية فى بعض العصور ، فإنها فى عصور أخرى تعتبر سرفاً لاداعى له ولا محل .

ومن جهة أخرى شغلت علاقة الفكر باللغة المناطقة منذ أن وضع علم المنطق إلى اليوم. ونحن نعرف أن منطق أرسطو نبت فى جو البيان والجدل السفسطائى ، وكان ذا صلة بالنحو اليونانى ، بل العربى . ولأمر ما تطلق كلمة « لوجوس » اليونانية على العقل واللغة على السواء . وقد درج المناطقة منذ أرسطو على أن يعدوا دراسة الألفاظ والقضايا مقدمة ضرورية لدراسة البرهنة والاستدلال . ولم يقنع المناطقة المحدثون بهذا ، بل شاءوا أن يحصروا المعانى كلها ويجمعوا « ألف باء» الفكر الإنسانى ، ويضعوا لكل معنى رمزاً خاصاً به ، وبذا تتكون « اللغة العلمية العالمية » .

قال بذلك « ليبنتز » فتنبأ بالمنطق الرياضى ، وسبق عصره بنحو

قرنين ، وأثار لأول مرة فكرة اللغة العالمية . ولاغرابة ، فقد كانت اللاتينية لغة العلم والعلماء لعهده ، هذا إلى أنه كان عالمى النزعة ، إن في العلم أو في السياسة . وفي هذه اللغة المنشودة ما يقرب المسافة بين بني الإنسان ، وما يحول دون أخطاء كثيرة ، لأن الخطأ في الحكم والاستدلال كثيراً ماينشأ عن خلاف لفظي أو غموض فى التعبير . ويوم أن يتوافر لكل معنى رمزخاص به ، نستطيع أن نقول : لنحسب ، بدل أن نقول : لنبرهن .

وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى قوية متحفزة في أول هذا القرن ، وكان من أكبر أنصارها رياضى فيلسوف فرنسي بارع انتزع فجأة في الحرب العالمية الأولى ، وهو « كوتورا» الذى كان يرمى إلى تهذيب « الإسبرنتو » وتكوين « الإيدو» ، تلك اللغة الدولية التى تفرض نفسها على جميع العقول وجميع الشعوب ، وقد وضع فى ذلك معجماً خاصاً ، أخذ عنه كثيراً « لالاند» فى معجمه الفلسفى المشهور .

والرياضة أقل العلوم حاجة إلى الألفاظ والتراكيب لأنها أبعدها مدى في العموم والتجريد . فإذا ما حصرت حقائقها ، واختير لكل حقيقة رمز معين أمكن تكوين لغة رياضية كاملة ، وعلى غرار هذه اللغة الرياضية يمكن وضع اللغة العالمية . وقد كان « كوتورا» فوق تخصصه فى المنطق والرياضة ، ملماً بأطراف الدراسات اللغوية المقارنة ، فأخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساساً للغة الدولية ، وحاول فعلا أن يكون هذه اللغة ويعد لها نحوها الخاص .

ولم تلبث محاولته هذه أن أثارت ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين ، وعلى رأسهم « دركايم» . فلم يرتضوا ذلك المنطق الإنسانى الذى يقود إلى لغة عالمية ، وقرروا أن هناك أسراً لغوية بقدر ماهنالك من مجتمعات إنسانية . وسواء أصحت الأسس التى بنى عليها « كوتورا» مقترحه أم لم تصح ، فإن

فكرة اللغة الدولية ازدادت فى ربع القرن الأخير قوة ووضوحاً . ولعل فى سرعة الاتصال العالمى اليوم ما ييسر سبلها ، ويتيح لها الفرصة لتخرج من دائرة الرغبة والأمل إلى عالم الحقيقة والوجود .

* * *

فى هذا العرض السريع ما يلقى بعض الضوء على العمل المجمعى ، ومنه نستخلص دروساً نافعة ، وفى مقدمتها أن الأصل فى المصطلح العلمى أن يؤدى بلفظ واحد كى يتوافر لكل معنى رمزه اللغوى الخاص به . فلنتحاش إذن الدوال المتعددة للمدلول الواحد ، لأنها تكرار لاداعى إليه وربما أدى إلى شيء من اللبس ، والمصطلح المجمع عليه — وإن لم يؤد المعنى المراد تماماً — سينتهى بأن يستقر ويستحضر مدلوله كلما ذكر .

ونحن أحرص ما نكون على أن نؤدى المعنى العلمى الجديد بلفظ عربى ، فإن تعذر ذلك فلا ضير من التعريب ، لاسيما إذا كانت الكلمة المعربة ذات صبغة عالمية ، وهذا هو المنحى العلمى فى مختلف اللغات . ومن ذا الذى يذكر مذهب « ليبنتز» مثلا ولايذكر معه كلمة « مناد » Monad ! إنا نراها فى اللغات الأوربية على اختلافها دون تغيير أو تبديل .

وما يقال عن الألفاظ يمكن أن يقال عن الأساليب ، فإذا كانت المعانى المفردة فى تجدد فإن المعانى المركبة التى تعتمد على الرابطة والإسناد تتجدد أيضاً ، وإذا كنا نحس بحاجة إلى ألفاظ جديدة ، فإنا فى حاجة أيضاً إلى أساليب جديدة . وقد تصادف هذه الأساليب من الرفض والمعارضة ما تصادفه الألفاظ المبتكرة ، فتستنكر حيناً وترد حيناً آخر . بيد أنا إذا كنا فى حل من ابتكار اللفظة فلا غضاضة علينا فى ابتكار

الأسلوب ما دام يلتقى مع الأوضاع العربية . والفكر - فى خلقه وابتكاره، فى حركته وتنوعه - يتطلب دون انقطاع من الألفاظ والأساليب مايؤدى المعانى المختلفة والمتنوعة .

وأخيراً إنا نعيش فى عصر من أخص خصائصه محاولة الاقتصاد فى المجهود الجسمى والذهنى ، وذلك لتزاحم الأعمال وضيق الوقت ، وكلنا يود أن ينتج أكبر قدر ممكن فى أقصر وقت ممكن ، وأنفع الحقائق ما يمكن توصيله عن أيسر السبل وأقربها - وإذا كان العلم قد اتسع صدره قديماً للدراسات الطويلة والمجلدات الضخمة فإنه يعنى اليوم بإحكام المعنى والمبنى . وإذا كان الأدب يباهى فيما مضى بالسجع والترادف والمحسنات اللفظية ، فإنه أضحى اليوم يحرص الحرص كله على السهولة والجزالة والدقة والوضوح .

هذه هى روح العصر، وتلك هى مقتضياته، ولاسبيل للخروج عليها .

٣

اللغة المثالية

لئن كان لعلم اللغات المقارن قوانين ، إن من أعمها وأصدقها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى ، فمن إعداد ونشأة ، إلى تشخص وتكون، ثم إلى كمال ونضج . وقد يدور بها الزمن دورة معاكسة ، فتتضاءل وتتراجع ، وتضمر وتنكمش ، وتتفرق وتتشعب . فهل لها فى هذا السير أغراض تصوب إليها ومثل عليا تنشدها ؟ أو الأمر مجرد حركة عمياء لاهدف لها ولاغاية ؟

أما أن اللغات متحركة ومتغيرة فهذا ما لا يعز إثباته، ذلك لأن طبيعتها تقتضى الحركة والتغير ، والواقع يؤيدهما . ولقد اختلف الباحثون فى طبيعة اللغة ، ففريق عدها ظاهرة نفسية خالصة ، وآخرون رأوها مجرد ظاهرة اجتماعية ، ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا : « إنها تعبير عن انفعالات ووجدانات وأفكار وآراء بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها » . فللوجدان والفكر نصيب فى حياة اللغة إلى جانب نصيب البيئة والمجتمع .

ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ما للانفعالات من أثر فى نشأة اللغة بل فى نموها وكمالها أيضاً ؟ فلغة الأطفال — أو اللغة الطبيعية — تكاد تكون مجموعة انفعالات متلاحقة تعبر عنها إشارات وحركات خاصة ، وهناك شعوب وقبائل بدائية لاتستطيع أن تتفاهم ليلا إلا إذا أشعلت النار ، كى تظهر إشارات الأيدى وحركاتها . ولاتزال حتى اليوم تستعين ، لإبراز

معنى أو توضيح شعور ، بحركة اليد ونبرة الصوت ، وكم أملت العواطف والوجدانات على كبار الكتاب والشعراء صوراً ساحرة وتشبيهات بديعة .

والتفكير ينتهى دائماً إلى لغة ، بل لاسبيل إلى المنطق والسامى منه بدونها ، وقديماً قال أفلاطون جملة بقيت خالدة ، هى أن « التفكير كلام نفسى » . ولعل هذا يلتقى مع ماجاء على لسان شاعرنا العربى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وإذا كان علماء اللغة لم يأبهوا كثيراً للصلة بين الفكر واللغة ، فقد تنبه لها الفلاسفة وعلماء النفس ، وشاءوا أن يجعلوا من الفكر لغة ومن اللغة فكراً . لهذا لم يكن غريباً أن تعرف « اللغة العالمية » لدى الفلاسفة والمناطقة قبل أن تعرف لدى اللغويين . من ليبنتز إلى كوتورا هناك مجهود متصل يرمى إلى حصر الأفكار الإنسانية وتحديد الألفاظ الدالة عليها ، بحيث نستطيع أن نخلق من ذلك لغة عالمية ليست « الإسبرنتو » إلا صدى لها .

وإذا كانت الوجدانات والعواطف والأفكار والآراء هى المدلولات ، فلا بدلها من دوال تبرزها وتعبر عنها . وإذا ما جاوزت هذه الدوال الحركات الفطرية استلزمت عرفاً واتفاقاً لاقيمة له إلا إن أقره المجتمع ورضى به . على أنه لابد للحركات نفسها من اصطلاح وتفاهم مشترك ، وإلا أصبحت مقصورة على صاحبها ولا مدلول لها ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الأصوات والعبارات . ومن هنا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ونظاماً عاماً يخضع له الأفراد وإن حاولوا تغييره وتبديله ، وتبقى محاولاتهم جزئية وفردية إلى أن يقرها المجتمع ويمنحها نفوذه وسلطانه ، فلا وجود للغة بمعزل عن مجتمع يتكلم بها ويتفاهم فى ضوئها .

هذه هي عناصر اللغة : وجدان وعاطفة ، وفكر ورأى ، وبيئة ومجتمع ،

أو إن شئت : ومدلولات ودوال. وكلها بلاشك متغيرة ومتحولة ، فالوجدانات والعواطف فى نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات . وكم من عواطف إنسانية كحب الغير واحترامه لاتكاد تعرف لدى بعض القبائل الهمجية ، واليونان الذين خلفوا على الدهر فلسفة خالدة كانوا يعدون كل من وراء أثينا برابرة .

والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتعمق بطول البحث والتأمل ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع ، وفى ذلك نمو اللغة وتقدمها . وقد أثبت الرحالة وعلماء الشعوب أن هناك قبائل لاتعرف الكليات والمعانى العامة ؛ وكل مالديها من ألفاظ إنما يدل على المحسات والجزئيات ، فى حين أن التفكير الراقى إنما يعنى بالمبادئ والقضايا الكلية .

والحياة الجمعية فى تبدل وتغير ، فمن همجية إلى آخذة فى التحضر ، ومن نصف متحضرة إلى ممعنة فى الحضارة والمدنية ، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها وتنوعت اتجاهات حاجاتها ، وأضحى لزاماً أن تسايرها فى كل ذلك لغتها ، فيتسع متنها وتزيد مفرداتها بالوضع أو الاشتقاق أو الاقتباس ، وتسمو أساليبها وتتباين فنون القول فيها ، فاللغة تولد فى المجتمع وتتغذى منه .

* * *

وليس بعزيز علينا أيضاً أن نلحظ حركة اللغات وتطورها فى ضوء الواقع والتاريخ ، فالإغريقية التى تعد من أجمل اللغات الإنسانية بدأت أول ما بدأت فى صورة لهجات عدة ورطانات متباينة ، تلاقت بحكم الجوار والاختلاط ، وتنافست فيما بينها واحتك بعضها ببعض ، ووقعت فى صراع عنيف تولدت عنه اللغة الإغريقية الحقة الغزيرة المادة ، الواضحة المنطق ، السهلة التركيب . وقد بلغت هذه اللغة قمتها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد فى العصر الذهبى للأدب اليونانى ، عصر تراجيديا سوفوكل

وكوميديا أرستوفان وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت تضعف وتتضاءل إلى أن دهمتها اللاتينية وطغت عليها، وانمحت تقريباً فى ظلمات القرون الوسطى . وهاهى ذى تستعيد حياة أخرى تختلف دون نزاع عن حياتها القديمة ، وتظهر فى ثوب الإغريقية الحديثة التى يعالجها اليونانيون اليوم .

ولغتنا العربية لم تصل إلى ما وصلت إليه فى عصر المعلقات ، من غزل امرئ القيس ، وحماسة مهلهل ، وفخر ابن كلثوم ، إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل ، ثم جاء الإسلام فهذب حواشيها ورقق عباراتها وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو وتغزر لفظاً ومعنى فى عهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفاسد ، وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها ، وما إن حل النصف الأخير من القرن الماضى حتى عادت تنشط وتنهض، وتسلك سبل الحياة فى حماسة وقوة .

والفرنسية لغة الوضوح والدقة ليست فى أصلها إلا ضرباً من اللاتينية الدارجة ، اختلط بعناصر جرمانية ، وتأثر ببيئة وظروف خاصة ، ثم أخذ ينشأ ويتكون على مر الزمن، وقد قضى العشرة القرون الأولى للميلاد فى مرحلة هذه النشأة . وكان لابد أن ننتظر إلى القرن الحادى عشر لنرى الفرنسية القديمة فى صفاتها وخصائصها ، وكأنما تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها واتساع مجدها . وقد وصلت إلى قمتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حين ظهر كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء، أمثال ديكارت ، وراسين ، وروسو ، وڤولتير . وفى القرن التاسع عشر ظهرت فيها ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة فى الأدب كالمذهب الرومانطيقى والمذهب الرمزى ، وها هى ذى تسير فى طريقها إلى اليوم بين تنوع وتجدد، وتحول وتغير .

* * *

الآن – وقد وضحت أمامنا حركة اللغات فى قوتها وضعفها ، فى سرعتها وبطئها – يحق لنا أن نتساءل : إلام ترمى هذه الحركة ؟ وهل لها غايات تهدف إليها ومثل عليا تريد تحقيقها ؟ وإن كانت فما هى ؟ .

يظهر أن المذهب المثالى قد وجد سبيله إلى العلوم الإنسانية على اختلافها ، فللأخلاق مثلها كما أن للفنون والآداب مثلا من نوعها . وأخذ الباحثون فى هذه النواحى يقابلون ما هو كائن بما ينبغى أن يكون ، وليتهم رسموا مثلهم العليا فى ضوء الواقع والواقع وحده ، إذن لبدت عملية يسيرة المنال ، ولكنهم أبوا إلا أن يرسلوا فيها خيالهم ويمعنوا تفكيرهم فأخذ الناس يتعشقونها ، ولكن هيهات أن يصلوا إليها . وإذا كان أفلاطون قد بذر بذور المثالية فى التاريخ القديم ، فإن كانط غذاها ونماها فى التاريخ الحديث .

ولهذه المثالية شأنها لدى علماء اللغات ، فقد كان معظمهم يعتقد حتى خمسين سنة مضت أن لكل لغة مثلا أعلى تصل إليه أو تقاربه يوماً ما ، وهذا المثل وحده هو الذى يجب أن يحاكى ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل . وهو فى الغالب وقف على اللغات القديمة ، أو إن شئت بعبارة أدق على عصور سبقتنا . وللقديم دائماً حرمته وقداسته ، فليس ثمة إغريقية إلا تلك التى جرت على لسان أفلاطون وأرستوفان ، ولا عربية إلا تلك التى عرفت فى الجاهلية والإسلام إلى صدر الدولة العباسية ، ولا فرنسية إلا تلك التى دونتها مؤلفات القرن السابع عشر والثامن عشر . وإذا لم يراع المصرى اليوم – وفى القرن العشرين – أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فهو ليس بفصيح ولا بعربى .

ويخيل إلى أن هذا الفريق يخلط بين اللغة والأدب ، ويتجاهل طبائع اللغات والمجتمع معاً ، فاللغة شىء والأدب شىء آخر ، فقد يضعف الأدب فى أمة ، ولكن تبقى لغتها وسيلة للتعبير والتفاهم بقدر ما يتيسر لها .

على أن اللغة نفسها فى حركة دائمة وتاريخها مجموعة أحوال متعاقبة .
وليس ثمة كمال مطلق فى عالم اللغات ، ولاتقديس لعصر بعينه ، وكل ما فى الأمر رقى وكمال نسبى ، وأكمل اللغات وأمثلها ما حاكى العصر وتلاقى ، فى يسر ، مع حاجات المجتمع العملية والعلمية .

* * *

إن اللغات فى حركة مستمرة ، فمن العبث أن نعترضها ونقف فى طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لاتلبث أن تخرج عليها ، وإن الصورة المثالية القديمة التى كانت تفرض للغات لايقرها العلم المعاصر ولايقول بها ، فقد أصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة . فاللغة المثالية هى تلك التى تصدر عن روح العصر ، وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على أخصر صورة وأوضح مظهر ، ذلك لأنا فى جيل ينشد الاقتصاد والسرعة فى كل شىء ، وينفر من تلك الألفاظ والعبارات التى تعوق تفكيرنا وحركتنا ، هذا إلى أننا نتعشق الوضوح الذى تمليه الديمقراطية وتقضى به الحياة الحرة الصريحة .

- ٤ -

تطور اللغة

العالم يسير ، وقل من شك فى سيره ، وقديماً قال الناس بالتطور ، وأخذت به مدارس مختلفة ، وكل فلسفة تسلم بمبدأ التحول ، والصيرورة لايمكن إلا أن تكون تطورية . وعد أرسطو على رأس القائلين بالتطور فى التاريخ القديم ، وسار على نهجه كثيرون من فلاسفة التاريخ المتوسط والحديث . ولكن أحداً منهم لم يدفع نظرية التطور تلك الدفعة القوية التى دفعها إياها « هربرت سبنسر » فى النصف الأخير من القرن الماضى ، فقد حاول أن يقيمها على دعائم علمية . وفى ضوء التقدم العلمى يزداد الإيمان بها جيلا بعد جيل ، بل نستطيع أن نقول اليوم عاماً بعد عام .

والتطور صادق على كل شىء ، على الإنسان والحيوان والنبات ، على الفرد والمجتمع ، على المادة والصورة ، على الفكر واللغة . فكلها تسير وتتحرك ، وكلها تتحول وتتبدل . والعلم لايبالى إن كان ذلك إلى أحسن أو أسوأ ، فهو إنما يعنى بالواقع وحده ، على أن التطوريين فى أغلبهم تقدميون . ولم يكن عبثاً أن يتوالى فى تاريخ الفكر البشرى قرنان يسمى أحدهما قرن التقدم ، وهو الثامن عشر ، والآخر قرن التطور ، وهو التاسع عشر ، وكأنما جاء هذا ليفسر ذاك .

وما اللغة إلا قطعة من الحياة ، نشأت منها ، وسارت معها ، وتغذت بغذائها ، ولذا كانت صورة للمجتمع الذى يتخاطب بها ، تنهض بنهوضه ، وتركد لركوده .. وتاريخ اللغات مرآة ينعكس فيها تاريخ الحضارات على اختلافها . ويزداد تطور اللغات كلما ازداد انتشارها وكثر المتكلمون بها ، لأنها تدخل فى صراع مع لغات ولهجات جديدة ،

فتفقد بعض خصائصها ، وتكشف عن القوى الكامنة فيها وعن عوامل بقائها.

* * *

ومنذ أخريات القرن الماضي عنى بدراسة تطور اللغات باحثون مختلفون بين لغويين واجتماعيين. وتبينوا أن فى العالم ما يزيد على ألف جماعة لغوية ، حاولوا ردها إلى أسر وفصائل ، ووقفت جهودهم بوجه خاص عند فصيلتين هامتين تتصلان اتصالا وثيقاً بالحضارة الإنسانية ، وهما « الهندو أوربية» والسامية. وتحت كل فصيلة من هذه الفصائل عدة لغات ــ ومتكلمو كل لغة يختلف عددهم اختلافاً بيناً ، فهناك لغات يبلغ متكلموها مئات الملايين ، وأخرى يهبط عدد الناطقين بها إلى عشرات من الناس . ومن بين هذه اللغات أمهات تفرعت منها فروع مختلفة اندثر بعضها وعمر بعضها الآخر . ومن بينها لهجات محلية تحولت إلى لغات إقليمية أو وطنية .

ولقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية عن عوامل شتى فى تطور اللغة ، فلاحظت أن لغة الشعوب البدائية مجرد حركات وأصوات تعبر عن مشاعر ووجدانات ، وما أشبهها بلغة الحيوانات . وفرضت الحفلات الجماعية هذه الحركات والأصوات على جميع الأفراد ، وبمضى الزمن أخذت الأصوات تتنوع وتتعقد، وتولدت منها دلالات لفظية خاصة. ومن المرجح أن اللغات تبدأ أولا بالألفاظ المفردة، ولم تظهر التراكيب إلا فى مراحل متأخرة واقتصرت الألفاظ فى البداية على المحسوس والملموس، فعبرت عن الأفعال والحركات ، ووقفت عند الأشياء المرئية والمسموعة ، ولم تسم إلى التعبير عن الأفكار والمجردات إلا بعد أن وصل المجتمع إلى مستوى ثقافى خاص . ولبعض الألفاظ عند البدائيين تأثير وقوى خفية، ومنها ما ينبغى أن يبقى سرا لا يكشف عنه إلا لأشخاص معينين ، ولا يباح لغيرهم استعماله . ولم يكن تكوين الجملة أمراً هيناً ، واكتفى أولا بضم

لفظ إلى آخر ، ثم هذب ذلك ونسق ، وربطت أطراف الجملة بعضها ببعض بروابط خاصة .

واللهجة لغة جماعة أو إقليم خاص، وكثيراً ما يختلف مدلول اللفظ الواحد من لهجة إلى أخرى ، وتؤدى الحقيقة الواحدة أحياناً بألفاظ تتعدد بتعدد العشائر والقبائل . وتسود لهجة على أخرى لأسباب سياسية أوثقافية أو اقتصادية ، فترجح لهجة الأقوى ، وتقود الوحدة الوطنية عادة إلى لغة قومية . وللثقافة شأن فى تغليب لهجة على أخرى ، ولأمرما ما سادت قديماً اللغة اليونانية فى بلاد القسم الشرقى للبحر الأبيض؛ واللاتينية فى غرب أوربا ، وسادت بعد ذلك اللهجة الباريسية على كل لهجات فرنسا . وللتجارة والمعاملات دخل فى سيادة بعض الألفاظ واللهجات ، واستقرار لغة فى مكان ما يحجرها ويقعد بها عن النمو والتطور . فإذ ما انتقلت وانتشرت تغذت بغذاء خارجى ، وأضيفت إليها عناصر أخرى ، واكتسبت حياة جديدة .

* * *

والعربية أشهر اللغات السامية ، تصعد إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون . اشتملت على لهجات مختلفة أخصها لهجة قريش التى امتازت بصفائها ورقتها ، وبسطت نفوذها على اللهجات الأخرى ، وكانت عاملا من عوامل الوحدة اللغوية . وأعانها على ذلك رحلات القرشيين التجارية شتاء وصيفاً ، وما كان يقام على مقربة منهم كل عام من مهرجانات أدبية كسوق عكاظ ؛ والكعبة التى كان يحج إليها العرب فى الجاهلية سنوياً ، ويسعون إليها من كل فج سحيق .

وكانت العربية محصورة فى الجزيرة قبل الإسلام ، ثم أخذت تنتشر معه شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً ، من أواسط جبال الهند إلى جبل

طارق ، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب . ودخلت فى صراع مع ثقافات ولغات أخرى كالفارسية والهندية ، والقبطية والبربرية ، وخرجت من هذا الصراع ظافرة . أخذت من هذه الثقافات واللغات ما أخذت ، وتأثرت بها دون نزاع . ولكنها سادت عليها ، وحلّت محل بعضها بصفة نهائية ، أو لمدة غير قصيرة .

وها هى ذى اليوم تواجه صراعاً ربما كان أشد أو أعنف . فهناك مستحدثات حضارية : علمية وفنية ، لا بد أن تؤديها ، وأن تحسن أداءها. وهناك لغات تنازعها البقاء ، بين وطنية وأجنبية ، ولا بد لها أن تقاومها وتظهر عليها . والدلائل قائمة على أنها ستحظى بنصر لا يقل عن نصر الأمس ، فهى تطرد اللغات واللهجات المزاحمة ، وتحرص على أن تعبر عن العلم والحضارة المعاصرة فى دقة ووضوح . ولا تقنع بأن تكون مجرد لغة وطنية أو قومية ، بل تأبى إلا أن تكون لغة عالمية ، لها علمها وأدبها ، يؤخذ عنها كما تأخذ عن غيرها .

* * *

ولا شك فى أن هذا يلقى على العلماء والأدباء واللغويين العرب أعباء ثقالا مستمرة ، فهم مطالبون دائماً بأن ينتجوا ، أن يعدلوا وينقحوا ، أن يهذبوا وييسروا ، أن يبتكروا ويجددوا ، أن يملئوا اللغة — فى اختصار — حياة وقوة وحركة .

٥

القياس فى اللغة

لا حياة للغة بدون ابتكار ألفاظ جديدة تواجه الزمن ومستحدثات التطور : وهذا الابتكار هو ما سماه اللغويون « الوضع » . وأهم سبله الاشتقاق والقياس ، ومن أخص خصائص العربية أنها لغة اشتقاقية . وفى الاشتقاق ما أكسبها مرونة ومناعة فى آن واحد ، فسمح لها بخلق ألفاظ جديدة ، وحافظ على ثروتها ، وحماها من الزيغ والشطط .

واختلف من قديم فى أصل الاشتقاق ، هل هو المصدر أو الفعل؟ واستدل كل على رأيه ، وأغلب الظن أنه خلاف نظرى لا طائل تحته . وقد وضعت للاشتقاق قيود تضيق آفاقه ، وتحدد ما يشتق ومالا يشتق منه . وكان هم مجمع اللغة العربية أن ييسر من أمره ويفك بعض قيوده ، ويشتق مما لا يشتق منه ، ويجعله فى اختصار أداة طيعة فى أيدى الأدباء والعلماء تمكنهم من أن يجدوا الكلمات الملائمة لأداء ما يعن لهم من معان ، وكلما نجحوا فى الاشتقاق استغنوا عن العامى والأعجمى . ولم يحرص المجمع على أن يكون بصريًّا أو كوفيًّا ، بقدر ما حرص على أن يواجه حاجات العصر ويحاول سدها . والاشتقاق فى الواقع ضرب من القياس اللغوى .

* * *

واللغة فى أساسها عرف واستعمال يتوارثه الخلف عن السلف ، وله

أن يجدد فيه ويضيف إليه لكى تساير لغته الزمن ، وتسد حاجات العصر . ولهذا الاستعمال ضوابط تنظمه، وقواعد يسير على مقتضاها. وتكاد تتلخص صناعة اللغويين فى حصر هذه الضوابط ووضع هذه القواعد . وهم فى الغالب فريقان : قياسون يكثرون من الضوابط ويتلمسون القاعدة لأدنى مناسبة ، وحفاظ يؤثرون السماع ويعتدون بالرواية، ويمكن أن يرد الخلاف بين البصريين والكوفيين فى أساسه إلى هذه التفرقة . وما دامت اللغة تسير فلا بد أن يسير القياس معها ؛ فى وسعنا أن نضع لها ضوابط كما وضع الأقدمون، وأن نقعد القواعد كما قعدوا . وقديماً قال أبو على الفارسى (٣٧٧هـ) وتلميذه ابن جنى (٣٩٢هـ) : « ما قيس على كلام العرب فهو منه » . ولا غرو فقد كانا زعيمى مدرسة القياس فى اللغة . ولقد كان أهون على أولهما أن يخطئ فى خمس روايات من أن يخطئ فى قياس واحد، وحاول ثانيهما أن يضع للغة أصولا كأصول الفقه . ولكن ربما غلا بعض اللغويين ، وشاء أن يضيق دائرة القياس ، أو أن يسد بابه، وللاحتراف تطرف أحياناً، وعلى رأس هؤلاء ابن فارس (٣٩٥ هـ) وهو معاصر للفارسى وابن جنى ، ويذهب إلى أنه « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ». وكأنما ذهبت كلمته مثلا ، وأضحت دستوراً يعمل به .

حقًّا إن باب القياس فى اللغة لم يغلق قط بصورة قاطعة ، ولكن انصرف الناس عنه ، واكتفوا بأن يرددوا ما قال به الأقدمون ، وبخاصة فى القرون المتأخرة . وكان على مجمع اللغة العربية أن يرد إلى القياس اعتباره ، ويستعين به على تطوير اللغة والنهوض بها، وقد واجه هذه المشكلة منذ البداية فى مجلسه ومؤتمره ، وعرض لها فى لجانه وعلى أيدى خبرائه . استمع فيها إلى بحوث ودراسات، وانتهت إلى أصول ومبادئ، وقرر بوجه عام « أن يؤخذ بمبدأ القياس فى اللغة ، وأجاز الاجتهاد فيها متى توافرت شروطه » ، فلنا أن نقيس كما قاس القدماء، وأن نشتق

ونصرف كما اشتقوا وصرفوا ؛ ذلك لأن العربية ليست ملكاً لأحد ولا طقوساً يتعبد بها ، وإنما هي مجرد لسان يتصرف فيه أهله في ضوء ظروفهم وحاجاتهم.

والقياس لفظي ومعنوي . ويراد بالأول وضع صيغ لأداء معان محددة ، كصيغ اسم الفاعل واسم المفعول ، ودعامته الاشتقاق . والعربية كما قدمنا . لغة اشتقاقية ، وقد سمح لها الاشتقاق بخلق ألفاظ جديدة ، وحماها من الزيغ والشطط . وتيسيراً له أجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان ، فيقال مَغْنط من المغناطيس وقَصْدر من القصدير كما قيل قديماً ذهب من الذهب وكبرت من الكبريت ، وكان ذلك مقصوراً على السماع . وتوسع في المصدر الصناعي ، وجعله قياساً مطرداً يكفي فيه أن تزاد ياء النسب والتاء على الكلمة ، وله أمثلة كثيرة مأثورة كالجاهلية والشعوبية والقدرية والجبرية والربوبية والألوهية ، ويستعان به اليوم على أداء أسماء كثير من المذاهب والنظريات العلمية والفلسفية . وكلما أعوز الاستعمال العلمي لفظ ، يسر المجمع أمر القياس فيه ، فأجاز صيغاً للدلالة على معان خاصة مثل فُعَال للمرض ، وفِعَالة للحرفة ، وفَعَلان للتقلب والاضطراب . وقال بقياسية أفعال المطاوعة جميعاً ، وإن أنكرها بعض اللغويين إذا لم ترد في المعجمات ، وقال أيضاً بتعدية الفعل الثلاثي قياساً بالهمزة أو التضعيف ، ولم يكن مسلما به على إطلاقه .

ويراد بالقياس المعنوي إطلاق لفظ على حقيقتين مختلفتين لشبه بينهما ، فهو ضرب من المجاز اللغوي الذي يسمح باستعمال اللفظ في أكثر من معنى ، فتكون له عدة دلالات : واحدة لغوية ، والأخرى عرفية أو اصطلاحية . وقد أعان هذا التجوز على وضع مصطلحات كثيرة ، لاسيما أن لكل علم أو فن لغة تكاد تكون خاصة ، فالحكم مثلا عند الفقهاء غيره عند المناطقة ، والحال عند النحاة غيرها عند الصوفية ، وهذا ولا شك باب من أبواب الوضع ووسيلة هامة من وسائل خلق مصطلحات جديدة .

ولا شك فى أن فتح باب القياس يطوع اللغة ويملؤنا ثقة بها ، بل يزيدنا ثقة بأنفسنا ؛ فنشعر بأنا نتصرف فيها ، وليست هى التى تتحكم فينا . وأصبح علماء اللغة لا يستنكرون اليوم أن من حقهم أن يجتهدوا ويقترحوا كل ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، وما أشبههم بفقهائنا الذين أعادوا النظر منذ أربعين سنة فى تشريع الأحوال الشخصية ، ولاءموا بينه وبين حاجات العصر ومقتضياته ، ولا يزالون ينظرون . وقد قاس المجمع واجتهد فى الثلاثين سنة الأولى من حياته ، وانتهى إلى جملة صالحة من القرارات العلمية تزيد على المئتين ، أخرجت فى كتاب خاص . ولا بد له أن يستمر فى قياسه واجتهاده كى تسير اللغة وتتطور ، وله فى كل مؤتمر سنوى قرارات ومقترحات تمس متن اللغة وتراكيبها ، أو تتصل بنحوها وصرفها أو تعالج مشكلات إملائها وكتابتها ، وقد أخرج أخيراً كتابا فى «أصول اللغة» يعرض لقراراته فى الخمس السنوات الأخيرة. ورحم الله صاحب شرح « درة الغواص» الذى قال : « لو اقتصرنا فى الألفاظ على ما استعمله العرب العاربة والمستعربة لحجّرنا الواسع ، وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم ».

٦
التعريب

تأخذ اللغات واللهجات بعضها من بعض، بحكم القرابة ، أوالجوار ، أو الرحلة والانتقال . فتحمل اللغة الأم عادة شيئاً من بقايا اللغات الفرعية التى انفصلت عنها — وللغزو والفتح ، والتجارة والمعاملات ،شأن فى تأثر اللغات بعضها ببعض . وتأخذ العامية من الفصحى ،وبالعكس ، وما العامية فى الواقع إلا ضرب من تحريف الفصحى ، وهى أفسح مجالا للأجنبى والدخيل . وهذا التبادل بين اللغات واللهجات سنة ثابتة ، تتم عن قصد وعن غير قصد . وكثيراً مايكسى اللفظ الدخيل بكساء جديد ، فينسى أصله ، ويصبح جزءاً من اللغة التى انتقل إليها ، ولا يشعر عامة أبنائها بأنه دخيل أو منقول .

* * *

ويطول بنا الحديث إن عرضنا لأمثلة من هذا التبادل بين اللغات قديمها وحديثها ، ويكفى أن نشير إلى أن العربية ، كغيرها من اللغات أخذت وأعطت قديماً وحديثاً ، فأخذت قديماً عن بعض اللغات السامية كالسريانية ، أو بعض اللغات الهندوأوربية كالفارسية واليونانية ، وقد أعطت هذه جميعاً بقدر ما أخذت منها أو يزيد . وأخذت حديثاً عن الفرنسية والإنجليزيه والإيطالية ، وأعطتها ما تصرح معاجمها بأصله العربى . ولايبدو على الأوائل أنهم عارضوا هذا الأخذ أو استنكروه، ومن المعربات القديمة الدرهم والدينار ، والسندس والإستبرق ، وفى « الكتاب» لسيبويه إشارة إلى بعض المعربات ، ونص على أنها سابقة على

الإسلام . وكان العرب يلحقون تارة الألفاظ الأعجمية بأبنية العربية وأوزانها ، وتارة أخرى يبقونها كما هي . وقد يطغى المعرب على العربى الأصيل، لأنه أدل على المعنى . ولكن وضع التعريب حديثاً موضع الشك، ولم يلهج الناس فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن بمسألة لغوية مثلما لهجوا با لتعريب ، فأجازه قوم ، وحرمه آخرون . وطبيعى أن يزداد التعريب حين يشتد اختلاط العرب بغيرهم ، وحين تتعدد وسائل الأخذ والتأثر بالثقافات الأجنبية . وقد اتصل العالم العربى من جديد ، منذ القرن الماضى ، بالحضارة الغربية اتصالا أوثق ، وبدت آثار ذلك واضحة فيما سرى إليه من ألفاظ أجنبية ، لم يتقبلها بعض الأدباء واللغويين فى يسر . وقد سبق لعلماء اللغة أن نبهوا إلى ما هو مولد وما هو معرب ، وذهب فريق من المتأخرين إلى أن التعريب سماعى ، وقصروه على ما ورد على ألسنة العرب الفصحاء، وزعموا أنه لايزيد على ألف كلمة، وكأنهم خشوا أن تطغى اللغات الأعجمية على الفصحى ، فمنعوا التعريب سدا للذرائع . وأبى كثير من أصحاب المعجمات تدوين الأعجمى المحدث ، وعابوا على صاحب « القاموس» نقله لكثير من أسماء النبات والحيوان والعناصر المعربة . والقائلون بالتعريب أنفسهم مختلفون فيما بينهم، فمنهم من يرى ضرورة التزام الأوزان العربية، ومنهم من لايلتزمها ويعرب الكلمة كما وردت فى لغتها الأصلية . وعلى رأس القائلين بعدم الالتزام سيبويه بين القدامى ، وأبو حيان والشهاب الخفاجى بين المتأخرين ، وثلاثتهم عرفوا إلى جانب العربية لغة أخرى أو أكثر .

* * *

وقد عالج مجمع اللغة العربية مشكلة التعريب منذ البداية ، ولكن فى شىء من الحيطة ، فعرضت فى دور انعقاده الأول ، وأصدر فيها قراراً لايخلو من غموض ، ولعل ذلك راجع إلى الظروف التى كانت محيطة بهذا الموضوع حين ذاك . فقرر ما نصه : « يجيز المجمع أن يستعمل

بعض الألفاظ الأعجمية — عند الضرورة — على طريقة العرب فى تعريبهم، فما حد الضرورة؟ ومن هم العرب المشار إليهم ؟ أهم عرب الجاهلية وصدر الإسلام ؟ وما طريقتهم ؟ كل تلك نقط لم توضح فى شرح هذا القرار والاستشهاد له .

ولكن لم يلبث الأمر أن استقر ، وأصبح للمجمع فيه تقليد واضح. فاتفق على التعريب من حيث المبدأ كلما دعت إليه الحاجة ، ووضعت له شروط وضوابط خاصة . فقصر على أسماء العناصر والأجناس ، كالأكسجين والإليكترون ، أو بعض الأجهزة كالبارومتر والترمومتر ، أو أعلام الأشخاص والأماكن ، أو ما يدل على سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ونحوها ، أو تلك الكلمات العالمية ذات الأصل اليونانى أو اللاتينى . وأقر المجمع معربات كثيرة وحديثة فى العلوم والفنون ، وقبل ما اشتق منها من أمثال وأوصاف ، ما دام لا بد منه . وأصبح التعريب لاينظر إليه فى توجس وخيفة ، كما كان الشأن من قبل ، ولاشك فى أن اللفظ الشائع الاستعمال ، وإن يكن أعجمياً ، أولى من اللفظ الغريب المهجور ، مادام يؤدى المعنى فى دقة ولا يخرج على أصول اللغة.

* * *

ولم يبق شك فى أن من حق علماء اللغة أن يجتهدوا ويقترحوا ما من شأنه أن ييسر العربية وينهض بها ، فهم يشتقون ويقيسون أولا ، وقد يلجئون إلى العامية ليأخذوا منها ما يسد حاجة العلم والحضارة ، ما دام يقوم على أصول عربية . فإن أعوزهم كل ذلك ، فلاضير عليهم من أن يأخذوا بالمعرب الذى تدعو إليه الضرورة . وواجب العلماء والباحثين أن يتمكنوا من لغتهم تمكناً يعينهم على تخير اللفظ الملائم لمعناه ، ولا يأخذون باللفظ الأجنبى إلا عند الضرورة .

٧

منطق أرسطو والنحو العربي

لم يصادف نحو من العناية ماصادفه النحو العربي. نشأ في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة ، وبقي ينمو ويتكون خلال القرون التسعة التالية . فبحث عن الرواة ورجال البادية لتؤخذ عنهم الأساليب الصحيحة والتعبيرات المستقيمة ويستشهد بنقلهم وروايتهم . وتوالت المدارس بعضها على إثر بعض ، بين بصرية وكوفية ، أو بغدادية وأندلسية ، تتلاقى أحياناً وتتعارض أخرى ، أو تتوسط ، فتسلك مسلك الجمع والتوفيق . ووضعت الرسائل الصغيرة في بعض الموضوعات الفرعية ، كالمقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، أو الكتب الجامعة ، نثراً أو نظماً ، «كالكتاب» لسيبويه ، «والمفصل» ، للزمخشري ، «والكافية» لابن الحاجب ، «والألفية» لابن مالك ، «والمغني» لابن هشام .

وخلط النحو باللغة والأدب ، ثم فصل عنهما ليصطبغ بصبغة معينة ويعتمد على مصطلحاته الخاصة . وشرحت النصوص والشواهد ، وجمعت الشواذ والغرائب ، وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوي ونحوي ، أو بين مدرسة وأخرى . وترجم للنحاة ورتبوا طبقة بعد طبقة . وقد تشعبت الدراسات النحوية بحيث استوعبت معظم نشاط المثقفين في القرون الستة الأخيرة . وفي اختصار يمكننا أن نقول مع دي بور : «إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربي ، لما فيه من دقة في الملاحظة ونشاط

فى جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به » .

وإذا قارنا النحو العربى بعلوم النحو القديمة والحديثة ، وجدنا أن أحداً منها لم يصادف ما صادفه من درس وعناية . فللإغريقية واللاتينية نحوهما ، ولبعض اللغات الشرقية القديمة نحو معروف كالسريانية والعبرية ، غير أنه لم يصل نحو من هذه إلى ما وصل إليه النحو العربى من عمق البحث وسعة الدراسة وتشعب الآراء . أما اللغات الحديثة فقد اختزلت — فى كثير منها — نحوها واختصرته فى أضيق الحدود الممكنة .

ولم يكن غريباً أن يعنى المسلمون بالنحو هذه العناية ، فهو أداة من أدوات فهم الكتاب والسنة ، ووسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينية ، وبخاصة من الموالى والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم ولاالفصحى سليقتهم . وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون : « أن من أراد الشريعة فلابدله من معرفة علوم اللسان العربى ، وهى أربعة : لغة ونحو وبيان وأدب ، وأهمها النحو لأنه يبين أصول المقاصد بالدلالات ، ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة » .

بيد أنه لايزال فى النحو العربى جوانب غامضة ، أخصها ما اتصل بنشأته والعوامل التى أثرت فى تكوينه . وعندى أن هذه العوامل كثيرة ومتنوعة ، بين داخلية وخارجية ، عربية وأجنبية . وسأقصر كلمتى هذه على منطق أرسطو وأثره فى النحو العربى .

* * *

ولا شك فى أن المنطق الأرسطى قد صادف فى القرون الوسطى المسيحية والإسلامية نجاحاً لم يصادفه أى جزء آخر من فلسفة المعلم الأول ، فعرف أرسطو المنطقى قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقى ، وترجم « الأرجانون » قبل أن يترجم « كتاب الطبيعة » أو « كتاب الحيوان » . « وللأرجانون »

فى العالم العربى منزلة خاصة . فكانت أجزاؤه الأولى أول ماترجم من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ثم ألحقت بها الأجزاء الأخرى فترجمت وشرحت واختصرت . وتوالى البحث فى المنطق لدى المدارس الإسلامية المختلفة ، عند الفلاسفة والمتكلمين ، وعند الفقهاء .

والغزالى فى حملته على الفلسفة والفلاسفة يضع المنطق جانباً لأنه إنما ينصب على قوانين الاستدلال العقلى بصرف النظر عن موضوعه ، ويذهب إلى أبعد من هذا مقرراً أن المنطق ليس خاصًّا بالفلاسفة وحدهم بل هو متصل أيضاً بالمتكلمين الذين يسمونه علم الجدل أو علم النظر. وقد استخدم الفقهاء كثيراً من المصطلحات المنطقية فى بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئى ،والعام والخاص . واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربعة ، ورسموا قواعده ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو فى قياسه المنطقى . ونعود مرة أخرى إلى الغزالى، فنجده يقول فى مقدمة كتابه«معيار العلم» : «إن النظر فى الفقهيات لايباين النظر فى العقليات فى ترتيبه وشروطه وعياره». ويضيف إلى هذا أنه مادامت الهمم فى عصره متجهة نحو البحث الفقهى،فإنه سيقدم فى هذا الكتاب المنطقى أمثلة فقهية كى يعم النفع . وفى كتاب آخر له أصولى — وهو «المستصفى»— يرى لزاماً عليه أن يقدم له بمقدمة منطقية خالصة يعتبرها ضرورية ومتممة لعلم أصول الفقه .

* * *

ولم يقف الأمر — فيما نعتقد — عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطى من جانبين : أحدهما موضوعى ، والآخر منهجى . فتأثر النحو العربى عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحدد ويوضح على نحو ما حدد القياس المنطقى .

وقد يقال : ماللنحو والمنطق ، واللغة فى أساسها عرف كثيراً ما يعصى قوانين العقل والمنطق ؟ ولكن لانزاع فى أن منطق أرسطو قد اشتمل على مبادئ نحوية ، ففى « المقولات» وهو الجزء الأول من كتبه المنطقية يعرض للألفاظ ، ثم يتناول فى الجزء الثانى ـ « كتاب العبارة» ـ الجمل ويفصل القول فيها ، وهذه أمور فى ظاهرها نحوية . ولم تخل كتبه المنطقية الأخرى من قواعد الأجرومية اليونانية .

ونود أن نلقى نظرة عاجلة على بعض هذه القواعد لنتبين ما يمكن أن يلحظ من شبه بينها وبين أول ما عرف من قواعد النحو العربى : ورائدنا فى هذا « الأرجانون »من جانب «وكتاب» سيبويه من جانب آخر. ففى مقدمة « كتاب العبارة » يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل معرفاً الأول بأنه ما دل على معنى وليس الزمن جزءاً منه . ومعرفاً الثانى بأنه ما دل على معنى وعلى زمن . ثم يشير فى كتاب منطقى آخر ـ هو طوبيقا أو الجدل ـ إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة . وهنا ننتقل إلى «كتاب» سيبويه فنجده يبدأ بتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكى من بعض النواحى التعريف الأرسطى : ومن الغريب أن ما يسميه سيبويه حرفاً يسميه الكوفيون الأداة ، وكأنهم شاءوا أن يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظاً تاماً .

وندع جانباً ما ورد على لسان أرسطو من حديث عن النوع والكم ، أو بعبارة أخرى عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع ، وما عرض له من توضيح الإثبات والنفى ، والطلب والاستفهام مما له بالنحو صلة وثيقة ، ونكتفى بأن نشير إلى مثل آخر له شأنه ، وهو أساس تكوين الجمل فعلية كانت أو اسمية ، ونعنى به الإسناد . وذلك أن أرسطو عرض بإسهاب لنظرية الإسناد فى كتابى « المقولات » و«العبارة» ، ففى الأول يحاول أن يحصر أنواع المحمولات العامة الممكنة ، وفى الثانى يوضح الصلة بين المحمول والموضوع ، ويعرف الجملة التعريف النحوى الصحيح . وهنا نعود إلى سيبويه ،

فنجده يتحدث فى « الكتاب » عن المسند والمسند إليه ، وفى مكان آخر يعقد الفصل الآتى : « المبتدأ والمبنى عليه » ، وكأنه يريد أن يقول الموضوع والمحمول عليه . وواضح أن الإسناد دعامة كل نحو عربياً كان أو غير عربى .

وقد يتساءل : ما لسيبويه الفارسى أصلا العربى تربية ولمنطق أرسطو ولم يعرف له ولوع بالفلسفة والمنطق ؟ وما أحوجنا إن شئنا أن نجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة أن نعرض لشئ من تاريخ الترجمة فى الإسلام ، وأعتقد أن نشأة كثير من العلوم الإسلامية تتصل بهؤلاء المترجمين. ومن الثابت أن كتب أرسطو المنطقية الثلاثة الأولى (المقولات ، والعبارة ، وأنا لوطيقا الأولى أو التحاليل الأولى) كانت معروفة لدى السريان، وقد ترجمت إلى لغتهم قبل الإسلام ، ويقال أيضاً إنها نقلت إلى الفارسية . والمهم أنها ترجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول للقرن الثانى الهجرى ، ترجمها عبد الله بن المقفع عن الفارسية أو ابنه محمد عن السريانية على خلاف فى ذلك. فهى إذن ثروة جديدة نقلت إلى العالم العربى ، ولا بد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير ، إنْ من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية ، وقد كان النحاة يحاولون — شأن كل باحث — أن يستعينوا على ما هم بصدده بما يعرفون من لغات أو دراسات أخرى .

على أن هناك عملا مشابهاً تم على مقربة من نحاة العرب الأول ، وهو وضع النحو السريانى بمدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى . ولا شك فى أن هذا النحو تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل صديق للخليل ، وقد تعلم العربية فى سن متقدمة وعانى منها ما عانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل

بعض القواعد النحوية ؛ خصوصاً وهو يعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية، وأتم مع ابنه إسحق البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية .

وفى وسعنا أن نقرر بعد كل هذا أن المترجمين فى تعلمهم العربية وفيما نقلوا من كتب أجنبيةقد بدءوا فى القرن الثانى للهجرة فأثاروا جواً حول المشاكل النحوية ؛ ولأرسطو فى هذا الجو نصيب ملحوظ . ولا يصح أن نغفل ما لهذا الجو من أثر على نحاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادى والمعنوى . ووجه الشبه بين المنطق والنحو قديم ، فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ ، وهذا ما أشار إليه صاحب السلم بقوله :

(وبعد) فالمنطق للجنان نسبته كالنحو للسان

ولأمر ماسمى نحاة البصرة بأهل المنطق، ولهذه التسمية ما لها من دلالة .

ولعل فى هذا ما يفسر تلك المفاجأة التى أحدثها «كتاب» سيبويه ، بظهوره فى تلك الصورة الجامعة، دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له ، الأمر الذى دفع صاحب « طبقات الأمم » أن يقول إنه لا يعرف كتاباً ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها ، واشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بدقائقه ، غير كتب ثلاثة: « المجسطى» فى الفلك ، « والأرجانون» فى المنطق و« كتاب» سيبويه فى النحو. وفى هذه الدعوى تسامح ظاهر وجهل بالتاريخ . وإذا تركنا الفلك والمنطق جانباً . وجدنا أنه عرفت مؤلفات فى النحو العربى قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا . وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة ، التى اضطلع بها أمثال عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ولسنا فى حاجة أن نلاحظ أنه مزاج من الأدب والنحو واللغة ، هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض التعبيرات والاستعمالات ، منه بتقنين القوانين ووضع المبادئ ، فهو لم

يقعد قطعاً قواعد النحو على الصورة التى قعدت بها فيما بعد . وقد مهد له أخيراً تلك البحوث النحوية التى نقلها المترجمون عن نحو السريانية أوعن منطق أرسطو ، ويبدو على سيبويه نفسه أنه لم يكن مغمض العينين عن أمثال تلك المؤثرات ، و يكفى أن نشير إلى ذلك الفصل الذى عقده فى الجزء الثانى من الكتاب وعنوانه « باب اطراد الإبدال فى الفارسية » .

ولقد سبق لبعض المستشرقين أن أثاروا هذه النقطة ، وإن كانوا لم يقفوا عندها طويلا ، ونذكر من بينهم بروكلمان ودى بور وزميلنا الأستاذ ليتمان . ولا يضير النحو العربى فى شىء أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه ، أو أن يساهم منطق أرسطو فى التوجيه إليه .

وهناك ناحية أخرى من نواحى الصلة بين هذا المنطق والنحو العربى ونعنى بها تلك الناحية المنهجية التى أشرنا إليها من قبل، والتى لم توضح بعد التوضيح الكافى .

* * *

وكلنا يعلم ما للقياس من أهمية فى نشأة النحو العربى وغزارة مادته واستخلاص قواعده وضبط أحكامه . ذهب إليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم ، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التى تلتقى فيها . وتوسع فيه من جاءوا بعدهم، فجعلوه منهجاً ذا قواعد ومعالم محدودة ،عدوه منبعاً رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية ، وربما حكّموه فى لغات العرب ورواياتهم ، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى ، وإن تعبيراً ما يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع ، وكأنما يشرعون فى النحو كما شرع الفقهاء فى المعاملات . وهاهو ذا ابن جنى يقول : « إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا ، وجب أن يكون قياساً وعقلا» . ويقرر من بعده ابن الأنبارى : « أن إنكار القياس فى النحو لايتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن أنكره فقد أنكر النحو» ، ولا يعرف أحد من العلماء

نكره . ويعزى إلى الكسائى ذلك البيت المشهور :

إنما النحو قياس يتبع وبه فى كل أمر ينتفع

وقد استخدم القياس فى النحو منذ المراحل الأولى . فعالجه عبدالله الحضرمى المتوفى سنة ١١٧هـ . وأخذ يقيس ويعلل الأقيسة . ونماه الخليل ابن أحمد ودعمه، وتوسع فيه سيبويه أيما توسع ، وفى « الكتاب »أقيسة عدة واعتداد بالقياس فى مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر . وقد لايقف عند استقراء الأمر الواقع ، بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاماً خاصة . وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة . فإن البصريين يعتبرون واضعى دعائم القياس فى النحو العربى . على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا فى استخدام القياس والتعويل عليه ، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة . وبالغوا فى الأقيسة النظرية والعلل العقلية ، وهانحن أولاء نقيس حتى اليوم ، وللمجمع قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية ، كالنسبة إلى جمع التكسير ، واستعمال وزن مفعلة للمكان .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة ، فإن مما يلفت النظر أن القياس النحوى نبت ونما فى العراق حيث نبت ونما القياس الفقهى . ولم يجئ ذلك عبثاً ، وإنما كان وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ، ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغى توضيحها ، ونحن نتحدث عن قياس فقهى وآخر نحوى ، ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو فى القياس الأرسطى ، ذلك لأن هذا الأخير يقوم فى أساسه على سير من الكلى إلى الجزئى ، أما قياسنا النحوى وزميله الفقهى فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئى إلى الكلى . ولكن ينبغى أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض فى لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتمثيل . وإذا كان

لم يعتد بهما كل الاعتداد، فقد قدرهما أن يستخدما في البحوث والدراسات العلمية التي جاءت بعد، وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمي الحديث.

فالقياس النحوي تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد — الأمر الذي كان يبغضه نحاة البصرة — أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية. وهو على كل حال فطري في صورته الأولى التي تتلخص في تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعللها. وليس لأحد أن يدعي أن هذا القدر الفطري من صنع أرسطو أو أي فيلسوف آخر، ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغي البحث عن عوامل هذا التحول. ولم يقف القياس النحوي عند تلك الصورة الفطرية التي أشرنا إليها، بل فلسفه النحاة وافتنوا فيه إلى درجة كبيرة.

فبحثوا عن أركانه، وقالوا كما قال الفقهاء إنها أربعة: أصل وهو المقيس عليه، وفرع وهو المقيس، وحكم قد يتنوع كما تتنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أو ممنوعاً أو حسناً أو قبيحاً، وأخيراً علة وهي دعامة القياس، ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوي الصحيح، كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطقي. وإذ كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفي صورة مهذبة فإننا نجد منها شذرات هنا وهناك في «الخصائص» لابن جني، وفي «أصول النحو» و«الإنصاف» لابن الأنباري، وفي «الاقتراح في أصول النحو» للسيوطي.

ودون أن نتتبع مبادئ القياس النحوي، نكتفي بأن نشير إلى أمثلة منها، فيقال: يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لا العكس، والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على مالا نظير له، وماجاء على أصله لايسأل عن علته، والقياس على الفاسد فاسد، وإن أجازوا القياس على ما ورد في ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل في هذه

الضرورة أيضاً . وفى هذه المبادئ وأمثالها ما يدل على أن نحاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولا تحاكى تلك الأصول التى وضعها الفقهاء، وأصول القياس النحوى كأصول القياس الفقهى تلتقى فى أنها ترسم خطى القياس المنطقى .

ومثل واحد من بين هذه الأصول كاف فى توضيح ذلك ، ألا وهو مبدأ العلية ،وقد كان لهذا المبدأ شأن فى النحو العربى لايقل عن شأنه فى المنطق الأرسطى ، ذلك لأن العلة هى الدعامة التى يقام عليها القياس النحوى والمنطق . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفى ، وإذا قلنا نظرية العامل فإنما نلخص النحو فى جملته ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل» . وقد وضع أبو على الفارسى كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه، كما وضع عبد القاهر الجرجانى كتاباً آخر اسمه « العوامل المائة» فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة، قوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها وأخرى لمشابهتها لغيرها، فالأصل فى العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملا حيناً ومعمولا حيناً آخر ، ولا يمكن أن تكونهما فى آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب، وقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل فى ثوبها الكامل، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فن أين استمد النحاة فكرة العلل أو نظرية العامل هذه ؟

يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضى إن « النحاة يحررون عوامل النحو كالمؤثرات الحقيقية »٠. ويذهب فريق آخر إلى أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ، ذلك لأن القياس النحوى شبيه كل الشبه بالقياس الفقهى . يقول ابن جنى فى «خصائصه : « اعلم أن أصحابنا

انتزعوا العلل من كتاب محمد بن الحسن ، جمعوها منها بالملاطفة والرفق» . ويشير الزمخشري إلى شيء شبيه بهذا فى مقدمة « مفصله » ، ويضع السيوطي كتابه « الاقتراح فى أصول النحو » على ترتيب يحاكي – فيما يرى – أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جني يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ، لأنها أكثر مجاراة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أم بالعلل الفقهية ، فإن كلا الفرضين لا يحل الموقف تمام الحل . ذلك لأن علل الإعراب عرفت فى أوائل القرن الثانى للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء وإذا صدق كلام ابن جنى والزمخشرى على القرن الرابع والخامس ، فإنه ليس من السهل أن توضح به أحداث القرن الثانى . على أن فكرة العلية عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطى .

وذلك أن الفيلسوف اليونانى عرض لمبدأ العلية فى كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعنينا الآن الجانب المنطقى لهذا المبدأ . ففى «التحاليل الثانية» يشرح أرسطو العلل الأربع : المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية ، ويبين مدى استخدامها فى التعريف والبرهان ، فالتعريف الصحيح هو الذى يوضح مادة الشئ وصورته أو يكشف عن باعثه وغايته ؛ والقياس العلمى الدقيق هو الذى يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلا يسيراً والاستدلال واضحاً قوياً .

ولم يعمل النحاة شيئاً أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية ، كما فعل أرسطو من قبل ، فتلمسوا عللا لما قرءوا وما سمعوا ، وقاسوا عليه كل ما يشترك معه فى علته ، وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليونانى ، فلديهم علة تشبيه كبناء الاسم لمشابهته للحرف ، وإعراب المضارع لمشابهته للاسم ، وعلة استثقال كحذف واو يعد

استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ، أو علة تغليب مثل : وكانت من القانتين . وقد غلوا فى هذه العلل إلى حد أفقدها كثيراً من قيمتها . ومن أمثلة المتعلمين : « العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها » . وإذا كان ابن جنى والسيوطى قد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ، فما ذاك إلا لما أخذ عليها من ضعف ووجه إليها من نقد .

* * *

هذه هى آثار منطق أرسطو فى النحو العربى ، وجه إلى بعض قواعده ، وساهم فى تكوين بنيانه ، وأعان على رسم منهجه ، وكان عاملا قوياً من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه ، ولكنه من ناحية أخرى أصابه – فيما يظهر – بشئ من العقم والصورية التى بلى بها المنطق الأرسطى نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالدلالات والمعانى ، وأكثر من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين ، وغلا فى القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء ، وأسرف فى التمارين غير العملية التى جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافى على « كتاب » سيبويه أو شرح أبى حيان على « التسهيل » ، يلمس أن النحاة كثيراً ما أفسدوا النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية .

وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحياناً ، فهناك علل أول وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوى كما يتراءى له . وفى باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفى باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفية غير المقبولة . وكثيراً ما ورد فى المسأله قولان أو أقوال ، واستخدمت العلة الواحدة فى إثبات الشئ وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافاً بيناً ، اختلفوا مدارس كما اختلفوا أفراداً . وجد كل فريق فى الدفاع عن رأيه والتدليل على

وجهة نظره ، واعتبرت التوجيهات النحوية ضرباً من النشاط الذهنى الذى افتن فيه أيما افتنان ، فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة فى أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة . ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف فى النحو نفسه ؛ ونظرة إلى « كتاب الإنصاف »لابن الأنبارى تكفى لتوضيح ذلك ، فالبصريون والكوفيون مجمعون على رفع المبتدأ ، والخلاف بينهم فى علة الرفع : هل هى الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون فى علة هذا النصب ؛ فالجمهور يراها ماتقدمه من فعل ، والجرجانى يراها الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمر لذلك فعلا خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوى هو الخلاف . ولا أظننى أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر فى هذا كله عند الخاصة والمتفرغين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث مايشاءون . أما أن يفرض على شباب المتعلمين جميعاً ، فهذا تكليف بما لاطاقة عليه ، وإجهاد فى غير طائل . ولعل هذا هو الذى دفع ابن مضاء الأندلسى إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية . ولاشك فى أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة فى إعفاء شباب المتعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لاتزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أحوجنا أن نصنفه تصنيفاً جديداً ، فنحذف منه مالا لزوم له — وما أكثره — ونستغنى عن التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ، ونراعى فيه تطور النحو فى اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل البرلمان ، قد يسر للناس كثيراً من أمر حقوق الأسرة ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التى يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

العربية بين اليوم والغد

الفصحى تراث الماضي ومجد الحاضر ، بقيت على الدهر ، وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين التليد والطارف ، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى ، ولا أظنني في حاجة أن أتحدث عن العربية في ماضيها ، ولا أن أعرض لتراثها . وإنما أود أن أقف قليلا عند حاضرها ، وأن أربط يومها بغدها .

* * *

وحاضرها ولاشك زاهر ، وإن عارض في ذلك قوم وأنكره آخرون . فهي لغة العلم والأدب والخطابة والصحافة ، وإلى مدى بعيد لغة المسرح والسينما ، والإذاعة والتليفزيون ، مفرداتها في صقل وتهذيب وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر . وجملها في تنوع وتجديد ، ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة . في شعرها خيال بديع ، ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خلاب لخلجات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع . وبين الشعراء المعاصرين فحول لا يقلون عن شعراء العصر العباسي الأول . وفي نثرها تحرر وانطلاق ، ولين ورقة ، وتعليل ومنطق ، وأفكار ومعان لا مجرد صيغ وعبارات . وفيه أيضاً ألوان جديدة كالقصة والرواية والمقالة والبحث . وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبد الحميد وابن المقفع ، أو بالجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات .

وإنتاجها في جملته غزير ومتنوع ، قومي وإنساني . تضافرت عليه

جهود مختلفة و بيئات ثقافية متعددة فى إفريقية وآسيا، وآزرها نفر من العرب والمستعربين فى أوربا وأمريكا . ويمكن أن يقال إن أدبنا المعاصر سما إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدئ فى ترجمته والأخذ عنه ، كما يأخذ هو وينقل عن غيره. وبذا صحت نبوءة الأستاذ الإمام من أن دراسة جادة طوال خمسين سنة كفيلة بأن يبلغ الأدب العربى شأو الآداب الأوربية .

على أنا نعتقد أن لغتنا لاتزال فى حاجة إلى تعهد ورعاية مستمرة ، وتجديد وتطوير . ولا ننكر أن هنالك شكوى تردد من متن اللغة والنحو ، ومن تعقد المعاجم وصعوبة الرجوع إليها ، ومن فن الإملاء والكتابة العربية بوجه عام ، وعدم مطابقتها للنطق أو القراءة . ولاتزال الفصحى تصطدم بالعامية ، ويقع الناس فى حيرة من أمر هذه الثنائية .

ولكن هذه الشكوى لا تخلو من غلو وإسراف ، فصدر العربية فسيح يتسع كل يوم لمصطلحات العلم ومقتضيات الحضارة . وتيسير النحو يشغلنا منذ عهد بعيد ، وقد بذلت فيه جهود متلاحقة ، وأصبحنا نؤمن بأن ملكة اللغة تكتسب خاصة بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة . وظهرت معاجم عربية حديثة فيها وضوح ويسر ، وترتيب وإحكام ، ولا بد أن تليها معاجم أخرى أكثر وضوحاً وأعظم دقة . ولانألو جهداً فى أن نيسر الإملاء والكتابة ، وقد وضعت فى ذلك مقترحات شتى ، وأخذ ببعضها . وقد سبق لمجمع اللغة العربية أن أقر مقترحات تؤدى إلى اختصار صور صندوق الطباعة اختصاراً كبيراً ، وطبقها عملياً ، وأفادت منها بعض الصحف الكبرى .

ونظرة إلى الوراء ترينا كيف ضاقت مسافة الخلف بين الفصحى والعامية ، ولغتنا الحاضرة تكاد تكون مزاجا منهما ، فيها فصاحة الأولى وجزالتها ، وسهولة الثانية وقربها من الأفهام . ولانزاع فى أن فصحى اليوم تختلف من بعض النواحى عن الفصحى القديمة ، هى فصحى جديدة خضعت

للعصر وروحه ومقتضياته . وقديماً ذهب حفني ناصف إلى أنه فى بيئة خاصة وبضرب من المرانة والدربة يمكن القضاء على العامية فى نحو عشرين سنة . وحاول عاطف بركات أن يطبق شيئاً من ذلك فى مدرسة القضاء الشرعى .

* * *

ومهما يكن من أمر فيجب أن نعترف بأنه إذا كان فى العربية قصور فهو قصورنا . فقد استطاع أجدادنا أن يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الأنظار ، وكانت موضع تقدير وإعجاب فى الشرق والغرب . ونعتقد أن الغد كفيل بتدارك مافات ، واستكمال ما نقص . وإنا لنعول عليه كثيراً. والأشواط التى قطعناها فى توسيع متن اللغة وإفساح صدره لمستحدثات العلم والحضارة ثروة مكتسبة . وما أجدرنا أن ننميها . والخطوات التى مشيناها فى سبيل تيسير النحو على الناشئين برهنت على نفعها ، وأصبحنا نؤمن بضرورتها . ولا يلائم عصرنا فى شئ أن نجعل من الإملاء مشكلة تعليمية ، وكلما يسرنا رسم الحروف كسبنا زمنا ، وساعدنا على نشر التعليم .

ونرقب أن تقترب ما أمكن لغة التخاطب من لغة الكتابة ، وأن تتوثق الوشائج بين الناطقين بالضاد فى مختلف الأقطار ، وأن تتضاءل الفوارق بين اللهجات ، ذلك لأنا نعيش فى عصر التعليم والثقافة الشعبية ، فى عصر الصحافة والسينما ، فى عصر الإذاعة والتليفزيون . فتكافح الأمية ، وينشر التعليم فى مختلف البلاد العربية . ويقرأ الأطفال والشبان ويكتبون بلغة سهلة وأسلوب هين . وتنفذ العربية إلى الفصل والملعب ، والمنزل والحقل ، والمصنع والمتجر ، وتنشر الكتب الشعبية وسلاسل القراءة المبسطة ، ويطبع منها عشرات الآلاف بل مئات الآلاف ، وتتبادل الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية بين المدن والعواصم ، فتوحد طرائق التعبير ، وتقدم ألواناً من الأدب الرفيع . وبيننا كتاب وأدباء ينتمون إلى العالم العربى ، بقدر ما ينتسبون إلى وطن خاص ، لهم

قراؤهم فى كل بلد عربى . وهناك صحف أسبوعية وشهرية عربية تكاد توزع فى الخارج بقدرما توزع فى الداخل .

والقلم العربى أصبح ذا رسالة أدبية ولغوية إلى جانب رسالته الفنية والاجتماعية ، وكثيراً مايحاكى أسلوب الحوار والغناء المصرى فى شمال إفريقية ، أو فى الكويت والإمارات العربية . وللإذاعة والتليفزيون شأنهما فى تقويم النطق وتقريب بعضه من بعض ، وفيهما يتلى القرآن ويرتل غير مرة من عدة محطات فى اليوم الواحد ، وهو خير مقوم للألسن. وهاتان الوسيلتان تخاطبان الأمى ، كما تخاطبان القارئ والكاتب ، وتصلان إلى القرية كما ترسلان فى المدينة . وهناك أمم تحاول أن تنشر لغتها وتعلمها للناس عن طريق الإذاعة المسموعة أو المرئية ، وما أجدرنا أن نوجه إذاعتنا العربية — فيما نوجهها — إلى هذه الغاية ، لاسيما أن هناك إذاعات أجنبية تحرص على النطق والأسلوب العربى السليم أكثر مما تحرص بعض الإذاعات العربية .

ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا الآن بلغة عربية واضحة . وتدرس بها فى الجامعات والمعاهد العليا ، فضلا عن المدارس الإعدادية والثانوية . وهناك دراسات لاتزال تقدم بلغة أجنبية ، ولكنها ستلبس لامحالة الثوب الوطنى ، وستؤدى باللغة العربية . ونتوقع تبادلا أتم واتصالا أوثق بين الأدب العربى والآداب الأخرى ، وها نحن أولا نرى القصة أو الرواية تترجم اليوم إلى العربية ، ولما يمض بضعة أشهر على تأليفها فى لغتها الأصلية ، ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبى ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهداً إلى ترجمة بعض نفائسنا الأدبية المعاصرة . ولاشك فى أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقاً وتأكيداً ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كى تفتح النوافذ على مصراعيها ، ويجدد الهواء والفكر من حين لآخر .

* * *

لا أظنني أبعث بهذا آمالا عذبة وأوقظ أحلاماً لذيذة ، بل أبنى على واقع حى ملموس . وأنا على يقين من أنا إذا أخذنا الأمور فى جد ، وآمنا بعربيتنا إيماناً صادقاً : فإنا سنجعل منها أداة من أدوات التعبير لاتقل عن أية لغة من لغات الدنيا الكبرى . وإن لغة تأخذ بالقياس والاشتقاق لا يعز عليها مطلقاً أن تقدم اللفظ الملائم لكل معنى جديد .

٩

العربية بين اللغات العالمية الكبرى

للغة قداسة تستمدها من وحى السماء، أو من إجماع أهل الأرض . ومن أسباب قداستها أن تصبح لغة التقرب والعبادة . أو أن ينزل بها كتاب سماوى يهبها من قداسته ، ويضفى عليها من جلاله . ولاشك فى أنها ظاهرة تحظى بما تحظى به الظواهر الاجتماعية الأخرى من سلطان، وتنال ما تناله من اعتداد وكرامة . وهى فى مقدمة مقومات الأمم والشعوب .

ولقد اعتمدت العربية على هذين المصدرين ، فهى لغة الدين والدنيا ، والعبادة والسياسة . بها أنزل القرآن وبها حفظ ، ونشأت حوله دراسات لغوية متنوعة ، وهناك طقوس دينية لابد للمسلم أن يستخدم فيها ألفاظاً وجملا عربية كيفما كانت لغته الوطنية . ويوم أن أخذ العرب فى بسط نفوذهم ، انتشرت العربية معهم ، فكانت تدرس فى أصبهان وشيراز ، كما كانت تدرس فى دمشق وبغداد . وظهر كتاب وشعراء بالعربية فى قرطبة والحمراء ؛ كما ظهروا فى القاهرة والقيروان . وأضحت لغة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ من أواسط الهند شرقاً إلى جبل طارق غرباً ؛ ومن البحر الأسود شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً . وكانت لغة عالمية قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية ، ويحددوا معالمها .

* * *

إن فكرة اللغة العالمية تصعد إلى القرن السابع عشر ، تنبه إليها ليبنتز بوجه خاص ، بعد أن رأى أن لغة العلم أخذت تتبلبل بتعدد

اللغات الأوربية الحديثة : وقد كان الفلاسفة والعلماء الغربيون يلتقون من قبل عند اللاتينية . ففكر فى جمع « ألف باء» الفكر الإنسانى ؛ وحصر الأفكار البسيطة والمركبة . وإذا ما تم له ذلك ، وضع لكل فكرة رمزاً يعبر عنها ويدل عليها .

ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز ، تصبح لغتهم المشتركة التى يتفاهمون بها ، ويلتقون عندها . وإذا كان لم يقدر له أن يكون هذه اللغة المنشودة ، فإنه وجه النظر إلى فكرة اللغة العالمية التى شغل بها كثيرون من بعده .

وقد عنى بها عدد غير قليل من الباحثين فى القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم طبيب روسى اقترح لغة « الإسبرنتو » التى قدر لها أن تصادف نجاحاً لدى كثير من الهيئات العلمية . ولاتزال جمعيات لغوية وفيلولوجية تعالج مشكلة اللغة العالمية ، وتدلى فيها بمقترحات ظهر منها فى النصف الأول من هذا القرن ما يزيد على خمسين مقترحاً . ويلحظ فى اللغة العالمية بوجه عام أن تقوم على أبجدية قليلة الحروف ما أمكن ، ومفردات محدودة تفى بالغرض دون تكرار أو ترادف ، ونحو مطرد ميسر ، وهجاء سهل وكتابة واضحة ، وكأنى بالفكرة تلائم بعض اللغات الخاصة كلغة المنطق أو لغة الرياضة . أما أن تطبق فى المجتمعات الفسيحة فهذا ما لاسبيل إليه ؛ لأن لغة الجماهير لاتصنع صنعاً ولاتفرض فرضاً ، ولابد لهذه الجماهير أن تضع لغتها بنفسها ، وأن تتصرف على حسب ظروفها وحاجاتها .

* * *

ومهما يكن من أمر فهناك لغات يتخاطب بها عدة دول ، ويتفاهم بواسطتها عدة شعوب ، وهى أشبه ما تكون باللغة العالمية . وقد قضت الفرنسية نحو قرنين أو يزيد وهى لغة السياسة والدبلوماسية فى العالم بأسره ، وتعد الإنجليزية اليوم لغة المال والأعمال بوجه عام . وسبق لنا

أن أشرنا إلى أن العربية كانت لغة عالمية منذ عهد بعيد ، وفى وسعها الآن ألاتقف عند العالم العربى ، وأن تمتد إلى بيئات ومجتمعات أخرى فى آسيا وإفريقيا . ونذكر أن الباكستان — فى بدء استقلالها — اتجهت نحو العربية ، وودت أن تصبح لغتها الوطنية ، ولو قدرلها أن تسير فى هذا الطريق لحققت فى العشرين سنة الماضية خطوات يعتد بها . وبين الأردية — لغتها السائدة — والعربية وشائج قديمة . ونعتقد أن أندونسيا ترحب بنشر العربية فى ربوعها ، لو يسر لها ذلك . وفى إفريقيا مشاكل لغوية معقدة ،وكم يسعى اليونسكو وراء حلها ، ويسلم بأن للعربية شأناً فى هذا الحل . فهناك دول إفريقية حديثة فى بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة ، وفى وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات ؛ برغم النزعة الأنجلوسكسونية أو الفرنكوفونية التى تصادف بعض الأنصار والمؤيدين . وقد استطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب إفريقيا وقبائلها ، وهى لغة تربطها بالعربية صلات معروفة .

* * *

ولاسبيل لانتشار لغة إلا إذا كان فى طبيعتها ما يعين على ذلك . وأبجدية العربية محدودة الحروف ، وهى لا تزيد عن أبجدية الإسرنتو ، وأصواتها تكاد تكون شاملة ، ومفرداتها غزيرة ، ولكن كثيراً ما يختلط فيها المهمل بالمستعمل والغريب بالمألوف . وليس بعزيز أن يختار قدر منها يلائم مطالب الحياة الحاضرة ، ويضمن فى معاجم خاصة ، ونحن نعلم أن الألفاظ المتداولة فى حديث فرد وكتابته أقل كثيراً من مادته اللغوية . ولاشك أن معجمات كهذه تيسر تعلم العربية على الأجانب ، وتساعد على نشرها فى بيئات لاعهد لها بها . ويؤم جامعاتنا اليوم فى مصر وبغداد عدد غير قليل من طلاب العلم الذين ليسوا من أصل عربى ، وواجبنا أن نيسر مهمتهم ، ونطوع لغتنا لهم . وقد بدلت فى ربع القرن

الماضي جهود لوضع معجمات عربية مختصرة : تقف عند الكلمات الكثيرة الورود والذائعة الاستعمال ، وأسهم المستشرقون فى ذلك بنصيب ، إلا أنا لانزال دون الغاية : ولم نصل بعد إلى معجم ملائم تماماً لنشر العربية .

وفى نحو العربية فلسفة وتوسع زائد ، وعمق إن لاءم الخاصة فإنه لايلائم العامة ، ويمكن أن يتخير من قواعده المطرد الذى تبدو آثاره واضحة ،ويسهل حفظه وتلقينه. ولنا فى هذا محاولات متصلة منذ أوائل هذا القرن : بدأها حفنى ناصف ، وتابعها على الجارم وتلاميذه ،ويمكن أن يستخلص منها ما يتمشى مع عالمية اللغة . وفى الإنجليزية محاولات مشابهة يسرت نحوها وجعلته من الدروس الهينة . ويمكننا أن نقرر أنه لاتوجد فى الإنجليزية اليوم صعوبة تدريس الأجرومية التى يضيق بها المعلمون والمتعلمون أحياناً .

ولم يبق إلا مشكلة الكتابة ، وهى بدورها تساير الزمن وتتطور معه فيسرنا كثيراً من أمر الهجاء والإملاء ، وما أجدرنا أن نتابع هذا التيسير ، على أن أخطاء الإملاء فقدت كثيراً من خطرها ، وأصبحت بحيث لاينظر إليها نظرة الماضى القاسية . ونحن نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ، فإذا ما وحدنا صورة المقروء سهل فهمه وتتبعه . وحروف الطباعة ذات شأن فى تيسير الكتابة العربية، وينبغى أن تكون ذات شكل ثابت وواضح، وإنا لنلحظ تطورها فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وكان لمجمع اللغة العربية نصيب فى هذا التطور .

* * *

وكل تلك أمور أقرب إلى المنهج والطريقة ، وألصق بالبيداجوجيا ووسائل الإيضاح والتعليم ، ولايضير اللغة فى شئ أن نأخذبها ، وما أجدرنا أن نفعل ؛ إن أردنا أن تستعيد العربية مكانتها التى حظيت بها فى الماضى ، وأن تؤدى رسالتها كاملة بين اللغات العالمية الكبرى .

الباب الثانى

فى المصطلح العلمى

١٠

لغة العلم

أداة البحث ، ووسيلة الشرح ، ولاحياة لعلم بدونها ، يلتقى عندها العلماء ويعول عليها الطلاب ، وعلى أساسها يقوم التأليف والنشر . تسير بسير العلم ، وتقف بوقوفه . وهى لغة الوضوح والدقة ، والبيان والسرعة . يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتباينت وتحددت. يبدأ المصطلح هزيلا متردداً ، ثم لايلبث أن يقوى ويستقر ،وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها .

* * *

ولو رجعنا إلى تاريخ العلم اليونانى لوجدنا أن لغته بدأت تتكون معه منذ القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أخذت تنمو وتتضح فى القرنين الخامس والرابع . فغذاها فيثاغورس برياضياته وأمدها أبقراط بطبه ، وأقام أرسطو دعائم لغة العلوم الطبيعية . وللعلوم الفلسفية والإنسانية لغتها ومصطلحاتها التى ساهم فيها أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور . وقد انتقل قدر غير قليل من لغة العلم اليونانية إلى الثقافات اللاتينية والسريانية والعربية ، ولا تزال بعض آثارها باقية إلى اليوم فى اللغات الأوربية الحديثة .

ولم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها . فبدأت العلوم منذ القرن الأول للهجرة فى تكوين لغتها ، وظهرت مصطلحات فى الفقه والتفسير والكلام ، وتلتها أخرى فى الأخلاق والسياسة ، والطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة . وخضع المصطلح العربى القديم لسنة النشوء والارتقاء ، فنما وتطور على مر الزمن . وعول واضعوه

على النقل والاشتقاق، ولم يبالوا بأن يكون عربياً أصيلا أو معربا دخيلا، وربما آثروا المعرب إذا كان أدخل فى المعنى وأكمل فى الأداء . وكثيراً ما يحمل التعريب شارة الأصل الذى نقل عنه ، فنلحظ الألفاظ الفارسية فى مستحدثات الإدارة والحضارة، واليونانية والسريانية فى العلوم الفلسفية والطبيعية. وإذا ما لوحظ أن مصطلحاً لا يؤدى معناه أداء كاملا ، عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط .

وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم فى الإسلام، واستقرت مصطلحاتها بحيث تنوسى معناها الأول ، ولا يكاد يفهم منها إلا مدلولها العلمى الخاص . وتداولها الباحثون فى المشرق والمغرب ، ولم تختلف من قطر إلى قطر ، فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان ، والفسطاط ودمشق ، وبغداد وأصفهان . وبدئ بتسجيلها فى معجمات خاصة تحت اسم « مفردات» أو « تعريفات » ، ومن أوائلها « مفاتيح العلوم » للخوارزمى الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع . ومن المصطلحات العربية ما نقل إلى الفارسية والتركية ، ومنها ما سرى إلى اللاتينية، بل إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية .

ويوم أن ركد البحث العلمى فى الإسلام ، ركدت لغته معه، فجمدت المصطلحات وأضحت ولا تجديد فيها ولا ابتكار . وكان هم الخلف أن يردد ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأصبحت اللغة العلمية ركيكة معقدة. ثم جاءت النهضة العلمية العربية الحديثة فى القرن الماضى على فترة من البحث والدرس ، وحاولت أن تتدارك بعض ما فات. ولكن رجالها الأول — فيما يظهر — لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة وثيقة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل أو خطأ .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، ويصلحوا هذا الخطأ . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ،

ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية فى نمو مطرد ، وتجديد لاينقطع ، ولها فى اللغات الأوربية معجمات خاصة تزاد وتستكمل عاماً بعد عام .

ونستطيع أن نقرر أن العلوم العربية الحديثة قد خطت فى نصف القرن الأخير خطوات فسيحة ، أحيت بها مجد الماضى ، وتابعت سير الزمن . وأخذت تكوّن من جديد لغتها الخاصة مستعينة بالدراسات الجامعية من جانب ، وبالمجامع اللغوية والعلمية من جانب آخر .

* * *

وللعالم أن يختار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية ، وحقه فى وضع مصطلحاته لايصح أن ينازع ، وحريته ينبغى أن تكون مكفولة . ولكن هذا الحق ليس على إطلاقه ، وهذه الحرية لاتخلو من قيود. وقد يشكو العلماء من قصور اللغة عن أداء ما يريدون ، فيلجئون إلى الرمز والإشارات ، كما صنعوا فى الرياضة والكيمياء . وللغويين شكواهم من تهجم العلماء على اللغة ، فيشتقون على غير قاعدة ، وينحتون فى غير ما داع ، ويسرفون فى التعريب واستعمال الألفاظ الدخيلة . وما أجدر الطرفين أن يلتقيا عند كلمة سواء .

فعلى العلماء أن يحيوا أولا كل ما يمكن إحياؤه من المصطلحات القديمة ، فإن لم يجدوا فعليهم أن يقيسوا و يشتقوا من العربية . ولم يبق محل للتشكك فيما ترخص فيه اللغويون من جواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط كما قال العرب قديماً مذهب ومفضض ، ولا للتشكك فى قياسية المصدر الصناعى فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية . ولنا أن نقيس فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، فنستحدث أوزاناً جديدة لاسم الآلة ، أو للدلالة على الحرفة أو الداء ، ونجيز النسب إلى جمع التكسير كأحيائى ، وكان يقصر فى الماضى على المفرد . وكل تلك أمور أقرها مجمع اللغة العربية منذ ربع قرن أو يزيد . وإن

لغة تيسر القياس والاشتقاق على نحو العربية ، لايعز عليها أن تجد من الألفاظ ما تدعو الحاجة إليه .

وفى العامية قدر غير قليل يرجع إلى أصل فصيح ، وفى وسع العالم أن يفيد منه لوضع مصطلحه ، وبذا يرد إلى الفصحى ما أخذ عنها . فإن لم تسد العامية ولا الفصحى حاجته ، فله أن يلجأ إلى التعريب . وقد عرب العرب قديماً فأخذوا عن اليونانية والهندية والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وعرب المحدثون عن الإسبانية والإيطالية، والإنجليزية والفرنسية . غير أنه يجدر بنا أن نقف بالتعريب عند أضيق الحدود الممكنة ، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وهيدروجين ، أو ما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان ، أو على سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ، أو ما نسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان . أما ما وراء ذلك من الألفاظ المأخوذة من اللغة الدارجة فالأولى به أن يترجم . ويحتفظ فى التعريب بالأصل ، مع تقريبه من النطق العربى ما أمكن ، ويحسن أن يضبط المصلح المعرب تيسيراً لنطقه ، إلى أن يدخل فى صلب اللغة ويصبح جزءاً منها .

وقيمة المصطلح فى انتشاره والأخذ به ، وبذا يصبح جزءاً من اللغة العلمية . أما أن يختلف من باحث إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، فإنه يبقى عملة غير متداولة ، ولا يجدى فى تعاون العلماء وتفاهمهم ، وكم من مصطلحات ولدت ، ثم لم تلبث أن ماتت . وتوحيد المصطلح العلمى ليس مما يلزم به قانون ، أو تفرضه سلطة قاهرة . وسبيله الطبيعى إنما هو الكتابة والتأليف ونشر المصطلحات لكى تذاع وتعرف . وينبغى أن يلتقى العلماء من حين لآخر فى مؤتمرات منظمة ، أو فى لجان أو مجالس ، ليتبادلوا الرأى فى لغتهم ، ويتداركوا ما فيها من قصور أو خلل .

ولقد كان لليونان لغة علمية مسلمة ، ومن بعدهم الرومان ، وبقيت اللاتينية لغة العلم وحدها فى أوربا طوال القرون الوسطى . وأشرنا من قبل

إلى أنه كانت هناك لغة موحدة للعلم فى العالم العربى شرقاً وغرباً. ويوم أن اضطربت الألسن فى أوربا ، وأحس ليبنتز فى القرن السابع عشر بانكماش اللاتينية ، شاء أن يحل محلها لغة علمية عالمية ، وأساسها حصر الأفكار الإنسانية ووضع رمز لكل واحدة منها . وإذا كان لم ينجح فى محاولته ، فإنه وجه النظر إلى اللغة العالمية التى لاتزال مطمح كثيرين — وفى وسع العربية على كل حال أن تكون اليوم ، كما كانت بالأمس ، لغة علمية مشتركة بين أبناء العرب على السواء ، مهما تباعدت أوطانهم وتنوعت لهجاتهم .

ولغة العلم وثيقة الصلة بلغة الأدب ، تتعاونان وتتفاعلان ، ولاتكاد توجد نهضة أدبية إلا وتصاحبها نهضة علمية ، وكم من علماء وفلاسفة هم فى الوقت نفسه أدباء. ويوم أن ازدهر العلم اليونانى ، ازدهر معه الأدب ، ووجدنا فى أثينا إبان القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد حركة علمية وأدبية زاهرة ، وأفلاطون بين اليونان رمز للأدب الرفيع والفلسفة السامية . وفى القرن التاسع والعاشر الميلادى ، اقترنت فى بغداد النهضة الأدبية بالنهضة العلمية ، ورأينا أئمة فى العلم والأدب معاً ، أمثال النظام والجاحظ . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وصل الأدب إلى قمته ، واتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، وبسكال مثلا رياضى وأديب فى آن واحد . وأدب اليوم ذو طابع علمى واضح ، ويحرص العلم بدوره على أن يعرض فى ثوب أدبى قشيب ، ويكفى أن نشير إلى برجسون شيخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة الذى يعد بين كبار الأدباء .

* * *

وفى العالم العربى نهضة أدبية وعلمية لاشك فيها ، وقد بدأت تؤتى أكلها . وسيؤدى العلم فيها رسالته ، ويسهم فى كشف المجهول إلى جانب الجهود التى تبذل شرقاً وغرباً . وعلينا أن نوفر له كل وسائله ، وفى مقدمتها لغة واضحة حية متحركة .

٢

مدى حق العلماء فى التصرف فى اللغة

دون أن نعرض لخصائص البحث العلمى المختلفة نكتفى بأن نشير إلى ثلاث منها رئيسة ، وهى : موضوع محدد يراد بحثه ، وطريقة واضحة يعالج بها ، ونتيجة ينتهى إليها . فلا يسمو بحث إلى مرتبة العلم إلا إذا انصب على مسائل معينة ، والدراسات غير المحدودة الموضوع ليست من العلم فى شئ . وهكذا كان شأن الدراسات الإنسانية فى بدايتها : اختلطت فيها مسائل متنوعة وموضوعات مختلفة . ونشأة العلم وتكوينه يتلخص فى تحديد موضوعه وحصر مسائله . والمتتبع لتاريخ العلوم يدرك هذا التطور بوضوح .

والموضوع المحدود ينبغى أن يعالج على نحو خاص ، وهذا النحو هو ما يسمى الطريقة أو المنهج . والمناهج العلمية بوجه عام استقرائية ينتقل فيها من الجزئى إلى الكلى ، وقياسية تسير من الكلى إلى الجزئى ، ومن هنا كانت العلوم ضربين : علوم استقرائية دعامتها المشاهدة والتجربة كالطبيعة والكيمياء ، وأخرى قياسية تقوم على طائفة من المبادئ والفروض المسلّمة كالحساب والهندسة . وإلى جانب هذه المناهج العامة هناك مناهج خاصة ، فالعلوم التجريبية وإن التقت كلها فى المنهج الاستقرائى يتميز كل واحد منها بمنهجه الخاص ، فلعلم الحيوان منهج يميزه عن علم النبات وهكذا .

وأخيراً من الموضوع المحدد وبالمنهج الخاص ينتهى البحث إلى طائفة من النتائج هى ثمرة العلم وغايته . وكلما كانت هذه النتائج أعم وأشمل كان البحث أدق وأكمل . والعلوم الكاملة هى تلك التى انتهت إلى طائفة من القواعد العامة والقضايا الكلية التى تصدق اليوم صدقها بالأمس

وفى الغد . وهذه هى القوانين العلمية التى من أخص خصائصها العموم والشمول . وإذا كان العلم قد حارب الخرافة والعرافة من ناحية فإنه فتح من ناحية أخرى باباً يبيح للعالم أن يتوقع ويتنبأ فى ضوء قوانينه التى تسمو على الزمان والمكان .

* * *

ولا شك فى أن المصطلحات العلمية جزء وجزء هام من المنهج العلمى ، ولن يستقيم منهج إلا إن قام على مصطلحات خاصة يؤدى بها العالم الحقائق التى يعالجها ، وقديماً قالوا : العلم لغة أحكم وضعها .

فالمصطلحات العلمية ضرورة من ضرورات العلم لأنهاتستحضر المعنى بأيسر وسيلة ، وإذا كانت اللغة أداة من الأدوات البشرية المتقنة التى تربط بنى البشر بعضهم ببعض ربطاً سريعاً وثيقاً ، فإن هذا يبدو أوضح ما يبدو فى اللغة العلمية ،ويكفى حرفان متصلان، مثل « يد» — و« كم » ليستحضر العلماء حقائق ونظريات واسعة طويلة ، قد يطول شرحها لو حاولوا معرفة مدلولاتها ، ويوفر عليهم ذلك أن يتخيروا لفظاً معيناً هو المصطلح العلمى .

وكلما كان المصطلح دقيقاً محكماً كانت الصلة بين العلماء أوثق وأقرب ، وكان مجال الخلاف أقل ، ولذلك يقول ليبنتز : « إن معظم الخلافات العلمية يرجع إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها » ، ويوم يصطلح العلماء على دوال معينة تضيق مسافات الخلف كثيراً . وليست قيمة المصطلح العلمى بمقصورة على العلماء وحدهم ، بل تتعداهم إلى المتعلمين ، فإن المصطلح العلمى وسيلة من يريدون التعلم ، فيستعان به على تقديم الأفكار للمتعلمين . وإذا كان هذا شأن المتعلمين فإنه أولى بمن يرغبون فى دراسة علمية معينة ، إذ يعز عليهم تتبع هذه الدراسات إلا إذا ألموا — ولو بقدر ما — بما اصطلح عليه العلماء أنفسهم فى لغتهم .

ولعل هذا هو السبب فى تلك النزعة العامة التى تدفع بعض العلماء

المتخصصين اليوم أن يقدموا العلم فى لغة بسطت فيها هذه المصطلحات ما أمكن ، كى يجد المثقف العادى سبيلا إليه . وعلى هذا النحو جاءت « السلطة العلمية »[١] التى اضطلع بها عالم فاضل ومجمعى قديم .

وواضح أن المصطلحات العلمية تنمو بنمو العلم : تبدأ — أولا — محدودة ومترددة ، إذ يوضع لفظ لمعنى ما ، ولا يلبث أن يعدل عنه إلى لفظ آخر ، ومع الزمن ومع نمو العلم واكتماله أخذت هذه الاصطلاحات فى التنوع والتعدد والاستقرار . وتاريخ العلوم تاريخ لمصطلحاتها ، والمتتبع لتاريخها يلحظ هذا التطور فى المصطلحات وحلولها محل أخرى ثم توسعها بعد ذلك .

* * *

إذا كانت المصطلحات لغة العلماء فلا ننسى أن هذه اللغة جزء من اللغة العامة ، ومن هنا كانت المصطلحات وثيقة الصلة باللغة . وهناك خلاف مشهور حول صلة اللغة بالمجتمع ، أو صلتها بالتفكير الفردى . ففريق يقول : إن اللغة مجرد آراء وأفكار أو عواطف ووجدانات ، وفريق آخر يرى أنها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمجتمع وتخضع لحكمه ، وليس العامل الجوهرى فيها تلك العواطف والوجدانات ، وإنما هو المجتمع وسلطانه وحكمه وقيوده وتقاليده .

وأظننا نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا إن اللغة فى حقيقتها تعبير عن أفكار وآراء أو انفعالات ووجدانات بواسطة دوال وأصوات أقرها المجتمع وأخذ بها ، فاللغة صنيع الفرد والمجتمع معاً ، ولا قيمة لأصوات لا دلالة لها ، وقيمة هذه الدلالة فى أن يفهمها مستمعو هذه الأصوات ويتفقوا عليها .

وإذاما تركنا اللغةالوجدانية والعاطفيةجانباً . وعرضنا لناحيةعلاقةالفكر

---

(١) اسم كتاب فيه مقالات علمية مبسطة ، كتبها الدكتور أحمد زكى .

باللغة ، وهي وثيقة الصلة بالبحث والدراسة والعلم ، وجدنا أن التفكير لايكاد ينفصل عن اللغة ، ولاسيما إذا صعد إلى درجاته العليا وأضحى ما يسمونه التفكير المنطقى ، ولذا قيل : التفكير كلام نفسى ، وقال الشاعر العربى :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فعلاقة الفكر باللغة وثيقة ، والمفكر نفسه يعز عليه أن يطمئن إلى فكرته إلا إن وجد اللفظ الذى يؤديها أداء يريحه . وكثيراً ما بقيت الفكرة حائرة لأن صاحبها لم يجد بعد الوعاء اللفظى المناسب لها ، وقد نلجأ إلى أيدينا فنشير بها وإلى رؤوسنا فنحركها حين نحس بأن الألفاظ لا تعبر تماماً عما نريد .

والمعنى الدقيق يحتاج عادة إلى لفظ دقيق ، ولولا تجدد المعانى ما تجددت الألفاظ ولاتباينت التراكيب . وازدهار الآداب المختلفة مقترن عادة بازدهار العلوم ، ففى « أثينا» فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد . ازدهرت اللغة اليونانية يوم أن ازدهرت العلوم اليونانية ، وفى بغداد فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة كان الأدب العباسى متشعباً ذا ألوان عدة وصور مختلفة ، لأنه كان هناك علم ودرس واسع متشعب متعدد : وأخيراً فى باريس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وصل الأدب الفرنسى إلى قمته يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، ولايزال الأدب الفرنسى سائراً فى طريقه لأن باب البحث العلمى مستمر فى سيره إلى اليوم .

ويقولون : إن الجماعات البدائية لاتعرف كثيراً عن الألفاظ التى تؤدى المعانى الكلية أو المجردة . وما زال إلى الآن عالمها أقرب إلى المحسوسات ، ولذا اقتصرت ألفاظها تقريباً على الدلالة على جزئيات . وباختصار ، اللغة مدلول ودال ، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر ، والمدلول الذى لا لفظ يدل عليه سر خفى كامن فى صدر صاحبه ، والدال الذى

لايحمل فى أثنائه معنى ، صوت فارغ ولاقيمة له . وتبادل العلوم والأفكار بين الناس لايتم لو لم تكن هناك ألفاظ يؤدونها بها . ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعانى المختلفة ، واللغة الحية هى تلك التى تجارى العصر وتقدم لكل معنى جديد وسائل الدلالة عليه .

قد يلجأ العلماء إلى وسائل أخرى للتعبير عن أفكارهم[٣]، ولكن هذه الوسائل نفسها لغة ، فالرموز والأرقام التى يستعملها العالم لغة ، وإن تكن لغة خاصة به . ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون أن يربطوها باللغة العامة ، ولا يلجأ العلماء عادة إلى هذه الوسائل إلا رغبة فى التحديد والاختصار وأداء المعنى العلمى على أدق الوجوه وأسرعها ، ومن هناك كانت رموز الجبر والكيمياء والهندسة ، إلا أن هذه الرموز قد اشتقت من اللغة العادية .

* * *

والعالم، وهو الباحث عن الفكرة، لابد له أن يبحث أيضاً عن الوعاء الذى يؤديها فيه . وإذا كنا ندعو إلى حرية الفكر والبحث العلمى ، فمن مستلزمات ذلك أن ندعو أيضاً إلى حرية التعبير عن هذا الفكر ، فيكون العالم حراً طليقاً فى أداء المعنى على النحو الذى يروقه ولا يستطيع أحد أن يعبر عنه تعبيراً أصدق منه، وإذا كان عنوان بحثنا «مدى حق العلماء فى وضع المصطلحات العلمية »، فإنه ينبغى أن نتفق على أن هذا الحق فى أساسه مطلق، والعالم حر فى اختيار اللفظ الذى يؤدى المعنى المراد .

والذى حدث فعلا قديماً وحديثاً هو أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها، بل قدموا لها ما استطاعوا وسائل التعبير عنها . وقد لايجد المخترع الأول اللفظ الملائم، فيأتى تلاميذه من بعده ويتداركون ما فاته . وهكذا يسير العلماء الواحد منهم تلو الآخر فى ضبط المعانى وتحديد الألفاظ المعبرة عنها . وتطور العلم تطور لمصطلحاته بقدر ما هو تطور لآرائه

ونظرياته . وفى تاريخ العلوم ما يوضح هذا التطور تمام التوضيح .

وكثيراً ما شكا العلماء من قصور الألفاظ عن أداء الحقائق العلمية ، فقد تعجز عن أدائها أو تؤديها على وجه غير دقيق . ولذا لجئوا إلى الرموز كما صنع الكيميائيون والمناطقة فى المنطق الرياضى (اللوجستيك) . وذهب «ليبنتز» إلى أنه يمكن أن تحصر الأفكار جميعاً فيما يسميه «ألف باء» الفكر الإنسانى ، ثم يوضع لكل فكرة رمز خاص ، وبذا تتكون اللغة العالمية . وليس بغريب أن يقول ليبنتز بهذا ، وقد عاش فى بيئة كانت اللاتينية فيها لغة العلماء .

ومحاولته هذه دون نزاع أساس لكل المحاولات التالية التى ترمى إلى تكوين لغة تجتمع عليها الإنسانية كالإسبرنتو . ولست أدرى أممكن هذ أم لا ، لأن الأفكار الإنسانية أشبه ما تكون بنهر جار يتجدد ماؤه فى كل لحظة ودون انقطاع ، ولا سبيل إلى حصرها هذا الحصر المنشود .

ومهما يكن من أمر هذه المحاولة التى لاتخلو من خيال وجرأة فإن المصطلحات العلمية كانت ولاتزال وثيقة الصلة باللغة التى وضعت فيها . ولكل علم مصطلحاته بل لكل مدرسة وكل عالم ، الأمر الذى دفع إلى وضع المعاجم فى مصطلحات العلوم المختلفة . ودون أن أعرض لأمثلة من المعاجم الأجنبية أكتفى بأن أشير إلى معاجمنا العربية القديمة «كمفاتيح العلوم» للخوارزمى ، «وتعريفات الجرجانى» ، «وكشاف اصطلاحات العلوم» للتهانوى .

ولا أخفى عليكم أن متن اللغة عزيز دائماً على اللغويين ، فيغفرون خطأ نحوياً ويتسامحون فى أسلوب غير صاف ، أما أن يستعمل لفظ دخيل فهذا مالا يقبل بحال ، وكم ثاروا من أجل ذلك وبالغوا فى الثورة أحياناً . غير أن مبدأ الحرية العلمية الذى قررناه من قبل يحملنا على أن نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة فى سبيل البحث والتقدم العلمى . ومن حسن حظ الباحثين أن اللغات فصائل ، ومن الممكن أن يعاون

أفراد الفصيلة الواحدة بعضها بعضاً. فاللغات الأوربية التي ترجع إلى اللاتينية تستطيع أن تستعين بها فيما تحتاج إلى وضعه من ألفاظ جديدة، بل باليونانية أيضاً التي غذت اللاتينية من قبل . وكلنا يعرف الصدور والكواسع اليونانية وما أعانت عليه من وضع مصطلحات علمية في اللغات الأوربية.

ولم يفت المعنيين بالمصطلحات العلمية في الإسلام أن يستعيروا من اللغات السامية كالسريانية والعبرية ألفاظاً يؤدون بها المعاني الجديدة . والمعنى المنقول يحمل معه أحياناً اللفظ الذي كان يؤدى به في الأصل المنقول عنه . ولعل هذا ما يفسر الألفاظ الفارسية التي أخذ بها المسلمون في النواحي الإدارية ونظم الدواوين وبعض مظاهر الحضارة ، ومايفسر أيضاً شيوع الألفاظ اليونانية في الفلسفة والعلوم الإسلامية . وفي « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ما يوضح ذلك تمام التوضيح .

والعالم وقد تحرر — وينبغي أن يكون كذلك — يستمد مصطلحاته من الفصحى كما يستمدها من اللغة الدارجة . وفي أخذه عن الفصحى يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز ، فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها في دلالة علمية خاصة . وكل تلك وسائل لجأ إليها علماء الإسلام إبان ازدهار العلم واللغة . وله أيضاً أن يأخذ عن اللغة العامية ، إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل ، ولست في حاجة أن أشير إلى أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة ، وأن معاجمنا اللغوية لم تستوعب المفردات العربية ، وربما كان الفارق بين العامية والفصحى مجرد اللهجة ونطق الحروف .

والمفردات العامية التي لاترجع إلى أصل عربي أولى من غيرها في الاستعارة، لأنها أقامت بيننا زمناً وألفنا استعمالها طويلا. وللعالم أن يأخذ أيضاً عن لغة أجنبية فيعرب إن دعا الأمر إلى التعريب . وقد عربت ألفاظ أعجمية في الجاهلية والإسلام ، ولم ير العرب أي غضاضة في أن يضموها إلى ألفاظهم . وليس بلازم أن يكون التعريب على أبنية

العرب ، وقد عربت فعلا ألفاظ على نحو ما كانت تنطق به فى اللغة الأصلية . والعلم وهو تراث الإنسانية جمعاء يجب أن يفسح مجال التبادل فيه ، وأن تيسر سبله . ومن وسائل التيسير أن يسمح بتبادل الألفاظ كما تتبادل الأفكار والمعانى .

وللعالم أخيراً أن يخترع بعض الألفاظ اختراعاً ويخلقها خلقاً ، فيبتكر اللفظ كما يبتكر المعنى أو الحقيقة التى يكشفها بتجربته وملاحظته. والألفاظ الجديدة غريبة وغير مألوفة ، ولكن الزمن كفيل باستساغتها ، وسينتهى بها الأمر متى استقرت بأن تضاف إلى الثروة اللغوية .

* * *

فى كل هذا ما يكفل حق حرية البحث المقدسة ، ولكن ليس ثمة حق إلا ويقابله واجب . والحرية الصحيحة هى التى تعرف لنفسها حدوداً تقف عندها دون أن يعدو عليها عاد أو يرغمها أحد ، ولذا ينبغى أن تقيد حرية العالم فى وضع المصطلحات بقيود أخصها :

(ا) الحرص ما أمكن على أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد . لأن فى تعدد الألفاظ إسرافاً وارتباكاً وبلبلة . فيه إسراف ما أغنانا عنه خصوصاً والأفكار والحقائق العلمية كثيرة ومتجددة ، ونعجز أحياناً أن نجد لكل واحد منها لفظاً يلائمه . وفيه ارتباك لأنه يؤذن بعدم الدقة فى أداء المعنى الواحد . وفيه بلبلة لأن الترادف التام لايكاد يوجد ، واللفظان وإن أديا معنى واحداً يتفاوتان من بعض النواحى .

(ب) يجدر بالعالم أن يعرف جيداً لغته وما اشتملت عليه من مصطلحات قديمة وحديثة ويتمكن منها كل التمكن . وبذا يستطيع أن يلجأ إليها أولا ويستمد منها ماهو فى حاجة إليه من ألفاظ قبل أن يلجأ إلى لغة أجنبية ، وفى وسعه أن يشتق من لغته وينحت ويضمن ، ويلجأ إلى المجاز — وبابه فسيح — كى يؤدى المعنى العلمى الجديد — فلا يلجأ إلى التعريب إلا فى حالات خاصة وعند الضرورة القصوى . والتعريب

نفسه كلما أخذ عن الأصل اليونانى أو اللاتينى كان أولى .

(ج) لاتترك المصطلحات العلمية لذوى المصطلح وحده بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون ، وإذا كانت المصطلحات هى لغة العلماء فمن حقهم أن يقولوا كلمتهم فيها . وهنا تبدو أهمية الجماعات والهيئات العلمية فى تكوين المصطلحات واستقرارها .

وليست المصطلحات العلمية من وضع العالم ، وحده بل يشاركه فيها أحياناً الناقل والمترجم . ومن المترجمين من لم يتخصص فيما يترجمه ويكتفى بمعرفته للغة المنقول عنها والمنقول إليها . وقد تكون هذه المعرفة نفسها محدودة فيسىء إلى العلم والترجمة معاً . وواجب العلماء أن يرعوا هذه الترجمات ويتداركوا أخطاءها .

* * *

هذه هى المصطلحات ، وهذا هو حق العالم فى وضعها . ولايفوتنى أن أشير إلى موقف المجمع اللغوى منها ، وقد نص مرسوم إنشائه صراحة على أن من أغراضه « المحافظة على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر » .

وكان طبيعياً أن يعنى بالمصطلحات العلمية ، وفى أضابيره ألوف من المصطلحات فى الطب والأحياء والقانون والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والرياضة والإحصاء والكيمياء والطبيعة والفلسفة والاجتماع ، وكثير من ألفاظ الحضارة الحديثة . وقد حاول نشرها فأخرج منها مجموعات ، يلى بعضها بعضاً ، وهو يخرج منها الآن مجموعة كل عام .

ومنهج المجمع فى معالجة المصطلحات واضح ويسير ، فهو يستمدها من المتخصصين أنفسهم ويحرص على أن يسجل ما استقر عليه رأيهم . وسبيله إلى ذلك لجانه التى تعول على الخبراء من أساتذة الجامعة وغيرهم ، ولهؤلاء أن يضعوا اللفظ الذى يرونه عن طريق النحت والاشتقاق ، أو النقل والتعريب ، وما ترتضيه اللجان يعرض على مجلس المجمع ثم على

مؤتمره ، فإذا ما أقر بلغ للهيئات العلمية المختلفة لينال حظه من النقد والملاحظة أو التأييد والموافقة .

ولكي ييسر المجمع على العلماء مهمتهم أقر طائفة من المبادئ فيها كثير من التسامح والتجديد ، وأكتفي بأن أشير إلى أمثلة منها :

١ ــ فأجاز المجمع الاشتقاق من أسماء الأعيان وفتح بذلك باباً أريد به أن يغلق ، يوم أن قررت تلك القاعدة المشهورة من أنه لا يشتق من لفظ جامد.

٢ ــ وقبل المصدر الصناعي ورسم السبيل لتكوينه ، وهو أن يزاد على الكلمة ياء النسب والتاء . والمشتغلون بوضع المصطلحات يدركون ما لهذا المصدر من شأن في أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية ، وبخاصة في التدبير عن أسماء النظريات والمذاهب المنتهية ب Ism .

٣ ــ سمح بالتعريب واستعمال الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم ، وقد أقر فيما عرض عليه من مصطلحات عدداً غير قليل من الألفاظ المعربة . ولا يرى المجمع ما يمنع من قبوله سواء أجاء على أقيسة العرب أم خرج عليها .

٤ ــ حاول أيضاً أن يقيس فيما لم يقل بالقياس فيه ، فصاغ اسم الآلة من الثلاثي قياساً على وزن مفعل ومفعال ومفعلة ، واتخذ وزن فعالة للدلالة على الحرفة وما أشبهها من أي باب من أبواب الثلاثي ، ووافق على النسب بالألف والنون والياء إلا إن تجافى مع الذوق العربي ، كروحاني ونفساني ، وعلى دخول «أل» على حرف النفي كاللاهوائي واللاأمائي .

٥ ــ ولم يفته أن يرسم طريقاً لكتابة الأعلام الأجنبية مقرراً أنه ينبغي أن تكتب بوجه عام على حسب ما تنطق به في اللغة الأصلية ، اللهم إلا إن كان قد نطقها العرب قديماً على نحو خاص ، فيلتزم هذا النطق . ولست في حاجة أن أشير إلى أن هذه المبادئ تيسر كثيراً من أمر المصطلحات ووضعها .

* * *

شغل المجمع اللغوى إذن بالمصطلحات العلمية تسجيلا وضبطاً وإن كان قد أصابه منها بعض العنت ، فكانت أحياناً مثار التندر والفكاهة ، وليس حديث « الإرزيز » « والشاطر والمشطور وبينهما طازج » عنا ببعيد ، وقد حاولت عبثاً أن أعثر لها على أصل فى سجلات المجمع ، ويظهر أن واضعى بعض المصطلحات وألفاظ الحضارة يحاولون أن يعزوها إلى الخالدين رجاء أن يكسبوها شيئاً من التأييد والقداسة .

ولم يتردد المجمع فى أن يعيد النظر فى مصطلحات سبق له أن أقرها ، لأن العلم فى حركة مستمرة . وحرص على أن يقرن المصطلح بتعريف يوضح معناه ما أمكن ، ولا يتردد فى أن يرسل إلى الهيئات العلمية فى الداخل والخارج مايقره من مصطلحات ، ويرحب بما تبديه من ملاحظات ، وفى توافر هذه الهيئات ونشاطها ما يعينه على أداء رسالته .

وإذا كانت المجامع اللغوية فى بلاد أخرى لم تشعر بعبء المصطلحات العلمية شعور مجمعنا ، فما ذاك إلا لأنه قامت بجانبها مجامع علمية تستعرض المصطلحات وتمحصها بحيث لايبقى لرجل اللغة إزاءها إلا تحكيم ذوقه ثم تسجيلها .

قد يقال : وما قيمة مصطلحات يقرها المجمع ثم تبقى فى أضابيره أو تنشر فى مجلته ومحاضره ؟ ألا يصح أن نفكر فى طريقة للإلزام وأخذ الناس بها؟ ولا أخفى عليكم أن هذه المسألة أثيرت من قبل ، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بها لاداخل المجمع ولاخارجه ، وعندى أن من يؤمن بالحرية يفضلها على كل نجاح يستطيع أن يحرزه من طريق غير طريقها ، وهو على كل حال نجاح مؤقت وسريع الزوال .

ويكفى المجمع أن يفتح الباب للدارسين وأن يسجل ما يقرون ، فهم الذين يأخذون بيد العلم وهم الذين يستطيعون أن يعدلوا مصطلحاته أو يضيفوا إليها الجديد .

٣

نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام

يقوم العلم على دعائم ثلاث : موضوع ينحصر فيه ، ومنهج يدور البحث على أساسه ، وطائفة من القوانين والقواعد يصوب إليها ويرتكز عليها. فالبحوث غير المحدودة الموضوع ليست من العلم وإن مهدت له ، والتي لامنهج لها لاتمت إلى العلم الحقيقي بصلة . وقيمة كل علم فيما يشتمل عليه من قواعد ، وما ينتهى إليه من قوانين ونظريات ، وأسمى العلوم وأرسخها أدقها قوانين وأثبتها قواعد . ويمكن أن نلخص نشأة العلوم في جهود متلاحقة ومحاولات مستمرة ترمى إلى تحديد موضوعاتها ورسم مناهجها .

والمصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمى ، تساعد على التخصص وتعين على حسن الأداء . وإذا كان للجماهير لغتها ، فإن العلماء يحرصون على أن يتميزوا بألفاظ خاصة بهم ، خصوصاً وهذه الألفاظ ترمز لمدلولات دقيقة ومتشعبة ، وفي ذكرها ما يكفي لاستحضارها ، وإن لم يتفق عليها أضحى المجهود العلمى مجرد مناقشة لفظية قد لايكون وراءها طائل . فالمصطلحات العلمية تقرب المسافة بين الباحثين ، وتوفر المجهود ، وتصرفه كله إلى صميم البحث بدل أن يضيع في حواشيه ، وتزيل كثيراً من أسباب الخلاف .

وللمصطلح أيضاً قيمته من الناحية التعليمية فهو يجمع المتعلمين على دلالات واضحة ، وييسر لهم استساغة الحقائق العلمية في قوالبها اللفظية الثابتة . وكم يلاقي النشء وشباب المتعلمين من بلبلة واضطراب حينما يجدون أنفسهم أمام مصطلحات متناقضة أو متعارضة ، تتغير من كتاب

إلى كتاب أو من أستاذ إلى أستاذ !

فالمصطلحات ضرورة علمية ، ووسيلة هامة من وسائل التعليم ونقل المعلومات .

* * *

ولم تتكون المصطلحات الفلسفية الإسلامية دفعة وحدة ، بل مرت بأدوار عدة ونشأت نشأة الفلسفة نفسها ، فبدت أول الأمر محدودة ضعيفة مترددة ، فكانت تقتصر على ألفاظ قليلة يؤخذ بها حيناً ثم يعدل عنها حيناً آخر ، ولكنها مالبثت أن نمت وترعرعت ، وتعددت وتعقدت ، واختلفت مدلولاتها باختلاف الفلسفات والفلاسفة . وإذا شئنا أن نعرف مصادرها وكيفية تكوينها ، فجدير بنا أن نتجه إلى ناحيتين هامتين : المعتزلة من جانب وجماعة المترجمين من جانب آخر .

ويعد المعتزلة دون نزاع المؤسسين للمدرسة العقلية الأولى فى الإسلام . بدءوا بدءاً دينياً ، ولكنهم — وقد حكموا عقولهم وغلّبوا حرية الرأى على التسليم والتقليد — انتهوا إلى بحوث عقلية خالصة ، وأضحوا مفكرى الإسلام الأحرار . فلاءموا بين العقل والنقل ، وفلسفوا الدين قبل أن يعرف الفلاسفة . ووضعوا دعائم علم الكلام . أو فلسفة الإسلام الإلهية . على أنهم لم يقفوا عند الإلهيات ، بل كانت لهم نظريات فى الطبيعة والسيكلوجيا والأخلاق ، وقضوا نحو مائتين وخمسين سنة ، من أخريات القرن الأول الهجرى إلى منتصف القرن الرابع ، يدافعون عن الدين ويردون شبه الزنادقة والملحدين ، وينهجون نهجاً عالياً فى الجدل والمناظرة ، ويقدمون آيات بينات فى الإفحام أو الإقناع .

وليتهم استمروا جميعا يناضلون باسم العقل وفى سبيل الدين كما صنع معتزلة البصرة ، ولكن معتزلة بغداد أبوا إلاأن يخلطوا الدين بالسياسة ، فاقتربوا من المأمون كل القرب ، وشاءوا باسمه أن يفرضوا على الناس آراءهم وتعاليمهم ، وتحولت حرية الرأى فى أيديهم إلى تحكم واستبداد .

ومحنة خلق القرآن أصدق شاهد على ذلك . وقد لاقى بعض المسلمين – وعلى رأسهم أحمد بن حنبل – مالاقى بسببها من عنت وإرهاق .

بيد أن السياسة لاتكاد تعطى حتى تأخذ ولاتكاد تؤيد حتى تخذل ، وما إن جاء المتوكل حتى أخذ مجد المعتزلة فى الأفول ، وحل الجمود والمحافظة محل اليسر والطلاقة ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل حمل الناس على آرائهم فحاربوها وعلى آثارهم فأبادوها ، وبذا قضوا على معظم مؤلفات مدرسة تعد من أكثر مدارس الإسلام إنتاجاً .

وهذا فى أغلب الظن من أهم الأسباب لنقص مادتنا عن الاعتزال والمعتزلة ، وسر ما يلحظ من قلة المصادر المباشرة فى هذه الناحية . إلا أنا نعتقد أن نشر «كتاب المغنى» للقاضى عبد الجبار قد أضاف ثروة هامة إلى معلوماتنا السابقة عن المعتزلة ، وبخاصة ما جاء فى كتاب « الانتصار» للخياط وكتاب « مقالات » الإسلاميين » للأشعرى .

وفى ضوء هذه المصادر نستطيع أن نقف على كثير من المصطلحات التى لجأ إليها المعتزلة . وكان طبيعياً أن يصطلحوا ، فقد بحثوا وأثاروا مشكلات عدة كان لابد لهم أن يعبروا عنها ويختاروا للدلالة عليها الألفاظ الملائمة. ولا نشير هنا إلى اصطلاحاتهم الخاصة كالعدل والتوحيد، والصلاح والأصلح ، والحسن والقبيح العقليين ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين . وإنما نشير إلى تلك المصطلحات التى تبناها الفلاسفة من بعدهم ، وبقيت تردد فى المدارس المختلفة ، كالجزء الذى لايتجزأ أو الجوهر الفرد ، والجسم والروح ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون . ولهم تعبيرات تحمل صدى أرسطو وتردد آراءه ، كذلك الذى يعزى إلى أبى الهذيل العلاف فى قوله : « الله عالم وعلمه ذاته » .

فلدى المعتزلة إذن مصطلحات فلسفية كما أن لديهم فلسفة ، وإذا كان التفكير الفلسفى الإسلامى قد نبت على أيديهم ، فليس غريباً أن تنبت معه الألفاظ والعبارات التى تؤديه . وأوضح ما يلحظ على هذه

الألفاظ أنها عربية خالصة ، ذلك لأن واضعيها تمكنوا من اللغة تمكناً تاماً ، فاستطاعوا أن يتخيروا لكل معنى أحسن لفظ يلائمه . وبلاغة واصل وأبى الهذيل والنظام والجاحظ كانت مضرب المثل ومبعث الإعجاب . وكم نود أن يوضع بحث مستقل عن المصطلح المعتزلى فى نشأته وتطوره .

* * *

وأما المترجمون فقد بدءوا أيضاً مهمتهم قبل أن يظهر الفلاسفة ، واستمروا يعالجونها بعد ظهورهم وعلى مقربة منهم . وإنا لندع جانباً ما حُوول من ترجمات فى أخريات القرن الأول الهجرى على يدى خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ، وبعبارة أخرى ما ترجم فى عهد بنى أمية ، فقد كان محدوداً للغاية . والعباسيون هم الذين دفعوا الترجمة الإسلامية دفعة قوية ، وشاركهم فى ذلك العظماء والوجهاء ، ومضت تسير فى طريقها نحو قرنين أو يزيد . فاختاروا المترجمين الأكفاء وبذلوا جهوداً كبيرة فى البحث عن الكتب القيمة ، وأنشئوا بيت الحكمة ليقيم فيه المترجمون وتحفظ آثارهم .

وقد استوعبت الترجمة الإسلامية ألواناً شتى من الثقافة والمعرفة ، فترجمت كتب علمية وفلسفية ، وأخرى أدبية ودينية . وأفاد المسلمون من الثقافات الكبرى التى سبقتهم — شرقية كانت أو غربية — ونقلوا عن اللغات الآتية : العبرية والسريانية ، الفارسية والهندية ، اللاتينية واليونانية . ولم يكتفوا بأصل ولا ترجمة واحدة للمؤلف الواحد ، بل حاولوا أن يجمعوا له عدة أصول وأن يترجموه غير مرة كى ينقلوا إلى العربية فى أدق صورة ممكنة أفكار الأمم الأخرى .

ولسنا فى حاجة أن نعرض لما نعم به هؤلاء المترجمون من حظوة لدى الخلفاء والأمراء ، فقد بعثوا فى طلبهم إلى جهات عدة ، وأغدقت عليهم النعم من كل جانب . ويكفى أن نشير إلى أن الرشيد أعلن فى حاشيته يوماً ، أن من أراد منه شيئاً فليسأل جبريل بن بختيشوع الذى

لا يرد له طلباً . ويحكى أن حنين بن إسحق كان يبيع مترجماته للمأمون بما يعادل وزنها ذهباً . ولئن كان فى هذه الرواية ضرب من المبالغة ، إنها تدل قطعاً على مدى عناية الخلفاء بالمترجمات والمترجمين .

لم يقف المسلمون فى البحث عن المترجمين عند جنس ولا عقيدة معينة . فكان منهم الفرس والهنود ، والصابئة واليهود والمسيحيون . غير أن هناك جهات ثلاثاً لها شأنها ، قد غذت المسلمين بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلمية والفلسفية وأنفعها ، ونعنى بها الإسكندرية وجنديسابور وحران . ففى الإسكندرية بدئت أول ترجمة فى الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد ، والكيمياء الإسلامية مستمدة فى أغلبها من الإسكندرية ، والطب الإسلامى فى أساسه جالينوسى أو بعبارة أخرى إسكندرى ، ذلك لأن الإسكندرية قد احتفظت بمعظم مخلفات جالينوس . ومدرسة الإسكندرية أو الأفلاطونية الحديثة ذات أثر واضح فى مختلف المدارس العقلية الإسلامية ، وباختصار نعتبر الإسكندرية همزة الوصل بين أثينا وبغداد .

وأما جنديسابور فكانت مقر تلك المدرسة الطبية المشهورة التى أسسها كسرى الأول ، ومنها استمد المسلمون الكثير من أطبائهم ومترجميهم ، وخاصة آل بختيشوع الذين كان لهم شأن يذكر فى تاريخ الترجمة والطب العربى .

وأما حران فكانت ملجأ الوثنية اليونانية بعد أن أغلق جوستينيان المدارس الفلسفية فى الغرب . وقد أمدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين ، على رأسهم ثابت بن قرة ، والبتانى الفلكى والرياضى ، وابن وحشية صاحب الفلاحة النبطية .

فعن هذه المدن الثلاث صدر معظم المترجمين ، وبخاصة جماعة النساطرة واليعاقبة الذين أبقوا على الدراسات الفلسفية فى الشرق . ودون أن نسترسل فى الحديث عن هؤلاء المترجمين وما أكثرهم ! نخص

بالذكر مدرسة لها خطرها ، وهى مدرسة حنين بن إسحق التى قضت نحو قرن فى جمع المؤلفات القيمة المكتوبة باليونانية والسريانية ، وترجمتها ترجمة دقيقة . فقد ضمت حنيناً ، وابنه إسحق ، وابن أخته حبيشاً ، والحجاج بن مطر ، ويحيى بن البطريق ، وقسطا بن لوقا ، وفى هذه المدرسة كانت تترجم الكتب القديمة ، وتعلم اليونانية والسريانية لتلاميذ أتموا ما بدأ أساتذتهم ، فكان يترجم من اليونانية إلى العربية رأساً ، أو منها إلى السريانية ، ومن هذه إلى العربية .

وكان حنين وابنه إسحق يعرفان الفارسية واليونانية والسريانية والعربية ، وقد رحل حنين إلى القسطنطينية للبحث عن الكتب القديمة ، وقضى هناك عامين للتمكن من اللغة اليونانية ، ويصرح بأنه أعاد فى شيخوخته ترجمة ما سبق له أن ترجمه فى شبابه ، أو ما ترجمه سابقوه ومعاصروه ترجمة ناقصة ، وأنه كان يحرص الحرص كله على أن يقيم ترجمته على أصول يونانية . وإذا كان قد عنى بالترجمات الطبية ومؤلفات جالينوس خاصة ، فإن ابنه إسحق قد وقف معظم جهوده على الترجمات الفلسفية وكتب أرسطو وشروحها بوجه خاص ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها فى العربية وحرر ما سبق ترجمته منها . ولا أدل على هذا من أن الأب ألف الأسلوب الجالينوسى ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبى ما بمجرد قراءته أهو من وضع جالينوس أم لا . أما الابن فقد أضحى حجة فى الترجمات الفلسفية ، ويشهد لذلك ما ورد فى مخطوط ترجمة «الأورجانون» الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذى أخذنا عنه صورتين فتوغرافيتين محفوظتين بمكتبة جامعة القاهرة ، إذ يشار فيه إلى أن لإسحق ترجمة أخرى سابقة لمنطق أرسطو تسمى « الدستور » ، وهى بهذا تعتبر حجة المترجمين . ويمكننا أن نقرر بوجه عام أن إسحق وأباه هما أكبر مترجمى الإسلام .

ومادمنا بصدد الترجمات الفلسفية فإنه ينبغى أن نشير إلى شخصيتين

أخريين لهما أيضاً شأنهما وهما أبو بشر متى ويحيى بن عدى اللذان عاصرا الفارابى ، إبلى لقد تتلمذ لأولهما وكان أستاذاً للثانى . وقد أسهم هذان العالمان إسهاماً واضحاً فى ترجمة الكتب الفلسفية ، وإتمام ما قام به إسحق بن حنين ، وكانت لهما قدم راسخة فى ترجمة الكتب المنطقية ، وكثيراً ما أشير إليهما فى مخطوط « الأورجانون » الذى تحدثنا عنه من قبل .

ولقد عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط ، وأنصاف السقراطيين ، والسوفسطائيين والشكاك ، والرواقيين والأبيقوريين ، إلا أنهم لم يترجموا لهؤلاء جميعاً شيئاً يذكر ، ولم يستوقفهم إلا مؤلفات أفلاطون وأرسطو وما عليها من شروح ، فترجم من محاورات أفلاطون بيقين الجمهورية ، والنواميس ، وطيماوس ، والسوفيسط ، والسياسى ، وفيدون ، ودفاع سقراط . وعربت كتب أرسطو كلها تقريباً ، ولكى يفهم أرسطو جيداً كان لابد من ترجمة كتب شراحه ، فبدئ بثيوفرسطس ، وعنى عناية خاصة بالإسكندر الأفروديسى أو فاضل المتأخرين كما كان يسميه ابن سينا .

ولم يقف المسلمون عند مؤلفات جالينوس الطبية ، بل ضموا إليها كتبه الفلسفية لما لها من صلة بأفلاطون وأرسطو معاً . وكان لشراح الإسكندرية أثر فى تفهم النظريات الأرسطية ، بل ربما كانوا أقرب إلى المسلمين وأكثر قبولا من الشراح القدامى وخاصة فور فوريوس ، وثامسطيوس وسمبليقوس ، ويحيى النحوى .

وإذا ما شئنا أن نحكم على هذا المجهود العظيم ، وجدنا أن هؤلاء المترجمين قد ضموا إلى الدقة والنزاهة المقدرة العلمية واللغوية . فكانوا أمناء فى نقلهم دقيقين فى عملهم ، يتحرون المصادر ويتثبتون منها كل التثبت . وإذا كانوا قد أخطئوا فى نسبة مؤلف إلى غير واضعه ، فتلك أحوال نادرة ، على أنهم ربما انساقوا إليها تحت تأثير من سبقوهم ، كما حدث فى كتاب « الربوبية » الذى أثبت البحث أخيراً أنه إنما عزى إلى أرسطو

خطأ قبل الإسلام ، وعلى أيدى السريان الأول .

وأما كفايتهم العلمية فيشهد لها أنهم لم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما كانوا يلمون بالنواحى التى يترجمون فيها . وقديماً سماهم ابن النديم العلماء المترجمين ، وعد الشهرستانى كثيرين منهم بين الفلاسفة . وحديثاً أطلق عليهم البارون كارادى ڤو لقب الموسوعيين وأصحاب دوائر المعارف Encyclopédistes. ويظهر أنهم لم يكتفوا بهذه الثقافة الواسعة المتشعبة ، بل شاءوا أن يضيفوا إليها تخصصاً فى بعض المواد وبعض المترجمات . فحنين بن إسحق طبيب تفرغ للطب وتخصص تقريباً فى المترجمات الطبية ، وبوجه أخص فى مؤلفات جالينوس ، وابنه إسحق فيلسوف عنى بالمترجمات الفلسفية وكان له فى ترجمة كتب أرسطو منزلة ممتازة ، وثابت بن قرة رياضى اتجه خاصة نحو المترجمات الرياضية ، وترجمته « لعناصر » إقليدس معروفة مشهورة .

وقد ترك هؤلاء المترجمون من المؤلفات ما يبين نواحى ثقافتهم ، ويبرز فى وضوح مستواهم العلمى . وكان لهم شغف خاص بما سموه « المداخل » ، فمدخل فى الطب ، وآخر فى الرياضة ، وثالث فى الموسيقى ، وهكذا . وكأنهم بذلك يجارون فورفوريوس فى مدخله الذى شاء أن يقدم به « لمقولات » أرسطو . ومهما يكن من أمر هذه المداخل ، فإنها ، مضمومة إلى مؤلفاتهم الأخرى ، تعد إحدى نقط البدء الهامة فى الحركة العلمية والفلسفية فى الإسلام .

وأما مقدرتهم اللغوية فتبدو فيما وصلنا من مترجماتهم ومؤلفاتهم . حقاً إنهم لم يتمكنوا من اللغة تمكن المعتزلة ، ولكن فى أسلوبهم وضوح وبساطة تعين على فهم المعنى المراد . وعبارة مخطوط « الأورجانون » الذى أشرنا إليه من قبل سهلة مستساغة وإن لم تخل من ركاكة أحياناً . والمهم أنها ترجمة صادقة لما كتبه أرسطو ، فقد قورنت بالأصل اليونانى وثبتت سلامتها ودقتها . ولقد قام برجشتراسر بدراسات مقارنة من هذا النوع

فيما ترجمه حنين بن إسحق ، وانتهى إلى أن هذا المترجم كان حريصاً كل الحرص على أن يؤدى الأصل الذى يترجمه أصدق أداء فى اللغة العربية ، ولو أساء إلى جمال أسلوبه بعض الإساءة ، فالدقة مستوفاة وتشعر القارئ بأن المترجم متمكن من ألفاظه وتعبيراته كل التمكن . وما قيل عن حنين يمكن أن يقال عن مترجمين آخرين .

على أن هؤلاء المترجمين — كما أسلفنا — ما كانوا يعملون فى انفراد ، بل كانوا متضافرين متعاونين ، ويمكن أن يقال إنهم كانوا متنافسين متسابقين يرمى كل واحد منهم إلى أن يسبق أقرانه ويقدم أصدق ترجمة ممكنة لما يوكل إليه ، فإن لم يرفق أعيدت ترجمته أو صححت ونقحت . وإحصائية واحدة كافية فى توضيح ذلك . فثلاثة وعشرون شخصاً اشتركوا فى ترجمة كتب أرسطو ، وكان نصفهم أو يزيد يجيد اليونانية والعربية ، وقد ترجموا له عشرين مؤلفاً ، وقدموا لها ٨٨ نصاً ، أى بمعدل أربعة نصوص أو يزيد للمؤلف الواحد ، وفى هذا ما يسمح بمقارنة وموازنة كافية .

* * *

وقد أسهم هؤلاء المترجمون إسهاماً كبيراً فى تكوين المصطلحات الفلسفية إلى حد أن قسطاً كبيراً مما تخيروه من الألفاظ لايزال مستعملا إلى اليوم . ومخطوط « الأورجانون » وهو من أقدم المترجمات الفلسفية التى وصلت إلينا يشتمل على مصطلحات منطقية لاتكاد تختلف عن المصطلحات التى استعملها الفلاسفة والمناطقة اللاحقون . ولقد حرص المترجمون على أن يستمدوا مصطلحاتهم من العربية أولا ، فاستعاروا ألفاظاً ذات دلالات لغوية معروفة وشاءوا لها أن تؤدى معانى جديدة على طريق المجاز العرفى . وقد يلجئون إلى مصطلحات العلوم الأسبق تكويناً فيستعملون بعضها للتعبير عن بعض المعانى الفلسفية ، فلفظة « الحكم » و « القضية » مثلا عرفتا لدى الفقهاء قبل أن تعرفا لدى المناطقة .

واشتراك مصطلحات بين علوم مختلفة أمر ملحوظ فى اللغة العربية ،

وقد أشار إليه الخوارزمى قديماً فى « مفاتيح العلوم » فلاحظ أن هذه الاصطلاحات والمواضعات تؤدى معانى مختلفة على حسب العلوم التى تستعمل فيها ، فالرجعة لغة المرة من الرجوع ، وعند الفقهاء الرجوع فى الطلاق ، وعند المتكلمين مايزعمه الشيعة من رجوع الإمام بعد غيبته أو موته ، ولهذا اللفظ دلالات أخرى عند الكتاب والمنجمين . وليس بلازم أن تكون هناك صلة وثيقة بين المدلول اللغوى والمدلول الاصطلاحى ، وإن تلمست بعض الملابسات أحياناً .

وإذا لم يجد المترجمون فى العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدى المعانى الجديدة ، وكان لهم فى المصادر الصناعية فسحة كبيرة كالهوية والماهية . وقد يضمون لا النافية إلى كلمة ما ليكونوا منهما لفظاً جديداً كاللاأدرية واللانهائية . وهذا تركيب غير مألوف فى اللغة العربية .

فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجئوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها ، وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل ، فعن اليونانية أخذ مثلا هيولى ، أسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية استعيرت كلمة « ميمر » بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو «شمعا كيانا» ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو . وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استعمل منها كثير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارزمى : « إن أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسام وألقاب اخترعت ، أو ألفاظ من كلام العجم عربت » .

وهذه الألفاظ الدخيلة تحمل ولاشك تارة الأصل الذى صدرت عنه ، ولذلك استعين بها أحياناً على كشف بعض الحقائق وتحقيق بعض المسائل . ومن ذلك ما حاوله بومشترك من التدليل على أن كتاب «الربوبية» قد نسب إلى أرسطو خطأ فى السريانية قبل أن تعرف هذه النسبة فى العربية .

ولم يكن المترجمون موفقين دائماً فيا تخيروا من ألفاظ ، لهذا عدل عن بعضها إلى ألفاظ أخرى ، والمصطلحات العلمية فى حركة مستمرة تبعاً لتحرك العلوم أنفسها. ومن أمثلة ذلك لفظة « أوسيا Ousia » اليونانية ، فقد ترجمت أولا بكلمة «عين » العربية ، واستمرت هذه الكلمة الأخيرة مستعملة إلى عهد الأشعرى ، إلا أنها من الألفاظ المشتركة التى لاتدل نصاً على معنى معين ، لذلك عدل عنها إلى كلمة « جوهر » الفارسية التى قدر لها أن تقضى على الأولى وتحل محلها نهائياً .

* * *

تلك فى اختصار بعض جهود المعتزلة والمترجمين فى تكوين المصطلحات الفلسفية ، وإذا كنا نرجع إلى هذا الماضى لننقب عنه فما ذاك إلا لنعرفه على وجهه ونستعين به على تجاربنا الحاضرة . وفى نشأة المصطلحات الفلسفية الإسلامية دروس ما أجدرنا أن نفيد منها ، وفى مقدمتها أمور ثلاثة :

أولها — أن للترجمة شأناً أى شأن فى وضع المصطلحات الجديدة واختيارها. فكلما كان المترجم متمكنا من اللغة التى ينقل عنها واللغة التى ينقل إليها كان أقدر على تخير اللفظ الملائم ، وكلما خضعت الترجمة لإشراف ومراجعة من أطراف عدة كانت أعون على نقل الأفكار الأجنبية نقلا محكماً . وكذلك كان الشأن فى الترجمة الإسلامية ، فقد كانت وليدة تضافر وتعاون ونتيجة مجهود مشترك لم يخل من تنافس وتسابق ونقد وملاحظة . وإذا كانت ترجماتنا الحديثة فى أغلبها ثمرة أعمال فردية فإن فى النشر ما يضعها موضع النقد والملاحظة ، وفى استعمال مصطلحاتها فى التأليف والدراسة مايصفيها وينقيها . لهذا ينبغى أن نلاحظ هنا جهود المؤلفين والمترجمين المعاصرين قبل أن نقر مصطلحاً من المصطلحات الجديدة . وإذا كانت مهمة المجمع فى أساسها التسجيل ، فواجبنا وواجب الخبراء معنا أن يتتبعوا جهود المعاصرين أولا إنْ فى مصر أو فى البلاد

العربية ، فني هذه الجهود ما يذلل بعض الصعاب التي تعرض لنا . ورب مصطلح مشهور ، يؤدى المعنى المراد منه بوجه ما ، خير من مصطلح جديد يخلق خلقاً وإن كان أدق في الدلالة على معناه .

ثانيها — وإذا كنا ندعو إلى تسجيل المصطلحات المعاصرة ، فنحن فى حاجة أمس إلى حصر المصطلحات القديمة . والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التي لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها . وهذا تراث لايصح أن نهمله أو نضيعه ، وقد نجد فيه ما يغنينا عن نحت أو اشتقاق أو تعريب . وما أجدرنا أن نحيى هذه المصطلحات القديمة ونخرجها إلى سوق التداول العلمى الحاضر !

فعند دراسة عالم أو فيلسوف إسلامى نعنى بمصطلحاته بقدر مانعنى بآرائه ونظرياته ، وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز مافيه من ألفاظ فنية ومصطلحات . إنا إن فعلنا أحيينا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة ، ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من مصطلحات .

وأخيراً — رسم لنا مترجمو الإسلام سنة صالحة فى الأخذ بها توفير للجهد وقضاء على بعض أسباب التعارض والاضطراب. وذلك أنهم اتقوا ما استطاعوا الإسراف فى وضع المصطلحات الجديدة ، فكلما وجدوا اللغة العادية قادرة على أداء معنى من المعانى اكتفوا بها ، ولم يبحثوا عن مصطلح خاص. وبذا وقفت اصطلاحاتهم عند النظريات الكبرى والقضايا الثابتة ، فقدر لها أن تحيا وأن يؤخذ بها إلى اليوم . أما أن يوضع لكل فكرة لفظ جديد ، ولكل معنى مصطلح خاص ، فنى هذا ما فيه من الإثقال والبلبلة ، خصوصاً إذا كان من اليسير أداء هذا المعنى باللغة العادية. وهذه ملاحظة لها شأنها فيما نعانيه من آراء ونظريات حديثة ، إن فى الكيمياء والطبيعة أو فى علم النفس مثلا . فمن بين هذه النظريات مالم يستقر بعد ، ومن هذه الآراء مالايزال موضع خلاف بين الباحثين . وقد لايلتزم أصحاب هذه

الآراء التعبير عنها بألفاظ ثابتة بل يغيرونها بتغير المواطن والكتب . فمن العبث إذن أن نتعجل نحن ، فنقف على أمثال هذه الآراء ألفاظاً خاصة مع أنه قد يقضى عليها بعد حين . وما أشبه هذا بالبحث عن الكمالى فى الوقت الذى لانجد فيه السبيل إلى الضرورى !

ومن الإسراف أن نأخذ عالماً أو فيلسوفاً ما ، فنحاول أن نغلب مصطلحاته على الآخرين مع أنه لايمثل إلا حلقة واحدة من حلقات التفكير الكثيرة فى مادة ما ، وقد لايكون رأيه المعتد به اليوم . وفى هذا مافيه من التعصب وضيق الأفق ، فلنضع مصطلحاتنا بقدر ، ولنقف عند الآراء الثابتة والنظريات المستقرة خشية أن ننغمس فى ترف لاجدوى لنا منه الآن .

٤

المصطلحات العلمية المعاصرة [١]

١ — المصطلح جزء من المنهج العلمي، ولا يستقيم منهج إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدي الحقائق العلمية أداء صادقاً، وقديماً قالوا: «العلم لغة أحكم وضعها». وبالمصطلح يستحضر المعنى بأيسر وسيلة، ويقرب إلى الأذهان. وبه يستعان على التعلم، ويتفاهم العلماء. وقد لاحظ ليبنتز بحق أن اختلاف العلماء يرجع في قدر كبير منه إلى خلاف على مدلول الألفاظ.

والمصطلح لغة خاصة، تسير بسير العلم، وتقف لوقوفه. ولم تنشط هذه اللغة قط نشاطها اليوم، ذلك لأن العلوم في حركة دائبة. وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها، وهو وثيق الصلة بتاريخ الأدب واللغة. ويوم أن ازدهر العلم اليوناني، ازدهرت معه اللغة والأدب، ورأينا في أثينا لغة علمية إلى جانب اللغة الأدبية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وفي بغداد اقترنت النهضة الأدبية بنهضة علمية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وفي باريس وصل الأدب الفرنسي إلى قمته في القرنين السادس عشر والسابع عشر يوم أن اتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية.

---

(١) مترجم مع اضافات عن بحث بالانجليزية ألقي في مؤتمر المستشرقين بنيودلهي عام ١٩٦٤.

وللعالم كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية المستمدة من الفصحى أو من العامية ، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة . وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد ، ويلجأ إلى الأرقام أو الرموز كما صنع فى الرياضة والكيمياء . وكثيراً ماشكا اللغويون من تهجم العلماء على اللغة ، وعابوا عليهم الاشتقاق على غير قاعدة ، والنحت بلا داع ، والتعريب دون حاجة . ومتن اللغة عزيز على أهله دائماً ، وقد يتسامحون فى خطأ نحوى أحياناً ، وقل أن يغفروا لفظاً دخيلا . وربما كانت آفة اللغة من النقلة والمترجمين أكثر مما هى من العلماء والمخترعين .

٢ – وقد نشأ العلم فى الإسلام منذ عهد مبكر ، فكان الصحابة يتعلمون الكتاب والسنة ، وجدوا فى جمعهما وتدوينهما ، ودرسوهما من نواح مختلفة ، وحولهما قامت علوم الدين واللغة . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى تحدد موضوعها ، واتضح منهجها ، وتكونت مصطلحاتها ؛ وأضحى لكل علم مصطلحاته الخاصة ، كمصطلحات الكلام والفقه والنحو .

وإلى جانب العلوم النقلية قامت علوم عقلية ، ازدهرت بدورها فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . فتدارس المسلمون الطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة ، وأقاموا المعامل والمراصد ، وانتهوا إلى كشوف لم يسبقوا إليها . وكانت لهم لغة علمية متجددة ومتنوعة ، وإذا لم يؤد مصطلح معناه أداء كاملا عدل عنه إلى ما هو أدق وأضبط ، ومما يؤسف له أن هذه اللغة كثيراً ما غابت عن بعض الباحثين المعاصرين .

لم يتكون المصطلح العربى القديم دفعة واحدة ، بل قضى زمناً ينمو ويتطور . ولم يبال واضعوه بأن يكون المصطلح عربياً أصيلا أو معرباً دخيلا . وربما آثروا اللفظ الأجنبى إذا كان أدخل فى المعنى وأكمل

فى الأداء . فترجمت مثلا كلمة Ousia اليونانية فى البداية بلفظ «عين» بالعربية ، ثم عدل عن هذه لشيوعها إلى كلمة « جوهر » الفارسية الأصل. وكثيراً ما يحمل التعريب شارة المصدر الذى نقل عنه ، فتلحظ الألفاظ الفارسية فى مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسريانية فى العلوم الفلسفية والطبيعية . وقد ثبت المصطلح العلمى واستقر بحيث تنوسى معناه الأول ، ولم يفهم إلا فى مدلوله الجديد . وسجلت المصطلحات فى معجمات خاصة ، وتوفر للعرب منها عدد غير قليل . ويكفى أن نشير إلى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ٩٧٧م ، و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى (١٧٤٥م) .

وأبى المصطلح العربى إلا أن يغزو ثقافات أخرى ، فنقلت منه ألفاظ إلى اللاتينية حين أخذ المدرسيون ينقلون عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وتمد الفارسية والتركية والأردية بسيل منه ، ولاتزال هذه اللغات تردد مصطلحات عربية خالصة . وربما استطاعت أن تفيد من المصطلح العربى الحديث ، كما أفادت من المصطلح القديم .

٣ — ويوم أن ركد البحث العلمى ركدت لغته معه ، فأهملت المراصد فى العالم العربى ، وجمدت المصطلحات . فلا تجديد فيها ولا ابتكار ، ولا حياة ولا قوة . وردد الخلف ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأضحت اللغة العلمية ركيكة معقدة .

ثم جاءت النهضة العربية الحديثة على فترة من البحث والدراسة ، ويظهر أن رجالها الأول فى القرن التاسع عشر لم يكونوا على علم بماضيهم ، ولا على صلة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يستفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل وخطأ . وقد وضعوا فى أخريات القرن الماضى بعض المعجمات العلمية التى تحمل طابعاً عامياً وأجنبياً واضحاً .

وكان على أبناء القرن العشرين أن يتداركوا هذا النقص ، وينهضوا

باللغة العلمية نهوضهم باللغة الأدبية . وكان عليهم خاصة أن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم . وأضحت المصطلحات العلمية فى نمو مطرد وتجديد لاينقطع ، ولها فى اللغات الأوربية معاجم تزاد وتستكمل عاماً بعد عام . وفكر فى إنشاء المجامع اللغوية ، وأريد بها أن تسهم بنصيب فى إحياء المصطلح العربى ونهوضه .

٤ ــ لمجمع اللغة العربية ، الذى أنشئ بالقاهرة فى أول العقد الرابع من هذا القرن ، شأن فى نهضة المصطلحات العربية المعاصرة ، ومن أهم أغراضه « أن يجعل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون » . وقد شغل بذلك منذ قيامه ، محاولا إحياء المصطلح القديم إن كان ثمة سبيل إلى إحيائه ، أو البحث عن مصطلح جديد يكون أنسب للمعنى وأدل عليه . وأعد للمصطلحات أجهزة خاصة من خبراء ومحررين ولجان متعددة ، وحرص على أن يتأنى فى الدرس والمراجعة . فيعرض للمصطلح فى لجانه ، ثم فى مجلسه ومؤتمره ، ولايتردد فى أن يعيد النظر فيه إن دعا الأمر .

ويؤمن بأن مهمته الأولى أن يسجل ما اصطلح عليه المختصون ما دام لايتعارض مع أصل من أصول اللغة ، ويدعو إلى جمع المصطلحات العربية القديمة ، وإن كان يرى أنها أصبحت لاتفى بالحاجة . ولايتردد فى أن يعرّب كما عرب قديماً ، فأخذ عن اليونانية والهندية ، والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية ، وكما عرب حديثاً عن الإسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية . والعامية فى قسط كبير منها فصيحة الأصل ، ولا ضير أن نستعين بها فى صوغ المصطلح الجديد .

وتوسع فى الاشتقاق والقياس ، فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، فيقال مكهرب وممغنط من الكهرباء والمغنطيس ، كما قيل قديماً مفضض ومذهب . وقال بقياسية المصدر الصناعى . وكان مقصوراً من قبل على السماع ، فيقال المثالية والكانطية ، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية .

وحاول أن يقيس أوزاناً فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، كالحرفة والداء والصوت . وأجاز النسب إلى جمع التكسير ، وكان مقرراً ألا ينسب إلا إلى مفرد ، ودخول «أل» على «لا» النافية كاللاهوائى واللامائى .

ورسم للتعريب ضوابط تنظمه ، فيعرب خاصة مايدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين وإلكترون ، وما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع فى النبات والحيوان أو سلسلة مواد متشابهة فى الكيمياء ، وما ينسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان . وينبغى ترجمة ما وراء ذلك من الكلمات التى أخذت من اللغة العادية لأداء معان علمية . ويحتفظ فى التعريب بالأصل ما أمكن ، ويؤخذ بأقرب نطق إلى العربية ، ويشكل المصلح المعرب ضبطاً لنطقه .

ويرى أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ واضحاً دقيقاً ، صالحاً للاشتقاق والنسبة إليه ، مع تجنب الغرابة والابتذال . ويختص كل علم بمصطلحاته ، وقد يستعمل اللفظ الواحد فى معان مختلفة باختلاف العلوم ، على أن توحد المصطلحات المشتركة التى لا تتغير دلالتها من علم إلى علم .

واستطاع بهذا أن يقر آلاف المصطلحات فى العلوم المختلفة ، وأخرج منها كراسات ومجموعات متلاحقة ، ويحرص فى السنوات الأخيرة على أن يخرج كل عام مجموعة تشتمل على ما يقره مؤتمره السنوى ، وتبلغ فى المتوسط نحو ألفى مصطلح ، وفى هذه المجموعات عون للدارسين والباحثين ، وفيها نواة صالحة للمعجمات العلمية .

٥ — وتحظى المصطلحات العلمية اليوم بعناية خاصة من المؤلفين والمترجمين ، وفى ربع القرن الأخير نشاط ملحوظ فى التأليف والترجمة العلمية . دعت إليه حاجة التعليم العام والجامعى ، والرغبة الأكيدة فى نشر الثقافة . وفى العربية اليوم مؤلفات علمية حديثة متعددة ومتنوعة ، وربما ألحق بالمؤلف ثبت بما ورد فيه من مصطلحات ومقابلها الأجنبى .

وبدئت محاولات فى وضع معجمات مصطلحات عربية فى بعض العلوم .

ولانزاع فى أن الدراسة الجامعية ، وهى تنتشر وتتوطد فى العالم العربى عاماً بعد عام ، ستدفع هذا التأليف قدماً وتوفر كتباً علمية للخاصة ، وأخرى للثقافة العامة . وللدراسة الابتدائية والثانوية كتبها العلمية التى يرجى أن توحد فى البلاد العربية . وهناك مؤسسات للنشر والتأليف والترجمة ، وهى تغذى القارئ العربى بغذاء لاينقطع من العلم والفن .

٦ — وبرغم هذا ، لايزال المصطلح العلمى المعاصر قلقاً ودون الحاجة. فيه بلبلة واضطراب فى الحديث والكتابة . فيختلف من بلد إلى بلد ، بل من مؤلف إلى آخر . يصطلح العلماء أحياناً، كل كما يرى ، ويترجم المترجمون على أنحاء مختلفة . وتباينت النهضة العلمية ، بدءاً ومؤثرات ، من بلد إلى بلد ، فبينما يلحظ مثلا أن العراق والسودان أكثر تأثراً بالثقافة الإنجليزية ، إذا بشمال إفريقية تغلب عليه الثقافة الفرنسية ، وربما اجتمع فى بلد واحد أكثر من تيار ثقافى ، كما هو الشأن فى مصر .

وتبذل جهود شتى لتوحيد المصطلح العلمى فى البلاد العربية ، عن طريق المجامع اللغوية تارة والمؤتمرات العلمية تارة أخرى . وتسهم الجامعة العربية فى ذلك إسهاما فعالا ، فتعقد لجاناً للمصطلحات تمثل فيها البلاد المختلفة ، وتنظم المؤتمرات ، وتشجع الاتحادات العلمية . وفى وسعها أن تقود حركة ثقافية عربية شاملة ، وربما كانت أعمق وأنجع مما يعالجه اليونسكو فى النطاق الدولى . والعالم العربى اليوم فى اتصاله الفكرى والثقافى لابد ملتق عند مصطلحات علمية وفنية واحدة ، وقد خطا بالفعل خطوات فسيحة فى سبيل توحيد المصطلح العلمى . وبرهنت العربية على أنها ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من أية لغة أخرى ، وكم من مصطلح عربى ألصق بمعناه وأدق فى دلالته من مصطلح أجنبى .

الباب الثالث

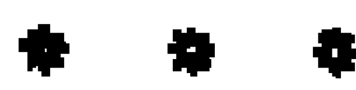
فى المعجمات

١
فن المعجمات

نشطت الدراسات اللغوية نشاطاً ملحوظاً منذ قرن أويزيد ، تنوعت وتشعبت ، ظهرت فيها تيارات مختلفة واتجاهات متعددة . فدرست اللغة على أنها إحدى الظواهر الاجتماعية ، تنبعث من المجتمع ، تسير بسيره وتتوقف لوقوفه ، تتأثر ببيئته الجغرافية ونظمه السياسية ، تتلون بلون علمه وفنه ، تفصح عن آرائه ومعتقداته ، تعبر فى اختصار عن مظاهر حضارته ومدنيته ، ومن هنا نشأ « علم الاجتماع اللغوى » . ودرست أيضاً على أنها ظاهرة نفسية ، تؤدى بالرمز والإشارة تارة ، أو بالصوت والحرف تارة أخرى . وهى فى هذا كله إنما تعبر عن خلجات نفسية ومعان ذهنية ، فتبرز ما يجول فى الخاطر من شعور ووجدان ، وخيال وتصور ، ونزوع وإرادة ، وحكم واستدلال ، ونشأ عن ذلك ما يسمى « علم النفس اللغوى » .

وزادت الدراسات اللغوية الخالصة نماء وخصباً ، فدرست اللهجات قديمها وحديثها ، جمعت مفرداتها وتراكيبها ، كشف عن نحوها وصرفها ، قورن بينها ، ربط بعضها ببعض ، وضحت الصلة بينها وبين اللغة الأم ، استعين بها على فهم الفصحى وتغذيتها ، وأصبح « علم اللهجات » من أهم فروع علم اللغة العام . عنى كذلك بالأصوات والحروف ومخارجها ، فبين ما تعتمد عليه من أعضاء النطق ، وما تختلف فيه من همس ونبر ، وقصر ومد ، ولين وسكون ، قيست بأقيسة دقيقة واستخدمت فيها أجهزة خاصة ، أسست من أجلها معاهد ومعامل ، وكل ذلك دعامة ما يسمى « علم الأصوات » . بحثت أيضاً معانى الكلمات فى صورها

المختلفة ، وأريد تلمس علاقة بين الحروف ومدلولها ، وظن أن الكلمة تدل بلفظها على شيء من معناها ، وجملة هذا ما يسمى « السيمية» أو « علم الدلالة » . ويدخل فيه البحث فى مدلولات الكلمة الواحدة ، واختلافها باختلاف الاستعمال ، وتتبعها فى تصريفها واشتقاقها ، وتطورها بتطور العصور ، وهذا هو « فن المعجمات » الذى نود أن نقف عنده قليلا .



ليس هذا الفن ابن اليوم ، بل يرجع إلى التاريخ القديم ، عرف منذ عهد بعيد ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر الزمن ، وكان للقرن الماضى شأن كبير فى نهوضه وتقدمه ، وأصبحنا أمام فن حديث للمعجمات ، اتضحت أصوله ومبادئه ، وتوفرت أدواته ووسائله ، وتنوعت سبله ومناهجه . ولا يعد من المعاجم فى شيء كل مؤلف لا يأخذ بهذه المبادئ أو يخرج عليها .

وقد وضعت فى التاريخ القديم معاجم فى اليونانية واللاتينية ، ومما يؤسف له أن فقد معظمها ، ولم نظفر منها إلا بشذرات متفرقة . ووضعت فى القرون الوسطى أيضاً معاجم يونانية ولاتينية ، وصلنا منها قدر لا بأس به . ولكنا نستطيع أن نقرر أن ليس ثمة لغة قديمة — ولا حديثة — توافر لها ما توافر للعربية من معجمات . بدئ فى وضعها منذ أخريات القرن الثامن الميلادى ،وتوالت العناية بها إلى اليوم. ولا يكاد يخلو قرن من معجم عربى جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم . وخطا العرب فى فن المعجمات خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ورجال القرون الوسطى ، وأثروا فى معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . إلا أن هذا الفن لم يتوقف واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر ، وظهرت آثاره واضحة فى بعض المعجمات

الأوربية الكبرى ، كمعجم « لاروس » فى الفرنسية ، و« أكسفورد » ، و « ويستر » فى الإنجليزية .

ويمكن أن ترد النهضة المعجمية إلى عوامل ثلاثة أساسية : عناية باللغة بالوضوح والترتيب ، أخذ بالمنهج التاريخى ، توسع فى الطابع الموسوعى . والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل ، فينبغى أن يكون واضحاً ، دقيقاً ، محكم التبويب . والتبويب دعامة أولى فى وضوح التأليف المعجمى ، وقد مر بأدوار مختلفة ، يكفى أن نشير منها إلى تبويب المعجم العربى . بدأه الخليل بن أحمد بترتيب « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، كما صنعت الأكاديمية الفرنسية بعده بنحو عشرة قرون فى أول طبعة لمعجمها ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهرى إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيب مواد المعجم . وكل ذلك لايخلو من تعقيد ، ويتطلب إلماماً بالتصريف والاشتقاق . وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، وهذا ما انتهى إليه فن المعاجم الحديث ، ومن اليسير تطبيقه على العربية وإن تكن لغة اشتقاق . ومما يزيد المعجم وضوحاً جلاء شروحه وتعاريفه ، فتكتب بلغة سهلة ، وتصاغ فى عبارة دقيقة . ولاشك فى أن الرسوم والصور واللوحات الهندسية والجغرافية من خير وسائل الإيضاح ، وتعد اليوم ركناً هاماً من أركان التأليف المعجمى .

وللألفاظ تاريخ ، كالأفكار والأشياء ، فيبحث عن أصولها ، ويتتبع تطورها ولا يقف هذا التاريخ عند عصر ولا يحدد بجيل ، وربما قام التأصيل اللغوى على فروض غير جازمة ، ولكنه باب طريف من أبواب الدراسة اللغوية المقارنة . ويبدو تطور الألفاظ فى استكمال صقلها ، وشيوع استعمالها ، واختلاف مدلولها باختلاف العصور ، ويحرص

اللغوى على تتبع ذلك ، والوقوف على مراحله ، وتوضيحه فى ضوء ما ورد من شعر ونثر ، والكشف عن الألفاظ والتعابير المهملة والمستعملة . ولا بد له أن يتذرع لهذا بالصبر والجلد ، وأن تتضافر عليه جهود كثيرة. ومعجم « أكسفورد » من أوضح الأمثلة على المعاجم التاريخية ، ولعل فى قصر عمر اللغة الإنجليزية نسبياً وتحدد مصادرها ما أعان على ذلك .

ومن المعجمات القديمة ما لم يقف عند المادة اللغوية ، بل جاوزها إلى سرد معلومات فى التاريخ والجغرافيا والعلم والفلسفة ، إلا أنها تذكر فى الغالب استطراداً ، وفى غير ما تحر ولا دقة . ويراد بالمعجم الحديث اليوم أن يرتب ذلك ويعرضه فى أضبط صورة وأحدثها ، فيقدم ألواناً من المعرفة وضروباً من العلوم والفنون تحت أسماء المصطلحات الخاصة بها . والمصطلح العلمى جزء من اللغة ولاشك ، وفى شرحه بإيجاز فى معجم لغوى شرحاً دقيقاً ما يسعف الباحث وما قد يغنى عن الرجوع إلى المصادر المطولة . ويعرض المعجم أيضاً لأعلام الأشخاص والأماكن ، فيعرّف بها فى اختصار ، ويبين منزلتها فى تاريخ الفكر الإنسانى . وقد يختلف فى ذكر هذه الأعلام ، فحرمته الأكاديمية الفرنسية على نفسها فى معجمها ، وأخذت به معجمات أخرى . ونعتقد أن هذا الطابع الموسوعى إنما كان أثراً من آثار انتشار دوائر المعارف فى القرن التاسع عشر والتعلق بها ، ومن أوضح الأمثلة عليه « معجم لاروس » فى الفرنسية . وإذا كان المعجم يوضح الألفاظ ، ودائرة المعارف توضح الأشياء ، فإن الأسماء ومسمياتها متصلة ومختلطة . وقد قيل : « إن المعجم «هو الكون مرتباً ترتيباً هجائياً » .

* * *

وبذا انقضى الزمن الذى كان يقف فيه التأليف المعجمى عند مجرد تلخيص ما ورد فى معجمات سابقة أو جمعه ، ولابد له من أدوات ووسائل شتى ، فيزود بمكتبة حافلة فى الأدب واللغة والعلم والفن ، تجمع

بين القديم والحديث، وتتوافر فيها كل المصادر . ويؤخذ فيه بنظام الجزازات أخذاً محكماً ، فتعد بحيث تقبل الحذف والزيادة ، وترتب وتبوب ، وتحفظ فى أحراز أمينة . ولابد أن تضطلع به كفايات متخصصة ، وتتضافر عليه خبرات متعددة ، فيسهم فيه اللغوى والأديب ، والعالم والفيلسو ، والمؤرخ والجغرافى ، ويكوّنون من بينهم جهازاً دائماً ، وخبراء ومراسلين يستعان بهم عند الحاجة . وليس ثمة دار من دور المعجمات الكبرى إلا وفيها هذا الجهاز المنظم المنسق ، به تنتج ، وبه تتابع وتراجع ماسبق لها أن أنتجته . والتأليف المعجمى طويل المدى ، فلم تخرج الأكاديمية الفرنسية معجمها إلا بعد نحو مائة سنة ، ووقف ليتريه ثلاثين سنة من عمره على معجمه ، ولم يكمل « معجم أكسفورد » إلا فى نحو ٧٠ عاماً . وحياة هذا التأليف فى رسم خطته واستكمال أجهزته .

٢

المعجم العربى فى القرن العشرين [1]

١ — قد لا يكون ثمة لغة توافر لها من المعجمات ما توافر للعربية . وإذا تركنا جانباً تلك الرسائل الصغيرة التى ظهرت فى القرن الأول للهجرة ، وجدنا الخليل بن أحمد قد افتتح عصر المعجمات الكبرى فى القرن الثانى بوضعه « كتاب العين» . ثم تنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات متلاحقة ، من أحجام مختلفة وفى تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن من ظهور معجم عربى جديد ، وهناك قرون ظهر فيها عدة معاجم ، ويمكننا أن نذكر من بينها القرن الرابع الذى يعد بحق القرن الذهبى للمعجم العربى ، فقد ظهر فيه « الجمهرة » لابن دريد (٣٢١) ، و « التهذيب » للأزهرى (٣٧٠) ، و « المحيط » للصاحب بن عباد (٣٨٥) ، و « المجمل » لابن فارس (٣٩٥) ، و « الصحاح » للجوهرى (٣٩٧) . ووصل إلينا معظم المعجمات القديمة عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبين أيدينا اليوم منها قدر لا بأس به ، نصدر عنه ونعول عليه ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية .

وفى التاريخ القديم معجمات يونانية ولاتينية ، ولكنها لم تبلغ مبلغ المعجمات العربية ، ولم يصلنا منها إلا شذرات صغيرة ، وأقدم معجم يونانى أو لاتينى عرفناه يصعد إلى القرون الوسطى ، ويعد عصر النهضة بوجه خاص نقطة بدء هامة فى تاريخ الدراسات اللغوية . ولم توضع معجمات

---

(١) مترجم بتصرف عن بحث ألقى بالفرنسية فى مؤتمر المستشرقين بموسكو عام ١٩٦١

فى اللغات الأوربية الكبرى إلا فى عهد متأخر ، فنى إنجلترا مثلا لم تظهر الإنجليزية فى المعجم إلا لخدمة اللاتينية حتى القرن السادس عشر . وفى القرن السابع عشر بدئ فى وضع معجمات للغات الأوربية الحديثة ، وأخذ فن المعاجم ينمو ويتطور . فعنى بترتيب المواد وتحديد مداول الألفاظ ، وألفت معجمات كبيرة وأخرى صغيرة ، فى لغة واحدة أو فى عدة لغات ، وامتد تصنيفها إلى الفلسفة والعلوم ، فوضعت معجمات فى التاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات . وبلغ هذا الفن القمة فى القرن التاسع عشر ، الذى ظهر فيه معجم « لتريه » و « لاروس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » و « وبستر » فى الإنجليزية ، و « أدلونج » فى الألمانية ، ومعجم « أكاديمية سان بطرسبورج » فى الروسية .

٢ — ولا نزاع فى أن المعجمات العربية القديمة غزيرة المادة ، تؤذن باطلاع واسع ومجهود عظيم . ولها قيمة تاريخية لا تنكر ، وستبقى معيناً لا ينضب فى بيان أصول الكلمات وشرح الألفاظ الغريبة والعبارات الغامضة . إلا أنها تشتمل على بعض العيوب المشتركة ، فتخطئ أحياناً فى ضبط الكلمات ، وتسرف فى سرد المترادفات ، وفى تعريفاتها غموض وفى معلوماتها خلط ، وخاصة حين تجاوز اللغة إلى بحوث فى التاريخ والجغرافيا ، أو الكيمياء والطبيعة .

ونشير خاصة إلى منهجها والأساس الذى قامت عليه ، فهى تضيق دائرة اللغة ، ولا تكاد تسلم إلا بما أخذ عن البادية ، تقبل لغة الجاهلية وصدر الإسلام ، وتنكر ما عداهما ، وتقف بالاحتجاج عند القرن الثانى للهجرة . فتهمل عصور اللغة الأخرى ، ولا تعبر عن العصر الذى وضعت فيه ، وكأنما تغفل قانون التطور الذى يقضى بأن تتابع اللغة سير المجتمع الذى نعيش فيه . فيها حشو وتكرار ، وكثيراً ما أخذ لاحقها عن سابقها فى غير ما تعديل ولا تصرف . ويعترف ابن منظور صاحب « اللسان » ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه جمع « تهذيب »

الأزهرى و « صحاح » الجوهرى ، و « محكم » ابن سيده ، و « حواشى ابن برى على الصحاح » ، و « النهاية » لابن الأثير . وما أحوجنا إلى درس المعجمات العربية القديمة درساً مقارناً ، يبين مدى تسلسلها وتأثير بعضها فى بعض .

والمعجم أداة بحث ، ومرجع سهل المأخذ ، فينبغى أن يكون واضحاً ، ودقيقاً ، مصوراً ، محكم التبويب ، مما لا يتوافر كثيراً فى معجماتنا القديمة ، ففى الرجوع إليها عناء ، وفى عرضها حشو. حقاً إن ترتيب موادها تطور مع الزمن ، فروعى فيه أولا تدرج الحروف فى أصواتها ومخارجها ، على نحو ما حدث فى الطبعة الأولى من معجم الأكاديمية الفرنسية . ثم عدل عن هذا إلى ترتيب هجائى تلحظ فيه أواخر الكلمات أو أوائلها ، وكل ذلك لا يخلو من تعقيد ، ويتطلب الإلمام بالتصريف والاشتقاق قبل الرجوع إلى المعجم . وهى أيضاً محشوة باستطرادات يضل الباحث فى ثناياها .

٣ — وقد لوحظ هذا من قديم ، وأريد تداركه . ودون أن نعرض لآراء القدامى نكتفى بأن نشير إلى مالاحظه فارس الشدياق فى أخريات القرن الماضى ، ودعاه إلى وضع « الجاسوس على القاموس » . وتابعه فى هذا عالمان لبنانيان آخران ، عنيا بالمعجم العربى ، وشاءا أن يخرجاه فى ترتيب أيسر ، متأثرين فى الغالب بالمعجم الأوربى ، وهما البستانى صاحب « محيط المحيط » الذى رتب مواده ترتيباً هجائياً سهلا ، واقتصد فى الشواهد والنصوص ، والشرتونى صاحب « أقرب الموارد » الذى قدر له رواج أكثر من سابقه ، وهو أحكم ترتيباً وأقل استشهاداً .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بذلت جهود أخرى فى القرن العشرين ، وعُنى خاصة بالمعجمات الصغرى . ذلك لأن ما وضع منها قديماً « كمختار الصحاح » ، و « المصباح المنير » لا يخلو من صعاب ، وقد عولت عليهما المدرسة الثانوية المصرية منذ أوائل هذا القرن ، ولم تلبث أن كشفت عما

فيهما من نقص . وفى لبنان أيضاً أخرج الأب لويس المعلوف اليسوعى « المنجد » وهو معجم صغير سهل التناول . ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨ وتوالت بعدها عدة طبعات ، فظهرت الخامسة منقحة ومزيدة عام ١٩٢٧ وتلتها السادسة عام ١٩٥٦ ، وفيها قسم جديد للآداب والعلوم . ولا شك فى أن « المنجد » محاكاة صادقة لمعجم « لاروس الصغير » ، فهو ميسر التبويب ، سهل المأخذ ، مزود بوسائل الإيضاح من لوحات ورسوم وصور .

بيد أن هذه المحاولات على اختلافها لم تستطع أن تتخلص من سلطان الماضى ، وبقيت خاضعة له خضوعاً تاماً ، فلم تصنع شيئاً أكثر من أنها جمعت ما ورد فى المعجمات القديمة ، أو لخصته فى شىء من الوضوح والترتيب . ولم تجرؤ واحدة منها على أن تعرض للغة المعاصرة ، ولا لما يتخاطب به الناس اليوم من ألفاظ العلم والحضارة .

٤ ــ وكان طبيعياً أن يضطلع مجمع اللغة العربية بذلك ، ونص مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه : « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » . وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية ، وكون فى الدورة الأولى لجنة المعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين ، وحاولت هذه اللجنة رسم الخطة وتحديد معالم المعجم العربى فى القرن العشرين . وكان من بين أعضائها المستشرق الألمانى الدكتور فيشر الذى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، ورغب فى أن ينهج بها نهجاً جديداً . وقد نشر فكرته لأول مرة فى مؤتمر عقد ببال سنة ١٩٠٨ ، واستمر يتعهدها إلى أن أصبح عضواً فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ . وكان يرمى إلى وضع معجم مستمد من النصوص القديمة ، يوضح مختلف المعانى والاستعمالات للألفاظ والعبارات ، ويتتبع تطورها ، ويعرض فى اختصار تاريخها . ولم يتردد المجمع فى أن يوفر له أسباب البحث والدرس ، وأن يتعاقد معه على نشر معجمه الذى كان يأمل أن يخرجه فى ست سنوات

أو سبع . وبعد عمل متصل طوال أربع سنوات فى الجمع والتنسيق تمهيداً للنشر ، فاجأته الحرب العالمية الثانية واعترضت سبيله . فاحتجز فى ألمانيا ، وبقى مساعدوه وجزازاته فى مصر . ولما وضعت الحرب أوزارها قعد به المرض عن متابعة عمله ، وتوفى عام ١٩٤٩ قبل أن يخرج معجمه إلى النور. وعبثاً حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله ، ولم يقف من جهود أربعين سنة إلا على جزازات غير مستوفاة ، حرص على أن يرتبها ويضعها تحت تصرف الباحثين . ولم يستطع أن ينشر من معجم فيشر إلا مقدمة ونموذجاً صغيراً ، سبق للمؤلف أن أعدهما .

وأغلب الظن أن فيشر قد تأثر « بمعجم أكسفورد » ، وشاء أن يطبق منهجه التاريخى على اللغة العربية . وهى محاولة ولا شك قاسية ، وقل أن يقوم بها فرد وحده ، وقد تكون متعذرة اليوم . لأن العربية أفسح مجالا من الإنجليزية ، ومصادرها أكثر وأغزر ، ومنها ما لم يكشف عنه بعد ، وما كشف لا يزال قدر منه مخطوطاً . ولا أدل على هذا من أن فيشر نفسه قد حصر جهوده ، وقنع بأن يقف عند القرن الثالث الهجرى ، وليته استكمل هذه المرحلة ، إنه لو فعل لأمكن متابعة السير من بعده . وكم نأسف لأن جهوده لم توصل إلى غاية ، وقد حاول المأسوف عليه كريمر أن يفيد ، فى غير جدوى ، من جزازاته لاستكمال « معجم لين » الذى وقف عند حرف « القاف » .

٥ ــ شغل المجمع بمعجم فيشر زمناً ، ولما يئس من إخراجه استأنف عام ١٩٤٦ جهوده لإخراج معجمه ، واكتفى بأن يسميه «المعجم الكبير» ، تاركاً للزمن استكمال الوسائل الضرورية لوضع المعجم التاريخى . واستطاع عام ١٩٥٦ أن ينشر منه جزءاً فى نحو ٥٠٠ صفحة ، عدّه تجربة دعا المتخصصين من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يعن لهم فيها ، راجياً أن يرسلوا إليه ملاحظاتهم مشكورين . وفى مقدمة هذا الجزء تلخيص للمبادئ التى قام عليها « المعجم الكبير » .

ومن أهمها أن اللغة كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ، وهما يعدان معاً لمستقبله . والعربية لغة قديمة وحديثة ، صعدت إلى ما قبل الإسلام ، وبقيت مع الزمن ، وأدّت ألواناً من ضروب العلم والمعرفة . فلها قديمها الخالد ، وحاضرها الحيّ ، ومستقبلها الزاهر . فكيف تقف بها عند القرن الثانى أو الرابع الهجرى ؟ إنا إن فعلنا قضينا عليها بالموت . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغة فى مختلف عصورها ، فيضم ألفاظاً حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويستشهد بالشعر والنثر مهما كان العصر الذى قيلا فيه . ولا بد للمعجم الحديث أيضاً أن يشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والأعلام التاريخية والجغرافية وخاصة ما اتصل منها بالأدب العربى ، وأن يلتزم الترتيب الهجائى مع تقديم الأفعال على الأسماء ، والمجرد على المزيد، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

وقد ظهر هذا النموذج بعد دراسة طويلة وبحث شامل ، وأثار ما أثار من تعليق وملاحظة فى مجلس المجمع ومؤتمره . فأخذ عليه غلبة الطابع الموسوعى ، والإكثار من الشواهد والنصوص . واستمر المجمع يراجعه ، ويعدل خطته حتى استقام له منهج واضح ، وسار فى تطبيقه شوطاً ، ومنذ قليل أخرج الجزء الأول منه . ووضع المعجمات عمل طويل المدى ، ويكفى جيلاً أن يرسم المنهج فى دقة ، وأن يطبقه على خير وجه ، تاركاً للخلف أن يتدارك ما تقاصرت عنه جهوده .

٦ — وإلى جانب المعجم الكبير ، اتجه المجمع نحو معجم وسيط يسد حاجة التعليم : فقد طلبت إليه وزارة المعارف عام ١٩٣٦ أن يسعف العالم العربى بمعجم على نمط حديث ، محكم الترتيب ، واضح الأسلوب ، سهل التناول ، يشتمل على صور لكل ما يحتاج إلى تصوير ، وعلى قدر من مصطلحات العلوم والفنون ، وملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن ، وكأنما كانت تصبو إلى شىء شبيه « بمعجم لاروس الصغير » .

ولم ينتظم العمل فى هذا المعجم إلا بعد فترة ، وسار أحياناً بين البطء والتردد ، ومع هذا كان معداً للطبع منذ بضع سنين . وظهر أخيراً فى جزأين كبيرين ، يحتويان نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير ، ويشتمل على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وسمائة صورة . وأغفل فيه منذ البداية ماحق الأعلام ، وقصر على اللغة قديمها وحديثها ، وتوسع فى المصطلحات العلمية الشائعة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة .

وفى هذا المعجم تجديد من نواح شتى ؛ رتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، فذلل صعوبة البحث عن أصولها ومشتقاتها ، ويسر الشرح وضبط التعاريف ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة . وطوّر اللغة ، فقاس فيما قصر أمره على السماع ، وقبل ما تدعو إليه الضرورة من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة أو الدخيلة ، وأفسح المجال لألفاظ الحضارة والحياة العامة . وأخذ بطائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التى أقرها المجمع وأصبحت جزءاً من اللغة ، وعرّفها المختصون تعريفاً دقيقاً ، وبذا اشتمل على ما لم يشتمل عليه معجم المجمع الفرنسى طوال المائة سنة الأولى من ظهوره . ولا محل لمقارنته « بالمنجد » أو « أقرب الموارد » ، فهو دون نزاع أوضح وأدق ، وأضبط ، وأحكم منهجاً ، وأحدث طريقة . وهو بخاصة مجدد ومعاصر ، يهدم الحدود الزمانية والمكانية التى أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

وقد أثار شيئاً من النقد والملاحظة ، وإن كان دون ما كنا نتوقع ، وكلنا يعلم كم نوقش معجم الأكاديمية الفرنسية فى عنف وقسوة . وكأنما يقر الباحثون مع المجمع منهج « المعجم الوسيط » ويرحبون بتجديده فى فن التأليف المعجمى ، ويرون فيه ما يسد حاجة ، وما يوجه نحو معجمات جديدة . وقد نفدت طبعته الأولى ، ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً

منقحة ومهذبة ، ومفيدة مما وجه إلى الطبعة الأولى من ملاحظات .

٧ – ولن نقف طويلا عند المعجمات الثنائية أو الثلاثية ، ولا عند معجمات اللهجات . وقد وضع من الأولى عدد غير قليل في القرن العشرين تيسيراً للترجمة والبحث العلمي ، أو سدًّا لحاجة السياحة والسفر ، فهناك معجمات عربية فرنسية ، أو عربية إنجليزية ، وبالعكس . ونحرص على أن نشير إلى (Arabischen Worterbuch) الذي وضعه زميلنا الأستاذ فير عام ١٩٥٢ ، وعوّل فيه على العربية المعاصرة ، وخاصة العربية المصرية.
أما معجمات اللهجات فلم يوضع منها في القرن العشرين شيء يذكر ، وما ذلك إلا لأن اللهجات العربية لم تدرس بعد الدرس الكافي . وكم دعا المجمع إلى درسها ، ورحب بكل ما يبذل فيها من جهد .

وهناك نوع آخر من المعجمات عرف في اللغة العربية من قديم ، ونعني به معجمات العلوم والفنون ، ونستطيع أن نذكر من بينها « مفاتيح العلوم » للخوارزمي (٩٩٧ م) ، « وكشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي (١٧٤٥م) إلا أن هذه على أهميتها إنما تعبر عن الماضي ، وينقصها كثير من الوضوح والدقة ، وقل أن تتوافر فيها شرائط الفن المعجمي الحديث.
ولم تقف مصطلحات العلوم والفنون عند القدر الذي جاءت به ، بل نمت نموًّا كبيراً في التاريخ الحديث ، وفي اللغات الأوربية معجمات علمية وفنية متعددة ، ولا بد للعربية أن تحذو حذوها .

وما إن اتصل العالم العربي بالنهضة العلمية الحديثة حتى بدأ ينقل عنها ، ويضيف إلى مصطلحاته القديمة مصطلحات جديدة ، ومنذ أوائل القرن الماضي حاولت مصر أداء الحقائق العلمية الجديدة بألفاظ عربية أو تركية أو فارسية ، وقد تلجأ إلى اللفظ الأجنبي فتعربه ، فرنسيًّا كان أو إيطاليًّا أو إنجليزيًّا . ولم يتردد الباحثون منذ النصف الأخير من القرن الماضي أن يضعوا معجمات في بعض العلوم ، وإن لم تصل إلى المستوى المنشود . وفي القرن العشرين ظهرت معجمات أخرى أكثر

وضوحاً وأعظم دقة ، ونكتفى بأن نشير إلى اثنين منها وضعهما مجمعيان ، أحدهما مصرى والآخر سورى ، ويعدان حجة فى بابهما . فأما الأول فهو « معجم إنجليزى عربى فى العلوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف ، وقد نشر عام ١٩٢٨ ، ويشتمل على عدة آلاف من المصطلحات الإنجليزية ، ومعها مقابلها وتعريفاتها بالعربية . وأما الثانى فهو « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » للأستاذ الأمير مصطفى الشهابى ، وقد أعيد طبعه غير مرة ، وفى الطبعة الثالثة (١٩٥٧) عشرة آلاف مصطلح فرنسى ، ومعها مقابلها العربى أو المعرب ، ولا يتردد المؤلف فى أن يذكر أكثر من مقابل إذا كان المصطلح العربى لم يستقر بعد .

وكان لا بد للمجمع أن يعنى بهذه المصطلحات لأنه مطالب « بأن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات العصر ومقتضياته » . وقد أنفق فى سبيلها كثيراً من وقته وجهده ، دعا إليها الخبراء والمتخصصين ، وكوّن من أجلها اللجان ، وعقد لها الجلسات . وكان حريصاً على تخير المصطلحات من بين مفردات اللغة بالاشتقاق أو النقل ، وقد يلجأ إلى التعريب . ثم أخذ ينشر تباعاً ما أقر منها فى مجلته ، أو فى مجموعات خاصة ، أخرج منها حتى الآن اثنتى عشرة . ظهرت أولاها عام ١٩٤٢ ، وفيها ٣٥٦٦ مصطلحاً ، والثانية عام ١٩٥٧ وفيها ٩٥٩٠ مصطلحاً ، والثالثة عام ١٩٦٠ وفيها ٢٣٥٧ مصطلحاً ، والرابعة فى مارس ١٩٦٢ وفيها ٢٢٥٠ مصطلحاً ، والخامسة فى يوليه ١٩٦٣ وفيها ١٦٠٠ مصطلح . وتلتها سبع أخرى يشتمل كل واحد منها فى المتوسط على ١٥٠٠ مصطلح . وفى هذه المجموعات يعرض المصطلح الأجنبى بالإنجليزية أو الفرنسية أو بهما معاً ، ومعه مقابله العربى وتعريفه فى الغالب . وفى هذا ما ييسر حركة الترجمة العلمية ، ويكون مادة المعجمات الخاصة فى العلوم والفنون . والواقع أن هذه المجموعات تنشر كما أقرت موزعة بين عدة مواد ، ومرتبة

على حسب حروف الهجاء اللاتينية . ونعتقد أنه قد حان الوقت لكى نستخلص منها مجموعات متنوعة على حسب المواد المختلفة ، أو بعبارة أخرى معجمات خاصة مرتبة ترتيبًا هجائيًّا عربيًّا .

* * *

والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربى نما وتطور فى القرن العشرين ، وأخذ يحاكى نظيره فى اللغات الأوربية الكبرى أو يزيد عليه . وطرحت تلك النظرية التى كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور ، وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة ، وبكلاسيكية قديمة وكلاسيكية محدثة . وفتح باب القياس على مصرعيه فى اللغة كما فتح فى الفقه والتشريع ، ومن حقنا أن نبتكر ألفاظًا وعبارات كما ابتكر أجدادنا . وقد استعادت العربية نشاطها بعد ما مر بها من خمول ، وفيها اليوم حياة وقوة لم تنعم بهما منذ عدة قرون .

٣

المعجم الأبجدى

تأليف المعجمات اللغوية فن عرف من قديم ، وسبق أن عرضنا له فى شيء من التفصيل . ولاحظنا أن العرب خطوا فيه خطوات فسيحة فاقوا بها الإغريق والرومان ، وبرزوا على رجال القرون الوسطى . واستطاعوا أن يوحوا بشيء إلى معجمات عصر النهضة والتاريخ الحديث . ولكن هذا الفن لم يتوقف ، واستمر ينمو ويتطور حتى بلغ قمته فى القرن العشرين ، وظهرت له آثار واضحة فى بعض المعجمات الأوربية الكبرى كمعجم « لاروس » فى الفرنسية ، ومعجم « أكسفورد » و « وبستر » فى الإنجليزية .

ويقوم هذا الفن على دعائم ثلاث أساسية ، عناية باللغة بالوضوح والترتيب ، وأخذ بالمنهج التاريخى ، وتوسع فى الطابع الموسوعى ، ويعنيني أن أقف قليلا عند الترتيب ، وهو دعامة أولى من دعائم التأليف المعجمى . وقد مر فى العربية بأدوار مختلفة ، فرتب الخليل بن أحمد « كتاب العين » على حسب مخارج الحروف ، بدأ بالحروف الحلقية ، وانتهى بالحروف الشفوية . ورأى الجوهرى وأكثر اللغويين إيراد الكلمات المعجمية مرتبة على حسب أواخر أصولها ، وحاول آخرون اعتبار الحروف الثلاثة الأولى من الكلمة أساساً لترتيبهم . وفى هذا ما فيه من غموض وتعقيد ، وأبسط الأمور أن ترتب الكلمات على حسب نطقها .

ولكن إلى أى مدى نستطيع أن نطبق هذا فى معجماتنا العربية ؟ هذا ما اختلف فيه الرأى فى نصف القرن الأخير ، فذهب بعض المؤلفين إلى ترتيب الكلمات على حسب نطقها ، دون مراعاة لمادة أو تصريف .

ولعل أول تجربة فى ذلك هى تلك التى حاولها قانونيان مصريان فى أوائل هذا القرن ، فقد شغلا بالمعجم العربى مدة غير قصيرة ، وهما محمد النجارى وجرجس حجار – وفى عام ١٩٣٨ بعث ورثة الأول بمشروع معجمه إلى المجمع تمهيداً لطبعه ، وطال فيه الأخذ والرد دون جدوى ، ولا تزال أصوله محفوظة بمكتبة المجمع إلى اليوم . وشاء الثانى أن يستشير المجمع أيضًا عام ١٩٥٦ فى إخراج معجمه ، فكان رد المجمع عليه صريحاً ، وهو أنه « لا يوصى بنشره فى ترتيبه الحرفى البحت الذى لم تراع فيه قواعد التصريف » .

وأخرجت المطابع اللبنانية أخيراً معجمين : أولها : « الرائد » الذى رتبت مفرداته وفقاً لحروفه الأولى . والثانى : «المنجد الأبجدى» الذى سلك الطريق نفسه تقريباً ، وفى المعجمين معاً ، وإن اختلفت طريقتهما فى الترتيب ، جهد صادق ، ورغبة أكيدة فى التيسير . ولكن هذه التجربة الحية كشفت عن جوانب نقصها ، فكثيراً ما أغفلت مضارع الثلاثى ، وهو ليس بيسير ، ولم تذكر من المصادر والجموع إلا القليل ، ولا حاجة بى إلى أمثلة ، وعرضها بطول ، وشتتت أيضًا المادة اللغوية الواحدة ، ووزعتها فى أماكن متعددة ، فزادت حجم المعجم زيادة ملحوظة ، وحالت دون الفهم الواضح والإدراك التام لمدلول الألفاظ . وهى بهذا لا تعين على تكوين ثقافة لغوية لدى الناشئين ، الأمر الذى نحس نقصه ، وما أجدرنا أن نتلافاه ، وأن نسعى إلى تعزيز هذه الثقافة ما وسعنا . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن بعض البلاد الأوربية لا تزال تحرص على تزويد بنيها بقدر من اللاتينية ، كى يربطوا لغتهم الحية بأصولها .

وإنا لندعو دائمًا إلى التيسير ، وسبق لى أن قلت : « إن أبسط الأمور فى تبويب المعجمات أن ترتب الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، ومن اليسير تطبيق ذلك على العربية وإن تكن لغة اشتقاق » . ولكن لذلك حدوداً التزمناها ، وأوضاعًا وقفنا عندها ، ولم

نجاوزها بحال . وقد أخذ المجمع نفسه بترتيب الكلمات على حسب نطقها ، ولكن فى نطاق مادتها ، و « معجمه الوسيط » خير شاهد على ذلك . ونعتقد أنه يسر على الناشئين أمر الكشف فى المعجمات تيسيراً كبيراً ، ولا يحس فيه الباحث بصعوبات الاشتقاق والتصريف . ونحا « المعجم الكبير » نحوه فى الترتيب والتبويب ، وسبق اللغوى الألمانى الكبير فيشر فسلك المسلك نفسه ، وقد أخرجنا من معجمه نموذجاً صغيراً يلتزم فيه بذلك .

* * *

وعندى أن المعجم الأبجدى الصرف إن لاءم بعض الأجانب والسائحين فإنه لا يعين على تحقيق الثقافة اللغوية التى ننشدها ، ولا يسد حاجة من يريدون تذوق اللغة وفهمها على وجهها . والمعجم اللغوى لا يمكن أن ينزل عند مستوى فهرس لألفاظ ومعانيها ، أو أن يصبح أشبه ما يكون بدليل للتليفون . وهدفه الأول تكوين ملكة اللغة عند الناشئين والدارسين ، وعونهم على فهمها وتذوقها .

الباب الرابع

فى الأدب

١
الشعر

الشعر لغة القلوب ، ومرآة النفوس ، يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الإحساسات الدفينة . يخاطب الوجدان والعاطفة ، ويستلهم الوحي والخيال ، وينفذ إلى أعمق شيء فى الإنسان والطبيعة . يقوم على اللفظ الرشيق ، والتصوير الدقيق ، والتشبيه البديع ، والنغم الحلو . يقول صاحب كتاب « العمدة » : إن « بنية الشعر من أربعة : لفظ ، ومعنى ، ووزن ، وقافية ، وما سمى الشاعر شاعراً إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراع صورة ، ولا ابتداع لفظ ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً » . ويقول أيضاً : « الشعر ما اشتمل على الاستعارة الرائعة والتشبيه الرائع ، وما سوى ذلك فوزن » .

وللشعر فى الحقيقة جانبان لا وجود له بدونهما ، وهما الخيال والموسيقى . فبالتخييل يخرج الشاعر على المألوف ، ويأتى بالغريب والطريف . وقديماً تحدثوا عن شيطان الشعر ، وليس شيئاً آخر سوى تلك القوة الخالقة المبدعة ، التى عدّها أفلاطون قوة إلهية مقدسة ، وسما بها بعض المحدثين إلى مستوى المعجزة . والأخيلة الشعرية هى التى تهز الشعور والوجدان ، وتسبح بنا فى عالم آخر غير عالم الواقع . وتردد كثيرون فى أن يعدوا النظم التعليمى شعراً ، لأنه لا خيال فيه ولا تصوير ولا تشبيه . وليس هذا الخلق والإبداع فى متناول الجميع ، بل لا بد له من ملكة واستعداد خاص ، ومن لا موهبة عنده أولى به ألا يغامر فى هذا المضمار .

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه

والشعر وثيق الصلة بالموسيقى ، تطرب النفوس لوزنه ، وتهتز الأجسام لنغمه . وأغلب الظن أنه نشأ أول ما نشأ فى ثوب الغناء ، يترنم به الفرد فى وحدته ، وتردده الجماعة فى جدها ولهوها ، وقد قيل : « الشعر موسيقى المجاهدين فى سبيل المجد ، وحداء المجتهدين فى ركب الحياة » .

ويحاول الموسيقيون دائماً أن يوقعوه على سلمهم ، ويؤدوه بآلاتهم ، وما التلحين إلا صوغ للشعر صياغة موسيقية . وبما فيه من موسيقى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفنون الجميلة ، وينفذ إلى القلوب ، ويزداد تأثيره فى النفوس ، وإن فاته الوزن والنغم ، فلا سبيل إلى التفرقة بينه وبين النثر .

قيوده وضوابطه :

لكل لغة شعرها ، وهو قديم قدم اللغات نفسها . ومن المرجح أنه يبدأ شعبياً سهلا ، ثم يفتن فيه الموهوبون والمتخصصون . ويوم أن يصبح فناً وصنعة ، توضع له قيود وضوابط تقسو حيناً وتلين حيناً آخر . والفن فى حركة دائمة بين الجمود والطلاقة ، بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع . وأكثر ما تنصب هذه القيود على الصور الشعرية من جانب ، والوزن والموسيقى من جانب آخر . ودون أن ندخل فى تفاصيل ذلك ، ونعرض لكل من عنوا به ، نكتفى بأن نشير إلى رجلين اثنين : أرسطو بين اليونان ، والخليل بن أحمد بين العرب .

وأرسطو رائد فى أكثر من ميدان ، بدأ دراسات لأول مرة ، وأخرجها شبه كاملة ، هو رائد بلا شك فى علم المنطق ، ويمكن أن يعد بحق رائداً فى دراسة الشعر . وضع فيه كتاباً قدر له نجاح كبير ، وأثر فى الآداب الأوربية على اختلافها . ترجم إلى عدة لغات من بينها العربية ، وشرح غير مرة ، وممن علقوا عليه ابن سينا وابن رشد . وعلى أساسه قامت

الكلاسيكية فى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، واعتبر دستوراً للشعر والفن المسرحى .

ويرى أرسطو أن دعامة الشعر التخيل ، وتحقيق متعة روحية هى متعة التصوير والوصف . ولا بد فيه من انسجام وإيقاع ، فمادته مستمدة من عبقرية الشاعر واختراعه ، وقوام لغته الوزن والموسيقى . والشاعر حر فى اختيار أوزانه ، ولكن لا بد له من وزن على كل حال . ويقول بنظرية المحاكاة التى ترمى إلى رد الشعر إلى شىء من الواقع ، وإن تعارضت مع فكرة التخيل التى أكدها فى أكثر من مناسبة .

والخليل بن أحمد رائد آخر من رواد الفكر الإنسانى ، ذو عبقرية ممتازة وأصالة نادرة ، فهو المؤسس لفن المعاجم العربى ، ويعد بحق مؤسساً لعلم النحو ، أخذ عنه سيبويه وعول عليه . وهو الواضع لعلم العروض الذى لا نزاع فى أنه علم عربى ، فلا نظير له فى اللغات السامية القديمة ، ومن الخطأ أن يقال إن فيه محاكاة لنماذج من الشعر اليونانى . وإنما عول فيه الخليل على ذكائه الحاد ، وأذنه الموسيقية ، وحفظه للكثير من الشعر العربى . ويظهر أنه كان رياضياً ماهراً ، فأقام العروض على أساس هندسى ، وربط بحوره بدوائر معينة . وكان لهذا العلم أثر كبير ، لا فى العربية وحدها ، بل امتد إلى لغات أخرى كالعبرية والفارسية والتركية . وإذا اعتبرنا الموشحات الأندلسية امتداداً له ، استطعنا أن نقول إنه أثر فى بعض اللغات الأوربية .

ذهب الخليل إلى خمسة عشر بحراً أقامها على خمس دوائر ، ورأى فيها ما يجمع أوزان الشعر العربى . ويظهر أنه بنى حصره على أساس نظرى أكثر مما استمده من الواقع ، فمن البحور التى قال بها ما أملاه منطق الدوائر الخمس ، ومنها ما يمكن رد بعضه إلى بعض . وبعده بقليل استطاع الأخفش الصغير أن يضيف إلى بحوره بحراً جديداً ، هو : المتدارك .

وفى القرن الرابع الهجرى أحدث الجوهرى بعض التعديلات ، فحذف تفعيلة من تفعيلات الخليل الأصلية . واستمعنا فى مؤتمر من مؤتمرات المجمع إلى بحث فى « ميزان البند » ، وهو وزن خفيف يقوم فى الغالب على تكرار تفعيلة واحدة فى أشطر قصيرة . ظهر فى العراق منذ ثلاثة قرون ، والعراقيون شعراء مجيدون يحفلون بالوزن والنغم . وفوق هذا ، فى الزحاف والعلل ما ينتهى بالبحور المعروفة إلى ٨٥ صورة ، تتنوع بها الأوزان أيما تنوع ، ومهما يكن من أمر فعلم العروض يكشف عن الجانب الهام فى الشعر ، وهو الوزن والموسيقى .

تطوره :

لسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الشعر فى تطور مستمر ، يتطور بتطور اللغات نفسها من جيل إلى جيل ، بل من شاعر إلى آخر . يتطور فى لفظه ومعناه ، كما يتطور فى أخيلته ومبناه ، وهو أشبه ما يكون بلوحة متحركة يرسم عليها الفنان ما يعن له من صور وألوان ، ويعنينا أن نعرض لشيء من تطور وزنه . والأوزان الشعرية متنوعة متجددة فى اللغات كلها ، وهذا التنوع ملحوظ فى الشعر العربى . والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة ، أما الشعراء فيعتدون بعبقريتهم ، ويحرصون على حريتهم فى تجديدهم واختراعهم . ومنهم من لا يعرف العروض مطلقاً ، وقل من يستحضره حين ينظم أو يترنم . وأعلن أبو العتاهية من قديم أنه فوق الأوزان والبحور ، وأباح أبو تمام لنفسه الخروج على البحور المألوفة ، ولوحظ على البحترى أنه كثير الزحاف ، ولم ينتقص ذلك شيئاً من جمال شعره . وقيل خطأ إن نظم المتنبى وأبى العلاء لا يعد شعراً ، لأنهما لا يلتزمان الأساليب القديمة .

وعنى ابن خلدون بتطور الشعر العربى ، ووقف عليه فى « مقدمته » فصلا طويلا جاء دليلا جديداً على أنه جدير بأن يسمى مؤسس علم

الاجتماع . فقد عالج فيه الشعر على أنه ظاهرة اجتماعية تتأثر بتغير الأحداث السياسية والاجتماعية ، وتخضع للعوامل الحضارية والعمرانية ، وأدخل فيه الشعر الشعبي الذي يعد باباً هاماً من أبوابه، يجيء على الفطرة، ويعبر عن الإحساسات فى غير تكلف ، ويتغنى به الناس فرادى وجماعات . وعنده أن البلاغة لا تتوقف على الإعراب ، والمهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومن الشعر الشعبي ما يسمو إلى المستوى البلاغى وإن لم يخل من اللحن . ولم يستوعب العروضيون النغمات كلها، وباب الجديد فيها فسيح ومفتوح دائماً . والموشحات ذات نغمات جذابة ، وهى شعر حضرى خفيف مرقص ، ابتدعه الأندلسيون وتفننوا فيه .

وحدثنا الدكتور طه حسين عن فن من فنون الشعر يتطور بأعين الناس، وهو الرجز. فأشار إلى أنه عرف منذ الجاهلية، وعمر إلى اليوم ، ولكنه استخدم فى حفظ اللغة ، واتخذ أداة للشعر التعليمى وديواناً للحكمة متخذاً أشكالا وصوراً شتى . قد لا يحفل به الشعراء ولا يقفون عنده، وهو قبل كل شيء أكثر فنون الشعر ملاءمة للغناء الشعبي .

* * *

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن قضية الشعر الحر غير ذات موضوع ، إذ ليس ثمة من ينكر على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع، ولا من يضيق عليه حريته ما دام لا يحول الشعر إلى نثر مرسل أو مقيد . ولقد جمعتنى بغداد أخيراً ندوة شعرية، ودار فيها حوار طويل حول هذا الموضوع ، ونعمنا فيها بنقاش ممتع خرجنا منه بأمرين هامين، فاتفقنا أولا على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الشجى ، ولاحظنا ثانياً أن أدعياء الشعر لا يكاد يخلو منهم عصر ، يحاولونه ولا قبل لهم به فيسفون ، ويأبون إلا أن يعدوا إسفافهم عملا فنياً . ودنيا الشعر — كما قيل — كدنيا الفنون لا يخلد فيها إلا الأعلون .

٢

القصة

لقد كنا نتوق منذ فجر هذا القرن إلى أدب قومى تمليه آمالنا وأمانينا ، ويترجم عن عواطفنا وشعورنا ، ويحلل عاداتنا وتقاليدنا ، ويصور بيئتنا ووطننا ؛ أدب يحيي معالم الماضى ويبرز مظاهر الحاضر ، ويرسم أهداف المستقبل ؛ أدب له خصائصه ومميزاته ، وشخصيته ومقوماته بحيث يذكر إلى جانب الآداب الأخرى ، فيتحدث عن أدب مصرى كما يتحدث عن الأدب الفرنسى والإنجليزى . أدب يعيد إلى العربية مجدها وعزتها ، فيؤخذ منها كما تأخذ من غيرها ويترجم عنها كما يترجم إليها .

هذه هى الأمنية ، ويسعدنا أن نلاحظ – ولما يمض عليها نصف قرن – أنه قد تحقق منها قسط كبير . فإنتاجنا الأدبى خصب متنوع قد تناول أبواب الثقافة المختلفة ، من علم وفلسفة وتاريخ واجتماع ، واقتصاد وسياسة . كتب بلغة العصر وروح العصر ، فاستساغته النفوس وامتزج بالأفئدة . وبلغ بعض كتابنا وشعرائنا الذروة أو دنوا منها ، فأضحوا ولهم عشاق وأتباع فى مختلف الأقطار العربية ، بل لقد امتد أثرهم إلى بعض العواصم الأوربية . ونظرة إلى الوراء قليلا كافية للتدليل على ماخطونا فى هذه السبيل من خطوات .

وليس شىء أحب إلى حملة راية النهوض الأول من أن يروا فى الميدان الجنود والأنصار ، ففى ذلك ما يطمئنهم على ازدهار غرسهم ونجاح دعوتهم ، وما يشعرهم بأن الأمانة التى سهروا عليها قد لقيت من يحسن أداءها ، وأن الرسالة التى اضطلعوا بها قد صادفت من يعرف كيف

يتعهدها . وفى مسابقات المجمع الأدبية ما يكشف عن جيل جديد يبعث على الأمل ويخلق الثقة فى المستقبل . وإذا كان بعض شباب المتأدبين تنقصه الإجادة ولا يعنى بالروية والإتقان ، فنى مثل هذه المسابقات ما يحفز الهمم ويستثير النفوس .

* * *

ولا شك فى أن القصة باب هام من أبواب الأدب ، كان لها حظها فى الآداب القديمة ثم انتهت إلى منزلة سامية فى الآداب الحديثة. فطغت على الرسائل والمقالات ، وحلت محل القطع الوصفية والاعترافات ، وتكاد تستأثر بالأدب المنثور المعاصر . وإذا كان المسرح قد أخذ بيدها بالأمس فإن السينما تفتح اليوم أمامها آفاقاً فسيحة . وإذا كان الخيال والخرافة قد غذتها قديماً بغذاء شهى جذاب ، فإن الرحلة والأسفار تمدها الآن بالطريف من أخبار القبائل والشعوب ، والغريب من وصف الكائنات والبقاع .

تساير القصة الناس فى طباعهم ، وتجرى مجرى إلفهم وعاداتهم ، لذلك صادفت هوى من نفوسهم ، وأضحت من أشد أنواع الأدب تأثيراً فى الجماهير . فيها مناجاة نفسية ، وتخفيف للوعة ، إن كانت قد أملتها ظروف شخصية ، فإنها لا تلبث بمجرد وضعها أن تصبح قدراً مشتركاً وملكاً مشاعاً يتبناه كل من اهتدى إليه . وفيها كشف عن مكنون الصدور وخفىّ الطباع ، يكشف الكاتب فيها نفسه لنفسه أو عن النفس البشرية لقرائه . ويلمس القارئ فيها أموراً كان يتوهمها دون أن يقف على كنهها أو يجد السبيل إلى التعبير عنها . ومع هذا تحمل شيئاً من طابع السرية وإن نشرت وأذيعت بين الناس ، لهذا يحرص قارئها على أن يختلى بها ويفرغ لها على انفراد . وفيها سحر قد ينسى المرء من حوله ، ويصرفه عن طعامه وشرابه ، ويجد فيها من المتاع والأنس ما لا يجده فى حلم لذيذ أو مجلس لم يكدر صفوه مكدر .

والقصة أداة نافعة من أدوات نشر المعرفة والثقافة ، ساغ موردها ، وكثر قراؤها ، فنقلت إليهم فروعاً شتى من العلم والفلسفة ، وصورت لهم آيات الفن والحضارة . وهناك أشخاص يرجع قسط كبير من ثقافتهم إلى ما قرءوا من قصص وروايات ، وهناك آراء ونظريات خدمها الأدب القصصي وساعد على نشرها أكثر مما خدمها الباحثون والعلماء . وفى كلمة واحدة يمكن أن يقال إن القصة وسيلة من وسائل اشتراكية العلم وجعله فى متناول الجميع .

وللأدب العربى القديم جانبه القصصي ، وإن كان دون ما يلحظ فى الآداب القديمة الأخرى . ومن يدرى ، فقد يكون القصص الجاهلى قد ضاع فيما ضاع من آثار أدبية أخرى ، على أن كتب الأدب الكبرى كالأغانى والأمالى والعقد الفريد تحتفظ بأقاصيص مختلفة ، والمعلقات فى قسط كبير منها قصص منظوم . وما إن اختلط المسلمون بالأمم الأخرى حتى تأثروا بقصصها ، كما تأثروا بألوان ثقافتها الأخرى ، وكتاب « كليلة ودمنة » ، و« ألف ليلة وليلة » من أوضح الأمثلة على ذلك . وقد أنشأوا ضروباً جديدة من الأدب القصصي ، كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمتها « مقامات » بديع الزمان والحريرى ، و « رحلة » ابن جبير وابن بطوطة .

غير أن القصة مع هذا لم تبرز فى الأدب العربى بروزها فى الآداب الحديثة . ولهذا قام أدبنا القصصى المعاصر أول نشأته على التقليد والمحاكاة والنقل والترجمة . وإذا استثنينا « حديث عيسى بن هشام » ، وجدنا أن القصص والروايات التى صادفت نجاحاً فى العقدين الأولين من هذا القرن إنما كانت فى أغلبها مترجمة . ثم أخذت القصة المصرية ترسم لنفسها طريقها ، وتستكمل شخصيتها ، فخطت الأقصوصة رويداً رويداً إلى أن أضحت قصة ، وقرأنا من القصص المصرية المبتكرة ما لا يقل روعة وبهاء عن بعض القصص الأجنبية المترجمة ، وأملت عاداتنا وتقاليدنا وماضينا وحاضرنا على الكتاب قصصاً فيه نقد وتحليل وعظة

وحكمة . وبدا وادى النيل فى سمائه الصافية وشمسه الزاهية وطبيعته الهادئة على صورة لوحات فنية أحكم القصصيون صنعها وأجادوا التعبير عنها .

وبذا تعدد القصص المصرى وتنوع ، فنه المسرحى وغير المسرحى ، والخيالى والواقعى. ونحا القصاص مناحى شتى ، فنهم من أولع بالحوار يفضله على أى أسلوب آخر ، ومنهم من اختار السرد والرواية المتصلة ، ومنهم من جمع بين هذا وذاك . ويبدو على بعضهم أنه إلى النقد الاجتماعى أميل ، وفى مناقشة العادات والتقاليد أرغب ، وعلى بعض آخر أنه بالتاريخ ألصق ، يستمد منه مادته ويرسم فى ضوئه أبطاله .

ولا أدل على هذا التنوع من تلك المجموعة التى قدمت للمجمع مرة فى مسابقة القصة . فقد تقدم إليه فى القصة وحدها نحو عشرين متسابقاً ، وبأيديهم ما يقرب من الثلاثين قصة . وواضح أن هذا الرقم لا يمثل كل إنتاجنا القصصى فى الفترة التى حددت ، إلا أن له على كل حال دلالته ، خصوصاً والمتسابقون فى أغلبهم شباب أشربوا حب القصة وتعلقوا بأدبها . وفى إقبال الشباب على القصة ما يبعث على الأمل فيها ويؤذن بمستقبلها الزاهر .

* * *

ويعنينى أن أقف عند قصتين اثنين من هذه القصص الثلاثين : أولاهما « على باب زويلة » للأستاذ محمد سعيد العريان ، والأخرى « خان الخليلى » للأستاذ نجيب محفوظ .

فأما الأستاذ العريان فقد تخرج فى مدرسة دار العلوم وتفرغ لتدريس اللغة العربية ، وعنى بتصحيح العبارات وتقويم الأساليب . ويظهر أنه أحس أن مكتبة الطفل المصرى فقيرة ، وأن وسائل سمره وتسليته محدودة ، فاتجه مع بعض زملائه إلى وضع كتب تلائمه ، ووجد فى القصة خير وسيلة لتسليته . وكان من نتائج ذلك « سلسلة القصص المدرسية » ، التى ظهر منها حتى الآن أربع وعشرون قصة فى أسلوب سهل مبسط .

وإلى جانب مساهمته فى هذه السلسلة ، استقل بمجموعة أخرى قدم فيها اثنتين وثلاثين قصة صغيرة تحت عنوان : « من حولنا » ، وهى أقرب إلى الأقصوصة منها إلى القصة ، تعرض صوراً مصرية ، وتعالج بعض مظاهر حياتنا العامة ، وتتجه نحو الكبار فتقابل « القصص المدرسية » التى وضعت خصيصًا للصغار .

غير أن إنتاجه القصصى الهام قد نحا منحى آخر ، فاتخذ من التاريخ مادته ، وعالج بعض أشخاصه وأحداثه ، يتحدث عنها بأسلوبه ويصورها بفنه . والقصة فى حقيقتها تاريخ للحاضر أو للماضى ، تحكى الواقع وتبرز معالمه ، وتمزج بين الحقيقة والخيال . وقد شاء الأستاذ العريان أن يقف عند التاريخ المصرى الإسلامى ، فكتب أولا « قطر الندى » التى تصور عصر الدولة الطولونية منذ بدئه حتى نهايته ، ثم أتبعها « بشجرة الدر » التى جاءت عنوانـًا صادقـًا لعهد الدولة الأيوبية .

وها هو ذا يقدم لنا أخيراً « على باب زويلة » التى تعرض لقانصوه الغورى وخليفته طومان باى ، فن الدولة الطولونية إلى الأيوبيين ، ومن هؤلاء إلى المماليك . ولا شك فى أن القصة الأخيرة تفضل سابقتيها ، فهى أغزر مادة ، وأدق تحليلا وأعظم عناية بالتاريخ ودقائقه . يؤخذ القارئ بأسلوبها العذب وعباراتها الجزلة ، ونسجها المحكم . إلا أنها من ناحية أخرى كثيرة الشخصيات بحيث عز على كاتبنا أحيانـًا أن يوفيها جميعـًا حقها من التصوير والتحليل ، ومتلاحقة الحوادث بحيث يخشى أن تتداخل ويطغى بعضها على بعض .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظة ، فإن الأستاذ العريان فى صفاء أسلوبه وقوة تعبيره وصدق تصويره واندماجه فى جو الوقائع التى يريد إخراجها ، قد توافر لديه كثير من وسائل الكاتب القصصى ، ولهذا استحق جائزة المجمع .

* * *

وأما الأستاذ نجيب محفوظ فقد نشأ نشأة فلسفية . وتخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، إلا أن أدب القصة قد بهره — فيما يظهر — فشغف به ووجد فيه من رقة الحواشي ما كاد ينسيه جفاف الفلسفة وقسوتها . على أنه يأبى أحياناً إلاّ أن يفلسف القصة ، ويسبغ عليها ألواناً من النظريات الأخلاقية والآراء السيكولوجية .

ولأمر ما قدر له أن يبدأ إنتاجه القصصى بما يصح أن نسميه القصص الفرعونية ، فقد وضع منها ثلاثاً متوالية هي : « عبث الأقدار » ، و « رادوبيس » و « كفاح طيبة » ، وإنها لبداية موفقة سما فيها خياله سموا ملحوظاً ، وظهر استعداده القصصى واضحا ، وأفاد كثيراً من كتاب « مصر القديمة » الذى سبق له أن ترجمه . ولانزاع فى أن هذه القصص الثلاث تربطنا بالتراث الفرعونى ، وتكشف عن دعامة من دعائم الشعور القومى ، وتغذينا فى ناحية يسرنا أن ندخل فى صميمها ونستمتع بها .

ولا أظن أن كاتبنا يسرف أبداً إن عاد إليها ، وعاود الكتابة فيها ، وتتبع شتى أطرافها .

ولكنه شاء أن ينتقل نقلة واسعة ، فرحل من مصر القديمة إلى مصر الحديثة ، وجاوز طيبة ومنفيس إلى الفجالة والدقى . وألف فيما يمكن أن نسميه « القصص العصرية » ثلاثاً أخرى هى : « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » و « زقاق المدق » . وإذا كان يتحدث فى القصص الأولى عن الماضى ويحكى مجد الفراعنة ، فإنه فى الأخيرة ينغمس فى حياتنا الاجتماعية الحاضرة ، فيكشف عن كثير من خباياها ، ويعرض منها صوراً تقرب من الواقع كل القرب . ففيها دراسة واقعية تحليلية لضرب من الأخلاق والعادات فى مختلف البيئات ، وتصوير صادق لبعض التقاليد .

و « خان الخليلى » بوجه خاص تعرض أمامنا أياماً عاشها كثيرون

منا ، وتستعيد ذكريات نشعر إزاءها بشيء من العذوبة . وفيها ما يدل على أن الكاتب شرقي صميم في شرقيته ، قاهري ملم تمام الإلمام بعادات مدينته . هذا إلى أنها ترمز للتطور الاجتماعي الذي تمر به ، وتشير إلى مرحلة الانتقال الحضاري التي نجتازها .

كل ذلك في خيال بديع وتصوير دقيق وتحليل نفسي بارع . وإذا كان في أسلوب المؤلف ما يدعو إلى نقد أو ملاحظة ، فإن فنه القصصي مبعث تقدير واستحسان ، وإذا كانت نشأته الفلسفية قد باعدت بينه قديماً وبين القراءة الأدبية المستفيضة ، فإن واجبه اليوم وقد تفرغ للأدب القصصي أن يستكمل كل وسائله وأدواته . ومهما يكن من أمر هذه الناحية فإن الأستاذ نجيب محفوظ قد أقام الدليل على مقدرته القصصية ، وعلى أنه من كتابنا القصصيين الممتازين ، ولهذا استحق جائزة المجمع وتقديره .

٣

الأدب العربى تجاه مشكلتى اللغة والحرف [1]

١ – للغة سلطان وقداسة تستمدهما من وحى السماء ، أو من إجماع أهل الأرض .

ولقد أفادت العربية كثيراً من جانبيها الدينى والاجتماعى . واكتسبت مناعة وقتها حملات الخصوم والأعداء ، وحمتها من جموح التغيير والتبديل . وبقيت على الدهر بحيث أصبحت لغة قديمة وحديثة معاً ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . إلا أن هذه القداسة كثيراً ما وقفت فى طريق الإصلاح والتجديد ، واعترضت سبل النمو والتطور . فقيل بالحرام والحلال فى أمور تتصل بمتن اللغة وأساليبها وكتابتها ورسمها ، كما قيل بهما فى الحكم على أقوال الناس وأفعالهم . ومع هذا فالزمن يسير ، ولا بد أن تسير اللغة معه ، وربما كان لدعوى القداسة والحرمة أثر فى التأنى فى التجديد ، والتروى فى الإصلاح ، مما يربط الحاضر بالماضى ويساير التطور دون طفرة .

٢ – والأدب حياة اللغة ، يساهم فيه المتحدث والكاتب ، الناثر والشاعر ، الخطيب والصحفى ، المذيع والممثل ، الأديب والعالم ، الشعب والخاصة ، فهو جملة الإنتاج الأدبى فى لغة ما . يتأثر – دون نزاع – بالأحداث السياسية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ، ويصور الحياة

---

(١) كلمة ألقيت بمؤتمر الأدب العربى المعاصر فى روما عام ١٩٦١ فى شىء من التعديل .

الدينية والأخلاقية . يبتلي بالجمود أحياناً ثم ينشط ويتحرك . يأخذ ويعطي ، فيتغذى من الآداب الأجنبية ويغذيها . وهو متنوع ، يختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، فهناك أدب قديم وأدب حديث ، أدب ريفي وأدب حضري ، أدب ديموقراطي وأدب أرستقراطي .

والأديب الحق مبدع ومبتكر ، بقدر ما هو مقلد ومحاك ، يبتكر ألفاظاً وأساليب ، كما يبتكر أفكاراً وأخيلة . ينهج نهج القدامى ويحذو حذوهم ، في الوقت الذي ينافس فيه المعاصرين ويحاول أن يجدد مثلهم . وأنصار الأدب القديم أنفسهم لا يرضون أن تنمحي شخصيتهم ، وتفنى أساليبهم فيمن سبقهم . وأعز شيء لدى الأديب حريته ، فيحرص على أن يكون حراً في تفكيره ، يرسل أحاسيسه ومشاعره كما تبدو له ، حراً في تعبيره يصوغ معانيه على النحو الذي يروقه . ولا يضيره أن يخرج أحياناً على بعض قيود النحو واللغة ، وربما فتح خروجه باباً لنحو ولغة جديدة .

وهكذا كان الأدب العربي ولا يزال ، تنوع بتنوع العصور ، وسار بسير الزمن ، علا وهبط ، قوي وضعف ، ومن الخطأ أن نقف به عند عصر بعينه ، أو أن نقصره على بيئة بذاتها . تأثر بالآداب الأجنبية وأثر فيها ، وكانت له حياة مستقلة وتاريخ متصل ، ويربأ أدباء العرب بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد نقلة أو محاكين ، ويأبون إلا أن ينالوا حظهم من الأصالة والابتكار .

٣ ـ الأدب مادة اللغة ، منه يستمد متنها ، وعليه يقوم نحوها وصرفها . وقد عني الرواة قديماً بجمعه كما عنوا بجمع اللغة نفسها . وأبلوا في ذلك بلاء حسناً ، وإن لم يسلموا من الحشو والخطأ ، ولا سيما أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون قبائل وجماعات ، لكل قبيلة لهجتها ونطقها ، وظروفها وبيئتها ، وأوضح ما يكون هذا الخلاف بين القبائل

العدنانية فى الحجاز والقحطانية فى اليمن ، فكانت تستعمل الكلمة الواحدة فى عدة معان ، أو يعبر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة باختلاف البيئات ، مما أدى إلى تباين المعانى للفظ الواحد وكثرة المترادفات ، وتعدد القراءات . وما إن فتحت الأقطار شرقاً وغرباً ، وتوطدت الصلة بالثقافات الأجنبية ، وبسطت الحضارة الإسلامية ألويتها ، حتى أخذت العربية تتغذى بغذاء جديد لم يأنفه العرب ولم يرهبوه . وكانت ثقتهم بأنفسهم كفيلة بأن يأخذوا الجديد على صورته ، أو يؤقلموه ويصوغوه نوعاً على حسب قواعدهم . واستمروا كذلك حتى جاء عصر الركود ، فكان الجمود والإفلاس والتحريم والتحليل . ويوم أن بزغ عصر النهضة الحديثة ، استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تتقبل الألفاظ والتراكيب الجديدة غير هيابة و لا مترددة .

عنى العرب عناية بالغة بجمع لغتهم وتسجيلها ، فتلقفها الرواة من البادية ، وأعدوا بذلك المادة الضرورية لوضع المعاجم اللغوية . ولا نظن أن لغة ما — قديمة أو حديثة — توافر لها من المعاجم ما توافر للعربية .

ولا شك فى أن هذه المعاجم غزيرة المادة كثيرة المعلومات ، وستبقى على الدهر معيناً لا ينضب لتوضيح غريب الكلمات وغامض النصوص . ولكنها تلتقى فى عيوب مشتركة ، من غموض فى الشرح ، وخطأ بعض التعاريف ، ولا سيما أنها قد عرضت لمواد تبعد نوعاً ما عن اللغة كالتاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات ، وقد تغير اليوم وجه العلم . وكثيراً ما كرر بعضها بعضاً دون تنقيح أو تهذيب ، ويصرح صاحب لسان العرب ، أكبر معجم وصل إلينا ، بأنه لم يصنع شيئاً أكثر من أنه جمع ما ورد فى تهذيب الأزهرى ، وصحاح الجوهرى ، ومحكم ابن سيده ، وحواشى ابن برى على الصحاح ، ونهاية ابن الأثير . وفوق هذا منهج هذه المعاجم ناقص ومعيب — ناقص لأنها وقفت باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثيراً من معالم الحياة والتطور . فهى توضح العربية فى الجاهلية

وصدر الإسلام ، وتكاد تنكر ما عداها ، وبذا لا تمثل عصور اللغة كلها ، ولا العصر الذى وضعت فيه . ومنهجها معيب أيضًا لا تتوافر فيه شرائط فن المعاجم الحديثة من حسن الترتيب ، ووضوح الشرح ، ودقة المعنى ، والاستعانة بالصور والخرائط واللوحات . فنى الرجوع إليها عناء ومشقة ، وفى عرضها حشو واستطراد ، وأصبحت لا تواجه تمامًا حاجة العصر ومقتضياته .

ولقد حاول بعض اللغويين منذ أخريات القرن الماضى تدارك هذا النقص ، فوضع البستانى « محيط المحيط » ، والشرتونى « أقرب الموارد » ، والأب لويس معلوف « المنجد » . وهم — فيما يبدو — متأثرون بالمعاجم الغربية الحديثة ، و« المنجد » بوجه خاص محاكاة صادقة « لمعجم لاروس الصغير » . وهو فى الواقع قاموس عملى ، سهل المأخذ ، غنى بوسائل الإيضاح ، ولا أدل على ذلك من أنه أعيد طبعه ست مرات فى أقل من عشرين سنة ، وفى الطبعة الأخيرة قسم كبير فى الأدب والعلوم ، على غرار « لاروس » ، إلى جانب القسم اللغوى . ولكن هذه المعاجم الحديثة لم تستطع التخلص من قيود الماضى ، ولم تجرؤ على أن تسجل شيئًا من لغة القرن العشرين ، واكتفت بأن تلخص المعاجم القديمة فى ترتيب أحسن ومنهج أقوم .

٤ — ويوم أن أنشىء « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة عام ١٩٣٤ نص فى مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه — « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » ، وقد أخذ نفسه بذلك منذ البداية . وكان من بين أعضائه المستشرق الألمانى « فيشر » الذى عنى بالمعجم العربى منذ أوائل هذا القرن ، ورغب فى أن يخرجه على غرار معجم أوكسفورد التاريخى فيعمد إلى النصوص لتوضيح معانى الكلمات ، ويتتبع تاريخها وتغير مدلولها ، وهى محاولة شاقة ، وشبه متعذرة الآن على الأقل ، لأن العربية أطول تاريخًا من الإنجليزية ، وأكثر مصادر ، ومن بين مصادرها ما فقد

أو ما لا يزال مخطوطاً . ومع هذا بذل « فيشر » فيها جهوداً مضنية ، وشاء أن يتوجها بأن يخرج « معجمه » تحت كنف المجمع اللغوى ورايته ، ولم يتردد المجمع فى أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمده بوسائل العون المختلفة . إلا أن الحرب العالمية الثانية وقفت فى طريقه ، ولم نلبث أن فقدناه بعدها بقليل ، وقبل أن يخرج « معجمه » إلى النور . ولم يبق من جهود أربعين سنة إلا جزازات غير مكتملة وغير مستوفاة ، يحتفظ بها المجمع فى قاعة خاصة تحت تصرف الباحثين .

اضطلع المجمع إلى جانب هذا بوضع « معجم كبير » يستوعب اللغة فى مختلف عصورها ، ومن أهم ما قرر فى مقدمته أن للغة ماضياً وحاضراً ، فلها ماضيها الموروث ، وحاضرها الحى الناطق ، ولا بد أن يلاحظ ذلك فى وضع معجم جديد ، فيستشهد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذى أنشئ فيه ، وتثبت الألفاظ الطارئة التى دعت إليها ضرورات التطور ، وفرضها تقدم الحضارة ورقى العلم . ولا يزال المجمع يوالى جهوده لمتابعة إخراج هذا « المعجم الكبير » . (وقد أخرج منه الجزء الأول هذا العام سنة ١٩٧٠) .

عنى المجمع أيضاً منذ زمن بوضع « معجم وسيط » ، سهل التناول ، ينتفع به طلاب العلم وييسر عليهم تحصيل اللغة ، وتوفر له ما أراد ، وظهرت طبعته الأولى ، ثم عدلت ونقحت ويرجى أن تظهر الطبعة الثانية قريباً . وقد أخذ بحظ وافر من فن المعاجم الحديثة ، فهو محكم الترتيب والتبويب ، يسير الشرح ، دقيق التعاريف ، يكتفى من الشواهد بما تدعو إليه الضرورة ، فى غير غموض ولا تعقيد . يسجل ما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، والمصطلحات العلمية الشائعة ، ويقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، ويهجر الحوشى والغريب .

فالمعجم العربى فى تجدد وتطور شبيه بتطور المعاجم الغربية ، يأخذ بأحدث مبادئ الفن المعجمي وييسر اللغة ، يراد به أن يضع ألفاظ

القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، وأن يهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين العصور اللغوية المختلفة، وفي هذا ما يثبت أن في العربية وحدة تضم أطرافها، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه في قالبها. وقد بذلت في ذلك جهود لا بأس بها، وظهرت معاجم مصطلحات إلى جانب المعاجم اللغوية، ولكن لا يزال الأمر يتطلب جهوداً أخرى وقسطاً أوفر من الجرأة والتحرر.

٥ ـ اللغة تعبير عن وجدانات وأفكار بواسطة أصوات ودوال أقرها المجتمع وأخذ بها، فعناصرها وجدان وعاطفة، فكر ورأى، بيئة ومجتمع، أو إن شئت مدلولات ودوال وكلها متغيرة ومتحركة، فالوجدانات والعواطف في نشوء وارتقاء لدى الأفراد والجماعات، والأفكار تنمو بنمو العلم والدراسة، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع. والحياة الاجتماعية في تبدل وتغير، فمن همجية إلى آخذة في التحضر، ومن نصف متحضرة إلى موغلة في الحضارة والمدنية، وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها، وتنوعت اتجاهاتها وكثرت حاجاتها. وأضحى لزاماً أن تسايرها في كل ذلك لغتها، فتزيد مفرداتها، وتتنوع تراكيبها، وتسمو أساليبها، وتتباين فنون القول فيها.

ووسائل إنهاض اللغة وتطويرها كثيرة، أخصها الوضع اشتقاقاً وتجوزاً وارتجالا، إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس، تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين، التسليم بالتعريب والاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة. وقد أخذ قديماً بمختلف هذه الوسائل فاستباح العرب الوضع في مختلف صوره، وقبلوا كلمات أجنبية أضافوا بها ثروة جديدة إلى لغتهم، فمثلا يستعمل «الأعشى» كلمة «شاهنشاه»، وامرؤ القيس كلمة «السجنجل»، وفي الإمكان حصر الكلمات المعربة فيما وصلنا من أدب جاهلي. وفي «القرآن» كلمات معربة كثيرة، مثل زنجبيل وسلسبيل. أما الاشتقاق والقياس فلم يكن هناك

ما يقيدهما ، وكان العربي ينطق على سليقته فكان نطقه حجة ، وساعد الفتح والاختلاط على التعريب والاشتقاق معاً ، ودفعت إليهما الترجمة وانتشار العلم . وهناك ألفاظ عربية أو معربة إسلامية لم تعرف فى الجاهلية من قبل ، ولم يستنكرها أحد أو يرفضها . ويوم أن ضاقت العقول بدأ التحليل والتحريم ، فأصبح التعريب ممنوعاً ، وحرم الوضع على المتأخرين .

ولقد استطاع « مجمع اللغة العربية » أن يفك كثيراً من هذه القيود ، ويطلق سراح اللغة ، فقال بالتضمين ، والنقل ، والمجاز ، والتعريب ، وأجاز الاشتقاق من أسماء الجواهر والأعيان ، كما أجاز النسبة إلى جمع التكسير . وتوسع فى المصدر الصناعى ، وأقر صيغاً للدلالة على الحرفة والمرض والصوت . وفتح فى اختصار ، باب الاجتهاد فى اللغة ، وكان موصداً من قبل . ولم يقنع بأن يسجل ما أقره الأدباء والعلماء ، بل شاء أن يوجه نحو تطوير اللغة والنهوض بها . وكان لتوجيهه أثره ، وتبارى الكتاب فى التجديد والابتكار . والواقع أن مستحدثات الحضارة والعلم لا تنقطع ، ولا حياة للغة إلا إن واجهتها ، وعرفت كيف تؤديها على وجهها .

٦ — لم تخل الكتابة — بدورها — من طابع دينى ، فقيل إنها من وحى إلهى ، عزاها المصريون إلى الإله توت ، واعتقد العبرانيون أن موسى تلقاها عن الله ، وقال بعض مؤرخى العرب إنها توقيف من آدم ، ولا تزال حتى اليوم مرتبطة بالسحر فى أرقى الشعوب حضارة . وإذا كان للكلمة الملفوظة قوة سحرية ، فالكلمة المكتوبة بها أولى ، ومن ثم كان الكتبة الأول من السحرة . وما إن اختلطت الكتابة بالحياة المدنية وصارت فى متناول عامة الناس ، حتى أخذت تتطور بتطور الزمن . قامت أولا على الصور والأشكال . ثم تحولت إلى رموز وحروف وإن لم تفقد اعتبارات للرسم والفنون الجميلة . وأضحت الكتابة لغة إلى جانب لغة النطق ، ومن بيننا من يتفاهمون اليوم بالكتابة أكثر مما يتفاهمون بالكلام . ولا سبيل

لتعليم بدون قراءة وكتابة ، والصورة الذهنية لكلمة أكثر ارتباطاً برسمها منها بنطقها .

وقديماً قال ڤولتير إن « الكتابة صورة الصوت ، كلما كانت أكثر شبهاً به كانت خيراً » ، فالكتابة المثلى هي التي لا تدل بالحرف على أكثر من صوت ، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف ، ولم نصل إليها فى لغة ما . فى اللغات الحية جميعها ما يكتب ولا ينطق ، ومانيطق ولا يكتب ، وفيها حروف تؤدى عدة أصوات ، وأصوات تؤدى بعدة حروف . ويزيد الأمر تعقيداً تفنن النحاة والصرفيين ، وبعض المخلفات التاريخية التى قضت بكتابة كلمات على وجه معين دون أن يتصل ذلك بنطقها . وكلما اتسعت مسافة الخلف بين اللغة الدارجة والفصحى ، تعقدت مشكلة رسم الحروف ، ويحاول المصلحون دائماً تدارك هذا النقص . وكثيراً ما تعذر عليهم ذلك ، تحت ضغط العرف والتقاليد ، ولأن لغة النطق أسرع تطوراً فى حين أن لغة الكتابة أكثر محافظة .

والخط العربى نبطى الأصل ، يشبه الكتابة النبطية فى رسمها ، واتخاذ شكلين للحرف فى أول الكلمة وآخرها ، واستعمال الفواصل ، وربط الحروف بعضها ببعض . نشأ ونما فى الحجاز حيث التجارة والحضارة والسيادة ، ثم انتقل إلى أجزاء الجزيرة الأخرى . وكانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، مرتبة فى أغلب الظن على حسب الترتيب الأبجدى ، وقد حث النبى الأمى على تعلم الكتابة ، وقبل أن يفتدى أسرى بدر أنفسهم بأن يعلم كل واحد منهم عشرة صبيان مسلمين الكتابة ، وكان وحى كتاب كثيرون . ولكن الكتابة لم تنتشر إلا بعد أن مصّرت الأمصار ودوّنت الدواوين ، وتبارى الخطاطون فى إجادة الخط ، وكان منهم الوزراء والمحدّثون والمؤرخون . وتفننوا فيه فجعلوا منه نسخاً ، وثلثاً ، ورقعة ، وكوفياً ، وفارسياً ، وأصبح فى مقدمة الفنون الجميلة العربية . ودبجت به المصاحف ، وزينت الحوائط والسقوف ، وأعدت منه لوحات آية

فى الجمال . وتنافس الملوك والأمراء فى أن يتوافر لديهم أحسن الخطاطين وأن يقتنوا أروع ما أنتجوا . ولم يقف الخط العربى عند جزيرة العرب وحدها ، بل امتد إلى بلاد أخرى فى آسيا وإفريقيا وأوربا ، وسار مع الإسلام أينما سار . فاستعمله الفرس والترك والهنود والملايو والمصريون والمغاربة ولغات مختلفة من إفريقيا ، ويكاد يصعد عدد الشعوب التى تستخدمه إلى نحو ٣٠٠ مليون نسمة .

ومنذ عهد مبكر ظهر أن الحروف وحدها لا تكفى فى التعبير عن الأصوات وضبط النطق ، خصوصاً بعد أن اختلط العجم بالعرب وضعفت السليقة ، وبدأت تبعد المسافة بين اللغة الدارجة والفصحى . والعربية لغة إعراب ، يتغير فيها معنى الكلمة بل معنى الجملة بتغير النطق ، وكم تحدث أبواب الفعل الثلاثى ومصادره من لبس ، وقد تختلط الأسماء المبنية والمعربة والمصروفة والممنوعة من الصرف . فالتجئ إلى الشكل بوضع نقطة فوق للفتحة ، ونقطة أسفل للكسرة ، ونقطة على شمال الحرف للضمة ، وأهمل السكون ثم تحولت هذه النقط إلى حروف صغيرة ، ولوحظ كتابتها بلون غير لون الحروف نفسها . وزيادة فى الضبط وتفرقة للحروف المتشابهة رسماً بعضها عن بعض استخدم الإعجام ، فنقطت الجيم والخاء مثلا وأهملت الحاء ، وعلى أساس هذا الإعجام رتبت حروف الهجاء على النحو المألوف اليوم . وعلى هذا عدل الخط العربى وهذب وضبط ، تبعاً لحاجات العصر ومقتضياته .

ولا شك فى أن رسم المصحف وضبطه كان الشغل الشاغل ، ولم يحس أبو بكر وعثمان عند جمعهما للقرآن بحاجتهما إلى نقط أو شكل ، ولكن ما لبث المسلمون أن تبينوا ضرورة ذلك . وكتب القرآن برسم أريد به أن يكون تعبدياً ، وإن لم يتفق مع الهجاء وقواعد الإملاء . وأصبح أثراً تاريخياً اجتمع لنا به كتابتان : إحداهما قرآنية ، والأخرى غير قرآنية . وزاد الأمر تعقيداً قواعد رسم الهمزة والألف اللينة التى يلاقى فيها المبتدئون

من التلاميذ بل المنتهون عنتاً شديداً. وهناك أعلام وكلمات أعجمية معربة تشتمل على أصوات لا وجود لها فى العربية، وكثيراً ما خلط العرب فى نطقها، ولعل ابن خلدون من أقدم من تنبهوا إلى ذلك وحاولوا معالجته. وفيما عداه لم تلفت هذه الصعاب النظر، وبقيت الكتابة العربية وكأنها براء من كل عيب، لها قداسة تحول دون التفكير فى تهذيبها وإصلاحها.

٧ — وفى أخريات القرن الماضى أثيرت صعاب الكتابة العربية، على غرار ما أثير حول الكتابة الفرنسية والإنجليزية فى الغالب، لا سيما أن الشقة قد بعدت بين الدارجة والفصحى بعداً دفع فريقاً من الناس إلى الدعوة إلى العامية والانتصار لها. وفوق هذا فى إصلاح الكتابة استجابة لمقتضيات تعليم الشعب ومحاربة الأمية، ذلك لأن الكتابة لم تعد بعد وقفاً على أرستقراطية فكرية أو اقتصادية كما كانت فى الماضى، بل أضحت حقاً مقرراً للجميع، وينبغى تيسيرها ما أمكن. والناس عادة أمام الإصلاح فريقان: محافظون يرون أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ومجددون يلاحقون سير الزمن، وهؤلاء بدورهم متطرفون يأبون إلا أن يقطعوا الشوط دفعة واحدة، أو معتدلون يذهبون إلى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة، ولا بد أن يسير الإصلاح فى تدرج وهوادة. ولقد صادفتنا فى نصف القرن الماضى مشاكل لغوية متعددة وفى مقدمتها — دون نزاع — مشكلة الكتابة التى كانت ولا تزال موضع أخذ ورد.

وقدمت لها حلول شتى تتلخص فى اتجاهين رئيسين يرمى أحدهما إلى إحلال اللاتينية محل الكتابة العربية، ويحاول الآخر أن يعدلها على نحو يعالج ما فيها من غموض أو لبس. وليس القول بالحروف اللاتينية جديداً، فقد عرض فى أخريات القرن الماضى، وأكده داود الجلبى فى العقد الأول من هذا القرن، وشجعت عليه تجربة الأتراك وإن اختلف

وضع لغتهم كثيراً عن العربية . وظهر فى عام ١٩٦١ كتاب « يارى » ، الذى شاء به الأستاذ سعيد عقل أن يطبق الحروف اللاتينية على الكتابة العربية تطبيقاً عملياً . ولكن أحداً لم يدرس هذا الموضوع دراسة المرحوم « عبد العزيز فهمى » عضو مجمع اللغة العربية ، وليس فى مكنة كثيرين أن يدافعوا عنه دفاعه ، ومع ذلك لم يحظ بالقبول .

والواقع أن « مجمع اللغة العربية » عنى منذ ربع قرن بتيسير الكتابة العربية ، وأعد جائزة مالية لأحسن اقتراح فيها . ووصلته عشرات الاقتراحات التى قضى زمناً فى بحثها ، ولم يرتض واحداً منها . وفى مقدمة ما عرض عليه مشروع « عبد العزيز فهمى » ، الذى وقف عليه دورة كاملة من دورات مؤتمره . ودون أن ندخل فى تفاصيله ، نكتفى بأن نشير إلى أنه لا يقنع بمجرد إبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، بل يلاحظ أن هناك أصواتاً خاصة بالعربية، ويحاول أن يؤديها بحروف لاتينية مركبة على نحو ما صنع المستشرقون من قبل . وإذا كنا « نفهم لنقرأ » على غير ما ينبغى، فيزعم أن مشروعه ينتهى بنا إلى الوضع السليم وهو أن « نقرأ لنفهم » ، وهو بهذا يصوب إلى معالجة مشكلتى الكتابة والقراءة معاً . ولقد رد عليه داخل المجمع وخارجه ، ومن أهم ما أخذ على اقتراحه أنه يقطع الصلة بالماضى لمستقبل غير موثوق به . فإن الحروف اللاتينية لا تتلاءم مع طبيعة العربية لغة الإعراب والصرف ، هذا إلى أنها أقل اختزالاً من الحروف العربية وتشغل حيزاً أكبر ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ولها أخيراً صعوباتها ، وليس ثمة كتابة تخلو من صعوبات . وما صنعه الأتراك لا يقاس عليه لأن لغتهم أضيق مجالاً وأقل استعمالا ، وماضيها لا يذكر فى شىء بجانب ماضى اللغة العربية ، وليست لها كتابة خاصة بها تحاول العدول عنها . وجاء أخيراً كتاب « يارى » دليلاً عملياً على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة ، فإنه لا يقرا ولا يفهم قبل أن يعرب .

أما المقترحات الأخرى فتبقى كلها على الحروف العربية معدلة رسمها ،

أو مدمجة للشكل كما هو فى جسم الحرف ، أو مستعملة حروف العلة بدلا منه . ولم يكن غريباً أن يرفض كل هذا ، لأنه فضلاً عما فيه من تنكير لا يحقق شيئاً من التيسير .

واستمر المجمع يقلب الأمر على وجوهه ، وآثر أن يدع مؤقتاً الكتابة اليدوية ، ويشغل خاصة بحروف الطباعة والآلات الكاتبة ، وتبين له أن فى الإمكان اختصار صور الحروف بتمثيل الحرف بصورة واحدة ما أمكن على اختلاف مواقعه من الكلمة ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربى وفنه وتجنب المباعدة بين القديم والجديد . ولم يفته أن يعالج صور الهمزة وكتابة الأرقام وعلامات الشكل والترقيم ، وأدخل عليها كثيراً من الاختصار والتحسين . وانتهى إلى طريقة تهبط بصور الحروف ولواحقها للجمع المشكول شكلا كاملا إلى ١٣٥ ، بعد أن كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٧٠ بحسب الجمع الآلى واليدوى .

وهذا ولا شك اختصار يوفر كثيراً من الجهد والمال ، وبه يصبح صندوق الطباعة العربية قريباً من صندوق الطباعة بالحروف اللاتينية التى يبلغ عددها ١١٥ . وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل فلم تستنكرها العين ، ولم تخل من الجمال . وأساسها خط النسخ المستعمل فى الطباعة ، والمألوف لدى كل من يكتبون بالعربية .

وتيسيراً للقراءة رأى المجمع أن يلتزم الشكل فى كتب مراحل التعليم العام على درجات متفاوتة وفى حدود قواعد واضحة ، وأن يوضع فى مكان ثابت من الحروف تألفه العين ولا يختل به توازن السطور ، وأن يوضع النقط فى موضع ثابت نفياً للاشتباه .

وكم دعا المجمع إلى تيسير النحو والإملاء ، ووضع فى ذلك مشروعات محددة . ونادى من قديم بوضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التى لا مقابل لها فى العربية ، وحاول رسم طريقة لكتابة الأعلام الأجنبية .

* * *

ودعوات كهذه إن لم يستجب لها اليوم، فهى آخذة طريقها لا محالة ، ومن يدرى فقد يكون فى تيسير الكتابة المقترح ما يؤدى إلى اختصار أعظم ، أو ما ينتهى إلى كتابة الحروف منفصلة بحيث لا تأخذ إلا شكلا واحداً ؟ وهناك اتجاه عام يؤثر التدرج ويأبى الطفرة ، لأن من الخير أن يربط الحاضر بالماضى ، وابتكار طريقة جديدة للكتابة إن فرض على شعب بوسيلة ما ، فلا سبيل لتطبيقه على شعوب أخرى لا تقره . ونحن جميعاً عبيد الإلف والعادة ، ولا نزاع فى أن الجماعات والأفراد تخضع لهما أكثر مما تخضع للعقل والمنطق .

٤

الأدب العربى المعاصر

يسير الأدب واللغة دائماً فى ركب الحضارة ويحملان طابعها : وأدبنا الحديث ثمرة نهضتنا وصدى ليقظتنا ووعينا ، تعددت موارده . وتنوعت ثماره. وأخذ ينافس الآداب الأخرى، ويقف معها جنباً إلى جنب.

وأذكر أنه منذ عشر سنوات وقفت مجلة Preuves الفرنسية على الأدب العربى ندوة من ندواتها التى تعقد بباريس يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وأشرف عليها الأستاذ Le Serf أستاذ الأدب العربى بمدرسة اللغات الشرقية وكان موضوعها : «هل يمكن أن يعد الأدب العربى بين الآداب العالمية ؟» .

وبعد هذه الندوة ببضعة أشهر ، عقدت فى روما حلقة حول « الأدب العربى المعاصر » ، واشترك فيها بعض المستشرقين ، وعدد من كبار أدباء أوربا وأمريكا ، ونخبة من الكتاب والشعراء فى العالم العربى .

وفى هذه الحلقة وتلك الندوة ، أثيرت مشاكل كثيرة حول أدبنا فى لفظه ومعناه ، فى أسلوبه وموضوعه ، فى نثره ونظمه ، فى قصصه ورواياته ، فى إذاعاته ومسرحياته ، فى صلته بالفكر والثقافة العالمية ، فى مدى استجابته لمبتكرات العلم والحضارة ، فى تأثره بالمذاهب والنظريات الحديثة ، أدبية كانت أو اجتماعية أو سياسية ، فى حرية الأديب العربى وقدرته على الخلق والابتكار .

وقد عولجت هذه المشاكل على اختلافها فى حلقة روما خاصة علاجاً مستفيضاً ، وأثيرت حولها مناقشات ممتعة :

ولا نزاع فى أننا صنعنا أدبًا عربيًا ، يعبر عن بيئتنا ومجتمعنا ، ويترجم عن إحساسنا ووجداننا ، أدبًا فيه يسر وطلاقة ، وبيان ووضوح . يصوب إلى الهدف فى دقة ، ويحاول أن يصل إلى الغاية من أخصر طريق . أدبًا يأخذ عن العلم والتكنولوجيا ، ويصور المذاهب والإديولوجيات المعاصرة ويلتقى مع عصر السرعة الذى نعيش فيه . وأصبحنا نفرق بين أدب حديث وآخر قديم ، بين أدب معاصر وأدب كلاسيكى .

ولأدبنا المعاصر خصائصه ومميزاته ، فهو دون نزاع أكثر تنوعًا من الأدب القديم ، فيه أدب القصة والمسرح ، والإذاعة والسينما ، إلى جانب ألوان الأدب التقليدية ، من بحث وتأليف ، وخطب ورسائل ، ونقد ومقالة . وهو دون نزاع أيضًا أكثر اتصالاً بالجماهير ، عن طريق الصحافة والإذاعة ، والمسرح والسينما . وإذا لاحظنا أنا نعيش فى عصر نشر التعليم ، ومحاربة الأمية ، أدركنا أن جمهور الأدب يزداد عامًا بعد عام ، بل يومًا بعد يوم . يزداد كلما فتحنا مدرسة أو فصلا جديداً ، يزداد كلما نظمنا إذاعة أو أقمنا داراً للمسرح أو السينما . والثقافة الشعبية واجب هام من واجبات الدولة اليوم ، ترعاها وتغذيها بأكمل غذاء .

وقد تضافرت على خدمة أدبنا المعاصر معاهد متنوعة ، ومراكز ثقافية متعددة ، وكنا بالأمس لا نتحدث إلا عن بعض العواصم الأدبية الكبرى ، أمثال بغداد ودمشق ، والقاهرة والقيروان ، أما اليوم فنستطيع أن نضم إليها عشرات المدن العربية الأخرى التى تزخر بدراسة الأدب وتولع به . . . ويمكن أن نضم إليها مدنًا أخرى غير عربية فى آسيا وأوربا وأمريكا . ففى باكستان والهند وأندونيسيا يدرس الأدب العربى ، كما يدرس فى روسيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا — ويدرس فى كثير من جامعات الولايات المتحدة ومعاهدها ، كما يدرس فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية ، ولأدب المهجر شأن فى نهضتنا الأدبية الحديثة .

ولم يقطع الأدب المعاصر شوط النهوض فى يسر وسهولة ، فقد قاسى

ما قاسى من استعمار طاغ ، واستبداد متحكم ، وجمود قاتل ، وجهل متفش . بدأ يناضل فى أخريات القرن الماضى ، ووثب وثبة قوية فى الخمسين سنة الأخيرة ، وحياته فى أن يواصل السير والحركة ، ولا يتوقف عن النضال يومًا . ومن أهم ما عانى ذلك الصراع الدائم بين المحافظة والتجديد ، بين الاتباع والابتداع . وسر نجاحه فى تلك المحاولة الجادة والمستمرة التى تهدف إلى المواءمة بين الأمس واليوم ، والتوفيق بين القديم والجديد ، مما لم يتوافر لكثير من الآداب الأخرى . فهو فى آن واحد سلفى وتقدمى ، محافظ ومجدد ، ومن الخرق أن نحاول اليوم الخروج على هذه الموازنة الدقيقة التى تربط الحاضر بالماضى ، ونتخذ من تراث الآباء عدة للمستقبل ، لنجدد ما شئنا ولكن فى ضوء هذه الحدود .

* * *

يتساءل أحيانًا عن منزلة الأدب العربى بين الآداب العالمية الكبرى ، وقد لا تخلو الإجابة عن هذا السؤال من هوى زائف ، أو تعصب أعمى . والأمر أسمى من أن يحمل هذا المحمل . وجدير بنا أن نتفق أولا على مدلول الأدب العالمى ، وعندى أنه ذلك الأدب الذى يعالج الإنسان والطبيعة معالجة فيها أصالة وابتكار ، فهو أدب مبدع خلاق يسمو على الزمان والمكان ، ويصبح ملك الإنسانية جمعاء . ينشده عشاقه ، ويسعى وراءه طلابه ، دون بحث عن جنس أو وطن . وعلى هذا ليس ثمة أدب عالمى فى كل ثماره ، ويوم أن يتوافر لأدب إنتاج يتسم بالإبداع والبراعة عدّ لا محالة فى مصاف الآداب العالمية ، والأثر الفنى الباهر فى غنى عن الحسب والنسب والاعتداد بالجنس والوطن ، وله من قيمته الذاتية ما يؤهله للذيوع والخلود .

ولقد كان لنا بالأمس أدب فاق كل الآداب المعاصرة ، وأمدها بفيض منه ، فغذى الأدب الفارسى والتركى ، وزود الأدب السريانى والعبرى ، وامتد إلى اللغات الأردية والهندية . وبزّ بوجه خاص الأدب اللاتينى الذى

ساد أوربا نحو عشرة قرون ، وأغدق عليه من ثماره ، وفتح أمامه آفاقًا جديدة ، وكان له شأن فى نهضة أوربا العلمية والأدبية .

وينحو أدبنا اليوم هذا المنحى مرة أخرى ، فيحاول أن يجدد وينوع ، وأن يبدع ويبتكر ، وأن يسهم فى ميدان الثقافة العالمية — واستطاع أن يحقق فى نصف قرن ، ما لم تصل إليه آداب أخرى فى أجيال متلاحقة — وأضحى لا يقنع بمجرد الأخذ عن الآداب الكبرى ، بل طمع فى أن يعطيها ، وقد أعطاها فعلا ، فترجم قدر من ذخائره إلى عدة لغات أجنبية . وهو مع هذا كله لا يزعم مطلقًا أنه بلغ الغاية ، ولا يزال أمامه آفاق يفتحها وميادين يغزوها ، وصعاب يذللها . ونظرة إلى الوراء قليلا كفيلة بأن تطمئننا إلى أنه يسير إلى الأمام دائمًا ، وأن الأخذ عنه فى زيادة مطردة .

خاتمة

عنى الباحثون بالدراسات اللغوية عناية كبيرة منذ النصف الأخير من القرن الماضى ، وعالجوها من جوانب مختلفة : بين فيلولوجية وتاريخية ، سيكلوجية واجتماعية . ونالت العربية حظا غير قليل من هذه العناية ، فربطت بأخواتها السامية ، وكشف عن كثير من لهجاتها القديمة والحديثة ، وأصبحنا نؤمن بأن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن ، وتتطور بتطور المجتمع . ولم يصل هذا الإيمان إلى درجة من اليقين قدر ما وصل إليه اليوم ، لأنا نلمس سير لغتنا معنا ، ونحن نعيش فى عصر السرعة ، ونرى ونسمع ما يدخل فيها من ألفاظ وتراكيب جديدة ، ولّدها العلم ، ودعت إليها ظروف الحضارة . وما دام الفكر فى تجدد ، فلا مناص من أن تتجدد اللغة معه ، ولا بد لكل فكرة جديدة من لفظ يؤديها .

واللغة الجامدة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، ولا تستطيع أن تؤدى وظيفتها أداء كاملا . وجمودها فى الغالب صدى لجمود الناطقين بها ، فإن تحركوا تحركت معهم لا محالة . ولم يبق محل لأن نقول « بلغة مثالية » لا تقبل التعديل ولا التبديل ، تلك فكرة بالية ولا يمكن الأخذ بها . هناك عصور مزدهرة فى الأدب واللغة ، وعلينا أن نحاكيها ونفيد منها ، وفى وسعنا أيضًا أن نضيف إليها ونجددها . وتلك مهمة الأدباء واللغويين والعلماء والفنيين ، فهم مطالبون دائمًا بأن يبتكروا ويجددوا ، وعليهم أن يملأوا العربية حياة وقوة ، كى تصمد فى الصراع الحضارى واللغوى الذى نعيش فيه اليوم ، وتستعيد مجدها بين اللغات العالمية الكبرى .

وفى طبيعة العربية ما يعينها على هذا الصراع ، فهى لغة اشتقاقية ،

وفى الاشتقاق ما يكسبها مرونة ومناعة فى آن واحد ، وعن طريقه يمكن أن نخلق ألفاظاً جديدة تنمى اللغة وتسد الحاجة . ومن الخير أن نتوسع فيه ما أمكن ، فنفك بعض قيوده ، ونشتق مما قيل إنه لا يشتق منه . وهذا ما أخذ مجمع اللغة العربية نفسه به منذ نشأته ، وكلما توسعنا فى الاشتقاق استغنينا عن العامى والأعجمى . ولا محل لأن نغلق باب القياس فى اللغة ، وإن قال بذلك قوم ، فإنما يغلقونه على أنفسهم . وفى وسعنا أن نقيس كما قاس الأقدمون ، وأن نقعد القواعد مثلما قعدوا . وباب الاجتهاد مفتوح فى التشريع واللغة على السواء ، ما دام يضطلع به من هو أهل له .

وإن عز علينا أن نقيس أو أن نشتق ، فلا بأس من أن نعرب ونتبنى بعض الألفاظ الأجنبية . واللغات يأخذ بعضها عن بعض دائماً ، أخذت قديماً ، ولا تزال تأخذ حديثاً ، وما تأخذه ثروة مستحدثة تضاف إلى الثروة الموروثة . ولا نظن أحداً يرفض التعريب اليوم مادامت تدعو إليه حاجة ، وتقضى به ضرورة ، والأمر المعيب إنما هو الإسراف فيه عن جهل أو كسل ، وقد حاول مجمع اللغة العربية أن يضع له بعض القيود والضوابط .

تلك هى القضايا اللغوية الكبرى التى دارت حولها هذه البحوث ، وقد حاولنا تطبيقها فى ميدانين هامين من ميادين اللغة ، وهما المصطلح العلمى ، وفن المعجمات ، وللعلم والفن لغة وثيقة الصلة بلغة الأدب ، وهى بدورها فى تطور مستمر ، وتطورها اليوم مشاهد ملموس ، وهى فى تطورها خاضعة لما قررنا من مبادئ ، فالعالم أو الفنان كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية أو الفنية ، ولكن عليه أن يبحث عنه أولا فى الفصحى ، فإن لم يجد استعان بالعامية دون خروج على أصول العربية ، وإن عز عليه ذلك لجأ إلى التعريب ، نزولا عند حكم الضرورة ، ورغبة فى أداء المعنى أداء صادقاً .

وكان لا بد للمعجم اللغوى أن يتطور أيضًا فى مادته ومنهجه ، فتضاف إليه ألفاظ خلا منها ، وترتب أبوابه ترتيبًا أنظم وأيسر ، وتصاغ تعريفاته صياغة واضحة دقيقة ، تعين على الفهم ، وتتفق مع ما انتهى إليه العلم من آراء ونظريات . وقد خطا المعجم العربى خطوات فسيحة فى القرن العشرين ، وأصبح لا يختلف عن كثير من المعجمات الأوربية الحديثة فى ضبطها ودقتها . وأسهم مجمع اللغة العربية فى ذلك بنصيب كبير ، فرسم منهج التأليف المعجمي فى عناية ، وطبقه فى معجميه « الوسيط » ، و« الكبير» . وينبغى أن يعبر معجم القرن العشرين عن اللغة فى مختلف عصورها ، فيضم ألفاظًا حديثة إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، ويشتمل على قدر من المصطلحات العلمية والفنية ، ويلتزم ترتيبًا سهلاً ، فترتب كلماته ما أمكن على حسب نطقها لا على حسب تصريفها . ومشكلة التبويب من صعوبات المعجم العربى ، وقد بذلت فيها فى نصف القرن الأخير جهود متلاحقة ، انتهى بعضها إلى الأخذ بالترتيب الأبجدى الصرف دون مراعاة لمادة لغوية أو تصريف . ونحن نرحب بالتيسير دائمًا ، ولكنه قد يؤدى أحيانًا إلى عكس المراد منه ، وهو هنا لا يتلاءم مع طبيعة العربية ، ولكل لغة خصائصها ومميزاتها ، وما يصلح لواحدة منها قد لا يصلح للأخرى .

* * *

وأما الأدب فلم نقف عنده طويلا ، واكتفينا بأن نشير منه إلى جانبين اثنين تبدو فيهما فكرة التطور واضحة ، وهما الشعر والقصة . وقد تطور الشعر العربى من قديم ، تطور فى لفظه ومعناه ، كما تطور فى أخيلته ومبناه . والأوزان الشعرية متنوعة ومتجددة ، والعروضيون وحدهم هم الذين يأخذون بحور الخليل مأخذ القوالب الجامدة . أما الشعراء فيعتدون بعبقريتهم ، ويحرصون على حريتهم فى تجديدهم واختراعهم ، ومنهم من لا يعرف العروض مطلقًا ، والموشحات — مثلاً — لون من ألوان الشعر

ابتدعه الأندلسيون ، وتفننوا فيه كل التفنن . والشعر الشعبى باب هام من أبواب الأدب ، ولا يقف عند بحور الخليل وأوزانه . « والشعر الحر » ، الذى دار حوله جدل طويل ، لون آخر لا نستطيع إنكاره جملة ، وإلا أنكرنا على الشاعر حقه فى الابتكار والاختراع ، ولا نستطيع أن نقبله على علاته ، لأنا متفقون على أنه لا شعر إلا حيث الخيال المبدع والوزن الموسيقى .

والقصة باب كبير من أبواب الأدب ، عرفت فى الآداب القديمة ، وبلغت القمة فى الآداب الحديثة . وفى الأدب العربى القديم جانب قصصى ، يمكن أن يعد منه تلك الأقاصيص التى وردت فى بعض كتب الأدب الكبرى « كالأغانى » ، « والأمالى » ، و العقد الفريد » . والمعلقات فى قسط كبير منها ضرب من القصص المنظوم . ويوم أن اختلط العرب بالأمم الأخرى تأثروا بآدابها ، ونقلوا عنها قصصاً هامة مثل « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » . وابتكروا ألواناً من القصص الأدبى خاصة بهم كالمقامات والرحلات ، وفى مقدمته « مقامات » بديع الزمان والحريرى ، و « رحلة » ابن جبير وابن بطوطة ، إلا أن القصة لم تبرز فى الأدب العربى بروزها فى الآداب الأخرى ، وكان لا بد أن ننتظر إلى القرن العشرين ، لكى تأخذ القصة مكانتها فى أدبنا المعاصر . واستطعنا أخيراً تحت سنة التطور أن نضع قصصاً لا تقل بهاء وروعة عن بعض القصص الأجنبية ، فيها تحليل تاريخى ونقد اجتماعى ، فيها وصف لأماكن وبقاع وتصوير لبعض الطبائع والخصال ، فيها علم وفلسفة وفن حضارة . تمزج الخيال بالواقع ، وتكشف عن مكنون الصدور وخفى الطباع . وأصبح لدينا أدب قصصى يؤخذ عنه كما نأخذ عن الآداب الأخرى .

الفهرس

صفحة

صفحة

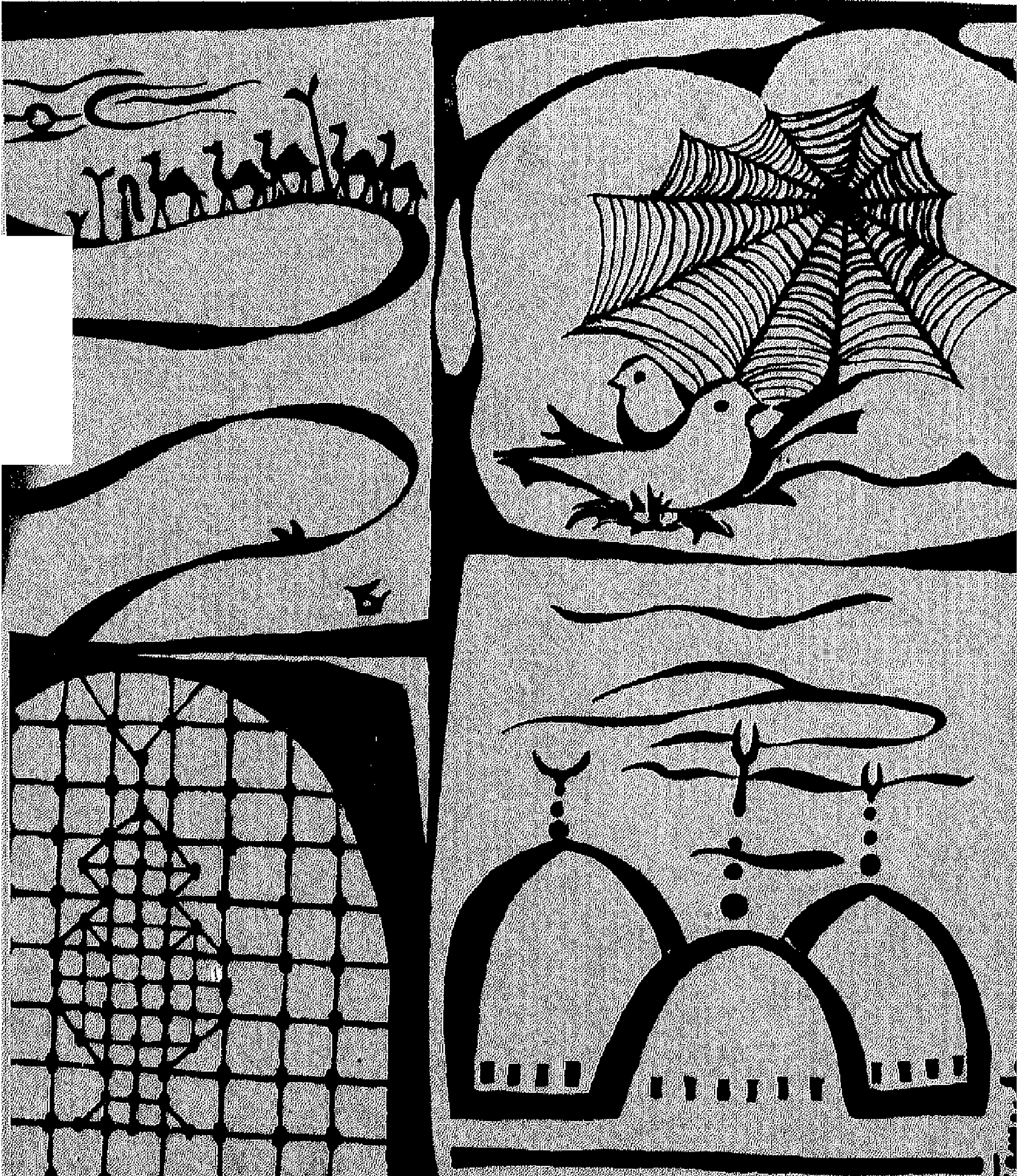
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٦٣٤٧

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

اقرأ

محمد الدسوقي

الهجرة في القرآن

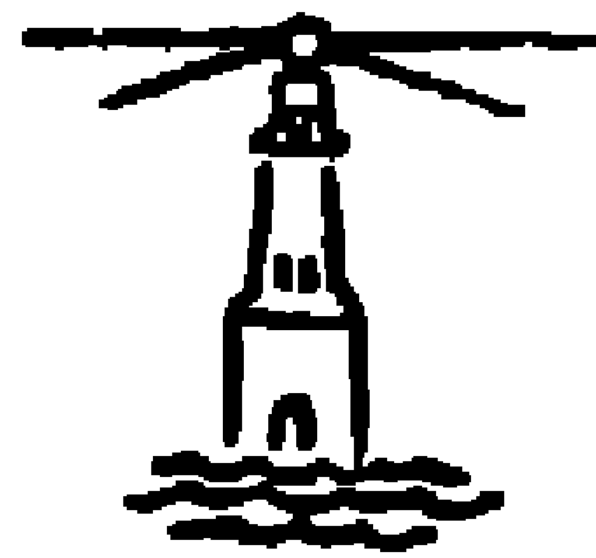


لبنان ١٠٠ ق . ل   سوريا ١٠٠ ق . س   الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع الخليج العربي ١٥٠ ف السعودية ٢ ريال
عدن ٢,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليما   ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٧٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم و تفكير الغد

محمد الدسوقى

الهجرة فى القرآن

اقرأ ٣٣٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٨ - فبراير سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي الذى جاهد فى الله حق جهاده حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى البشرية إلى سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة .

وبعد فإن الهجرة من مكة إلى المدينة تعد من الأحداث الفاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كانت نهاية لعهد تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى . فما ضعفوا وما استكانوا ، وبداية لعهد جديد نصر الله فيه الإسلام على أعدائه نصراً مؤزراً، حيث خاضت القلة المؤمنة حروباً عديدة ضد الكثرة المشركة ، فما أجدت كثرة المشركين شيئاً ، وما حالت قلة المؤمنين بينهم وبين الظهور على أعدائهم ، لتصبح كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الهجرة حديثاً مجملا يعتمد على الكلمة الموحية والعبارة الموجزة ذات الدلالات الضخمة والمعانى الكبيرة ، وهذا منهج القرآن بوجه عام فى عرضه للأحداث والأحكام ، على أن حديث القرآن عن الهجرة لم يكن خاصاً بذلك الحدث الرائع الذى ارتبط بتاريخ الأمة الإسلامية كل الارتباط وأصبح رمزاً على الفداء والتضحية والجهاد ، ولكنه تجاوزه إلى ما يتصل بالمعنى اللغوى لكلمة الهجرة ، وإن كان بين هذا المعنى وذلك الحدث صلة وثيقة ومعان مشتركة .

يقول ابن فارس فى مقاييس اللغة عن مادة هجر الهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع ، والآخر على شد شيء وربطه .

فالأول الهجرة : ضد الوصل ، وكذلك الهجران ، وهاجر القوم من دار إلى دار : تركوا الأولى للثانية كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة . ثم قال : ومن الباب : الهُجر الهذيان . يقال : هجر الرجل ، والهُجر الإفحاش فى المنطق . يقال : أهجر الرجل فى منطقه قال :

كما جدة الأعراق قال ابن ضرة　　عليها كلاماً جار فيه وأهجرا

ورماه بالهاجرات ، وهى الفضائح ، وسمى هذا كله من المهجور الذى لا خير فيه . ويقولون : هذا شيء هجر ، أى لا نظير له كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها .

وهذه الدراسة عن الهجرة فى القرآن تتناول كل ما جاء فى الكتاب العزيز من آيات تشتمل على مادة « هجر » ، مع الاهتمام بإبراز أهم أحداث الهجرة التاريخية فى ضوء الآيات القرآنية دون اهتمام بالتفاصيل الجزئية والأحداث الفرعية ، مع الاستهداء فى هذا بكتب الحديث والتفسير والسيرة .

وقد اقتضى منهج البحث أن أقدم له بدراسة سريعة عن مراحل الدعوة قبل الهجرة ، ويعقب هذا حديث عن أسباب الهجرة وعرض لأهم أحداثها وإشارة إلى هؤلاء المجاهدين، الصادقين من المهاجرين والأنصار ، أولئك الذين أخلصوا لله وضربوا أروع الأمثلة فى ثبات اليقين وجلال الفداء .

ثم تناولت بعد هذا دراسة الآيات التى وردت فيها مادة « هجر »

دون أن تكون لها علاقة بأحداث الهجرة التاريخية ..

وعقدت فصلا موجزاً عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » لأن لهذا الحديث صلة حميمة بغاية الهجرة ، ولأن من العلماء من شرحه شرحاً يتعارض مع هذه الغاية .

وجاءت خاتمة هذه الدراسة تسجيلا لما انتهت إليه من دروس ونتائج . .

وكل ما أطمع فيه أن أكون قد قدمت عملا نافعاً يلقى مزيداً من الضوء على بعض آيات الكتاب العزيز وأن يكون فى هذه الدراسة ما يهدى إلى التى هى أحسن .

والله ولى التوفيق

محمد الدسوقى

مجمع اللغة العربية

مراحل الدعوة قبل الهجرة

— ١ —

مما لا خلاف عليه أن الناس كافة وأهل الجزيرة العربية بوجه خاص كانوا قبيل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاجة ملحة إلى من ينير لهم طريق الخير ويحول بينهم وبين ما هم فيه من جهالة وضلالة .

لقد فقد المجتمع البشرى كل أسباب الاستقرار والأمن ، وأصبح منطق الغابة سائداً بين الجميع وهجر الناس بوجه عام تعاليم الرسالات الإلهية وأخذوا يسجدون لأصنام وأوثان يصنعونها بأيديهم ، وانحرفت لدى بعضهم عاطفة الأبوة انحرافاً شاذاً ، فكان إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون . وعلى الجملة فإن الظلام كان مطبقاً ، ظلام العقائد والعادات والأخلاق ، وكان لا بد أن يشرق الفجر الذى يبدد الغياهب ويهدى إلى سواء السبيل حتى تستطيع البشرية أن تواصل مسيرتها على ظهر هذه الأرض كما أراد لها الله .

وانبثق الفجر فى بطحاء مكة ببعثة محمد بن عبد الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته قد حبب إليه الخلاء ، فكان يعتكف الليالى ذوات العدد فى غار حراء، يفكر فى ملكوت الله ، لقد اصطفاه رب العالمين لحمل الرسالة الخاتمة والهداية العامة ، وكانت

تلك الفترات التى هجر فيها الحياة فى مكة ولجأ إلى ذلك الغار يقيم فيه وحده لا يهاب شيئاً بمثابة الإعداد للقيام بأمر السماء يبلغه إلى الناس مهما واجهته الشدائد والمصاعب .

ونزل الوحى على الرسول فى الغار وكان فى نحو الأربعين من عمره ، فقال له جبريل اقرأ وكان محمد أمياً لا يعرف الكتابة والقراءة فقال : ما أنا بقارئ فضمه جبريل فى شدة ثم أرسله وقال له : اقرأ ، فرد الرسول عليه بمثل ما قاله أولا ، وكرر جبريل ضم الرسول مرة ثانية ، وطلب منه أن يقرأ ، وقال الرسول ما أنا بقارئ وهنا ضم جبريل الرسول للمرة الثالثة ثم أرسله وقال له : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

وقرأ الرسول هذه الآيات ووعاها وهو فى حالة من الفرق والجزع مما رأى ، وتركه جبريل ولم يلبث الرسول أن ترك الغار راجعاً إلى زوجه يرجف فؤاده ، وحين دخل عليها قرأت فى وجهه دلائل ما ألم به وحدث له ، فلم تكد تسأله عن شىء حتى طلب إليها أن تهيئ له غطاء يكنه عله يذهب عنه ذلك الروع الذى سيطر على حواسه وملك عليه نفسه .

وبعد لحظات من القلق عاشتها السيدة خديجة رضى الله عنها ، أخبرها الرسول بما كان وهو فى الغار ، واستقبلت الزوجة الشفيقة بزوجها ما قصه عليها بنشوة من الغبطة ، لأنها أدركت أن زوجها مقبل على مهمة جليلة تصل الأرض بالسماء ، وكان مما قالته له تواسيه وتبشره : أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٤

وكان ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم للسيدة خديجة وكان قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، ورغبت الزوجة الطيبة أن تخبر ابن عمها بما حدث لزوجها فقد يكون لديه ما يزيد قلبها اطمئناناً ، على ما ترجوه لزوجها وتتوقعه له .

وما إن عرف ورقة أمر الملك الذى هبط على محمد فى الغار حتى بشره بالنبوة وحذره من قومه الذين سيكذبونه ويؤذونه ويخرجونه ويقاتلونه : وتمنى أن يمتد به الأجل ليكون له ردءاً ونصيراً .

ومكث الوحى فترة لا ينزل عليه ، وكان الرسول فى شوق لرؤية الملك الذى جاءه فى الغار ، وتحول الشوق إلى حزن بالغ حين داخله اليأس بأنه قد لا يراه ، إلى درجة أنه آثر الموت على الحياة ، وذهب أكثر من مرة ليلقى بنفسه من فوق ذروة جبل من جبال مكة ، ولكن الله الذى اجتباه كان به رءوفاً رحيما ، فتبدى له جبريل يبشره بأنه رسول الله حقًا ، ثم تتابع عليه وحى السماء بعد أن فتر مدة لم يتفق المؤرخون على مقدارها .

وأخذ الرسول الكريم يدعو الناس خفية إلى الله وآمن به من آمن وفى مقدمتهم زوجه خديجة وأبو بكر وابن عمه على بن أبى طالب وزيد ابن حارثة وبلال بن رباح ، وكان من هداه الله إلى دعوة الإسلام يتوارى من المشركين بصلاته [1] . فمنهم من كان يصلى فى بيته ومنهم

---

(١) فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بعام ، وذكر أنها قبل هذا كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، وكانت كل صلاة ركعتين ، فلما كانت ليلة الإسراء وفرضت الصلوات الخمس أتمها الله فى الحضر ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين .

(وانظر الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ١ ص ١٦٦ ت . دكتور مصطفى عبد الواحد) .

من كان يذهب إلى بعض الشعاب (١) حتى لا يراه أحد من قومه ، ومع حرص المؤمنين على أن يخفوا مظاهر إيمانهم خوفاً من سطوة الجاهلية حدث أن سعد بن أبى وقاص ومعه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون فى شعب من شعاب مكة ، فاطلع عليهم نفر من المشركين فأنكروا عليهم ما يصنعون ، ولم يرض سعد ومن معه بالدنية فى دينهم فدفعوا عن أنفسهم ما حاوله المشركون من إيذاء المسلمين وضربهم ، ويروى أن ابن أبى وقاص ضرب رجلا من هؤلاء المشركين بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم هريق فى الإسلام . . .

ورأى الرسول بعد هذا أن يجمع المسلمين فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وكانت فى أصل الصفا يصلون فيها حتى لا تتعرض لهم قريش بالأذى ، فقد كانت أخبار الدعوة الجديدة قد تناقلتها الأفواه ، وأخذ المشركون يؤذون من يرونه يظهر الإيمان بمحمد وما جاء به ، ولكن الإيمان كان أقوى من عسف الطغيان ، فما خضع المؤمنون لما أراده الكافرون ، وما زادتهم الشدائد إلا اعتصاماً بحبل الله وثباتاً على طريق الهدى والنجاة .

— ٢ —

وأمر الله نبيه أن يصدع بكلمة الحق ، بعد ثلاث سنوات من الوحى كان فيها يدعو الناس سراً إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، فلما جهر الرسول بالدعوة لم يجد من أهل مكة إلا إعراضاً عنه ونفوراً منه ، وثورة عليه ، فما هذا الدين الجديد الذى خصه الله به ومحمد لديهم

---

(١) الشعاب واحدها شعب وهو ما انفرج بين جبلين .
(انظر لسان العرب مادة شعب) .

ليس أهلا له ، وحاولوا بكل ما يستطيعون من وسائل أن يقفوا فى وجه محمد ليحولوا بينه وبين ما يريد ، ولكن محاولات الجاهلية على كثرتها وتنوعها باءت بالخسران والهزيمة وانتصر الحق وعلت كلمة التوحيد ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

لقد أخذ النور الذى جاء به محمد يغزو القلوب وينير العقول ، وأخذ الشرك يسوم هؤلاء المهتدين صنوفاً من الأذى والاضطهاد ، وما كانت قريش تتعرض للرسول كما تتعرض لأصحابه بسبب عمه أبى طالب ، فله فى مكة منزلته الجليلة وقد وقف مع ابن أخيه يذود عنه ويعطف عليه على الرغم من أنه لم يؤمن بما جاء به .

ولما رأت قريش أن أبا طالب يحمى الرسول مشى رجال من ساداتهم وأشرافهم إليه وكلموه فيه وقالوا له إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه . ولم يستجب أبو طالب لسادة قريش وإن كان قد تلطف معهم فى القول وردهم رداً رقيقاً ، فانصرفوا عنه وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعو إليه . ولكن الرسول الكريم مضى فى طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك أمامه وأمام الذين اهتدوا بدعوته .

وذهب أشراف قريش مرة ثانية إلى أبى طالب واتسمت لهجتهم فى الحديث معه هذه المرة بالحدة والتهديد بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به .

واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه ، ولم يجد خلاصاً مما هو فيه سوى أن يبعث إلى محمد وينهى إليه ما قاله زعماء قريش ، ثم أردف هذا بقوله : أبق على نفسك وعلى

ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . وما كاد أبو طالب يلفظ هذه العبارة في هدوء يشوبه القلق حتى استولى على الرسول إحساس بأن عمه قد تخلى عنه ولم يعد قادراً على نصرته ، إلا أن هذا الإحساس بدّده الإيمان الذي لايغلب ، فقال الرسول لعمه تلك القولة التي أصبحت شعاراً للفداء وثبات اليقين : يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته . ويروى أن الرسول بعد أن قال هذا بكى ثم قام منصرفاً ، وكان الشيخ الوقور لا يتوقع من ابن أخيه ما كان منه ولكنه حين فوجئ بهذا الرد الحاسم وحين رأى تلك القطرات الطاهرة تسيل على خديه غلبت على أبي طالب مشاعر الأبوة الحانية ، فنادى محمداً وقال له : اذهب يابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً(١) .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه وأنه لن يحول بينه وبين تسفيه أحلام أهل مكة والنيل من آلهتهم ، وهنا قرر قادة الشرك أن يختاروا فتى من أجمل فتيان قريش هو عمارة بن الوليد ، وذهبوا به إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يتخذ عمارة ولداً له ويسلم إليهم ابن أخيه ليفتكوا به ، وجاء رد أبي طالب معبراً أصدق تعبير عن سخافة ما عرضه سادة قريش عليه فقد قال لهم : والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبداً(٢) .

وأيست قريش من أبي طالب وأيقنت أنه لن يتخلى عن ابن أخيه وأن عليها لكي تحمي وحدتها وآلهتها أن تقوم بعمل جديد ظنت أنه سيحقق ما تحرص عليه وهو القضاء على محمد ودعوته .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٥

(٢) المصدر السابق ، وتسومونني : تكلفونني .

— ٣ —

وكان هذا العمل الذى ظنت قريش أنه سيضع حداً لهذا الداعى الجديد هو الإمعان فى تعذيب من آمن به واتبع رسالته وصبأ عن دين آبائه .

وكان المستضعفون والأرقاء يصب عليهم العذاب أضعاف ما يصب على سواهم ، ولم ينج الرسول نفسه من حماقة قريش وغطرستها وسوء فعالها.

وما حقق هذا لقريش ما ترجوه وتسعى جاهدة لبلوغه ، وراعها أن أتباع محمد يزيدون كل يوم ، وكان يفزعها أكثر أن تجد بعض رجالات مكة يؤمن بالرسالة الخاتمة؛ لأن هذا يعنى أن قوة محمد تنمو وأنه لو ترك هكذا فإن يوماً لا بد آت فيه تفقد قريش كل ما تذود عنه من معبوداتها وأعرافها وتراث آبائها .

وفكر بعض سادة قريش أن يذهب إلى محمد يكلمه ويعرض عليه ما رأى أنه قد يكفه عن المضى فى طريقه ، وأثيرت الفكرة فى نادى قريش فرحب المشركون بها؛لأن التعذيب لم ينجح فى وقف التيار عن اندفاعه ، وقام عتبة بن ربيعة ، وقال للرسول بعد أن أشار إلى دعوته التى فرقت كلمة قريش وسفهت أحلامها وعابت آلهتها : يابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً [1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب

---

(١) الرئى : ما يتراءى للإنسان من الجن .

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه .

وقال الرسول الكريم بعد أن سمع هذا الذى عرضه عتبة: فاسمع منى ، وقال عتبة افعل ، فتلا محمد من أول سورة فصلت إلى أن بلغ آية السجدة فسجد ، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك .

وانصرف عتبة إلى أصحابه مأخوذاً بروعة القرآن وسمو فصاحته .

وما طلع عليهم حتى قال بعضهم نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما قال لهم : قد سمعت قولا والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة وطلب منهم أن يدعوا محمداً وما هو فيه ، قالوا له : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

وهذا الموقف من قريش يدل على أن ظلام الوثنية قد ران على القلوب والعقول وصرفها عن أن تستجيب لدعوة الحق ، وجعلها تخال أن مثل محمد إنما يرجو بما يقوم به أن يحيا فى رغد من العيش أو منعة من السلطان . ولهذا لم تأبه لرأى عتبة ونصيحته ، واتهمته بالضعف أمام سحر محمد ، وأخذت تبحث عن وسيلة أخرى ، تحارب بها الدعوة الجديدة ، ودفعها تفكيرها القاصر وظنها الخاطئ إلى أن تطلب من الرسول حتى تؤمن به أن يُسيِّر عن قريش تلك الجبال التى ضيقت عليها الأرض وأن يشق لها الأنهار التى تذهب القيظ وتنشر الزرع وتدعو

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه للأستاذ محمد رضا ص ١٠٩ ط ثانية .

إلى الاستقرار وترك النزوح والهجرة طلباً للماء والكلأ إلى غير هذا مما يدور فى فلك المستحيلات وخوارق العادات ، وقد سجل الكتاب العزيز بعض ما طلبت قريش من الرسول لكى تسلم له بصدق دعوته وتذعن لما تأمر به رسالته .. (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا [١]».

وهذه الآيات الكريمة تبرز بجلاء قصور إدراك هؤلاء المشركين ، وتدل على تعنت ساذج منهم ، وتبجح فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج . ولو كانوا حقاً يطلبون ما يقنعهم ليؤمنوا لا لتمسوا فى القرآن وهو المعجزة الخارقة الباقية التى لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه — الدليل العقلى للإيمان الراسخ القوى ، غير أن كفار مكة بتعنتهم وطفولتهم الفكرية لم يمعنوا النظر فى معجزة محمد الخالدة وعلقوا إيمانهم به بتحقيق تلك المقترحات التى لا يجمع بينها فى تصورهم سوى أنها خوارق ، ونسوا أن الرسول بشر وأن الخوارق ليست من صنعه وليس من شأنه أن يطلبها من ربه ، ولا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا» يقف عند حدود بشريته ويمنعه أدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به .

ولم يقف تعنت قريش عند هذا ، ورغبت فى أن تطلب من أحبار اليهود أوصاف الرسول الذى تحدثت عنه التوراة ، وذهب رجلان من مكة

---

(١) الآيات ٩٠ — ٩٣ من سورة الإسراء .

إلى المدينة ولقيا بعض أحبارها وتحدثا معهم فيما أوفدا من أجله ، ثم عادا إلى مكة يحملان من أحبار المدينة ثلاثة أسئلة إن أجاب محمد عنها فهو نبي صادق . وكانت هذه الأسئلة عن أهل الكهف وذى القرنين والروح .

ونزل وحى السماء بالإجابة السديدة التى ترشد الإنسان إلى أن يلزم حدود طاقاته العلمية وألا يخوض فيما ليس من أمره : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

ولكن هل أذعنت قريش لما جاءها به محمد من عند ربه ؟ لا ، لقد أسرفت فى حماقتها وطغيانها وعنادها ، وضاعفت من تعذيب المؤمنين واضطهادهم إلى درجة أن أصبحت حياتهم فى مكة شقاء متصلا وكان لا بد لهؤلاء المستضعفين من ملجأ ينقذهم من ضلال الجاهلية ، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

— ٤ —

لقد قال الرسول لأصحابه : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه .

وكانت بداية الهجرة إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة بعد البعثة .

ولم تترك قريش هؤلاء المهاجرين ينعمون فى جوار النجاشى بالأمن والحرية ، وأرسلت إليه تطلب منه ردهم ، إلا أنه بعد أن سمع مقالة

---

(١) الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .

رسل قريش وسمع من المهاجرين ما حملهم على الرحيل إليه لم يستجب لرغبة وفد مكة وعاش المسلمون فى كنف النجاشي عيشة طيبة لا يتعرضون لأذى أو اضطهاد .

وكان عدد الذين هاجروا قليلا ، ولم ينسوا نبيهم وموطنهم على الرغم مما كانوا فيه ، ولذلك ما إن عرفوا أن المسلمين يزدادون قوة وأنهم يمكنهم أن يعيشوا فى مكة دون أن تقدر الجاهلية بصلفها وحمقها على أن تسيء إليهم أو تنال منهم ، فقد أسلم من الرجال ما تهابه قريش وله بينها منزلة رفيعة وشأن مرموق حتى رجع بعضهم إلى مكة .

ولكن الجاهلية انطلقت مسعورة غير عابئة بمن أسلم من رجالاتها تسوم المؤمنين صنوف العذاب الأليم لا يردعها رادع من دين ولا يزجرها زاجر من خلق أو رحم .

وعاد بعض المؤمنين مرة ثانية إلى الحبشة وظلوا هنالك حتى سمعوا بهجرة الرسول إلى المدينة فرجع بعضهم إلى مكة ولحق منهم من لحق بالرسول فى المدينة .

ورأت قريش أن كل محاولاتها المحمومة ضد الدعوة الوليدة باءت بالهزيمة ولم تنجح فى القضاء على محمد وأتباعه ، وراعها أن أنصار الإسلام يزدادون كل يوم ، وأنهم يجدون من يحقق لهم الأمن والقرار فى غير مكة ، وفكر زعماؤها فى هذا الخطب الجلل ، وضمهم مجلس تشاوروا فيه وانتهوا إلى قرار جائر شمل بنى هاشم وبنى المطلب جميعاً من آمن بمحمد ومن لم يؤمن به دون أن يكون ضالعاً مع أعداء محمد فى حربه حتى يسلموه لقريش فتقتله وتستريح منه .

— ٥ —

وكان هذا القرار الذى اتخذته قريش يقوم على مقاطعة كاملة لبنى هاشم وبنى المطلب ، فلا يبايعونهم ولا يخالطونهم ، ولا يتزوجون منهم ولا ينكحونهم ، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً . وكتبوا هذا القرار الظالم فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة فى سنة سبع من المبعث .

وعاش النبى وأتباعه وأهله فى الشعب محصورين ، مدة تبلغ نحو ثلاث سنوات قاسوا فيها من هذه المقاطعة ما قاسوا ، وكانت أصوات الصبية تسمع من وراء الشعب بسبب الجوع والفاقة ، وما نالت هذه المقاطعة من القلوب المؤمنة وإن كانت قد تركت على آثارها على الأبشار المتغضنة والجسوم الهزيلة .

ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك . مات أبو طالب فى السنة العاشرة ، وبعد وفاته بثلاثة أيام ماتت السيدة خديجة رضى الله عنها .

وحزن الرسول حزناً بالغاً لوفاة عمه وزوجه حتى سمى العام الذى ماتا فيه « بعام الحزن » .

واشتد أذى قريش على الرسول بعد وفاة عمه وزوجه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى (١) الشاة وهو يصلى .

وخرج الرسول من مكة باحثاً عن أنصار وأتباع فى غيرها ، لقد ضاق ذرعاً بقريش وكاد ييأس منها ، وذهب إلى الطائف (٢) ولما تندمل

---

(١) السلى : الغشاء الرقيق الذى يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه .

(٢) تقع الطائف جنوب شرق مكة وتبعد عنها بنحو ٧٥ كيلومتراً والطريق =

جراح الحزن على من كان مدافعاً عنه وحانياً عليه وباذلا له من جاهه وماله ما يخفف تعنت قريش وحمقها واضطهادها له .

ذهب الرسول إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة وعمد إلى جماعة من أشراف ثقيف ودعاهم إلى الإسلام ، فسخروا منه وهزئوا به ، وأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع الناس عليه فى صورة كريهة تبعث على الأسى والألم ، رسول رحيم تحمل من أجل إخراج قومه من الظلمات إلى النور كثيراً من الآلام والمشقات ، يحيط به الغوغاء والأرقاء والسفهاء يسبونه ويحصبونه ولا يجد أحداً يحامى عنه ، بل يجد دعاة الشر يحرضون على مضاعفة الإثم والمنكر ، وكان الرسول يحاول أن ينأى عن هذا الجمع الذى تملكته حمى السخرية والإيذاء ، إلا أنه كان إذا اتجه إلى طريق أو مكان هرعوا وراءه حتى وجد نفسه أخيراً يدخل بستاناً فانصرفوا عنه وقد أدموه وأرهقوه كل إرهاق .

إنها مطاردة مؤلمة قاسية تعرض لها إنسان رحيم يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على قومه والحرص على هدايتهم بالرغم مما ناله على أيديهم من عنت واضطهاد وصدق الله العظيم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[1]

وليس أدل على حماقة أهل الطائف ومبلغ قسوتهم وإيذائهم للرسول من أنه عليه السلام ظل يذكر ما لاقاه فى تلك المدينة ويعد

= إليها وعر ويخترق سلسلة من الجبال ، وسواء ذهب الرسول إليها راجلا أو راكباً فإنها رحلة مضنية لا يقدم عليها إلا ذوو العقائد الراسخة والعزائم القوية .

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

يومه فيها من أشد الأيام إيذاء له ، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد [١] ؟ قال : لقيت من قومى ما كان أشد . قال : وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت على وجهى وأنا مغموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن [٢] الثعالب فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على وقال : يا محمد ، أنا ملك الجبال قد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [٣] ، فقال له رسول الله صلى الله عليه سلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً [٤] .

ما أعظم رحمتك بقومك يا رسول الله وما أشد حرصك على ما

---

(١) فى أحد كما هو معروف كسرت رباعية الرسول ، وهى السن التى بين الثنية والناب ، وجرح وجهه ، وكسرت البيضة على رأسه ، وأصيبت ركبتاه ، فضلا عن استشهاد من استشهد فى هذه الغزوة وعلى رأسهم حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

(انظر أمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ١٣٥)

(٢) موضع تلقاء مكة على مرحلتين منها .

(٣) الأخشبان : جبلان بمكة .

(٤) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص ٩٨ . ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، لقد آذوك واضطهدوك ولكنك تعلم أنهم على ضلال فأغضيت عن سفههم ولم تنشأ أن ينزل العقاب المدمر بهم ورجوت الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده ، ولا غرو أن كنت رسول الإنسانية كافة ،وأن كنت المثل الكامل والقدوة الحسنة وأن يثنى عليك الله فى كتابه العزيز بما أنت أهل له « وإنك لعلى خلق عظيم »(١).

— ٦ —

ولم يستطع الرسول دخول مكة بعد تركه الطائف حزيناً إلا فى جوار المطعم بن عدى ، فالجاهلية فى تلك المدينة قد اهتبلت تلك الأحداث التى ألمت بالرسول فأدخلت على قلبه الحزن الشديد ـ مات عمه وزوجه ، ولقى من ثقيف ما لم يتوقعه ـ وأخذت تصب العذاب على كل من آمن به وتفكر جديًّا فى قتله ، فكان دخوله مكة بعد رحلة الطائف محفوفاً بالمخاطر الجسيمة وكان الجوار ضروريًّا لتجنبها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وفاجأ الرسول قريشاً بحديث الإسراء والمعراج فما أذعنت ولكنها أمعنت فى ضلالها وشركها ، ولكن الرسول مع كل ما واجه من صعوبات واعترض طريقه من أشواك وعقبات لم يسيطر القنوط عليه ، ولم تزده الشدائد إلا ثباتاً فى اليقين ومضاء فى العزيمة وأملا دانياً فى النصر والخير .

لقد كان الرسول منذ أمر بالجهر بالدعوة يحدث القبائل التى تفد إلى مكة فى كل موسم من مواسمها ، غير أنه كان يقابل بالإعراض

---

(١) سورة القلم الآية ٤ .

والنفور وكانت حجة هؤلاء : « قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ؟ وهى حجة داحضة وكان المنطق يقضى بالنظر فيما يدعوهم إليه دون أن يكون موقف قومه منه دليلا لازوارهم عنه وتكذيبهم له .

وخرج الرسول فى موسم الحج بعد رحلة الطائف يعرض نفسه على القبائل كما هى عادته ، فلقى عند العقبة (١) ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج فدعاهم الرسول إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فهفت قلوبهم إليه ، وكان لما قالته اليهود فى المدينة عن النبى الذى قد أظل زمانه أثر فى استجابتهم لما دعاهم إليه ، وكان مما قاله بعضهم لبعض : هذا والله الذى تهددكم به يهود ، فلا يسبقونا إليه ، فأسلموا به وبايعوا (٢) .

وكان هؤلاء النفر الذين هداهم الله إلى الإسلام ، هم دعاة محمد فى يثرب ، وفشى بين الأنصار خبر الدعوة الجديدة وتلهفت الأفئدة للقاء الرسول ، فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا منهم خمسة من الذين لقوا الرسول فى العام المنصرم ، فأسلموا وبايعوا ، وكانت بيعتهم عمادها وحدانية الله والبعد عن المعاصى ، ولذا تسمى بيعة النساء ؛ لأنها لم تكن على القتال .

وهدى الله بعد هذا إلى الإسلام من أهل يثرب من هدى ، وكثر أتباع محمد وأنصاره فى هذه المدينة ، وتضاعف لهف القلوب على لقاء الرسول ورؤيته ، فلما كان موسم الحج التالى خرج جماعة من الأنصار للقاء النبى صلى الله عليه وسلم مستخفين لا يشعر بهم أحد ، ولقيهم

---

(١) موضع على يسار الطريق القاصد منى من مكة .

(٢) الدرر ص ٧١ .

الرسول ليلا عند العقبة، وكانت مبايعة هؤلاء الرسول على الإيمان والنصرة ، أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه[١] . وكان جملة من بايع الرسول فى هذه المرة سبعين رجلا وامرأتين .

وكانت قريش قد عرفت بإسلام بعض الأنصار وأدركت أن محمداً قد وجد لدعوته تربة تستجيب لها وتحتضنها ، فبالغت فى إيذاء من آمن من أهل مكة ، فأمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالا إليها ، وتحركت الجاهلية بسرعة وائتمرت فى ناديها لتطفئ النور الذى جاء يهدى للتى هى أقوم ، لقد أرادت أن تقتل الرسول واتخذت لذلك خطة تجعل الدم الزكى مفرقاً بين القبائل فلا يقدر أحد على المطالبة به أو الثأر له ولكن الله العلى القدير حفظ نبيه من مكر الجاهلية لينتشر الضياء ، وتتحطم الأصنام ولو كره الكافرون «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين[٢] » .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٤ .

أسباب الهجرة

يتضح مما أسلفت فى الحديث عن مراحل الدعوة قبل الهجرة أن أسبابها كلها ترجع إلى موقف قريش من الدعوة الجديدة وإسرافها البالغ فى تعذيب من آمن بها وإقدامها فى إصرار وعزم على قتل الرسول ما دامت كل الوسائل التى لجأت إليها للحيلولة بين محمد وبين ما يدعو إليه قد باءت بالهزيمة .

إن عقلية الجاهلية التى أخلدت إلى مواريث الآباء وتقديس الأصنام والأوثان واجهت دعوة التوحيد والوحدة فى جمود وصلف ، لم تحاول أن تنظر إليها نظرة تدبر مخلص وموازنة واعية بين ما تعكف عليه من معبودات لا تملك لها نفعاً ولا ضراً وتقاليد فاسدة وأخلاق منحلة ، وما جاء به محمد من عبادة إله واحد لا شريك له ، رب كل شىء وخالق كل شىء ، بيده الأمر كله وإليه المآب ، وما جاء به كذلك من نظم إنسانية تهذب السلوك وتوثق بين الناس روابط المحبة والإخاء وتجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فضلا عن معجزته الخالدة التى أفحمت العرب وهم فرسان القول وأرباب البيان ، لقد أُخذوا ببلاغة القرآن وروعة أسلوبه وكان صناديدهم يخرجون فى جوف الليل ليسمعوا آيات الله يتلوها محمد ، وكانوا يفعلون ذلك حتى لا يراهم عامة أهل مكة ، ومن عجب أن هؤلاء السادة كان كل منهم لا يخبر أخاه بما يفعله ، ولا يجد لديه الشجاعة فى الاعتراف بما يقوم به ، وفى إحدى الليالى أبصر بعضهم بعضاً وكان بينهم حديث ينم عن حبهم لهذا القرآن المجيد ، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن

يناوئوا محمداً ودعوته . وتجلت هذه المناوأة فى ذلك الصلف الأحمق الذى اتخذ الاضطهاد والتعذيب بلا رحمة سبيلا لمنع انتشار الإسلام وحمل هؤلاء الذين اهتدوا وآمنوا على الكفر بمحمد والبعد عنه .

لقد أسرفت الجاهلية فى ضلالها وإجرامها حتى أصبحت مكة بالنسبة لمحمد ومن آمن به بلد الهوان والحرمان ، وتأكد أن سادتها قد أصروا على الشرك إصراراً وأن البقاء بينهم لن يثمر غير مزيد من الطغيان يقع على هؤلاء الضعفاء والذين نبذوا عقائد الأجداد والآباء واعتصموا بالحق ، واستمسكوا بعروة الإيمان الصحيح .

وكانت مكة مع هذا من أحب بلاد الله إلى رسوله وأصحابه ، وقد روى أن الرسول بعد أن خرج ليلا من مكة قال : والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت .

غير أن حب الله وحب نصرة دينه وتبليغ دعوته أقوى مما عداه من حب الأهل والوطن والمال والجاه والسلطان .

إن عقيدة الإيمان إذا عمرت قلباً أصبح لا يشغله فى هذه الحياة سوى الانتصار لهذه العقيدة بكل وسيلة حتى ولو كانت الحياة نفسها ، وما حققت البشرية فى تاريخها كله انتصاراتها المختلفة إلا عن طريق عقيدة راسخة بصرف النظر عن لون هذه العقيدة وقيمها .

وطوعاً لمنهج القرآن الكريم فى إيثار الإجمال والإيجاز فى أغلب الشأن أشارت بعض الآيات الكريمة إلى أسباب الهجرة إشارات تعتمد على اللفظة الموحية والكلمة الجامعة .

ويجدر القول قبل الحديث عن تلك الإشارات بأن القرآن الكريم فى الفترة المكية ـــ وهى فترة بلغت ثلاث عشرة سنة ـــ نزل منه أكثر

من[١] نصفه ، ولم يشتمل ما نزل فى هذه الفترة على كثير من التشريع الفقهى ، فقد كان المقصود مما نزل هو الدعوة إلى الله وتوحيده ، ونبذ ما كان يعبد الناس قبل الإسلام من مختلف المعبودات ، وإقامة الأدلة على ذلك ، وعلى وجود الدار الأخرى ، وتسلية الرسول فيما كان يلقاه فى سبيل الدعوة بضرب الأمثال له بقصص أسلافه من الرسل والأنبياء ، أما التشريعات الفقهية التفصيلية فقد نزل الجانب الأكبر منها فى السور المدنية ، وهى بالنسبة لمجموع القرآن أكثر من الثلث بقليل .

* * *

بعد هذه الكلمة الخاطفة عن موقف القرآن من المشركين قبل الهجرة ، أشير إلى بعض تلك الآيات التى عبرت فى إجمال وشمول عن الأسباب التى حملت المؤمنين برسالة الإسلام على أن يفروا إلى الله بدينهم تاركين وراءهم ذكريات الطفولة وملاعب الصبا ، وكل ما لهم فى مكة .

تتحدث الآية ١٩٥ من سورة آل عمران عن المهاجرين فتقول : « . . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى» فبناء الفعل للمجهول فى أخرجوا يدل على أن المسلمين أجبروا[٢] على الخروج

---

(١) جاء فى تاريخ التشريع الإسلامى للمرحوم الشيخ الخضرى ص ٨ أن مكى القرآن نحو $\frac{١٩}{٣٠}$ منه ، وأن مدنيه $\frac{١١}{٣٠}$.

(٢) يرى عالم تونس الشيخ الطاهر بن عاشور أن المؤمنين هاجروا اختياراً (انظر مجلة هدى الإسلام العدد ١٨ ص ٢١) وهذا صحيح بمعنى أن قريشاً لم تأمرهم بترك مكة بل كانت حريصة على بقائهم فيها حتى لا ينقلبوا عليها بعد ذلك ويأخذوا حقهم منها ، ويقضوا على أصنامها وتراث آبائها ، ولكن موقف قريش الجائر هو الذى حمل هؤلاء المؤمنين على الهجرة ، ومن ثم فهم وإن هاجروا اختياراً فى الظاهر إلا أنهم فى الواقع أكرهوا وأجبروا على ترك مكة .

من ديارهم ، أجبرهم الظلم والإثم والكفران والطغيان .

وورد هذا الفعل بصيغة المبنى للمجهول فى الآية الثامنة من سورة الحشر للدلالة على نفس المعنى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم . . . »

وفى سورة النحل جاء فى الآية ٤١ : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا . . » فالمهاجرون ظلموا قبل هجرتهم ، ظلمهم المشركون ظلماً متعدد الدرجات ، متنوع الأشكال . بيد أن الآية لم تفصل أنواع الظلم وكيف وقع على هؤلاء المجاهدين الصابرين ، وهى بهذا أشمل فى الدلالة وأبلغ فى المعنى ، وأوقع فى النفس وأعمق فى الحس .

وأما الآية ١١٠ فى سورة النحل أيضاً : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا» فتتحدث عن فتنة المهاجرين قبل هجرتهم ، وللمفسرين فى بيان معنى الفتنة المذكورة فى الآية آراء مختلفة (١) ، بعضها يذهب إلى أنها العذاب بقصد الردة ، وبعضها الآخر يذهب إلى أن بعض المسلمين أعطى الكفار ما أرادوا بلسانه مكرهاً فكأنهم بذلك قد فتنوا أنفسهم ، مثل ما روى عن تعذيب عمار بن ياسر ، فقد شدد الكفار عليه العذاب ومن ذلك أنهم كانوا يطرحونه على الأرض فى الظهيرة أيام القيظ — وحر مكة يذيب ذنب الضب كما يقولون — وأحياناً مع هذا يضعون الصخر على صدره ، ويقولون له لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول فى اللات والعزى خيراً ، ففعل مرة فتركوه — ولعله لم يفعل ما أراده الكفار إلا بعد أن أشفى على الهلاك — ولكنه انطلق

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٨٠ ، ١٩٢ ، والآلوسى ج ٤ ص ٤٤٨ ط بولاق .

إلى النبي صلى الله عليه وسلم باكياً ، فقال له الرسول : ما وراءك ؟ فقال عمار : شر يا رسول الله ، وحكى له ما صدر عنه ، فقال له الرسول : كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان ، فقال : يا عمار إن عادوا فعد ، فأنزل الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» .

ومهما تباينت الآراء فى تفسير معنى الفتنة فهى تدور فى فلك الاضطهاد والأذى الذى صبه المشركون على المؤمنين .

وكان أذى المشركين يتخذ أحياناً صوراً مختلفة من السخرية والاستهزاء والادعاء ، وقد ذكر الكتاب العزيز طرفاً من هذا الأسلوب الذى تجرد من الخلق والتهذيب واتسم بالوقاحة والتطاول وسوء الأدب : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين »[1] .

فهؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما كان منهم من تعذيب واضطهاد لمحمد وأصحابه ، ولكنهم فى فجورهم وإجرامهم لا يقفون عند حد ، فهم كما أشارت الآيات الكريمة يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخرية منهم ؛ إما لفقرهم ورثاثة حالهم ، وإما لضعفهم عن رد الأذى ، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء ، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا ، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة ، وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع مما يصيب الذين آمنوا وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين .

---

(١) الآيات . ٢٩ — ٣٣ من سورة المطففين .

وكان هؤلاء المجرمون الأوغاد يتغامزون على المؤمنين بالعين أو باليد أو بحركة ما متعارفة بينهم للسخرية والإيذاء ، يريدون بذلك أن يدخلوا على قلوب المؤمنين الذلة والمهانة والانكسار .

وإذا انقلب هؤلاء الأوغاد إلى أهليهم بعد أن نالوا من المؤمنين ما نالوا من السخرية والإيذاء ، انقلبوا فكهين ، راضين عن أنفسهم ، فرحين بما فعلوا مستمتعين به فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا ، وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير .

ومن عجب أن يتحدث هؤلاء المجرمون عن الهدى والضلال ، وأن يقولوا حين يرون المؤمنين : « إن هؤلاء لضالون » ولكنه الفجور والادعاء والتطاول لا يقف عند حد ولا يستحى من قول ، ولا يتلوم من فعل .

ويسخر القرآن بعد هذه الإشارات إلى مواقف الإجرام الوضيعة من هؤلاء الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوة من أحد فى هذا الأمر — فما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وما أقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقديرهم : « وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وتنتقل الآيات إلى الحديث عن مشهد آخر ، مشهد الذين آمنوا يوم القيامة مع الكفار « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون » اليوم يجازى المؤمنون بالنعيم المقيم ، والكافرون بنار الجحيم ، اليوم يضحك الذين آمنوا من الذين أشركوا ، ثم يتوجه القرآن بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » هل وجد هؤلاء الجاحدون المكابرون ثواب ما فعلوا

إنهم يقاسون العذاب الأليم فى نار الجحيم ، وهذا جزاء ما فعلوا ، فهو ثوابهم ، إذن ، غير أن التعبير بكلمة ثواب فى هذا المقام فيه من السخرية ما فيه بهؤلاء الكفار .

وسجل القرآن الكريم فى آيات كثيرة بعض مواقف قريش من الرسول، وأشار إلى ما كان يشعر به النبى من ألم نفسى حاد لأن قومه فى غيهم وضلالهم يعمهون، وهو حريص أشد الحرص على أن يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل .

لقد سخروا منه وتوعدوه بالهلاك حين ناداهم وأخبرهم بأنه رسول من الله إليهم، ثم أمعنوا بعد ذلك فى سخريتهم وتهكمهم وإيذائهم ، فهو كما يزعمون ليس أهلا لهذا الفضل الذى أسبغه الله عليه ، « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» ، وما دروا أن الله يختار لوحيه ما يشاء وأنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته وأن مراتب الناس لديه لا تخضع لأعراف الناس ومقاييسهم من الجاه والمال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولجأ المشركون إلى اتهام الرسول بالكهانة والسحر وأن الذى يأتيه شيطان من الجن لا ملك من السماء ، وحاولوا إعناته وإحراجه بما طلبوا منه من أمور تدخل فى باب الخوارق والمستحيلات ، وقالوا عن القرآن : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» ، إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال التى أحزنت الرسول أشد الحزن ، فقومه ينفرون منه ويتقولون عليه وهو يدرك مبلغ ما هم فيه من ضلالة ، ويرجو لهم أن يسلكوا طريق الهداية ، لقد كان حريصاً كل الحرص على أن يعتصم قومه بما يدعوهم إليه ، ومن ثم كان حزنه الشديد لما صدر عنهم من أقوال وأفعال .

وأشار القرآن الكريم إلى مشاعر الرسول الإنسان ، وإلى تلك السنة التى لا تتخلف مع الأنبياء والمرسلين سنة الجحود والتكذيب والإيذاء ، وإلى أن يتأسى محمد بمن بعث قبله من المرسلين فى الصبر والإغضاء : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . »[١] « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »[٢] .

وحين بان لقريش أن أتباع محمد قد أخذوا يفرون من مكة ويذهبون إلى يثرب ، هالها الأمر وأفزعها ، وأيقنت أنها إن لم تتخذ موقفاً حاسماً من محمد فإن حياتها ستتعرض لخطر جسيم يهدد أمنها ووجودها .

إن الأنصار فى يثرب أهل حرب فإذا انضم إليهم هؤلاء المؤمنون الصابرون وعلى رأسهم محمد فإنهم سيعملون لا محالة على غزو قريش والانتقام منها ، أو على الأقل سيقطعون عليها طريق تجارتها إلى الشام ، وهى شريان وجودها فلا حياة لها بدونها .

وكان المؤمنون فى مكة يتسللون إلى إخوانهم الأنصار وعجزت قريش عن صدهم والحيلولة بينهم وبين ما يرغبون فيه ويشتاقون إليه ، ولكن محمداً ما زال بين أظهرها فهل تتركه ليلحق بأتباعه لتقع الكارثة التى لا قبل لها بدفعها .

إن الأمر جلل والخطب جسيم ولا بد من اجتماع عاجل يضم

---

(١) الآية : ٣٣ ، ٣٤ فى سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٣٥ فى سورة الأحقاف .

السادة ليتشاوروا فيما يجب أن يقوموا به نحو محمد حتى لا يكون لقريش بعد ذلك إلا الخزى والعار والفقر .

وغدوا إلى دار الندوة وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، ووقف أبو البخترى بن هاشم فقال : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله ، زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

ولم يلق هذا الرأى قبولا أو استحساناً ورد عليه من قال : لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره .

واقتنع المجلس بهذا القول ، وأيقن أن رأى أبى البخترى فاسد ، فوقف أبو الأسود ربيعة بن عامر وقال : الرأى عندى أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه ، فإذا خرج عنا — فوالله ما ندرى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه — أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

ولم يلق هذا الرأى كسابقه قبولا ، وأكد فساده وسخفه ما قاله بعض المؤتمرين : ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأياً غير هذا .

وهنا يقول أبو الحكم بن هشام : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً

وسيطاً[١] فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلا يقدر بنو عبد مناف — رهط محمد — على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل[٢] فعقلنا لهم .

وخلب هذا الرأى لب المجلس ، وارتضوه ، وتواصوا بسريته ، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون على تنفيذ ما ارتآه أبو الحكم بن هشام[٣] .

ولكن الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء أخبر نبيه بما كان من قريش فى دار الندوة ، ونزلت على الرسول بعد ذلك آية قصيرة[٤] تعبر أبلغ تعبير عن تآمر سادة قريش ، وترسم صورة عميقة التأثير لذلك المكر والتدبير الذى أطبقت عليه كلمة المؤتمرين ، وما علموا أن الله من ورائهم محيط يمكر بهم ويبطل كيدهم ، وهم لا يشعرون «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك[٥] أو يقتلوك أو يخرجوك ،

---

(١) جليداً : قوياً ، نسيباً : شريفاً ذا حسب معروف ، وسيطاً : يقال هو وسيط فيهم : أوسطهم نسباً وأرفعهم مجداً .

(٢) العقل : الدية .

(٣) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩ ، ومجلة الثقافة العدد ٥٩ .

(٤) نزلت هذه الآية فى المدينة بعد غزوة بدر ، ولم تنزل عقب ندوة قريش كما يرى بعض المفسرين ، وكان نزولها بعد هذه الغزوة تذكيراً بما كان من خوف وقلق فى الماضى وما عليه الرسول فى الحاضر من أمن وطمأنينة .

(انظر تفسير المنار جـ ٩ ص ٦٥٢ ، وتفسير سورة الأنفال للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص ١٢٤ ط . الرابعة)

(٥) أى ليحبسوك أو يوثقوك .

ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[1] . لقد ائتمرت قريش هذه المرة على أن تتخلص من الرسول بحبسه أو قتله أو إخراجه مغلوباً على أمره ، واختارت القتل على أن يتولى ذلك الإثم فتية من القبائل جميعاً ليتفرق دمه فيها ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية ، وينتهى الأمر .

وعبرت الآية الكريمة عن موقف قريش فى دار الندوة بالمكر ، كما عبرت عن إحباط الله لما كان من قريش بالمكر أيضاً والله خير الماكرين .

ولما كان المكر فى معناه[2] اللغوى يدل على تدبير الشر للغير فى خفية ، والاحتيال لإيقاع الأذى به [3] ، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن إضافة المكر إلى الله سبحانه جاء على طريق المشاكلة فى اللفظ ومزاوجة الكلام[4] ، كما قال سبحانه : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، والثانى ليس باعتداء ، وإنما هو جزاء[5] .

إن المكر قبيح والله تعالى لا يتصف إلا بكل كمال وإنما جاز فى تلك الآية — فى رأى الجمهور — وصفه سبحانه بالمكر ليقابل مكر الناس ، فهى مشاكلة لفظية ووجه من وجوه البلاغة فى القرآن الكريم .

---

(١) الآية : ٣٠ فى سورة الأنفال .

(٢) انظر معجم ألفاظ القرآن ج ٦ ص : ٤٥ إخراج مجمع اللغة العربية .

(٣) المرجع السابق .

(٤) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص : ٤٧٢ .

(٥) مجمع البيان فى تفسير القرآن — المجلد الأول — ص : ٤٤٩ .

ومع تقدير هذا الرأى فإن مادة « مكر » فى الكتاب العزيز قد وردت فى أكثر من أربعين موضعاً ، وإن كان أكثر ورودها جاء فى معرض الحديث عن مكر الكفار بالرسل ، إلا أنه فى بعض الآيات ورد المكر مضافاً إلى الله سبحانه من غير مقابلة بمكر الناس « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » [1] .

كما نعت المكر فى آية أخرى بما يفيد أنه ليس دائماً قبيحاً أو مكروهاً « استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله [2] » فهذا يعطى أن من المكر ما قد يكون حسناً وليس بلازم أن يكون أبداً سيئاً . .

وجاء فى كتاب « بصائر ذوى التمييز [3] فى لطائف الكتاب العزيز » للفيروز أبادى صاحب القاموس أن المكر ضربان : محمود ، «وهو ما يتحرى به أمر جميل ، وعلى ذلك قوله تعالى : ومكر الله والله خير الماكرين ، ومذموم ، وهو ما يتحرى به فعل ذميم نحو قوله تعالى : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » .

ولهذا كله فإن المشاكلة اللفظية التى ذهب إليها الجمهور لنفى فعل القبيح عن الله سبحانه إن جاز قبولها فى تلك الآيات التى ورد فيها مكر الله فى مقابلة مكر الناس فإنه لا يمكن قبولها فى تلك الآيات التى لم يرد فيها المكر على صورة المقابلة ويكون تفسير صاحب القاموس أولى بالأخذ والقبول .

---

(١) الآية : ٩٩ فى سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٤٣ فى سورة فاطر .

(٣) جـ ٤ ص : ٥١٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣٩

إن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده ومن رحمته بهم أن يحول بينهم وبين ما يقدمون عليه من شر ومنكر ، وهؤلاء الطغاة الذين دبروا ومكروا قد أبطل الله مكرهم وكيدهم لتبدأ البشرية عهداً جديداً فى تاريخها وحياتها عهداً يتسم بالحرية والكرامة والعلم ، وهذا فضل من الله عظيم .

فى الطريق إلى المدينة

— ١ —

فى السنة التاسعة بعد الهجرة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت له جموعاً كثيرة على أطراف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة وانضمت إليه لخم وجذام وغسان وعاملة من قبائل العرب ، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها [1] .

ويبدو أن هؤلاء لما علموا بفتح مكة ، وما تلاه من بعض الغزوات والسرايا ، أيقنوا أن جيوش محمد ستدهمهم فى ديارهم إن عاجلا أو آجلا ، فأرادوا أن يهاجموه قبل أن يهاجمهم ، ويقضوا عليه قبل أن يقضى عليهم ، لذلك أعدوا عدتهم وجمعوا جموعهم ، وزحفوا ليلقوا محمداً وأصحابه أولئك الذين أصبحت لهم فى الجزيرة منزلة السيادة والقيادة .

واستنفر الرسول الناس إلى الجهاد ، وحضهم عليه وكان عليه السلام قلما يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، بيد أنه فى هذه الغزوة — غزوة تبوك — صرح بها للناس لبعد الشقة بينه وبين عدوه ، ولقوة هذا العدو وكثرته ، ولشدة الحر وقلة الأموال فى الأيدى فقد كان

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ، ص : ٤٤٦ ، والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى (معجم البلدان — المجلد الأول ، ص ٤٨٩ ط بيروت) وهى الآن المنطقة الشمالية الغربية من الأردن .

العام عام جدب[1] ، ومن ثم تسمى هذه الغزوة غزوة العسرة أيضاً ، وهى آخر غزوة غزاها محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا كله انطلق المنافقون ، ومن فى قلوبهم مرض للتعبير عن أحقادهم وخبث ضمائرهم ، فالفرصة أمامهم — كما يظنون — مواتية لضرب الإسلام ضربة قاصمة وتعريض محمد ومن يخرج معه لحرب الروم لخطر لا قبل لهم به ، فتدور الدائرة عليهم ، وهذا غاية ما يطمع فيه النفاق ، لقد أخذ المنافقون يخذلون الناس ويقولون لهم لا تنفروا فى الحر ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فعدوكم هذه المرة من نوع آخر فى الكر والفر والعدد والعدة ، وذهب بعضهم إلى الرسول يستأذنه فى التخلف لأعذار واهية ، فقبلها منهم وأذن لهم ، وهؤلاء كانوا يبغون من هذا أن يكونوا لسواهم قدوة فى القعود ، وقد نجح المنافقون بعض النجاح فى كيدهم وحقدهم فتخلف عدد من المؤمنين ، وكادت تزيغ قلوب فريق من الأنصار والمهاجرين ، لولا فضل الله ورحمته بهم ، ومع هذا فصل الرسول عن المدينة بجيش عظيم ، ليلقى به الروم فى تبوك[2] .

— ٢ —

ولست هنا فى مجال الحديث عن هذه الغزوة ، وكيف أبلى المؤمنون فيها بلاء حسناً فأضافوا إلى سجل جهادهم صفحة مشرقة بالبذل

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير ، ص : ٢٥٢ .

(٢) تبوك — مكان بين المدينة ودمشق ، ويبعد عن المدينة بنحو ٦٠٠ كيلومتراً .

والفداء ، ولكنى أردت بهذا أن أقول إن الله تبارك وتعالى حين كشف أمر هؤلاء المنافقين فى سورة التوبة ، وبين لهم أنه سبحانه ينصر أولياءه وإن تمالأ عليهم الأعداء ، وكاد لهم المنافقون – ذكر لهم حادثة الهجرة فهى أبرز مثل على نصر الله لأنبيائه وأوليائه « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم»[1] .

وهذه الآية الكريمة فضلا عن أنها تقرر نصر الله لرسوله فى ظروف تجمع فيها لعدوه كل ما يعرف الناس حينئذ من أسباب الغلبة دون أن يجتمع له منها سبب واحد تكاد بأسلوبها المعجز تتحدث فى إجمال عن طرف من أحداث الهجرة : فهى قد أشارت إلى أن الرسول قد أخرجه قومه بعد أن يئس منهم ، وبعد أن أحالوا مكة كلها وما يحيط بها من بطاح وهضاب ميداناً لمعركة رهيبة تطلب دم النبى عليه السلام ، وليس معه من الأعوان سوى رجل واحد أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين .

لقد قررت قريش أن تتخلص من الرسول ، فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج وحيداً إلا من صاحبه الصديق لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثرة وقوتهم إلى قوته ظاهرة .

ويخرج الرسول فى جنح الليل مع صاحبه ويأويان إلى الغار والقوم على أثرهما يتعقبون والصديق – رضى الله عنه – يجزع لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما ، فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب يقول : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، ويرد

---

(١) الآية : ٤٠ فى سورة التوبة .

الرسول وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روع صاحبه « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، « إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . .

وكانت العاقبة — والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه منها مجرد — النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يروها الناس ، وكانت الهزيمة للذين بغوا وكفروا « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا » .

وللمفسرين [1] فى بيان المعنى بالسكينة التى أنزلها الله ، وكذلك فى المقصود بالجنود التى أيد بها ، آراء لا تخلو من الإسراف وتجاوز القصد فى الشرح والتأويل ، فمنهم من ذهب إلى أن أبا بكر رضى الله عنه هو الذى أنزل الله سكينته عليه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جزعاً ولا مضطرباً ، فهو واثق من نصر الله بدليل ما جاء فى الآية من قوله لصاحبه : « لا تحزن إن الله معنا » .

وذهب آخرون إلى أن الله سبحانه أنزل سكينته على نبيه عليه السلام ، وليس بلازم أن يقتضى إنزال السكينة على الرسول أن يكون خائفاً أو منزعجاً ، وقوى هؤلاء رأيهم بأن التأييد بالجنود لا يصح إلا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن عطف جملة « وأيده بجنود لم تروها » على

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ٨ ص : ١٤٨ ، وتفسير الآلوسى جـ ٣ ص ٣٠٨ ط بولاق ، وتفسير المنار جـ ١ ص : ٤٢٩ ، والسكينة هى الهدوء وطمأنينة القلب وخشوعه ، أو الوقار والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويوجب له زيادة الإيمان ، وقوة اليقين والثبات .

(انظر بصائر ذوى التمييز جـ ٣ ص : ٢٣٨) .

ما قبلها يؤكد أن المقصود بالجملة المعطوف عليها وهى « فأنزل الله سكينته عليه» هو الرسول وليس صاحبه ، فالأصل فى هذا العطف الترابط والتعانق لا التفكك والتفرق . .

والذى أرجحه أن الضمير فى قوله تعالى: « فأنزل الله سكينته عليه » يعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فالآية كلها جاءت فى معرض الحديث عن حماية الله ونصره لنبيه ، فكل الضمائر الواردة بها ترجع إلى الرسول الكريم لا إلى أحد سواه .

ويرى كثير من المفسرين أن الجنود التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هى الملائكة الذين ستروه هو وصاحبه من أعين الكفار عندما خرجا ليلا من مكة ، وعندما لجآ إلى الغار يقيمان فيه حتى يسكن الطلب عنهما ، ولكن قصر معنى الجنود فى الآية على الملائكة غير سديد . لأن جنود الله قد تكون ملائكة ، وغير ملائكة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وقد قرأ بعض القراء[١] « وكلمة الله » بالنصب ، إلا أن قراءة الجمهور بالرفع ، وهى أقوى فى المعنى لأنها تعطى معنى التقرير ، فكلمة الله هى العليا طبيعة وأصلا بدون تصيير متعلق بحادثة معينة .

ومما يستنبه النظر فى هذه الآية الكريمة التى تحدثت عن طرف من أخبار الهجرة تكرر الظرف « إذ » ثلاث مرات فيها :

إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين

إذ هما فى الغار

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص : ١٤٩ ، وتفسير المنار جـ١٠ ص : ٤٣٢ .

إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

وكان هذا التكرار بمثابة التنبيه والتذكير لهؤلاء المثبطين والمنافقين بحماية الله لنبيه ونصره له فى أحلك الظروف ، وأشدها خطراً ، عليهم أن يفيئوا إلى أنفسهم ويدركوا أن تخلفهم وكيدهم لا يدفع النصر أو يسبب الهزيمة ؛ لأن الله ينصر رسله وأولياءه وهو سبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [1]» .

وفضلا عن كل هذا فإن تكرار « إذ» فى المرة الثالثة إشارة إلى حقيقة هامة ، وهى أن سبيل النصر الاعتقاد الصادق بالحق والعمل به ، وأن كل ما عرف الناس من وسائل القتال إنما هى فى نظر المؤمن أدوات مغلولة معطلة بإزاء ما يملأ قلبه من ثقة بربه عز وجل[2] .

— ٣ —

على أن هذه الآية الكريمة إذا كانت قد تحدثت عن نصر الله لنبيه فى ذلك الظرف العصيب ، فإنها بينت أن هذا النصر الذى وعد الله به أولياءه وأصفياءه مرتبط بما يبذله هؤلاء من جهد ، وما يقدمونه من سعى ، فالإيمان الصادق لا يعرف التواكل والتخاذل ، ويفرض على المرء أن يلجأ إلى الله يسأله الرعاية والحماية بعد أن يكون قد قدم بين يدى دعائه ما يمكن أن يقدر عليه من عمل يدنيه من غايته ورجائه .

---

(١) الآية : ٥١ من سورة غافر .

(٢) مجلة الوعى الإسلامى — العدد ١٣ ص : ١٥ .

وإذا لم يدخر المؤمن وسعاً فيما يجب عليه أن يباشره من الأسباب ، ثم واجه مالا قدرة له على دفعه ، فإن تأييد الله له يمنعه مما هو عاجز عن التغلب عليه ، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام ، دعا قومه إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام ، فأعرض قومه عنه ، ولما وجدوه لا يقلع عن السخرية بهم وبآلهتهم ، أرادوا أن يتخلصوا منه بإلقائه فى النار « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » [1] ، ولم يستطع إبراهيم أن ينجو من براثن قومه ، فقد تمكنوا منه ، وأعدوا له ناراً حامية ، ثم قذفوه فيها ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ نبيه من كيد قومه ، « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » [2] .

ومن ثم فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بعدما أطلعه ربه على ماأطبقت عليه قريش فى دار الندوة ، وبعد أن أذن له بالهجرة إلى يثرب ، فكر ملياً فى هذه الرحلة الشاقة ، واتخذ الأسباب التى تكفل لها النجاح ، مع ثقة لا حد لها فى وعد الله بالحماية والنصر .

إن الرسول يدرك أن قريشاً قد أعدت عدتها لتنفيذ قرارها ، وأن بالها لن يهدأ حتى تنفذ ما انتهت إليه ، وأن مجرد خروجه من مكة لا يعنى نجاته من الخطر ، لأنه سيطارده فى مخارم الجبال والأودية ، والمسافة بين مكة والمدينة ليست قصيرة فهى تبلغ نحو ٤٠٠ كيلومتراً فى ذلك العصر ، فكان عليه أن يخطط لهجرته ويحتاط لكل الاحتمالات ، وإن بدا ما قام به الرسول إزاء قوة قريش أمراً هيناً إلا أنه كان لازماً — فضلا عن تأييد الله ونصره — لكى يصل محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) الآية : ٦٨ فى سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٦٩ — ٧٠ فى سورة الأنبياء .

إلى يثرب ومعه صاحبه دون أن تنال قريش منهما ما تريد .

وتمثلت الخطة التى وضعها الرسول ليفوت على قريش هدفها فيما يلى :

أولا : سرية اللحظة التى خرج فيها من مكة ، أو بعبارة أخرى تضييق دائرة الذين يعرفون هذه اللحظة بحيث لم تشمل سوى أفراد [١] قلائل ممن لا يشك فى إخلاصهم وصدق جهادهم .

ثانياً : خداع قريش والتجسس عليها للوقوف على خططها بعد أن عجزت عن قتل الرسول وهو فى بيته حتى يأخذ حذره ، ويتصرف طوعاً لما تدعو إليه الأحداث وتوحى به الأخبار .

فقد انطلق الرسول الكريم إلى منزل أبى بكر متقنعاً [٢] فى ساعة لم يكن يأتيه فيها ، لقد جاء إليه وقت الظهيرة ، وما كانت عادته أن يذهب إلى صاحبه فى هذا الوقت ، وصدقت أحاسيس أبى بكر حين رأى الرسول مقبلا ، فما حمله على المجيء بالهاجرة إلا أمر خطير ، وما كان تفكير الصديق فى غير الهجرة ، فقد سبقه المسلمون إليها ، وكان كلما هم بها وطلب من الرسول أن يأذن له فيها قال له : « لا تعجل لعل الله [٣] أن يجعل لك صاحباً » .

---

(١) قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلا على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر .

(سيرة ابن هشام ج ٢ ص : ١٢٩) .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص: ١٢٩ ، وزاد المعاد ج ٢ ص ٧٣ :

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص : ١٧٥ .

ودخل الرسول على أبى بكر وطلب منه أن يخرج من عنده فقال الصديق : إنما هم أهلك ، فقال الرسول : « فإنى قد أذن لى فى الخروج» فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله، وتهللت أسارير الصديق، وبكى من شدة الفرح حتى تعجبت من بكائه ابنته عائشة ، لما قال الرسول : الصحبة يا أبا بكر .

وكان الصديق بفراسة المؤمن ، وفرط حبه وإخلاصه للرسول يتوقع هذه الصحبة ، ولا سيما بعد أن قال له الرسول: لما قال حين سعى إليه ليأذن له فى الهجرة ، ودفع هذا أبا بكر إلى شراء راحلتين وعلفهما أربعة أشهر استعداداً لهذه الرحلة المباركة . .

— ٤ —

ومن باب صغير يشبه النافذة فى منزل الصديق خرج محمد وصاحبه فى جوف الليل ، ومضيا إلى غار بجبل ثور ، ولم يكن يعرف خبرهما غير عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر ، ثم عامر بن فهيرة الراعى الذى قام بدوره فى محاولة طمس آثار الرسول وصاحبه إلى الغار ، وأيضاً آثار أسماء ، وهى تحمل إليهما الزاد طيلة المدة التى مكثا فيها فى الغار. وذلك أنه كان يدفع بالإبل والغنم فى طريق الغار لتبدد آثار أقدامها معالم الصعود إليه أو النزول منه . وكان هناك عبد الله بن أريقط وهو غير مسلم ، لقد استؤجر ليكون دليل الركب من غار ثور إلى المدينة ، لخبرته بالطريق ، وكان عليه أن يذهب بالراحلتين إلى الغار بعد أن يسكن البحث عن الرسول وصاحبه ومع أن ابن أريقط كان على دين قريش ، وأقام بمكة كل المدة التى مكثها الرسول فى الغار أميناً على السر حفيظاً عليه ،

فقد كان خلق الأمانة فى العرب أصيلا على الرغم مما كان شائعاً بينهم فى الجاهلية من عادات وأخلاق قبيحة .

وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه ، فقد اتشح ببردة الرسول ونام فى مكانه ، وكان هذا لوناً من خداع قريش[1] — فقد كان الفتيان الذين يحاصرون بيت الرسول يعتقدون أن محمداً فى فراشه ، فهم يبصرون فيه شخصاً نائماً ، وشاءت إرادة الله وتأييده لنبيه أن ينام هؤلاء الفتيان « فأغشيناهم فهم لا يبصرون» ويخرج الرسول من بيته ليضع على رءوسهم التراب وهم كالخشب المسندة ، ثم يهرع إلى منزل أبى بكر لتبدأ الرحلة التى غيرت وجه التاريخ .

وبدت تباشير الصباح ، فاقتحم فتيان قريش المنزل المحاصر ، ليفاجأوا برؤية على فى فراش الرسول . ويسألونه عن محمد فى غضب فيجيبهم بغير ما يطمعون ، وتموج مكة بالخبر ، لقد نجا محمد من الموت ، وخرج إلى يثرب ، فهل سيتركه طغاة مكة يصل إلى مهجره فى سلام وأمان ، إنهم لم يعقدوا ندوتهم إلا ليمنعوه من الإقامة بين أنصاره من الأوس والخزرج ، فإذا كان فتيانهم لم ينجحوا فى القضاء عليه وجازت حيلته عليهم ، فإن بعد الشقة ووعورة الطريق بين مكة ويثرب يتيح لهؤلاء الطغاة فرصة أخرى فى محاولة الفتك بمحمد .

وكان أول ما أقدم عليه طغاة قريش هو الذهاب إلى بيت أبى بكر ،

---

(١) وكان على قد كلف مع هذا بمهمة جليلة فى مكة فقد كان لدى الرسول ودائع لبعض أهلها لأنه لم يشأ أن يرد بنفسه تلك الودائع أخذاً بالاحتياط وسرية الهجرة ، لذلك قام على برد هذه الودائع إلى أهلها .

ومن العجيب أن يأمن أهل مكة محمداً على أموالهم دون أن يثقوا بما يخبرهم به من وحى السماء ، ولكنها الجاهلية الجهلاء والعصبية الحمقاء . .

عليهم يجدون ما يهديهم إلى بغيتهم ، فهم لا يرتابون فى أن محمداً قد استعان بالصديق لما بينهما من المحبة والإخلاص .

ذهب هؤلاء وعلى رأسهم أبو جهل بن هشام ، وخرجت إليهم أسماء فقال لها أبو جهل : أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ ، فقالت لهم لا أدرى والله أين أبى ، ورفع الخبيث يده ولطم خد أسماء لطمة لا تعرف الرحمة حتى هوى قرطها من شدة تلك اللطمة ، وسالت دماؤها الزكية آية على صدق جهادها وقوة يقينها ، فهى من أعرف الناس بالمكان الذى لجأ إليه الرسول وأبوها ، لأنها كانت تحمل إليهما الطعام إذا جن الليل كل يوم ، وهى التى حلت نطاقها[1] وقطعت منه قطعة لتربط به فم الجراب الذى وضع فيه ما أعده أهل بيت الصديق من طعام للرحلة الخالدة ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، أسماء هذه أنكرت أنها تعرف شيئاً عن أبيها ، وما كانت لطمة أبى جهل بمجدية فى حملها على أن تقول ما تعلم ، لأن إيمانها أقوى من بطش الجاهلين وإجرام القاسطين .

وأسرع كفار مكة يقتفون الأثر ولكن معالمه لا تستبين لهم فقد ذهبت بها غنم ابن فهيرة مولى أبى بكر ، فلا يقنطون ويبحثون عن رجال منهم لهم خبرة بالأثر ، ويهتدى هؤلاء إليه ، ويمسكون بخيطه ، فينتهى بهم إلى الغار ، وهنا تبتدئ المعجزة ، وينزل تأييد الله فيتحول مدخل الغار إلى عش للحمام ، وبيت للعنكبوت لا يخالج من رآه أدنى شك فى أن هذا المكان لم تطأه قدم إنسان منذ كثير من السنين ، وقد روى عن بعض المشركين أنه قال لمن قادوهم إلى الغار وأكدوا لهم أن الأثر انتهى إليه : إن هذا العنكبوت هنا قبل أن يولد محمد .

---

(١) النطاق : حبل تشد به المرأة وسطها للمهنة .

ويثوب القوم إلى مكة تعلوهم كآبة الهزيمة وتستبد بهم حمية الجاهلية ، فهل تراهم يستسلمون ، ويدعون محمداً وصاحبه : لا ، فالقلوب التي ران عليها الشرك والعقول التي أبت إلا أن تحيا في ظلام الجهل لا تعرف للأحقاد المسعورة حداً ولا يستقر لها خاطر ما دامت تجد أمامها نافذة للشر ، ولهذا نادت قريش في أعلى مكة وأسفلها : من قتل محمد أو أبا بكر فله مائة من الإبل(١) .

إنه جُعل ظنت قريش أنه سيطفئ نار غيظها ، ويقدم إليها محمداً وأبا بكر جثة هامدة ، ولكن هيهات ! . .

ويعرف الرسول وصاحبه وهما في الغار كل ما كان يجرى في مكة ، كان عبد الله بن أبي بكر يقضي نهاره مع قريش ، وهو فتى ذكى ، يسمع ما يأتمر به رجالاتها ، ثم يتسلل في المساء إلى الغار ليخبرهما بما سمع ، ولا جدال في أن هذا كان من عوامل إخفاق قريش ونجاح الهجرة ، لأن الرسول بعد أن عرف ما أقدمت عليه قريش من دفع مائة من الإبل لمن يقتل محمداً أو أبا بكر ، لم يسلك في هجرته طريق يثرب المألوف وإنما سلك طرقاً مختلفة لم تكن في حسبان القوم .

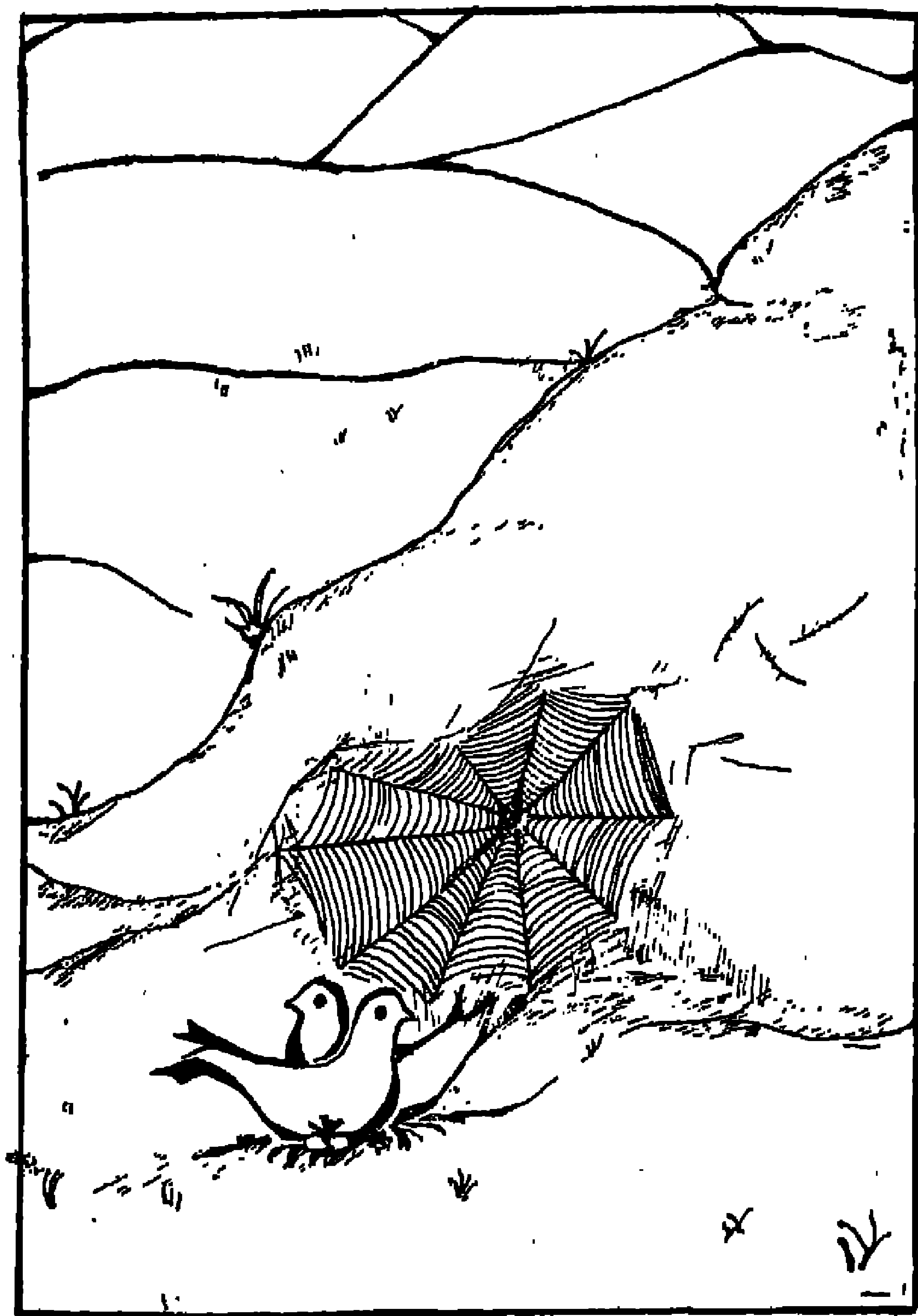
وهكذا نرى أن الهجرة لم تكن عملا ارتجالياً ، ولم تكن الثقة التي لا حد لها في نصر الله حجة للتواكل والسلبية ، ولكنها على العكس كانت حادياً للحزم وباعثاً على الحذر وأخذ الأمور بمنطق علمي دقيق ، لا يترك شيئاً للصدفة(٢) .

إن العقيدة الإسلامية تفرض على المؤمنين بها أن يكونوا إيجابيين

---

(١) إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص : ٤٠ .

(٢) انظر مواقف إسلامية ، للدكتور / عبد العزيز كامل ، ص : ١١٤ .



فى كل ما يأتون ويدعون ، تفرض عليهم أن يأخذوا للحياة أسبابها المشروعة فى إخلاص وإتقان ودون غرور أو ادعاء « إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » و « يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »[١]

ولهذا كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

— ٥ —

وانقضت أيام ثلاثة ، كانت فيها مكة تغلى بالغضب والحقد وتنذر بالثبور والويل ، لا عمل لسادتها غير البحث عن وسيلة تقضى بها على محمد قبل أن يصل إلى أتباعه فى يثرب التى أصبحت تدعى بعد الهجرة « المدينة » .

وفتر الطلب عن الرسول بعد هذه الأيام الثلاثة ، وكأن الجاهلية قد خامرها الإحساس بالهزيمة وإن كانت لم تلق السلاح ، وترك الركب يغذ السير إلى غايته فى أمن واطمئنان . .

ووافى ابن أريقط الرسول وصاحبه بالراحلتين لدى الغار ، فركب صلى الله عليه وسلم راحلة منهما اسمها الجدعاء ، وركب الأخرى أبو بكر رضى الله عنه ، وقد أردف خلفه مولاه عامر بن فهيرة ، وسار عبد الله بن أريقط على راحلته فى مقدمة الركب فهو الدليل الذى يخبر الطريق والذى استؤجر لهذه المهمة .

وأما المدة التى مكثها الرسول مع صاحبه فى الغار فهى ثلاث ليال ،

(١) الآية : ٢٥ فى سورة التوبة .

كما يذهب المحدثون وعامة مؤرخي[1] السيرة ، وذكر المقريزي[2] أن الرسول مكث في الغار بضعة عشر يوماً . ولكن هذا غير دقيق ، وهو اعتماد على حديث مرسل لا يسلم من الأخذ والرد .

وكان خروج الرسول من مكة في شهر صفر[3] في بعض الروايات ، إلا أن المشهور أن الرسول خرج من مكة في ربيع الأول ودخل يثرب في نفس الشهر ، وكان بين دخوله وخروجه خمسة عشر[4] يوماً تقريباً .

وجاء أن يوم خروجه كان الثامن من هذا الشهر ، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر [5] سنة ٦٢٢ ميلادية .

وروى عن ابن عباس[6] أن يوم خروج الرسول كان الاثنين ، وأنه أيضاً كان يوم دخوله ، كما كان يوم مولده وبعثته ووفاته .

وصلى الرسول الفجر إماماً بمن صحبه في هجرته ، ثم انطلق الركب العظيم تحوطه عناية الله : نحو غايته ليس معه من سلاح يذود به عن نفسه شر الإنسان والحيوان غير سلاح التقوى والإيمان ، وأنعم به من سلاح لا يفل ولا يهزم أبداً .

وفي هذا الطريق الممتد عبر الصحراء ، ماذا كان يشغل بال خاتم

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٦٩ ، ط بولاق ، وابن هشام جـ ٢ ص : ١٣٠
(٢) إمتاع الأسماع جـ ١ ص : ٤١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) البداية والنهاية جـ ٣ ص : ١٩٠ .
(٥) مجلة الرسالة ، العدد ١٠٦١ ص : ١١ .
(٦) البداية والنهاية جـ ٣ ص : ١٧٧ .

الرسل والأنبياء ، وماذا جرى له من أحداث وواجه من صعوبات ومشكلات .

لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد أن ناصبته العداء وبعد أن آذته فى نفسه وأصحابه وأجمعت كلمتها فى النهاية على الفتك به لتتخلص منه ومن دعوته التى سفهت أحلامها وعابت آلهتها ، وإذا كان قد نجا منها ، وسلك طريقه إلى يثرب حيث أصحابه وأنصاره ينتظرونه ، فإن الذى لا شك فيه أن كثيرين ممن يتطلعون إلى قبض جائزة قريش التى أعلنت عنها لمن يقتل محمداً أو صاحبه سيغامرون من أجل الظفر بهذه الجائزة .

وما كان الحرص على دفع خطر المغامرين وطلاب الإبل هو الذى يشغل بال الرسول وصحبه فحسب ، فقد كان الرسول يفكر فى ذلك المجتمع الذى يسرع إليه ، فهناك الأوس والخزرج ، وما بينهما من ترات فى الجاهلية ، وهناك المنافقون واليهود بما عرفوا به من الغدر والخيانة ، ثم هؤلاء المهاجرون الفقراء الذين تركوا كل ما يملكون فى مكة ، وكيف يواجهون الحياة فى مهجرهم الجديد ، وكان كل هذا من أجل الدين القويم الذى اصطفاه الله لتبليغه إلى الناس كافة .

وبينما الركب يوفض إلى غايته إذ بدا من بعيد قادم على فرس ، وقد شهر سلاحه ، وأوجس الصديق خيفة من هذا القادم ، فقد كان طوال الطريق لا يفكر فى غير وقاية الرسول الأضرار والأخطار .

وكان هذا القادم سراقة بن مالك أحد الطامعين فى جائزة قريش ، فلما دنا من الركب ساخت قوائم فرسه فى الأرض ، فزجرها لتنهض ، وما كادت تستوى قائمة حتى ساخت أرجلها مرة ثانية ، واضطرب فؤاد سراقة ، وخاف أن يصيبه مكروه ، واستيقن أنه لن ينال من محمد

وصاحبه شيئاً ، فنادى بالأمان ، ثم أخبر الرسول بما تريده قريش به ، فطلب منه الرسول أن يرد عنه الطلب ، وأمر عامر بن فهيرة أن يكتب كتاب أمان لسراقة ، استجابة لرغبته فى هذا ، وكأن وجدانه حدثه بأن هذا المطارد الهارب سيكون له شأن وسلطان بين العرب عما قريب .

ورجع سراقة من حيث أتى وكان لا يلقى أحداً من رجال قريش إلا رده ، فلما وصل الرسول إلى يثرب أخذ سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهده من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من قضية جواده ، وذاع حديث سراقة فى مكة ، وخاف رؤساؤها أن يكون ذلك سبباً لإسلام[١] كثير من أهلها ، فسعوا ليحملوه على الكف عما يقصه ويتحدث عنه ، فما أذعن لهم .

وتمر الأيام ، ويفتح الله على رسوله مكة ويفرغ النبي من حنين والطائف ، وكان سراقة ما زال على دين قومه ، وكان يحتفظ بالكتاب الذى كتبه له ابن فهيرة . فخرج ومعه الكتاب للقاء الرسول فلقيه بالجعرانة[٢] فلما قرب منه رفع يده بالكتاب ثم قال : يارسول الله ، هذا كتابك لى أنا سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، وأدناه الرسول منه ، وأسلم سراقة ، وأنسى جلال الموقف سراقة أن يسأل محمداً عما يريد ، إلا أنه قال له : إن الإبل الضالة ترد حياضى وتشرب منها ، وهو قد أعدها لإبله ، فهل له بذلك من أجر ، وقال له الرسول الرحيم : نعم فى كل ذات كبد حرّى أجر ، وعاد سراقة إلى قومه بنى مدلج مسلماً داعياً إلى الله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ج ٣ ص : ١٨٥

(٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب .



— ٦ —

وفى منتصف الطريق بين مكة والمدينة اتخذت امرأة يقال لها أم معبد خيمة أعدت فيها كل ما تستطيع تقديمه لراحة المسافرين ، من طعام وشراب واستجمام وحديث نزيه تطرفهم به صاحبة الخيمة ، فهى امرأة برزة ؛ أى تبرز إلى الرجال فتجالسهم وتحادثهم .

ومر الرسول وصحبه بخيمة أم معبد ، وأقام بها بعض الوقت ، ولم يكن لدى صاحبة الخيمة فى ذلك اليوم ما يمكن تقديمه لعابر أو زائر ، فالعام عام جدب وقحط ، ولما سألها الصديق أن تبيعهم تمراً أو لحماً ، قالت : والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى .

وحانت من النبى الكريم التفاتة فرأى شاة رابضة فى جانب الخيمة ، يبدو عليها الهزال والإعياء ، فسأل أم معبد عنها ، فقالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ فردت أم معبد : هى أجهد من ذلك ، فقام إليها الرسول ومسح ضرعها ، وأم معبد تتعجب وتقول فى نفسها : ماذا عساه يفعل ؟

وإذا بالشاة تدر باللبن فشرب الرسول ومن معه حتى ارتووا واستراحوا ، ثم هبوا عجلين إلى ركائبهم ، فامتطوها واستبقوا طريقهم إلى المدينة ، وتركوا أم معبد فى دهشة من أمرهم .

وبعد هنيهة قدم عليها زوجها أبو معبد فرآها مضطربة متغيرة اللون ، ورأى فى جنبات الخيمة آثار أكل وشرب فقال : من أين لكم هذا والشاة عازبة[1] ، ولا حلوبة فى البيت ؟ فأخبرته بخبر المسافرين

---

(١) أى لم تلد .

الذين نزلوا بها وأن واحداً منهم قام إلى نعجتها هذه العجفاء الجافة الضرع فحلبها فدرت لبنا غزيراً فقال لها : يا أم معبد صفى لى هذا الرجل العجيب ، فقالت : « رأيت رجلا ظاهر الوضاء منبلج الوجه حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزر به صلعة ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن ، شديد سواد الشعر فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقة خرزات نظم يتحضرن ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس ، وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنئوه عين من طول ، ولا تقتحمه من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود لا عابث ولا منفد »[1] .

فلما سمع أبو معبد هذا الوصف قال وقد علاه الوجوم : ويحك

---

(١) تفسير ما فى وصف أم معبد من غريب اللغة :

ثجلة : كبر البطن ، صعلة : صغر الرأس ، دعج : سواد العين مع سعتها ، وطف : طول الأهداب ، الصحل كالبحة ، وألا يكون حاد الصوت . والقرن : التقاء الحاجبين والصحيح فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان مفروق الحاجبين ، أزج : رقيق الحاجبين طويلهما ، سطع : طول . . لا نزر ولا هذر : لاقليل الكلام ولا كثيره : أجهر الناس : أرفعهم صوتاً . ربعة : وسيط القامة ، لاتشنئوه العين : أى لا تكرهه ولا تنفر منه . لا تقتحمه : أى لا تحتقره ولا تزدريه . محفود : يسارعون إلى خدمته . محشود : أى يجتمع أصحابه إليه . مفند أى لا يتكلم بكلام غير معقول .

يا أم معبد هذا هو صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده إليهم ، ثم تركها ، وأخذ يشتد فى أثر الركب حتى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم ورجع إلى قبيلته يبشرهم بالإسلام .

وجعل رجال القبيلة الذين بلغهم خبر مرور النبي صلى الله عليه وسلم بأم معبد يفدون على خيمتها ، يستوصفونها صفة النبى ، وهى تصفه لهم حتى قال بعضهم : يا أم معبد ما بال وصفك للرسول أوفى وأتم من وصفنا له لو رأيناه نحن معشر الرجال ؟ فقالت : أما علمتم أن المرأة إذا نظرت إلى الرجل كان نظرها أشفى[1] من نظر الرجل إلى الرجل ؟

وقد هاجرت أم معبد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت[2] .

ولم يأخذ علماء الحديث على وصف أم معبد للرسول إلا أنها نعتته بأنه كان أقرن أى مقرون الحاجبين وكل الذين وصفوه من الصحابة قالوا إنه كان أفرق أى مفروق الحاجبين متباعدهما وقولهم هو الصحيح فى وصفه . .

والراجح أن أم معبد لم تخطئ فى الوصف ، وأنها لم تقل أقرن ، وإنما قالت أفرق ، ولكن الكلمة حرفت وما أيسر وقوع التحريف بين أفرق وأقرن[3] .

---

(١) أشفى : أدق وأكثر استقصاء وانتباها .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص : ٢٣٠ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ومجلة الرسالة — العدد ٩٦٦ ص : ٩

— ٧ —

وكانت أخبار خروج الرسول من مكة قد وصلت إلى المدينة وهو لما يزل فى طريقه إليها ، فكان أهلها يبرزون إلى ساحاتها وضواحيها ، ويروحون ويغدون بينها وبين « قبا»[1] انتظاراً لمقدم الرسول وشوقاً إلى رؤيته .

وكان هؤلاء الذين ينتظرون محمداً وصحبه لا حديث لهم إلا عن صفات الرسول وهيبته ، وبينا هم يتجادلون فى إقامة الرسول « بقبا» ليلة للراحة من وعثاء الرحلة الطويلة ، ثم يتوجه إلى المدينة بعدها ، إذ طلع عليهم من قال : جئت الآن من قبا ، وقد وصلها النبى ومن معه ، وما سمع الأنصار والمهاجرون هذا حتى غمرتهم البهجة ورفعوا أبصارهم إلى السماء يسألون الله لدينه النصر ولنبيه العز والخير ، وهبوا عجلين إلى صوب « قبا» .

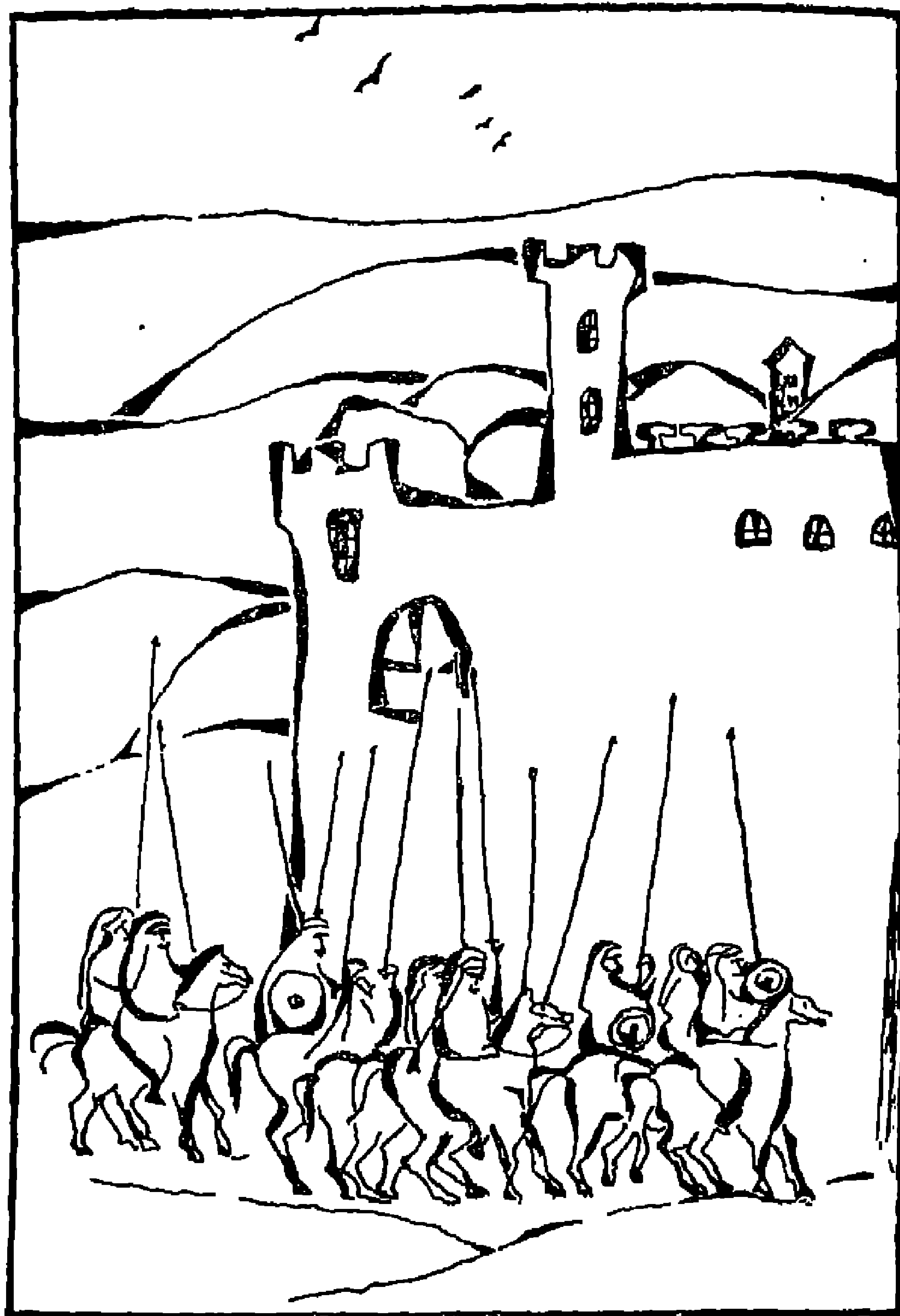
وكان كثير من المؤمنين لم ير الرسول ، من قبل ، وخلط بعضهم بينه وبين « أبى بكر» ، وحين وقف الصديق يظلل الرسول بردائه وقاية له من حر الشمس — فقد كانت الهجرة فى وقت قائظ — عرف الناس نبيهم وجعلوا يهتفون إليه بالتحية والترحيب والإجلال والتعظيم .

وأردف النبى أبا بكر خلفه ، وأخذ طريقه إلى المدينة ، وحف به الناس فرحين مستبشرين حتى دخلوها ، فإذا أحاجيرها[2] مزدحمات

---

(١) قرية تبعد عن المدينة نحو أربعة كيلومترات .

(٢) أى شرفات سطوحها .



بالنساء فما رأين شخص النبي حتى علت أصواتهن بالزغردة والأناشيد .

وكان صغار الصبيان والجوارى يمشون زرافات بين يدى النبى يضربون بالدفوف وينشدون نشيد الهجرة الذى مطلعه :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

كذلك تفرق الغلمان فى بعض سكك المدينة ينادون : جاء محمد رسول الله . الله أكبر . جاء محمد رسول الله .

لقد كانت المدينة فى يوم عيد لم تعرف له نظيراً فى تاريخها ، فطرقاتها تموج بمعالم السعادة والغبطة ، والأطفال يغنون وينشدون ويرقصون ، والرجال يلعبون بالحراب ويرقصون ، والنساء فوق أسطح المنازل يزغردن ، كانت البسمة على كل فم ، والسرور يفيض به كل وجه .

ولما تخلل الموكب دور المدينة جعل سكانها يقفون فى وجه الناقة ويضرع كل منهم أن ينزل النبى صلى الله عليه وسلم ضيفاً عليه ، وكانوا أحياناً يمسكون بزمام الناقة ويميلون رأسها إلى جهة بيوتهم ، والرسول لا يعنفهم ولكنه يقول لهم فى رفق : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة ».

وأخيراً بركت الناقة على باب أبى أيوب الأنصارى النجارى ، ونزل الرسول عنها ودخل الدار قائلا : « رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين » قال أنس خادم النبي عن ذلك اليوم المشرق : « إننى لم أر يوماً فى عمرى أحسن ولا أضوأ من ذلك اليوم الذى دخل فيه النبى المدينة ونزل دار أبى أيوب » .

(١) انظر ابن هشام جـ ٢ ص : ١٣٩ ، إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٧ ، ومجلة الرسالة العدد ٩٦٦ ص ٩ .

وفور وصول الرسول إلى المدينة شرع يعمل من أجل الغاية التي دعت إليها الهجرة : بنى المسجد ، وعقد مع أهل المدينة معاهدة[١] سلام وتعاون وحسن جوار ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، لتوثق الروابط بينهم ، وتهيأت للدعوة فى مهجرها لهذا وغيره عوامل النمو والازدهار والقوة ، وبحيث لم يكد يمضي على المسلمين عامان فى المدينة حتى خاضوا معركتهم الأولى فى بدر : وفى العام الثامن بعد الهجرة كان الرسول يقف على باب الكعبة بالقرب من دار الندوة حيث تآمرت قريش على قتله قبيل هجرته فيقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، يا أهل مكة ، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فيقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . سلام الله عليك يا رسول الرحمة ونبي الإنسانية ، لقد طهر الله قلبك من الحقد والضغينة والانتقام ، وكنت المثل الأعلى فى الصفح والعفو ، لأنك لا تريد إلا نصرة الحق وهزيمة الباطل ، وفى سبيل ذلك تحملت ما تحملت حتى حقق الله النصر ، وهوت أصنام المنكر والشرك ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

---

(١) انظر نص هذه المعاهدة فى كتاب المنتخب من السنة جـ ١ ص ١٣٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

المهاجرون والأنصار

— ١ —

المهاجرون والأنصار هم حملة الإسلام الأول آمنوا به ، وكافحوا من أجله ، وجادوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل تبليغ دعوته وإعلاء كلمته ، وضربوا أروع الأمثلة فى الفداء والجهاد ، وصاروا بكل ذلك أهلا لما أسبغه الله عليهم من فضل ، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم ونعيم مقيم .

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية فى مكة من وأد الدعوة ، وهى فى مستهل حياتها ، لقد استمسكوا بما أوحى إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه وآمنوا به ، ولما أسرفت الجاهلية فى عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم ، ويمموا صوب المدينة وهناك استقبلهم إخوانهم الأنصار بالحفاوة والإكبار ، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين ، فقد تميز بالحب الرائع والبذل السخى والإيثار الكريم ، كان المسلم الأنصارى يقدم إلى أخيه المسلم المهاجر نصف ماله أيا كان نوعه وكان يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المسلم المهاجر الذى لا زوج له ، وبهذه الروح السامية : روح الإيمان والحب والإخاء والفداء والإيثار تكون المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة ، واستطاع هذا المجتمع بهذه القيم الخالدة والمثل الفاضلة أن يدحر كل مؤامرات المنافقين واليهود فى المدينة ، وأن

يكون للدعوة الخاتمة قوة عادلة تمكن لها فى غير إكراه لأنه لا إكراه فى الدين . وما يقوله بعض المستشرقين ومن سار فى ركابهم من الباحثين المسلمين من أن الإسلام دين ذاع بحد السيف قول باطل ، ويكفى فى إدحاضه انتشار الإسلام فى بلاد لم تعرف الجيوش الإسلامية طريقاً إليها ، وكان التجار والرحالة والعلماء هم حملة الإسلام إلى تلك البلاد .

وهؤلاء الأمجاد الأبطال من المهاجرين والأنصار تحدث كتاب الله عنهم حديثاً يفيض بالثناء عليهم والإشادة بهم ، فهم قد أخلصوا ماعاهدوا الله عليه هاجر المهاجرون يرجون رحمة الله وخلفوا وراءهم فى مكة أموالهم وديارهم وأهليهم وأحلام طفولتهم وآمال شبابهم انتصاراً لإيمانهم وفداء لعقيدتهم ، وآوى الأنصار ونصروا وبذلوا فى سخاء وآثروا على أنفسهم فى غبطة فكانوا جميعاً المؤمنين حقاً وصدقاً وكانوا أهلا لما أعده الله لهم فى دار الخلد والبقاء من ثواب جزيل ، وصدق الله العظيم : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم »(١) . « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم »(٢) .

على أن حديث القرآن عن المهاجرين جاء أكثر من حديثه عن الأنصار ، وقد أفرد أولئك بالذكر فى بعض الآيات على حين ورد ذكر هؤلاء مع المهاجرين دون أن يفردوا بالذكر فى آية واحدة .

وليس ذلك من باب تفضيل المهاجرين على الأنصار مع التسليم بأن

---

(١) الآية : ٧٥ فى سورة الأنفال .

(٢) الآية : ١٠٠ فى سورة التوبة .

المهاجرين أسبق إيماناً وجهاداً وذكراً فى القرآن وتعرضوا لصنوف مختلفة من التعذيب لم يتعرض لها الأنصار ، ويكفى أن الله تبارك وتعالى وصفهم جميعاً بأنهم المؤمنون حقاً ، وبأنه سبحانه رضى عنهم ورضوا عنه .

ولكن القرآن الكريم تحدث أكثر عن المهاجرين ليسجل لهم بعض ما تعرضوا له من الأذى والاضطهاد فى مكة ، وليتحدث عن أنواع المهاجرين وحظهم من الهجرة .

وقد أسلفت عند الحديث عن أسباب الهجرة الإشارة إلى بعض الآيات التى عبرت فى إجمال عن موقف كفار مكة من المؤمنين الصابرين ، وكيف أكره هؤلاء على ترك ديارهم بسبب ذلك الموقف الذى اتسم بالحماقة والغلظة والادعاء وسوء الأدب .

ولأن الهجرة كانت فرضاً على المؤمنين قبل فتح مكة فإن القرآن تحدث عن بعض المؤمنين الذين لم يهاجروا ، أو تأخرت هجرتهم لتأخر إيمانهم ، كما أشار إلى هؤلاء الذين أدركهم الموت وهم فى طريقهم إلى المدينة .

— ٢ —

من أخص خصائص الإسلام أنه عقيدة استعلاء ، ولا تعنى كلمة الاستعلاء الغطرسة والكبرياء ، ولكنها تعنى السمو الروحى الذى يربأ بالإنسان أن يعيش كالحيوان الأعجم تسيطر عليه شهوات الجسد ، ويستكين لكل من يقدر عليه .

إن تعاليم الإسلام كلها تغرس فى نفوس المؤمنين به ذلك

الشعور الكريم ، شعور الاستعلاء فى غير كبر ، وشعور الكرامة فى غير ضعف ، فكلمة الشهادة — وهى مفتاح الإسلام — تحرر الإنسان من عبودية غير الله ، ومن ثم لايخضع فى حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله إلا لما أمره الله به ونهاه عنه ، فيحيا أبياً مستعلياً على كل ما يحول بينه وبين الحياة العزيزة الكريمة .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن نوع من المؤمنين لم يهاجروا ورضوا بالإقامة مع قومهم ، وكان عليهم أن يفروا بدينهم إلى الله ورسوله ، استعلاء لعقيدتهم وتمرداً على الضعف والاستكانة وطلباً للعزة والحرية والكرامة ، فيصور هؤلاء تصويراً يبرز مدى خضوعهم لضعف العزيمة وقعود الهمة والرضوخ للذل :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً »[1] .

وعذر هؤلاء بالضعف مرفوض ، ولايتفق مع روح القوة والاستعلاء التى يبثها الإسلام فى النفوس « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

ويؤكد رفض عذرهم وأنه غير صحيح أن الآية بعد ذلك تستثنى الذين يعجزون عن الهجرة ولا يعرفون سبيلا أو حيلة إليها ، لأن الله أرحم بعباده من أن يطلب منهم مالا يقدرون عليه فهو سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

---

(١) الآيات : ٩٧ — ٩٩ فى سورة النساء .

وقال الإمام القرطبي عن هذه الآية : المراد بها جماعة من أهل مكة أسلموا وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان ، فلما هاجر أقاموا مع قومهم ، وفتن منهم جماعة ، فافتتنوا ، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فنزلت الآية[١].

وقال الإمام محمد عبده : كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، فهم بحبهم لبلادهم ، وإخلادهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء فى الحق لامستضعفون ، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة خير الدنيا بعزة المؤمنين وخير الآخرة بإقامة الحق ، فظلمهم لأنفسهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى وفقد الكرامة عند عشرائهم المبطلين[٢]» .

فهذا لون من المؤمنين الذين لم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة ، وهذا جزاؤهم المهين الذى يتلاءم مع مهانتهم وصغارهم ، وكفى بذلك دليلا على أن المسلم لايرضى بالدنية فى دينه ودنياه وأن عقيدة الاستعلاء دون غرور أو ادعاء تحكم حياته كلها . .

— ٣ —

أما الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا فيقول القرآن عنهم : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم»[٣]. إنهم كالمهاجرين

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٣١٥

(٢) تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٥٦

(٣) الآية ٧٥ فى سورة الأنفال .

والأنصار فى الولاية والجزاء يجب لهم من الحق والنصرة فى الدين والموالاة مثل ما يجب عليهم لإخوانهم السابقين من المهاجرين والأنصار .

ومما يتصل بهؤلاء الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا ما جاء فى سورة الممتحنة[١] عن بعض المؤمنات المهاجرات : «يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولاجناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

وهذه الآية الكريمة[٢] يروى أنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وكان من شروطه أن من جاء الرسول من أهل مكة رده إليهم ، ومن ذهب من المؤمنين إلى مكة فلا يرده أهلها إلى محمد ، فجاءت امرأة لم يتفق المفسرون على اسمها إلى الرسول مسلمة ، وهرع زوج المرأة أو أهلها يطلب من محمد أن يرد عليهم تلك المرأة ، فنزلت الآية لإبطال ذلك الشرط بالنسبة للنساء ، فلم يرد الرسول امرأة هاجرت إليه .

وتطلب الآية من الرسول أن يمتحن المؤمنات المهاجرات واختلف فيما كان يمتحنهن به على ثلاثة أقوال :

١ ــ كانت المرأة تستحلف بالله أنها ما خرجت بسبب بغضها لزوجها أو مضارته ، ولا سعياً وراء مغنم دنيوى من مال أو زوج ، ولكنها هاجرت حباً لله ولرسوله .

---

(١) الآية العاشرة .

(٢) انظر القرطبى جـ ١٨ ص ٦١

٢ ــ أن تشهد المرأة الشهادتين دون أن تستحلف .

٣ ــ أن تبايع الرسول بما جاء فى الآية : « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم »[١] .

وهذا الامتحان على اختلاف فى تحديد مدلوله إنما هو للمؤمنين ، لأن الله لا يخفى عليه شىء ، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهذا يرشد إلى أنه لا سلطان لأحد على ضمير الإنسان إلا الله ، وأن كل من تظهر منه دلائل الإيمان وشواهد اليقين بالقول والفعل ، فهو مؤمن تجرى عليه أحكام الإسلام ، وأما ما عقد عليه قلبه فأمره إلى الله .

وتأمر الآية إذا ظهر إيمان المؤمنات المهاجرات بعدم ردهن إلى أزواجهن الكفار ، فقد انفصمت عرى الزوجية بإيمانهن ، ولكن عدل الإسلام يقضى بدفع ما أنفق الكفار من صداق على زوجاتهم المهاجرات ، ولا حرج على المسلمين أن يتزوجوا إذا دفعوا إليهن صداقهن .

ثم تنهى الآية فى ختامها عن التمسك بعقد زوجية الكافرات الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها ، وتأمر مع هذا بدفع ما أنفق الكافرون على زوجاتهم وأخذ ما أنفق المؤمنون كذلك ، وهذا حكم الله بين عباده ، وهو سبحانه أعدل الحاكمين .

وتجدر الإشارة إلى آية وردت فى سورة الأحزاب[٢] لأنها كرمت المهاجرات وهى تتحدث عن أنواع من النساء أحلها الله للنبى صلى الله

---

(١) الآية ١٢ فى سورة الممتحنة .

(٢) الآية : ٥٠ .

عليه وسلم : « يأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

فى هذه الآية الكريمة يحلل الله للنبي صلى الله عليه وسلم أنواع النساء المذكورات فيها وإن كان فوق الأربع مما هو محرم على غيره وهذه الأنواع هى :

أولا : اللواتى أمهرهن ، أى تزوجهن بصداق مسمى ، فكلمة الأجور فى الآية يقصد بها المهور [1] .

ثانيا : ما ملكت يمينه إطلاقا من الفىء والغنيمة .

ثالثا : كل امرأة تهب نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم بلا مهر ولا ولى إن أراد النبي نكاحها ، وقد جعل الله هذه خصوصية للرسول بما أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعاً .

ولكن الآية الكريمة بعد أن ذكرت ما أحله الله لنبيه من الأزواج اللاتى أمهرهن ، وما ملكت يمينه ، نصت على بنات العم والعمات ، والخال والخالات ، فهل لهذا النص دلالة على أن الله أحل لنبيه هؤلاء فضلا عما أمهرهن وما ملكت يمينه كما يذهب جمهور المفسرين ، أو أن خصوصية هؤلاء بالذكر من قبيل التشريف والتقدير ، والاهتمام

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ١٥ : ط بولاق ، وبصائر ذوى التمييز جـ ٢ ص : ١٣١ .

على رأى بعض المفسرين[١] ؟

والذى أرجحه أن هذا النص من قبيل التشريف والتقدير وأن القيد الذى قيد به وهو « اللاتى هاجرن معك » يوحى بأن هذا النص إنما جاء لبيان أن درجة القرابة لا اعتبار لها إذا فقدت الإيمان الصادق وأن الهجرة كانت قوام الولاء والإخاء بين المسلمين ، وأن المهاجرين رجالا ونساء أهل للتكريم والتقدير بما قاموا به فى سبيل الله .

على أن المراد بقول الله تعالى : « هاجرن معك » هو المشاركة فى الهجرة لا صحبتهن له فيها ، فمن هاجر منهن حل له، سواء كان فى صحبته إذا هاجر أو لم يكن، يقال : دخل فلان معى ، أى فى صحبتى فكنا معاً ، ويقال : دخل فلان معى وخرج معى أى كان عمله كعملى وإن لم يقترن فيه عملكما[٢] .

وقد جاء إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة فى الآية آية من آيات البلاغة القرآنية ، ودقة ألفاظ هذا الكتاب العزيز وأسلوبه ، وذلك أن العرف اللغوى يستعمل العم والخال اسمى جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة ، فجاء الإفراد والجمع على مقتضى ذلك العرف اللغوى الدقيق ، ولا غرو فالقرآن الكريم كلام الله العزيز الحكيم أنزله على نبيه بلسان عربى مبين .

وكان تنكير المرأة التى وهبت نفسها للنبى سبباً فى اختلاف المفسرين حولها ، أواحدة كانت أم أكثر؟، ومن هى أو هن ؟ ومع كثرة

---

(١) انظر القرطبى ج ١٤ ص : ٢٠٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ج ٧ ص ٢٤١ ، وتفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٠٨ ، وتفسير سورة الأحزاب للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص : ١٨٤ .

الروايات التي أوردها بعض المفسرين [١] عن عدد الواهبات أنفسهن للنبي وفي تعيينهن ، فقد ذكر ابن كثير [٢] عن ابن عباس من أنه لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له . أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحاً ومخصوصا به لأنه مردود إلى مشيئته .

وهذا الذي ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين يتلاءم مع منطوق الآية الكريمة ، فليس فيه ما يفهم منه أن الرسول قبل امرأة وهبت نفسها له بدليل هذا الشرط « إن أراد النبي أن يستنكحها » ولم يثبت أنه أراد نكاح واحدة ممن وهبن أنفسهن له وإن أباحت له الآية ذلك وخصته به . فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يتزوج بامرأة وهبت نفسها له دون صداق ، أما هو صلى الله عليه وسلم فقد أحل له نكاح من تهب نفسها له [٣] .

والآية بعد أن بينت ما أحله الله للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إلى غيره من المؤمنين وذكرت أنهم خاضعون لما فرضه الله عليهم في أزواجهم ، وما ملكت أيمانهم ، فليسوا مثل الرسول في جواز أن ينكح الرجل أكثر من أربع بمهر وولي أو أن تهب له امرأة نفسها ، وإنما اختص الرسول بذلك لكي لا يكون عليه حرج في استبقاء أزواجه وفي الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ومع ما أحل الله لرسوله ومع ما تزوج عليه السلام في حياته فإن الرسول لم يكن إنسانا ذا نزوات وشهوات لا تعرف القيود والحدود . فقد

---

(١) انظر الطبري ج ١٤ ص : ٢٠٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٦ .

(٣) تفسير سورة الأحزاب ص : ١٨٥ .

تزوج السيدة خديجة رضى الله عنها ، وهو فى غضارة الشباب وفتوته وكانت هى أكبر منه سنا ، وظلت المرأة الوحيدة فى حياته إلى أن ماتت وكان هو قد تجاوز الخمسين من عمره حين وفاتها . ثم تزوج عليه السلام بعد وفاة السيدة خديجة من تزوج من النساء ، وكان لكل زوجة ظرف [١] خاص كان سبباً للتزوج بها ، وليس منها مايدل على أنه كان يستجيب لشهوة أو نزوة ، فقد تجاوز السن التى هى مظنة الرغبات العارمة وكانت أعباء الدعوة بعد الهجرة تضيف إلى تقدم السن عاملا آخر فى نفى ما يثيره بعض المغرضين من المستشرقين وأمثالهم ، من أن الرسول كان رجلا يأخذ بعقله الهوى وأنه تزوج من تزوج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام ، إذ أنه أباح لنفسه ما حرم على الناس كما ذهب إلى هذا المرحوم الدكتور منصور فهمى فى رسالته التى حصل بها على الدكتوراه من جامعة باريس ، ثم تبين له وجه الحق بعد ذلك فاعترف بما تورط فيه من خطأ جسيم .

إن محمداً بشر ولكنها البشرية فى جلالها وكمالها ، ومن يقرأ سيرته أو يدرس شخصيته تطالعه عظمة هذا الرسول الأمى وكماله فى كل مرحلة من مراحل حياته ، وهؤلاء الذين صوروه بغير ما فطره الله عليه وألصقوا به ما هو برىء منه إنما حملهم على هذا الأهواء وفقدان الموضوعية والأمانة العلمية .

---

(١) انظر حياة محمد لهيكل الفصل السابع عشر .

— ٤ —

وروى عن ابن عباس قال : خرج حمزة بن جندب من بيته مهاجراً ، فقال لأهله : احملونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزل الوحى : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً[1] » .

وهناك روايات متعددة عن المهاجر الذى أدركه أجله وهو فى طريق هجرته ، فنزلت الآية بسببه ، وهى روايات لا تهمنا كثيراً[2] ، ولكن الآية تدل على أن النية الخالصة هى أساس الخير والأجر ، وقد روى عن الرسول عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[3] » .

---

(١) الآية ١٠٠ فى سورة النساء . والمراغم أى المذهب الذى يذهب إليه . والمادة ترجع إلى معانى المساخطة والمجاهدة ، فالمهاجر حين يترك دار المنكر ويغضب على ما يرى من الشر ، فهو يجاهد نفسه وعدوه « وانظر مفردات الراغب مادة رغم » .

(٢) انظر تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) البخارى جـ ١ ص ١ .

إن المؤمن الصادق فى إيمانه لايشرك بالله شيئاً فى كل تصرفاته ويحرص دائماً على أن تكون أعماله خالصة لله وحده ، فهو سبحانه مطلع على السرائر والضمائر ولاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التى تحدثت عن الذين لم يهاجروا وأقاموا مع قومهم ورضوا بحياة الضعف والمهانة ، ولا يعقل أن تكون مبتورة الصلة بها وأنها نزلت فى شخص ما مات فى طريق هجرته ، ولكن العلاقة بين هذه الآية وتلك الآيات وثيقة فهى تذكر أن من يهاجر فى سبيل الله لن تضيق به الأرض ففيها رحابة وسعة ، وما تضيق الأرض إلا فى وجه الإنسان حين تضيق همته ويتقلص رجاؤه فى الله وتمسكه القيود والمخاوف فى دار الهوان ، ثم تبين أن من خرج من قفص الخوف الذى يمسك به حيث يفرط فى دينه أو فى كرامته أو فى حقوقه ، وهاجر إلى الله ورسوله فأدركه الأجل قبل بلوغ الغاية فإن الله بفضله ضمن له المغفرة والرحمة . . ولعل كل هذا يحمل هؤلاء الضعفاء على أن يفروا بدينهم من دار الاستكانة والخوف إلى دار العزة والأمن والكرامة .

— ٥ —

وإذا كانت الهجرة قد أتاحت للمسلمين حياة لا تعرف الاضطهاد والأذى ، فإنها لم تخلصهم من محاولات النيل منهم ، فأعداء الإسلام فى داخل المدينة وفى خارجها يتربصون به ويكيدون له ويعملون[1]

---

(١) انظر : محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل للدكتور مصطفى كمال وصفى .

والمعروف أن الرسول وادع اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وكتب لهم بذلك=

فى الظلام للانقضاض عليه ، فيهود المدينة والمنافقون فيها أبطنوا الحقد والكيد والنفاق والدس ، وأظهروا الوئام والسلام ، وكفار مكة لم يكونوا يرون فى هجرة المسلمين انتصاراً لهم ويعتقدون أن هؤلاء المهاجرين لن يناموا عن الثأر لأنفسهم ، فكانوا يتحينون الفرصة لتبديد شملهم والقضاء عليهم ، فإذا أضيف إلى ذلك أن المهاجرين قد ضحوا بكل غال ونفيس لديهم من أجل الحفاظ على عقيدتهم ، تبين لنا أن المسلمين فى مستهل حياتهم الجديدة بعد الهجرة كانوا فى أمس الحاجة إلى تشريعات تشد أزرهم وتحمى وحدتهم وتعدهم لخوض المعارك المتباينة ضد الشرك والنفاق والحقد ، حتى تصبح كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تشريعاً يتلاءم مع طبيعة الفترة الحرجة التى كان المجتمع الإسلامى يمر بها عقب الهجرة . فقد حقق التعاون والتناصر بين أفراد هذا المجتمع تحقيقاً كفل له التماسك والتغلب على كل ما يتهدده فى المدينة أو غيرها .

والمشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر ، وأن هذه المؤاخاة كانت على الحق والمواساة والتوارث[1] .

وروى أن الرسول قال لأصحابه : تآخوا فى الله أخوين أخوين[2] .

= معاهدة ، ولكنهم لم يحترموا ما شرطه الرسول لهم وعليهم فخانوا وغدروا — وهكذا شأنهم دائما فى كل عصر ومصر — وقد أمكن الله رسوله منهم وأورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم .

(١) الدرر ص ٩٦

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٢٦ .

وجاء عن ابن عباس قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه المهاجرين والأنصار ، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض »[١].

وقال ابن كثير : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم[٢].

وقال ابن القيم : كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على المواساة والتوارث بعد الموت دون ذوى الأرحام[٣].

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى فى سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » نص فى المؤاخاة من حيث التوارث ، ولذلك يذهب إلى أن الولاية فى الآية الكريمة خاصة بولاية الإرث لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالإسلام والهجرة دون القرابة[٤].

ويرجح الإمام محمد عبده أن لفظ الأولياء عام يشمل كل معنى يحتمله وكل ما يصح أن يقال فى مسألة التوارث أنها داخلة فى عموم

---

(١) الدرر ص ٩ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٢ .

(٣) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٩ .

(٤) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٠٥ .

هذه الولاية سواء كان بالإسلام أو القرابة(١).

ومهما يكن من خلاف بين المفسرين حول تفسير الولاية ، وهل هي خاصة بالإرث أو أنها غير خاصة به وتنسحب على كل معنى تحتمله ، فإن الآثار تضافرت على أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار شملت التوارث دون ذوى الأرحام .

لقد كان هذا الإخاء صلة فريدة فى تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد ، لقد قام مقام أخوة الدم فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها .

وبهذا الإخاء ازدادت وحدة المسلمين توكيداً واستطاعوا أن يصمدوا أمام عواصف الشرك والنفاق والكيد ، وأن ينطلقوا من مهجرهم بعد أمد وجيز ليطهروا البيت الحرام من الأوثان والأصنام ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وتذكر الآية أن ولاية المؤاخاة — على اختلاف فى تفسيرها — لاتشمل الذين آمنوا ولم يهاجروا كما كان الشأن مع جماعة من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، غير أن هؤلاء وأمثالهم يجب على المسلمين نصرهم إن استنصروا فى الدين على شرط ألا يخل المسلمون فى هذه النصرة بعهد مضروب بينهم وبين قوم آخرين وهى قمة فى الاحتفاظ بالعهود تتطلع إليها البشرية ولاتنالها حتى الآن .

لقد كانت الهجرة العنوان الصادق للإيمان الخالص الذى لايشوبه نفاق أو حرص على مصلحة فانية ومتعة زائلة ، ولهذا لم يكن بين المؤمنين المهاجرين وهؤلاء الذين آثروا البقاء بين المشركين ولاية إخاء ، ولهذا

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٠٥ .

كذلك نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من المنافقين أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فالهجرة البريئة التى لم تحركها بواعث المصلحة المادية دليل الإيمان الذى لايعرف الغدر والخديعة والذى لايعنيه إلا إعلاء كلمة الحق: « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا ولانصيراً »(١).

— ٦ —

ولما كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قد قامت مقام أخوة الدم بسبب الظروف الاستثنائية التى عاش فى ظلها المجتمع الإسلامى بعد الهجرة مباشرة ، فإن الإسلام مع حفاوته بهذا الإخاء واستبقاء ينابيعه فى القلب مفتوحة دائماً مستعدة للفيضان فى كل وقت وحين ، حريص على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية للنفس البشرية لا أساس الفترات غير العادية التى تؤدى دورها فى الفترات الاستثنائية ، ثم تترك مكانها للمستوى الطبيعى متى انقضت فترة الضرورة الخاصة .

ومن ثم عاد القرآن بمجرد استقرار الأحوال فى المدينة شيئاً ما بعد غزوة بدر الكبرى واستتباب الأمر للدولة الإسلامية وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار ووجود أسباب معقولة للارتزاق وتوفر قدر من الكفاية — عاد القرآن إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة عن الدم مستبقياً إياه من ناحية العواطف والمشاعر ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة .

---

(١) الآية ٨٩ فى سورة النساء .

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً »[١].

وهذه الآية فى مستهلها تقرر الولاية العامة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم بل على قرابة النفس ، فهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم فعليهم أن يحبوه ويطيعوه ، وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه : «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وتقرر الآية كذلك الأمومة الشعورية لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لجميع المؤمنين ، فيجب عليهم توقيرهن وعدم التزوج بهن بعده : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً »[٢].

وبعد أن ألغت الآية نظام المؤاخاة من ناحية التوارث والتكافل فى الديات ، وردت هذا إلى قرابة الدم والنسب «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » أشارت إلى أن هذا الإلغاء من تلك الناحية لايعنى بتر صلات المودة من حيث التعاون والتناصر ، ومن حيث التكافل المالى كذلك « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً » فباب الهبة أو الوصية مفتوح لمن يقدم خيراً وبراً .

والآية فى ختامها تقرر أن التوارث بالأرحام هو الأصل المقرر فى الأزل « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » فتقر القلوب وتستمسك بالأصل الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم .

---

(١) الآية ٦ فى سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٥٣ فى سورة الأحزاب .

— ٧ —

والمهاجرون الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أراد الرسول الكريم أن يقسم عليهم وحدهم دون الأنصار أموال بنى النضير(١) التى غنمها الرسول بغير حرب ، وكان يريد من وراء ذلك أن يعوض المهاجرين عن بعض ما تركوه فى مكة وأن يحدث نوعاً من التقارب المالى بين المسلمين جميعاً فى المدينة ، غير أنه عليه السلام لم يشأ أن يفعل ذلك إلا بعد أن يجمع الأنصار ويعرض عليهم ما يراه .

دعا الرسول الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من البذل والإيواء والنصرة ثم قال لهم : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكانوا على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم .

ويقول سعد بن عبادة وسعد بن معاذ الأنصاريان : « بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا » ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

---

(١) النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وقد حاولوا قتل الرسول بإلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جنب جدار من بيوتهم ، ثم نقضوا العهد الذى بينه وبينهم ، فخرج الرسول إليهم فى نفر من أصحابه ففر هؤلاء اليهود بعضهم إلى خيبر على بعد نحو مائة ميل من المدينة وبعضهم إلى جرش بجنوب الشام ، وكان هذا فى شهر ربيع الأول سنة ٤ هـ .

موقف رائع نبيل ، وصورة حية مشرقة من صور الإيمان والحب والإيثار ، صورة تؤكد أن رابطة العقيدة أقوى وأغلب من رابطة الدم والنسب والموطن والجنس : وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف فى سورة الحشر فى الآيتين الثامنة والتاسعة بعد أن أورد قبلهما قصة بنى النضير ، وما يجب فيما يفيئه الله على المسلمين من أموال بغير قتال :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

لقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار فى هاتين الآيتين ، مدح المهاجرين بصدق الإيمان والجهاد ، فقد خرجوا من ديارهم وأموالهم يرجون فضل الله ورضوانه ، وينصرون الله ورسوله ، ومدح الأنصار الذى تبوءوا الدار أى استوطنوا المدينة قبل المهاجرين بإخلاص الإيمان وحب الذين هاجروا إليهم كما مدحهم بالإيثار فى أسمى صوره لأنه إيثار عن حاجة .

وتحذر الآية فى ختامها من الشح ، لأنه المعوق عن كل خير وبر ومن خلص نفسه من إسار الشح وبذل فى سخاء كريم من ماله وعواطفه وجهده ، فقد سلك طريق الفلاح وكان من الفائزين « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وكان خلق الإيثار من الأنصار يقابل من المهاجرين بالعفة والقصد ، ولم يكن أحد منهم بالذى يغريه كرم الأنصار فيدفعه إلى الجشع والطمع أو التراخى عن العمل واستمراء حياة الكسل . ولكن خلق

الإيثار قوبل من المهاجرين بالشكر والقناعة والإقبال على العمل التماساً للغنى والقدرة على الوفاء بالحقوق . فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر[1] وانصرف إلى المدينة ، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم .

وروى أن سعد[2] بن الربيع الأنصارى عرض على عبد الرحمن بن عوف المكي أن يشاطره ماله — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهما — فأبى عبد الرحمن ، وطلب إليه أن يدله على السوق ، وفيها بدأ يتجر حتى أصبح بعد زمن ليس بالبعيد ذا غنى ويسار .

وروى أن كثيراً من المهاجرين كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم وكانوا يعملون فى مزارع الأنصار[3] .

وهكذا كان مجتمع المدينة بعد الهجرة يعيش حياة طيبة تظللها عواطف الإخاء والمحبة والإيثار والعفة والمجد ، وعز على اليهود أن يعيش المسلمون فى صفاء وتعاون وتعاطف فحاولوا إثارة الخلافات الجاهلية بين الأوس والخزرج ليعكروا صفو المحبة والإخاء بين المسلمين ، وكان جزاؤهم العادل أن تطهر الأرض منهم ، فأجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها حتى لا يعوقوا الركب عن متابعة السير والجهاد لترتفع أعلام الحق والعدل والمحبة والإخاء .

---

(١) خيبر واحة كبيرة على بعد نحو مائة ميل من المدينة ، كان يسكنها اليهود ، وكان لهم بها حصون ، وكانوا موصوفين بالمكر والخبث ، وقد غزاهم الرسول فى سنة ٧ هـ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٩ .

(٣) مجلة الرسالة العدد ١١١٢ ص ١٨ .

— ٨ —

ولا غرو بعد كل هذا أن يفوز المهاجرون والأنصار برضوان الله ورحمته وجنته ، فالمهاجرون لم يتركوا مكة رهبة من الكفر ولا رغبة فى الدنيا ، ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلا منه « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم »[1] « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون »[2] « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم »[3].

وأما الأنصار فقد آووا ونصروا وضربوا أروع الأمثلة فى السخاء والإعطاء والحب والإيثار ، ومما قاله الرسول فى بيان قدر الأنصار « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » .

إن المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ورضوا عنه ، كانوا المؤمنين حقاً وصدقاً ، فأسبغ الله عليهم نعمه وجزاهم بما بذلوا وجاهدوا وصبروا خير الجزاء .

---

(١) الآية ٢١٨ فى سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠ فى سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٨ ، ٥٩ فى سورة الحج . وإذا كان القرآن لم يفصل القول عن المهاجرين والأنصار فإن كتب السيرة قد سجلت فى تفصيل صوراً رائعة من الفداء والجهاد كما كان من أم سلمة وصهيب وغيرهما . والحديث عن هذا يحتاج إلى كتاب مفرد .

ولهذه المنزلة الجليلة للمهاجرين والأنصار استحقوا فضل الله فى التجاوز عن هفواتهم وتوفيقهم إلى اتباع طريق الرحمة والمغفرة ، ففى غزوة تبوك التى أومأت إليها فيما سلف ، يقول القرآن الكريم عن بعض المهاجرين والأنصار : «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم»[١] .

ويبدو من الآية أن بعض المهاجرين والأنصار هموا بالرجوع أو مالوا عن اللحاق فى الجهاد[٢] ، بسبب ما كان من المخذلين والمنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، ولكن الله — بفضله — تدارك قلوب هؤلاء فلم تزغ ، إنه بهم رءوف رحيم ، وتلك سنة الله مع أوليائه ، إذا أشرفوا على الهلاك والبوار أمطر عليهم سحائب جوده وفضله فلم يضلوا طريق الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة .

وفى قصة الإفك التى ذكرها القرآن فى سورة النور وردت هذه الآية[٣] «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» .

وهذه الآية تتحدث عن موقف لأبى بكر رضى الله عنه مع مهاجر فقير يمت إليه بصلة القرابة هو مسطح بن أثاثة ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، ثم آلى ألا ينفق عليه لاشتراكه فى إذاعة تلك الفرية المنكرة

---

(١) الآية ١١٧ فى سورة التوبة .

(٢) القرطبى ج ٨ ص ٢٨٠ .

(٣) الآية ٢٢ من سورة النور .

التى تقوّل بها المنافقون على السيدة عائشة رضى الله عنها .

فى السنة الخامسة للهجرة على أرجح الروايات بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون له فى حيهم على مقربة من مكة وأنهم يحرضون عليه يريدون قتله ، فاستعد الرسول لحربهم وأخذهم على غرة كعادته فى أخذ أعدائه .

و يهتم المؤرخون بتلك الغزوة لا لذاتها ولكن لما ترتب عليها ونتج عنها ، فمن آثارها تزوج الرسول من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، كما كان من آثارها حديث الإفك عن السيده عائشة رضى الله عنها وهى لما تزل فى السادسة عشرة من عمرها ، وكان موقفها منه موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتها كل القوى وعنت كل الوجوه ، ذلك أن الرسول لما فرغ من هذه الغزوة ودنا الجيش من المدينة قافلا إليها ، توقف ليلة للاستجمام من وعثاء الطريق ، ولتسعد المدينة لاستقبال الأبطال المنتصرين . ولما نادى مناد بالرحيل ، قامت السيدة عائشة لقضاء حاجتها ، فانقطع عقد لها من جزع ظفار فحبسها ابتغاؤه وظنت أن الذين سيحملون هودجها ليضعوه على بعيرها سيستنكرون خفة الهودج حين رفعه ، فلا يرحل الجيش حتى تجمع حبات عقدها ، لكن الذين حملوا الهودج لم يستنكروا خفته ، فقد كانت النساء خفافاً فى ذلك الوقت . . .

وآبت السيدة عائشة إلى منازل الجيش فلم تجد أحداً ، فأقامت فى مكانها وقد اعتقدت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها ، لكن الذين يقودون راحلتها لم يدر بخلد أحد منهم أن السيدة عائشة ليست فى هودجها .

وغلب النوم السيدة عائشة وهى جالسة فى مكانها فنامت

وكان صفوان بن المعطل السلمى من الذين يسيرون وراء الجيش ، يلتقطون ما قد يخلفه من سلاح أو أمتعة ، وكان الصباح قد أشرق حين وصل صفوان إلى منزل السيدة عائشة ، فرأى سواد إنسان نائم فدنا منه ، وكان صفوان يراها قبل أن يفرض الحجاب ، فاسترجع حين عرفها فاستيقظت السيدة عائشة على صوته ، فخمرت وجهها بجلبابها وأناخ صفوان راحلته ، وركبت السيدة عائشة دون أن تكلم صفوان أو يكلمها وعلى حد قولها[1] : « والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه غير استرجاعه » .

وانطلق صفوان يقود الراحلة ، حتى بلغ المدينة، فقال عبد الله بن أبى بن سلول شيخ النفاق عندما مرت به السيدة عائشة فى هودجها : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ، وسرعان ماسارت هذه الفرية كسرى غبار قذر أثارته عاصفة هوجاء فى بطن الصحراء ، فكانت فى الآذان وقراً ، كما كان الغبار فى العيون أذى ، ولم يمض وقت طويل حتى رج صداها فى جوانب المدينة فذعر المسلمون ، واستولى عليهم الغم والكرب ، وتبلبلت مشاعرهم وأفكارهم ، وران على جو المدينة سحاب داكن من الحيرة والشك ، وفترت ملاطفة الرسول للسيدة عائشة حتى أحست بذلك ولم تكن تدرى شيئا عما يخوض فيه الناس من حديث عجيب يخدش كرامتها ويلوث سمعتها ، فقد ألم بها مرض الحمى عقب وصولها إلى المدينة ، وتألم الرسول ألما شديداً لما يسمع ، وزاد من ألمه وحيرته أن الوحى لبث فترة طويلة لا ينزل عليه ، وقد كان يتوقع فى كل حين نبأ

(١) حديث الإفك – لمحمد الدسوقى ج ١٨ ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

من السماء يظهر الحق من الباطل. ولجأ الرسول إلى الصحابة يستشيرهم علّه يجد لديهم ما يكشف كربته . وهكذا كل إنسان عندما يشتد به أمر من الأمور فإنه يهرع إلى سواه ليخفف عن نفسه بعض ما ألم بها إن لم يكن عن طريق النصح والإرشاد ، فمجرد الإفضاء إلى الغير بالآلام فيه عزاء وسلوى .

ونزل وحي الله بعد فترة ليعلن طهارة السيدة عائشة ، وليبدد الشكوك والحيرة ، ويكشف دعاة الإفك ويرشد المؤمنين إلى مايجب عليهم في مثل هذه الحالة ، «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون »[1] .

وكان ابن سلول هو الذى تولى كبر هذه الجريمة الشنعاء ، وذكرت كتب التاريخ بعض الأسماء . كان لها دور الزعامة فى الترويج لهذه الفرية المنكرة . وهي غير ابن سلول : حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وحمنة بنت جحش شقيقة أم المؤمنين السيدة زينب رضى الله عنها ، ومسطح بن أثاثة الذى يمت إلى أبى بكر بصلة القرابة ، ثم زيد بن رفاعة الأنصارى .

وكان أبو بكر رضى الله عنه لما رأى اشتراك مسطح فى إذاعة حديث الإفك أقسم ألا ينفق عليه ، وكان أبو بكر فى الواقع معذوراً فى قسمه ، لأنه فى الجاهلية لم يبتل بهذا الذى ابتلى به فى الإسلام ، وليس أدل على مبلغ الألم الذى كاد يقطع نياط قلبه من قول السيده عائشة ، وهي تصف حالة أبويها وقت نزول الوحي على الرسول فى بيت أبيها ببراءتها ، «وأما أبواى

---

(١) الآية : ١١ – ١٣ فى سورة النور .

فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ماقال الناس »[١] لقد كانت لحظة رهيبة قاسية فى حياة أبى بكر وزوجه .

لهذا لا يلام أبو بكر حين أقسم ألا ينفق على مسطح فجريمته منكرة ، ولكنه بهجرته خليق بأن يتجاوز عما كان منه ، وأن يحظى بما كان يحظى به من عطف أبى بكر ورعايته .

ونزلت تلك الآية التى تدعو إلى العفو والصفح عن المهاجرين فهم أهل لهذا بما قدموا فى سبيل الله، لقد جاهدوا جهاداً رفع عند الله منزلتهم ، وبدل سيئاتهم حسنات ففازوا برضوان الله وجنته، وذلك هو الفوز العظيم .

وأعاد أبو بكر رضى الله عنه النفقة إلى مسطح ويروى أنه قال : « والله لا أنزعها عنه أبداً والله إنى أحب أن يغفر الله لى » .

وإذا كان المهاجرون أسبق إيماناً وجهاداً وذكروا فى القرآن أكثر من الأنصار ، فان المفاضلة المسرفة بين المهاجرين والأنصار لا مسوغ لها ، ويكفى ــ كما أومأت إلى هذا ــ أن الله تعالى وصفهم جميعا بأنهم المؤمنون حقاً وصدقاً .

رحم الله المهاجرين والأنصار ورزقنا للتأسى بهم فى الإيمان، والفداء والجهاد حتى نكون أهلا لنصر الله الذى كتبه لعباده المؤمنين المجاهدين المخلصين ، وصدق الله العظيم : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

---

(١) حديث الإفك : ٣١ .

هجرة أخرى

ذكرت فى مقدمة هذه الدراسة أن حديث الهجرة فى القرآن ليس خاصاً بذلك الحدث البارز فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولكنه تجاوزه إلى مطلق والصرم والترك والهجر . .

وقد وردت مادة « هجر » بهذا المعنى فى القرآن سبع مرات: مرة واحدة فى كل من النساء ومريم والمؤمنون والفرقان والمدثر ومرتان فى سورة المزمل . .

وسأتناول فى إجمال عرض الآيات التى وردت فيها مادة « هجر » حسب ترتيبها فى المصحف .

— ١ —

قال الله تعالى فى سورة النساء[١] : «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليًّا كبيراً » .

هذه الآية بعض من دستور البيت وتنظيم السلطات فيه ، والإسلام يولى عناية خاصة بالأسرة من حيث قيامها واستقرار الحياة فيها ، ولأنه يسير على قاعدة توحيد القيادة فى كل عمل حتى إذا كان اثنان فى مهمة فليكن أحدهما أميراً ، ودفعاً للشقاق والتنازع فى الرأى كان لابد للأسرة من قائد ومدبر وقاية لها من كل عوامل الاضطراب أو الفساد . ولم يكن

(١) الآية : ٣٤ .

اختيار الرجل للقوامة[١] امتهاناً للمرأة وغضاً من قدرها ، ولكن الرجل بمقتضى فطرته أقدر على قيادة الأسرة من المرأة فضلا عن مسئوليته المادية من الإنفاق والبذل . ولاجدال فى أن الإسلام كرم المرأة أعظم تكريم وجعل لها من الحقوق والواجبات ما للرجل سوى هذه الدرجة التى نصت عليها الآية الكريمة « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »[٢] وهى درجة الرعاية والحماية والمسئولية لا درجة السيطرة والتمييز .

ثم تعرض الآية بعد تقرير تلك الحقيقة التى لايمارى فيها إلا أعداء المرأة وإن زعموا أنهم يحامون عنها ، إلى لونين من النساء ، لون صالح تقى يحافظ على الهدوء والسكون والموافقة كما يحافظ على الأعراض والحرمات وبخاصة فى غيبة الرجل ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء التى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك »[٣] . ثم تلا هذه الآية «الرجال قوامون على النساء . . . »

واللون الآخر التى عرضت له الآية هو لون يتوقع منه النشوز والإعراض والمخالفة ، وهذا اللون لو ترك وشأنه فإن الأسرة لامحالة سينفرط عقدها ، وما أحرص الإسلام على أن تظل الأسرة دائماً قوية مترابطة يحكمها الحب والود والإخلاص والتفاهم ، لذا رسمت الآية ما يجب إزاء هذا

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٥ ص ٦٨ ، والمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء للمرحوم الشيخ : محمد محمد المدنى ص : ٨٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الآية ٢٢٨ فى سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١٧٠

اللون من النساء من خطوات لمعالجة ذلك النشوز الذى يهدد أمن الأسرة ويسلب حياتها التعاطف والتآلف وربما أدى إلى الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله . .

والنشوز فى معناه اللغوى الارتفاع ، ويراد به فى الآية أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، وكان علاجه كما ذكرت فى خطوات :

الخطوة الأولى : « فعظوهن » وذلك عن طريق النصح والتذكير بالخير فيما يرق له القلب أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، وليس الوعظ مجرد نصح وتحذير ، فمن أساليبه التسامح والإغضاء ، فقد يكون فى ذلك حض للزوجة على أن تتسامح وتدرك أن زوجها حريص عليها وأنه لايواجه شدتها بالعنف والقسوة ولكن باللين والعفو والرحمة ، فتقلع عما هى عليه مقبلة من أسباب النشوز والخلاف . فإذا لم تنجح تلك الخطوة — وهى بلامراء تجدى مع بعض النساء — فعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات النشوز قد بدأت تفعل فعلها ، من المناسب أن تقابل بما يتلاءم معها من التصرف والعلاج ، فكانت الخطوة الثانية «واهجروهن فى المضاجع » وفى هذا التعبير دلالة على امتعاض الرجل وضيقه مما بدر من زوجه أو تعزم على فعله ، والمرأة يؤلمها أن ترى زوجها عابساً فى وجهها لايشرق وجهه بالابتسامة كما يؤلمها أن تشعر بأنه منصرف عنها ولا يهتم بها ، فإذا كان هذا الانصراف وذلك الامتعاض فى المضجع وهو مظنة الشوق إلى الزوجة والإقبال عليها والتلطف معها ، أثار هذا لدى المرأة مشاعرها الأنثوية الفطرية نحو الرجل وربما ردها إلى شىء من الحكمة والتواضع ، فحاسبت نفسها أو راجعتها ، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بالهجر فى المضاجع ولم يكن بهجر المضاجع ، لأن هجر المضجع — مع كونه

هجراً — إلا أنه على صورة تساعد على تقبله أحياناً والصبر عليه وقتاً ما، ولكن الهجر فى المضجع أشد إفصاحاً عن انصراف النفس فهو هجر مع قرب الدواعى وتيسرها(١).

إن هذا الهجر موقف سلبي إلا أنه ذو تأثير ناجع فى حمل المرأة على أن تتخلى عن جريها وراء أهوائها أو انفعالاتها الجامحة ، وهو دليل على أن الزوج ذو شخصية قوية لاتضعف أمام الإغراء أو العناد ، وهذا يحول بين المرأة وبين التمادى فى النشوز . . .

وقد روى أن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم اتفقت كلمتهن على أن يطلبن منه ما لا يقدر عليه، لقد طلبن منه أن يمتعهن ويغدق عليهن ، لقد رأين المال يفيض بين يديه ، ورأين أنه ذو سلطان بين العرب لايقل خطراً عن سلطان أمراء الروم والفرس ، فلماذا لايعشن فى رغد كما تعيش نساء قيصر وكسرى والمقوقس . . .

ولم يستجب الرسول الكريم لما اتفقت عليه كلمة زوجاته ، وغضب منهن ، ثم هجرهن شهراً أو قرابته ، وكان هذا الهجر درساً قاسياً وعلاجاً ناجحاً ، كل منهن تتنصل مما جرى ، وتلقى التبعة على غيرها ، ولما نزل قول الله تعالى: «يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً»(٢) دخل إلى حجرات أمهات المؤمنين وعرض على كل منهن واحدة واحدة ما أنزل الله فى شأنهن ، فاخترن الله ورسوله . وظلل بيت النبوة

---

(١) انظر : المجتمع الإسلامى ، كما تنظمه سورة النساء ص : ١٧١ .

(٢) الآية ٢٨ ، ٢٩ فى سورة الأحزاب .

الصفاء والسكون ، وانقشعت عن أفقه تلك السحابة التى أظلته ردحاً[١] من الزمن .

بعد هذا الاستطراد الذى يتصل بهجر النساء الذى جاء خطوة ثانية فى معالجة بوادر نشوز المرأة نجد أن الآية قد ذكرت خطوة ثالثة فى دفع النشوز إذا عجزت الخطوة الثانية عن ذلك « واضربوهن » وهو ضرب خفيف لايؤذى وهو مع خفته لم يلجأ إليه إلا بعد اضطرار ، وليس المقصود به إهانة المرأة ، ولكن مواجهة الانحراف والشذوذ ، وطبعاً ليس كل النساء سواء فى العناد والاستجابة لمشاعر النزق والغضب ، ومنهن من تقنعها الكلمة الطيبة ، ومنهن من تحتاج إلى شىء من الحزم ومنهن من لايجدى معها سوى الضرب فى عدل ورفق ، وهذا من أجل المحافظة على بنيان الأسرة واستقرار حياتها .

والآية فى ختامها ترشد إلى أنه لايجوز الانتقال من خطوة إلى التى تليها إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً » ، ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدها ، فإن الأخذ بالخطوة الثانية أو الثالثة يكون تجنياً وبغياً وإساءة للسلطة التى هى للإصلاح بالمعروف لاللتحكم والإذلال ، والله سبحانه وتعالى أعلى سلطاناً وقدرة ، فمن تجاوز سلطة أنعم الله بها عليه فسوف يلقى من العلى الكبير جزاء وفاقاً .

فإذا كان النشوز من قبل الزوج أو استحكم الشقاق بين الزوجين فقد رسمت آيات أخرى وردت فى سورة النساء العلاج والدواء ، ولامجال هنا لتفصيل القول فى هذا الموضوع[٢] .

---

(١) انظر : مجلة الرسالة ، العدد ٢٤٦ ص : ٤٦٥ .

(٢) انظر : المجتمع الإسلامى ص : ١٧٣ .

— ٢ —

وقال الله تعالى فى سورة مريم[1] : «قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليًّا» .

وهذه الآيه طرف من حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه ؛ وقد جاءت على لسان الأب زجراً لولده وتهديداً له إن لم ينته عما يدعو أباه إليه بالرجم ،وأن يقطع صلته بأبيه دهراً طويلا وهذا هو معنى « ملياً » .

إن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه آزر الذى كان يعبد الأصنام « يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئاً » إنه يخاطب فى أبيه العقل المفكر الذى يجب عليه أن ينفر من تمجيد أصنام يصنعها القوم بأيديهم ، كيف تكون هذه الأصنام آلهة تعبد ، لاشك أن من يعبد هذه الأصنام فقد ألغى عقله ، وكان كالأنعام أو أضل سبيلا . فهو يقول له : آلهتك التى تعبدها يا أبت لاتسمع ولاتبصر ولاتملك لك نفعاً ولاضرًّا فهل هى جديرة بالسجود لها .

وينتقل بعد أن خاطب فى أبيه العقل المفكر إلى أن يقول له « يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً » إننى أعرف مالاتعرف ، فهل تسمع لقولى وتتبع دعوتى ففيها الهداية إلى الدين القويم المستقيم. ثم يقول له « يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً » لقد تدرج معه ، دعاه أولا إلى التفكير السليم فيما يعبد ، وأخبره بعد هذا بما لديه من اليقين ثم حذره من الرضوخ للشيطان فيما يأمر به

---

(١) الآية : ٤٦ .

من الكفر والعصيان ، وينتقل أخيراً إلى التعبير عن مشاعره الحانية نحو والده ، وهى مشاعر صادقة لايرتاب الآباء فيها إذا عبر الأبناء عنها ، «يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً» إنه يخاف على والده من عذاب الله إذا مات على ما هو عليه من عبادة الأصنام ، وما أجمل التعبير « عذاب من الرحمن » إنه يجمع بين الرهبة والرغبة ، وبين العذاب والرحمة ، ويرشد إلى أن الله رحيم بعباده إذا ما استقاموا على طريق الهدى والفلاح فإن أبوا إلا المضى فى سبيل الغواية والكفر فإن لهم عذاباً أليماً ، وصحبة مع الشياطين فى نار الجحيم .

فماذا كان موقف آزر من ابنه بعد كل هذا ؟ لم يفتح قلبه وعقله لما قاله إبراهيم ، وإنما انطلق يدافع عن الأصنام ، ويحذر ابنه من الرغبة عنها ، ويتوعده بالإهانة ويأمره بأن يهاجر بعيداً عنه «قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً» .

ولكن ماذا كان رد إبراهيم على أبيه وهو يسمع منه هذا التهديد والوعيد ؟ إن إبراهيم الصديق النبى يعلم أن أباه على ضلال ، وأن ما صدر عنه أملاه عليه الجهل والتقليد ، فجاء رده عليه : «قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً» .

إن أنبياء الله كانوا دائماً يدعون قومهم إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وزاد إبراهيم مع والده تحية المسالمة والاستغفار له ، فالله بنبيه حفى . أى بار به لطيف يجيب دعوته ورجاءه .

على أن موقف إبراهيم من أبيه وقوله له سأستغفر لك ربى يدل على وجوب معاملة الوالدين باللين والمسامحة والعطف بصرف النظر عن تباين العقائد بين الولد ووالديه حتى لو حاول الوالدان بابنهما الإشراك بالله

وعبادة ما ليس له به علم ، فعليه فى هذه الحالة أن يخالفهما ، ولكن دون الإساءة إليهما : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً »(١) .

لقد جمع الله فى كتابه بين إفراده بالعبادة والإحسان إلى الوالدين وبخاصة عند الكبر . دلالة على مبلغ حقهما فى الرعاية وحسن العشرة من قبل أولادهما ، وعلى جسامة الجرم فى التهاون بهذا الحق وعدم القيام به كما يجب أن يكون ، وصدق الله العظيم : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً »(٢) .

— ٣ —

وأما سورة المؤمنون فقد وردت بها مادة هجر فى قوله تعالى : « مستكبرين به سامراً تهجرون »(٣) . وهذه الآية تتحدث عن كفار مكة وموقفهم من القرآن الكريم ، كما تتحدث عن هذا الموقف أيضاً آية الفرقان التى ذكرت فيها مادة هجر وهى : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً »(٤) .

---

(١) الآية ١٥ فى سورة لقمان .

(٢) الآية ٢٣ ، ٢٤ فى سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٦٧ .

(٤) الآية : ٣٠ .

إن القرآن الكريم هو معجزة محمد الخالدة التى حفظها الله من التغيير والتبديل وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

وهى معجزة تختلف عن سائر معجزات الأنبياء الذين بعثوا من قبله؛ فقد كانت معجزات هؤلاء الأنبياء، عليهم جميعاً الصلاة والسلام، تنتهى بالوفاة ، فموسى مثلا عليه السلام كانت معجزته العصا تنقلب حية فتلقف ما يأفك به سحرة فرعون، وكذلك كانت معجزته أن يخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين، فلما توفى الله موسى انتهت هذه المعجزة وأصبحت خبراً يروى ، وأيضاً معجزة عيسى عليه السلام ، كانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، فلما توفاه الله إليه ورفعه وطهره من الذين كفروا ، أصبحت معجزته خبراً يروى ، ولكن معجزة محمد ما زالت بين أيدينا كما أنزلت عليه ، وهذا أنصع دليل على عموم رسالته وأنها خاتمة الرسالات ؛ لأنها فى كل زمان ومكان خطاب لكل فرد وحجة على كل ذى عقل : « فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها»(٢) .

وهذه المعجزة التى أفحمت العرب، وهم فرسان البيان وأرباب القريض، وجدت من كفار مكة وزعماء الشرك فيها موقفاً يجسم عجزهم من الإتيان ببعض منها كما يجسم هلعهم من أن تستأثر بعقول العرب وتستحوذ على مشاعرهم فتهرع إلى محمد كل القبائل لتؤمن بما يدعو إليه وفى هذا قضاء على دولة الأوثان والطغيان .

---

(١) الآية ٩ فى سورة الحجر .

(٢) الآية : ٤١ فى سورة الزمر .

إن العرب . وإن مهروا فى الشعر والخطابة وعرفوا بالبلاغة والفصاحة . كانوا على يقين من أن ما جاء به محمد ليس من نسق ما يقولون وهم أعجز من أن يحاكوه أو يقلدوه ، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن يحاربوا هذه المعجزة بمختلف الوسائل حتى يصرفوا الناس عنها ويزهدوهم فيها . . ولكنهم بالرغم مما قاموا به باءوا بالخزى والهزيمة .

ومن الوسائل التى لجأ إليها كفار مكة لمحاربة القرآن وصد الناس عنه ، أنهم كانوا يحرضونهم على عدم سماع القرآن والتشويش على محمد : « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »[١] قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى ما يقول ، وقال مجاهد : المعنى « والغوا فيه » بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغواً[٢] .

وقالوا عن الرسول إنه كذاب ، وإنه ليس أهلا لما يدعيه من النبوة ، ونزول القرآن عليه ، وكان هذا محاولة لتنفير الناس منه والحكم على مايتلوه عليهم بأنه ليس من عند الله : « أؤلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر »[٣] .

وأضاف الكفار إلى اتهام الرسول بالكذب اتهامه بأن هناك من يعاونه ويمده : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً »[٤] .

---

(١) الآية ٢٦ فى سورة فصلت .

(٢) القرطبى جـ ١٥ ص ٣٥٦ .

(٣) الآية ٢٥ فى سورة القمر وأشر أى مختال متكبر أو عابث فرح .

(٤) الآية ٤ فى سورة الفرقان .

إن الآية الكريمة تدمغ هؤلاء المتقولين بالظلم والزور ، لقد ظلموا محمداً إذ اتهموه بما يوقنون بأنه منه براء ، لقد عاش بينهم قبل البعثة مثالا حياً للأمانة والصدق ورعاية العهد، فكيف يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله . .

وقص الله فى كتابه على نبيه من قصص الأولين ما فيه عبرة وعظة : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى»[١] ولكن هؤلاء الكفار قالوا عن هذا القصص الصادق : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »[٢] .

وفى قولهم أساطير الأولين إشارة إلى بعدها فى الزمان فلايعلمها محمد، صلى الله عليه وسلم ، إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير الذين ينقلونها جيلا بعد جيل ، لذلك يرد القرآن عليهم بأن الذى يمليها على محمد، هو الله الذى يعلم الأسرار جميعاً ولايخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيما»[٣] يعفو عمن ينيب ويتوب .

وأهم كفار مكة أن يلقى محمد وفود العرب فى الموسم، لأنهم إذا سمعوا منه القرآن مالوا إليه وذاع ما ينادى به ، فأرادوا أن يصفوا الرسول بصفة تزهد الوفود فيه ولاتجعلهم يؤخذون بما يلقيه عليهم من آيات الله .

اجتمع نفر من قريش لهذا وكان معهم الوليد بن المغيرة وكان ذا سن فيهم ، فقال : ماذا تقولون عن محمد ؟ قالوا : نقول كاهن، قال :

---

(١) الآية : ١١١ فى سورة يوسف

(٢) الآية ٥ فى سورة الفرقان .

(٣) الآية ٦ فى سورة الفرقان .

والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[١] الكهان ولاسجعه ، قالوا: نقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولاتخالجه ولا وسوسته[٢] ، قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه[٣]، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولاعقدهم[٤]، قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال : إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[٥] ، وان فرعه لجناة[٦] ، وما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته[٧] . .

وحظى هذا القول بالموافقة وانطلق به هؤلاء النفر لتحذير وفود العرب . فهل نجحوا فى مسعاهم وشوهوا حقيقة محمد لديهم ؟ لقد جاءت النتيجة على غير ما يأملون ، وذاع خبر محمد بين القبائل ، وأسلم من سمع القرآن منه .

---

(١) الزمزمة كلام خفى لا يفهم .

(٢) بخنقه : أى الاختناق الذى يصيب المجنون ، والتخالج ، اختلاج الأعضاء وتحركها بلا إرادة ، والوسوسة ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر .

(٤) إشارة إلى مايفعله الساحر من أن يعقد خيطاً ثم ينفث عليه ، ومنه قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » أى الساحرات .

(٥) العذق النخلة ، يشبهه بالنخلة التى نبت أصلها وقوى وطاب فرعها .

(٦) أى فيه ثمر يجنى .

(٧) ابن هشام جـ ١ ص : ٢٨٨ .

وأشار الكتاب العزيز إلى ما كان من الوليد ووصفه القرآن بالسحر : « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر »[١] .

وتوعد الله الوليد بعذاب شديد : « سأصليه صقر ، وما أدراك ما صقر لاتبقى ولاتذر »[٢] .

— ٤ —

وكانت آية « المؤمنون » التى وردت فيها مادة هجر ، وكذلك آية الفرقان ، لوناً من ألوان موقف قريش من القرآن ، وهو موقف الإحساس العميق بأنهم يسمعون كلاماً ليس من صنع البشر وأن محمداً بهذا الكلام سيفسد على أهل مكة جاهها ونفوذها بين العرب ، فلم يتركوا باباً من أبواب الكيد والحرب ضد هذا الكتاب العزيز إلا ولجوه .

وآية « المؤمنون » جاءت فى معرض عقاب هؤلاء الكفار يوم الدين وأن ما هم فيه من العذاب إنما كان بسبب استكبارهم عن الحق وعدم إذ عانهم له : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لاتجأروا اليوم ، إنكم منا لاتنصرون ، قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون »[٣] .

إن المترفين أشد الناس ولعاً بالانحراف والذهول عن المصير ، فهاهم أولاء يفاجأون بالعذاب الذى لايرحمهم ، فإذا رفعوا أصواتهم مستغيثين فلا

---

(١) الآية ٢٤ ، ٢٥ فى سورة المدثر .
(٢) الآية ٢٦ — ٢٨ فى سورة المدثر .
(٣) الآية : ٦٦ فى سورة المؤمنون .

نصير لهم لاستعلائهم فى الأرض وتراجعهم على أعقابهم إذا تليت آيات الله ، كأن هذا الذى يتلى خطر يحذرونه أو مكروه ينأون عنه ، وكانوا مع نكوصهم وطغيانهم واستكبارهم يطلقون ألسنتهم بهجر القول ، وهم يتحلقون حول الأصنام فى سامرهم بالكعبة ، حيث ينالون من القرآن[١] والرسول . إن كلمة « تهجرون » . تعنى الإفحاش فى القول والبذاءة فيه . وكان كفار مكة فى نواديهم وفى سمرهم يتخذون القرآن والرسول مادة للسخرية والهزء والاتهام مثل ما أومأت إليه آنفاً من قولهم عنه سحر وشعر وأساطير الأولين .

وأما آية الفرقان : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » فهى تعبر عن ذلك الموقف أيضاً ، وتشير إلى حزن الرسول لما يصدر عن قومه من قولهم فى القرآن غير الحق[٢] ، أو لانصرافهم عنه .

لقد هجر هؤلاء القوم القرآن فلم يفتحوا له أسماعهم ، ولم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله ، وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم ، وقد جاء

---

(١) لعلماء التفسير آراء فى عود الضمير فى مستكبرين به ، فمنهم من ذهب إلى أنه يعود على الحرم ، ومنهم من قال الضمير عائد على القرآن ، وقالت جماعة هو عائد على الرسول . « انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧ » والراجح أن الضمير عائد على القرآن ؛ لأن الآيات تتحدث عن استكبار المترفين عن سماعه ، ولما كان استكبار هؤلاء عن آيات الله ، وتهجمهم عليها يستتبع حتماً الهجوم على الرسول أمكن القول بأن إفحاش المترفين شمل القرآن والرسول .

(٢) جاء فى بصائر ذوى التمييز ج ٥ ص : ٣٠٤ ت الأستاذ عبد العليم الطحاوى : « إن مهجوراً تعنى أنهم قالوا فيه غير الحق ، وذكر القرطبى ج ١٣ ص ٢٧ أنها تعنى أيضاً متروكاً » .

ليكون منهاج حياة يقودها إلى سعادة الدارين .

وهم مع هذا كانوا لايتورعون عن السخرية والاستهزاء والقول السيئ .

ولألم الرسول لأنه لم يأل جهداً فى دعوة قومه ، فلم يستمعوا لهذا القرآن ولم يقدروه ، يعزيه ربه ويسليه ، فتلك هى السنة الجارية قبله فى جميع الرسالات ، فلكل نبى أعداء يهجرون الهدى الذى يجيئهم به ، ويصدون عن سبيل الله ، ولكن الله يهدى رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً » الفرقان آية ٣١ .

— ٥ —

وفى سورة المزمل وردت مادة « هجر » مرتين فى قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » . .

إن سورة المزمل من[١] أوائل مانزل من القرآن الكريم ، وكان الرسول بعد أن عاد من غار حراء وهو يرجف فؤاده لما رأى من الملك الذى هبط عليه وطلب منه أن يقرأ ، ثم أسمعه آيات وعاها الرسول وآب إلى زوجه جزعاً خائفاً ، قال لها : « زملونى زملونى » أى لفونى بالثياب ونام فى فراشه ، وكأنه أراد الاستخفاء عن الملك وإراحة نفسه من عناء الطارئ الجديد ، وما خامر قلبه من الهول الشديد ، ولم يدر أنه الناموس الذى كان ينزله الله على إخوانه الأنبياء والمرسلين قبله .

---

(١) انظر تفسير جزء تبارك للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربى ص ١٧١ ط وزارة المعارف سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

وربما كان طلب الرسول التلفف بالثياب لقشعريرة برد شعر بها فى جسمه .

ونزل الوحى على الرسول يخاطبه بأن يترك هذا التزمل والتلفف ويعد نفسه لتحمل مهمة جليلة ورسالة سامية ، وهذا الإعداد يتمثل فى القيام لله بالليل وقراءة القرآن ومجاهدة النفس : « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو نقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . إنه الوحى الذى يتضمن الدعوة إلى دين جديد ، وتبليغه إلى الناس وتكليفهم العمل بأحكامه ، ولا ريب أن ترك ما ألف الناس من العقائد ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من التقاليد سيكون أمراً ثقيلا شديد الوطأة عليهم ، ولهذا فالرسول معرض لمتاعب كثيرة فى سبيل هذا الدين الجديد ، وحتى يواجه هذه المتاعب بعزم لا يخور ، وهمة تعشق الجهاد وتستعذب الشدائد ، أمر بأن يقوم الليل ويرتل القرآن ، ولأثر هذا فى الاستعداد لتحمل مشاق الدعوة ومتاعب تبليغ هذا الوحى ، تكرر الحديث عن قيام الليل : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا » . أى أن تقلبك فى النهار واشتغالك بمهمات الدعوة المقدسة سيساعدك عليه قيام الليل ودراسة القرآن . . .

وبعد أن قررت الآيات هذه المقدمات التى هى بمثابة التمهيد للدعوة انتقلت إلى أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بأن يذكر ربه ويدعو إليه وينقطع لهذه الدعوة : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » إنه رب كل شىء ، وعليه أن يعتمد فى دعوته : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » .

ويأتى بعد كل هذا الأمر بالصبر ، وتحمل ما يلقى من قومه : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » . . والهجر هنا يعنى عدم

مقابلة أذاهم بمثله والإعراض عنهم إعراضاً لايشوبه شتم ولامقاومة، لاقطع صلته بهم والنأى عنهم فقد بعث إليهم، ولابد أن يدعوهم إلى ما أمر بتبليغه، وهم سيعارضونه ويتقولون عليه الأقاويل، فعليه أن يصبر ويتجلد ويعرض إعراضاً جميلا، يغضى عن الإساءة ويكون الإحسان رداً عليها.

لقد أمر محمد بأن يخاطب قومه بالحسنى وأن يدعوهم إلى الله بالحكمة التى تقضى بالتدرج بالصبر وضبط النفس وتحمل الأذى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»[1].

كما أمر بأن يصبر كما صبر غيره من الأنبياء، فما بعث نبى إلا وكان لابد من قومه صنوف المشقات، ولاقى منهم كثيراً من الأذى والاضطهاد، ولكنهم تجملوا بالصبر والتحمل والإغضاء حتى أتم الله عليهم النعمة وحقق لهم النصر والغلبة: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»[2].

وبهذا الأسلوب كان محمد يدعو أهل مكة؛ يسيئون إليه فيحسن إليهم، ويفحشون له فى القول فيعرض عنهم ويهجرهم، ويصبون عليه وعلى من آمن به الأذى فيصبر، ويدعو الله لهم بالهداية لأنهم لايعلمون.

وما كانت حروب الرسول صلى الله عليه وسلم انتقاماً من قومه، فقد كان يمكنه بعد فتح مكة أن يثأر منهم كما يشاء، ولكن الحروب التى خاض الرسول غمارها بعد الهجرة كانت لتحقيق الحرية الدينية والقضاء على الطغاة الذين يفرضون على الناس ما يعبدون..

إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان المثل الكامل، والأسوة الحسنة فى

---

(١) الآية ١٢٥ فى سورة النحل.

(٢) الآية ٣٥ فى سورة الأحقاف.

مكارم الأخلاق . وكان لما اتصف به من حلم . وسماحة نفس . ورقة قلب وسعة صدر وعفة لسان . وكرم عفو ؛ أثر فى نجاحه فى دعوته ، وصدق الله العظيم : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(١) .

— ٦ —

ووردت مادة « هجر » فى سورة المدثر مرة واحدة فى قوله تعالى : « والرجز فاهجر » .

وكلمة المدثر مشتقة من الدثار : وهو اسم الثوب الذى يلبس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذى يلى الجسد مباشرة ؛ ومعنى المدثر أى المتلفف فى دثاره . .

وأوائل هذه السورة من أوائل ما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أن الرسول بعد أن لقنه جبريل سورتى اقرأ ، ويا أيها المزمل ، فتر الوحى عنه زمناً ، ثم عاد الملك فتجلى للرسول ثانية فعراه صلى الله عليه وسلم شىء مما كان عراه فى المرة الأولى فجاء بيته وقال لأهله : « دثرونى دثرونى »(٢) وبينا هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : « يأيها المدثر قم فأنذر » .

---

(١) الآية : ١٥٩ فى سورة آل عمران .

(٢) تفسير جزء تبارك ص ١٩٢ ، ويرى بعض المفسرين أن تدثر الرسول لم يكن بسبب تجلى الملك ، ولكن بسبب إيذاء قومه له حتى شق عليه ذلك يوماً فجلس حزيناً فى بيته متدثراً بثيابه مفكراً فى أمره ، وسواء كان تدثره عليه السلام لهذا أو ذاك فإن الوحى نزل عليه يحضه على الهبوب من المضجع والتشمير للدعوة الخاتمة .

إنه أمر من الله بأن ينهض للأمر العظيم الثقيل ، إنه نذارة البشرية وإيقاظها من سبات الجهل والمنكر والشر وتوجيهها إلى طريق الخلاص والسعادة فى الدارين .

ثم تلا هذا الأمر الكريم خمس آيات من بينها تلك الآية التى ذكرت فيها مادة « هجر » وهذه الآيات تعد دستور الدعوة والسلاح الماضى الذى يتحصن به الرسول من الأخطار التى ستعترض طريقه ورسالته : « وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

والآية الأولى توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم إلى تكبير ربه ، فهو وحده الكبير الذى يستحق التكبير ، وهو توجيه للرسول ليواجه نذارة البشرية ومتاعبها وأهوالها وأثقالها بهذا التكبير الذى يتضاءل إلى جانبه كل العقبات والمشقات .

وأما الآية الثانية فهى دعوة إلى تحرير النفس من سوء الأخلاق وردىء الخصال «وثيابك فطهر » وهذا التعبير فى الاستعمال العربى كناية عن طهارة القلب ، والخلق والعمل ، طهارة الذات التى تحويها الثياب وكل ما يلم بها أو يمسسها .

ثم تنص الآية الثالثة على هجر الرجز وهو فى أصل معناه العذاب ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب وأدى إليه من المعاصى والآثام .

وهذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات استوعبت أمهات الفضائل الإنسانية ، لأنها تحرر العقل من سلطة الأوهام بتقرير عقيدة التوحيد ، وإفراد الله بالتعظيم والتمجيد ، وتحرر النفس من سوء الأخلاق وردىء الخصال بالحض على الآداب الرفيعة والصفات

الحميدة ، وهى مع هذا لا تغفل حظ الجسد من وقايته شر الآثام الوبيلة والمعاصى المهلكة .

وإذا توفر للإنسان صلاح العقل والنفس والبدن فقد توفرت له السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة ، وبقدر ما ينقص من ذلك يخسر من سعادته ويدنو من شقاوته(١) .

وليس معنى أمر الله لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه كان قد أصابه شىء من دنس الجاهلية ، فقد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان كاملا فى عقيدته هاجراً للشرك ، كاملا فى نفسه ، فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملا فى جوارحه ، فلم يقترف معصية قط .

لقد عافت فطرة النبى السليمة قبل البعثة ذلك الانحراف الذى كان فيه قومه ، فلم يسجد لصنم قط ، ولا شرب الخمر ولا لعب الميسر ولا اقترف شيئاً من موبقات الجاهلية ، ولو كان فعل شيئاً من هذا لكان قومه بعد البعثة قد أخذوا عليه ما يدعوهم إلى البعد عنه ، لكنهم اتهموه بالسحر والشعر والكهانة وطلب الملك ، وما قالوا عنه : غادر أو خائن أو كذاب أو أنه سجد مثلهم للأصنام والأوثان .

إذا كان الأمر كذلك فما ذا يعنى هذا التوجيه للرسول ؟ إنه يعنى طلب الدوام على ما هو عليه وتذكيره بأنه ، صلى الله عليه وسلم ، مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على القيام برسالته فضلا عن أن هذا التوجيه يعنى أيضاً بداية عهد جديد فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تفسير جزء تبارك ص ١٩٥ .

ثم تتحدث الآيتان التاليتان عن صفتين هما أشد ما يلزم للقائم بالدعوة، أية دعوة كانت دينية أو دنيوية، سياسية أو اجتماعية ، تانك الصفتان هما : الجود والصبر ، فلا يمكن قط أن ينجح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان ملولا جزوعاً، لا يستشعر الصبر والدأب والإلحاح . .

« ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط وأنت مقدر فى نفسك أن ما تعطيه كثير ، والإعطاء يشمل إنفاق المال والجهد فى سخاء . إن القيام بأعباء الرسالة يحتاج إلى بذل ضخم لا تحتمله النفس ، إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل ؛ لأنها مستغرقة فى الشعور بالله شاعرة بأن ماتقدمه هو من فضله وعطاياه .

« ولربك فاصبر » إنها الوصية التى تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة . إن الصبر هو الزاد الأصيل فى معركة الدعوة إلى الله ، وهى معركة عنيفة طويلة لازاد لها إلا الصبر الذى يقصد به وجه الله ، ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده .

إن هذه الآيات التى نزلت على الرسول الكريم وهو مقبل على الاضطلاع بمهمة جليلة مقدسة ، إذا كانت توجيهاً له عليه السلام ومنهجاً لدعوته ، فهى بالنسبة لجميع المسلمين منهج للسلوك ، والدعوة إلى الله ، فكل مسلم عليه أن يتعهد عقله بالتطهر من أدران الآراء الفاسدة والأفكار المنحلة الدخيلة والاتجاهات الإلحادية الضالة ، ونفسه من الأخلاق الذميمة والصفات البغيضة ، وبدنه من كل ما يوهنه حتى يكون المسلم بذلك كله جديراً بحمل أمانة الدعوة إلى الله على تباين درجاتها وميدانها . يرى كل ما يبذله فى سبيلها — مهما عظم — بعض ما يجب عليه .

وأخيراً ؛ فهذا حديث القرآن عن الهجرة غير التاريخية ؛ عرضت له فى إجمال ، وهو يتناول كما رأينا جانباً يتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة ، تلك الصلة التى يجب أن تقوم فى نظر الإسلام على المحبة والمودة والرحمة والتعاون ؛ وما فرض هذا الدين القويم من تعاليم قد يراها قصار النظر لا تتفق مع كرامة المرأة وشخصيتها إلا حفاظا على تلك الصلة وتمكيناً لها بين الرجل والمرأة ؛ ولعل من أجل ذلك كان فصم عرى تلك الصلة من أبغض الحلال عند الله .

والجانب الآخر الذى عرض له حديث الهجرة هذا يتناول بعض مواقف الكفار من الرسل ومعجزاتهم وما يجب أن يكونوا عليه لينهضوا بما كلفوا به .

على أن الهجرة فى هذا الحديث لا تعنى مجرد الترك والصرم ، ولكنها مع هذا تعنى الضجر والكراهية والنفور ، وربما كان هذا سبباً للنص على أن يكون هجر الرسول لقومه جميلا ، والله أعلم .

لا هجرة بعد الفتح

كانت الهجرة إلى يثرب فرضاً قبل فتح مكة ، وكان من لم يهاجر من المؤمنين ، فلا ولاية بينه وبين إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك حتى يتجمع المسلمون فى المدينة ليكونوا قوة تأخذ على أيدى أعدائهم ، وتمكن لدينهم بين الناس فلا يصدهم عنه طاغ أو مستعل فى الأرض .

وهذه الهجرة قد فرضت على المؤمنين فرضاً ، وأكرهتهم ظروف مختلفة على ترك ديارهم وأموالهم وأهليهم ، وهم مع هذا كانوا فرحين بها مستبشرين ، لأنهم ينصرون الله ورسوله ، ويجاهدون فى الله حق جهاده . .

إن الجاهلية ، كما أسلفت ، قد ناوأت الدعوة الجديدة مناوأة حاقدة باغية لاتعرف رحمة ولاعدلا ، ومكث الرسول بين قريش كما قال أحد الأنصار :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة   يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

لبث الرسول فى قومه ثلاث عشرة سنة يذكرهم ويدعوهم إلى الإسلام ، وهم لايزدادون إلا عتوا واستكباراً . .

فكانت الهجرة أمراً لامفر منه ولا سبيل إليه حتى لايستمر الشرك بصلفه وطغيانه وعناده ، يضع الأشواك والعقبات فى طريق دعوة التوحيد والوحدة والإخوة والمساوامة والحرية .

وأثمرت الهجرة ثمراتها المباركة ، فقامت فى المدينة أول دولة إسلامية حققت فى أمد وجيز أعمالا خالدة ، كانت قمتها فتح مكة فى العام الثامن بعد الهجرة وتطهير البيت الحرام من الأوثان والأصنام ..

وبعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ، وبعد أن دالت دولة الشرك والبغى ، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا»(١) .

ويذهب كثير من العلماء إلى أن المراد بنفى الهجرة بعد الفتح هو نفى الثواب العظيم الذى أعده الله للمهاجرين الأولين ، فمن هاجر بعد الفتح فثوابه لن يكون كثواب هؤلاء المجاهدين السابقين ، ومعنى هذا أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة وأن النفى فى الحديث ليس منصباً على وقوع الهجرة بعد الفتح ، ولكن على الثواب الذى يناله المهاجرون .

ولا أرى فيما ذهب إليه عامة العلماء فى تأويل الحديث وقصر النفى فيه على ثواب المهاجرين حجة تطمئن إليها النفس وينزل عند حكمها العقل ، فالحديث واضح فى نفى الهجرة بعد الفتح ، وحمل هذا النفى على معنى خاص دون دليل قاطع لايمكن التسليم به ، وأود أولا أن أذكر أن الهجرة قبل الفتح كانت جماعية شملت المؤمنين كلهم ، بحيث عد من لم يهاجر خارجاً عن المؤمنين المهاجرين فلا تربطه بهم روابط المؤاخاة والموالاة ، وأن الهجرة كانت تحولا من وطن إلى وطن فراراً من الإرهاب والإعنات ، فهل تظل مثل هذه الهجرة الجماعية ويظل التحول الجماعى من وطن إلى وطن قائماً بعد الهجرة وبعد أن أصبح للمسلمين شوكة ودولة . .

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق المرحوم الأستاذ فؤاد عبد الباقى . ص ١٤٨٨

قد يقول قائل إن الظروف التى ألجأت المسلمين قبل الهجرة قد تتحقق فى عصر ما بالنسبة لمجموعة من المسلمين فى وطن ما ، فتكون الهجرة فرضاً عليهم وإن كان جزاؤهم عليها لايصل إلى جزاء من هاجروا من مكة إلى المدينة . .

ومثل هذا القول مرفوض ، وما قال الرسول ذلك الحديث إلا لإبطاله وإدخاضه ولنفى كل الأسباب التى أدت إلى الهجرة قبل الفتح من الضعف والقلة وتحكم الطغاة .

إن هذا الحديث يرشد المسلمين إلى حقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام كل مسلم حتى لاينسى رسالته فى الحياة ، وحتى يكون دائماً صورة حية للإنسان الكريم العزيز ، الذى يخوض غمرات الشدائد ذياداً عن كيانه ووجوده ودفعاً لكل إثم أوضيم يناله .

وهذه الحقيقة التى يرشد إليها الحديث هى أن المسلم لايفرط فى وطنه ولايستسلم لعدوه ، وعليه أن يتخذ العدة التى تكفل له الحياة التى خلق من أجلها وأمر بالحفاظ عليها والموت دونها ، وهى حياة العزة والكرامة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

إن الهجرة فرضتها ظروف معينة وقد ذهبت تلك الظروف بعد فتح مكة ، فإذا تحققت بعد ذلك للأمة الإسلامية فبإثم ما اجترحت أيديهم وما فرطوا فى أمر أنفسهم ودينهم ، ذلك الدين الذى يدعو إلى القوة والخير فى كل مجالات الحياة حتى يكون دائماً للمسلمين منزلة القيادة والريادة التى أرادها الله لهم .

والجهاد فى سبيل الله ما كان ماضياً إلى يوم القيامة إلا لدفع كل اعتداء تتعرض له الأمة الإسلامية ومانال هذه الأمة فى تاريخها القديم والحديث من ظلم واضطهاد حتى طردت من الأندلس بعد أن عاشت هناك نحو

ثمانية قرون ، وحتى طردت من فلسطين وقامت فيها دولة من اللصوص والعصابات تخطط في حقد وكيد لقيام إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات : ما حدث كل هذا إلا لأن المسلمين نسوا أو تناسوا أن دينهم دين قوة في العقيدة والبدن والعدة والوحدة .

إن الأمة الإسلامية صاحبة رسالة خالدة ، ولن تستطيع حمل هذه الرسالة إلا إذا كانت قوية يخشى بأسها ، ويخطب ودها ، على أن قوة الإسلام إنما هي لخير البشرية وسعادتها ، فهي قوة لا تسعى لاستغلال الشعوب وانتهاك حرمات الإنسان ، ولكنها سلاح يحمى الحق وينصره ويقضى على الظالمين والمعتدين .

إن الحديث الشريف حين ينفي الهجرة بعد الفتح فإنه ينفي كل الأسباب التي أدت إلى الهجرة قبله ، ويشير إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية من القوة والإعداد للجهاد ، في كل وقت حتى تدفع عن أرضها الغزاة ، وحتى تكون على أهبة الاستعداد للنفير وحمل السلاح إذا ما اعتدى على بلد مسلم ، وحتى لو وقع الاعتداء على فرد واحد « وإذا استنفرتم فانفروا » .

ويحدثنا التاريخ أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة في يد الروم في معركة من تلك المعارك التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في زمن الدولة العباسية ، وكانت تلك السيدة تعيش مع سيدها الرومي في مدينة عمورية ، وفي ذات يوم لطمها ذلك السيد العلج على وجهها الحر الكريم فوخزها ألم الذل وخزة صاحت على أثرها تستنجد بالخليفة العربي العظيم : « وامعتصماه ، وامعتصماه » .

وسخر السيد الرومي من المرأة قائلا لها : « وماذا عسى أن يفعل المعتصم أيجيء على أبلق وينصرك ؟ إنك ذليلة كسيرة ، وقد كتبت عليك

الشقوة، وهيهات أن يستجيب لندائك هذا الذى تنادين، ثم أشبعها ضرباً ولكماً وهى تنادى ، وامعتصماه ، وامعتصماه .

وجاء رجل إلى المعتصم وبلغه نبأ هذه المسلمة الكريمة ، فانتفضت نفس الخليفة الجليل انتفاضة الألم، وتجهز من فوره فى اثنى عشر ألف فرس أبلق تطوى سنابكها الأرض طيًا لتغيث الملهوف، وتستجيب للنداء الأبى.

وكانت عمورية مدينة حصينة ، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً أو يزيدون وحاصرها المعتصم، وأخبره المنجمون أنها لن تفتح إلا فى الصيف حين ينضج التين والعنب ، وكان قدومه إليها فى زمهرير الشتاء ، ولكن المعتصم أبى أن يستمع لصوت المنجمين المثبطين وشد على المدينة شدة بطل مغوار فدك أسوارها وأشعل النار فيها .

ودخل المعتصم عمورية وبحث عن تلك المرأة التى استغاثت به حتى وجدها وقال لها : هل أجابك المعتصم ؟، وصار سيدها عبداً لها ذليلا[1].

ورحم الله أبا تمام حين مدح المعتصم وتحدث عن ذلك الفتح المبين مستهزئاً بآراء المنجمين :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

وأما الهجرة الفردية فقد كانت فى عصر البعثة لطلب العلم والتفقه فى الدين ، وكانت أيضا فراراً بالعقيدة من الأذى والاضطهاد، فكان الرجل إذا أسلم وأقام بين قوم كافرين تعرض للإعنات والإرهاب فلا يجد بداً من الهجرة إلى أرض يتمتع فيها بحريته الدينية الكاملة .

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٧٥٧ ص ٣٤ .

والهجرة من أجل العلم باقية ودائمة ولا يسوغ لعاقل القول بغير هذا، لأن الإسلام دين العلم والمعرفة والنظر والتدبر : فأول كلمة نزلت من دستوره الخالد تعد مفتاح العلم. وآيات هذا الدستور تحض فى مواطن كثيرة على النظر والتفكير ، وتبين أن العلم يخدم الإيمان وأن المرء كلما ازداد علما ازداد من الله خشية ، وأنه لا مساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

لقد فتح الإسلام أمام العقل البشرى مجالات البحث والعلم ودعا إلى الهجرة وراء المعرفة : فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها وعند من رآها طلبها[1] .

وكان أسلافنا من العلماء ينتقلون من بلد إلى بلد ويهاجرون من قطر إلى قطر من أجل العلم وخدمته فحققوا تلك النهضة العلمية التى قادت البشرية نحو التقدم والحضارة .

وأما الهجرة الفردية خوف الفتنة فى الدين فإن العلماء يقولون ببقائها واستمرارها إلى يوم الدين ، فعلى كل مسلم أن يهجر دار الشرك إلى دار الايمان إذا لم تحقق له تلك الدار الحرية الدينية والشخصية .

ولا جدال فى أن المسلم يرفض المهانة والذلة فى دينه ودنياه ويجود بكل ما يملك فداء لعقيدته وكرامته ، ومن هنا فإنه لا يقبل أن يحيا بين قوم ينالون من حريته الدينية وإن كان يرفل فى رغد العيش ومتاع الحياة الدنيا.

إن الهجرة الباقية إلى يوم القيامة هى هجرة المساوئ والتوبة منها لاهجرة الأوطان ، والتخلى عنها ، وقد روى مسلم فى « كتاب الإمارة »

---

(١) انظر الفلسفة القرآنية للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد .

من صحيحه عن أبي عثمان النهدى أن مجاشع بن مسعود السلمي قال : جئت بأخي « أبي معبد » إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فقلت يارسول الله بايعه على الهجرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : «قد مضت الهجرة بأهلها » قال مجاشع : فبأى شيء تبايعه ؟ قال : على الإسلام والجهاد والخير ، قال أبو عثمان النهدى : فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع فقال : صدق .

وروى من حديث فضالة بن عبيد بن فاقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم ؟ من سلم الناس من لسانه ويده ، والمجاهد ؟ من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر ؟ من هجر الخطايا والذنوب »(١).

وعن أبي هند البجلي قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان وقد غمض عينه ، أخذته سنة من النوم ، فتذاكرنا الهجرة والقائل منا يقول قد انقطعت ، والقائل منا يقول لم تنقطع فانتبه معاوية ، فقال ما كنتم فيه ؟ فأخبرناه — وكان قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال تذاكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »(٢).

إن الهجرة من مكة لاتعد سابقة للمسلمين في هجرة أوطانهم إذا تعرضوا للاضطهاد ، لأن تلك الهجرة كانت لها ظروفها الخاصة التي أصبحت الأمة الإسلامية بعد الفتح يجب ألاتتعرض لها عن طريق هجرة الضعف العقلي والعلمي والحضاري والحربي، وهجرة الضعف الخلقي والنفسي والجسدي حتى يكون المسلمون دائماً أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

---

(١) مسند الإمام ابن حنبل جـ ٦ ص ٢١ ط أولى .

(٢) الفتح الرباني جـ ٢٠ ص : ٢٩٦ .

خاتمة

دروس ونتائج

وبعد ، فما الذى تقدمه هذه الدراسة من نتائج ، وما الذى تهدى إليه من عظات ودروس .

إن كل ما أسلفت يمكن أن يرشد إلى ما يلى :

١ — يظهر الحق على الباطل بمدى إخلاص المؤمنين بالحق ، وبذلهم الأموال والمهج فداء له ، وتقبلهم الشدائد بصبر لايعرف اليأس وعزيمة تزيدها الصعاب مضاء وإصراراً على بلوغ الغاية مهما يكن الثمن .

فالمؤمنون فى مكة قبل الهجرة على حق فيما يدينون به ويدعون إليه ، والجاهلية المتغطرسة على باطل فيما تقوم به من اضطهاد وتعذيب ، وقوة أولئك وعددهم لاتوازن بجانب قوة هؤلاء وكثرتهم ، ولكن القلة المؤمنة صبرت وصابرت وأخلصت وجاهدت فحقق الله لها النصر والغلبة وكانت عاقبة الباطل الهزيمة والبوار : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »[1] .

فلا سبيل إذن لأهل الحق إن أرادوا لحقهم العزة ، والنصر من أن يعيشوا له ويعملوا فى إخلاص من أجله لايرهبهم سلاح الباطل وإن كان فتاكاً ، لأن الموت فى ساحة الذود عن الحق أسمى ما تطمح إليه نفوس أهله والمؤمنين به ، أما إذا أخلدوا إلى الوهن والكسل وظنوا أن السماء لن

---

(١) الآية ١٨ فى سورة الأنبياء .

تدع حقهم فريسة للباطل فهم واهمون، لأن نصر الله لاينزل على الغافلين المهملين ، ولكن على المخلصين المجاهدين : «يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»[١] .

٢ ــ لم تكن الهجرة فى جوهرها فراراً وهروباً ولم تكن غاية فى ذاتها، ولكنها كانت أمراً لامفر منه ولاسبيل إلا إليه حتى تستطيع الرسالة الخاتمة أن تحيا فى بيئة لاتعرف الذل أو العبودية ، لأنها رسالة الكرامة والعزة والإباء .

لقد كانت الهجرة أسلوباً عمليًّا فى نشر الإسلام والدعوة إليه ، بعد أن فقد الرسول الأمل فى مكة ،فقد صيرها المشركون بيئة فاسدة لاتصلح لنشر تلك الدعوة الجديدة .

٣ ــ وهؤلاء الطغاة الذين ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء أبوا أن يكون الناس أحراراً فيما يدينون به ، فهم يسومون أتباعها مختلف ألوان الأذى والعنت لكي لايؤمنوا بما يشاءون، وليظلوا على دين الآباء لايصبأون عنه .

وهذا بلا جدال حجر على حرية الإنسان فى عقيدته ، وإكراه له على أن يؤمن بما يفرضه عليه السادة والطغاة ، وإذا عاش الإنسان فى ظل هذه العبودية ورضي بها فلا قيمة لحياته، ولااختلاف بينه وبين الأنعام؛ بل هذه خير منه لأنها حرمت مامنحه الله له .

ولأن الإسلام رسالة عالمية خالدة جاءت لتحرر البشرية من الشرك والظلم، ولتعيد إليها كرامتها وعزتها وتخلصها من نير الاستبداد وحكم الطغاة ليحيا الناس أحراراً أباة ، كانت الهجرة لتحقيق هذه الحرية للناس

---

(١) الآية ٨ فى سورة محمد .

جميعاً ، فلا يعلو فى الأرض سلطان فوق سلطان الله ولايكون لأحد سبيل على الناس فيما يؤمنون به .

إن الهجرة بتضحياتها العزيزة كانت ثمناً للحرية الدينية والإنسانية التى كانت البشرية فى أمس الحاجة إليها فى ذلك الزمن .

٤ — وليست الحروب فى الإسلام ، سواء تلك التى قامت بعد الهجرة أو عبر عصور التاريخ الإسلامى ، إلا لحماية هذه الحرية والتمكين لها ، ولم تكن لحمل الناس قسراً على الإيمان لأنه : لا إكراه فى الدين ، ولأن العقيدة الصحيحة فى نظر الإسلام أساسها الاقتناع القائم على المنطق والوجدان ، وكل من يقول بغير هذا فهو إما جاهل أو حاقد ، والزعم بأن الإسلام قام على السيف أو أن غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى يهضمون الحقوق والواجبات لايقوم على دليل أو حجة وليس إلا أسلوباً من أساليب التشويه والتشكيك .

٥ — والهجرة كانت عملا منظماً يخضع للتخطيط العلمى الدقيق ، وكان هذا من عوامل نجاحها وآية على أن التوكل الحق على الله يجب أن يصحبه العمل المخلص والسعى الممكن ، وأن من قصر فى الجد ولم ينل ما يتمنى فلا يلومن إلا نفسه .

إن قدرة الله لايعجزها أن يأوى محمد إلى فراشه ليلا فى مكة لتبزغ شمس اليوم التالى وهو فى المدينة دون أن يلجأ إلى غار ودون أن يستعين بمن يأتيه بأخبار أو يدله على طريق هجرته ، ودون أن يتحمل ما تحمل من وعثاء السفر فى طريق طويل كله صخور ورمال ، فضلا عن شدة الحر وتوقع الخطر فى كل شعب أو ذروة جبل ، ولكن قضت مشيئة الله أن تكون الهجرة على هذا النحو من الجهاد والتنظيم والتخطيط فعل بها أوضح دليل على أن تأييد الله لأوليائه وعباده منوط بما يبذله

هؤلاء من جهد وعمل .

[أ] لقد ذاق محمد صلى الله عليه وسلم النصر بعد مرارة الصبر والكفاح والنضال ، وكان ربه قادراً على عصمته من أذى الناس إلا أنه جل شأنه أراد به ذلك حتى يفتح أعين الذين آمنوا على سنته فى خلقه ، فلا يغتروا بانتسابهم إلى الإسلام من غير جهاد ، أو يستسلموا إلى الوهن وهم يحسبون أنهم على ربهم يتوكلون[1] .

٦ – والهجرة إلى المدينة كانت لغاية كبرى كما أومأت آنفا وهى تحقيق الحرية للناس ، وهى بهذا تفترق عن الهجرة إلى الحبشة التى كانت محددة بهدف الإيواء المؤقت حتى يجعل الله فرجاً للمؤمنين مماهم فيه من اضطهاد وإرهاب ، أما الهجرة إلى المدينة فلم يكن هدفها الإيواء المؤقت ، ولكن كان هدفها الانطلاق وتكوين قاعدة إسلامية ينتشر فيها الإسلام[2] .

ولهذا ؛ فالهجرة إلى المدينة كانت مطلع فجر جديد للإنسانية ، وكانت حداً فاصلاً بين عصرين مختلفين كل الاختلاف ، عصر التخلف العقائدى والفكرى والإنسانى ، وعصر الحرية والتقدم والازدهار فى مجال الإيمان واحترام الإنسان .

استطاع المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة أن يقيموا الدولة ، فقد تيسر لها كل أسباب قيامها من الأرض والناس والحكومة والقانون .

وبهذا استقر المسلمون فى مهجرهم ، وعاشوا أحراراً فى مزاولة شعائر دينهم ، وأصبحوا قوة لها وزنها وتأثيرها فى الجزيرة ، وتمكنوا بعد نحو ثمانية أعوام أن يعودوا إلى مكة فاتحين غانمين ، وكانوا قد خرجوا منها من قبل مستخفين مطاردين .

---

(١) مجلة الرسالة – العدد ٨٦١ صفحة ٣٤ .

(٢) مواقف إسلامية ، صفحة : ١٠٥ .

ومن قاعدة الإسلام الأولى فى المدينة أرسل النبى كتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ويبلغهم مابعث به .

٧ — وإن مما يدعو للدهشة أن يقبل الأوس والخزرج—وهم ليسوا من العدد والثروة والعتاد الحربى على درجة أفضل من قبائل العرب — أن يحموا دعوة ليس فى بلاد العرب كلها من يعيرها أدنى عطف، أو يرجو لها أقل نجح .

إن الأوس والخزرج حين هاجر بعض اليهود إليهم هرباً من الاضطهادات الرومانية ما كانوا يستطيعون أن ينتصفوا من هؤلاء اليهود ، فكيف يجرؤون على حماية دعوة يمكن أن تجتمع على مكافحتها جميع قبائل العرب، وقد أظهرت استعدادها لذلك بما أبدته قريش نحوها من الكراهة وماعاملت أهلها به من الاضطهاد والمقاطعة[1] .

ولكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب واستولى على المشاعر والضمائر حول الضعف قوة والخوف أمناً والفقر غنى وعزاً ، والجهاد غاية والشهادة أمنية ، فلا تقدر قوة على حربه ، أو الوقوف فى طريقه .

٨ — وهذا الإيمان الذى حول الأوس والخزرج إلى أنصار يأوون ويبذلون ويجاهدون هو الذى نزع من قلوبهم ما كان بها من أحقاد وأضغان وجعلهم إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين . وما يوم بعاث[2] عنهم ببعيد .

---

(١) انظر مجلة الأزهر المحرم سنة ١٣٦٢ ص ١٣ .

(٢) بعاث اسم موضع فى الجنوب الشرقى من المدينة اشتهر بالواقعة التى جرت بين الأوس والخزرج (القاموس الإسلامى للأستاذ — أحمد عطيه الله) وانظر فى أحداث يوم بعاث مختار الأغانى لا بن منظور ج ٢ ص : ١٣١ ت الأستاذ عبد الستار فراج .

ويوم بعاث هو آخر أيام الحروب بين الأوس والخزرج . وكان قبيل الهجرة ، وفيه جرت بين القبيلتين معركة رهيبة ، وكان اليهود قد أذكوا بينهما أسباب الشقاق والصراع : لتضعف قوتهم ويفنى رجالهم فيكون لليهود النفوذ والسلطان ، واليهود هم الذين حاولوا بعد أن أسلمت الأوس والخزرج وصفت نفوسهم من أحقاد الجاهلية أن يذكروا هؤلاء بأيام حروبهم ليفرقوا جمعهم ويشعلوا نار العداوة من جديد بينهم ، وكاد اليهود ينجحون في بعض ما حاولوا لولا أن الرسول تدارك الأمر بحكمته وإباقته وخطب في الأنصار قائلا لهم : « الله الله أيها الأنصار ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » . وانجلت عن الضمائر والقلوب تلك الغشاوة الوثنية التي سعى بها اليهود لتطمس نور الحق ومشاعر الود والإخاء والحب ، وأدرك الجميع أنها فتنة الشيطان تمكر بهم وتحقد عليهم ، فسالت دموع الحزن لما فرط منهم ، وألقوا سلاحهم من أيديهم وتعانقوا وعاد لهم صفاؤهم وحبهم وحبطت سياسة الوقيعة والخيانة والشر .

٩ — وإذا كان الإيمان قد غير الأوس والخزرج وجعلهم يداً واحدة وهم كانوا بالأمس القريب يقتتلون ، فهو الذى حمل المهاجرين على أن يدعوا كل شيء فى مكة ، ويفروا بعقيدتهم إلى الله ورسوله .

وهناك من صور الفداء والتضحية التى تعد أصدق تعبير عن الإيمان القوى والجهاد الخالص الكثير ، يكفى هنا أن أشير إلى طرف منها وبخاصة ما يدور فى فلك الهجرة وأحداثها .

فهذا على كرم الله وجهه ورضى الله عنه ينام فى فراش النبي وهو يعلم أن البيت محاط بفتية يحملون السيوف ليقتلوا صاحب هذا الفراش ، لقد رضى سعيداً أن يتغطى ببردة النبي وأن يواجه خطر الموت ، فداء للرسول ودعوته .

ولا يفعل ما فعله على إلا أصحاب العقائد الراسخة والذين يعيشون من أجل ما يؤمنون به و يموتون فى سبيله ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وهذه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ، كانت تتسلل إلى الغار تحمل الطعام إلى الرسول وأبيها ، وكانت عرضة لأن يراها أحد القرشيين فيسومها أشد ألوان العذاب حتى تخبره بمكان الرسول ، وليس ما كان من أبى جهل من لطمها على خدها حين ذهب إلى بيت أبى بكر ، وسألها عن مكان أبيها فأنكرت أنها تعرف عنه شيئاً إلا صورة مصغرة لما كان يمكن أن ينزله الكفار بها لو رآها أحد وهى تحمل الطعام إلى الغار، لكن أسماء لم تفكر فى شيء من هذا ، وما كان يشغل بالها إلا أن تصل إلى الغار لتزود من فيه بالماء والطعام ، كان يقينها أقوى من بطش الطغيان وفداؤها صورة رائعة لجلال الإيمان .

١٠ — وأما أم سلمة فقد جرت لها فى هجرتها أحداث لا يقوى على تحملها إلا من رزق إيماناً لا تزعزعه النكبات ولا تزيده الشدائد إلا قوة وإخلاصاً وجهاداً .

لقد وقف أهلها ضد رغبتها فى أن تهاجر مع زوجها وعجز زوجها عن إقناعهم فى أن يتركوا زوجه وما تريد ، فلما حالوا بينها وبين زوجها تقدم أهل الزوج إليهم يريدون أن يضموا « سلمة » الابن الصغير إليهم ، ولا يأخذه أخواله ، وعمد هؤلاء إلى ذراع الصبى وأمسكوا به ، وكان أخواله ممسكين باليد الأخرى ، وما زالوا يتجاذبونه حتى خلعوا كتفه ، فأعولت أمه واشتدت الضوضاء . وأخيراً غلب أهل الزوج وأخذوا الطفل .

أما أبو سلمة المسكين فكان مشدوهاً مما يجرى أمامه ، ومع ما رأى ،

امتطى راحلته وولى وجهه شطر المدينة تاركاً ابنه وزوجته إلى كلاءة الله .

وبقيت أم سلمة فى مكة عند أهلها ، أما ابنها ففى بيت أعمامه، وكانت فى كل صباح تخرج إلى الأبطح حيث يجتمع الناس للنزهة فتندب حظها وتندب شجوها صارخة وازوجاه ، واولداه .

ولبثت على ذلك حتى مر بها رجل من بنى عمها فرحمها ورثى لها وكلم قومها فيها فخجلوا ، وقالوا لها : الحقى بزوجك .

وتسرع أم سلمة لتأخذ طفلها وتركب بعيرها وحدها دون أن يرافقها أحد فى هذا الطريق الموحش الطويل ، ولن تعدم لصاً أو حيواناً ضارياً يقطع عليها طريقها ، لقد كان معها الإيمان الذى عمر قلبها ، فما جعلها تفكر فى شىء غير أن تصل إلى مهجرها وتلحق بزوجها .

لقد قالت لعثمان بن طلحة ، الذى لقيها عند التنعيم[1] وسألها : أوما معك أحد ؟ : لا إلا الله وابنى هذا . ومن كان الله معه فلا يخاف إلا الله .

وأبى ابن طلحة — وكان مشركاً على دين قومه ثم أسلم — أن يدع أم سلمة تسير وحدها ، وأخذ بخطام بعيرها وكان نعم الرفيق فى رحلة من رحلات الجهاد التى قل نظيرها فى تاريخ البشر .

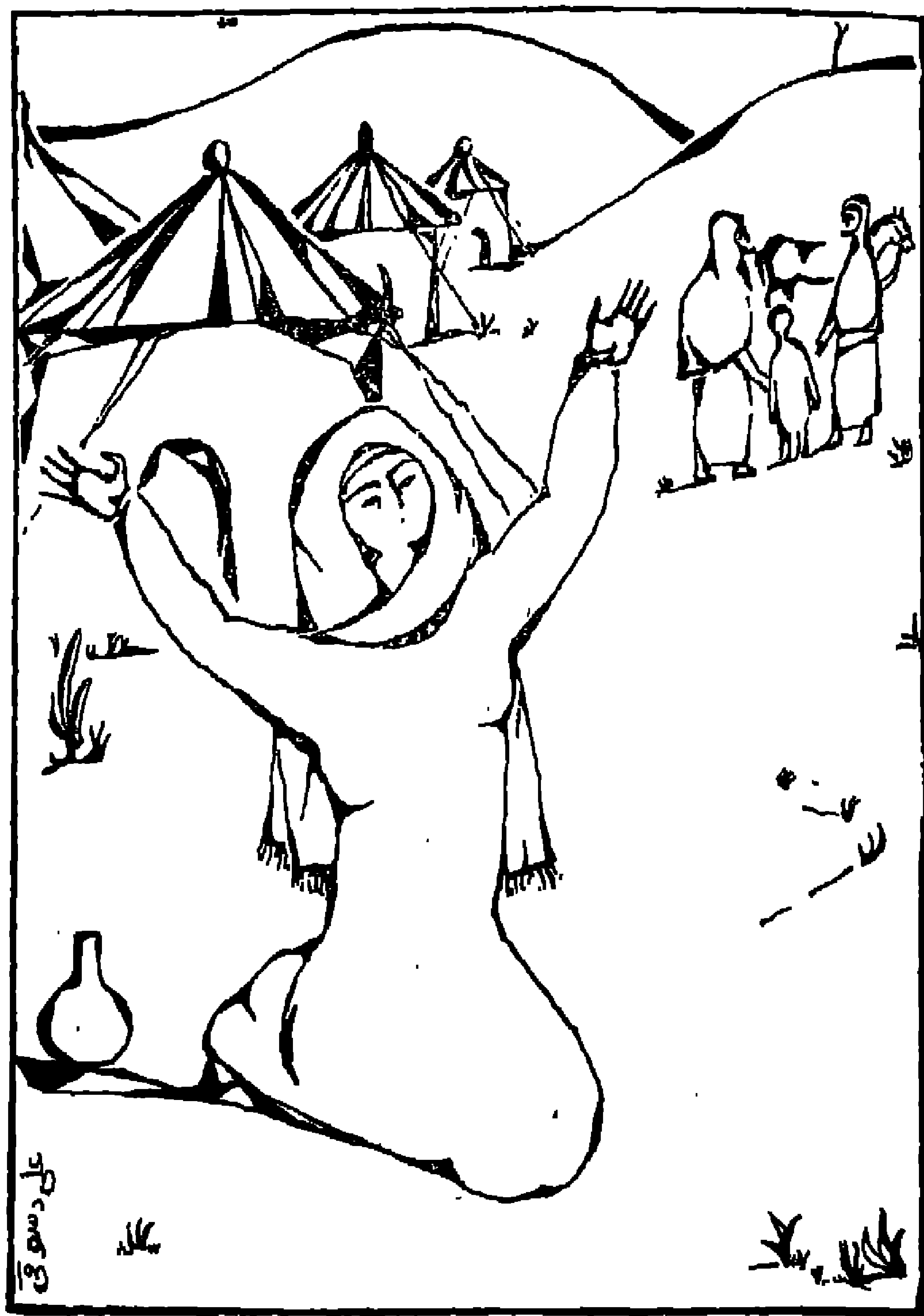
وكانت أم سلمة بعد ذلك إذا حدثت عن هجرتها تقول : ما رأيت قط صاحباً فى سفر أكرم من عثمان بن طلحة[2] .

١١ — ومن أجل كل هذا كانت الهجرة أجل الأحداث أثراً وعبراً ، وكانت خليقة بكل احتفاء واهتمام لتكون للمسلمين أبداً مصدر وحى للإيمان الصادق ، والحب العميق ، والإيثار الكريم والبطولة الفريدة ، والتضحية

---

(١) مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة .

(٢) مجلة الرسالة — العدد ٩٦٦ ص ٧ .



الرائعة والتنظيم العلمى الدقيق ، وكان من توفيق الله أن اختار عمر بن الخطاب حادثة الهجرة لتكون مبدأ لتاريخ المسلمين .

إن العرب قبل الإسلام كانوا كغيرهم من الأمم المبتدية يؤرخون بالأحداث العظيمة التى تمر بهم وتؤثر فى حياتهم كأيام العرب المشهورة فى حروبهم ، والتى من أشهرها عام الفيل الذى ظلوا يؤرخون به حتى ظهور الإسلام ، وكذلك حرب الفجار .

وبعد ظهور الإسلام اتخذ المسلمون عدة نقط زمنية بدءاً لتأريخهم ، فتارة كانوا يقولون : حدث كذا قبل البعثة بسنة أو بسنتين ، أو بعدها بكذا سنة ، وأحياناً كانوا يؤرخون بالغزوات فيقولون فى عام الخندق ، أو بعد بدر بعامين ، وهلم جرا .

وكان مثل هذا النظام كافياً للتحديد الزمنى الذى كانت تتطلبه حياة المجتمع يومئذ ، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتشعبت فروعها وتعدد نشاطها كان لابد لها من نظام ثابت للتاريخ ينسب إلى نقطة زمنية معينة ، وتتبعه الدولة فى جميع أنحائها ، فإن من دواعى الخلط وسوء النظام أن يكتب الخليفة مثلا إلى وال فى الشام كتاباً يؤرخه فى السنة السابعة والعشرين من البعثة النبوية ، فيرد عليه الوالى بكتاب يؤرخه بالسنة كذا من بدر .

١٢ — وأول من فكر فى اتخاذ نظام ثابت للتاريخ فى الإسلام هو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان ذلك جزءاً من تنظيماته العامة للحكومة الإسلامية ، ففى السنة الثالثة من خلافته جمع وجوه الصحابة وقال لهم : إن الأموال قد كثرت وماقسمنا منها غير مؤقت — أى غير محدد بتاريخ ينضبط به — فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ، ولقد رفع إلى صك محله شعبان فلا أدرى أى شعبان هو ؟ الذى مضى ،

أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ضعوا شيئاً للناس يعرفونه .

وتناقش القوم فى الأمر ، فقال قائل منهم اكتبوا على تاريخ الروم، وقال قائل اكتبوا على تاريخ الفرس ، ولكن عمر أبى أن يجعل تاريخ الإسلام على تاريخ أمة الفرس أو أمة الروم، وأراد أن يجعله على مبدأ لحادث إسلامى، فأشار بعضهم بأن يجعلوه من عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو من عند مولده ، ولكن الإمام علياً كرم الله وجهه أشار بأن يجعلوه منذ خرج النبى صلى الله عليه وسلم من أرض الشرك، يعنى يوم هاجر من مكة إلى المدينة، فراقت الفكرة لعمر بن الخطاب والمسلمين، فاتفقوا على أن يكون مبدأ التاريخ من سنة الهجرة .

١٣ — ولما كانت الهجرة حدثت فى أواخر شهر صفر أو أوائل ربيع الأول، وهو الرأى الراجح، فإن الصحابة بعد أن اتفقوا على أن تكون الهجرة مبدأ التاريخ تعددت آراؤهم فى الشهر الذى يبدأ به هذا التاريخ ، ثم استقروا على الأخذ برأى عثمان رضى الله عنه، بأن يؤرخوا من المحرم أول السنة وهو شهر حرام ، وأول الشهور فى عدة العام، وهو منصرف الناس من الحج وأول شهر يتفرغون فيه إلى أعمالهم بعد اشتغالهم بالمناسك، وبذلك رجعوا نحو شهرين وجعلوا التاريخ من أول محرم هذه السنة ، وكان الزمن بين الهجرة واتخاذها مبدءاً للتاريخ سبعة عشر عاما[1] .

وبهذا يتضح أن الهجرة وإن ارتبطت ذكراها فى أذهان المسلمين كل عام بشهر المحرم، فإنها لم تقع فى هذا الشهر ، وإنما وقعت فى أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول على أرجح الآراء .

وظل التاريخ الهجرى وشهوره القمرية العربية خاصة للمسلمين وللعرب إلى اليوم، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) انظر مجلة الرسالة — العدد ١٠٦١ .

١٤ — وهذه الهجرة التى نحتفى بها فى كل عام لم تكن الهجرة الوحيدة فى تاريخ الرسل والأنبياء ، وإن طغت بآثارها وأبعادها على ماعداها من الهجرات التى غبرت قبلها . .

وكانت هجرة نوح عليه السلام أول هجرة فى تاريخ الرسل ، وكانت حياة له ولمن آمن به وهلاكاً لأعدائه والساخرين منه .

دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غيره من الأوثان والأصنام ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم لايزدادون منه إلا بعداً ونفوراً إلى أن ضاق صدره بما يلاقى منهم ، فدعا عليهم فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً »[1] . فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم ، وأمره ألا يخاطبه فيهم ، وأنهم مغرقون ، وأوحى إليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل وليهاجر بها عنهم .

وصنع نوح الفلك وكان قومه كلما مروا به سخروا منه وقالوا له : « أتصنع سفينة تمشى على الأرض » .

وجاء أمر الله وفار التنور وتفجرت ينابيع الأرض وهطلت السماء وجاء الطوفان فأباد الطغاة والمشركين ونزل نوح ومن معه فى السفينة وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذى حياة .

واستقرت السفينة على الجودى بعد فترة تجاوزت العام فيما يقال[2] ، وانتهت بذلك أول هجرة ميمونة فى سبيل العقيدة .

١٥ — وفى سورة العنكبوت وردت الآية التالية : « فآمن له لوط وقال

---

(١) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة نوح .

(٢) مجلة الرسالة العدد ١٤٦ ص ٦٣٤ .

إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم »[١] .

والآية تشير إلى قصة إيمان لوط عليه السلام بسيدنا إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً . .

قال ابن اسحاق : آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته وآمنت به سارة وكانت بنت عمه[٢].

وتذكر بعض الروايات أن إبراهيم كان عم لوط لا خاله[٣].

ومهما يكن من تباين الروايات حول صلة لوط بإبراهيم فإن الذى تحدثت عنه الآية أن لوطاً آمن بإبراهيم ، وأنه هاجر[٤] معه من أور الكلدانيين فى العراق إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الذى قال إنى مهاجر إلى ربى هو سيدنا إبراهيم ، غير أن سياق الآية يرجح أنها جاءت على لسان لوط عليه السلام .

وقوله : « إنى مهاجر إلى ربى » تعبير عن غاية تلك الهجرة ، إنها لم تكن هجرة طلباً للنجاة أو سعياً وراء مغنم مادى ، لكنها هجرة إلى الله ، تقرباً إليه ، بعيداً عن موطن الكفر والضلال .

وإذا كان سيدنا إبراهيم انتهت دعوته لقومه دون أن يؤمن به منهم

(١) الآية : ٢٦

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ، ص : ٣٣٩ .

(٣) مجلة الرسالة — العدد ١٤٦ .

(٤) يقوى هذا ماروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن عثمان رضى الله عنه حين هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية : « إن أول مهاجر إلى الله بعد لوط عثمان بن عفان » .

إلا فردان هما : لوط وزوجته سارة ، ثم ترك وطنه ولجأ إلى الشام ، فإن الله تبارك وتعالى عوضه عن هذا بذرية تمضى فيها رسالة الله إلى يوم الدين ؛ فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت فى ذريته ، وهو عوض ضخم فى الدنيا والآخرة .

«ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين»(١) .

وهو فيض من العطاء جزيل يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على رجل أخلص لله بكليته ، وأجمع الطغيان على حرقه ، فكان كل شىء من حوله برداً وسلاماً وعطفاً وإنعاماً ، جزاء وفاقاً .

١٦ — وأما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد كان بينه وبين أخيه عيسو شىء من الخلاف ، فهاجر إلى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان ، ومكث عنده يرعى عليه غنمه ، وتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل ، ومن جاريتهما زلفى ويلها ، ورزق منهن أولاده جميعاً ، وكانت هجرته خيراً وبركة عليه : فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد ، وأموال وماشية كثيرة ، وعاد إلى فلسطين بعد ذلك ، وولدله فى هجرته جميع أولاده إلا بنيامين .

١٧ — ولما ذهب إخوة يوسف به وألقوه فى الجب تخلصاً منه حتى لا يستأثر دونهم بمحبة والده ، كان هذا بداية لهجرة أرغم عليها يوسف ، وهو لما يزل صغيراً ، ولكنها كانت خيراً عليه وعلى أهله وعلى الناس جميعاً . .

لقد التقط يوسف من الجب بعض السيارة ثم باعوه بثمن بخس لعزيز مصر ، وفى قصر هذا ، روادته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم

---

(١) الآية : ٢٧ فى سورة العنكبوت .

واتهمته وتقولت عليه ، وزج به فى السجن لتظهر آيات فضله ، ولبث فى السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزولة ، وسبع سنبلات خضر غلبتهن سبع سنابل يابسات ، وصار العلماء والسحرة والعرافون فى حيرة ولم يستطيعوا تفسير ذالك المنام ، فذكر بعض من عرف يوسف فى السجن ، واستعبره الرؤيا ، أمر يوسف إلى الملك ، فأذن له بأن يذهب إليه ويستفتيه فيما رآه الملك ، ففسر له الرؤيا على وجهها ، ثم اصطفى الملك يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض ودبر أمر مصر إلى أن جاءت سبع سنوات مخصبة خزن فيها ما زاد على الحاجة ، ثم فتح مخازن الادخار فى السنوات المجدبة فأطعم الناس وأنقذوا بذلك من هلكة الجوع .

وجاء إخوته إليه فعرفهم وهم له منكرون ، فداعبهم ودبر لهم تدبيراً حتى جاءوه بأخيه بنيامين ثم عرفهم بنفسه ، وقال لهم : « ائتونى بأهلكم أجمعين » .

١٨ — وكان موسى عليه السلام قد ألقته أمه فى اليم خوفاً عليه من فرعون فالتقطه هذا ، ونشأ فى قصره ولما ترعرع وقتل القبطى وانتهى خبر القتل إلى فرعون اجتمع ملأ فرعون وقومه على قتل موسى ، فجاء إليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » فخرج خائفاً يترقب قائلا : رب نجنى من القوم الظالمين .

وتوجه شطر مدين على خليج العقبة دون زاد أو دابة أو رفقة أو دليل ، ولما بلغ ماء هذه المدينة بعد الجهد الشديد والجوع المضنى وجد على الماء أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن الحوض ، فلم يعجبه أن يتقدم أولوا القوة وتتأخر المرأتان فسألهما

عن شأنهما ، فقالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل يشكو إلى الله حاجته إلى القوت وما به من مخمصة قائلا : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » .

وجاءت إحدى المرأتين تمشى على استحياء وقالت له فى خفر : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » .

وقص موسى على الشيخ قصته فعرض هذا عليه أن يزوجه من إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشراً فمن عنده .

ولما قضى موسى الأجل ، وصار حراً ، صادف أن أبعد فى الوادى وضل الطريق فى ليلة مظلمة باردة وحاول أن يقدح ناراً فصلد زنده ولم تشعل ناراً ، وبعد لأى آنس من جانب الطور ناراً : « فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى»[١] . وبعد حوار أرسله الله إلى فرعون فكان مما قصه القرآن الكريم من شأنه مع فرعون وشأنه مع بنى إسرائيل؛ فكانت هجرة موسى خيراً وبركة عليه وعلى بنى إسرائيل ، كما أجاب فرعون بقوله : « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين»[٢] .

١٩ — أما المسيح عيسى بن مريم فله هجرة ليست كهجرة الأنبياء الذين هاجروا من بلادهم .

ذلك أنه لما ولد كان هناك مملك من قبل الرومان أخبر أن ملك

---

(١) سورة طه : الآيات من ١٠ — ١٤ .

(٢) الآية : ٢١ فى سورة الشعراء .

اليهود ولد فى بيت لحم . فجد فى قتل الأولاد الذين ولدوا فى بيت لحم فى تلك الأيام . فأمرت مريم بأن تهاجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار ، فذهبت إلى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل ، إلى أن أمرت بالرجوع إلى فلسطين بعد أن هلك من كان يقتل الأولاد طلباً لقتل ولدها .

وهذه الهجرة نص عليها فى إنجيل برنابا ، ولاوجود لها فى سائر الأناجيل المعروفة . فهجرة المسيح عليه السلام كانت تابعة لهجرة أمه خوفاً عليه ولم تكن بإرادته[1] .

وهكذا ، بيد أن محمداً بهجرته لم يكن بدعاً من الرسل الذين هاجروا من قبل . وأن كل نبى لاقى من قومه الشدائد والأهوال وتحمل كثيراً من الصعاب ، وتعرض لمختلف الأخطار ، واتهم بالكذب والادعاء : « وإن يكذبوك فقد كذبت من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير »[2] .

٢٠ ــ أكد المهاجرون بما جاهدوا وأكد الأنصار بما بذلوا وآووا تلك الحقيقة الخالدة وهى أن الإيمان يفعل المعجزات ، وأنه عطاء بالنفس والبدن والمال والأهل والوطن .

كما أكدت المؤاخاة بينهم على أن صلة العقيدة فوق وشائج القربى ، وأن رحم الإيمان أقوى من رحم الأبدان ، وأن المؤمنين جميعاً أمة واحدة..

---

(١) اعتمدت فى الحديث عن هذه الهجرات على البحث الذى نشرته مجلة الرسالة العدد ١٤٦ بعنوان « هجرة الرسل » .

(٢) الآية ٤٢ – ٤٤ فى سورة الحج .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا »[1] ، وأن هذه الوحدة تفرض على المؤمنين التكافل والتواد والتراحم ، لأنهم كما شبههم الرسول الكريم : كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

إن صلة العقيدة بين المؤمنين كانت ولاتزال مناط قوتهم ومنعتهم وترابطهم فإذا وهت هذه الصلة كان ضعفها دليلا على دخل فى إيمانهم وسبيلا لتفرقهم وبلوغ الأعداء منهم ما يطمعون .

وما حقق المسلمون فى تاريخهم المجيد من بطولات وانتصارات إلا بفضل إيمانهم القوى الذى جعل منهم يداً واحدة وما تعرضوا لما تعرضوا له قديماً وحديثاً من نكبات ومشكلات إلا حين فرطوا فى جنب الله ، وتفرقوا وما كانوا ينجون من الأخطار التى تطبق عليهم إلا إذا اعتصموا بحبل الله ، واجتمعوا على كلمة الله . ونبذوا كل أسباب الفرقة والشحناء كما حدث فى حرب التتار والصليبيين .

ونحن اليوم نواجه أخطاراً بالغة الأثر فيجب أن نعمل فى إخلاص ودأب على دفعها والقضاء عليها ، ولاسبيل لهذا غير وحدة تتسامى فوق الأشخاص والرغبات والأهواء ، وهو واجب تتقاضاه العقيدة قبل أن يتقاضاه حق الحياة .

لقد مزقنا الاستعمار وأرث فيما بيننا أسباب الصراع ، ليظل له النفوذ والاستغلال ، فهو وإن لم تكن جيوشه تدنس بلادنا ، أو أعلامه ترفرف فوق ربوعنا ، فقد تحالف مع الصهيونية الباغية على سرقة ديارنا وأموالنا وإقامة دولة دخيلة فى ربوعنا تكون كالشوكة فى ظهورنا وتشغلنا عن بناء قوتنا ، وتنمية ثروتنا ، فنبقى ضعافاً لاحول لنا ولاقوة . .

---

(١) الآية ١٠٣ فى سورة آل عمران .

٢١ – الهجرة الدائمة الباقية ، هى هجرة السيئات والذنوب ، وما يقال من أن هجرة الأوطان باقية ، وإن نفى الرسول للهجرة بعد الفتح إنما هو خاص بنفى جزاء الهجرة من مكة ؛ إذ أن ثواب المهاجرين بعد الفتح ، ليس كثواب غيرهم من المجاهدين السابقين غير صحيح .

إن حب الوطن من الإيمان ، والدفاع عن أرضه جزء من الدفاع عن العقيدة ، والمرء بلا وطن لاجئ أو مطرود ، والمسلم رجل عزيز أبى يرى الشهادة خيراً من حياة الهوان . فكان من أجل ذلك مسئولا عن تحقيق العزة لنفسه ، ولغيره وكان تفريطه فى ذلك ثلماً فى عقيدته ، قبل أن يكون ثلماً فى كرامته .

٢٢ – وقد كرم الإسلام المرأة أعظم تكريما ومنحها حقها كالرجال سواء بسواء ، وليس التباين اليسير بينهما إلا استجابة لسنة الفطرة التى تفرض تنظيماً للعلاقات والمسئوليات بين الرجل والمرأة دفعاً للشقاق فى محيط الأسرة وللتناقض والشذوذ فى محيط المجتمع .

إن المرأة قبل الإسلام كانت محرومة من كثير من حقوقها ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدعوة الإصلاح والعدل والحرية والمساواة ، أصبحت النساء كما يقول الرسول : شقائق الرجال ، وتمتعت المرأة بشخصيتها الإنسانية الكاملة حتى إنه أجاز لها أن تكون عقدة النكاح بيدها .

وإذا كانت الحضارة الحديثة تدعى أنها أعطت للمرأة كل حقوقها ، فإن الذى لاجدال فيه أن هذه الحضارة حين احتاجت إلى المرأة قالت لها خذى حقك ولا فرق بينك وبين الرجل .

على أن هذه الحضارة قد جنحت بالمرأة أخيراً إلى طريق وعر محفوف بالمخاطر الجسيمة ، وقد اندفعت المرأة فى هذا الطريق بلا وعى ناضج وأضحت الحضارة بالنسبة لها مزيداً من العرى والانطلاق .

إن الحضارة فى جوهرها علم وخلق ، وليست ثوباً يشف عما تحته أو لايكاد يوارى ما يجب ستره ؛ احتراماً للمرأة وتقديراً لها ، وما نراه فى الحياة الآن برهان على أن ما قاله الرسول فى حقهن : بأنهن ناقصات عقل ودين ؛ صحيح .

٢٣ – كل داع إلى أمر عظيم لابد أن يكون له أهلاً ، وإلا خاب سعيه وضاع أمله .

إن الدعاة والمصلحين يواجهون دائماً بالإنكار والرفض والسخرية ، وعلى قدر ما يكون عليه الداعى من الثقة بنفسه والتذرع بالحلم والصبر إزاء ما يفعله قومه معه يتوقف نجاحه وبلوغه غايته ، فهذا محمد صلى الله عليه وسلم وهو إمام الدعاة وقدوة المصلحين والمجددين لم تضعف يوماً عزيمته ، ولم يفقد الثقة بنفسه ، وقد أمره الله بما أمره من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومن الإعراض الجميل عن سفاهة قومه ، والصبر على ما يقولون من هجر القول أو ما يفعلون من سيئ الأفعال . .

وفى موقف سيدنا إبراهيم من أبيه صورة من صور الدعوة إلى الله بالحكمة واللين والرفق . إن الدعاة أساة ، والطبيب الناجح هو الذى يعرف الداء والدواء ، ويصبر على أذى المريض حتى يبرأ من علته .

٢٤ – وبعد ، فإن الهجرة تذكرنا بأن الإسلام دين عزة وحرية وأن المؤمنين به لاينامون على ضيم ولايرضون بالدنية فى دينهم ودنياهم ولايبخلون على عزتهم وحريتهم بأموالهم وأنفسهم ، وفرض عليهم جميعاً أن يهبوا ليدرأوا عن كل مسلم مهما نأت دياره الظلم والعدوان فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

والمسلمون اليوم يواجهون عدواناً لم يسبق أن واجهوا مثله فى تاريخهم

الطويل، إنه عدوان يريد لهذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس أن يضمحل كيانها ويتوقف تقدمها وتحيا ذليلة مستضعفة إن لم يتمكن من إفنائها أو تحويلها إلى لاجئين يعيشون على الإحسان والإعانة .

إنه عدو لايتورع عن سلوك كل طريق يحقق له أطماعه وأطماع سادته الذين يدفعون إليه بمختلف أسلحة التدمير والإبادة ، وهو فوق ذلك عدو لايحترم قانوناً ولا عهداً ، إنه عدو يشبه قطاع الطرق أو قراصنة البحار يسرق عنوة ويقتل دون رحمة ، وإزاء هذا الخطر لاسبيل إلى صده والحيلولة بينه وبين ما يريده منا غير وحدة قوية ، واعتصام بتعاليم ديننا فيما نقول ونفعل .

وهنا أحب أن أقول للشباب بوجه خاص احذروا وتنبهوا واعملوا ، وثقوا أن كل ساعة من العمر تضيع فى اللهو سوف تعيشون أمثالها فى ألم .

إن أعداءكم لايقصدون النيل والفرات ليقفوا عندهما ، إنما يبغون محو الإسلام ، وكل آثاره فى الأرض .

إن المستقبل لكم فإذا لم تدرأوا عنه هذا الخطر ، أضعتم كيانكم وأمتكم وشرفكم ، فعيشوا للمعركة ، وكافحوا شرور الفساد والإلحاد والتخنث والترف ، وإلا فسدتم من الداخل وتقوضتم وصرتم صيداً هيناً على أعدائكم .

ولا تغرنكم كثرة العدد فهى غثاء كغثاء السيل إذا لم تعتصم بالعقيدة الرشيدة ، والجد الحازم ، والعمل المثمر . إن عدوكم لن يتخلى عن سياسة الغصب والنهب حتى يحقق أطماعه البعيدة وآماله الكبرى ، وهى آمال إذا نالها — لا قدر الله — فإنكم ستكونون فى أوطانكم لا جئين أو

إن هذا العدو منذ نحو خمسين عاما لم يكن شيئا ذا بال فى فلسطين ، وهاهو اليوم كما ترون ، فكيف يكون إذا استمر على خطته بعد خمسين عاماً أخرى .

لا تظنوا أن أحداً سيدفع عنكم خطراً أو يحمى لكم وطناً ، ولكن عقولكم وسواعدكم ودماءكم هى التى تصون كرامتكم وعرضكم ، وتحول بين عدوكم وبين ما يريده بكم .

إن الأمم المتحدة — على ما لها من فضل فى بعض الميادين — هى التى أقرت سرقة فلسطين وهى اليوم تقف مكتوفة الأيدى إزاء ما يقع من مجازر فى الهند الصينية أو كبت وقهر وتفرقة عنصرية فى القارة الإفريقية وحتى فى أمريكا زعيمة العالم الحر كما يقولون .

إن هذا يفرض عليكم أن تأخذوا الحياة دائماً مأخذ الجد ، لا مأخذ اللهو والعبث والجرى وراء ما يأتيه بعض الشباب الأجنبى من تصرفات هى فى الواقع صدى للحضارة المادية المعاصرة التى تعيش على شطر واحد من شطرى الحضارة المثلى .

إن الحضارة المادية وسيلة لا غاية ، فإذا انقلبت غاية أضحت نقمة لا نعمة ، ولا بد أن تقود إلى الدمار .

ومن شواهد نقمة هذه الحضارة ذلك الخوف الذى يسيطر على الجميع من حرب لا تدع حيواناً ، وأيضاً ذلك الذى نشاهده من بعض شباب ، فهو يعكس قلقه النفسى ومحاولة الهروب من واقع حاضره المضطرب المشحون بالمخاوف والتوجس من مستقبل يحمل الدمار والهلاك.

إن لكم حضارة لا تعرف الانفصام بين الروح والبدن ، وهى حضارة إنسانية ، لأنها تمتاز بخصائص تجعلها خير الحضارات وهى : احترام الإنسان ، والتمسك بالمثل العليا ، وحرية الفكر والعقيدة واتباع

العقل وتمجيده ، ومن ثم لم تعرف التفرقة العنصرية ولم يكن غايتها استعباد الشعوب وسلب ثرواتها ، وعبادة الشهوات والمال وتكريس كل الجهود من أجلهما .

فليكن لكم إذن شخصيتكم الأصيلة ، وقيمكم الفريدة ، وفى تاريخكم أمجاد باهرة ، وبطولات رائعة خليقة بأن تحتذى ، وأمامكم قبل هذا ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً ، لن تضلوا طريق العزة والقوة والحضارة والكرامة والشرف والإباء ، وهذا الذى يعصمكم من الضعف والهوان هو كتاب الله وسنة رسوله ، وصدق الله العظيم : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[١] .

والحمد لله أولا وأخيراً .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٨٠٨ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧١

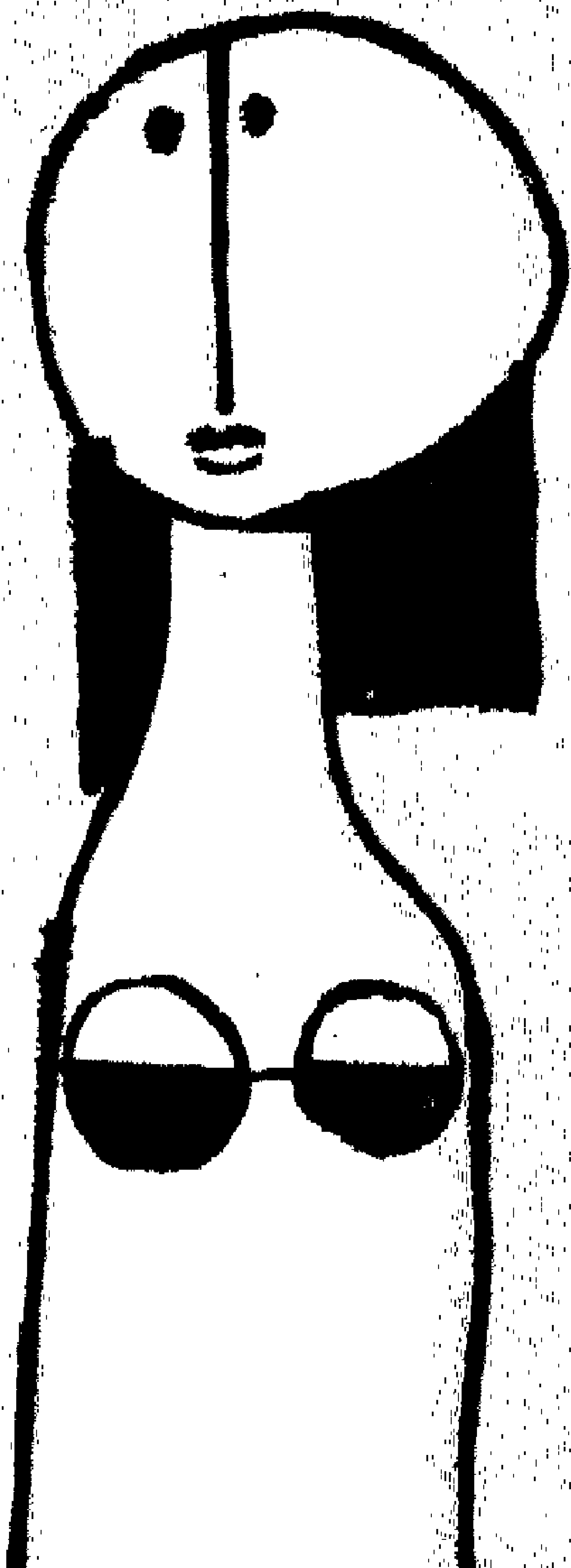
(١) الآية : ١٥٣ فى سورة الأنعام .

اقرأ

فتحي رضوان

موسى تؤلف كتاباً

ومسرحيات أخرى

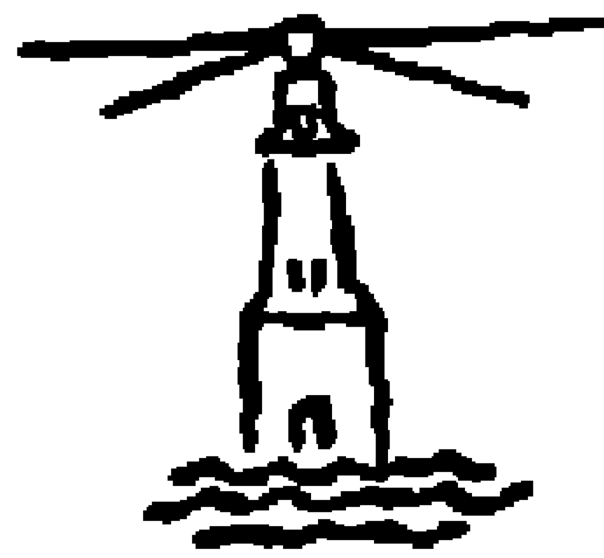


لبنان ١٠٠ ق . ل	سوريا ١٠٠ ق . س	الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع	الخليج العربي ١٥٠ ف	السعودية ٢ ريال
عدن ٢,٥ شلن	السودان ١٢٠ مليما	ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم	الجزائر ٢,٢٥ دينار	المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

فتحي رضوان

مومس تؤلف كتابا

ومسرحيات أخرى

اقرأ ٣٣٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٩ – مارس سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م.

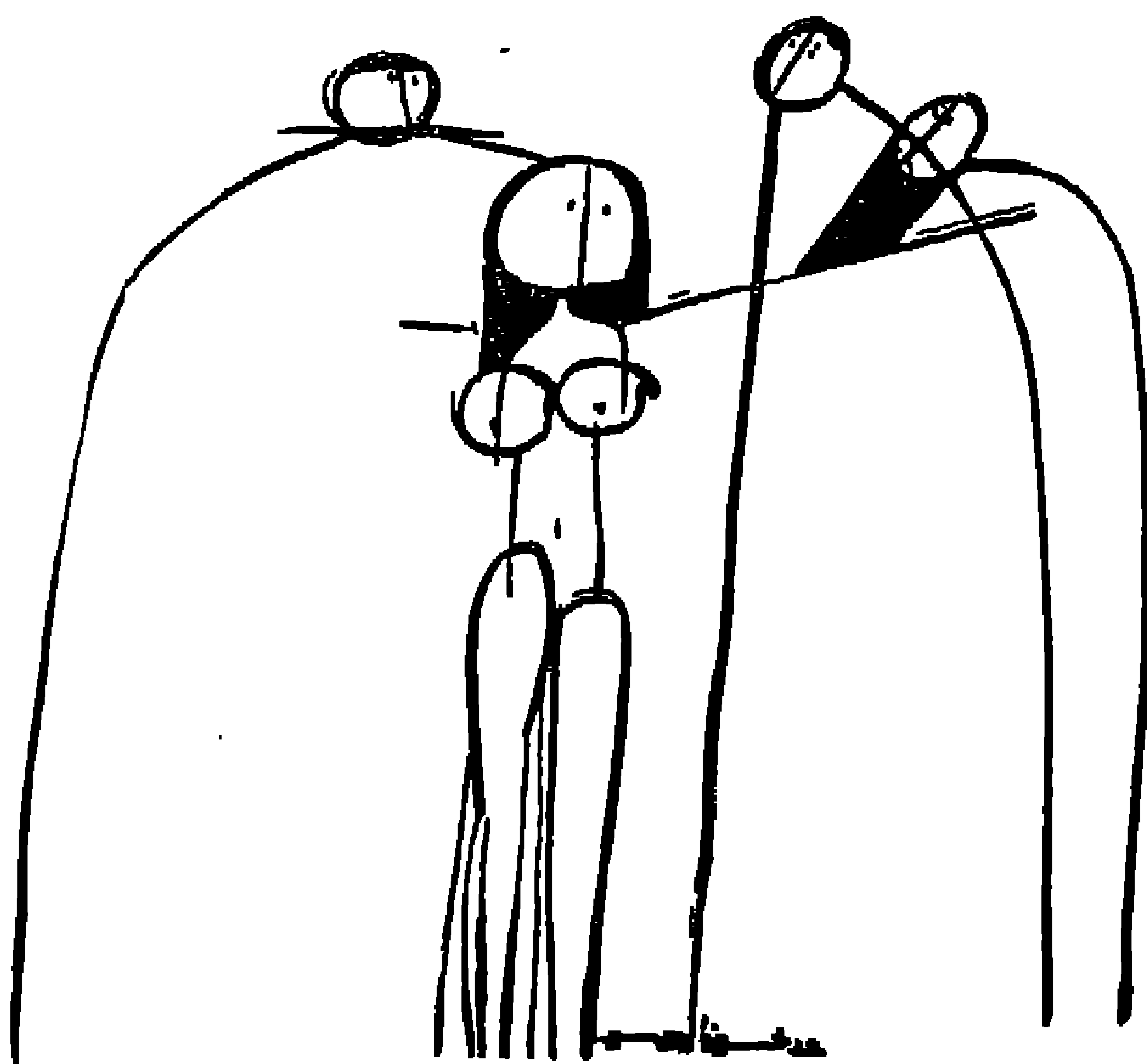
مومس تؤلف كتابا

مسرحية من فصل واحد

الموس تجاوزت الخمسين ، وقاربت الستين ، ولكنها لاتز
تحتفظ بوجه لطيف ، وعينين ضاحكتين جذابتين لم تفقدا
بريقهما ، قوامها يفوح منه عطر شباب صامد يأبى أ
يستسلم لكر الأيام ومرها. لم تحاول إخفاء المشيب الذى لاح
نذره في شعر أسود فاحم ، هنا وهناك دون أن تخف
الأصباغ .

مع الموس وصيفتها التى قاسمتها العيش سنين طويلة
الوصيفة ضئيلة الجسم ، يبدو على مظهرها بعض البلاهة
والطيبة .

الموس والوصيفة فى حجرة الحياة اليومية ، وهى حج
الأثاث فيها ثمين وعتيق ، ويدل على عز قديم .



المشهد الأول

الوصيفة ـ المومس

الوصيفة : قلت لك المحضرون قادمون ليحجزوا
(تشير بيدها إلى أثاث الحجرة) .
المومس : وهل لاحظت أن الصمم أصابني ؟ لقد سمعت . . .
الوصيفة : سمعت ؟ إذا كنت قد سمعت فلماذا لا تتحركين ؟
المرأة : تحركت .
الوصيفة : ما الذى فعلته ، لتمنعى هذا البلاء ؟
المرأة : (يبدو عليها التأفف) أنت تعرفين .
الوصيفة : (محتجة) أعرف ؟ ماذا أعرف ؟ تقصدين هذا الإعلان ؟
المرأة : بالضبط .
الوصيفة : ماذا أصاب عقلك يا سيدتى ؟ المحضرون يحجزون على أثاث بيتك ، ويعدّون العدة لبيعه بالمزاد العلنى ، وأنت تؤلفين كتاباً ؟
المرأة : المحضرون يحجزون لأى غرض ؟ النقود طبعاً .
الوصيفة : طبعاً النقود .
المرأة : ومن أين لنا النقود ؟ الكتاب سيأتى لنا بها .
الوصيفة : تعلنين عن كتاب ، والكتاب يأتى لنا بنقود ؟
المرأة : طبعاً . . . أنت معذورة ، لأن هذا شىء جديد بالنسبة لك . لقد علمتك أموراً كثيرة ، علمتك كيف تستقبلين الضيوف حين أريد ، وكيف تصرفينهم عند اللزوم . . .

ولكن الكتاب شيء لم تسمعي به من قبل .

الوصيفة : ولا يوجد أحد يصدق أن الكتاب يمكن أن يمنع المحضرين من الحجز أو أن الكتاب يعطي أحداً نقوداً .

المرأة : (تقف وتنظر إلى الشارع من خلف زجاج النافذة) اسمعي . . . هناك مكتبة . . . دكان لبيع الكتب . لماذا يأتي الناس لهذا الدكان ؟ ماذا يفعلون فيه ؟ يشترون الكتب ، أي يدفعون لصاحب الكتاب نقوداً ، كتابي أيضاً سيشتريه الناس . سيعطوننا نقوداً ، سيضعونها في أيدينا . . . سيأتي المحضرون ، سيقولون أعطونا جنيهات وإلا بعنا . . . سنقول لهم خذوا . . . سيندهشون ، فقد كان كل شيء ينذر بأننا لن نجد ما ندفعه لهم . وفجأة سيجدون جنيهات ، ثم يرجعون من حيث أتوا . . .

الوصيفة : (تسمع مأخوذة) أيمكن أن يتحقق هذا ؟

المرأة : لم لا ؟ يمكن طبعاً . . . الأمر يتوقف على نوع الكتاب : أجيد هو فيطلبه الناس ، أم سيئ فلا يطلبونه ؟

الوصيفة : رأسي بدأ يدور . . . ولكن متى يحدث هذا كله ؟

المرأة : حالا . . .

الوصيفة : وأين هذا الكتاب ؟

المرأة : سأؤلفه . . .

الوصيفة : ستفعلين ماذا ؟

المرأة : ماذا أصاب أذنك ؟ أقول سأؤلفه . . . سأؤلفه .

الوصيفة : ستؤلفينه . . . يعني . . . يعني . . . أنا لا أفهم .

المرأة : ليس ضرورياً أن تفهمي . . . سأؤلف الكتاب أي سأصنعه .

الوصيفة : متى يا سيدتى ؟ أرجوك . . . ألفيه . . . ألفيه بسرعة . . . افعلى أى شيء ، وليس ضروريًّا أن أفهم . . . ولكن المهم ألا يأتى هؤلاء الغيلان ، فيحملوا هذا الأثاث العزيز على ، ويتركوننا على البلاط . أنا ياسيدتى خائفة ... خائفة . ويزيدنى خوفًا أن أراك هادئة . . . كأن شيئًا لم يحدث (تبكى) .

المرأة : (تربت على يدها) أنت تبكين ؟ (محتجة) لا . . . لا . . لقد بللت الدموع صدر « فستانك » الجديد . . . هكذا ستتلفين هذا الثوب الجميل بسرعة . . . لا حاجة إلى الدموع . . . كل شيء سيتحسن .

الوصيفة : (تلقى بنفسها فى أحضان سيدتها التى تضع يدها على كتف الوصيفة) لا . . . لا . . . لا تفعلى هذا . . . ولا داعى للقلق ، وأقسم لك . . . الكتاب سيعطينا كل ما نطلب وأكثر . . . سترين بنفسك . . .

(جرس الباب يدق . . . تنتبه الوصيفة وتجمد فى مكانها ولا تتحرك) .

المرأة : ألا تسمعين الجرس . . . جرس الباب يدق . . .

الوصيفة : (ذاهلة) إنه يدق يا سيدتى . . . ولقد قلت لك إنهم قادمون .

المرأة : (فى برود وعدم اكتراث) من هم ؟ قومى وافتحى الباب ولا تتلكئى .

الوصيفة : (تهز رأسها فى هم باد) هم قادمون وهى كأنها غير موجودة ، كما تحب . . . كما تحب . . .

(تتجه نحو الباب فى تباطؤ أول الأمر ثم تهرول . فى حين تخرج المومس مرآة من حقيبة كانت قريبة منها ، ثم تتأمل وجهها وتكمل زينتها وتبتسم) .

الوصيفة : (تعود مهرولة ومضطربة) يا سيدتى . . . سيدتى . . .

المرأة : (فى نفس البرود وفى يدها المرآة) هل حضروا ؟

الوصيفة : (فى اضطرابها وحيرتها) من هم ؟ . . . إن على الباب رجلا ضخماً عظيماً . . . يقول إنه صديق قديم لك .

المرأة : (وهى تخفى ابتسامة) ألم تشاهديه من قبل (وتعود إلى النظر فى المرآة) .

الوصيفة : لا أذكره . . . بل لا أذكر أنى رأيت أحداً مثله . يا له من رجل عظيم . . . وغنى ومهم !

المرأة : (تعيد المرآة إلى الحقيبة فى بطء) لا تضيعى الوقت . . . أدخليه . . . (تتوقف) اسمعى . . . ألم تطلبى منه بطاقته ؟ ألم يخبرك باسمه ؟

الوصيفة : أنا ؟ كيف أجرؤ . . . حينما ترينه ستحكمين بنفسك . . . إن له هيبه مذهلة .

(تذهب الوصيفة وهى تكاد تنكفئ على وجهها . وتعود وخلفها رجل طويل عريض ، وخط الشيب فوديه فزانه وزاده جمالا ووقاراً . يمسك بيده عصًا محلاة بكرة من ذهب فى أعلاها . . . وعلى صدره سلسلة ساعة ذهبية ثقيلة) .

(كل ما فيه وقور . . . صوت عميق هادئ . . . ثباته وثقته تفوحان من حركاته وكلماته . . .) .

المشهد الثانى

المومس ــ الزائر الأول

السيد (الزائر الأول) : عمى صباحًا يا سيدتى . . .
المرأة : (فى هدوء مبالغ فيه) نعمت صباحًا يا سيدى . . .
السيد : (مصطنعًا الحيرة) هل جئت فى موعد غير مناسب ؟ !
(يخرج ساعة من جيبه) إنها قاربت منتصف النهار .
المرأة : لا عليك يا سيدى . . . على كل حال لك عذر ، فرقم تليفونى ليس فى الدليل .
السيد : آه . . . أعترف لك أنى لم أفكر لحظة فى أن أخطر مقدمًا عن حضورى . . . فأنا أحس أنى ربما كنت زائراً غير مرغوب فيه .
المرأة : (لا ترد) .
السيد : (مضطربًا لصمتها) لعلك أدركت القصد من زيارتى . . . هذا الإعلان (يبسط أمامه صحيفة يومية ويجرى فيها نظره) أين ذهب ؟ أين . . . أين ؟ آه هذا هو . . .
المرأة : (لا تتكلم) .
السيد : (أكثر اضطرابًا) ــ الإعلان عن كتابك . . . ياله من إعلان مغر ومخيف فى الوقت نفسه ، إذا سمحت لى أن أتمادى فى الاجتراء .
المرأة : تفضل خذ حريتك . . .
السيد : إنه فضل عظيم . . . أما أنه مغر ، فلأنه الكتاب الأول من

نوعه . . . قصة حياة ... قصة حياة . . . (لا يجرؤ على إكمال العبارة) .

المرأة : (مكملة وفى برود) قصة حياة مومس بقلمها .

السيد : (كأنما اهتز) هذا هو . قصة حياة (يتوقف) بقلمها . . . شيء جديد . . . شيء لا عهد لأحد به ! . . . أما أنه مخيف . . . فلأن كل من كان له شرف صداقتك ، عليه أن يتوقع شيئاً يهزه ويهز حياته من الأعماق .

المرأة : أهنئك يا سيدى على دخولك إلى الموضوع هكذا بسرعة . . .

السيد : (مرتبكاً بحق) هل وقاحتى زادت عن الحد ؟

المرأة : وقاحتك ؟ ! . . . أى تلطف من السيد المحترم . . . إنك على كل حال تتكلم مع مومس بلغت من الوقاحة حد التحدث عن نفسها إلى المجتمع ، وفى كتاب . (فى نبرة ساخرة — وكأنما تؤدى جملة على المسرح) شيء غير مسبوق فعلا . . . شيء مخيف بلا شك .

السيد : على كل حال . . . ما جئت لأزعجك . . . وإنما جئت لغرض محدود ، ومتواضع . (يغير لهجته) محدود جداً ومتواضع جداً .

المرأة : أنا تحت أمرك يا سيدى (تصفق ، فتدخل الوصيفة مأخوذة) فنجاناً من القهوة للسيد . . . أم تريد شراباً خفيفاً قبل الغداء ؟

السيد : لا تشغلى نفسك ؟ . . . إن مجرد مقابلتك لى شرف عظيم ومتعة . . . ومتعة . . . يا للزمن ! . . . إنه يجرى سريعاً دون أن نحس . . . ولو لم يفعل ذلك لما كان جديراً باسمه . (بعد نحنحة) هل فرغت من الكتاب ؟

المرأة : (ببرود متعمد) فى المطبعة !
السيد : (قافزاً من مكانه) فى المطبعة ؟
المرأة : (مسرورة لفزعه) ولماذا الفزع ؟
السيد : (يعود إلى هدوئه متكلفاً هذه المرة) أحقاً ، ليس هناك داع للفزع ؟ . . . لكن أخشى أن أكون قد تأخرت . . . (يتكلم بسرعة كأنه يريد أن يلحق بشىء ما) أنا جئت لأرجوك أن تغفلى ذكرى من كتابك . . . هذا هو الرجاء الذى دفعنى إلى هذه الزيارة بغير موعد وبغير إذن .
المرأة : هل أملك هذا ؟ .
السيد : (فزعاً وفظاً) تملكين ؟ . . . من يملك غيرك ؟ إنه كتابك . . .
المرأة : ولكنى أروى تاريخاً . . .
السيد : (مهاجماً) تاريخاً ؟ (بصوت أعلى) تقولين تاريخاً ؟ هل هذا تاريخ ؟
المرأة : (متحرشة) إنه تاريخنا نحن . . . تاريخ أناس ضعفاء صغار مجهولين ، ولكنه تاريخ على كل حال .
السيد : ليكن (كأنما قرر شيئاً) أنا جئت مستعداً لتنفيذ طلباتك .
المرأة : (ضاحكة بسخرية ضحكة رنانة) طلباتى ؟ أى طلبات يا سيدى ؟ من قال لك إن لى طلبات . . . وهل كنت أعلم يا سيدى أين أنت الآن ؟ . . . وما هو دورك فى المجتمع ؟
السيد : (متضايقاً ومباهياً فى الوقت نفسه) دورى أكبر مما تتصورين . . . أكبر بكثير (يشير بيده إلى أعلى) . . .
المرأة : تهانى يا سيدى . . . لكم أحب لأصدقائى الذين عرفتهم

صغاراً يصارعون الحظ السيئ ، أن يصبحوا ناجحين وذوى نفوذ .

السيد : (فى غلظة وراغباً فى الحسم) أشكرك . . . وأرجوك ألا تطيلى هذا الموقف .

المرأة : (متنمرة وكأنما تتهيأ للدخول فى قتال) أى موقف هذا الذى تتحدث عنه ؟ (بعد توقف) لاحظ أنك ضيفى . . . وأن على أن أكون لطيفة مع الضيوف . لا تخرجنى عن حدود واجبى .

السيد : (معتذراً مدركاً الخطر) أعتذر . . . أعتذر . . . لاحظى أن الموقف ليس عادياً . . . وقدرى ارتباكى . . . إنى لم أعرف موقفاً كهذا من قبل .

المرأة : حسناً . . . أنت تطلب يا سيدى ألا أذكر شيئاً عنك . . . ومع أن هذا سيفسد من سياق الكتاب . . . ، فقد كان لك دور كبير فى حياتى ، ومع أنه مخالف لأمانة التاريخ . . . فإنى تقديراً لظروفك سأفعل ما فى وسعى ، لوقف الطبع وحذف الفقرات التى تخصك .

السيد : (وقد زاد فزعه) . . . ستفعلين ما فى وسعك . . . لا . . . لا . . . بحق السماء . . . هذا لا يكفى . . .

المرأة : ما الذى تطلبه منى إذاً يا سيدى ؟

السيد : الذى أطلبه (يقف من شدة العصبية) وعداً حاسماً مطلقاً بأن يسحب الكتاب من المطبعة ، وأن يحذف منه كل ما يتعلق بى . . . .

المرأة : باسمك . . .

السيد : (وقد ركبه الفزع) ، لا . . . أرجوك . . . اسمى ووصفى . .

كل شيء . . . كأنك لم ترى وجهى قط .

المرأة : لم أر وجهك ! . . . أنت تطلب شيئاً كبيراً .

السيد : ليكن كثيراً أو قليلا . . . أنا مستعد أن أتحمل كل النفقات والتعويضات ، وليعفنا التاريخ من أمانته هذه المرة . . . متى كان التاريخ يا سيدتى أميناً ، حتى يصمم على تدمير حياة رجل غير حياته منذ زمن بعيد .

المرأة : لقد أثرت فضولى . . . صحيح أنك غيرت حياتك ؟ ؟

السيد : (مندفعاً) تماماً . . .

المرأة : لم تعد تعرف أمثالى . . .

السيد : (مرتبكاً وشاعراً بالخجل) ماذا أقول ؟ لماذا تضعيننى فى هذا الموقف ؟ . . . إن التعرف إليك شرف . . .

المرأة : (ضاحكة ضحكة مفاجئة ورنانة) شرف (يعاودها الضحك) شرف . . . ومع ذلك فإنك أوشكت أن تجن لمجرد تسجيل هذا الشرف فى كتاب . . . لا يدرى أحد أيجد من يقرؤه أم يلقى به فى المخازن ؟

السيد : لا . . . إنه سيقرأ ، وأقسم . . .

المرأة : هذا إذا لم أحذف فصولا أخرى منه .

السيد : (غير واع لما يقول) ، ولماذا تحذفين ؟ . . . أبقيه على حاله .

المرأة : هذا ما تنصحنى به حقاً ؟

السيد : طبعاً .

المرأة : وإذا جاء صديق آخر ، وطلب نفس طلبك . . .

السيد : (مندفعاً بغير وعى) . . . لا تسمعى . . . لا تلتفتى . . .

المرأة : هذه نصيحة من ذهب . . . سأحترمها تماماً . . .

السيد : (متهالكاً) ماذا أقول ؟ إننى أتخبط . . . افعلى ما يحلو لك . . .

المرأة : (تشده ناحيتها) يالك من طفل ! . . . إناك أنت . . . أنت لم تتغير . . . مشغول بنفسك . . . متناقض . . . لا تخف . . . لا تخف . . .لقد تذكرتك الآن تماماً . . . شاباً ناحلا خجولا مضطرباً قلقاً ، بلا مأوى ، لا يجد قوت يومه ، ويحب بكل قلبه وبكل جسده . . .

السيد : (يخرج منديلا ويمسح عرقه فتقع منه عدة أوراق بنكنوت لايلتفت إليها ، تكون الوصيفة على عتبة الباب تراقب مايجرى عن قرب ، فما تكاد أوراق البنكنوت تسقط حتى تجرى نحو السيد فى لهفة) .

الوصيفة : سيدى . . . سيدى . . .

السيد : (منهوكاً متعباً ، يلتفت إليها مذهولا) ماذا ؟ . . . ماذا هنالك ؟

الوصيفة : (تلتقط أوراق البنكنوت من الأرض وتقدمها) لقد وقع هذا منك .

السيد : (ينظر وكأنه لا يفهم ماذا تقول) وقع هذا منى ؟ . . . آه . . . اجمعيه . . . اجمعيه ، وقدميه لسيدتك إنها نقودها . . .

المرأة : هذه نقودى ؟

السيد : (وقد أفاق مما غشيه قليلا) نعم ، هى نقودك ، لقد تأخرت فى إحضارها . فاقبلى عذرى . . .

الوصيفة : (فى فرح تقدم النقود لسيدتها) خذى يا سيدتى . خذى.

المرأة : دعيها هناك على المائدة ، ودعينا وحدنا قليلا . . .

الوصيفة : (تخرج وهى تتلفت وراءها فى ابتسامة عريضة جداً) سمعاً وطاعة ، سمعاً وطاعة .

المرأة : (فى نغمة حزينة نوعاً ما) ما هذا ؟

السيد : هذه نفقات الصفحات التى سترفع من الكتاب ، هذا أقل ما أقدمه ؛ إنه بعض ما على . إن مستقبلى كله بين يديك . . . وما أقدمه اليوم هو شىء أحضرته على عجل .

المرأة : إنك يا سيدى تقدم لى رشوة .

السيد : (مختطفاً يدها فى لهفة ثم يرفعها إلى فمه فى امتنان حقيقى) لقد كنت أحبك دائماً . . .

المرأة : (ضاحكة بنفس الحزن الذى شملها) دائماً ؟ . . . هل تعلم أن آخر زيارة منك لى كانت من . . .

السيد : (مطرقاً) أنا أعلم . . . منذ سنوات . . . ولكن على الرغم من كل شىء . . . بقى حبك فى قلبى . . . أنا كنت اتقى حكم المجتمع . . . إنه لا يرحم . . . إنك لا تعرفينه كما أعرفه . . . كما عرفته بعد ذلك . . .

المرأة : صحيح . . . صفه لى . . . إن كل من أعرفه يحدثنى عن المجتمع وفرائصه ترتعد . . .

السيد : إنه غول . . . له ألف لسان يلسع بها ، وألف قبضة يبطش بها ، وألف وجه يقابل به الناس . . . إنه موجود وغير موجود .

المرأة : (كأنما تزيح كابوساً بيدها) أشكرك . . . لقد أتعبت نفسك على كل حال بالنسبة لى.. علاقتى بك كانت ماضياً وانتهى . . . لقد قبلت يا سيدى رشوتك . . . أنا أسميها

باسمها ، فلا تعترض أرجوك . . . أنت تنسى أنني مومس . . . وأنني وحدي في هذا المجتمع العريض التي تمارس الرذيلة ، وتسميها باسمها . . . أما أنتم جميعاً ففضلاء . . . اللصوص أمناء ، والجبناء شجعان . . . والمتفعون مضحون ، ولست ثائرة على حظي . . . قبلت الرشوة . . . أنت أديتها ، فامض من هذا الباب ، ولا تنظر إلى الخلف . . فإنكم جميعاً تخافون من هذا الغول الذي تسمونه مجتمعاً ، أما أنا فلا أعرفه . ولا أخشاه .

السيد : (يقف مرتبكاً ولا يدري ماذا يفعل ، ثم يتجه نحو يدها ليقبلها فتسحبها منه باشمئزاز) لا . . . لا تقبل يدي . . . إن المجتمع الذي لا يرحم قد يراك . لقد قمت بمهمتك على أحسن وجه . . . اطمئن ، لن أكتب حرفاً واحداً عنك في كتابي .

(السيد يقف ويهم بالانصراف ، ثم يتردد ، ثم يتجه نحوها ثم يسير خطوتين نحو الباب ، ثم يتوقف ، وينظر نحوها وأخيراً يندفع نحو الباب كالسهم . تدخل الوصيفة فوراً ناحية النقود فتجمعها بيديها) .

الوصيفة : يا سيدتي . . . كل هذا . . .

المرأة : نعم . . . كل هذا . . .

(يدق الجرس طويلاً ، فتذهل الوصيفة كما فعلت في المرة السابقة . ثم تنظر إلى سيدتها) .

المرأة : ألا تسمعين جرس الباب ؟

الوصيفة : إنه يدق للمرة الثانية فى أقل من ساعة . . .ماذا حدث ؟ . . أيكونون قد حضروا . . .

المرأة : اذهبي وانظرى . . .

* * *

المشهد الثانى

المرأة — والضيف الثانى

الوصيفة تجرى نحو الباب .
ولا تلبث حتى تعود ، ووراءها شاب متأنق غاية الأناقة ،
ولكنها ناقة صارخة . يظهر من كم سترته منديل أبيض رقيق .
ويمشى فى خلاعة ويتكلم بطريقة متكلفة مقززة . !

الضيف الثانى : (ينحنى انحناءة مسرفة). صباح الخير يا سيدتى وعذراً لقدومى من غير موعد .

المرأة : أهلا يا سيدى . . . أنا فى خدمتك . . .

الضيف : هل تسمحين لى بأن أقبل يديك شكراً إذ سمحت أن تستقبليني على الرغم من قلة ذوقى الصارخة . .

المرأة : عفواً يا سيدى . . . تفضل . . . خذ مقعدك . . .

الضيف (يخرج من كمه المنديل ويمسح به شفتيه بحركات غاية فى

التكلف) هل تسمحين لى أن أستغل كرمك . فأقدم لك نفسي .

المرأة : حقاً إنى أحاول أن أتذكر متى كان لى شرف رؤيتك آخر مرة .

الضيف : (ضاحكاً) لم يكن لى أنا هذا الشرف قط . . . هذه أول مرة يقع فيها نظرك على .

المرأة : آه . . .

الضيف : هذا حق . . . هذه أول مرة أطرق فيها بابك . . . هل تسمحين لى أن أدخن .

(يخرج سيجارة من علبة ذهبية ويضعها فى مبسم ذهبى ، فتصفق المرأة ، فتدخل الوصيفة) .

المرأة : قدمى للسيد السجائر .

الضيف : يا له من ظرف لا يوصف – (يرد سيجارته إلى علبته الذهبية ويأخذ سيجارة من العلبة التى قدمتها الوصيفة) سجائر معطرة . . . وأى عطر . . . كل شيء هنا معطر وأنيق ومذهل . سيدتى دعينى مرة أخرى أعبر لك عن إعجابى بذوقك المصفى .

المرأة : يا له من لطف منك أنت !

الضيف : هذا تفضل . . .

المرأة : هل لى أن أعرف أية خدمة أستطيع أن أقدمها للسيد الكريم . . .

الضيف : أوه . . . أوه . . . ما هذا الكرم . . . يا سيدتى لا أدرى كيف أبدأ الحديث .

المرأة : لعله الكتاب ؟

الضيف : (كأنما أنقذ) هو هذا . هو بالضبط . . . يا له من ذكاء !

المرأة : (وهي ترفع حاجبيها فى دهشة) ولكننى أؤكد للسيد أننى لم أذكر عنه حرفاً واحداً .

الضيف : (مندفعاً) هذا لا شك فيه . . . فأنا لم يكن لى شرف التعرف على السيدة . لم أكن سعيداً ولا محظوظاً قط فى حياتى .

المرأة : (وقد ملت المقدمات) إذاً ما هو المطلوب بالضبط ؟

الضيف : (مرتبكاً) المطلوب . . . المطلوب . كيف أبدأ الكلام ؟

المرأة : ابدأه كما يحلو لك . وهون عليك يا سيدى ، فإنى قد وطنت النفس على أن أسمع أى شىء ، وكل شىء ومن كل شخص بسبب هذا الكتاب .

الضيف : يا لها من سياسة حكيمة ! . . . إنها عين الحكمة . . . إنها سماحة فى الواقع . وليست سياسة .

المرأة : وإذا أردنا أن ننتفع بهذه السياسة فماذا أنت قائل فعلا ؟

الضيف : ماذا أنا قائل ؟ ماذا أنا قائل ؟ هذا هو السؤال الذى يتجه إلى الموضوع فى الصميم (يحك رأسه بيده ثم يخرج المنديل من كمه مرة أخرى ، ويمسح شفتيه برقاعة فاقعة) أقول على سبيل المثال . . . على سبيل المثال ، هل الكتاب انتهى طبعه .

المرأة : نعم : ولا ... (ثم تسكت) .

المرأة : لقد انتهى فى الواقع وهو فى المطبعة ، ولكنى أملك سحبه

فى أى وقت وحذف ما أشاء منه .

الضيف : (شبه مصدوم) حذف فقط .

المرأة : هذا ما يطلب منى عادة .

الضيف : ألا يمكن . . . على سبيل المثال . . . على سبيل المثال فقط ، الإضافة أيضاً . . .

المرأة : الإضافة أيضاً ، هذا يتوقف على ما نريد إضافته .

الضيف : (متهللا) حسناً . . . الأمور الآن أحسن. . . إذا قلنا على سبيل المثال . . . على سبيل المثال فقط ... إنك نسيت الحديث عن شخص بالذات ، شخص مهم ، وأردنا أن نستدرك ذلك بإضافة فصل جيد مكتوب بقلم بارع ، أفيستحيل ذلك ؟

المرأة : (ساخرة) كيف يستحيل أن نضيف فصلا ممتعاً بقلم بارع إلى كتاب هو باكورة مؤلفاتى ؟ !

الضيف : (مصفقاً بأطراف أصابعه) جميل . جميل ، غاية فى الجمال (بعد توقف قليل) وقرارك لا يتغير مهما كان شأن هذا الشخص أو مقامه أو مركزه ؟

المرأة : بالعكس ، كلما كان مقامه أعلى ، كانت الرغبة فى الإضافة أعظم .

الضيف : دعينى يا سيدتى أعبر عن إعجابى الشديد بهذا الذكاء . بهذه اللماحية ! حقاً كيف يكون هذا الكتاب التاريخى كاملا من غير أن يضم الحديث عن العظماء الذين غيروا التاريخ ؟

المرأة : تقصد تاريخى أنا ؟

الضيف : (متردداً) لا . . . أقصد التاريخ كله . . . تاريخك ، هو

تاريخ بلادنا .

المرأة : لا . . . هذه مبالغة ، وإن كانت مبالغة تقطر ظرفاً .

الضيف : الظرف ظرفك أنت . . . (يخرج من جيبه فصلا مكتوباً فيسقط معه شيك) .

الضيف : هذا هو الفصل ، وستعرفين من قراءته اسم البطل الذى يدور حوله . . . اقرئيه على مهل ، ضميه إلى الكتاب ، تسدى يداً للتاريخ . . . التاريخ العام .

(تدخل الوصيفة منطلقة إلى الشيك ، وترفعه ، وتنظر فيه ، ويهولها الرقم المكتوب فيه فتكاد تصفر) .

الوصيفة : يا سيدى . . . هذا وقع منك . . .

الضيف : (متظاهراً بأن وقوعه لم يكن مقصوداً) منى أنا ؟ متى ؟

الوصيفة : الآن .

الضيف : أظن أن هذا شيك السيدة — قدميه لها .

(تشغل المومس بالنظر إلى فصل الكتاب . ثم تجرى بعينها بسرعة وتصدر عنها أصوات دهشة واستغراب مثل آه . مهول . عظيم . أهو هذا الشخص ؟ الوصيفة تقدم الشيك لسيدتها) .

المرأة : (تمد يدها بتثاقل وتأخذ الشيك) آه شيك بألف جنيه لحامله . . . لقد كنت مشغولة بقراءة فصلك . . .

(تتوقف لحظة وتنظر إلى الضيف) هذا الشيك لى ، أأنت متأكد ؟

السيد : طبعاً . طبعاً . . .

المرأة : عجيبة . . . متى وقع منى ؟

السيد : (لا يرد ، ويكتفى برفع كتفه كأنما يتساءل) .

المرأة : (تعود إلى قراءة الفصل وتقرأ قليلا ثم تضحك ضحكة رنانة) حقاً إنك حريص على تسجيل التاريخ بأمانة .

السيد : (ينحنى انحناءة كبيرة حتى كأنه يريد أن يلمس الأرض بجبهته) إن التاريخ لن ينسى لك هذه اليد . . . أستودعك الله .

(يرفع أنامل يدها برقة إلى شفتيه ويقبلها قبلة خفيفة ، ثم يتجه إلى الباب وهو يشد قامته ويسير وكأنه يرقص . . . توصله الوصيفة إلى الباب . . . ثم تعود إلى سيدتها) .

الوصيفة : سيدتى . . . سيدتى . . . شيك لحامله بألف جنيه .

المرأة : (تزيح الشيك بعيداً عنها على المنضدة المجاورة) يا عبيطة ! . هؤلاء يحبون التاريخ حباً عظيماً . ماذا كان يحدث لو خرج كتابى دون أن أتحدث عن هذا الرجل العظيم . . . أنا أيضا أحب التاريخ . . . التاريخ بأمانة .

(يدق جرس الباب بشدة . تنصت الوصيفة مذهولة ، ثم تجمد فى مكانها لحظة ، ثم تهز رأسها علامة الاستغراب ، ثم تمضى إلى الباب ، وظهرها يدل على السرور والدهشة والمرح . وبعد قليل تعود أدراجها وهى تلهث كأنما قطعت شوطاً بعيداً) .

الوصيفة : سيدتى . . . سيدتى . . .

المرأة : (فى هدوء وبرود) ماذا أصابك ؟ . ماذا جرى ؟ . . .

الوصيفة : ضيف جديد . . . زائر ثالث . . . ماذا جرى للناس هذا اليوم ؟

المرأة : أى زائر ؟ عن أى زائر تتحدثين ؟! .

الوصيفة : رجل يا سيدتى لم أر مثله ، يلبس رداء أسود ، وله لحية سوداء وفى يده سبحة سوداء ، سواد فى سواد فى سواد . . . وأى صوت أجش ، وأى نظرة نفاذة ! . . . لقد اخترقت نظراته صدرى . . .

المرأة : أدخليه على عجل . . .

الوصيفة : إنى أخشى عليك منه . . .

المرأة : أتستبقين الرجل فى الخارج كل هذا الوقت ؟ ماذا أصاب عقلك ؟ دعيه يدخل . . .

المشهد الثالث

المومس ورجل الدين

(رجل طويل عريض ، ثابت الخطوة ، يلبس رداءً فضفاضاً يتكلم بتؤدة ، برغم مظهره الوقور القاتم ، صوته لطيف . ذكى محاور ، مناور)

السيد : أخشى أن تكون زيارتى لك يا ابنتى زيارة ثقيلة .

المرأة : (تقف فى أدب ، وترخى أهدابها فوق عيونها فى حياء) ، على العكس يا سيدى . . . إنها زيارة مرحب بها .

السيد : (يمد يده فتهوى عليها تقبلها فيدعها لها فتعود إلى تقبيلها) دعينى أتأمل وجهك فى النور . . . أوه . . . يا له من وجه

طفلة بريئة ماذا أرى ؟ إنى ألمح دموعاً . . . أهى دموع حقاً .

المرأة : (لا تتكلم) .

السيد : ما دام فى العيون دموع ، فى القلب نور الله ، لا بأس من الدموع . . . قطرات من القلب ، تغسله ، وتجعله أصفى وأنقى ، اجلسى يا ابنتى ، اجلسى وتمالكى نفسك ، لأستطيع أن أتبادل معك كلمتين .

المرأة : (تمسح بأطراف أناملها دموعاً تحدرت من عينيها فوق وجنتيها) تفضل يا سيدى . . .

السيد : لماذا أقدمت على فعل هذا ؟ ما دمت بكل هذه الطيبة ، واللطف و . . . (يداعب بأطراف أنامله أسفل ذقنها) .

المرأة : (لا تجيب) .

السيد : لا . . . لا . . . يجب أن تردى . . . يجب أن تتكلمى ، ولا تطرقى برأسك هكذا .

المرأة : كان لا بد لى أن أفعل . . .

السيد : (بصوت عال قليلا) لا بد ؟ من أين جاءت « لا بد » هذه ؟ من الذى ألجأك إلى ذلك ؟

المرأة : كل حياتى . . .

السيد : كل حياتك ؟ أقسم برب السماء أنى لا أكاد أفهمك . أكل حياتك دفعت بك إلى أن تؤلفى كتاباً تنشريه على الناس . أين ستر الله ؟ كيف تريحين ستر الله عنك وعن الذين عرفوك . . ؟

المرأة : (بصوت فيه عتاب وحزم) يا سيدى ، أتتحدث معى أنا عن ستر الله ؟ ! أنا يا سيدى ، امرأة بلا حرمة . أنا كما

تعلم بغ . . .

السيد : (بصوت هادر) لا تنطق الكلمة . لماذا اليأس من رحمة الله؟ من يدريك أنك أقرب إلى الله من رجل دين . منى أيضًا . .

المرأة : (بعد تأمل طويل فى وجهه) أيمكن أن يكون ذلك ؟ ولماذا يقبلنى الله فى رحمته ، وقد عشت حياتى مع الرذيلة أقتات منها وأشرب ، وأدعو الناس إليها ، وأغرقهم فى بحارها ؟ !

السيد : (يرفع يديه إلى أعلى علامة احتجاج صادق) رذيلة وبحار . . . من الذى وضع على لسانك كل هذا الكلام الغريب . . . أيتها الطفلة الصغيرة خفى عن نفسك . . . إن رحمة الله أوسع مما تتصورين . . .

المرأة : حسنًا ، ولماذا تضيق رحمة الله الواسعة بكتاب صغير . إذا كانت الرذيلة نفسها تغفر ، فالحديث عنها ، أحق بالغفران يا سيدى . . .

السيد : لا . . . لا . . . لا تجادلينى بهذا الأسلوب . . . إن الجدل هو أخبث حبائل الشيطان . . . دعى عقلك جانبًا ، اهربى منه ، كونى مع قلبك . . . أن نخطئ شيء ، وأن نباهى بالخطأ ونصفه للناس شيء آخر . . .

المرأة : (مأخوذة) أباهى بالخطأ ، حاشاى أن أفعل . . . أنا أعذب نفسى . . . أحرقها علنًا ، عسى أن يتقبلنى الله بحق بين نعاجه البريئة .

السيد : هذا أحسن . . . ولكن الله لا يحب من يرفض ستره !

المرأة : بحق الله لا تتحدث عن الستر . لقد عشت فى الفضيحة ، حتى لم أعد أفهم ما معنى كلمة ستر . أنا وحدى ومثيلاتى ، محرومات من حق النفاق وشرفه . كل الناس أفاضل ، وكل

النساء عفيفات . كل اللصوص أمناء . كل الزوجات شريفات إلا نحن دمغت جباهنا بميسم العار . . . وبهذا أخذنا من الحرية نصيباً لم يتمتع به أحد سوانا . . . لقد كان ذلك امتيازاً يا سيدى ، تفضل به المجتمع ، فمن حقه علينا أن نرد له الجميل . هل نكون بغايا وجاحدات أيضاً ؟

السيد : (متألم بحق) هذه أنة قلب جريح . من حقه أن يسمع . . . قولى يا ابنتى ما شئت . قولى . . . (تنحدر على خده دمعتان) .

المرأة : (متجمدة ومتصلبة) أتبكى يا سيدى ؟

السيد : ليتنى أستطيع ، فهذا موقف يحلو فيه البكاء . . .

المرأة : ابك – إذاً – يا سيدى . . . لأن بكاءك هو جواز مرور كتابى . لماذا تبكى أنت وحدك . . . من حق المجتمع كله رجاله ونسائه أن يقرأ قصة حياتى وأن يرى فى مرآتها نفسه . . لا بد أن تعرف كل فتاة عفيفة لماذا ألقى بنا إلى كلاب المجتمع تنهشنا وتتلمظ بلحمنا وعظمنا . . .

السيد : لا تضيعى ثواب آلامك بالانتقام . . . لا تبددى تجربتك بالرغبة فى التعذيب . . .

المرأة : أنا لست يا سيدى مريم المجدلية . . . إنما أنا امرأة ضعيفة ركلت وركلت حتى لم تعد تحس بألم الركلة . فأصبحت أقوى من الجميع . . . رأت الأقوياء عرايا . . . والفضلاء كذابين . . . ورأيت كيف يدير جنيه واحد رأس أناس يتقلبون فى ستر الله ، ويتحدثون عن الفضيلة ويخطبون على منابرها . يا سيدى لا تَحُلْ بينى وبين عمل طيب سيباركه الله . إن هذا هو سبيلى إلى مغفرة الإله العظيم . . .

إنه قلبي يدلني وقلبي لا يخطئ . . .

السيد : حذار الغرور. هذه نغمة غرور قاتلة، تواضعي يا ابنتي . . تواضعي إنك لن تعلمي الناس شيئاً . وما لك أنت والأقوياء والفضلاء والأغنياء ؟ . . . ما لك والجنيه الذى يدير الرأس؟ . . . دعي هؤلاء لله يدبر شئونهم عقاباً ومتاباً. اقبلي حظك برضا . . . توبي إليه فى خضوع . . .

المرأة : وهل قرأت كتابي حتى تحكم عليه أنه لم يكتب بأسلوب الخانعة الخاضعة التى لا تريد أن تؤدب ولا أن تعلم . . . قصة ساذجة بسيطة . . . حتى الرغبة فى الانتقام لم تتسرب إليها . . . ستضحك يا سيدى حين تقرأ الكتاب كما لم تضحك قط . . . فالمأساة لا تصل إلى أعلى مراتبها إلا حينما تكون ضحكاً يهز القلب . . .

السيد : (يدنى جبهتها منه ويطبع عليها قبلة) ما أذكاك وما أبرعك، وما ألطفك ! . إنك شيطانة صغيرة بحق . . .

المرأة : هل أعجبتك يا سيدى ؟

السيد : أعجبتني فقط . . . إنك تهزينني من الأعماق . . .

المرأة : ومع ذلك لقد جئت إلىّ متأخراً ١٥ عاماً . . .

السيد : أنا أعرف . . . هذا واضح . . . ولكني دائماً أجيء متأخراً . . .

المرأة : ومن أين عرفت أنك تأخرت هكذا كثيراً ؟

السيد : (ضاحكاً) هذا اللطف كله . . . هذه الحيوية كلها . . . ولا أعرف ؟!

المرأة : هل بقى فى عيني بريق ؟

السيد : إنه ساطع .

المرأة : وهل تشم عبيراً ؟ .
السيد : إنه يدير الرأس كما لا تديره ألوف الجنيهات . . .
المرأة : (وهي تختنق بالدموع) قل لي يا سيدي إني لم أعد عجوزاً بعد . . .
(تلقى بنفسها في أحضانه فيتلقاها بذراعيه) .
السيد : عجوز ؟ ماذا تقولين وأنت أغريتني . لا بكاء . . . لا بكاء ، لنعرف كيف نتكلم .
المرأة : (تبتعد عنه) وهل من الضروري أن نتكلم . لقد تكلم الناس كثيراً . . .
السيد : ومع ذلك – لا بد أن يستمروا في الكلام . سيظلون يتكلمون . . . ومن يدري لعلهم يتكلمون في قبورهم . معاتبة وجدالا وثرثرة . . .
المرأة : (ضاحكة ضحكة مفاجئة) أما عن نفسي فلن أدع ناكراً ونكيراً يأخذان مني حقاً أو باطلا . . .
السيد : (يبتسم) واضح . . . واضح . . .
المرأة : وستكون مرافعتي معدة ومكتوبة . . .
السيد : كتبتها من الآن ؟
المرأة : بل نشرتها في كتاب . . . هذه هي مرافعتي يا سيدي . . .
السيد : لن ينشر هذا الكتاب . . .
المرأة : لقد خرج الأمر من يدي . . . لقد جئت متأخراً كعادتك . .
السيد : (واجماً بحق) تقولين صدقاً ؟ !
المرأة : (تهز رأسها وقد زمت شفتيها ولا تتكلم) .
السيد : لا . . . لا . . . قولي شيئاً آخر . . . لا يمكن . . . إن خطر هذا الكتاب أشد هولاً من الوباء . وأعظم ضرراً

من زلزال . . .

المرأة : إلى هذا الحد !

السيد : (فى جفوة وغلظة) نعم إلى هذا الحد ... وسأحرض كل سلطة لتمنعه وأنا أنذرك . . . إن نشر هذا الكتاب معناه الخسران فى الدنيا والآخرة . . .

المرأة : (وقد استثارها التحدى ، فخرجت قليلا من لطفها ، وإن بقيت محتفظة بضبط نفسها) عجيب يا سيدى . أنت تتكلم عن الدنيا . . . دع الدنيا لنا . . .

السيد : (وقد أخرجه الغضب عن القدرة على تتبع كلامها) كفى عن اللعب بالألفاظ . . . هذا خسران فى الدنيا والآخرة . . . أنا أعنى ما أقول . . .

المرأة : (متحدية بصراحة) . . . وأنا أقول للسيد المحترم . . . إن الدنيا من شأنى ، وأنا أعرف بها منك . . . أما الآخرة فلقد أخرجتها من حسابى ، منذ أصبحت طريدة المجتمع المتدين المهذب الوقور . . .

السيد : إذا كانت دنياك تهمك فاعلمى أننى أستطيع أن أدمرها فوق رأسك .

المرة : إذن هذه هى الحقيقة ، الدنيا هى التى تهم . . . هى التى تهمك .

السيد : نعم . . . لن ندعك تلطخين أثواب الناس بالوحل ، وتهيلين على رؤوسهم التراب .

المرأة : (تنفجر بالغضب) من هم هؤلاء الناس الذين سألطخ أثوابهم بالوحل ، وأهيل فوق رؤوسهم التراب ؟ ! إنهم أناس عرفوا مومساً بغياً وعاشوا معها ، وأنفقوا عليها ، وأنفقت

عليهم ، واستمدوا منها النفوذ والسلطان ، وجعلوا من بيتها مركزاً لنفوذهم وسلطانهم ، هؤلاء هم الأبرياء الذين جشّمت نفساك مؤونة الدخول إلى هذا البيت من أجلهم . إنهم رجال دين عندك ، وعند الجهة التى تنتمي إليها . أما عندى فهم رجال . مجرد رجال كبقية البشر لهم أهواء الآدميين وعيوبهم . وقد آن أن نسقط هذه الحواجز الموهومة التى صنعت لتخيف الناس بعضهم من بعض ، وبيدى الضعيفة المجربة (تنظر فى يدها وكأنا تستثير غيظ الضيف) سأحطم هذه الحواجز ، فلقد تعذبت بما فيه الكفاية والعذاب مدرسة لا تعلوها مدرسة أخرى .

السيد : (ينتهز الفرصة فيرق لها فعلا أو ادعاء) يا لك من مسكينة ! لكم أثرت بهذه العبارة علىّ ، لقد مست شغاف قلبى (يمد يده نحوها) تعالى . . . تعالى إلىّ . . . فلقد أحببتك ، علم الله ، ولن تستطيع كلمة منك مهما قست أن تطرد هذا الحب من قلبى . . .

المرأة : ولن أرفض حبك ، فأنا فى أشد الحاجة إلى كلمة عطف ، فى هذا العالم المليء بالغيلان والوحوش . . .

السيد : (وقد أصبح تأثره أكثر صدقاً) يا للمسكينة ! . . . إن ما عطيه إياك ليس كلمة عطف ، إنما هو العطف نفسه . . . اسمعينى وتأكدى أن ما يشغلنى هو خيرك . . . اصرفى ذهنك عن هذا الكتاب . . .

المرأة : (متخابثة) إنه فى المطبعة يا سيدى . . .

السيد : وأنا جئت مستعدا لمواجهة كل احتمال . (يخرج من جيبه مظروفاً تطل منه أوراق بنكنوت) إن جمعيات الأسرة

السعيدة قد أنابتنى فى أن أقدم لك هذا المبلغ الصغير عوضاً عن خسارة الطبع وعن أرباح النشر. إنه مساهمة متواضعة أرجو أن تقبليها . . .

المرة : ولكن الأمر ليس أمر مال . . .

السيد : أنا أعلم . . . إنك لست من الباحثات عن المال . . . ولكن لكل أمر جانبه المادى . . . وأقسم أن الله الذى يطلع على القلوب، يعلم أنك تبت توبة نصوحاً ... وأن صفحتك أصبحت أشد بياضاً من الثلج وأنقى من ماء السماء . . . (يقبلها فى جبينها ويعدو مسرعاً نحو الباب) .

المشهد الخامس

المومس ــ الوصيفة

الوصيفة : (تأتى مسرعة وهى تكاد تتعثر فى عدوها ، فإذا وقع نظرها على المظروف كادت تنكفئ على وجهها) .
يا سيدتى . . . أرأيت هذا المظروف .

المرأة : وما لك تصرخين هكذا . ألم ترى نقوداً من قبل . . .

الوصيفة : رأيت . . .رأيت ... لكم رأيت! إلقد نثرت أنت الذهب النضار على أرض هذه الحجرة . ولكن الغرابة أن يأتى كل هذا المال ونحن ننتظر أن نطرد إلى الشارع ، إنها لمعجزة . إنك يا سيدتى قديسة . . .

المرأة : (ترن لها ضحكة فاجرة) قديسة ! لم يبق إلا هذا . . .

لقد أصبحت قديسة عند ما حلت بركة السماء علينا (تشير ناحية الباب) . . .

الوصيفة : ماذا فعلت بالرجل ؟

المرأة : كما ترين . . . ألقى بحمل نقود وذهب يعدو كالبعير . . . لكم تعلمت اليوم ! لقد كنت أظن أن بيت البغايا هو أوهى البيوت ، فعرفت أن هناك من البيوت ما هو أوهى . . . (يدق الجرس بشدة ، تتخشب الوصيفة ككل مرة ، ثم تنظر إلى سيدتها طويلا ، ثم تذهب إلى الباب وهى تهز رأسها وكأنها تقول من أيضا ؟)

المشهد السادس

المرأة — رجل الأمن

الوصيفة : سيدتى . . . هذه المرة كونى عاقلة بحق السماء . . . إنه رجل لا يعرف المزاح . . .

المرأة : أدخليه فوراً لقد طال انتظارى له . . .

الوصيفة : كنت تنتظرين مقدمه ؟

المرأة : بلا جدال . . . إنه الختام الطبيعى ليومنا هذا . . .

الوصيفة : أتعرفينه . . . إنه يخيف . . .

المرأة : لم يقع نظرى على وجهه . ولكن لا بد أن يأتى . . . وإلا كان تدبيرى كله غير ناجح . . .

الوصيفة : لا أفهم . . .

المرأة : لا ضرورة لفهمك . . .

(يدخل رجل شرطة يرتدى زياً رسمياً ، وهو رجل على أملس وناعم ، ولكنه قاس وصارم وحازم فى الظاهر . وإن كان فى الواقع تنقصه الثقة بنفسه) .

رجل الشرطة : نعمت صباحاً يا سيدتى . . . لقد طال انتظارى ، وليس فى مقدورى أن أنتظر .

(فى يده عصاً قصيرة يعبث بها) .

المرأة : لا عليك يا سيدى . . . فهذا بيت يدخله الناس بلا إذن ولا دستور !

رجل الشرطة : حاشا لله يا سيدتى . . . كيف تقولين هذا ؟

المرأة : أنت الذى قلت يا سيدى . . . ألا تشرفنا بحضورك ؟

رجل الشرطة : خيل إلى أن الفتاة نسيت وجودى . . .

المرأة : (موبخة) حقاً و ليس على الباب جرس ؟ !

رجل الشرطة : آه . . . صحيح . لكن الحديث معك يا سيدتى ممتع حقاً . . .

المرأة : لا تتعجل يا سيدى فإننا لم نتبادل سوى جملتين . . .

رجل الشرطة : الكتاب يقرأ من عنوانه . . .

المرأة : وهذا بيت القصيد فإنك قادم من أجل الكتاب . . .

رجل الشرطة : من قال هذا ؟ . . .

المرأة : أنا الذى أقول . . .

رجل الشرطة : وماذا أقول فى كتاب ممتع سينشر ؟ ! . . . فقولى ما أنت قائلة حالا ... (يضحك ضحكة حقيقية) ألم أقل لك إن الحديث معك ممتع ؟ . . .

المرأة : يسرنى أن أسمع هذا الثناء . الحق أننى فى أشد الحاجة إلى

كلمة ترفع معنوياتى . . .

رجل الشرطة: أنت فى حاجة إلى ما يرفع معنويتك ؟ لقد خلقت مقاتلة . . .

المرأة : ومع ذلك يحتاج المقاتلون دائماً إلى شيء ينسيهم مرارة القتال . . .

رجل الشرطة: وهل يسمح كرمك لى بالجلوس ؟

المرأة : (متظاهرة بأنها نسيت) أوه ... يا لقلة الذوق ! تفضل . .

رجل الشرطة: (وهو يجلس على مهل) أخيراً . . .

المرأة : (تتظاهر بالجفاف) نعم !

رجل الشرطة: لا . . . لا . . . أرجوك . ليس هناك ضرورة لهذا التجهم . . . اضحكى قليلا فإن تجهمك يخيفنى .

المرأة : أنت تخاف ؟ (تضحك ضحكة صافية) شيء ممتع حقاً . . .

رجل الشرطة: لا يخاف إلا نحن . . .

المرأة : من (نحن) ؟

رجل الشرطة: الذين صناعتهم أن يخيفوا الآخرين . . .

المرأة : طباخ السم ذواقه . . .

رجل الشرطة: (متظاهراً بالمرح) على رأيك . . .

المرأة : المقدمة طالت . . .

رجل الشرطة: (كأنما يفكر) ليس كثيراً . . . وعلى كل حال لماذا العجلة ؟

المرأة : لا بد مما ليس منه بد .

رجل الشرطة: (بعدم مبالاة) على رأيك أيضاً . . .

المرأة : أية أوامر ؟ الكتاب ؟

رجل الشرطة: ما دمت تعرفين – أهو ضرورى جداً ؟ أمن الضرورى أن تفضحى الناس وتخيفيهم ؟ .

المرأة : من قال ذلك ؟ لقد قصدت أن أمتعهم وأرفه عنهم ، وأن أعلمهم وأطلعهم على ما لا يعلمون . . .

الرجل : ولكنهم خافوا . . .

المرأة : إنهم يخافون ، لأنهم يجهلون ماذا أنا قائلة . . . والمرء عدو ما جهل .

الرجل : إنهم رجال شابت رؤوسهم ولم يعد ممكناً أن يتعلموا . دعيهم بجهلهم إنهم يحبون الجهل . . . وإنهم معه مستريحون . . .

المرأة : أولا تحميني أنا من قوم جهال خائفين ويريدون أن يعتدوا على حريتى ؟

الرجل : أنا أحمى حريتك (متظاهراً بالتنمر) من الذى يفكر فى الاعتداء عليها ؟

(ويرفع عصاه) ، كل من تسول له نفسه بذلك سأحطمه . . .

المرأة : (متظاهرة بأنها تصفق) مرحى . . . مرحى . . .

الرجل : لا . . . لا . . . أنت لا تصدقين . . .

المرأة : (متظاهرة بالغضب) كيف ؟ . أنا ؟ . . . لماذا ؟ .

الرجل : لست تعلمين أن حريتك تهمنى إلى أبعد مما تتصورين . . .

المرأة : أشكرك . . . (متظاهرة بالحماسة) لست أدرى كيف أشكرك . . . إذن سأعتمد عليك فى إصدار هذا الكتاب .

الرجل : إلا هذا . . . دعى هذا الكتاب لا تفكرى فيه . . . دعيه على الأقل الآن .

المرأة : الآن . . . هل هناك أمل فى أن ينشر بعد حين ؟ . . .

الرجل : لا أحد يعرف المستقبل ! من يدرى ؟ قد يأتى وقت يطلب إليك أن تنشريه ، وقد يقرر على المدارس يقرؤه التلاميذ .نحن نحبس أناساً فى أيام ونقبل أياديهم فى أيام تالية . . .

المرأة : (ضاحكة ضحكة حقيقية رنانة ثم تطول ضحكتها حتى تدمع عيناها)، فكرة طريفة . . . كتابى يقرر فى المدارس يا لها من فكرة ! لم تطرأ على خيالى قط .

الرجل : إن أفكار البشر لا تعرف الحدود . . .

المرأة : لكن لا تشترى منى الحاضر بالمستقبل . . .

الرجل : بل أنا مصمم على أن أشتريه وبأى ثمن . . .

المرأة : أهذا تهديد ؟!

الرجل : لا . . . لا سمح الله . . . إنما هو قرارى . . .

المرأة : وحينما تقرر أنت . . . لايعنى قرارك إلا تهديد الآخرين . .

الرجل : هذا هو حظنا دائماً مع الناس .حينما نكون ودعاء يحسبوننا ضعفاء ، وحينما نكون حازمين يقولون إننا قساة . ألا يوجد شىء بين بين ؟!

المرأة : كم يظلمكم الناس ! . . . أنا أريد أن أنصفك . . .

الرجل : (متظاهراً بالسرور) صحيح ؟!

المرأة : الأمر يتوقف عليك . . . اترك كتابى ، وسأخرج على قارعة كل طريق وأصيح هذا الرجل منصف . . . لقد حمى حريتى . . .

الرجل : (متظاهراً بخيبة الأمل) هذه الصفقة للأسف مرفوضة . . .

المرأة : كيف ؟

الرجل : اعرضى أى شىء إلا أن ينشر الكتاب . . .
المرأة : أهو مخيف لهذه الدرجة ؟ أهم خائفون حقاً . . .
الرجل : طبعاً . . . إن نزع أثواب الناس وتركهم فى الهواء، يسبب لهم التهاباً رئوياً . والتهاب رئوى لشيوخ ضعفاء يسبب الموت . . . إنهم يخافون الموت . . .
المرأة : لا يخافون إذن الفضيحة . . .
الرجل : حينما تقترن الفضيحة بالموت يكون الموت هو الشىء المخيف .
المرأة : الموت والفضيحة معاً . . . لم أكن أتصور أنى قادرة على كل هذا . . .
الرجل : من منا يعرف حقيقة قدرته . (يتوقف قليلا) ثم حقيقة ضعفه . . .
المرأة : بودى أن تتركنى أخوض هذه التجربة . . .
الرجل : الموت والفضيحة للآخرين .
المرأة : لآخرين يستحقونها . . .
الرجل : فى رأيك أنت . . .
المرأة : ومن يدرى ألا يمكن أن يكون رأيى صواباً ولو مرة واحدة .
الرجل : لم يسمح أحد بعد للأطباء أن يجربوا فى الأجسام الحية . . .
المرأة : ليس هؤلاء آدميين إنهم خنازير وكلاب . . .
الرجل : وتريدين بعد هذا أن أسمح بنشر الكتاب . . .
المرأة : آه نسيت أنك تعمل لهم . . .
الرجل : (ملدوغاً) أنا لا أعمل لأحد ، أنا أعمل للقانون . . . للقانون وحده .
المرأة : (متحدية) أرجوك أن تعفى القانون من الدفاع عنه . . . أنت تدافع عن نفسك وأصحابك . . .

الرجل : أصحابى هم السادة الذين لولاهم لما وجدتم ما تأكلون . . . إنهم شرف الإنسانية وجاهها . . .

المرأة : ومع ذلك يخافون من كتاب تكتبه واحدة مثلى . . .

الرجل : واحدة مثلى (يقلد صوتها) !

المرأة : يا سيدى أنا احترمت شعورك بوصفك حامياً للقانون ، ولم أقل تكتبه مومس بغي . امرأة بلا شرف . . .

الرجل : نحن نخاف على أولادنا وبناتنا من أن يقرءوا هذه الأوساخ .

المرأة : ومع ذلك لم تتذكروا أولادكم التى هى أكبادكم تمشى على الأرض إلا آخر الأمر . . .

الرجل : لا تطيلى معى الكلام . . . الكتاب لن يصدر . . .

المرأة : الكتاب سيصدر . . .

الرجل : (يقترب منها ويلوح بعصاه فى وجهها فيبدو عليها الخوف ولكنها تخفيه) ، مثلك لا ينفع معها إلا هذه (يهز العصا وهو يعض شفته السفلى من شدة الغيظ) .

المرأة : يا له من مجتمع قوى ، هذا المجتمع الذى يوفدك للتفاوض معى . امرأة ضعيفة عزلاء ، تخيفكم إلى هذا الحد حتى تمتشقوا سيوفكم وتلوحوا بها فى وجهها . . . حسناً سأذعن للقوة .

الرجل : (محاولا انتهاز الفرصة) أنت تذعنين للحكمة ، للعقل . . .

المرأة : كل منا يسمى خسائره بالاسم الذى يحلو له . . . أما أنا فأسمى الأشياء باسمها . . . أنا مرغمة . . . أنا لا حول لى . ليس معى عصاً يا سيدى . . .

الرجل : (محاولا مداهنتها) أنت أقوى من العصا . . .

المرأة : ومع ذلك هأنذا أخاف منها . . .

الرجل : بل إنك تلغين وجودها . . . (بعد توقف) أنا أعرف أنك أنفقت كثيراً فى هذا الكتاب . . . أعرف أنك تمرين فى أزمة . هذا مبلغ بسيط . . . هذا من حقك . . .

المرأة : لا . . . لا يا سيدى . . . النقود بعد العصا ، تفقد طعمها . . . على أنى لم أعد فى حاجة إلى نقود . . . لقد دفعوا لى أكثر مما كنت أنتظر . . . وقرارك أعفانى من مسئولياتى أمام الذين دفعوا للكتاب سأقول لهم ما قلته لى . . . من يدرى قد يقرر على تلاميذ المدارس . . . إننى فى هذا المجال امرأة بلا تجربة . . . أنت تعلم أكثر مما أعلم . . .

الرجل : (يقف ويحنى رأسه) هل لى أن أنصرف ؟

المرأة : إذا شئت (ينصرف ببطء حتى إذا وصل إلى عتبة الباب لوح بيده وانصرف دون أن ترد عليه المرأة بشىء) .

المشهد الأخير

(تدخل الوصيفة تلهث كعادتها . . .)

الوصيفة : هل أنت بخير يا سيدتى ؟

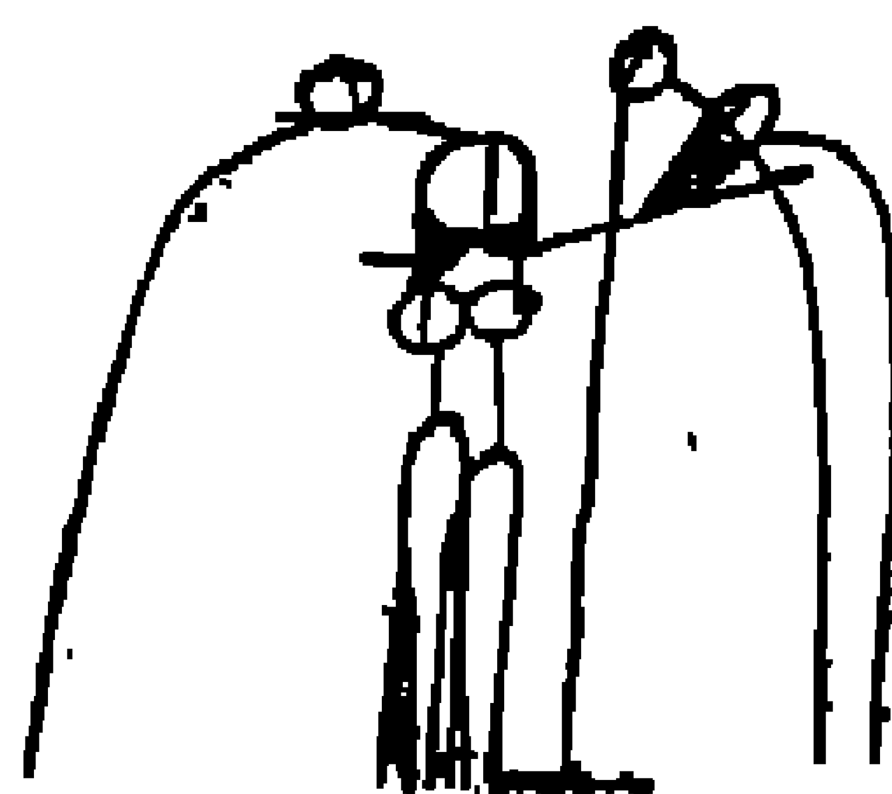
المرأة : (فى تراخ) . . . كما ترين . . .

الوصيفة : إذا ما جاءوا غداً فسيجدون مالا كثيراً . سيجدون أكثر مما يطلبون .

المرأة : إنهم لن يأتوا يا فتاتى . . . إنهم لا يأتون إلا لمن لا مال عنده ، إنهم عندما يشمون رائحة المال يفرون . . .

الوصيفة : ما أسعدنى يا سيدتى! . (تغمرها بالقبلات) .

المرأة : (تدفعها برفق) ، كم كنت أحب أن تقرأ البنات كتابى ، إنه وحده الذى يحمى من السقوط ، لكن الآباء رفضوا . . . ليدفعوا الثمن . . . لقد أديت واجبى . . .

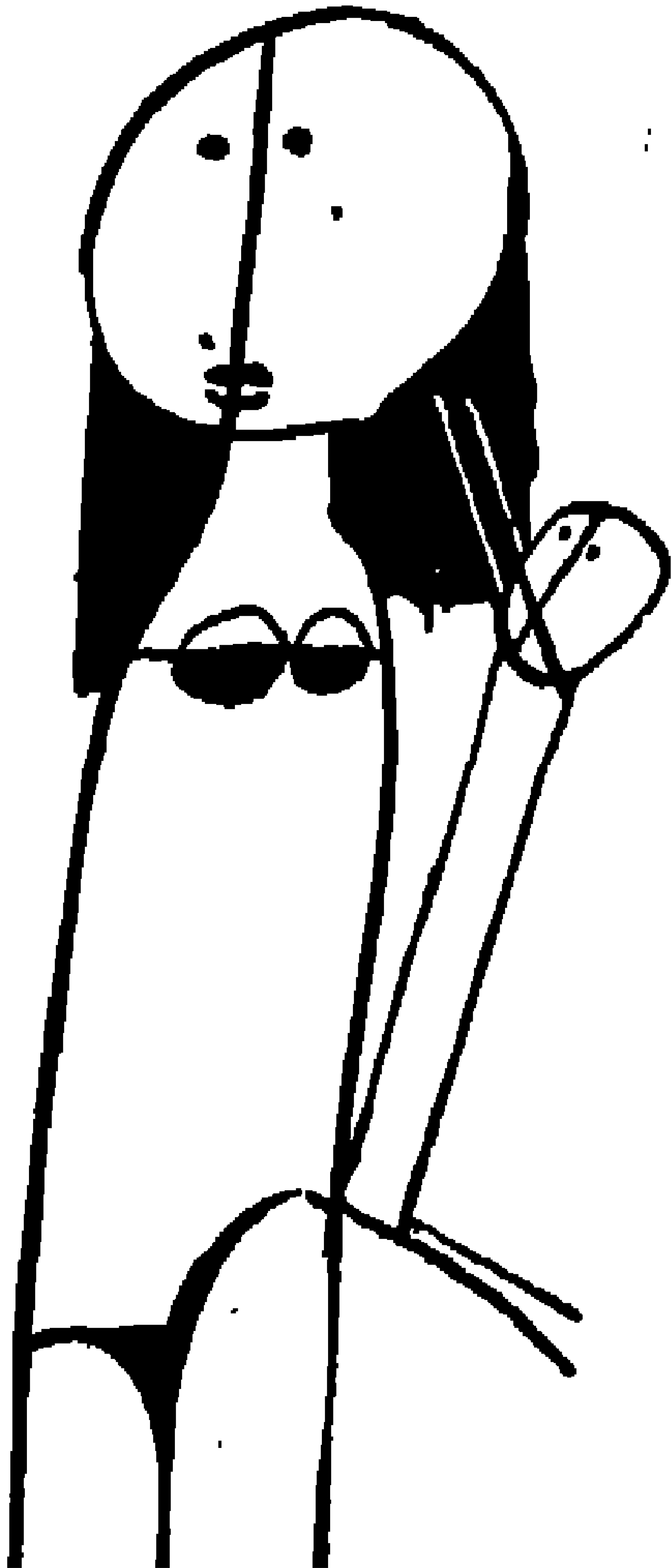


المطاردة المقلوبة

المشهد الأول

حجرة مكتب فاخرة . . . يجلس خلف المكتب « زكى » وهو شاب وسيم أنيق فى حدود الثلاثين ، يبدو لأول وهلة مهذباً رقيقاً ، ويبدو فى النظرة الثانية ذا عزم وميل إلى المخاطرة لايتردد ولا يهاب شيئاً ولا شخصاً . لا يعرف الناس ماضيه ، لأنه ليس له أصدقاء دائمون ؛ فهو كالإمبراطورية البريطانية ليس لها أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون ، إنما لها مصالح دائمة . يعرف مصلحته ويفكر فيها ويتربص للفرص كالنمر المفترس ؛ فإذا لاحت انقض عليها وأنشب مخالبه فى دهاء ولطف ، ولكن بلا رحمة ، إنه محدث بارع ومستمع أبرع ، ولكى الذى يحير فى أمره وظيفته ، فلا أحد يعرف حقيقة عمله حتى دوائر الشرطة والنيابة ، أيعمل سمساراً أم يعمل مقاولا أو مستورداً أو مصدراً أو محاسباً أو متعطلا ، إنما هو دائما أنيق مبتهج نشيط مشغول ، ينزل بسرعة درجات السلم إن كان المصعد معطلا ويصعده كذلك وثباً . فى يده سلسلة مفاتيح غالية يعبث بها ، ويسمع أحياناً وهو يصفر بشفتيه ألحاناً مشهورة ومجهولة تدل على أنه مثقف ، ولكن ثقافته أيضاً محيرة ، فهل تلقى علمه فى مدارس إنكليزية أو فرنسية ، فى مصر أم فى الخارج ؟ أم أنه لم يدخل مدرسة قط ، وعلم نفسه بنفسه ؟ وأى نوع من الثقافة تلقى ؟ لا أحد كذلك يعلم . . .

يمر الآن فى أزمة من أزماته التى لاتنتهى، ولكنها لا تقلقه ولاتغير كثيراً من مظهره ، فهو الآن بلا عمل لكنه يعلم أن العمل سيأتى حالا ، وفعلا تحقق توقعه فلقد طرق بابه طارق ، هو الزوج . الزوج فى الرابعة والخمسين ممتلئ الجسم قصير ، نشيط ، ملىء بالحيوية . دنيوى ولكن لايكف - كأمثاله - عن التحدث عن الدين والآخرة .



الزوج : صباح الخير . . . حمداً لله . لقد وجدتك. لو لم أجدك لكانت كارثة .

زكي : (مندهشاً وغير فاهم شيئاً) سيادتك ؟

الزوج : (مقاطعاً) طبعاً . ليس لدى وقت أضيعه . لقد أحضرت معى كل المستندات المطلوبة . . . بطاقتى الشخصية ، وجواز سفرى — ورقمها الخاص غير الموجود فى الدليل — ثم طلباً منى موقعاً عليه . . . أنت ترى أننى أعددت للأمر عدته . . . ليس لدى وقت أضيعه . . . ليس لدى وقت أضيعه حمداً لله . . . إنه كريم حقاً . . .

زكي : (مأخوذاً بهذا الفيض المتدفق محاولا أن يستفسر) ولكن ؟ .

الزوج : ليس هناك لزوم للكن . . . أنا أعرف كل شىء . . . ومستعد لكل شىء . . . كم جنيهاً تريدون مقدماً . . . مائة . . . مائتين . . . لا .سأدفع خمسمائة . . . ها هى ذى خمسمائة (يخرج من جيبه خمسمائة جنيه دفعة واحدة ، تسقط بعض الأوراق على الأرض دون أن يلتفت إليها). خذها يا سيدى مع الشكر ولكن أستحلفك بكل عزيز عليك ألا تضيع الوقت . . .

زكي : أتسمح بتوجيه سؤال واحد ؟

الزوج : (ضاحكاً) يا له من تواضع ! . . . سؤال واحد ، أنا أعلم أن مكاتب البوليس الخصوصية توجه عشرات بل مئات من الأسئلة . ولكنى صبور ما دمت أريد النجاح وأرغب فيه . . ولكن قبل أن توجه السؤال الأول هذه هى صورتها (يخرج من جيبه صورة ويلقيها فى وجهه بسرعة) .

زكى : (يتلقف الصورة وقد زاغت عيناه بين الصورة والمبلغ المتناثر أمامه) حقًا إنها جميلة .

الزوج : أنا معك . . . بل هى فاتنة .

زكى : (يمد يده نحو النقود ويجمعها أمامه ويدير رأسه مبتسمًا ويعود إلى النظر إلى الصورة ويهم بالكلام ولكن الزوج يقاطعه) .

الزوج : لقد فهمت ما انطبع على وجهك . . .أنت تعجب أن تكون هذه البسيطة الرائعة الطيبة . . . هى محل شكواى ، وأن يكون المطلوب من مكتبكم الشهير مراقبتها ومعرفة علاقاتها . . .

زكى : (مصعوقًا) مراقبتها ؟ مكتبنا ؟

الزوج : (محاولا التهدئة) أنا أعلم .أنا أعلم .أنا مجرب . لقد طحنتنى الدنيا وطحنتنى أكثر من كل شىء هذه الزوجة اللعوب الفاجرة الماكرة التى تستطيع أن تدوخ إمبراطورية . . . نعم إمبراطورية

زكى : (وقد نجح أخيراً فى الكلام) أنت تطلب من مكتبنا أن يراقب زوجتك ؟

الزوج : (وقد عاد إلى شىء من الهدوء) تمام . . .

زكى : والغرض من هذه المراقبة معرفة علاقاتها ؟

الزوج : (يهز رأسه ويزم شفتيه) بالضبط . . .

زكى : (وقد بدت له الحقيقة وبدأ عقله يعمل بسرعة) وأى مكتب تقصده بالضبط ؟

الزوج : مكتبكم . . . مكتب الدراسات الإنسانية . اسم جميل جداً ويخفى وراءه عالمًا من الأسرار والمهارات . . . إن

لوحة المكتب فى الخارج « الدراسات الإنسانية » (يقولها بتمهل) .

زكى : (وقد فهم الأمر تماماً وقرر قراره) فهمت. . . فهمت جيداً . . . أنت تعلم يا سيدى أن مكتباً كمكتبنا . يتحرك بحذر ، ولا يقبل كل مهمة ، ولا يبغى إلا . . .

الزوج : (مكملا) إلا المصلحة العامة ،. . .أنا عارف . هل تريد أن تعرفنى ؟ ولولا أننى أعرف ما جئت إلى هنا . . .

زكى : (يمسك الصورة فى يده) فإذا عدنا إلى الصورة باعتبارها المستند الأول — دع عنك البطاقة الشخصية وجواز السفر المثبت لشخصيتكم .

الزوج : (مقاطعاً) أنا معك . . . إنها صورة خداعة . . .

زكى : (وقد بدأ يندمج فى الدور) لا أعنى هذا بالضبط .

الزوج : (قلقاً) إذاً ماذا تعنى سيادتك ؟

زكى : (يخرج سيجارة ويقدمها إلى الزوج) لقد نسيت أبسط واجبات التحية .

الزوج : أنا لا أدخن . . .

زكى : (يخرج من درج المكتب علبة سيجار) إذن سيجار .

الزوج : إنه فاخر . ولكنى أشرب السيجار بعد الغداء أو العشاء فقط . . . شكراً . . .

زكى : فنجان قهوة . . .

الزوج : لا . . . لا . أرجوك . . . أنا أريد التكلم فى الموضوع (يمسك ورقة من فوق المكتب وقلماً ويكتب شيئاً بسرعة ويلقى به أمام زكى) .

زكى : ٧٠٠٣٣٥ (يهز رأسه مستفسراً) .

الزوج : (بصوت منخفض قليلا) إنه رقم تليفونها بالمنزل . . . أحسن وقت للاتصال بها بعد العاشرة صباحاً ، وبعد الرابعة بعد الظهر . . . ومراقبة التليفون لا تكون قبل ذلك . إنها حذرة تماماً .

زكى : حسناً . . . والسيارة . . .

الزوج : سيارة مرسيدس ٣٣٠ رقم ٩٥٠٧١٠ .

زكى : (يأخذ الرقم فى مذكرة أمامه) شبهاتك تدور حول ؟!

الزوج : حول اثنين من أعز أصدقائى ، وواحد من الشخصيات الشهيرة صلتى به سطحية ، وأحياناً أتصور أن لها علاقة بأكثر من شخص . صديق وعشيق قديم وآخر جديد . . .

زكى : (يرفع حاجبيه ويصفر) وتعتقد أن لهذه الشبهات أساساً . . .

الزوج : (محتجاً) أساس . . . تقول يا مونشير أساس ؟ ! أنا رجل أعمال . . . أنا مجرب . . . أنا لا أتحرك إلا بحساب . . . وكل خطوة مدروسة جيداً .

زكى : ومنذ . . .

الزوج : (مقاطعاً) كان كل شىء يسير طبيعياً . . . فجأة . . . كأنما أستيقظ من حلم جميل لأدخل فى كابوس ثقيل . . . عادة لا يحدث هذا فى الواقع . . . فنحن إما أن نحلم أحلاماً جميلة . . . وإما أن نقع فرائس لكابوس . . . أما الكابوس بعد حلم جميل . . .
(يدق التليفون)

زكى : آلو . . . آلو . . . أهلا . . . أشكرك هل يمكن أن أتصل بك بعد دقائق . . . سأكلمك . . . والله سأكلمك

. . . دقائق . . . مع السلامة .

زكى : وما السبب المباشر ؟!

الزوج : كما يحدث عادة . . . أدخل فالمكالمة التليفونية تنقطع فجأة . . . مكالمة تليفونية لا يرد صاحبها . . . تغير خفيف فى مواعيد الخروج والعودة . . . شىء من القلق . . . على وجهها . . . ثم أتنبه لأرى أشياء كثيرة لا أدرى كيف مرت علىّ من قبل . . . ولكن لا أريد أن أؤثر عليكم . . . أرجو أن تجرى تحرياتك المبدئية . . . ثم نتقابل (يهمّ بالوقوف) يخرج قلماً من جيبه ويسأل ما هى الصيغة المألوفة عندكم . . .

زكى : (مرتبكاً) الصيغة المألوفة ؟

الزوج : صيغة التكليف لمكتبكم بالمراقبة الخاصة والتحرى على مسئوليتى . . .

زكى : (مسروراً بالفهم) أوه . . . ليس هناك صيغة ثابتة . . . أى شىء بهذا المعنى ؟

الزوج : (ينهمك للحظة فى الكتابة ويقدم الورقة لزكى) هذا كاف . . . هذا كاف ؟!

زكى : (متأملا فى الورقة متظاهراً بعدم الاكتراث) .

الزوج : (وهو ينصرف) أشكرك جدا يا مونشير . . . وهذا تليفونى . . كلمنى فى أى وقت . . . سكرتيرتى تعرف أين أنا إذا لم أرد بنفسى . . . كلمة السر بيننا صفقة الزبدة الهولندية . . .

زكى : (ضاحكاً) دعنى أهنئك بهذه الموهبة البوليسية . . . نحن فى حاجة إلى هذا الذهن النفاذ الذى يحسب حساب كل كل التفاصيل . . .

الزوج : (يمسك بيدى زكى بين يديه) أنا ابن سوق . . . ومع ذلك لم تنفع كل هذه المواهب في استبقاء وفاء هذه المجرمة . . . أنا لا أريد أن أكون عاطفياً ، ولكن أقسم لك بشرفي لقد وضعت تحت قدميها الدنيا . . . كلها . . . المال والشباب والرياضة والصلات والدعوات والهدايا . . . ثم الإخلاص . . نعم الإخلاص . . . لكنهن النساء يا سيدى . . . النساء . . النساء . . . لماذا خلقهن الله بهذه البشاعة . إن حكمة الله تخفى على . . . علينا جميعاً (يبدو عليه التأثر ويحاول التغلب على انفعاله . يأخذ أوراقه ما عدا جواز السفر) سأترك جواز السفر لتقدمها إذا لزم ذلك كدليل على صلتى بكم . (يدق التليفون يتركه زكى يدق فترة ثم يصافح الزوج فى هدوء ويوصله إلى الباب ويعود إلى التليفون) .

زكى : (يرفع السماعة) لعن الله أباك (يضحك) أنت مستعجل ؟ نعم مشغول قلت لك دقائق وسأتصل بك . . . حدث ما لم يكن فى الحسبان . . . لا . . . لا . . . لا يمكن الحديث فى التليفون . . . الموضوع فى كلمة . . . أتعرف لوحة « الأبحاث الإنسانية » الموجودة على باب الشقة . . . أحدثت عند إنسان ما وهماً . . . وأنا الآن بطل مغامرة عظيمة بفضل هذا الوهم . . . لم يكن باقياً فى علبة سجائرى إلا عشر سجائر . . . وفى علبة السجار – إلا سيجاران ، ثم هبطت على خمسمائة جنيه مرة واحدة من السماء . . . التفاصيل عند ما أراك . . . التفاصيل الآن بعيدة عن شواربك . . . بعد الأرض عن المريخ ، لا تحاول لا تحاول . إلى اللقاء بعد انتهاء المغامرة . أنا الآن سأغرق حتى أذنى .

المشهد الثانى

(زكى بتكلم مع الزوجة فى التليفون) .

زكى : سعادة الهانم موجودة ؟ . . . نحن هنا محلات « رينا » للفراء . أنا منتظر (يدير عينيه فى سقف الحجرة ، مرسى . . . الحقيقة أننى أريد سيادتك فى موضوع حساس قليلا . . . لقد أخذت رقم التليفون من سعادة البك . نعم . . . نعم هو نفسه . . . لماذا ؟ ! هذا ما أريد أن أقابل سعادة الهانم من أجله . طبعاً مسألة خاصة وحساسة كذلك ولهذا لا بد أن نتقابل . . . كما تشائين . . . فى المكان الذى يعجبك ولكن أرجوك حددى موعداً سريعاً . . . فى مكتبى لا بأس . . . لا بأس . . . إنه فى عمارة هادئة . . . الأماكن الأخرى عامة أو خاصة ، تسبب ارتباكاً لا مبرر له . . . كل شىء ينتهى على خير . أورفوار . . . أورفورا . . . مكتبنا مكتب الأبحاث الإنسانية ٥ شارع أصلان أمام لوكاندة « الكوت دازير » . . . حسناً لقد بدأت تدركين الموضوع . . . طبعاً هذا ليس صعباً على على سعادة الهانم . . . أرجو ألا تقلقى . . . كل شىء سيجرى على ما يرام . . . أورفوار سعادة الهانم . . . أورفوار مدام .

المشهد الثالث

زكى ـ الزوجة

زكى فى المكتب ، قلق ، ولكنه يخفى قلقه وعصبيته متألق ، تفوح رائحة الرجولة من كل حركة من حركاته ، وتزيده المغامرة ذكاء ولطفاً وجاذبية . تدخل الزوجة ، رشيقه ، أنيقة ، ذات شخصية آمرة . أناقتها بسيطة ، وجمالها من الطراز الذى يزداد تأثيراً بالتأمل فيه ، الاقتراب منها والاستماع إليها ، يقفز زكى ، يحيى الزوجة وينحنى على يدها دون أن يقبلها .

زكى : صباح الخير . . . بونجور مدام . . . بونجور يا أفندم .

الزوجة : ترد التحية فى صوت خافت كأنها لم تنطق .

زكى : سامحينا . . . إذا كنا أزعجناك . . . إنه الواجب .

الزوجة : (بهزة من رأسها مع ابتسامة وبرود) ما المسألة ؟

زكى : (يخرج علبة سجائره) .

الزوجة : (تمد يدها وتأخذ واحدة ، فيشعلها زكى وهو مضطرب قليلا) .

زكي : لست أدرى كيف أبدأ!. .

الزوجة : (فى هدوء تام) كما تحب . . .

زكي : (يعبث فى جيوبه) فعلا . . . أأقدم هذه الصورة ؟! .

الزوجة : (تمسك بصورتها فى عدم اكتراث بها) هذه صورتى . .

زكي : بالضبط ولكنها أقل كثيراً من الأصل . . .

الزوجة : (فى نفس الهدوء الذى أصبح بروداً) ، لم أفهم شيئاً . أو لم أفهم جيداً . . .

زكي : (وقد أصبح أكثر ثقة بنفسه) ، وهذا جواز سفر سعادة البك .

الزوجة : جواز سفره ؟ . أينوى السفر ؟ . هل أنتم مكتب سياحة ؟

زكي : (ضاحكاً) . . . بل لتعرفى سيادتك عند اللزوم أننا مكلفون من سيادته . . .

الزوجة : مكلفون . مكلفون . . . بأى شىء ؟

زكي : آه . . . ظننت أنى كنت واضحاً بقدر كاف فى مكالمتى التليفونية . . .

الزوجة : لقد تصورت أن زوجى يطلب منكم أن تعرفوا تحركاتى . . .

زكي : إذن ما الشىء الغامض ؟

الزوجة : الشىء الغامض أنكم لم تحاولوا تعرف تحركاتى . . . واتصلتم بى مباشرة هل تريدون مبلغاً ما من المال . . . كم تطلبون

زكي : مال . . .

الزوجة : (باحتقار) مال . طبعاً ؟ أم أنتم هواة . . . هل تراقبون الزوجات لمجرد التسلية .

زكي : لا . . . لا . . . إن لنا طريقتنا فى معالجة هذه المهام الحساسة . . . الدقيقة نحن لا نبدأ عملنا إلا إذا كنا

مؤمنين بأن للمهمة أساسها الأدبي الخلقي . . . نحن مكتب له سمعته .

الزوجة : (وهي تنفث دخان السيجارة) يا لها من مبادئ ! أهنئكم عليها .

زكي : صدقيني . . .

الزوجة : (في برودها الذي حضرت به) . أنا أصدقك . . . هذه المبادئ لها تسعيرة طبعاً .

زكي : نحن نفضل أن نتصل بالطرف الثاني نعلمه بالمطلوب . . . . . . أرجوك أن تحاولي فهمي .

الزوجة : (متظاهرة بالاندهاش الخفيف) غريبة ؟تتصلون بالطرف الثاني بناء على أي مبادئ .

زكي : لا غرابة في هذا الأسلوب . . . لقد جربناه في مرات سابقة كثيرة . . .

الزوجة : (في استهزاء) شيء ممتع . . . أنا مشتاقة أن أعرف شيئاً عن هذا المنهج إذا كان ذلك ممكناً . . . أم هو سر من أسرار المهنة (تضحك ضحكة قصيرة) .

زكي : (متحمساً) بكل سرور . . . نحن نعلن الطرف المطلوب مراقبته ، بأنه تحت المراقبة . وسيكون لذلك النبأ وقعه في نفس سامعه . . . ويخبرتنا ندرك في الحال مذنب هو أم برىء .

الزوجة : فإذا كان بريئاً مثلا . . .

زكي : رفضنا المهمة ، وأغدنا مقدم الأتعاب ونسينا كل شيء عن الموضوع . . .

الزوجة : وفي هذه المرة ماذا تفعلون ؟

زكى : (فى حماسة مصطنعة) انتهى كل شىء سنرد الأتعاب قطعاً

الزوجة : (فى شىء من الحماسة) خسارة . . .

زكى : خسارة فى جانب إظهار براءة بريئة . . .

الزوجة : (فى ابتسامة أخاذة وخبيثة) ، تقول بريئة ؟

زكى : قطعاً !

الزوجة : (فى تساؤل مع ابتسامة أعرض) أنا ؟

زكى : (يهز رأسه بشدة علامة الموافقة) .

الزوجة : يبدو لى يا سيدى أن خبرتكم محدودة لغاية . . . أأنتم مبتدئون فى عملكم .

زكى : كيف ؟

الزوجة : لأنى أبعد الناس عن أن أكون بريئة . . . أنا مذنبة . . . (تتوقف وتهز كتفيها) أنا مذنبة فى رأى هذا المجتمع المغفل الساذج . . . ما علينا . . . أنا مذنبة وقد يدهشك أن تعلم أننى أريد أن أتعاون معكم . . .

زكى : معنا ؟

الزوجة : (تهز رأسها علامة الموافقة) معكم !

زكى : كيف ؟

الزوجة : سأمكنكم من إثبات علاقاتى . بصور ومكالمات تليفونية مسجلة ؛ وخطابات مكتوبة بخط يدى وشهود إثبات من كل نوع .

زكى : (مرتبكاً) ولأى غرض ؟

الزوجة : أولا خدمتكم . . . وثانياً لأنى أريد أن أتخلص من هذا الزوج الذى لا يطاق .

زكى : (متظاهراً بالاحتجاج) لا يطاق . . . لا . . . لا . . . أخشى أن تكونى . . .

الزوجة : (مقاطعة) مبالغة . . . (وتهز رأسها فى مرارة) ما أعجبكم أيها الرجال ! لا تكفون عن التعصب ضد المرأة حتى فى الحالات الصارخة التى لا ينفع فيها جدل . . . أيعجبك هذا الرجل ؟ .

زكى : بذمتى لم أر فيه عيباً .

الزوجة : (تبتسم ابتسامة سخرية) ولماذا الحماسة ؟ . . . ولماذا تحلف ؟ . . . أطلب أحد منك أن تحلف . . .

زكى : (مندفعاً ومقاطعاً) ثم إنه يحبك؛ وقد قال إنه يضع تحت أمرك ماله وقلبه ووقته .

الزوجة : (تصفر صفيراً تعبيراً عن شعورها بضخامة ما يقدمه زوجها) ماله وقلبه ووقته . . . هكذا دفعة واحدة . . . لعله حدثك عن هداياه وزياراتنا ورحلاتنا فى الدنيا والعربات الفاخرة ومركزنا الرفيع فى المجتمع . . . هذه هى وظيفتى فى حياته . . . وسيلة للمباهاة . والتحدث عن ثروته وجاهه ونفوذه ، ولطفه وكرمه وبراعته . . . إنه لا يفكر فى حينما يختار قطعة من الماس الممتاز . . . إنه يفكر فيها حول عنقى أو فى إصبعى وهى تخلب لب النساء الأخريات اللواتى يريد اقتناصهن من أزواجهن ، إننى مجرد فترينة فاخرة فى محل أعماله . . . عملية السلب تطير بصوابه . . . إنه لا يحب النساء ، ولا يطيق صحبتهن . . . إنهن عنده غزوات . . . يغلب فيها رجالا آخرين أقوياء ، فالمرأة غير المتزوجة لا تشغله إلا أن تكون فتاة مجتمع يسيل لها

لعاب الرجال الأقوياء الأغنياء المدججين بالمال والنفوذ . . . عندها يريد هزيمة الرجال والسطو عليها . . . بماله وهداياه وصوره فى الصحف وعرباته وقصوره وشركاته ، ثم بظرفه ولطفه وفكاهاته ودعاباته . . . إنه رجل غليظ صلف قاس مغلق . ولكن إذا ما أحس برائحة فريسة ، والفريسة دائماً رجل لا امرأة ، وفكر فى أن يخطف من الرجل زوجته أو عشيقته أو ابنته فاض لطفاً وظرفاً ، وخف وزنه ، وطلع الشعر فى صلعة رأسه ، وحلت عقدة لسانه وتخلى عنه بخله ، وهبطت قيمة الجنيه من عرشها . . . .

زكى : (مأخوذاً بهذه المحاضرة) يا له من تحليل . . . أنت يا سيدتى عظيمة . . . اسمحى لى أن أقبل أطراف يدك . . . إعجاباً ، وانحنى عليها تقديراً بل تقديساً . . .

الزوجة : (فى تصلب وتجهم كأنها لم تكن مندفعة منذ لحظة) ما لهذا جئنا . . . لنعد إلى العمل . . . أنا مستعدة أن أثبت الآن وبخطى أى خطاب غرامى تمليه علىّ إلى أى رجل فى الدنيا تحب أن أوجه إليه الخطاب لتحمله إلى زوجى المحترم دليلا على خيانتى . . . ومستعدة أيضاً أن أسجل بصوتى الآن مكالمة تليفونية ساخنة مع عشيق موجود أو موهوم كما تشاء . . .

زكى : كل ذلك من أجل أى شىء ؟

الزوجة : فى مقابل شىء واحد . ألا تسمع من هذه التسجيلات إلا شريطاً واحداً هو ما سنسجله الآن . . . أما ما سأعطيك إياه من التسجيلات وألبومات الصور والخطابات ، فيجب أن تسلم إلى زوجى مغلقة ليسمعها بمفرده وليتأملها وحده . . .

زكى : (مرتبكاً) ولماذا وحده ؟
الزوجة : لأن هذه التسجيلات مع رجال لا أحب أن أفضحهم فى المجتمع . . . يكفى أن يعرفهم زوجى وحده ، وسيكون سعيداً جدا بهذه الهدية الفاخرة .
زكى : أية سعادة يا سيدتى التى تتحدثين عنها ! . . . وزوجك سيعرف أن لك أكثر من عشيق . . .
الزوجة : إن هذه التسجيلات ستكون أسلحة قاطعة سيضعها زوجى على رقاب أعدائه ، سيطاردهم فى المجتمع . . . سيذلهم ، وسيفرض عليهم إتاوات ، كدولةمهزومة تؤدى للأعداء الجزية والتعويضات بالملايين .
زكى : ولكن يبدو لى أن مكسبك لا يتناسب . . .
الزوجة : (مقاطعة) لا تشغل نفسك بى . . . أنا أحب الحساب . . . والمسألة عندى محسوبة جيداً . . . أن أتخلص من هذا الخنزير ، وهذا شىء لا يقوم بثمن . . .
زكى : ما كنت أحسب أن النجاح سهل إلى هذه الدرجة .
الزوجة : يكفى يا سيدى أن تهبط بزورقك إلى هذه البحيرة الراكدة القذرة التى يسمونها المجتمع الراقى ، حتى تجد نفسك ملاحاً ماهراً . . . فالجثث تعلو سطح هذه البركة ، حسبك أن تمد يدك إن أردت أن تجمع منها ما تشاء .
زكى : يا له من خيال ! !
الزوجة : خيال نتن . . . خيال قذر . . . ما علينا ، ماذا قلت ؟
زكى : ماذا أستطيع أن أقول ؟
الزوجة : (بطريقة من يباشر عملا مألوفاً) خالياً من العاطفة والانفعال ألديك جهاز تسجيل . . .

زكى : (يقوم مضطرباً) موجود . . .
الزوجة : وعندك . . . ورقة وقلم ؟
زكى : (أكثر اضطراباً) طبعاً . . .
الزوجة : (فى هدوء وإصرار) هات شريط التسجيل لنسجل مكالمة تليفونية . . . وسأكتب ما تمليه عليه .
زكى : لا . . . لا . . . لن أملى شيئاً .
الزوجة : لا تملى شيئاً . . . أنا أعرف كيف أكتب خطاباً يقرؤه زوجى فيقفز إلى سطح الحجرة من شدة الفرح . . . ثم يفتح لكم خزائنه بلا شرط ولا قيد . . .
زكى : (وهو لا يصدق نفسه) إنك رائعة . . . أكثر من رائعة .
الزوجة : بل أنت رجل ممتاز . . . إنك رجل أعمال مدهش ، لديك حاسة اجتماعية ستؤهلك لنجاح عظيم . . . قل لى اسم مكتبكم ثانية — لم أقرأ اللوحة فى الخارج جيداً .
زكى : (فى أناة) الأبحاث الإنسانية .
الزوجة : الأبحاث الإنسانية (ضاحكة . يحضر زكى جهاز التسجيل ثم يحضر أوراقاً وأقلاماً) — اسم على مسمى (تضع الزوجة فى حقيبة يدها شريط التسجيل دون أن يلتفت زكى) .

المشهد الرابع

الزوج — زكى

الزوج : أنا لا أصدق أن هذا حدث .
زكى : ولماذا الشك ، وهذه الأشرطة أمامنا . . . ثم هنا مجموعة خطابات ؟ !

الزوج : (مأخوذاً وبين يديه حزمة من الرسائل) ولكن كيف استطعتم أن تحصلوا على هذا كله فى هذا الوقت القصير . . .

زكى : (متظاهراً باستصغار النجاح) . . . هذه ثمرة التجربة . . . العمل الطويل . . . والمعرفة بالناس ، والصلات . . .

الزوج : (لا يكاد يملك نفسه من الانفعال) : لنسمع التسجيل . . .

زكى : شريط واحد . . .

الزوج : واحد . . . لماذا ؟

زكى : هذا هو شرطنا . . . نسمع شريطاً واحداً هنا ، والباقى وحدك . . .

الزوج : (غير فاهم) لماذا شريط واحد . . . (يهز رأسه) على كل حال لا بأس . . . (بعد لحظة صمت) أى شريط . . .

زكى : (ينظر فى أغلفة الأشرطة ، ويبدو عليه أنه لا يعرف كيف يستخرج الشريط المتفق عليه من بين الأشرطة الأخرى) أين ذهب ؟ . . . لقد وضعت عليه علامة . . . هذا هو . . . أبداً . . . ليس هو . . .

الزوج : الشرط أنى لا أسمع إلا شريطاً واحداً . . . ضع أى شريط .

زكى : أين ذهب الشريط . . . (ينظر إلى عنوان شريط) لا . . . ولا هذا . . . لا مفر من أن نضع أى شريط . . . (يضع الشريط ، وتبدأ الآلة تدور . يسمع الزوج الشريط باهتمام عظيم وعصبية تبدو واضحة فى حركاته وطريقة جلسته) . . .

(يسمع حواراً تليفونياً بين رجل وامرأة) .

المرأة : هالو . . . هالو . . . صباح الخير . . .

الرجل : (لا يبدو صوته واضحاً بقدر كاف) . . .

المرأة : أنا لا أسمعك جيداً . . . أين أنت أيها الكذّاب الفرّار . . . متى ؟ .
الرجل : (صوته غير واضح أيضاً) . . .
المرأة : أين ذهب لسانك ؟ . . . لماذا لا تنطق ؟ . . . ولكن يكفيني أن تسمع . . . إن خطواتك الآن مسجلة عندي بالصورة
الرجل : (صوته غير واضح أيضاً) . . .
والصوت . . . ولدى عدد لا بأس به من خطاباتك ، إنك لن تضحك عليّ بعد اليوم . . .
الرجل : (صوته عال) : ماذا تقولين ؟ . خطابات وتسجيلات . . . لماذا هذا كله ؟
المرأة : لأنك جعلتني سخرية الناس . . . كل ذلك من أجل بروش اتضح أنه من أحط أنواع الماس . . .
الرجل : أحط أنواع الماس . . . عندى الفاتورة . . . إنه بـ ١٥٠٠ جنيه .
المرأة : ولكنك كسبت من زوجي مقابل هذا المبلغ الحقير ١٥ ألف جنيه . . .
الرجل : أنت تكذبين . . .
(الزوج يقف صارخاً)
الزوج : أوقف هذا التسجيل . . . هذا الصوت صوتي أنا . . . هذا التسجيل ضدى . . . ليست هذه زوجتي . . .
زكي : ماذا تقول ؟ . . .
الزوج : أقول إنك مغفل . . . مغفل حقير . . . أو إنك شرير تريد أن تستغفلني .. أنت تواطأت مع زوجتي ضدى .
زكي : أنا لا أفهم شيئاً . . . ماذا تقول ؟

الزوج : تفهم أولا تفهم لا يهمنى . . . المهم أن هذا التسجيل ضدى . . . من الذى سجله (يهجم على لفة الأوراق) وماذا فى هذه الصور . . . عال . . . عال هذه صور لى أنا أيضاً . . . هذه صور ملفقة . . . هذه صورة لى مع حرم وزير (إنشاءات بعد الحرب) وهذه صورة لى مع زوجة وزير (الرقابة على الوظائف) وهذه مع زوجة سفير برانكوفوليا . . . لقد ضعت وتحطمت . . . (يجلس ويحنى رأسه ويبدأ يبكى) .

زكى : أرجوك أن تهدأ . . . ودعنى أفهم . . .

الزوج : أنت تطلب المستحيل يا أفندى . . . أنت لن تفهم . . . ليس فى هذا المكان مخ (يضرب بأصابعه رأس زكى) هل أستطيع أن أفهمك أن زوجتى كانت تراقبنى أنا . . . وأنها خدعتنى إلى الحد الذى أوهمتنى فيه أن لها علاقات فى إمكانى بشىء من المهارة والصبر أن أضبطها . . . لقد أوحت إلى بخبثها بأن أجرب مطاردتها . . . أية إبليسة هذه المتباهلة . . . المتماوتة . . . الآن فى يدها مستندات لو سلمت لأعدائى لأفلست تماماً . . . ماذا أفعل ؟ ما هو طريق النجاة ؟ !

زكى : الصلح . . .

الزوج : مع من ؟

زكى : مع زوجتك . . .

الزوج : وهل تقبل الصلح الآن ، بعد أن استدرجتنى لهذا الموقف المخزى ، لقد ظننت أن بوسعى أن أحطمها ، وأحطم كبرياءها وأن أفنيها من الوجود . . . ومثلت دور الفريسة التى قعت

في الفخ . . . وهجمت بكل قواى . . . بكل أموالى ونفوذى الهاوية . . . هل مت ؟ أتحطمت نهائياً ، أم لا يزال فى بقية من حياة . . .

زكى : لا . . . أنت حى ، قف على قدميك .

الزوج : فى مثل هذه المواقف ، يجب أن يقال شيء من هذا القبيل .

زكى : ولكن لو سمحت لى أن أناقش معك الموقف . . .

الزوج : مصلحتك تقتضيك أن تعرض هذا . فى المواقف البالغة السوء . . . لا بد من أناس ينتفعون من سوئها .

زكى : هل أنا ذهبت إليك ؟

الزوج : جريمتى أننى لجأت إليك .

زكى : وجريمتى أننى أريد أن أعاونك . . .

الزوج : هذا النوع من المساعدة ، هو الخراب بعينه . . . ماذا تستطيع أن تفعل يا سيدى ، زوجتى تحت يدها نسخ ثانية من كل تسجيل ، ومن كل صورة . . .

زكى : دعنا نجرب . . .

الزوج : هذا الكلام خنجر مسموم تدسه فى لحمى ، بيد غشيمة . . .

زكى : لو تهدأ قليلا . . .

الزوج : اهدأ . . . وأنا أجلس على موقد ، وأحس فى بطنى السيوف تقطع أحشائى . . .

زكى : أنت الذى تعذب نفسك .

الزوج : (يضع أصابعه فى أذنيه ويخرج وهو يردد) لا أريد أن أسمع . . . لا أريد لا أريد . . .

المشهد الخامس

الزوجة ــ الزوج

الزوج : (بصوت خافت ولهجة تذلل) هل أصدق أذنى ؟
الزوجة : نعم ، صدقها . لماذا لا تصدقها ؟
الزوج : ولكن هذا أعظم من أن يكون حقيقة . . . إنه حلم . . . بل أروع من حلم .
الزوجة : إلى هذا الحد أنت حريص على عفوى وصفحى . . .
الزوج : (يمسك بيدها ويحاول تقبيلها) ، بل أكثر من ذلك . . . أنت حياتى . . . ولكن كبرياءك هو الذى كان يدفعنى إلى هذا . . . هذا . . .
الزوجة : هذا . . . أى هذا ؟ .
الزوج : (خجلا) هذا . . . ماذا أقول ؟ العبث . . .
الزوجة : (معيدة الكلمة) العبث ؟
الزوج : الحقيقة أنه أكثر من عبث . . . إنها جرائم وفضائح . . . (تعاوده حالة الانفعال) صدقينى أنا ضحية . . .
الزوجة : ليكن ، أنا نسيت الماضى . . . سأعطيك التسجيلات والصور والخطابات ، سأسلم لك أسلحتى . . . راضية وسعيدة . . .
الزوج : (مندفعاً نحوها ويحاول أن ينحنى على قدميها) أنت ملاك . . .
الزوجة : (تتراجع بتأفف وضجر) ما الذى تفعله ؟
الزوج : أنا أريد أن أقبل قدميك . . . حتى هذا الشرف لا أستحقه !

الزوجة : هذه المبالغة لا تريحني . . .
الزوج : (يكف عن الانفعالات فجأة ويهدأ) صحيح ! ماذا تريدين مني ليكون صفحك كاملا ؟
الزوجة : لقد صفحت وكفى . . . أريد أن نعيش كآدميين . . . كرجل وامرأة .
الزوج : سنعيش . . .
الزوجة : دعنا نتكلم بعقل ، ودع هذه المواقف المسرحية . . .
الزوج : مسرحية . . . أقسم . . .
الزوجة : (تقاطعه بشدة) لا تقسم . . .
الزوج : حاضر . . .
الزوجة : ودع هذه المسكنة . . .
الزوج : حاضر . . .
الزوجة : ودع حاضر هذه أيضًا . . .
الزوج : (مرتبكًا) حا . . . حا . . .
الزوجة : اسمعني جيداً . . .
الزوج : أنا سامع . . .
الزوجة : لقد عرفت أنك زير نساء . . . وأنك لست الملاك الذى كان يتفضل على أن أشاركه حياته . . . ولست أطلب منك إلا شيئًا واحداً ، ألا تتخذ من هداياك وقصورك ونفوذك ، موضوعات تتغزل فيها بمواهبك ومزاياك ، وفضائلك وتوهم كل الناس أن حياتك معى صدقة وتكفير عن ذنب لا تدريه وأنك أحد قديسى العصر الحديث ، وأننى شيطانة . . .
الزوج : (يهز رأسه) .
الزوجة : وأظن أنه بعد طول صبرى أستحق هذا . . .

الزوج : بلا شك .

الزوجة : وشيء آخر .

الزوج : (بأدب شديد) أفندم .

الزوجة : (بضحكة قصيرة) لطيفة حكاية أفندم هذه . . . لا تظن أنني أريد أن أفرض نفسي عليك ، فالغالب بعد أن عرفت أنني أعرفك على حقيقتك ألا تكون حياتنا طبيعية وأن تجرى الأمور بيننا بسهولة .

الزوج : لا . . . لا . . . والله .

الزوجة : لا تعد إلى الأيمان المغلظة . . . كيف لا . . . لا . . . والله (تقلده) ، لو كنت مكانك لطلقت زوجتى فى الحال . . . فبعد كل ما حدث لا يمكن أن نعود زوجين إلا إذا حدث المستحيل . . . والمستحيل يحدث أحيانًا .

الزوج : الحمد لله أنك لست الزوج . . . أما عن المستحيل فحياة الناس هذه الأيام هى حياة المستحيلات .

الزوجة : (تنظر إليه فى عينيه محدقة لفترة ثم تبتسم ابتسامة من يرى طفلا صغيراً يقول كلامًا أكبر منه) برافو برافو . . . لقد أصبحت فيلسوفًا .

الزوج : وقد حدث هذا بالفعل (يشير إلى نفسه) .

الزوجة : ما هذا الظرف والتواضع أيضًا .

الزوج : هذا أقل ما فيها . . . تواضع وشعور بالانكسار والانحسار وبالإفلاس والاحتباس وبكل ما يخطر لك على بال .

الزوجة : لكن هذا الاعتراف يجعلنى أغير رأيى .

الزوج : أرجوك غيريه (يندفع نحوها ويحاول خطف يدها) .
الزوجة : هل تعرف إلى أى اتجاه سيتغير .
الزوج : التغيير خير من الجمود . . . التغيير ولو إلى أسوأ تغيير على كل حال . ولكن أملى أن يكون التغيير إلى الأحسن يا عزيزتى .
الزوجة : (مقهقهة) جميلة جدا « يا عزيزتى » هذه . . . طبيعية وبسيطة .
الزوج : (مأخوذاً) أنا قلت يا عزيزتى ؟
الزوجة : قلتها وبحرارة وصدق . . . لقد بلغت أنا الآن درجة التفاؤل .
الزوج : تفاءلت . . . متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ . . . أنا لم أعد أعرف رأسى من رجلى .
الزوجة : (مسرورة سروراً صادقاً) أن يراك الإنسان طبيعياً . . . وأن تتخلى عن كونك (بالونة) منفوخة تكاد تصل إلى السماء مع أنها فارغة ومصنوعة من مصارين .
الزوج : الله يسامحك .
الزوجة : (مهددة) هل لك اعتراض ؟
الزوج : (متقهقراً فى الحال) اعتراض . لا سمح الله . ولكن أرجو استعمال الرأفة معى . . . لا داعى للتشبيهات القاسية .
الزوجة : ألا تقولون القافية تحكم .
الزوج : (منبسطاً) دعى القافية تحكم . . . ولا تبالى . وماذا بعد هذه البالونة المصنوعة من المصارين. مصارين كلب . بالونة تطير فى الهواء هل فقشت واسترحت ؟

الزوجة : (فقنت . . تلوح بيدها كأنما تدفع شراً) لا قدر الله . . . لا نريد أن تفقأ وإنما نريد لها أن تهبط إلى الأرض بسهولة ثم تملؤها شيئاً نافعاً .

الزوج : (يكاد يقع على ركبتيه) املئيها . . . كما تريدين . . . غاز الهليون لتكون منطاداً . . . الأوكسيجين لتكون قنبلة . بنبون وحلويات لتكون هدية لطفل يتيم أومريض فى مستشفى . . افعلى . . . افعلى ما تشائين (ويهم على يديها ثم يقبلها فتضحك فيهجم عليها ويقبلها فوق شفتيها قبلة طويلة فتمانع أولا ثم تستسلم ثم تطول القبلة) .

الزوجة : (تجلس صامتة فترة وهى مسترخية ثم تجمع شتات نفسها وقد بدأ الانفعال يدب إلى صوتها) أشكرك .

الزوج : (مرتبكاً وهو يتلفت حول نفسه) هذا الكلام لى أنا ؟

الزوجة : (تمد يدها إليه فتجلسه إلى جوارها وتربت على ركبتيه بخفة وحنان وتأثر حقيقى) هذه أول قبلة فى حياتى .

الزوج : بعد عشرين عاماً .

الزوجة : كانت عشرون عاماً جافة مجدبة قاحلة قالت لى هذه القبلة . . كلاماً كثيراً . كثيراً جداً .

الزوج : (فى فضول) صحيح . . . ماذا قالت ؟

الزوجة : قالت : إنك يمكن أن تكون إنساناً ، ويمكن أن تحب ، ويمكن أن توقف قليلا إعجابك الشديد بنفسك .

الزوج : (متأثراً) وهل صدقت هذا الكلام .

الزوجة : سأحاول .

الزوج : (بخيبة أمل) ستحاولين فقط . . .

الزوجة : من يدرى فقد تكون هذه القبلة . . .

الزوج : (لا يدعها تتم الكلام فيهجم عليها ويقبلها ثانية فتطوق عنقه بذراعيها .

(يدخل زكي ويفتح الباب وينظر فتصدمه المفاجأة ويبقى مأخوذاً لا يفهم . . . يرفع حاجبيه فى تساؤل ثم كتفيه . ينتبهان إليه فيسرعان إليه ويأخذانه بينهما . . كل منهما يمسكه من ذراع ثم يقول الثلاثة كأنما يغنون) . الأبحاث الإنسانية . . .

(ستار)

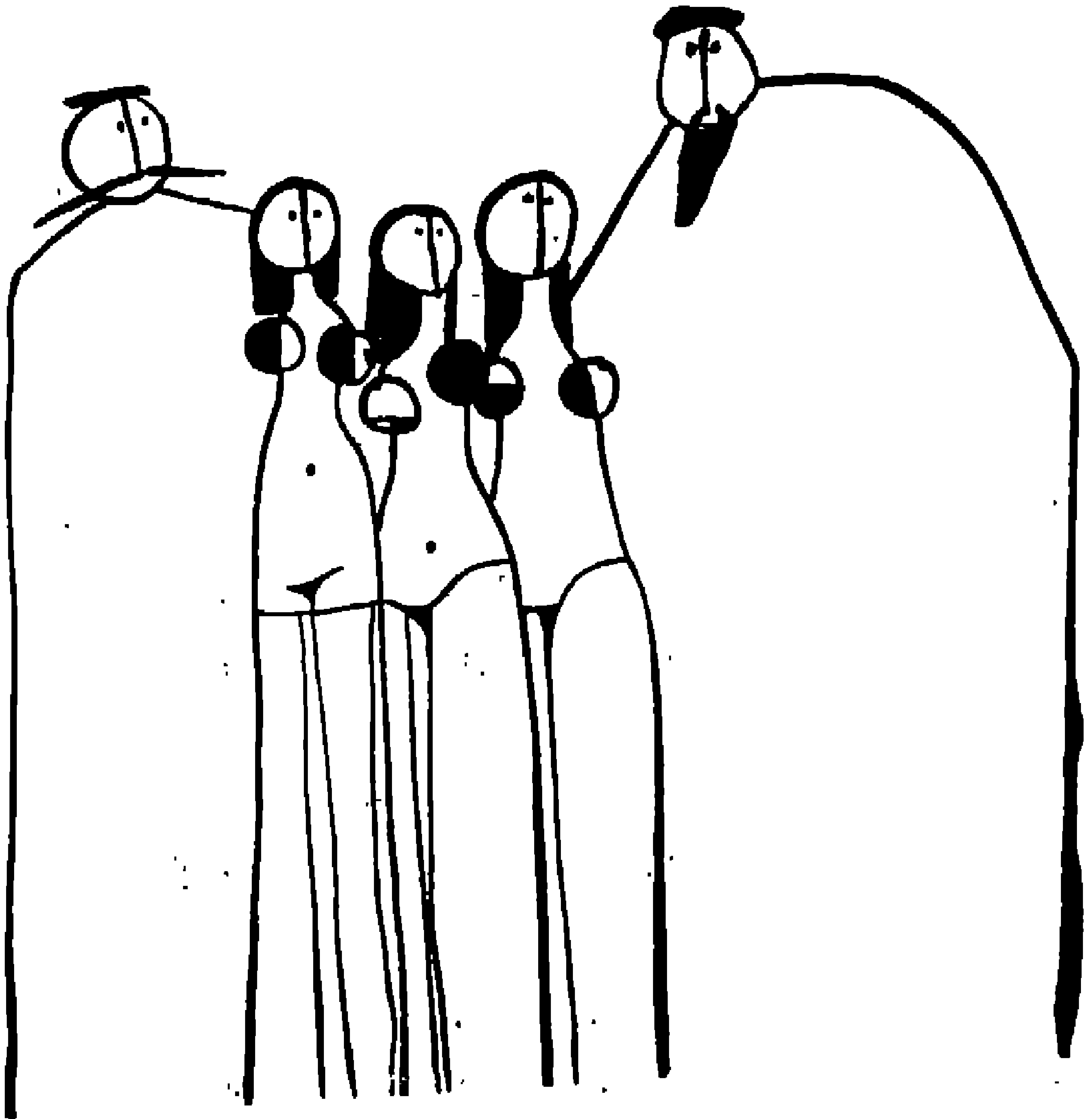


موعظة آخر الليل

شارع يبدو الفقر والقدم على مبانيه . يمتد عرضاً ، وفى نهاية المنظر من ناحية اليمين بالنسبة للنظارة فانوس من فوانيس الطرق يضاء بغاز الاستصباح ، ذبالته خافتة وزجاجه معتم ، وأحد جوانبه الزجاجية محطمة يقع الفانوس على إفريز حافة من البلاط الحجرى المتآكل ، ويقع على الإفريز مبنى من دورين من الطوب الأحمر الذى استحال لونه للقدم وبفعل غبار السنين الطويلة ودخان المداخن المتصاعد من المصانع المجاورة إلى سواد باب المبنى موارب وهو من الخشب الأخضر القاتم . ونوافذ المبنى مربعة تشبه طاقات السجون والملاجئ . تجلس على باب المبنى سيدة فى ثوب قديم ، مهلهل من الحرير الذى لا يستطيع أن تعرف لونه بسهولة ، وهو يكشف عن ذراعيها الناحلتين ، وصدرها الذى يدل على فقر وربما مرض صدرى أيضاً ، وهى تضع ساقاً على ساق وهى بهذا الوضع تكشف عن أكثر ساقيها ، وإن كانت تفعل ذلك بغير اكتراث . وجهها ملطخ بمساحيق كأنما وضعت على وجهها ، بفرشاة يد عابثة ، فالأحمر مختلط بالأسود ، أما شعرها فثائر ، وفى يدها جزء صغير من سيجارة ، تنفث منه مرتين ، ثم تلفظها بأصبعها وكأنما تبصقها . تدندن قليلا ، فى صوت كئيب ، ثم تعبث بشعرها ، وتهز رأسها ، وتديره ببطء ناحية الفانوس . السيدة تسعل من حين إلى آخر سعالا خفيفاً متقطعاً .

يشاهد « الواعظ » تحت الفانوس ، ممدد الساقين ، مستنداً بظهره إلى عمود الفانوس ، وقد تلطخ وجهه بالدم ، وتمزقت ياقة قميصه ، يبدو مغمض العينين ، ثم يفتحهما ببطء .

تقع عيون السيدة عليه . .



السيدة : إيه . . . ماذا هنالك . . . متى ظهرت ؟ . من أين خرجت من البالوعة ؟ . البالوعة مسدودة . . . مسدودة تماماً (ضحكة قصيرة بلا فرح) . البالوعة لا تسمح بخروج فأر واحد . . . ولكن من يدرى ، فالإنسان أكثر مهارة من الفئران ومن الشياطين أيضاً . يا للمفاجأة السارة لصديقتنا صديقتنا التى تسكن فوق . صديقتنا التى كانت تصرخ لأن البالوعة سدت ولأن رائحتها الكريهة شملت الحى كله . . . الرائحة الكريهة (ضحكة باستهزاء) رائحة كريهة . . . كأن هذا الحى يعرف الروائح اللطيفة . . .

(تميل السيدة بكل جسمها ناحية الواعظ الذى يبدو أنه لم يسمع شيئاً مما تقوله السيدة) .

السيدة : (مستمرة فى توجيه كلامها إلى الواعظ وهى جالسة على المقعد وقد مالت به على قائمتيه الأماميتين) . . . قم . . . لا تسمع . . . تعبان . . . مسكين (تتوقف قليلا وتتأمل فى وجهه من بعيد) أوه . . . دم . . . خمر كثير ، ثم علقة ساخنة . . . (تتحرك ببطء نحوه) .

الواعظ : (يدير رأسه نحوها ويمسح شيئاً من الدم من فوق وجهه ولا يتكلم) .

السيدة : (تقترب منه ، ثم تجلس إلى جانبه وتنظر إليه مدققة ، وقد بدأت تهتم) ماذا ؟ ما الذى تلبسه ؟ لا يبدو أنك من أصحاب

الوجوه التى نعرفها هنا ! غشيم أراداً ن يجرب حظه ، فوقع فى أيدى فتوات حينا ؟ « تستاهل » . . . ولكن لا ، المسألة أعقد من ذلك بكثير .

الواعظ : قليل من الماء . . . من فضلك . . .

السيدة : من عينى ، ولكن قل لى برب السماء ماذا حدث لك ؟ .

الواعظ : (يحاول أن يثنى ساقيه فيجد فى ذلك عناء ، يتنفس بشدة ، ويهزرأسه فى محاولة لإقامة نفسه) .

السيدة : لا شىء ، كل هذا ولا شىء . ماذا يمكن أن يكون هذا الشىء . . . دم فوق وجهك وملابس ممزقة . . . وأنت لا تستطيع أن تأخذ نفساً . . . (تتوقف ثم تستأنف الكلام وكأنما توجهه لشخص آخر) ما أعجب كلام الناس . . . إنهم يتركون ألسنتهم تهذى بأى شىء . (سعالها يشتد قليلا) .

الواعظ : كوب ماء .

السيدة : (بنفس لهجتها الأولى عند ما طلب الماء) من عينى . . . ولكن أى ريح ألقت بك إلى هنا . . .

الواعظ : جئت . . . (بصعوبة) جئت بنفسى . . . كان يجب أن أجىء . . .

السيدة : (تجلس إلى جواره فى غير كلفة) . كان يجب أن تجىء (مفكرة) هيه . تعرف أحداً هنا . . .

الواعظ : (مرتبكاً وعلى شفتيه ابتسامة مترددة) لا . . . لا . . . لا . . . أبداً . . .

السيدة : ما دمت لا تعرف أحداً منا . . . إيزابيل . . . جاكلين . . . فورتنيه . . . لماذا جئت ؟ . . . مجرد فضول (تصفع كتفه

بأطراف أصابعها) يا للرجال !

الواعظ : (فى صوت خافت) لا . . . لا . . . ليس فضولا . . .

السيدة : إذن ماذا ؟ . . .

الواعظ : مجرد زيارة . . .

السيدة : أمرك عجيب . . . زيارة من ، وأنت لا تعرف أحداً هنا هل تعرف بيا مثلا ؟ . . .

الواعظ : من ؟ . . .

السيدة : بيا . . . مادلين . . . روزا ؟ . . .

الواعظ : لا . . . ولا واحدة . كنت أريد أن أتعرف . . .

السيدة : (فى ضحكة فاجرة) . أهلا بك . . . وهل تعرفت ؟

الواعظ : (يهز رأسه) ! !

السيدة : (تقرب وجهها من وجهه) وهل تعرفت ؟ الظاهر أن المعرفة كانت على غاية ما يرام . . . قميص ممزق ودم . . . هل حطموا أنفك . . . (فجأة كمن تذكر شيئاً كان غائباً عن ذاكرته) محفظتك ، هل تفقدت محفظتك . (تدس يدها فى جيبه الداخلى ثم تخرج يدها فارغة) نهار أبيض . . . المحفظة ضاعت . . .

الواعظ : (فى خجل) لم يكن معى محفظة . . .

السيدة : (صارخة) ليس عندك محفظة ، وتأتى للزيارة والتعرف هنا . . . « تهبب » ماذا هنا ؟

الواعظ : ما دخل المحفظة فى الزيارة . . . والتعرف ؟

السيدة : أأنت مجنون أم تتعابط . زيارة مجاناً ... هل قالوا لك إننا نستقبل الناس على سبيل المساعدة . . . لم يبق إلا هذا . . . ليس هذا ملجأ خيرياً . . . (يقطع السعال كلامها) . . .

الواعظ : أنا عارف . . .

السيدة : وما دمت تعرف فلماذا تتعابط ؟

الواعظ : (يسكت)

السيدة : (تقرب وجهها بشدة من وجهه وتدير عينيها فيه كأنما تحاول أن تحل رموزاً مكتوبة على صفحة وجهه) . قل لى . أيكون فى عقلك شىء ؟

الواعظ : ضرورى . . .

السيدة : (تقهقه قهقهة طبيعية غير مصطنعة ثم تتوقف فجأة) بصراحة أنت رجل ظريف . هل تعرف هذا ؟ قل الحق هل تعرف أنك رجل ظريف هل تعرف هذا ؟ قل الحق هل جئت لزيارتنا وليس فى جيبك محفظة . وما أخبث الرجال . كل منهم يعرف أصغر وسائلهم فى اصطيادنا . . . نحن المغلوبات على أمرنا . . .

الواعظ : (متحرجًا) قليلا من الماء . . .

السيدة : من عينى (تتوقف فجأة) . قليل من ماذا ؟ . ماء ، ألم أعطك ماء حتى الآن ؟ . يا للشيطان ! أنت تشكو ناراً فى جوفك ، وأنا أثرثر ، وأكركر ، وأهذى ، ولا أعطيك ماء . من عينى . سأعطيك ماء ، من عينى . . .

الواعظ : (ممتنًا وخجلاً فى وقت واحد) أشكرك . . .

السيدة : شكر على أى شىء . . . أنا لم أفعل شيئًا . . . أنت طلبت ماء ، وجوفك يغلى كبركان ، وأنا اثرثر وأثرثر وأكركر ، وأقول وأعيد ، وأهذى ، ولا أعطيك ماء . من عينى يا حبيبى . ولكن أتعرف لماذا لم أعطك ماء . لأنك ظريف ، شىء ما فيك يجذبنى إليك فلا يدعنى أذهب ولو لحظة . . .

وشعورى بأنك تائه . . . وأنك لا تعرف رأسك من رجليك . . .
(الواعظ يبسط ذراعيه فى امتداد كتفيه ببطء شديد ، ثم ساقيه . ثم يدير رأسه يمينًا ويسارًا ، ثم يأخذ نفسًا طويلا ، ويبدو أنه أصبح أحسن حالا ، وأنه استعاد ثقته بنفسه ، ثم اتجه بنبرة أقوى كثيراً) .

الواعظ : اسمعى يا أختى . . .

السيدة : (منفجرة بضحكة رنانة ، تدل على مفاجأة شديدة) يا أختى . . . إلا هذا . . . أختى ! ما أظرفك !

الواعظ : (فى ثبات) اقتربى منى قليلا ، واسمعينى للحظة . . .

السيدة : (تقف وأصابعها فى خاصرتها) أسمعك . . . أسمع ماذا ؟

الواعظ : الظاهر أنك قديمة فى هذا . . . هذا . . . (يتردد) فى هذا الـ . . . كا . . . ن .

السيدة : الله يخجلك يا بعيد . . . قديمة . ألم يفتح الله عليك بكلمة أحسن . . من (قديمة) هذه ؟ . . .

الواعظ : لا تؤاخذينى . . . أردت أن أقول إنك تعرفين الحى جيداً

السيدة : جيداً ؟ فقط ؟ جيداً جداً . ماذا تريد منه ؟

الواعظ : أقصد . . . أريد . . . الحق أننى لا أعرف كيف أبتدئ

السيدة : (تقترب منه) قل ولا يهمك . . .

الواعظ : أريد أن أعرف هل حدث أن إحدى السيدات الساكنات . السيدات زميلاتك خرجت من هذا الحى . . . تركته . . . ضاقت . . . قرفت شعرت بالقرف .

السيدة : السيدات . . . لطيفة أيضًا هذه . . . سيدات من يا لوح ؟

(تتوقف فجأة) أتكون واحداً من هؤلاء . . . إياك . . .

الواعظ : (وقد داخله خوف حقيقى) . هؤلاء ؟ من يكونون هؤلاء ؟ !

السيدة : لا . . . لا . . . لا تحاول اللعب بى . . . أنت تعرف وأنا أعرف . . .

الواعظ : (محاولا الابتسام) صدقينى أننى لا أعرف . . . ماذا تقصدين ؟

السيدة : (ضاحكة فى مودة) أنت ظريف . . . ظريف ، ولكن لا تأكل بعقلى حلاوة . . . الآن وقد هدأت . . . ظهرت صورتك على حقيقتها . . . فأنت منهم للأسف الشديد . . . ماذا فى عقولكم أيها الوعاظ . . . مملكة السماء والتوبة والعودة إلى أحضان الله . . . (منفعلة) أحضان الله ! ولكن مملكة الله التى تمثلونها أنتم باردة تتعالى علينا ، ولا يكف مندوبوها عن الوعظ والإرشاد . . . وكأنه لا يوجد فيها من يرى ما يحدث فى دنيانا هذه . إذا فتحت فمك بكلمة واحدة من هذا الطراز . . . فسأحطم عنقك . فاهم (مقتربة منه وكأنها تنوى شراً) .

الواعظ : فاهم . . . فاهم . . . ولكن أنت نسيت كوب الماء . . . أنا عطشان . . .

السيدة : (منفجرة فى الضحك) صحيح . . . أنت طلبت ماء . . . من عينى . . . (تتجه نحو بابها ثم تقف) الله يخيبك يا بعيد . . وساكت طول الوقت . . ألم أقل إنكم من صنف آخر . . . وعاظ (والضحك والانفعال يزيدان من نوبة السعال) . . .

(يلوح الشرطى من بعيد – ناحية اليمين من المسرح بيده عصا يلعب بها بين أصابعه ويسير فى تؤدة وثقة و إصرار على الفتك بالمرأة) .

السيدة : (مرتبكة) يا للشيطان ! . . . ها هو ذا قد ظهر . . . باسم الله الحفيظ . . . انظر إليه كيف يسير مختالا . . . هذا هو الإله الذى نعرفه فى هذه الناحية . . . هو رسول العناية الإلهية . . . (بعد لحظة) على الأقل . . .

الواعظ : (فى إشفاق حقيقى ماداً يده نحو المرأة) لا تجزعى يا أختى . . . لا تجزعى . . . (يحاول الوقوف) .

السيدة : (مبعدة يده عنها) كفى تخريفاً . . . ماذا تفعل أنت مع شرطى . . . هل عندك بخور . . . يبعده عنا ؟

الشرطى : (وهو يقترب) ماذا تفعلين هنا يا قذرة !

السيدة : (مرتبكة) أبونا هذا ضربوه . . . ويطلب ماء . . .

(يقف الشرطى أمام الواعظ ويتأمله وهو يهز إحدى ساقيه فى استمتاع واضح بالسلطة) .

الشرطى : هيه . . . ماذا حدث ؟

الواعظ : كل خير . . .

الشرطى : (ضاحكاً ضحكة قصيرة) كل خير . . . هذا واضح . . . هذا الدم . . . أين ذهبوا ؟

الواعظ : ذهبوا ؟ من تعنى ؟

الشرطى : (لامساً كتفه بطرف عصاه) لا تتباله . . . أعنى الذين ضربوك . . .

الواعظ : أنا لا أذكر . . . أو الحقيقة . . . الأمر لا يهم . . .

الشرطى : لا يهمك ان تضرب . . . ولكن يهمنى أنا . . . أنت حر

التصرف فى أنفك ووجهك . . . ولكن أنا هنا : لأصطاد هذه الجرذان . . . أنت واعظ حقيقى . . . أم واحد من الهواة . . . معك بطاقة شخصية ؟

(تبدأ نوافذ الدور المجاورة تفتح وتطل من هنا ومن هناك ، نساء فى ملابس فاضحة حمراء) .

الواعظ : (يضع يده فى جيبه ويخرجها خالية من كل شىء ويهز رأسه) .

الشرطى : (مهتما) آه . . . الموقف يتعقد . . . سرقوك . . . أخذوا محفظتك (موجها الكلام إلى المرأة ماداً يده نحوها محركاً أصابعه على شكل يوحى بأنه يريد أن يسترد منها شيئاً) هات المحفظة . . .

السيدة : (تصرخ بفزع حقيقى) المحفظة ! . . . حد الله ما أخذت منه شيئاً . . .

الشرطى : (ممسكاً بيد المرأة من معصمها) لا تنبحى أيتها الكلبة . . . هات المحفظة . . . اذهبى إلى وكرك . . . وهات المحفظة (إلى الواعظ) كم جنيهاً كانت فى المحفظة ؟

الواعظ : لم يكن معى محفظة . . . أو الأصح لم يكن فيها نقود . . .

الشرطى : لا تمثل معى دور السيد المسيح . . . من لطمك على خدك الأيمن ، وحكاية مريم المجدلية لا تنفع فى هذا الحى . ومفتش القسم ، لا يأكل من هذا الكلام . . . لصوص وفتوات وعصبجية يجب القبض عليهم . . .

الواعظ : صدقنى لم يكن معى نقود .

الشرطى : قل هذا الكلام لغيرى . . . أنا أعرف أن الكنيسة وآباءنا الروحيين يعرفون كيف يجمعون المال طبعاً ليوزعوه على خراف

الرب الضعيفة . . . هل أتيت هنا لتشاهد سيقان ريتا وريرى . . . أم لتستدرجهن إلى الرب . . . بماذا ؟ . . . بطعام ونقود وكلام طبعاً . . .

الشرطى : (متجهاً إلى المرأة) لا تزالين هنا . . . اذهبي يا ابنة ال . . . هات المحفظة وإلا . . . كسرت رقبتك ورقبة أمك . . .

السيدة : (فى خوف) والله . . .

الشرطى : (صارخاً) اخرسى . . . لا تحلفى . . . ثم كيف تركت مكانك على عتبة منزلك . . . ألا تعرفين أن هذا ممنوع .

السيدة : كان الرجل مصاباً . . . وكان مطروحاً تحت الفانوس . . .

الشرطى : ومن الذى أصابه . . . من الذى طرحه . . . عفاريت خرجوا من الأرض . . . أليس رفيقك واحداً منهم . . . هم يضربون ويسرقون . . . وأنت تواسين وتمثلين دور الملاك . . .

السيدة : (وهى تبكي بكاء حقيقياً) والله . . .

الشرطى : (يقترب منها واضعاً عصاه تحت إبطه وبعصبية وضيق يصفعها بظهر كفه فيسيل دمها) اخرسى . . . مالك أنت والله . . .

الواعظ : (يقف منتفضا وبقوة مفاجئة وغضب يكاد يغلبه على أمره) لا تمد إليها يداً . . .

الشرطى : (وقد فوجىء بهذا الأمر) لا تتدخل فيما لا تفهم . . . (متجهاً إلى المرأة) ادخلى إلى وكرك . يا أنجس خلق الله . . وهات لى المحفظة . . . هذا الملاك الأسود لن ينفعك . . . وقد رأيت كيف حطم أنفه صاحبك وجرى .

الواعظ : (متجهـًا إلى الشرطى بخطوة جعلته يقف أمامه منه وجهـًا لوجه) أنا أمنعك . . .

الشرطى : (وقد ضعفت ثقته بنفسه) تمنعنى (يسحب العصا من تحت إبطه ويديرها فى الهواء) تمنعنى بأى حق ؟ ثم أرنى كيف تمنعنى . وأنت مرتكب مخالفة ؟ !

الواعظ : (فى توتر) افعل بى ما تشاء . . . ولكن دعها . . .

الشرطى : هذه اللبؤة ممنوعة من أن تتخطى عتبة بيتها . . . ولكنى ضبطتها تجلس معك ، هذا ممنوع . . . وأنت شريك .

الواعظ : (هادئـًا) أنا أعرف . . . قدنى إلى مركز الشرطة . . . ولكن لا تمد إليها يداً .

الشرطى : (وقد غلبته الحيرة) أنا هنا أنفذ القانون . . .

الواعظ : (فى هدوء) وأنا جئت لأتحدى القانون . . .

الشرطى : (متظاهراً بنفاد الصبر ويحاول أن يزيحه من طريقه فى رفق وعدم اكتراث) شبعنا من هذا . . . أنتم لاتصلون لشىء تضربون على أقفيتكم . . وتسرق محافظكم ، وتسيل دماؤكم . . . وتعطلوننا عن عملنا (منقضـًا على المرأة فجأة) سيرى أمامى . . . ادخلى إلى وكرك ، وأرينى أين خبأت المحفظة .

الواعظ : (خارجا عن حلمه ، ممسكـًا بيدى الشرطى) لم يكن معى محفظة ، أفاهم أنت ؟ يجب أن تفهم . . .

الشرطى : (مأخوذاً بقوة الواعظ البدنية) هيه . . . هيه . . . أكنت ملاكـًا أيها الأب المحترم . . . لك يدان قويتان . . .

الواعظ : (مكملا الكلام) وعند اللزوم أستطيع أن أضرب .

الشرطى : (ضاحكـًا بسخرية) تضرب ؟ ! أليس هذا ممنوعـًا . . .

عندكم ، أما إنكم تبيحون ضرب القانون ، وتفيضون حنانًا على نعاج الله الضالة . . . اللطف معكم لا ينفع . . . لا بد من شيء يعيدكم إلى عقولكم . . .

(تفتح المنازل أبوابها ويشاهد على باب أكثر البيوت نساء ، بعضهن كن ممن أطللن من النوافذ عند بدء المشادة . الشرطي ينظر إلى المرأة وقد اشتد سعالها واحتقن وجهها بالدم ، من فرط قوة نوبة السعال) .

الشرطي : مثلي . . . مثلي أيتها الحرباءة . . . إن ملاكك في غير حاجة إلى كل هذه الحيل . . .

الواعظ : (متأثراً للغاية) قليلا من الماء . . . أتريدين ماء ؟

السيدة : (شاعرة بخجل حقيق) ماء . . . أنا لم أحضر لك الماء الذي طلبته حتى الآن . . . كم أنا فظيعة !

الشرطي : كنت مشغولة بالمحفظة !

(تجري نحو بيتها فيجذبها الشرطي من يدها) ، إلى أين ؟

السيدة : سأحضر له ماء . . .

الشرطي : والمحفظة ؟

الواعظ : دعها . . . لم يكن معي محفظة . . .

(تجري ، المرأة في لهفة نحو بيتها فتنكفئ على وجهها فيعدو الواعظ نحوها . . . ويلملم أشياء وقعت منها . . . يرى منها تعويذة وصورة طفل . الواعظ يرد إليها التعويذة والصورة وقد اشتد سعالها فانحنت على نفسها حتى قارب رأسها ركبتيها . تقترب بعض النسوة قليلا من موضع سقوط المرأة ، في شكل دائرة ، ويحطن بها وبالواعظ وبالشرطي . . .

فترة صمت طويلة ، لا يفعل الشرطى خلالها إلا أن يعبث بعصاه فى شكل دائرة ، من العصبية والغيظ والحيرة) .

إحدى النسوة : (توجه الكلام إلى الشرطى) المحفظة . . . المحفظة . . . المحفظة . . . عفريت اسمه المحفظة . . . وهذا السعال الذى يمزق صدرها . . . لا . . .

الشرطى : هل أنا الذى نقلت إليها العدوى . . . انظرى من أى كلب أخذته . . .

المرأة الثانية : (وقد اقتربت من الشرطى والواعظ والمرأة ، ووصلت إلى مركز الدائرة) نعم أنت الذى نقلت إليها العدوى . . .

الشرطى : (ناظراً إلى الواعظ وضاحكاً بصدق) يا حضرة الواعظ . . . أهنئك . . . هذه مساعد لك . . .

الواعظ : (متجهاً إلى المرأة فى امتهان) أنا فى حاجة إليك . . .

المرأة : (غير ملتفتة إليه) لا تهمنى أنت . . . ولا الشرطى . . . كل منكما يساعد الآخر . . . هو يضرب ، وأنت تضع مرهما مكان الضرب . . . ونحن الذين نضرب !

الواعظ : (مأخوذاً) ماذا تقولين يا أختى ؟ . . .

المرأة : أقول هذه المرأة مصابة بالسل . . . ولكن يجب أن تعمل . . . وهى تعمل . . . الحكومة ترى عملها ضرورياً وأنت ترانا ضحايا ، والمجتمع يبصق علينا . . . ونحن فى مكاننا لا نتغير .

الواعظ : صحيح . . . صحيح وحق السماء . . .

المرأة : حق السماء وحق الأرض ، لا يهمنى . . . المهم أن هذه المرأة مصابة بالسل ، وعليها أن تسهر . . . وتسكر ، لأن عندها طفلا (تهجم على المرأة الساقطة فى الأرض

وتنتزع منها صورة الطفل ، وتلصقها بأنف الشرطى وأنف الواعظ) هل رأيت أجمل من هذا الطفل ؟ . . . إنه يتعلم بعيداً عنها . . . ومن أجله تعمل هذه المسكينة (يشتد السعال) .

المرأة : (تتوقف غاضبة) : احبسى هذا السعال . . . دعينى أتكلم .. إن صوت سعالك يشوش ذهنى . إن سعالها يستمر ، والشرطى معه عصاً يهددنا بها ، والواعظ يبكى ألماً . وفى داخل هذه البيوت أخريات فى طريقهن إلى السل والموت . . . لا العصا ولا الموعظة ! (ترمى بالصورة إلى الأرض فلا تمد يدها إليها) .

الشرطى : العصا هى وحدها التى تنفع حينما تقع على ظهر كلبة تنبح مثلك !

المرأة : كيف ؟ إذا لم أنبح ، فسيستمر سعال هذه . . . وستسمع سعال غيرها إن أردت .

الشرطى : فى داهية الجميع ! لماذا جئن إلى هنا ؟ فى المدينة عمل . عمل شريف . . .

المرأة : يا سيدى إنها قصة طويلة . وما نعمله يعمله غيرنا . . . بأسماء أخرى . ولكنها كلها دعارة . . .

(ينحنى الواعظ ويأخذ من المرأة الواقعة على الأرض صورة الطفل) .

الواعظ : ما أجمله ! ثم هذه التعويذة !

المرأةالثانية : (مستمرة فى الكلام) من تظننى يا حضرة الباشاويش . . . أنا آتية من المدينة . . . لقد كنت سيدة مجتمع . . . ودعنى أحدثك عن هذا المجتمع . . . كانت وظيفتى هناك

كوظيفتى هنا . . . كنت أعرض جسمى على زوجى فى الصالونات والحفلات وعلى أصحابه . . . نفس المهمة ! هناك كان أجرى عقد زواج وبيتاً فاخراً وسيارة وأكلا شهياً ، وحياة قلقة وخوفاً مستمراً ، ودسائس لا تنتهى . . . كنت مصيدة لزوجى ، أحضر له بجمالى الرجال ذوى الطموح السياسى ، والشبان الطامعين فىّ ، وبقدر ظرفى ولطفى ، وإثارتى للشهوات والأطماع ، يكبر مقدارى عند زوجى ، ويكبر مقدار زوجى عند المجتمع . . .

الزوج الغبى هناك الذى لا يستطيع أن يغمض العين عن ملاحقات الرجال لزوجته الجميلة ، وإلا لماذا يدفع مئات الجنيهات فى ثوب واحد ، يكشف عن كل ظهرها وكل صدرها . . . إذا لم تسدد هذه البضاعة المعروضة ثمنها كانت خسارة . . . السيدة الماهرة فى ذلك المجتمع الأنيق هى التى تصل إلى حافة الأغوار ، ولا تنحدر . . . أو التى تنحدر ، ولكن لا يسمع عن انحدارها أحد . أو التى تستطيع أن تحول فضائحها إلى أقاصيص فى الصحف ، لا تعرف الصحيح فيها من الكاذب .

الشرطى : (ينظر إلى الواعظ) هل يعجبك هذا يا سيدى ؟

الواعظ : (متأملا فى الصورة) ما أجمل ! طفل جميل (المرأة تسعل) .

المرأة الثانية : (تخطف منه الصورة) جميل أو غير جميل . . . اسمع الذى أقوله . . .

الواعظ : أنا سامع .

المرأةللواعظ : هل تفهم أنك تساعد هذا الشرطى ؟

الواعظ : قولى له . . . هو يرفض مساعدتى .

المرأة : (للشرطى) هل تفهم أن هذا الواعظ يساعدك ؟

الشرطى : (فى غطرسة) هذا يساعدنى ؟ إنه معطل ، وعاجز .

المرأة : (تضع يديها فى خاصرتيها وتوجه الكلام للشرطى والواعظ) وهل تعرفان أنكما تساعدان بعضكما بعضاً ؟ . قولا لى فى أى شىء ؟

الواعظ والشرطى : فى أى شىء ؟

المرأة الثانية : فى أن يبقى هذا الحى مفتوحاً . . . لا بد من مراحيض عمومية للرجال ؛ لا بد من مقلب لقمامات المجتمع . . . ولا بد من رجل بعصا يمنع زحف المراحيض ، ورجل بدموع ، يهدئ من صرخات ضمير المجتمع ، العصا والدموع وجها الصورة .

الواعظ : (محتجاً) . أنت لا تعرفين من أكون ؟ للسيدة (فى انفعال شديد) أنا جئت لأقوض القانون ، لأتحداه ، لأقف فى وجهه . . . جئت أقول له لا تمر . . . إن عصاك لا تمنع شرا ولا تكسو جائعاً ولا تخفف سعالا . . .

السيدة : (وأصابعها فى خاصرتها) حسناً . وبعد ؟

الواعظ : جئت لأقول لكن . . .

السيدة : (فى صبر نافد) نعم . . .

الواعظ : قفن على أقدامكن . . . أرفضن هذا العار . . . لا تخجلن من أنفسكن ، فإن المجتمع الذى قذف بكن إلى هذا أسوأ منكن بكثير ... إنه لا يحق له أن يحل سيور أحذيتكن

(تقوم المرأة الساقطة من الأرض على قدميها ، وتدور حول نفسها ، فترى هل وقع شيء منها) .

السيدة : (لزميلتها) قفى يا أختى . . . واسمعى معى .

الواعظ : (مسترسلا ومتحمساً) لكيلا يتكرر العذاب المسيطر هنا . . . لا بد من أن تأتى المقاومة من هنا .

السيدة : مقدمة جميلة . المهم الباقى .

الواعظ : إذا بدأنا حسناً انتهينا حسناً .

السيدة : لكى ننتهى حسناً لا بد أن نعرف مقدماً هذه النهاية .

الواعظ : لا يقتل الإنسان إلا نفسه ، ولا يساعد الإنسان إلا نفسه . القوة تصدر عنه والضعف يأتى منه . . .

السيدة : الله لا يسيئك . . . لا تدخلن فى هذه الدوائر . . . ماذا نفعل ؟

الشرطى : إن الحديث مسل للغاية . . . ولكنه يعطلنى عن عملى . . . وعملى هو أن أبحث عن المحفظة وأقبض على من سرقها ، وأحرر محضراً لهذه الحرباءة التى خرجت من وكرها ، لتصطاد هذا الأب المحترم . . . وأحرر محضراً لأنى جمعت كل هؤلاء (يشير إلى النسوة اللاتى خرجن من دورهن والتفنن حول الشرطى والواعظ) ، هذا وحده هو الطريق الذى يمنع شر هؤلاء . . ويمنع الأب المحترم وأمثاله من أن يدسوا أنوفهم فيما لا يعرفون . . . والآن لنبحث عن المحفظة . . . وعمن ضرب أبانا وألقى به فى الأرض ، (ينظر إلى المرأة الأولى) مع احترامى الشديد لسعالك ، وللطفل الجميل ، وللتعويذة التى تدل على أن بينك وبين السماء خيطاً رفيعاً لم ينقطع ، إلى آخر هذا الشعر . . .

أعطيني المحفظة .

الواعظ : (الشرطي) ياباشاويش .

الشرطي : أفندم . . .

الواعظ : أعظم تهاني . . .

الشرطي : شكراً ، ولكن لأي شيء هذه التهاني ؟

الواعظ : لأنك تعرف طريقك ولا تريد أن تحيد عنه . ما أجمل أن يكون الإنسان عالماً لما يريد ، وثابتاً على طريق .

الشرطي : وأعظم التمنيات لك ، بأن تعرف أنت أيضاً طريقك ، وتسير فيه ، ولا تضل في هذه الطرق المتشابكة .

الواعظ : أنا أعرف طريقي . . . ولكن بثبات أقل من ثباتك ، وبصلابة أقل من صلابتك ، وبوقاحة أقل من وقاحتك . . إن لم تضايقك هذه الصراحة .

الشرطي : (يضع يده على كتف الواعظ في مؤاخاة) بالعكس . . . هذه الصراحة تعجبني لأنها تمكنني من أن أقول لك . . . إن القانون في حاجة إلى أمثالك ، ليثبتوا للناس كم يقف القانون ثابتاً شامخاً . . . وكم يهذي أعداء القانون ، ويلعبون تحت أطراف أقدامه ، كنملة صغيرة تحت أقدام تمثال من الجرانيت !

المرأة : (ناظرة إلى الشرطي ، والواعظ قد تقاربا) ما أجمل منظركما وقد وقف أحدكما إلى جانب الآخر . . . دعوني أتأملكما . . نعم ، ما أشبه الواحد منكما بصاحبه .

الواعظ : (محاولا الابتعاد عن الشرطي ، فيمسكه الشرطي بيده) أنا أشبه هذا ؟

المرأة : (في هدوء وبحزم) نعم . . .

الواعظ : أنا ! أنا عدو القانون ! أنا جئت لأنقضه ! لأزيله . .
المرأة : بماذا ؟ بالدموع ؟
الواعظ : بل بالمقاومة . . .
المرأة : إذا كنت صادقاً فيما تقول ، فلتبدأ إذن من البداية .
الواعظ : أنا أبدأ من البداية . . .
المرأة : البداية فى الجانب الآخر من المدينة . . . إن الجانب الآخر من المدينة ، يزيح إلى جانبنا الجيف والقاذورات ، والخرائب وأوكار الجريمة ، والمرضى والمسلولين والمعتوهين ، فوفر دموعك ، واذهب إلى هناك . . . وتعال أدلك على العمل فقد كنت على قمة المجتمع سنين طويلة . . .
الشرطى : كفى عن الكذب . . . كذب ممجوج . . . هل يصدق أحد أن هذه كانت سيدة مجتمع ؟
المرأة : أنت لا تصدقنى (تخرج من صدرها قصاصة جريدة صغيرة قديمة) هذه صورتى . . . وهذا زوجى .
الشرطى : (يتأمل فى الصورة وفى المرأة) بعض الشبه . . .
المراة : (تخطف الورقة) صدق أو لا تصدق . . . لقد كنت هكذا ، وأصبحت الآن كما ترى . . . تحت وطأة مصيبة من مصائب المجتمع ، أسرفت فى الشراب ، ثم أدمنت المخدرات . . . زوجى تحطم فى مضاربة مالية . . . انتحر . . . بعت ما كان عندى . . . ثم تدهورت . . . قالوا عنى مجنونة وأرسلونى إلى مستشفى أمراض عقلية . . . ثم بدأت أعمل من جديد . . . عملى القديم . . . ولكن بصورة أخرى . . . فقدت الجمال والرشاقة والمغريات .
الواعظ : فى صوتك رنة صدق . . .

الشرطى : هذا هو الفارق بينى وبينك ... أنت تصدق كل ما يقال.

الواعظ : وأنت تكذب كل ما يقال . . . ولكنها صادقة .

الشرطى : صدق كما يحلو لك . (ينظر فى الساعة) . أتدرى كم الساعة . . . نحن فى آخر الليل .

الواعظ : حقاً ، إذن فهذه موعظة آخر الليل . . .

المرأة : وهل تريد أن تصل إلى خاتمة الموعظة .

الشرطى : وهل يمكن أن يكون لهذه الموعظة خاتمة ؟

المرأة : نعم . . .

الشرطى : أنا يهمنى قبل ختام الموعظة أن أعرف أين ذهبت المحفظة . وإلا اعتبرت نفسى شرطياً خائباً .

المرأة : أهنئك مقدماً يا سيدى على نجاحك .

الشرطى : (مهتماً) كيف ؟

المرأة : أهذه هى المحفظة التى تبحث عنها ؟

الشرطى : (يأخذ المحفظة ويتأمل فيها) أهذه محفظتك ؟ (للواعظ) .

الواعظ : (يمد يده إلى المحفظة ثم يثنيها بعد تردد) قلت لم يكن معى محفظة . . . .

الشرطى : (مبتسماً) الوصية رقم كم ؟ لا تكذب .

الواعظ : أنا لا أكذب .

المرأة : بل تكذب . . . وهل تعرف من الذى ضربك ؟

الواعظ : لا . . . لا . . . لا أريد أن أعرف .

المرأة : بل يجب أن تعرف . . . أنا التى ضربتك ، وأنا التى أخذت المحفظة . . .

كنت تسير فى الطريق . . . فأهويت عليك بعصا هكذا

. . . (تمثل بيدها) فوقعت في الأرض هكذا (تبسط يديها) فتأملت في وجهك . . . وأشفقت عليك . . . لقد كنت راقداً كملاك برىء . . . أخذت المحفظة لأعطيها هذه (تشير إلى المرأة الثانية) ولكن قبل أن أفعل لمحت قادماً من بعيد ، فاختفيت . . . فلما طال الموقف ، خرجت لأنهيه .

الشرطي : حسناً . . . إذن تقدمى معى . . .

الواعظ : إلى أين ؟

الشرطي : وهل هذه تحتاج إلى سؤال (يشتد سعال المرأة) .

المرأة الأولى: لا تصدقوها . . .

الواعظ : تأخذ هذه السيدة إلى أين ؟

الشرطي : إلى القسم . . . إلى المحاكمة . . . إلى السجن . ألا تعيش في هذه المدينة ؟

الواعظ : لماذا بحق السماء ؟

الشرطي : بحق الشيطان . . . أسئلتك يجن لها الجماد . . . لأنها ضربتك على رأسك هكذا (يمثل بعصاه) فانطرحت على الأرض هكذا (يمثل كما فعلت المرأة) ثم مدت يدها إلى جيبك فأخرجت المحفظة هكذا (يلوح بها) .

الواعظ : شيء غريب أتسرق محفظة لم أكن أحملها ولم أرها ؟

الشرطي : ولكن ماذا تقول في اعتراف هذه السيدة ؟

المرأة الأولى: إنها تكذب . . .

الشرطي : وما مصلحتها في هذا الكذب ؟

الواعظ : ليس ضرورياً أن تكذب بسبب . المجتمع يعلمنا عادة الكذب . نحن نكذب لمجرد الكذب . إنه متعة في ذاته !

المرأةالأولى: ألم تقل إنها كانت سيدة مجتمع ، فلم تصدقها ؟ ألم تقل لها إنها تكذب ؟ لماذا تكذبها حين تدافع عن نفسها ، وتصدقها حين تدين نفسها ؟ !

الشرطي : وأنت أيضًا تتفلسفين . . .

المرأةالأولى: أنا لا أتفلسف . . . أنا أعترف .

الشرطي : بماذا ؟

المرأةالأولى: بأني أنا التي سرقت هذه المحفظة وأعطيتها صاحبتي . . .

الشرطي : أنتم عصبة مجانين . . .

المرأةالأولى: أنا أقول الحقيقة . . .

الشرطي : لماذا تتهم هذه المرأة نفسها ؟

المرأةالأولى: (تضع يدها قريبًا من أنفها) الكوكايين .

الشرطي : ماذا ؟

المرأةالأولى: الكوكايين . . .

الشرطي : يعني تخرف . . .

المرأةالأولى: لا . . . أبداً إنها تريد أن تذهب إلى السجن . إنها لا تستطيع أن تقاوم وفي السجن . . . لن تجد ما تشمه . ستعالج هناك . . .

المرأةالثانية: بل لا تصدقها . . . المحفظة معي أنا . . . إنها تريد أن تذهب إلى المصحة . . . ولكنها لا تستطيع . . . يجب أن تبقى لتنفق على ابنها . . . السجن سيقتلها على الرغم منها . . .

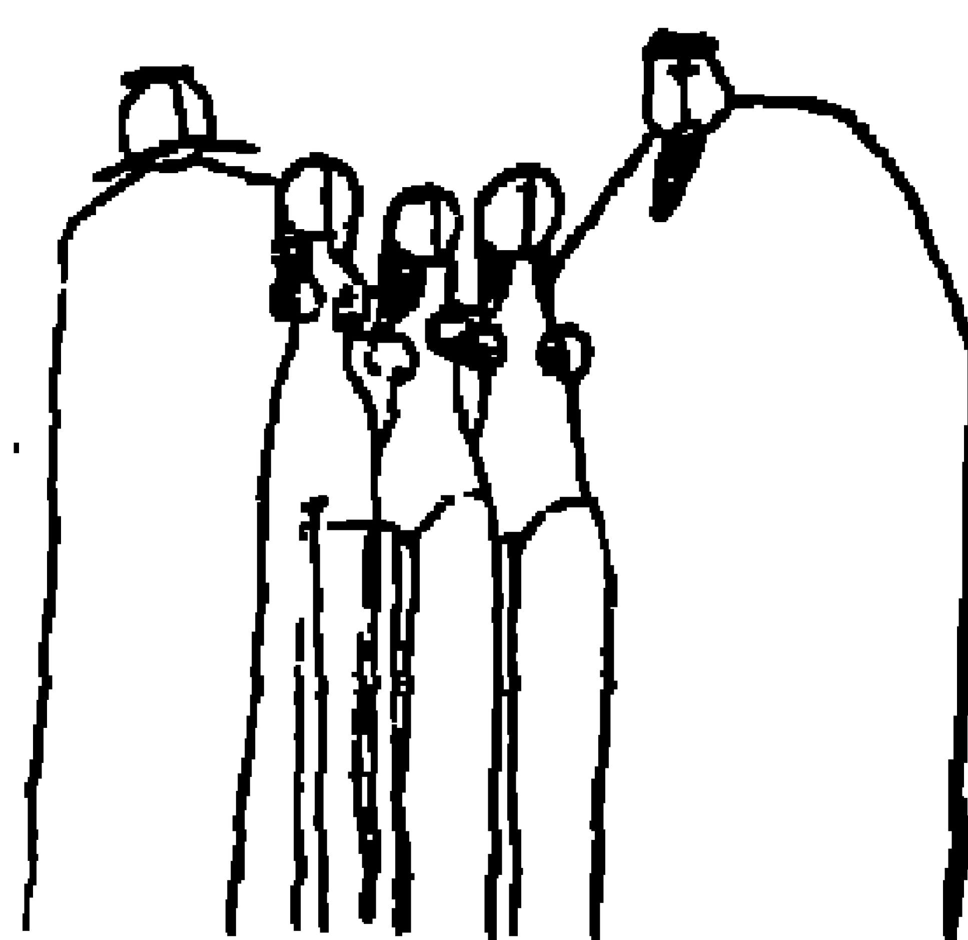
(الشرطي يتجه إلى النسوة اللواتي استدرن حول الواعظ والمرأتين) .

الشرطي : من منكن تعرف الحقيقة ؟

الجميع فى صوت واحد : كلنا نعرفها . . .
الشرطى : إذن قولوها . . .
الجميع : هل نقول ؟
الواعظ : أريد أن أعرف . . .
الجميع : (فى صوت واحد) تريد أن تعرف أى شىء ؟
الواعظ : هل كانت معى محفظة ؟
الجميع : هل نقول ؟
الواعظ والشرطى : نعم قولوا . . .
الجميع : وما الفائدة ؟
الواعظ : الحقيقة يجب أن تعرف .
الشرطى : والمجرم يجب أن يعاقب .
الجميع : والمرأة المصابة بالسل ؟
الشرطى : لا شأن لى بها .
الواعظ : أنا سأداويها .
الجميع : بماذا ؟
الواعظ : بكلامى وإيمانى .
الجميع : إذن لن نقول . . .
الشرطى : قولى لكيلا يظلم برىء .
الجميع : أولا من هو الظالم ؟
الشرطى : من يخالف القانون .
الجميع : ومن يضع القانون ؟
الواعظ : الأقوياء فى المجتمع .
الجميع : وهل الأقوياء عادلون ؟
الواعظ : العادلون هم الأقوياء .

الجميع : كفى لعباً بالألفاظ .
الواعظ : لماذا تهزءون بى ؟ .
الجميع : لأنك تقول ولا تعمل .
الواعظ : لقد جئت لأعمل . . .
الجميع : بمحفظة ونقود .
الواعظ : أنا الآن أريد أن أعمل . . .
الشرطى : لقد أخذتم منه نقوده . . .
الجميع : هو يقول إنه لم يكن معه نقود .
الشرطى : ولكن المرأة تقول إنها أخذت النقود .
الجميع : وتقول الثانية إنها هى التى أخذتها .
الواعظ : وأنا أقول إنى جئت وليس معى قرش واحد ، النقود سموم .
(المرأة يشتد سعالها) . . .
الجميع : هذه يشتد سعالها . . . وتلك تريد أن تذهب إلى المصحة .
الشرطى والواعظ : ونحن نريد أن نعرف الحقيقة .
الجميع : وهذه موعظة آخر الليل .
المرأة الأولى : (بعد نوبة سعال) : وأنا لم أعطك الماء الذى طلبته .
الواعظ : ولكن موعظة آخر الليل أعطتنى ماء وغذاء ونوراً ! .

ستار



النحو والموت

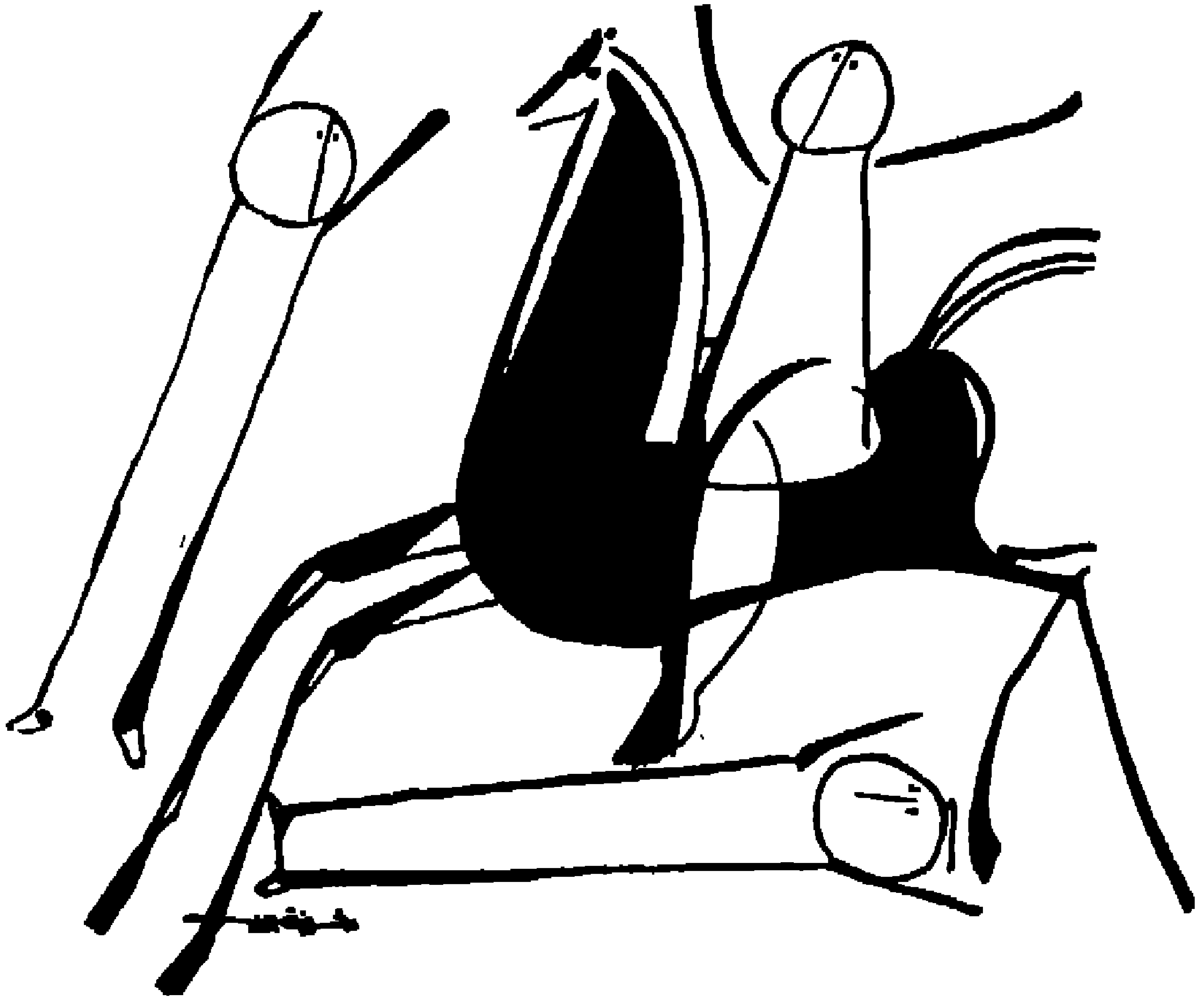
المشهد الأول

(صف من الجنود يبدو عليهم الإعياء والتعب ويظهر للوهلة الأولى ، أن ملابسهم بقيت على أجسادهم فترة طويلة ، فاتسخت كما يظهر أن هذه الملابس لم تصنع أصلا لهم ، فهى لا تتناسب مع أجسامهم ، لا طولا ، ولا عرضاً . فبعضهم يكاد يتعثر فى ملابسه ، والبعض الآخر ، يكاد لا يستطيع الحركة لضيق بذلته ، والمفروض أن يقفوا فى انتظام ، مشدودى القامة ، لكن التعب منعهم ذلك فوقفوا فى استرخاء ، بعضهم خارج الصف قليلا وبعضهم خلفه قليلا ، وبنادقهم التى يمسكون بها ، ليست من طراز واحد . . فمنها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها القديم ، ومنها الحديث ، وهى على العموم مستهلكة .

ويقف على رأس الصف ، ضابط شاب ، ملابسه أحسن حالا من ملابس الجنود ، وإن كانت فى مثل ثيابهم قذارة وهو على الرغم مما يبذله من التظاهر بالحزم ، وارتفاع روحه المعنوية ، يشعر بالاشمئزاز والضيق ، فهو لم يتناول طعاماً كافياً منذ أيام ، وعلبة سجائره فرغت ولم يجد ما يحلق به ذقنه فطالت . ومع ذلك لم يصب بانهيار جوهرى . فهو راغب فى تحسين حالة جنوده ، وتزويدهم بالطعام وبالثياب النظيفة والسلاح المناسب والذخيرة الكافية . الضابط فى حدود الخامسة والعشرين من عمره ، يشهر سيفاً فى يده فى حين يلتصق غمد السيف الطويل بساقه المواجهة للنظارة .

أمام الجنود ضابطهم ، وهو كهل ، يرتدى بذلة واسعة ، تصل أكمامها إلى أطراف أصابعه ، ويغطى طرف بنطلونها حذاءه القديم الممزق . . الضابط فى نحو الخمسين ، تغطى شواربه شفتيه ، ويضع على صدره « ميداليات » كثيرة . .

يدخل إلى المسرح من الجانب الأيمن ، شاب ذراعاه خلفه يدفعه جندى طويل عريض الأكتاف ، والشاب المكتوف اليدين ، يكاد ينكفئ على وجهه ، إذ يدفعه الجندى من الخلف وحينما يرى الجنود تزوغ عيناه) .



الضابط الكهل (للضابط الشاب) : الحكم .

الضابط الشاب (فى لهفة) : الحكم (يبحث فى جيبه ثم يبدو عليه الارتباك) .

الضابط الكهل (بصوت عال) انتباه . كتفًا سلاح (الجنود يرفعون البنادق إلى أكتافهم ! يقترب من الضابط الشاب ويقول همسًا) ألم تجد الحكم !

الضابط الشاب (وهو يبحث فى جيوبه مرتبكًا) : إنه هنا . . . إنه معى .

الضابط الكهل : أسرع . . .

(يدرك الجنود والمحكوم عليه أن فى الأمر شيئًا) .

الضابط الكهل : ألم تجده ؟

الضابط الشاب (وقد زاد ارتباكه) : عجيبة ! . . . أين ذهب هذا الحكم اللعين .

الضابط الكهل (متضايقًا) : ألا يكون فى مكتبك ؟

الضابط الشاب (وقد تصبب عرقًا) : لا . . . لا . . . كان معى الآن . . .

الضابط الكهل : أسرع . . . الموقف لم يعد يحتمل . . .

الضابط الشاب : (وقد يئس من العثور على الحكم) إنى أحفظه عن ظهر قلب . . . الأحكام كلها واحدة . . . أحفظ الصيغة جيداً . . . لا ينقصنى إلا معرفة اسمه . . . (مشيراً إلى المحكوم عليه بإشارة من عينه) سله عن اسمه .

الضابط الكهل : (وقد أخذ صوته يعلو) ماذا تقول أيها الملازم . . . لم يبق إلا هذا . . . ليس لدينا سلاح . . . ولا طعام . . . وانقطعت هنا المواصلات . . . ولم يكن باقيًا لنا إلا أن

أوراقنا سليمة . . . وأعمالنا المكتبية ممتازة .

المحكوم عليه : (يتقدم نحو الضابط الكهل ومن خلفه الجندى الضخم) ماذا حدث ؟

الضابط الكهل : (مأخوذاً) ماذا حدث ؟ (بعد لحظة ارتباك) ما شأنك أنت ؟

المحكوم عليه : (مندهشاً فى نبرة احتجاج) ما شأنى : (ينظر إلى الوثاق الذى يربط ذراعيه) شأن من إذن ؟ (الجندى يجذبه من الخلف) .

الضابط الشاب : (يهمس فى أذن الضابط الكهل) نسأله عن اسمه ؟

المحكوم عليه : تريدون أن تعرفوا اسمى . . . بكل سرور . . . إنه لشرف عظيم أن أقدم لكم نفسى ، لقد صور لى الغرور أنكم تعرفوننى . . .

الجندى الحارس : (يلكزه) ألا تخجل . . . ضع لسانك فى حلقك . . .

المحكوم عليه : إنه فى حلقى يا سيدى أنت الذى ستخرجه من حلقى . . . ثم لست أرى داعياً للخجل . . . فالسادة (يشير إلى الضابطين والجنود) وقعوا فى ورطة . . . والواجب يدعونى للمساعدة . . .

الضابط الكهل : (شاعراً بالخزى) مساعدة . . . أى مساعدة ؟ هل طلب منك أحد شيئاً (بحزم) قف مكانك واسكت . . .

المحكوم عليه : إلى متى يا سيدى ؟ هل تظن أن النظر إلى هؤلاء الجنود ومعهم بنادقهم شىء لذيذ . . . لو كنت متفرجاً لتغير الأمر . . .

الضابط الكهل : (صارخاً) اسكت ؟

(الجندى الحارس يلكز المحكوم عليه بشدة) .

المحكوم عليه : (محتجاً) أنا متظلم يا سيدى القائد . أرفع شكواى
إلى الرئاسة . لأمثالى حقوق يجب أن تحترم . . .
الضابط الشاب : (يخرج ورقة من جيبه) لقد وجدته . . .
الضابط الكهل : (يتنفس الصعداء) الحمد لله . . . (يتهيأ لتنفيذ
الحكم) انتباه !
(الجنود يشدون قامتهم من جديد بمجهود يبدو شاقاً
والجندى الحارس يمسك المحكوم عليه من كتفيه ، ويوقفه
فى منتصف المسافة بين نهاية المسرح والجنود . ويتهيأ
الضابط الشاب لتلاوة الحكم . ثم يظهر عليه الارتباك) .
الضابط الكهل : (بعد أن انتظر فترة أن يتلى الحكم . وهو مشدود القامة :
فلما لم يقرأ الضابط الشاب شيئاً سأله همساً ، وهو منتصب
القامة) أليس هو الحكم ؟
الضابط الشاب : (هازاً رأسه فى أسى) لا . . .
المحكوم عليه : (وقد أدرك تماماً سر اضطراب الضابطين) إن هذا
الموقف طال أكثر مما يجب .
الضابط الكهل : (مخاطباً نفسه) لك حق . . .
المحكوم عليه : مرة أخرى أعرض عليكم المساعدة .
الضابط الكهل : (وقد أصبح أكثر استعداداً لقبولها) مساعدة مساعدة !
ما هى المساعدة التى تريد عرضها . . .
المحكوم عليه : (وقد قرر الاستفادة من الموقف) قبل كل شىء أنا لم
أتنازل بعد عن تظلمى . . . لقد اعتدى على حقوقى . . .
ولأمثالى حقوق . . . فلا أقل من أن نموت بشىء من الاحترام
. . . فاللكزات التى نالت كتفى . . . هى اعتداء على القانون
على شخصى . على القانون فى شخصى .

الجندى الحارس : (مهتاجًا) إذا لم تسكت سأقرض زورك . . .
المحكوم عليه : الله . . . الله . . . ألم يعد للقانون حقًا وجود . . .
كيف تقرض زورى يا سيدى . . . وماذا سيفعل هؤلاء الجنود . . . إنهم أربعة وعشرون جنديًا . . . إن قتلى بالطريقة التى تقترحها هى بلا شك أمتع من ضربى بالرصاص .
(الجنود يضحكون) . . .
الضابط الكهل : (يصرخ) أيها الملازم . . . أسرع إلى مكتبك وأحضر الحكم . . . أسرع . . . أسرع . . .
الضابط الشاب : (متردداً) إنه . . .
الضابط الكهل : (صارخًا) نفذ الأمر يا حضرة الملازم .
(الضابط الشاب يجرى والسيف يحدث صوتًا وهو يصطدم بساقه . . .)
المحكوم عليه : أنا أريد توفير الجهد . . . سأخبركم باسمى . . .
(الضابط الشاب متوقفًا) .
الضابط الشاب : أنا أحفظ . . .
الضابط الكهل : (صارخًا) يا حضرة الملازم نفذ الأمر . . .
(الضابط الشاب يجرى نحو الباب الأيسر) .
المحكوم عليه : (موجهًا الحديث إلى الضابط الكهل) هل تسمح لى بسؤال . . .
الضابط الكهل : (لا يرد) .
المحكوم عليه : أنا أعرف الحكم . . . ولا اعتراض لى عليه . . . لا داعى للتلاوة . . . لا داعى والله . . .
الجندى الحارس : (يدفعه) اسكت . . . من أفهمك القانون . . .

المحكوم عليه : (ملتفتاً إليه) وضربى . . . فى القانون أيضاً ؟ . . .
الجندى الحارس : أنت مجنون ؟
المحكوم عليه : طبعاً ؟
الجندى الحارس : (يضحك مقهقهاً) طبعاً ؟
المحكوم عليه : أربعة وعشرون جندياً ... وملازم وقائمقام ... وأنت . . . وتريد منى أن أبقى عاقلا .
الجندى الحارس : (وقد بدا عليه أن الحديث طاب له) ولكنك موافق على الحكم . . .
المحكوم عليه : جداً . . .
الجندى الحارس : (مقهقهاً والجنود يضحكون معه) أنت تريد أن تموت .
المحكوم عليه : (فى هدوء) أبداً .
الجندى الحارس : ولكن الحكم أمر بموتك . . .
المحكوم عليه : أنا عارف . . .
الجندى الحارس : إذا كنت تعرف أنه حكم عليك بالموت . . . وأنت لا تريد أن تموت . . . فكيف تكذب علينا وتقول إنك لا تعترض عليه . . .
(الضابط الكهل استسلم للموقف أول الأمر ثم لذت له المحاورة فنسى نفسه) .
المحكوم عليه : أنا لا أعارض لأنه لا فائدة . . . ماذا تملك أنت . . . أو يملك هؤلاء المساكين الذين لا يجدون ما يأكلونه ، فشغلوهم بضرب الناس بالنار . . .
(الجنود يقهقهون ويخرجون عن الصف) .
الضابط الكهل : (فى غير عنف وبحزم يتظاهر به فقط) كل فى مكانه . . .

المحكوم عليه : (موجهاً الحديث إلى الحارس) لما ضربتنى اعترضت...
الجندى الحارس : صحيح .
المحكوم عليه : لأن فى الاعتراض فائدة . . .
الجندى الحارس : ولكنك ستموت . . .
المحكوم عليه : من يدرى ... إن الضابط يذهب ولم يعد . . . قد لا يجد الحكم . . . وقد لا يكون هناك حكم . . . ولذلك أنصحك أن تفك وثاقى . . . هذا الرباط غير قانونى . . . وقد يتهمك أحد بأنك عذبتنى . . . عذبت رجلا بريئاً لم يرتكب ذنباً . . .
الجندى الحارس : (بدا عليه الانشغال) إن تعذيبك حلال . . .
المحكوم عليه : حلال أوحرام هذه مسألة قانونية ... وأنا وأنت لا نفهم فى القانون . . . المهم هل عندك حكم لتربطنى هكذا . . . حل الرباط . . . ودعنا نتفاهم كآدميين . . . (موجهاً الحديث إلى الضابط الكهل) يا سيدى القائد أرح الجنود . . إن التعب يكاد يثب من وجوههم . . .
الضابط الكهل (ناظراً إلى الباب الذى خرج منه الضابط الشاب) .
المحكوم عليه : يا سيدى الضابط . . . إنه أضاع الحكم . . . صدقنى . . .
الضابط الكهل : (هازاً رأسه فى استسلام) لقد أصبحت مسخرة . . .
المحكوم عليه : إنها دائماً مسخرة (الجنود يضجون بالضحك ويتركون بنادقهم على الأرض) .
الضابط الكهل : دائماً مسخرة .
المحكوم عليه : طبعاً . . . إنكم تجمعون أربعة وعشرين جندياً لتقتلوا

رجلا واحداً . . . رجلا واحداً مربوط اليدين مذعوراً . . .
يدفعه عملاق فى ظهره . . . هل تريد مسخرة أكثر من
ذلك . . . لماذا لم تقتلونى فى الزنزانة . . . برصاصة واحدة
. . . عند الفجر والناس نيام ؟ . . أليس هذا أوفر . . .
وأيسر . . . وأقرب إلى المعقول ؟ . . .

الضابط الكهل : أنت تهذى . . .

المحكوم عليه : أبداً . . . أنا عاقل . . . أعقل منكم . . . وإليك
الدليل . . . أحضرتمونى على هذه الصورة وجمعتم هؤلاء
الجنود المساكين المتعبين ثم . . . كانت المسخرة . . .

الضابط الكهل : (هازًّا رأسه) لك حق .

المحكوم عليه : (مسروراً من اضطرار الضابط الكهل لقبول الأمر الواقع
فيقترب منه والعملاق من خلفه) هل عندك عقب سيجارة . . .

الضابط الكهل : (محتجًا) عقب سيجارة . . .

المحكوم عليه : أنا مقدر للظروف . . . من أين السجائر وأنتم هنا وحدكم
. . . والاتصال مقطوع . . . والتموين مقطوع ؟ . . .
كل شيء مقطوع : . . ما عدا تنفيذ حكم الإعدام . . .

الجلاد : (ضاحكًا وقد سر من نكتته) ولهذا سنقطع رقبتك . . .

الضابط الكهل : (منتهراً الجلاد) ماذا أصاب عقلك ؟ . . .

الجلاد : (يلكز المحكوم عليه بيده) ابن الـ ... لا يكف عن الثرثرة . . .

المحكوم عليه : (يلتفت إليه ، وينهره مدعيًا الغضب) إياك أن تمد
يدك إلى . . . أنا رجل برىء . . . وكل ضربة منك
ستحاسب عليها أمام محاكم الدولة (ينظر إلى الجنود) أيها
الجنود كونوا شاهدين أنا مربوط اليدين بلا ذنب . . . وأنتم
واقفون بلا سبب . . .

الضابط الكهل: (يهوله الموقف فيمسك المحكوم عليه من تلابيبه صارخـًا)
هذه ثورة . . . هذا تحريض على الثورة . . . فاهم . . .
إننى سأطلق على رأسك ألف رصاصة . . . فاهم . . .
لعنة الله على الحكم . . . على الأحكام كلها . . . على
المحاكم . . . والقضاة . . . إلا التحريض على التمرد . . .
إلا التحريض . . .
(الجنود يصيبهم وجوم . . . ويقفون فى الصف أحسن
نظامـًا مما كانوا . . .)

(يدخل الضابط الشاب ويبدو عليه إعياء شديد) .

الضابط الكهل : (يقترب منه ويكلمه همسـًا) هل وجدته ؟
الضابط الشاب : (لا يرد) . . .
الضابط الكهل : (مرتبكـًا ومنفعلا ومتلهفـًا) ماذا تقول ؟
الضابط الشاب : (لا يتكلم ويهز رأسه علامة النفى) .
الضابط الكهل : وجدته ؟ .
الضابط الشاب : (بصوت خافت) لا . . . لم أجده . . .
الضابط الكهل : إن هذه حشرجة ميت . . . لا صوت ضابط . . .
قل إنك لم تجده . . .
الضابط الشاب: (فى عصبية) أقول لم أجده . . . (ثم كأنه يتحدى)
حسنـًا لم أجده . . .
الضابط الكهل : (فى صوت مرتفع) الله . . . الله . . . عندك الجرأة
لتقول ذلك بهذا الصوت العالى . . .
الضابط الشاب : (وكأنه لم يعد يهتم) لقد قلت لك بصوت منخفض
فأمرتنى أن أرفع صوتى . . . لقد سخرت منى يا سيدى
الضابط . . . (فى عصبية شديدة) أنا لم أجد الحكم . . .

ضاع منى . . .

الضابط الكهل : يا حضرة الملازم . . . حاسب فى كل كلمة تقولها . . . إنك تعرض نفسك . . .

المحكوم عليه : (متدخلا) لا تصرخوا هكذا . . . لا تعكروا دمكم . . . الأمر أيسر مما تظن . . . المسألة بسيطة . . . بسيطة للغاية . . .

الضابط الكهل: (ينظر إليه والانفعال يكاد ينفجر من صدره ، وأوداجه منفوخة وعروق صدغيه نافرة ، وصدره مرتفع كديك رومى منتفخ) بسيطة . . . بسيطة . . . أعطنى مسدساً . . . سأنهى الموقف برصاصة . . .

المحكوم عليه : (باطمئنان ملؤه السخرية) خيراً تفعل . . .

الضابط الكهل: سأضرب رصاصة هنا (مشيراً إلى رأسه هو) .

المحكوم عليه : (متظاهراً بالفزع) لا سمح الله . . . لا سمح الله . . . وماذا فعلت سعادتك . . .

الضابط الكهل : (غير ملتفت إلى سخافة الحوار) ماذا فعلت؟ لقد أضعت الحكم . . .

المحكوم عليه : (فى نفس الاطمئنان الساخر) نطلب صورة أخرى . . . الأمر سهل . . . والآن هل تريدنى . . . أو أذهب (مشيراً بيديه المقيدتين إلى الناحية التى أتى منها) .

(الجنود يضجون بالضحك ، ويخرجون عن الصف والضابط الكهل ينظر إليهم ، ولا يستطيع أن يقول شيئاً لهم لشعوره بخروج الموقف من يده) .

المحكوم عليه : دعهم يضحكون . . . إنهم لم يأكلوا منذ يومين . . .

الضابط الكهل: ومن أخبرك بهذا أيها . . .

المحكوم عليه : وهل أنا فى حاجة إلى من يخبرنى . . . أنا أيضاً لم آكل . . هل سرقتم نصيبى ؟ هل أردتم أن أموت جوعاً . . . ربما كان ذلك أوفر !

الضابط الشاب : (صارخاً فى وجه الجلاد الذى اتجه نحوه فى خطوة سريعة) ما هذا ؟ . . . ما الذى فى يدك ؟ . . . يدك اليمين . . .

الجلاد : (ينظر فى يده مأخوذاً ولا يجيب) .

الضابط الشاب : (ينتزع الورقة من يده ويبسطها فى انفعال شديد ويصرخ وهو يكاد يقفز) انظر ... انظر ... انظر ..

الضابط الكهل : ماذا جرى ؟ . . . هل جننت يا حضرة الملازم ؟ اتزن . . .

الضابط الشاب : (يقرب الورقة من أنف الضابط الكهل) انظر . . . لقد وجدته . . . هو . . . هو . . . (يضحك بعصبية شديدة) .

الضابط الكهل : (يأخذ الورقة من يده ، فتبدو عليه دهشة تنقلب إلى فرحة تغمر كل وجهه ، ويجد صعوبة بالغة فى ضبطها وإخفائها) هذا هو الحكم . (فى صرخة عصبية) انتباه .

(الجنود يعلوهم وجوم ، يكاد يكون أسفاً لعثور الضابط على الحكم . . . الضابط الكهل يستعيد نفسه بنفسه ، فيذهب عنه الاضطراب شيئاً ، فشيئاً ، وتبرز بطنه ، ويعلو صدره ، ويشد قامته ، وتسود وجهه غلظة وتجهم ويوجه الحديث إلى الضابط الشاب) .

الضابط الكهل : اتل الحكم .

(الضابط الشاب مشغول بتلاوة الحكم لنفسه بصوت غير مسموع . وهو لا يكاد يصدق عينيه . ولذلك فهو لا يسمع كلام الضابط الكهل وهو يأمره بتلاوة الحكم) .

الضابط الشاب : (يرفع عينه عن الحكم . ويدير نظره فى المكان . وكأنما يستيقظ من النوم) هه . . .

الضابط الكهل : (فى انفعال ملؤه الغضب . وبصوت أعلى) ألا تسمع يا حضرة الملازم . . . قلت اتل الحكم . . .

الضابط الشاب : (لا يزال مشغولا بالورقة التى بيده ، ثم يرفع عينيه مرة أخرى عنها ويتجه إلى الجلاد وهو يضغط على شفتيه) كيف مددت يدك إلى الحكم . . . من الذى أمرك أن تأخذه . . . أنت تستحق الجلد . . . أنت جلاد . . . اذهب وقشر بصلا . . .

(يعود المرح قليلا إلى الجنود فيضحك بعضهم ضحكات مسموعة ، وبعضهم يضحك ضحكات خافتة ، والثالث يود أن يضحك ، ولكنه لا يجرؤ . ويجرى الضابط الكهل ناحية الشاب ويضغط على ذراعه . . .)

الضابط الكهل : (همساً) هل هذا وقته ؟

الضابط الشاب : (غير ملتفت إلى كلام رئيسه وموجهاً الكلام إلى الجلاد) من الذى عينك جلاداً . . . اذهب إلى بيتكم ورب دجاجاً . . . اذهب إلى الزريبة ، وعش مع الثيران . . .

الجلاد : (وقد خرج عن طوره لشدة الحملة عليه) دجاجاً ؟ أين هو الدجاج . . . ؟ لم يعد فى الناحية كلها فرخة واحدة . . .

الضابط الكهل : ما شاء الله ! . . . ما شاء الله ! . . . لم يعد باقياً إلا هذا . . . اسكت يا حضرة الملازم . . . (متجهاً إلى

الجلاد) واسكت أنت . . .

الجلاد : (مستمراً فى انفعاله غير مكترث بنظرات الغضب من الضابط الشاب) ثيران . . . أى ثيران . . . لقد ماتت العجول . . . جوعاً . . . كما نكاد نموت نحن . . . (تتغير لهجته) ماذا جرى لأمى وأولادى ... كيف سيجدون لقمة العيش فى هذه المجاعة . . . لقد تركتهم ولحم أبدانهم تكشف عنه خرقهم المهلهلة (يكاد يبكى) . . .

المحكوم عليه : (يواسى الجلاد ويتجه إلى الجنود . وإلى الضابطين) أنا فى غاية الخجل . . . أمر مخجل للغاية . . .

الضابط الكهل : مخجل . . . أنت مجرم ، ومحكوم عليك . . . ومهمتك أن تموت . . . عليك أن تموت... تموت فقط . . . هل سمعت ؟ . . .

المحكوم عليه : (غير متأثر بثورة الضابط الكهل) أنا تحت الأمر يا سيدى القائد . . . تحت أمركم . . . أنا لم أتأخر ولكنكم أنتم الذين خلقتم هذا الموقف المحير . . . لقد اشترطتم أن تجدوا الحكم لأموت . . . وقد تساهلت معكم ... والجلاد مسكين . . . تذكر أمه وأهله حينما ذكر الضابط الشاب الدجاج والثيران . . . (يتجه إلى الجلاد ويحاول أن يربت على كتفه بيديه المربوطتين) . . .

الجلاد : أولادى . . . ماذا جرى لكم يا أولادى ... يا مساكين ... يا جياع . . . يا عرايا . . .

(الجنود يضحكون ويخرجون من الصف . . . ويقترب بعضهم من الجلاد ، ويبدءون يواسونه) .

أحد الجنود : لا . . . لا . . . كن شجاعاً . . . كلنا فى الهوى سوا . .

أنا لم أسمع عن أخى خبراً . . .

جندى ثان: وأنا . . . تركت زوجتى وبطنها هكذا . . . (يشير بيده فى الهواء . فيضحك الجنود فى صوت مرتفع . وتقع بندقية على الأرض من يد أحدهم) .

الضابط الكهل : (ناظراً إلى الضابط الشاب) مبسوط . . .

الضابط الشاب : هذا الحيوان يأخذ الحكم من فوق مكتبى . . . وكأنه قد ابتلع مخدراً . . .

المحكوم عليه : لقد وجدنا الحكم . . . ولم يبق إلا التنفيذ .

جندى ثالث : أنت مستعجل . . . اصبر قليلا . . .

المحكوم عليه : لقد صبرت . . . عودوا إلى أماكنكم ، وهيا لنفرغ من هذه المهمة . . .

الضابط الكهل : (يهز رأسه . ثم يعبث بطرف شاربه) هل أنت مجنون ؟ . . .

المحكوم عليه : (فى بساطة تامة وعدم مبالاة) أبداً . . . لماذا تسأل هذا السؤال ؟ . . .

الضابط الكهل : (ضاحكاً ضحكة مقتضبة) مهمة . . . أية مهمة التى تريد أن نفرغ منها . . . المهمة أن تموت . . .

المحكوم عليه : أنا عارف . . .

الضابط الكهل : وإذا كنت عارفاً . . . فلماذا العجلة ؟

المحكوم عليه : موتى عقد الأمور . . . فالضابط كان فى ورطة ، ولما أخذ الله بيده . . . وقع الجلاد فى ورطة . . . وإذا خرج منها فسيقع الجنود فى ورطة ثالثة . . . فقد خرجوا من الصف ، وضحكوا . . . وهذا مخالف للنظام . . .

الجلاد : (فى ضحكة تكاد تكون جنونية) وهل النظام يهمك . . . الله

يلعن أهلك . . .

المحكوم عليه : (ناظراً للضابط الشاب) انظر كيف فقد الرجل أعصابه (إلى الضابط الكهل) الذى يهون الأمر . . . أننى عندما أنسحب من هنا . . . لن يعرف أحد شيئاً مما حدث . . .

الضابط الكهل : (منزعجاً) تنسحب . . . كيف تنسحب ؟ . . .

المحكوم عليه : أعنى عند ما . . . عند ما . . . عند ما . . .

الضابط الكهل : (متضايقاً) عند ما . . . عند ما . . . انطق . . .

المحكوم عليه : عند ما أموت . . .

الضابط الكهل : (كأنما فهم شيئاً غاب عن ذهنه) آه . . . (للضابط الشاب) اتل الحكم . (إلى الجنود) انتباه . (الجنود يعودون إلى الصف فى غير اكتراث ، وبعدم احترام ، والبنادق فى أيدى بعضهم ، وعلى أكتاف البعض الآخر) .

الضابط الشاب : (موجهاً الحديث إلى المحكوم عليه) هل أنت ضاحك ابن صعب ؟ . . .

المحكوم عليه : (متظاهراً بعدم السمع) ماذا ؟

الضابط الشاب : (فى اشمئزاز ظاهر) أنت ضاحك بن صعب ؟ . . .

المحكوم عليه : (بعد تأمل قليل) لا يهم . . . لا يهم . . .

الضابط الشاب : (بنفس عدم المبالاة والاشمئزاز) ما هو الذى لا يهم ؟ هل أنت ضاحك ؟ . . .

المحكوم عليه : (ضاحكاً) كنت أتمنى أن أكون ضاحكاً ، أنا فاتك ابن صقر ... لكن لا يهم ... مجرد رداءة فى الخط ...

الضابط الشاب : (يدقق فى الحكم) صحيح ... صحيح . . .

فاتك بن صقر . . . فاتك بن صقر . . . ما هذه الأسماء
الغريبة ؟ . . .

المحكوم عليه : متأسف . . . على كل حال أهلى لم يكونوا يتوقعون
لى أن أقف هذا الموقف . . . وأن أسبب لكم كل هذا
التعب باسمى الغريب .

الضابط الكهل : كفى . . . كفى . . . فاتك بن صقر . . . (إلى
الضابط الشاب) إنه هو . . . فاتك . . . ضاحك . . .
صقر . . . صعب . . . كله يمشى .

المحكوم عليه : لك حق . . . لا فرق الآن بين ضاحك و مكشر . . .
ولا بين صعب ، وصقر . . . المهم . . . أنى أنا . . . هذا
الجسم الحى . . . الحار . . . سيقف عمله . . . سيبرد ثم
يدفن . . . هذا . . .

الضابط الكهل : هل تستطيع السكوت لحظة ؟

المحكوم عليه : لا تظلمنى يا حضرة القائد . . . أنا لم أتكلم إلا رداً على
سؤال منكم . . . ذنبى أنى أحترم كلامكم . . . ذنبى
أنى لا أكف عن مساعدتكم . . . أمرى لله . . .

الضابط الكهل : (شاعراً بالخجل) لك حق . . . (فى تردد) لا تؤاخذنى
. . . (ثم فى صوت ينم عن عطف ، يبدو أنه نما شيئاً
فشيئاً) ما الذى فعلته ؟ . . . أنت مدهش . . . لماذا
حكموا عليك !

المحكوم عليه : سنعرف الآن . . . (مشيراً بيده إلى الضابط الشاب ،
والحكم الذى فى يده) .

الضابط الكهل : (بنفس عدم مبالاة الضابط الشاب) اقرأ . . . اقرأ
يا سيدى . . .

الضابط الشاب : محاولا أن يبعث فى صوته شيئاً من الحرارة) حكم
المجلس العسكرى العالى فى القضية رقم ٧٨٩ بقسم الأهلة
ضد ضاحاك . . . (يصحح نفسه وعلى شفتيه ابتسامة)
فاتك . . . بن . . . بن (بعد مجهود) صقر ، لأنه فى يوم
(يتلو بسرعة بحيث لا يفهم شىء مما قرأ ، ثم يتمهل) قد
ارتكب الجريمة المعاقب عليها بالمادة ٣٩ من الأمر العسكرى
رقم ٥٦٢٠ ، إذ حرض أهل ناحية الطموح على مخالفة
أوامر الحكومة : وقرارات الحاكم العسكرى . فدعاهم إلى
الاحتفاظ بما لديهم من أغذية وأقوات ودواجن وغلال ،
بدعوى أن البلد مهددة بمجاعة ، وحبس بذلك عن القوات
المحاربة ما يلزمها من تموين ، وأشاع الذعر بين الأهلين .
وقد ارتكب هذه الجريمة ، فى خطب ألقاها ، وأوراق كتبها .
وقد صدر عليه الحكم من المجلس العسكرى المحلى المنعقد
فى يوم (يقرأ الضابط بسرعة لا يفهم معها شىء مما
يقرأ) بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم طعن النائب العسكرى
فى هذا الحكم ، أمام المجلس العسكرى العالى الذى استبدل
حكم الأشغال المؤبدة بالإعدام . صدق على الحكم فى
يوم (يقرأ الضابط بسرعة) .
(الضابط الشاب ينظر إلى المحكوم عليه ، وكأنما أزاح عن
صدره عبئاً وفرغ من مهمة ثقيلة) .

الضابط الكهل : هل عندك ما تطلبه ؟ . . . أى طلب . . .

المحكوم عليه : لست فاهماً . . .

الضابط الكهل : ما الذى تريد أن تفهمه . . .

المحكوم عليه : الحكم ؟

الضابط الكهل : الحكم مفهوم . . . أنت حرضت . . . وحكم عليك في المجلس العسكرى المحلى . . .

المحكوم عليه : كل هذا مفهوم . . .

الضابط الكهل : إذن ما هو غير المفهوم ؟ . . .

المحكوم عليه : غير المفهوم . . . أن هذا الحكم معناه أنه بمقتضى هذا الحكم نفسه . . . هذا الحكم . . .

الضابط الشاب : (منفعلا ، وملوحاً بورقة الحكم بيده) هذا الحكم . . . هذا الحكم الذى بيدى . . .

المحكوم عليه : قليلا من الصبر . . . بمقتضى هذا الحكم ، لا يمكن أن ينفذ على حكم الموت . . .

الضابط الكهل والضابط الشاب : (منزعجين معاً) كيف ؟

المحكوم عليه : (فى هدوء) استبدال الأشغال بالإعدام معناه . . . أننى محكوم على بالأشغال لا بالإعدام . . . الباء تدخل على المتروك . . . .

الضابط الكهل : (غير فاهم) باء . . . أى باء ياحضرة ؟ .

المحكوم عليه : الباء استبدال المجلس الأشغال بالإعدام . . . معناها أن الإعدام عدل عنه . . . مفهوم ؟ ؟

الضابط الكهل : (واقعاً فى ورطة) أبداً . . . هل أنت فاهم يا حضرة الملازم ؟

الضابط الشاب : (مستغرقاً فى القراءة ورافعاً رأسه ببطء) استبدل حكم الأشغال بالإعدام (يقرأ فى صوت خافت ويهز رأسه) استبدل الباء . . . تدخل (يسرح قليلا) مضبوط . . . (يرفع رأسه وينظر إلى الضابط الكهل) صحيح . . . له حق . . .

(الجلاد ينظر إلى الورقة من فوق كتف الضابط الشاب تاركاً المحكوم عليه ، ناسياً نفسه ، والجنود يعودون إلى سابق فوضاهم ... الضابط الكهل والضابط الشاب يقتربان وينظر أولهما إلى الثانى فى حيرة شديدة . ويهز الضابط الشاب رأسه ثم يقول بصوت خافت) .

المحكوم عليه : من جهتى . . . لا اعتراض لى مطلقاً على تنفيذ الحكم . . ولكن مسئوليتكم ستكون عظيمة . . . تقتلون إنساناً بلا حكم . . . بل ضد منطوق الحكم . . .

الضابط الكهل : (مهموماً) كلام . . . كلام معقول .

الجلاد : (ضاحكاً ، ضارباً ظهر المحكوم عليه) من أى داهية جئت ؟! . .

الضابط الشاب : طبعاً ، معلوم لنا جميعاً أن المجلس العسكرى العالى لا يحكم الآن إلا بالإعدام . . . فليس لدينا ليمانات . . . ولا حراس . . . ولا سلاسل . . .

المحكوم عليه : هذا أسهل . . . أوفر كثيراً كما قلت . . . ولكن . . . هل عندكم مقابر ؟ . . .

الجلاد : (ضاحكاً) مدافن ... وجبانات ... كما تريد ... ولا تشغل بالك . . .

المحكوم عليه : (كأنما يفكر فى شىء آخر) لماذا تحبون كلمة الإعدام ؟ كلمة الإعدام ليس لها المعنى الذى تريدونه . . . الحكم بالموت لا بالإعدام . . . المعدم هو . . .

الضابط الكهل : وهل نحن خرجنا من الورطة الأولى ؟ . . يكفينا واحدة . . . لكن قل لى من أين أتيت بهذا كله ؟ . . .

المحكوم عليه : لقد تعلمت النحو . . .

الضابط الكهل : (مرتبكاً) النحو . . .

المحكوم عليه : (مبسطاً الأمر) اللغة . . .
الضابط الكهل : وهل هذا كله فى اللغة ؟ . . . وما الحل ؟ .
المحكوم عليه : الحل أن تضربونى ... بواحدة من هذه البنادق . . . واحدة فقط . ليس ضرورياً كل هذا العدد . . . فرصاصة من بندقية قديمة . . . تكفى وأؤكد لكم . . . ولن يسمع أحد شيئاً عن هذا الخطأ . . . وأهلى لا يعرفون النحو . . . (متردداً) مثلكم . . . ولا أظن أن روحى بعد أن أوارى التراب ستبقى مشغولة بمسألة تصحيح الحكم . . . ستجد بلا شك فى العالم الآخر أموراً أهم تشغلها .
الجلاد : (مبتهجاً بهذا الأسلوب) هل رأيت العالم الآخر من قبل ؟ . . .
(يضج الجنود بالضحك)
المحكوم عليه : (ببساطة) طبعاً . . . لا . . . ولذلك فأنا معتبر نفسى على أبواب رحلة . . . رحلة ممتعة . . . لا بد أن يكون هناك شىء بديع . . .
الجلاد : (مشغولا وهو يهرش رأسه) بديع . . . كيف ؟
المحكوم عليه : شىء يختلف عن هذه الدنيا . . . هذا كلام يقتضيه العقل . . . وإلا فما معنى الدنيا والآخرة . . .
الجلاد : (ضاحكاً فى عدم فهم) أنت ذاهب إلى جهنم .
المحكوم عليه : (فى غير غضب) لماذا ؟ . . .
(الجنود يتجمعون حول المحكوم عليه والجلاد ويستمعون إليهما فى سذاجة وانبساط وسرور) .
الجلاد : إنك مجرم . . . وحكموا عليك . . .
المحكوم عليه : (كأنما يناقش مسألة لا تهمه هو) لقد حكموا

علىَّ لأنى كنت أقول نفس الكلام الذى كنت تقوله منذ دقائق .

الجلاد : (منزعجًا) نفس الكلام ... ماذا تعنى ؟.. تود أن تتسبب لى فى مصيبة .

المحكوم عليه : (ناظراً إلى الوثاق فى يديه دون أن يتكلم) من يسمعنا الآن . . . نحن هنا إخوان . . .

(الجنود يحاولون فلك وثاقه — والجلاد يمنعهم فيدفعونه فى صدره فيكاد يقع ، فيعلو ضحكهم . . . فيلتفت الضابط الكهل والضابط الشاب إليهم) .

جندى رابع : حل . . . وثاقه . . . دعه . . . أليس فى قلبك رحمة ؟ !

جندى ثالث : ماذا فعل لك ؟ . . . أنت لم تذق طعم الأكل منذ أيام . . . ومع ذلك تريد أن تقتله .

الجندى الثانى : يا جماعة . . . بالراحة . . . وإلا رحنا فى داهية . . .

جندى خامس : فى داهية . . . فى داهية . . . ضربوا الأعور على عينه . . .

(يضجون بالضحك) .

المشهد الثانى

(يسمع من بعيد صوت جياد تصهل ، ووقع حوافرها على الأرض . ويقترب الصوت . ثم يدخل فارس يبدو عليه الإجهاد والتعب إلى المسرح من الجانب الأيمن ثم يتوقف لحظة ، ويدور بعينه فى المكان . ثم يندفع إلى المحكوم عليه)

الفارس : هل مت ؟
المحكوم عليه : من زمان (يضحك) .
الفارس : الحمد لله . . .
المحكوم عليه : الحمد لله . . . لأنى مت من زمان .
الفارس : كف عن هذرك ... الحمد لله ... لأنى رأيتك حيًّا . . . لقد انتصرنا . . . نحن نطوق هذا المكان . (متجهًا إلى الضابط الكهل والضابط الشاب) لقد هزمت الحكومة . . . لقد نجحت الثورة . . . هذه المنطقة وقعت فى أيدينا . . . وهى مطوقة الآن . . . ستأتى قواتنا . . . هنا . . . بعد حين . . . قوات الثورة . . .
الضابط الكهل : (فى عدم مبالاة) حلت المشكلة .
الفارس : (وقد صدمه برود القائد الكهل) أى مشكلة ؟ . . . بالطبع حلت مشكلة الشعب . . . لقد سقط الطغاة . . . لقد دسناهم بالأقدام . . . سنحاكم المجرمين . . . الذين استبدوا بالفقراء والضعاف ... سنعيد العدل ... سنبسط...

الضابط الكهل : جميل . . . جميل . . . ولم يعد داع . . .

الفارس : لوجود أمثالك . . .

الضابط الكهل: المهم . . . لم يعد داع لأن أفهم استبدل واستبدل بـ . . .

الفارس : هل جننت ؟ ... أنت ضابط ... وعليك أن تضبط نفسك . . .

الضابط الكهل: تمام . . . تمام . . . استبدل بالإعدام . . . انتهت تماماً . . . الحمد لله . . .

الفارس : (ناظراً إلى المحكوم عليه) ما هى المسألة ؟ . . .

المحكوم عليه: (فى نفس هدوئه وعدم مبالاته) المسألة مسألة نحوية . . .

الفارس : (ضاحكاً) نحوية ... وقوات الثورة تزحف ... (مغيراً لهجته ، وموجهاً الحديث إلى المحكوم عليه) وأنت منذ اللحظة . . . قائد هذه المنطقة ورئيس المحكمة العليا هنا . عليك أن تطهر المنطقة من الخونة ، وأعوان الظالمين . . . وأول من تحاكمهم هذا الضابط . . . هذا الشاب . . .

المحكوم عليه : (ناظراً إلى الكهل وهو يضحك) لقد حاكمتك يا سيدى القائد . . . وحكمت عليك .

الضابط الكهل : بماذا . . . بالإعدام ؟ . . .

المحكوم عليه : الإعدام كلمة لا وجود لها فى القاموس .

الضابط الكهل : صحيح ؟! . . .

المحكوم عليه : بناء عليه ، فقد حكمت عليك المحكمة بالنحو . . .

الضابط الكهل : بالنحو . . . كله . . .

(المحكوم عليه ضاحكاً والجنود يقهقهون ، فى حين يستمر

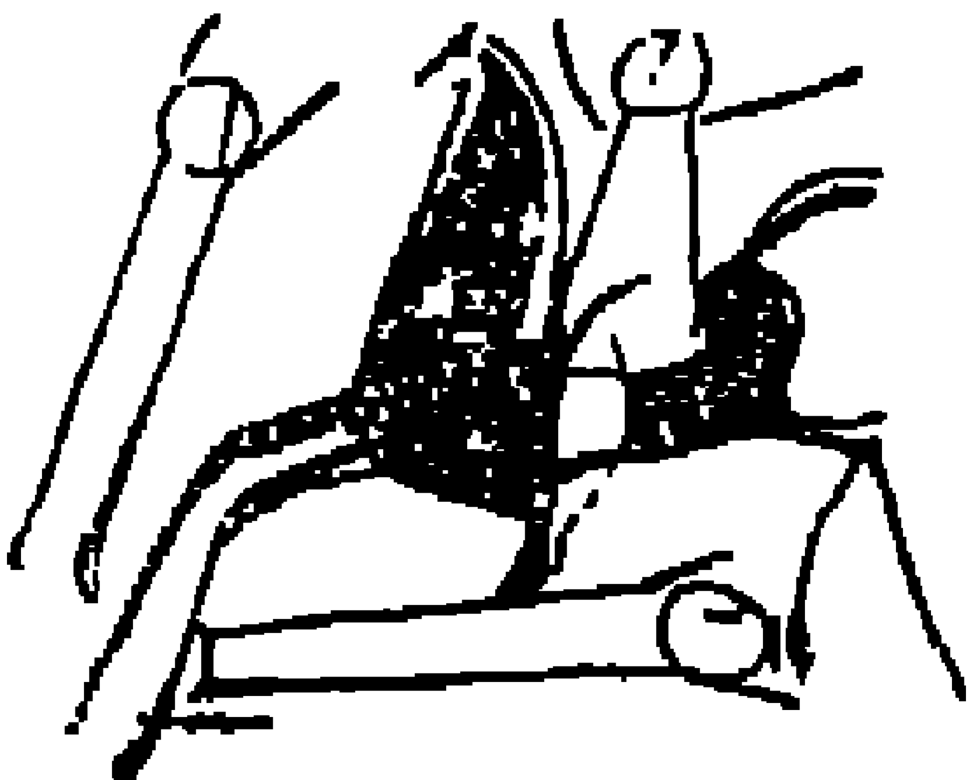
الضابط الشاب فى قراءة الحكم ويهمس) .

الضابط الشاب : استبدل الشيء بالشيء . . . تدخل الباء . . .

المحكوم عليه : بالنحو كله . . .

الضابط الكهل : لا . . . لا . . . هذا ظلم . . . أنا لم أفعل شيئاً أستحق عليه كل هذا العقاب . . .

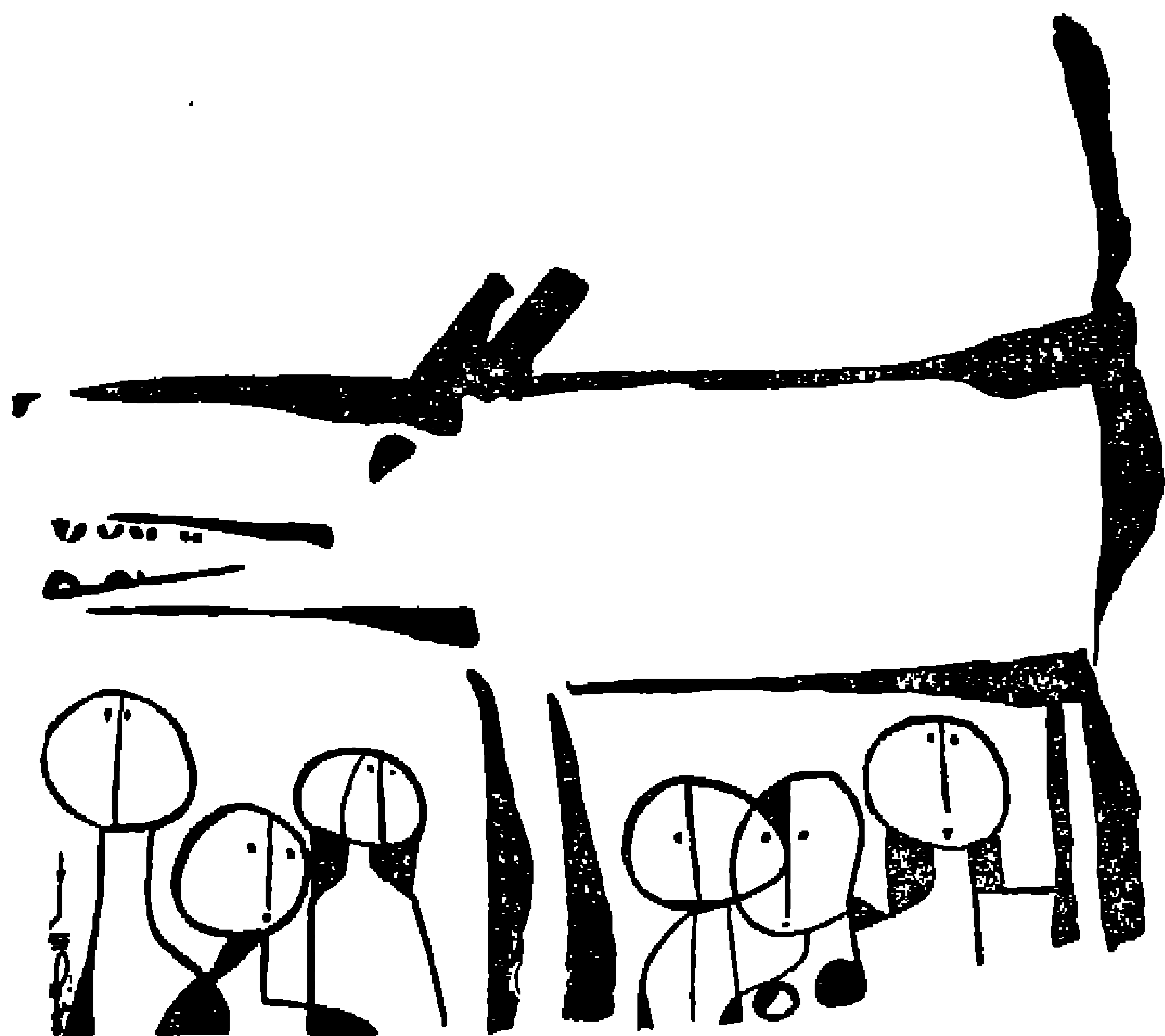
(الجنود يضحكون ، والجلاد يفك وثاق المحكوم عليه ويسدل الستار) .



احترس من الكلب

المشهد الأول

حجرة فسيحة ، مستطيلة ، تطل على حديقة تبدو أشجارها من خلال زجاج النوافذ التي تواجه النظارة ، وعلى جوانب هذه النوافذ ، يميناً ويساراً ، علقت صور لكلاب من أنواع مختلفة . (مظلوم) بيده لوحة رسم عليها كلب ضخم يتأملها طويلا أولا ، ثم يحاول وضعها على الحائط في مسمار ، وهو يصعد على سلم قصير يتأرجح عليه ، وهو يدندن ، بأغنية غير مفهومة ، ثم ينجح في تعليق الصورة ، بعد قليل من الجهد ويحاول أن يتأمل الصورة في وضعه هناك على السلم ، فكاد يسقط ، فيعتدل وينزل ، ثم يقف على الأرض ويتأملها ، مقترباً مبتعدا ، مغيراً مكانه منها ، ويحدث بشفتيه صوتاً يدل على الارتياح ، كأنما رأى أمامه طبقاً شهياً .



مظلوم : عظيم . . . عظيم . . . كلب شيان لو . . . وآخر من الألزاس ، وثالث تيرولى ، ورابع كانديش ، وخامس بولدوج . . . الصور واللوحات من عمل فنانين عظماء . . صور عظيمة لكلاب عظيمة . . . عظمة فى عظمة . . . عظمة فى عظمة ، وليس عظمة فى عظمة بتسكين الظاء (يخرج لسانه بشىء من المبالغة) أما الكتب فعلى جنب : عربية وإفرنجية ، مؤلفة ومترجمة .

(يدخل غراب)

غراب : (يكاد يكون كلامه صراخًا) برافو برافا برافسما . ضبطك يا «اكسلانس» غارقًا إلى الأذقان بعيداً عن الإنسان ، مع أخينا العزيز ، من احتل قلبك احتلال الإنجليز . الكلب . . . الكلب (ينتهى حديثه بما يشبه النباح) .

مظلوم : (يرد عليه بالنغمة نفسها مقلداً إياه) صور وكتب . . . بكل ريشة وقلم ، ومن كل بلد ووطن .

غراب : أرنى . . . أرنى . . . وأسعدنى وأرشدنى ، وفهمنى وعلمنى . . . علمناكم الشحاذة سبقتمونا على الأبواب . . .

مظلوم : ولكن عيب ، فالعين لا تعلو على الحاجب ، والاعتراف بفضل الأستاذ واجب . خذ يا سيدى ، كتابًا أصله هندى ، والثانى قديم من أيام جدى . والثالث والله لا أعرف كيف وجدته عندى ، كتاب إفريقى ومعه إغريقى ، أو بلجيكى أو أمريكى .

غراب : يا صلاة النبي . يا صلاة الزين ، والصور تخلب اللب

وتسحر العين . من أين جاءت ؛ وأى يد بها جادت ؟

مظلوم : من كل واد أثر : من تحت الربع وخان الخليلى ؛ يشفى روحى وغليلى ومن السوق السوداء ، وسور الأزبكية ، أشياء وأشياء ، نادرة وبهية .

غراب : وقرأت كل هذه الكتب ؟ وعرفت جواب هذا وماذا ؟ . . .

مظلوم : عرفت ، ولكن . . . هذا قطرة من الثقافة الكلبية ، التى لا نعرف شطآنها ، ويغرق الناس فى خلجانها !

غراب : (يجلس ويضع ساقًا على ساق ؛ ويخرج من جيبه غليونه) وماذا أيضًا أيها الهمام ؟

مظلوم : (واقفًا أمام غراب وكأنه يلقى محاضرة) مثلا الكلب عبر التاريخ . سمعت عن شىء كهذا ؟ الكلاب المصرية فى المعابد الفرعونية ، الكلب إله . والكلب فى القرآن والتوراة . كلب أهل الكهف ، وكلب يقتل بالمائة والألف .

غراب : « فورم دابل » . . . « فورم دابل » . (مصفقاً بيديه ورجليه) شىء عظيم . . . أنا الآن مستريح الخاطر ، فالثقافة الكلبية والوعى الكلبى هما علامتان على طريق التقدم . . . سنتقدم يا صديقى ، سنتقدم .

(يهز يد مظلوم بشدة) .

مظلوم : تذكرت آخر حلقة فى هذه السلسلة ، اللوحة التى نصحتنى بوضعها فى الحديقة اتقاء للمسئولية ، وحماية للناس (يعدو إلى ركن من أركان الحجرة ، ويعود ومعه لوحة كتب عليها بخط جميل : « احترس من الكلب » ، ويدعها ويحضر ثانية وثالثة كتب على إحداهما نفس العبارة بالخط الفارسى ، وعلى الأخرى بخط الثلث) .

غراب : (يقف ويتأمل هذه اللوحات . ويأتى بحركات غريبة بوجهه وجسمه . وهو يتحرك أمام اللوحات . كأنما يستعرض جيشاً وفى يده غليونه ، يمسكه بطريقة تفيض بغروره ؛ ويكرر فى هذا الاستعراض « فورم دابل » . عظيم . « فورم دابل » عظيم . ثم يندفع نحو مظلوم ويصافحه بطريقة عصبية عنيفة) : تهانى تهانى ، كل شىء . مضبوط . لقد تغيرت تماماً ، وأصبحت عقليتك شيئاً جديداً . . . لقد تخلصت نهائياً وبصفة قاطعة . من رواسب الماضى . . . بقى انتظار النتائج الباهرة . . . النتائج الساحرة . . . لقد أصبحت زعيماً من زعماء الثقافة الكلبية !
(يخرج غراب من جيبه برقية ، ويقرأ بصوت عال) :
يحضر الكلب بعد غد فى قطار الصعيد الذى يصل إلى القاهرة الثامنة مساء .

المشهد الثانى

مظلوم : (يرفع سماعة التليفون) نعم . . . نعم ... أنا مظلوم . . . أنا هو ، منزلى رقم ١٧ بشارع السماحة ... السماحة . . . السماحة بالحاء لا السماجة بالجيم . . . سيادتك طالب . . . آه لا . . . لا . . . العفو العفو . . . نحن تحت الأوامر ، لكنه لم يصل . . . والله لم يصل . . . وحينما يصل بإذن الله سيكون مصدر الاطمئنان للمنطقة كلها . . .

للحى كله . . . سيكون حارس الجميع . سيادتك رأيته . . .
رأيته بنفسك فى الحديقة . حديقة منزلى . شىء عجيب جداً
سيادتك رأيت الكلب قبل وصوله . . . ربما رأيت كلباً
آخر . . . تقول سيادتك إنه كلب طويل ورشيق وبنقط
سوداء وبيضاء ، وفى الظهر . . . فى منتصف الظهر . هذا
ليس كلبى ، وكلبى أنا بالذات لا أعرف شكله ولا لونه
ولا طوله ولا عرضه . لأنى لم أره .. سيصل الليلة . .
أرجوك . دعنى أكمل الكلام . . .

أنا لا أخفى شيئاً ... وعندما يصل الكلب سيراه الجميع ..
آه اللوحة . . . لوحة « احترس من الكلب » كتبناها مقدماً
مقدماً من قبيل الاحتياط . . . لعلنا تعجلنا قليلاً .
ولكنه لا بأس هذه المرة ، وإن كانت العجلة من الشيطان
عادة . سيادتك تقصد أنى أداعبك ، وأن مزاحى ثقيل .
والله ما ثقيل إلا أنت ، وما كذاب إلا حضرتك يا قليل
الأدب . . . اسمع كلام صاحب الكلب (يسمع من
السماعة صوتاً رفيعاً وحاداً مندفعاً كنباح الكلب) .

غراب : (يحاول أن يسكته) حاسب . . . حاسب . . . الكلب
لم يصل . . . فى السكة . . . فى القطار . . . لا تريد أن
تسمع ، سأسمعك برغم أنفك لا كلب عندنا ، لا كلب
عندنا (ينتهى كلامه بنباح كامل للكلب) .

المشهد الثالث

(صمت طويل)

(جرس عميق يقطع الصمت)

مظلوم : يفيق من إغفاءة ، يتلفت حواليه فى دهشة ، ثم يقف ، ثم يتجه نحو الباب الخارجى للشقة . يفتح الباب ، يدخل رجل طويل مهاب .

الأستاذ : هل أستطيع الدخول ؟

مظلوم : بكل تأكيد .

الأستاذ : لا تؤاخذنى ، لقد جئت للزيارة بغير سابق موعد .

مظلوم : أنا على كل حال سعيد بهذه الزيارة . تفضل .

الأستاذ : (يتنبه إلى أنه لم يقدم نفسه ، فيخرج بشىء من اللهفة من جيبه بطاقة ويقدمها لمظلوم) :

مظلوم : (يقرأ البطاقة) فهيم . . . (يصحح نفسه) الأستاذ فهيم نبيه زكى .

الأستاذ : (يهز رأسه علامة الموافقة) .

مظلوم : (يحاول قراءة وظيفة الأستاذ) أستاذ البستا البستالو لولى لا . . . له . . . فا فاموفو . . .

الأستاذ : (ضاحكًا ضحكة خفيفة) علم اسمه طويل قليلا . . . البستالولا فاموريزا لوجى .

مظلوم : هذا كله اسم .

غراب : علم واحد . . . أم مجموعة علوم ؟

الأستاذ : (ضاحكاً بوقار) فرع من قسم من علم .

غراب ومظلوم : (معاً) يا سلام !

الأستاذ : يا بنى الاتجاه الآن نحو التخصص . . . غداً . . . أو قريباً .أقصد البستالولا فاموريزا لوجى ستخرج منه ثلاثة فروع : واحد عن البستالو مانى دولوجى .

مظلوم : جميل . . .

غراب : جميل خالص .

الأستاذ : والثانى عن البستالويزا كو لبايولوجى .

مظلوم : والله ما تتعب نفسك ما دام الفرع الثالث لم يولد بعد .

الأستاذ : (مصححاً) ولا الأول والثانى .

غراب : أحسن . . . لا داعى للعجلة . . .

مظلوم : صحيح فى التأنى السلامة !

الأستاذ : هل تسمحون لى أن أكشف عن سر زيارتى غير المنتظرة ، وغير اللائقة ، وغير المسبوقة بموعد .

مظلوم : على كل حال لقد حصل لنا الشرف . فزيارة أستاذ فى البستا (ينظر إلى غراب) ساعدنى يا أخ غراب ! .

غراب : أقول اسم العلم الأصلى أو الفروع ؟

مظلوم : كما تحب ، قل شيئاً والسلام .

الأستاذ : لا . . . لا والله لا داعى للتعب ، فأنا فاهم وأنتم فاهمون .

مظلوم : طبعاً .

الأستاذ : المهم أنا جئت طالباً القرب .

مظلوم : القرب ! !

الأستاذ : نعم ، القرب . . . ما وجه الغرابة ؟

مظلوم : أى شرف عظيم يا سيدى الأستاذ سينالنا بالقرب من إستاذ

البس البس البس شانا تانا تاتا . . .

الأستاذ : والله لا تتعب نفسك . . .

مظلوم : (مستمراً فى المحاولة) تتاتا تال لو لا لا . . . يشرفنا بطلب القرب . ولكن العين بصيرة واليد قصيرة .

الأستاذ : (مأخوذاً) كيف ؟ ما هذا التواضع ! حضرتك من العلماء ؟ هذه صفة العلماء .

مظلوم : طبعًا أنا عالم بالحال . . . لا ولد ، ولا بنت ، ولا أخت ، ولا بنت أخت . . .

الأستاذ : لا . . . لا . أنا عاتب عليك يا أستاذ . . .

مظلوم : (مكملا) مظلوم . . . اسمى مظلوم .

الأستاذ : يا أستاذ مظلوم عاتب لأنك تتجاهل ، مع أنك عارف جيداً غرضى . . . أنا طالب أول مواليد كلبتكم ليكون زوجاً لكلبتى العانس التى طالت عزوبتها .

غراب : إن شاء الله بمجرد وصوله من الصعيد . . .

الأستاذ : صعيد . . . صعيد ، عمّ تتكلم يا عزيزى . . . أنا أحدثك عن كلبة رأيتها بعينى ، بعينى رأسى ! . . . مالى أنا وكلاب الصعيد ؟

مظلوم : أصل الكلب الذى رأيته سيادتك رأى العين ، هو نفسه الكلب الذى لا يزال فى الصعيد ، والذى نحن فى انتظار تشريفه .

الأستاذ : يا أستاذ إلى هنا ، ويجب أن نقف . فلكل شىء حد . تقول هذا ونحن جيران ، والاحترام المتبادل واجب بين الجيران . أرى الكلبة أمامى تروح وتغدو ، غاية فى الرشاقة وآية فى الجمال ، ثم تقول إنها لم تصل ، وتقلبها من الأنوثة

إلى الذكورة . المعنى أنى أهذى . إنى أخرف .. إنى . . .
ذ ذ ذ (تصيبه حالة عصبية تمنعه من إكمال الكلام) . . .

مظلوم : وأنا بحكم الجيرة ، ولأن النبي وصى على سابع جار ، وسيادتك جار ملاصق ، فاللازم تكرمني ، وإكرامى أنك تصدقنى . وحينما تصدقنى ، لا يجوز أن تذكر كلباً لم تره عيناى ، ولا أعرف له لوناً ، ولا حجماً ، ولا أصلا ولا فصلا . نعم . يجب احتراماً لمشاعرى وإحساساتى ألا تذكر الكلب ابن الكلب .

الأستاذ : (فى غضب) وسيادتك تشتم الكلب أيضاً (والحالة العصبية لا تزال تمنعه من النطق بسهولة) .

مظلوم : (متحدياً) أنا شتمته .

الأستاذ : (أكثر هياجاً) لسيادتك غرام فى تكذيبى . تكذبنى على طول الخط أقول لك رأيت الكلبة بعينى هذه ، فتقسم أنه لم يصل من الصعيد . أقول إنك شتمت الكلب أمامى الآن وحالا . تقول فى اندهاش عظيم أنا شتمته ؟ . لا . . . لا الأمور لا تصلح هكذا . قليل من الصدق ، قليل من الأمانة ، يحدث هذا منك ، وأنا أقول عنك إنك مثقف ومستنير ، ومتمدين ومتقدم ومتفتح على الحضارات والثقافات بفضل ثقافتك الكلبية الممتازة ، ووعيك الكلبى العظيم .

مظلوم : (يحاول عبثاً إسكاته) أنا كذاب ويعوزنى الصدق ، وأحتاج إلى أمانة لمجرد أن الكلب لم يصل . . . لا بد أن يصل تبعاً لأوامر سيادتك . . . وألا يصدر من سيادة أستاذ الفاصوليا لا لا قرار حرمان ضدى . ثم يتهمنى زوراً وعدوانا بأنى

شتمت الكلب ، وإنى أسألك بدورك ، متى وأين وكيف ؟

الأستاذ : (ينتفض واقفاً) يا ناس ألحقونى . سأنفجر ، سيطير من مخى برج بل أبراج . ألم تقل الآن على مسمع منى : الكلب ابن الكلب .

مظلوم : (وكأنه يهم بالهجوم عليه) وهذه سبة يا سيدى ، يا أستاذ الفاصوليا لى لى لى لى لى دادا . وتزعم أن عند سيادتك ذرة من الثقافة الكلبية والوعى الكلبى . الكلب ابن الكلب فى عالم الكلاب ، غاية المدح فهى على وزن الأصيل ابن الأصيل فالكلب عندنا حيوان كريم

الأستاذ : (مكتشفاً خطأه) آه . . . هذ هو قصدك ، لقد خفى علىّ إذن حقك علىّ ، ودعنى أعتذر إليك بتقبيل رأسك مثنى وثلاث . ولنعد إلى الموضوع .

مظلوم : (كأنما يريد أن ينهى الموقف بأى ثمن) ننهى الموضوع . وما هو الموضوع ؟

الأستاذ : أنا طالب القرب .

مظلوم وغراب معاً : مرة ثانية ؟

الأستاذ : ثانية وثالثة . . . ما معنى هذا الكلام . هل رفضتم طلبى (يهم بشرح شىء) .

مظلوم : أبداً . . . لا رفضنا ولا يحزنون .

الأستاذ : الحق أنى أريد أن أعرف سر إنكارك للكلب ، هل هو — لا سمح الله — مسروق .

مظلوم : لا مسروق ولا محروق ولا مدعوق . سيادتك ، يعنى كلبة سيادتك فى شوق إلى مصاهرة كلب سيادتنا . تحت الأوامر ، سننفذ الطلبات على العين والرأس وبلا مناقشة ، ومع السرور

وعظيم الامتنان .

الأستاذ : لا . . . لا هذه اللهجة لا تعجبنى . إنها تسديد خانة . ولوحات احترس من الكلب تملأ الشقة بكل خط ، وأنت مصمم بعناد على أن الكلبة غير موجودة .

مظلوم : أنا مصمم ؟ من قال هذا ؟ أين هو هذا الكذاب الأشر ، لنستخرج عينيه ، ونشد أذنيه ، ونسقيه العلقم ، ونصبغه بالكركم ونصفع قفاه ، ونسب أباه ؟ . . . أتنكر الشمس فى رائعة النهار ؟ وهل تصدق مظلوماً ، وتكذب لوحات بالثلث والرقعة ، والفارسى والكوفى (يقلد الأستاذ) .

الأستاذ : (يبدأ يخاف من لهجة مظلوم ومن شكله الهجومى فيتراجع إلى الخلف بظهره ناحية الباب ، ومظلوم متعقبه ويدفعه فى صدره ، بأصبعه كأنما يخزه به وخزاً حتى لا يكاد يقع على ظهره وينسحب ثم يعدو ويخرج) .

(يعود مظلوم إلى مقعده الطويل « الشيزلونج » ويرتمى عليه ، ويخرج « غراب » فازاً من المنزل ، يدق التليفون ، ويستمر فى الدق طويلا فلا يرد عليه مظلوم . ثم يعود إلى الدق ، فيقوم ويرفع سماعة التليفون فيسمع من السماعة صوتاً نسائياً ، يندفع اندفاعاً وكأنه أزيز طيارة فيعيد السماعة إلى موضعها . يعود التليفون إلى الدق وبعد أن يتركه مظلوم طويلا ، يقوم متثاقلا ، ويرفع السماعة ، فيعود الصوت النسائى الرفيع الحاد المنطلق ، فيهز مظلوم يده الهواء علامة الاشمئزاز والاحتجاج ، كأنما يذب عن نفسه أسراباً من الناموس ، وبعد أن يعيد السماعة إلى مكانها ، يرفعها ويتركها

تتأرجح فى الهواء ، كأنها جثة مشقوقة .

مظاوم : (وهو يهم بالتمدد على « الشيزلونج » ثانية) كلاب . . . كلاب . . . كلاب .

(ينام ، فيسمع له شخير خفيف ، دليل استغراقه فى النوم ، والظلام يزداد شيئًا فشيئًا ، حتى يشمل المكان تمامًا ، ثم تبدأ الكوابيس تهاجمه فيستيقظ وهو يصرخ صراخًا كنباح الكلب ، ثم يعود إلى النوم ، وإلى الاستيقاظ المفاجئ وهكذا ، حتى يهدأ أخيراً . . .

صمت عميق . . . ثم يسمع صوت جرس خفيف يشتد شيئًا فشيئًا) .

المشهد الثالث

يذهب مظلوم إلى الباب ، فيرى رجلا طويلا نحيلا ، يرتدى معطفاً منزلياً (روب) ويدير حول عنقه (كوفية) صوفية ويضع على رأسه طرطوراً من الصوف كذلك . تبدو عصبية فى حركات يديه والنصف الأعلى من جسمه ، وتقاطيع وجهه .

مظلوم : أفندم ! . . .

الطارق : (لا يتكلم) .

مظلوم : خير إن شاء الله !

الطارق : أنا متألم .

مظلوم : متألم ؟ سيادتك متألم من ماذا لا سمح الله ؟ !

الطارق : متألم جداً .
مظلوم : مني ؟ من أى شيء .
الطارق : من هذه الزيارة .
مظلوم : آه . على كل حال نحن جيران . والجيران بعضهم لبعض . اتفضل . ادخل هنا تيار .
الطارق : ولكنى متألم وخجل وفى غاية الشقاء (يعطس) ولست أدرى كيف أعتذر لك (يعطس) .
مظلوم : تفضل يا سعادة البيه . لقد بدأت تصاب ببرد . وسأصبح أنا المتألم والخجل ، وسأعجز عن الاعتذار لك .
الطارق : (يعطس ثم يدخل) . أصاب بالبرد غير مهم . باحتقان اللوزتين شيء تافه . بالتهاب رئوى فى داهية . ولكن أن أوقظك فى الليل البهيم ، هذا هو الخطأ الذى لا يعتذر عنه .
مظلوم : لا تعذب نفسك . أنا نومى خفيف ، ومتقطع . وأعصابى عموماً جيدة . المهم نسمع أوامر سعادتك .
الطارق : أنا أغبطك . أنا أحسدك . أنا . . . أنا . . . (يعود إلى العطس) .
مظلوم : تحسدنى على أى شيء ؟
الطارق : على النوم .
مظلوم : (غير فاهم) النوم ؟
الطارق : طبعاً .
مظلوم : أى نوم ؟
الطارق : نومك .
مظلوم : نومى تحت أمرك . خذ نومى كله وأحلامى السعيدة ، وكوابيسى .

الطارق : أنت سعيد ، أنت فى جنة . نفسى أنام .
مظلوم : تنام ؟
الطارق : آه أنام . . .
مظلوم : هل أنا أقلقتك فى النوم . ما الذى حدث منى ؛ لأمنعه فوراً .
الطارق : (متردداً) سعادتك . . . الكلب .
مظلوم : سعادتى . . . الكلب .
الطارق : آه . . .
مظلوم : آه . . . آه لا تكفى ، كلبى أزعج سعادتك .
الطارق : جداً .
مظلوم : يعنى نباحه .
الطارق : والله أنا خجل ، أنا لا أدرى كيف أعتذر لك ، ولا كيف أيقظتك من النوم فى الليل البهيم ؟ !
مظلوم : لا يهمك الليل البهيم ، ولا الليل الحيوان . أنا استيقظت وما كان كان . وتأكد أنى لم أكن نائماً ، وأن المشكلة هى كيف نسكت هذا الكلب .
الطارق : غير ممكن .
مظلوم : لا . . . كل شىء ممكن . ولسعادتك يكون المستحيل ممكناً والبعيد قريباً ، والعسير يسيراً .
الطارق : (يخطف يده و يريد أن يقبلها) .
مظلوم : ما الذى تفعله يا سيدى ؟ !
الطارق : دعنى أقبل يديك .
مظلوم : لا ضرورة لهذا الإحراج . أنا الذى يجب عليه أن يقبل يديك ورجليك .

الطارق : (يأتى بحركة عنيفة بكل جسمه علامة الاحتجاج) لا تقل هذا . أرجوك أرجوك أرجوك .

مظاوم : لا ترجونى من فضلك ، ودعنا نواجه المشكلة معاً .

الطارق : (مأخوذاً) مشكلة . أفى الموضوع مشكلة . أنا أعتذر . أنا خجل . أنا لا بد أن أتوارى .

مظلوم : (وقد نفد صبره) لا تتوار ولا تتدار . المشكلة أن الكلب الذى أزعج سعادتك غير موجود . ولو كان موجوداً لضربته بالرصاص ، ولشيعنا جثمانه فى جنازة رسمية علنية شعبية قوية ،

الطارق : (متراجعاً وخائفاً) من فضلك ، من فضلك .

مظلوم : من فضلى من فضلى . ما الذى أعمله . كلب غير موجود ، ولكن ينبح ولا يكتفى بالنباح بالنهار ، ينبح بالليل . ولا ينبح بالليل العادى الذى أعرفه أنا ويعرفه بقية الناس ، إنما فى الليل البهيم الذى لم أره فى حياتى ، ولا أظن أننى سأراه ! .

الطارق : (يهم بالوقوف ويبدو عليه خوف حقيقى) ؛ الكلب غير موجود ! ؟

مظلوم : (مندفع فى حماسة) طبعاً . هل يمكن إنكار كلب موجود .

الطارق : (وهو يتجه نحو الباب) ولكنى أسمع نباحه . . . نباحه . . . نباحه . . .

مظلوم : أنت يا سيدى تسمع نباح « احترس من الكلب » . هذه اللوحة اللعينة .

(يجرى نحو ركن الحجرة ويأخذ فى تحطيم اللوحات ، لوحة بعد لوحة ، ويبعثر أجزاءها فى الهواء ، بحركة عصبية ، فيجرى الطارق فى ذعر شديد) .

المشهد الرابع

مظلوم : (فى حديقة منزله تحت « تكعيبة عنب » ، وأمامه مائدة ، فوقها براد ، وفناجين شاى وأطباق عليها بعض الفطائر والكعك ، والفاكهة . مع مظلوم . صديق متأنق . يبدو عليه إعجابه بنفسه . وبجمال وجهه ورشاقة قوامه) .

الصديق : تقول إن لطيفة ستأتى الآن حالا ؟

مظلوم : زوجها هو الذى سيأتى وستأتى معه .

الصديق : زوجها لا يهمنى . إنما هى . هى التى تهمنى . جمال غير معقول .

مظلوم : ما الذى حدث ؟ أتتغزل فى جمال زوجة صديق لنا هكذا بلا احتشام ؟ !

الصديق : هو صديقك أنت . أما أنا فلا أعرفهما إلا منك . معرفة سطحية . خارجة . لا تفرض على التزامات أو واجبات ، وتعطينى الحق كل الحق فى أن أموت فى هواها ، وأن أعلن هذا للرائح والغادى ، والعاشق والفاضى ، والدانى والقاصى .

مظلوم : اسكت . . . اسكت . . . ها هما حاضران .

الصديق : يا ألطاف الله البهية !

(يدخل الصديق وزوجته ، فيسرع مظلوم باستقبالهما ويجلس الجميع حول مائدة الشاى) .

الزوجة : يا له من مكان لطيف !

الصديق : لقد أصبح لطيفاً بوجودكما . منذ متى (موجهاً الكلام لزوجها) لم أركما .

الزوج : آخر مرة اجتمعنا هنا فى هذه الحديقة . ولكن لم يكن فيها كلب .

الزوجة : (صارخة) كلب . . . دعونا ندخل إلى الصالون . أنا أموت من الكلاب

الزوج : الكلب مقيد ، وبعيد عنا .

مظلوم : الكلب غير موجود بالمرة .

الزوجة : (فى حالة ذعر شديد) . لا تكذب على . . . أنا منذ قرأت احترس من الكلب ، وأنا لا أكاد أتمالك نفسى .

مظلوم : هذه اللوحة لا معنى لها . . .

الزوجة : لا معنى لها ؟ ! يعنى لا فائدة من الاحتراس من الكلب .

مظلوم : بل لأن الكلب لم يحضر بعد . سيرسله لى صديقى غراب من أرمنت . ومع كثرة الوعود لا أصدق .

الصديق : تأكدى يا هانم أن الكلب غير موجود واطمئنى ، ومع ذلك فأنا صياد ، ولو اقترب منك لأرديته قتيلا .

(يقرب مقعده منها)

مظلوم : دعونا نتناول الشاى قبل أن يبرد ، وأنا متأكد أننا سننسى الكلب بفضل أحاديث أخينا الممتعة (يشير إلى الصديق) ومغامراته التى لا تنتهى . . .

الصديق : (يسكب الشاى للزوجة ثم لزوجها ثم لمظلوم ويبدأ الجميع يتناولون الشاى بخلو بال) .

الزوجة : (صارخة) الكلب . . .

مظلوم : (مرتعداً) أين هو ؟ !

الزوجة : (مقتربة من الصديق الذى انتهز الفرصة وأمسك بيديها) لقد أحسست بفمه يمر فوق ركبتى . . .

مظلوم : فوق الركبة (ينظر إلى صديقه) أؤكد لك يا هانم أن الكلب غير موجود . لا تشغلى بالك به ، الله يقطع الكلب وسنين الكلب (يدفع صديقه فى صدره) أؤكد لك أن الكلب أكثر أدبًا مما تظنين !

(يعودون إلى تناول الشاى ، وقضم الفطائر)

الزوجة : ولكن مجرد النظر إلى هذه اللوحة « احترس من الكلب » ، يجعلنى أحس أن الكلب يقرب منى ، وأشعر بأنفاسه تهب على وجهى .

الصديق : الظاهر أن الهانم خيالها قوى ، فنانة ولا شك .

الزوج : إنها تحب الرسم . . . ولكن بعد الأولاد لا تجد فراغًا .

الصديق : لا . هذه خسارة فادحة . . . لا بد أن تعودى إلى الفن . الفن أجمل شىء . إنه الشىء الوحيد الخالد الباقى .

الزوجة : (تصرخ) الكلب . . .

الجميع : (يصرخون) : الكلب .

مظلوم : ماذا فعل الكلب ثانية . . .

الزوجة : انظر (تكشف عن ركبتها ، فيبدو موضع قرصة ظاهرة)

مظلوم : (يدفع صديقه فى صدره) هذه المرة ، ليست المسألة وهمًا . هذا احمرار واضح .

الصديق : الوهم يفعل أكثر من ذلك .

مظلوم : بودى أن أعطى الوهم قلمين على صدغه .

الصديق : إياك أن تفعل ، فالوهم أحيانًا يركل برجليه .

مظلوم : أنا أعرف أن الوهم حمار . . .

الصديق : والله إن الذى يقول عن الوهم حمار ، هو . . .

مظلوم : لا تطل لسانك . . . اسمعى يا هانم الأفضل أن ننهى هذه الجلسة . لأن أعصابك متعبة . . . والمرة القادمة لن تجدى لوحة « احترس من الكلب » .

(تقوم الزوجة والزوج ويحييان وينصرفان ويبقى مظلوم وصديقه) .

مظلوم : ألا تستحى . . .

الصديق : أستحى . . . أجد كل هذا الجمال بجانبى . وأجد فرصة يتيحها لى الكلب ، وأضيعها . . . أنا أشكرك وأشكر كلبك . . .

مظلوم : تعال . . . تعال . . . لنسوى حسابنا فى الداخل . . .

(يدخلان)

المشهد الخامس

يبدأ الظلام ينقشع قليلا ، ويطلع الفجر ، فيفجر الضياء الحجرة تدريجاً ، ويشرع مظلوم يحرك ذراعيه ، ثم يفيق ويتلفت حواليه ويقف ويتجه نحو النافذة ، ويفتحها ويستنشق الهواء بملء رئتيه ، ويسمع صوت زقزقة العصافير على أغصان الأشجار التى تشاهد من زجاج نوافذ الحجرة مظلوم يحدق النظر فى الخارج .

مظلوم : يا فتاح يا عليم . ومن يكون من هؤلاء أيضًا ؟ !

(يدق جرس الباب فيسرع إليه بهمة ، وكأنه نوى أن يواجه قدره بشجاعة) .

مظلوم : (وهو يفتح الباب) طلبات السيادة .

عسكرى : (فى يده ورقة) حضرتك مظلوم . . .

مظلوم : (مقاطعاً) آه . . . أنا . . .

العسكرى : (يشير إلى بنت صغيرة واقفة إلى جواره ومعها رجل يبدو أنه والدها) أصل البنت . . .

مظلوم : (مكملا) عضها الكلب .

العسكرى : (مندهشاً) حضرتك عندك خبر ؟ !

مظلوم : (فى عدم اكتراث) طبعاً .

العسكرى : كيف عرفت سيادتك ؟

مظلوم : عرفت والسلام . إنه كلبى وأنا عارف أنه ضرورى يعضها !

العسكرى : يعنى يا سيادة الأفندى . عندك كلب مسعور وطالقه (طالجه) على عباد الله يعضهم يميناً وشمالا .

مظلوم : مزاجى . . . أحب يكون عندى كلب يعض الناس .

العسكرى : والناس آذوا سيادتك . عكروا مزاجك . . .

مظلوم : يا شاويش الناس لا يستحقون غير هذا . . .

العسكرى : عض الكلاب ؟ !

مظلوم : وعض الثعابين وعض السباع والضباع . والفيل (أبو زلومة) والسيد قشطة والبغبغان والكروان ، وكل حيوان . . .

العسكرى : يا سلام . كلام سيادتك ــ بلا مؤاخذة فى الكلمة ــ هو سيادتك عندك مثلا (يدير أصبعيه جنب صدغه إشارة إلى الجنون) .

مظلوم : عندى . . . آه عندى . . . حاجات ما لها آخر . . .

العسكرى : وحاجات من أى نوع ؟

مظلوم : يا سعادة الشاويش لا تحشر نفسك فيما لا يهمك . . . كن بعيداً عن هذا الهم . . .

العسكرى : أحشر نفسى ؟ ! أحشر نفسى ؟ ! أنت فاهم أن الأمور تجرى بلا قانون (جانون) هناك قانون ومحاكم و «بوليس» .

مظلوم : كل هذا موجود . . . وأنا هنا مشغول بكلابى ، كلاب تعض الناس يميناً وشمالا ، مبروك عليك يا سعادة الشاويش لأنك تعرف ما لا أعرف ، وأنا لا أعرف غير الكلاب التى تعض . . .

العسكرى : فى يمين وشمال . . .

مظلوم : تمام .

العسكرى : معنى الكلام أنك معترف . . .

مظلوم : معترف ، وألف معترف (ينظر إلى البنت) عضك فى أى مكان يا شاطرة ؟ ! .

البنت : (وكأنها تردد كلاماً محفوظاً) . تحت الركبة « باثنين سنى » .

مظلوم : (متظاهراً بالألم) أف ... أف ... وهل سمعت عن السنى ؟

البنت : (مرتبكة) لا . .

أبو البنت : طبعاً يا سيدنا الأفندى تعرف السنى والبوصة .

مظلوم : ما شاء الله . . . والذراع والباع . . . عظيم ، عظيم جداً . (متجها إلى البنت) هل رأيت البوصة والسنى ؟

البنت : أبداً .

أبو البنت : (ملاحقًا إياها) أسكتى العمى فى عينك .

البنت : (منفجرة فى البكاء) والله ما رأيت السنى ولا البوصة . . .

أبوها : (لمظلوم) مبسوط . البنت خافت . كفاية كلبك عضها .
مظلوم : أنا وكلبي متشابهان .·. هو يعضها ، وأنا أبكيها .
أبو البنت : سيادتك مبسوط ، ومزاجك تهزئ الناس .
مظلوم : (وقد أمسك أبو البنت بتلابيبه) . طيب . طيب . أبعد يديك . . .
طلباتكم وافقت عليها كلها . اعترفت بعضة الكلب . أنا كذبتكم ؟ أنا تعبتكم ؟ مطلوب شيء آخر . هات رأسك . وحقك علي .
الشاويش : (متأثراً) عداك العيب ، يا سيادة الأفندى . والله ابن أصول .
مظلوم : من ذوقك ولطفك اتفضلوا نشرب فنجان قهوة ونكتب المحضر .
الشاويش : (وقد بدأ يفكر فى العدول عن كتابة المحضر) ضرورى محضر يا معلم عثمان (ناظراً إلى والد البنت) .
الوالد : (مرتبكاً) . أنا عارف ؟ ! المسألة بين يديك .
مظلوم : تفضلوا . . . تفضلوا . . .
(يجلسون ويبدو عليهم الارتياح ، يقدم مظلوم للبنت الصغيرة حلوى ، وللعسكرى والوالد سجائر ، ويشعلها لهما ، فينفثان منها الدخان فى تذوق وتلذذ باديين) .
العسكرى : (محاولا التقرب إلى مظلوم) : هواى أقول (أجول) .
مظلوم : تفضل . . . تفضل يا سعادة الشاويش .
العسكرى : يعنى واحد مثل سعادتك كله ذوق ولطافة ، لازم له كلب . . .
مظلوم : على رأيك . . . قلة عقل . . . واحد صاحبى ، فكر فى

إهدائى كلبًا . هدية . . . خجلت أردها .

العسكرى : هدية كلب ؟ !

مظلوم : عقول الناس !

العسكرى : والعمل ؟

مظلوم : القول قولكم . أسم الكلب أو أضربه بالرصاص ؟ !

العسكرى : يا سلام على الإنسانية . . . والنفس الحلوة .

والدالبنت : (مشفقا أن يضيع وسط هذه المجاملات) سيادتك كلك نظر والبنت صغيرة .

مظلوم : (متجها إلى البنت) الكلب عضك بنابه الصغير أو الكبير ؟

أبوها : (مسرعًا لإنقاذها) بنت صغيرة لا تعرف صغير ولا كبير .

مظلوم : (مستمراً فى سخريته) : عضك قبل ما يمسح شفته أو بعد ما مسحها .

البنت : (مرتبكه) أبداً .

مظلوم : كلب قليل الأدب سأضربه ، وأعلمه الأدب .

الوالد : الوقت راح . ولازم نجرى على رزق العيال .

مظلوم : (يهب واقفًا) يا سلام . فاتت على .

(يسرع إلى الداخل ويدس فى يد العسكرى والوالد شيئًا ، ويحشو يد البنت بالحلوى ، فتملأ البنت فمها منها فى الحال) .

مظلوم : (للبنت) مبسوطة .

البنت : (عاجزة عن الكلام) مبسوطة .

العسكرى : (ينظر فى يده) .

الوالد : (يفعل الشىء نفسه) ربنا يجعله عامراً .

مظلوم : أنا شاكر للكلب ، فرصة تعرفنى بالناس الطيبين . فرصة

سعيدة . . . تمام .

العسكرى : حفظت . . .

الوالد : والله أنتم أطيب الناس وألطفهم . كلك نظر .

العسكرى : أنا لى رجاء واحد .

مظلوم : تفضل يا شاويش — طلباتك على عينى ورأسى .

العسكرى : لا تمس خاطر الكلب بشىء . هو اسمه . . .

مظلوم : عزيز وطلب رخيص . لكن لازم أقيده بسلسلة من حديد .

العسكرى : (متفكراً) سلسلة . لا بأس . . . هو اسمه . . .

مظلوم : والله ما أعرف . لما يشرفنا تعرف اسمه . . .

العسكرى : (شاعراً بالسخرية) يشرفكم . . . يشرفكم ؟ ! سيادتك مصمم على أن الكلب غير موجود .

مظلوم : أنا قلت إنه غير موجود . أنا أقدر أقول هذا الكلام والبلد فيها ، قانون ، وفيها محاكم ، وفيها نظام .

(يدفعهم إلى الوراء بيديه دفعاً)

القسم الثانى

المشهد السادس

المحكمة . حجرة فسيحة . تتصدرها منضدة مهتزة تكاد تقع لفرط ضعفها ، وهى من خشب رخيص ، كان مطلياً فى يوم من الأيام بلون ما لم يبق له من أثر . . وصفوف من المقاعد الخشبية فى مواجهة المنضدة ويعلق فوق المنضدة لوحة مائلة زجاجها مكسور مكتوب عليها بخط الثلث : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

يدخل مظلوم يبدو عليه التردد والخوف وانشغال البال يقرب من شيخ جالس على كرسى

مظلوم : صباح الخير يا عمى .
الشيخ : (يرفع رأسه عن قراءة جريدة ويدقق فى وجه مظلوم كأنما يدقق فى حرف بالجريدة غير ظاهر) أفندم .
مظلوم : (خائفًا) صباح الخير عليك .
الشيخ : (بحنان) صباح الخير . يلزمك شىء ؟
مظلوم : أبداً . . . (بعد قليل) المحكمة ؟
الشيخ : المحكمة طبعًا ، ظاهر أنها المحكمة .
مظلوم : محكمة الكلاب .
الشيخ : (متصوراً أن مظلومًا يريد إهانته) . يا فتاح يا عليم . يا سلام . كلام الناس طوب . هندس يا أفندى .
مظلوم : (يخرج من جيبه ورقة مطوية) أول مرة لى فى المحاكم . ولا أدرى أين أذهب .
الشيخ : (يهز رأسه غير فاهم) .
مظلوم : أصل قضيتى . . . قضية كلب . . .
الشيخ : (ضاحكًا ضحكة قصيرة) كل القضايا قضايا كلاب .
مظلوم : (مصدقًا) صحيح . كل القضايا ! !
الشيخ : (مندهشًا من سذاجة مظلوم) . حضرتك من الريف .
مظلوم : (وقد عاوده الخوف) أبداً من مصر .
الشيخ : (متأملا فى وجهه) مصر ؟ من مصر وأول مرة تدخل المحاكم ولا تعرف المحاكم ؟ !
مظلوم : أبداً . . . أصل كلبى عض لأول مرة .

وإن أردت الحقيقة هو لغاية هذا الوقت لم يعض . وربما لا يقدر له العض .

الشيخ : حكاية الكلب حكاية لطيفة هو طالع على رأسك شيء اسمه الكلب ، ومحاكم الكلاب . وعض ولم يعض ولن يعض .

مظلوم : يحسن ألا أذكر اسم الكلب . . . ممنوع ؟

الشيخ : قل ما يحلو لك . ولكن ما هي الحكاية ؟

مظلوم : الحكاية ، ليس عندي كلب ، ومع ذلك فكلبي غير الموجود عض بنت جارنا ، وكتبنا صلحاً مع ذلك ، وبعد الصلح بلغوا ضدي وطلبوا حضوري للمحكمة .

الشيخ : أنت طيب وابن حلال وعلى نياتك ، وأنصحك لا تذكر حكاية محكمة الكلاب ، واحمد ربنا أنك نجوت من سماسرة المحاكم .

مظلوم : سمسار محاكم ؟ ! أللمحاكم سماسرة ، أم لمحاكم الكلاب وحدها ؟

الشيخ : (محاولا إخفاء ابتسامة) . الظاهر أن حكاية الكلاب من غير نهاية .

مظلوم : يعني هذه محكمة كل القضايا ؟

الشيخ : ألا تعجبك ؟

مظلوم : عال . . . لكن محكمة كراسيها مكسرة ، وآية العدل مقلوبة ومائلة ، والتراب فوق المنصة أشبار . . قلت هذه محكمة لأمثالي من المتهمين المبتدئين .

الشيخ : (ضاحكاً) الله يضحكك يا سيدنا لأفندي . أنت اسم سيادتك ؟ (يتوقف قليلا) معك « بريزة » .

مظلوم : « بريزة » فقط .

الشيخ : أنت مستعجل . « بريزة » تكفى . . .
مظلوم : (يخرج من جيبه عشرة قروش) .
الشيخ : (مناديًا حاجب الجلسة) يا « باشحاجب » . من فضلك « الرول » .
الحاجب : (يلمح « البريزة » فيأتى مسرعًا) تفضل (يأخذ كشف القضايا ويقدمه لمظلوم) .
مظلوم : (يأخذ الكشف ويحاول القراءة فلا يستطيع ، فيقلبه بين يديه .
مظلوم : ما هذا ؟
الشيخ : « الرول » .
مظلوم : « الرول » ؟
الشيخ : ألم تسمع عن « الرول » من قبل ؟
مظلوم : أبداً .
الشيخ : كشف القضايا . . . اقرأ فيه اسمك ورقم قضيتك . . . هنا يصبح الناس أرقامًا ! .
مظلوم : عال . . . عال . . . شيء خير من لا شيء (بعد محاولة القراءة) لكنى غير قادر على قراءة شيء . أيكون هذا خطًا مخصوصًا لمحاكم الكلاب ؟
الشيخ : ألا تريد يا بنى أن تنسى حكاية الكلاب أبداً . . . الله يجعل اليوم يوم خير ، اسم الكريم ؟
مظلوم : الكريم ؟ ! (متسائلا) .
الشيخ : أنت خام خالص ، اسم حضرتك .
مظلوم : اسمى مظلوم رامى .
الشيخ : (يكرر الأسماء) ستوتة محمدين ، خفاجى العفش ، منصور

الحواوشي ، تمام . . . تمام اسمك . اسمك (يضحك بصوت مرتفع) اسمك مغموم حرامى .

مظلوم : مغموم الحرامى ؟ ! . . . هل حكمت المحكمة ؟ !

الشيخ : (مقهقهاً من أعماق قلبه) الله يجازى شيطانك . الكاتب كتب اسمك مغموم حرامى لأنه مستعجل .

مظلوم : مستعجل ؟ ومن استعجله ؟

الشيخ : (يعود إلى الضحك) التفاهم معك مستحيل . خط الكاتب سيء .

مظلوم : خطه أو حظى ؟ الفرق نقطة (يضحك مسروراً) .

الشيخ : الله . . . الله . ما دمت ضحكت فإن شاء الله يفرجها دعها لسيدك وهو يعدلها .

(تشاهد حركة ، يدخل الحاجب ، ويضع كتباً على منصة القاضى ثم يدخل الكاتب حاملا صفاً طويلا من القضايا يختفى وراءه) .

الحاجب : (يصرخ) محكمة !

مظلوم : (يرتعد ويقول فى صوت هامس للشيخ) أنا خائف يا عمى .

الشيخ : خايف . . . أنت قتلت أو سرقت ؟

مظلوم : كان أحسن . كابى لم يعض أحداً .

الشيخ : غداً يعض ، وأنت أيضاً ستعض .

مظلوم : صحيح ؟ !

الشيخ : صحيح وألف صحيح .

مظلوم : سأعض من مثلا .

الشيخ : (يشير إلى سيدة سمينة بأذرع ضخمة عارية) مثلا هذه

في ذراعها . . . وبعد ذلك ستعض كما تشاء . أصل الإنسان حين يبتدئ لا يعرف كيف ينتهي . . .

مظلوم : الله يبشرك بالخير ، وسأعض من غير محاكم .

الشيخ : محاكم ، المحاكم لمن لا يعض ، ولا تعض كلابه . . .

مظلوم : الله يطمئنك .

(في هذه الأثناء يكون القاضي قد فرغ من ست قضايا لا نسمع منها شيئاً ولا نرى إلا أشخاصاً يقفون أمام القاضي وينسحبون) .

القاضي : هات سبعة .

الحاجب : (بصوت منغم) مغموم حرامي . . . مغموم حرامي . . . حرامي . . . حرامي .

مظلوم : (يحاول الوصول إلى منصة القاضي فتتعذر عليه تلبية النداء بسرعة ويصل وهو يلهث) أفندم .

القاضي : نائم ؟

مظلوم : لا . . . كنت مع عمي الشيخ .

القاضي : عمك الشيخ ؟

مظلوم : (مشيراً من موضعه إلى الشيخ الذي كان يجلس إلى جواره) لكن لا أعرف اسمه .

القاضي : كنت مشغولا معه بالحديث عن قضيتك وعن المحكمة ؟

مظلوم : أبداً . كنا نتحدث في مسألة الكلاب التي تعض والكلاب التي لا تعض (يضج الجمهور بالضحك) .

القاضي : وفي أي مكان كان هذا الحديث ؟ . . . هنا في المحكمة ؟

مظلوم : طبعاً في المحكمة .

القاضي : اعتدل اتتعابط في المحكمة ؟! افهم أنك في المحكمة . . .

مظلوم : فاهم . ولكن فى الأول لم أستطع أن أعرف أن هذه الحجرة محكمة .
القاضى : إذن ماذا تكون ؟ سوق ؟ قهوة ؟ وكالة ؟
مظلوم : عمى الشيخ قال لى إنها محكمة ، وأنا قلت له أتكون محكمة الكلاب التى لا تعض (يضج الجمهور بالضحك) .
القاضى : أنت مجنون .
مظلوم : أنا مظلوم .
القاضى : مظلوم ولا مغموم .
مظلوم : الحقيقة أنا مظلوم ولكن حضرة الكاتب جعلنى مغموماً وحرامياً أيضاً .
القاضى : يعنى أنت لست حرامياً ؟
مظلوم : ولا مغموماً . . .
القاضى : إذن ماذا تكون . ولماذا جاءوا بك إلى هنا .
مظلوم : هذا ما أريد أن أعرفه من سعادتك .
القاضى : (يعنف) قف معتدلا . وانته من الكلام الفارغ وإلا وضعتك فى القفص . . .
مظلوم : القفص ؟ !
القاضى : (يقرأ التهمة) لأنه يأوى كلباً بدون ترخيص ، ودون اتخاذ الاحتياط اللازم مما أدى إلى إصابة البنت دلوعة عثمان . بجرح فوق الركبة . دفاعك ؟ كلامك ؟
مظلوم : كلامى أنا .
القاضى : نعم كلامك فى الشهود الذين شهدوا ضدك .
مظلوم : جيرانى ، وكلهم طيبون .
القاضى : يعنى أنت معترف بالجريمة .

مظلوم : أظن أن هذا أحسن الحلول .

القاضى : وهناك حلول أخرى ؟

مظلوم : يا سعادة القاضى ليس عندى كلب ، ولا كلبى عض أحداً لا بنتاً ولا ولداً . لى صديق ألح على فى أن يهدى إلى كلباً ورأيت من باب الاحتياط ، وقبل وصول الكلب أن أضع فى حديقة منزلى لوحة مكتوباً عليها « احترس من الكلب » . بمجرد وضعها جيرانى تصوروا أن الكلب جاء بالفعل ، رأوه ، بعضهم فرح به ، بعضهم خاف ، والبعض الآخر أراد أن يأخذ من أولاده جرواً ، وأناس لم يذوقوا طعم النوم من نباحه . . . قلت لهم وحلفت أغلظ الأيمان ليس عندى كلب . . . الكلب لم يحضر ، لم أنل شرف مجيئه ، ولكن كأنى أؤذن فى مالطة . وأخيراً ادعى أبو دلوعة أن كلبى عضها ، وزارنى واصطلحنا ، ثم بلغ ضدى . عم الشيخ قال لى لوكان عندك كلب عضوض ، لما جرؤ أحد على التبليغ ضدك . والظاهر أن هذا الكلام صحيح !

القاضى : (للعسكرى) يا عسكرى امسكه .

(فى هذه اللحظة يدخل غراب ومعه برقية ويحاول شق طريقه إلى منصة القاضى) .

القاضى : من أنت ؟

غراب : أنا غراب . . .

القاضى : غراب ؟ !

غراب : أنا صاحب المتهم ، صاحب مظلوم . . .

القاضى : أنت فاهم أنك فى وكالة من غير بواب . من آذنك تقاطع المحكمة .

غراب : يا أفندم أنا تسلمت الآن برقية مهمة فى القضية .
مظلوم : برقية . أية برقية يا غراب ؟
غراب : الكلب مات .
(جمع الشهود والشيخ والحاجب ومظلوم معهم) : مات !
القاضى : مات .
الشهود مرة أخرى مات ؟ !
القاضى : وأين الدليل على أن هذا الكلب ، هو الكلب الذى تسبب فى الحادث موضوع المحاكمة .
غراب : يا سعادة البيه ، مظلوم ليس عنده كلب ، وما أراد يوماً أن يكون عنده كلب ، ولقد بقيت سنين وأعواماً ألح عليه فى أن يقتنى كلباً ، وأخيراً ضعف أمام إلحاحى ، ولما علم بأن الكلب سيشحن من أرمنت إلى مصر ، صنع لوحة وكتب عليها « احترس من الكلب » شأنه فى كل الأمور . حريص على مصلحة الناس ، وعلى أداء واجبه .
جيرانه بمجرد قراءة اللوحة ، رأوا الكلب ، وخافوا ، وبلغوا ضد صديقى .
القاض : هذه الحكاية سبق أن سمعناها .
غراب : والحكاية صحيحة . . .
القاضى : واسمك ؟
غراب : اسمى غراب .
القاضى : (يبتسم) . يبقى مفهوم . اسمع يا غراب لا تهدى إلى أصدقاءك بعد اليوم هذه الأفكار النيرة . وأنت يا متهم .
مظلوم : أفندم .
القاضى : هذه المرة سنستعمل معك الرأفة .

مظلوم : الله يعمر بيتك .
القاضى : سنحكم عليك بغرامة فقط .
مظلوم : فقط .
القاضى : ولكن كمم كلبك .
مظلوم : حاضر .
القاضى : واحبسه .
مظلوم : حاضر .
القاضى : فاهم .
مظلوم : فاهم .
القاضى : ما الذى فهمته ؟
مظلوم : فهمت أن حضرتك استعملت معى الرأفة وحكمت على بغرامة لأن الكلب لم يصل إلى ولأنه مات فى الطريق ولأنه لم يعض أحداً . . . فهمت تماماً الله يعمر بيتك .

(ستار)



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٧١٣/١٩٧٠
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١



عدد خاص

عن الموسيقار

محمد عبد الوهاب

للأستاذ محمود عوض

دار المعارف بمصر

تقدم هذه المجموعة من روائع القصص العالمية المترجمة

- صورة دور يان جراى — تأليف اوسكار وايلد ترجمة الدكتور لويس عوض
- جوستين (الرواية الأولى من رباعية الإسكندرية)
  تأليف لورنس داريل ترجمة الأستاذ فخرى لبيب
- الضياع — بقلم جراهام جرين ترجمة السيدة صوفى عبد الله
- كبرياء وهوى — للكاتبة الإنجليزية جين أوستن ترجمة الأستاذ نبيل حلمى
- العذراء والغجرى والمرأة التى جمحت
  تأليف (هـ . لورانس ترجمة الأستاذ زغلول فهمى
- ذوبان الثلوج — تأليف إيليا اهرنبورج ترجمة الأستاذ سعد زهران
- جريتا — تأليف ارسكين كالدويل ترجمة الأستاذ محمد بدر الدين خليل
- نساء صغيرات (٤ أجزاء) — تأليف لويزا الكوت ترجمة السيدة أمينة السعيد
- للحب وقت وللموت وقت — تأليف اريك ماريا ريمارك ترجمة الأستاذ سمير التنداوى



محمود عوض

اقرأ

محمد عبد الوهاب

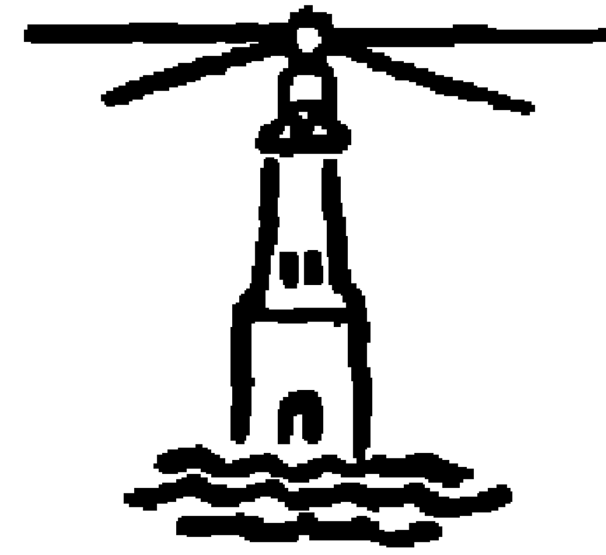


لبنان ١٥٠ ق.ل	سوريا ١٥٠ ق.س	الأردن ١٥٠ ف. ا
العراق ١٥٠ ف. ع	الكويت ١٥٠ ف. ك	السعودية ٣ ريالات
عدن ٥٠ بنسا	السودان ١٧٥ مليما	ليبيا ٢٠٠ مليما
تونس ٢٠٠ مليم	الجزائر ٣,٢٥ دينار	المغرب ٣,٢٥ درهم



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم و تفكير الغد

محمود عوض

محمد عبد الوهاب

اقرأ ٣٤٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٠ – أبريل سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

كلنا يعرف محمد عبد الوهاب . كلنا يتصور ذلك على الأقل .
ولكن . . من – غير زوجته – يعرف أنه ببي ؟ مَن – غير أخيه الشيخ حسن – يعرف أنه : محمد البغدادى ؟ من – غير سعد زغلول – يعرف أنه : أحمد ؟ من – غير المرحوم أحمد شوقى – يعرف أنه : محمد ؟ من – غير توفيق الحكيم ومحمد التابعى – يعرف حقيقة المرأة الثالثة التى تزوجها سراً ؟ من – غير المرحوم مكرم عبيد – يعرف المرأة الرابعة التى أصبحت نصف زوجة له ؟

أهذه الكلمات الخمس – كلنا يعرف محمد عبد الوهاب – مازالت صحيحة ؟

إن عبد الوهاب موجود معنا منذ سنوات طويلة . لقد ورثت عن جدى وأبى وأخى الأكبر أشياء قليلة ، كان على رأسها الإعجاب بصوت عبد الوهاب وموسيقاه . ربما يكون الحق معهم فى ذلك وربما لايكون. سوف نرى على أى حال . ولكن المهم الآن هو أن عبدالوهاب – ولمدة طويلة سابقة – عاش معنا بصوته وموسيقاه . معظمنا يمدحه غالباً وبعضنا يلعنه أحياناً .

إن أغانى عبد الوهاب وألحانه تسببت فى الحسرة عند أمهات العشرينات ، وفى الدموع عند عذارى الثلاثينات ، وفى الآهات عند سيدات الأربعينات ، وفى اللوعة عند عشاق الخمسينات ، ثم – مرة أخرى – تسببت فى الحسرة عند أمهات الستينات : حسرة على الماضى. كل شىء راح وانتهى .

ومع ذلك ، لم يمته عبدالوهاب . لقد بدأ الدورة من جديد . بدأ هذه المرة بعشاق السبعينات . إنه مازال يسكب الدموع من عيونهم ، والآهات من قلوبهم . مازال يضيف السحر إلى ليالينا ، والرقة إلى عواطفنا . إنه يفعل ذلك الآن من الباطن . إنه يشجينا بموسيقاه وأصوات الآخرين . فحيث يعشق اثنان بعضهما الآن — وفى هذه اللحظة — فإن عبد الوهاب سوف يكون ثالثهما : بصوته أو موسيقاه .

ربما من أجل ذلك نتصور أننا نعرف محمد عبدالوهاب . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً .

إن ما نراه من عبد الوهاب هو الجزء الذى يخرجه هو لنا لكى نعرفه . إننا نسمعه فى ميكروفون إذاعة ، أو نشاهده على شاشة تليفزيون . إن الشاشة لها متطلبات . إنها تضع أصباغاً على وجوه أبطالها لكى نراهم نحن فى أجمل صورة . إن الأصباغ لاتصبح على الوجوه فقط ، ولكنها تصبح على الصوت والكلمات والتصرفات والحقائق أيضاً . إن عبدالوهاب هو أول من يعرف ذلك . لهذا فإنه يكشف لنا دائماً عن فنه ، محتفظاً بشخصيته فى داخله .

ولكن فن عبد الوهاب لم يكن ممكناً إلا بناء على شخصية .

إن الجميع بدءوا مثل عبد الوهاب . ولكن الجميع لم يصلوا إلى ما وصل إليه هو . فن .

إن الجميع يلحنون الموسيقى . . ولكن عبدالوهاب وحده هو الذى أصبح ظاهرة موسيقية . فن .

إن الجميع ساروا معه . . ولكن عبدالوهاب وحده هو الذى يستمر بعد كل تصفية . فن .

إن هذا الفن هو الذى يميز عبدالوهاب عن غيره . إنه فن آخر غير مجرد الموسيقى . فن الشخصية . إن الشخصية هى المخرج ، والفن هو الجزء الذى يراه الجمهور ، هو الممثل . إن المخرج يحرك كل شىء

٧

بيديه من خلف الستار ، مع أن الناس فى النهاية لاتصفق له هو : ولكن للممثل الذى كان من صنعه .

لماذا إذن لانزيل الأصباغ من على وجه عبد الوهاب ؟ لماذا لانؤجل الممثل . . ونبحث فى المخرج ؟ لماذا لانفرز الشائعات فى فن عبد الوهاب من الحقائق ؟ لماذا لانترك المسرح وندخل وراء الكواليس ؟ لماذا . . لماذا . . لماذا لانبدأ من الصفحة التالية ؟

محمود عوض

الفصل الأول

الشخصيّة

دنيا عبد الوهاب

الليل . مدخل واسع يستطيع الإنسان أن يدخله بقدميه أو بسيارته. سلالم . ممر طويل وقفت فى منتصفه واستدرت يساراً لأدخل فى « الأسانسير » . الضوء شاحب قليلا ، ولكن هذا لايمنعني من الضغط على الزر فى طريقى إلى أعلى صاعداً إلى الطابق الثانى . لاحركة . لقد ضغطت على الزر من جديد أملا فى أن يتحرك « الأسانسير » . لا حركة . مرة أخرى — لا حركة . عندما تفشل المياه فى الصعود إلى الطابق الثالث فى منزلى فإن « أسانسير » محمد عبد الوهاب من حقه أن يفشل فى الصعود إلى الطابق الثانى من منزله . تحيا المساواة .

إننى الآن أخرج من « الأسانسير » لأبحث عن أحد قريب أسأله . إننى لا أرى أحداً فى مدخل العمارة إلا رجلين : حارساً ، وبواباً . الحارس . . حكومة ، والبواب . . أهلى . إن البواب هو الذى يرد — أشكرك — ومن فضلك . . هل « الأسانسير » عاطل ؟ بالطبع ليس « الأسانسير » عاطلا ، ولكن زر الطابق الثانى بالذات هو الذى لايعمل إلا بطريقة خاصة . هذه هى الطريقة . مضبوط ؟ مضبوط .

الدور الثانى . النور والممر والجرس . « . . نعم ، الأستاذ موجود . تفضل » .

لم يحدث قط أن أخطأت « سعاد » فى الرد . عبد الوهاب موجود ، غير موجود ، هنا ، هناك . . ولكن لابد دائماً من كلمة « الأستاذ . . » . . معها الحق . إذا لم يكن الإنسان أستاذاً فى منزله . . فأين إذن ؟ ! أشكرك . أفضله بغير نعناع . فى بيت عبدالوهاب لايحتاج الإنسان إلى نعناع مع الشاى . يكفى أن يحتوى الكوب على شاى فقط . الباقى هو عبد الوهاب .

عبدالوهاب يبدأ فى الحديث : « أنت المسئول . . ياحياتى أنا فى

انتظارك من نصف ساعة ، أنت المسئول » . طبعاً أنا المسئول . ولكن . . إذا كان كل شيء يتأخر في هذه الأيام : المرور والأتوبيسات والحرارة في التليفونات والكهرباء في الأسانسير والمياه والنور والقطارات والطائرات والاجتماعات والعلاوة والمرتب والحلاق والتاكسي وابن خالتي — فلماذا لا أتأخر أنا وأصبح جزءاً من الأغلبية ؟ جزءاً من القطيع ؟ هه . .؟ لماذا ياعبد الوهاب ؟ !

عبد الوهاب لايرد . إنه — فقط — يسأل ويقرر : هل المكان هنا أحسن . . أو في الداخل ؟ في الداخل .

وقبل أن يخرج الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة كان عبدالوهاب قد أصبح في الداخل فعلا . الداخل هنا هو الصالون الإضافي حيث التليفون والتليفزيون وصورة ملك المغرب — وعبد الوهاب وأنا . بالنسبة لعبدالوهاب انتهى الأمر : لقد زرع نفسه على حافة الكرسي الوثير ، الأقدام نصف ممدودة ، الركبتان ملتصقتان ، الكتفان منحنيتان إلى الأمام ، ثم — الآن — يسقط عبد الوهاب يديه . اليد اليسرى ممتدة إلى الخلف . اليمنى تميل إلى الأمام على فخذيه . . يد طليقة عند المعصم . المرفق الأيمن مسند إلى الركبة اليمنى بعد أن اعتدل عبد الوهاب على كرسيه . . جاعلا أذنيه المسجونتين في رأسه إلى الأمام كثيراً . . مع رأسه الأصلع وعقله المفتوح .

إن عبدالوهاب يتذكر ويسأل : أين كنا نتحدث أمس ؟ أين؟ . . أين . . ؟

إنني أرد اختصاراً للوقت : كنا نتحدث في مشروع زواجك السري . .

— آه . . آه . . وبعد ياسيدي لم أستطع أن أتحملها ، لم أستطع برغم أنني كنت أحبها جداً . ومع ذلك فالحب لايكفي ، لابد أيضاً من . . من . . مين ؟

الآن دخلت نهلة – زوجته – بالتليفون فى يدها اليسرى والسماعة مرفوعة فى يدها اليمنى وإحدى أذنيها مع المتكلم على الطرف الآخر ، والأذن الأخرى مع عبد الوهاب .

– تليفون لك يابيبى . . .

هكذا تقول نهلة . إن عبد الوهاب يمسك بالتليفون ، يده اليسرى تحمله واليمنى تمسك بالسماعة .

« بيبى » يتكلم فى التليفون . إننى لا أسمع سواه الآن فى حين صوت نسائى من الطرف الآخر يصلنى ضعيفاً رفيعاً فى أثناء حديثها مع نهلة ، إلى أن أمسك عبد الوهاب بالسماعة فتوقف الصوت وبدأ عبد الوهاب يتكلم .

« هالو . . ! نعم . . مين ؟ آه . . أهلا ياروحى ! أهلا يافايزة . . خير . . فين ؟ جلال ؟ أبداً يافايزة . . كان بيكلمنى الظهر ماقالش حاجة . . ليه ؟ . . إزاى ؟ لا . . لا . . لا . . اسمعى يافايزة . . اسمعى يا . . يا . . يا اسمعى يافايزة . . مائة وخمسين جنيه . . مائة جنيه . . خمسين جنيه . . خمسة جنيه . . برضه . . لازم تسجلى . . لا . . لا . . ليه ؟ بعيد الشر . . أنا . . أنا . . اسمعى يافايزة . . اسمعى . . حاضر . . حاضر . . حاضر . . حاطلبك . . أنت فى البيت ؟ حاضر . . حاضر . . باى » .

انتهت المكالمة . عبد الوهاب يدير قرص التليفون . بدأت مكالمة جديدة .

« هالو . . أهلا يا حياتى . . أنت فين ؟ فايزة زعلانة ليه ياحياتى ؟ لا . . لا . . معلهش . . سجلوها بكرة الساعة خمسة . . معلهش . . أنا باقول بكرة الساعة خمسة ، مفهوم ؟ آه . . آه . . مرنى يا حياتى . . أنا دايماً باقول إنك مرن . . طيب . . طيب . . . الله يخليك لى ، مع السلامة ياروحى » .

انتهت المكالمة من جديد. عبدالوهاب يضحك . انتهت الضحكة تماماً مع كلمته الأخيرة فى سماعة التليفون. خلال المكالمتين رأيته يبتسم ، يضحك ، يتجهم ، فى ثانية واحدة يتجهم ، فى الثانية التالية يضحك من جديد : إن وجهه يبدو جاهزاً فوراً لارتداء أكبر عدد من الأقنعة فى أقل وقت ممكن .

إن صوت عبدالوهاب - خلال الدقائق العشر السابقة - كان يسقط من الضحك إلى الغضب فى نفس واحد . إنه - فى إحدى المكالمتين - انحنى فجأة على إحدى ركبتيه وبسط ذراعه اليسرى وضم قبضته وألقى برأسه إلى الخلف وبدأ يتكلم - مرتجفاً من الغضب ، ولكن الغضب زال فجأة فى لحظة معلناً الابتهاج السريع والكلمتين المتكررتين « مرتى - يقصد مرسى - ياحيانى » ! وعندما يرتدى عبدالوهاب قناع البهجة على وجهه فإن القناع يصبح مقنعاً بحيث لاتسحب اقتناعك إلا فى اللحظة التالية ، عندما يتراجع ابتهاج عبدالوهاب فجأة ليتحول إلى غضب-إنك فى كل مرة لايمكن أن تكون متأكداً تماماً مما إذا كان فعلا صادقاً فى الغضب أو صادقاً فى البهجة . . إنه فقط اللمعان فى عينيه - من خلف نظارته الطبية السميكة - الذى يكشف عن حقيقته لهؤلاء الذين يعرفونه .

ولكن الذين يعرفون عبد الوهاب يعرفون أن له دستة وجوه . نعم ، اثنى عشر وجهاً يرتديها عبد الوهاب ، أحدها الذى أراه الآن : نحيف مائل ، وجه مازالت فيه آثار الماضى ، وجه مشدود ، بإشارات متحركة وسريعة . بعد خمس دقائق - حينما يدق التليفون من جديد - أو حينما أتابع مناقشتى معه ، يمر وجهه وهيئته بعملية تحول سريعة . إنه سوف يبدو من جديد كنجم سينمائى ، كمطرب ، كفنان ، بوجه معتدل متراجع إلى الوراء ، بإشارات هادئة ثابتة بطيئة ، بحيوية متركزة فى الكلمات التى ينطق بها . نعم عبد الوهاب له دستة وجوه ، مع أنها ليست

مألوفة للناس . إن المألوف للناس هو فقط ذلك الوجه الثابت الذى صورته الكاميرا مرة فى برنامج تليفزيونى . . بالجانب الأيسر تراه المذيعة ، والجانب الأيمن مخصص بالجمهور . لابد أن يكون الجانب الأيمن للجمهور . إن عبدالوهاب يمينى مع الجمهور ويسارى مع المذيعات والصحفيين . حل وسط يتمشى مع رغبات الاثنين . إنه الآن فى منزله . . لهذا أراه محايداً ، فى الوسط تماماً . الآن بلا قناع مطلقاً . . الآن لحظة من الصمت . الجلوس فى صمت .

إننى أحياناً أتساءل : لماذا أجلس مع عبدالوهاب ؟ أحياناً يفرض السؤال نفسه على ويلح على عقلى ؛ ليس بهدف التساؤل حقاً ، ولكن بهدف تحديد الأسباب . وبعد مزيد من التفكير أكتشف أن الإنسان يجلس مع عبدالوهاب لأنه . . لأنه . . وهنا تصبح الأسباب كثيرة ومتداخلة وغامضة ، بحيث لاتصبح هناك حاجة — أو ربما لا احتمال — فى الحديث عنها بعد .

إن الممكن فقط هو أن كلا من المعجبين والمعارضين لديهم قائمة أسباب طويلة للاستماع إلى عبد الوهاب . أنا لا أنتمى بعد إلى واحد من الفريقين . جيلى كله لاينتمى إلى واحد من الفريقين . إننى — ومعى فى ذلك جيل كامل — أريد فقط أن أفهم أولا . . وأستمع . . . وأناقش . . وأتساءل . . وأشك . . وأبحث . . وأفكر . . وأوازن ، ثم — فى النهاية — أصل إلى رأى .

إننى إذن أريد أن أستمع إلى الحقيقة فى عبد الوهاب كأنجح فنان ! وأروع ملحن ! ! وأحسن خبير دعاية ! ! ! وأكبر تاجر ! ! ! ! وأعذب صوت ! ! ! ! !

إن عبدالوهاب يجلس أمامى الآن كشخص مثالى تماماً : هادئ ، متزن ، محايد ، لايشرب . . ولايدخن . إننى لا أدرى كيف يعيش الإنسان فى هذه الأيام بدون سجاير ! الطعام لا . . ولكن السجاير ؟ ممكن ؟

إن عبدالوهاب يقول : ممكن ، ويعيش بهذا الممكن . إنه يعيش فى عصره تماماً — أقصد عصرنا نحن . إنه يحب دائماً أن يقال عنه إنه رجل عصرى . حسناً ؛ إن لديه فى الواقع آراء عصرية كثيرة ، آراء فوق الركبة ، آراء جاهزة وحسب الطلب ، هل تريد عينة ؟ هذه هى :

— ما هو الفن يا عبد الوهاب ؟

— إحساس جميل ينقله الفنان إلى الناس .

— هل ينقل الفنان عن الطبيعة ؟

— لا . الفنان ليس ساعى بريد .

— إذن . . من هو الفنان ؟

— الفنان نوعان . .

— ماهما ؟

— فنان مثل ورق النشاف ، يلتقط كل شىء وفنان مثل الورق الجلاسيه ، لايحتفظ بشىء !

— ما هو الحب ؟

— هو إحساسك بأنك غير كامل إلا بوجود شخص تحبه.

— ما هى السعادة ؟

— شىء نتكلم عنه جميعاً . . ولا ندراه .

برافو عبدالوهاب . أنت الآن شخص واقعى تماماً . كثيرة هى الأشياء التى نتكلم عنها ولاندراها . شعارات . السعادة : شعار من الشعارات . ولكن هذا يتوقف — على أى حال على مفهوم كل منا للسعادة . أنا شخصياً سعادتى الآن — فى هذه اللحظة بالذات — هى تلك المدفأة على بعد مترين منى ومن عبدالوهاب . إن هذه المدفأة هى جزء من الدنيا التى صنعها عبد الوهاب لنفسه . هذه الشقة هى دنيا عبدالوهاب . إن أى شىء يقع خارج هذه الدنيا لابد أن يخضع فى دخوله لنظام الحياة فى هذه الدنيا — دنيا عبد الوهاب.

في دنيا عبدالوهاب لاتوجد شمس ، ولاقمر ، ولانجوم ، ولاصيف ولاشتاء ، ولاخريف ، لاتوجد برودة ، لايوجد صقيع ، لاتوجد حرارة أكثر مما ينبغي ، ولاتغيير ، ولامفاجآت ، ولا حتى انفعال . إن الانفعال كله — التقلب كله ، الحرارة كلها . . موجودة داخل عبدالوهاب نفسه . في داخل عبدالوهاب تستطيع أن تحس بالصيف أحياناً ، ثم بالشتاء بعد ساعة ، تحس بالربيع الآن ، ثم بالعواصف بعد خمس دقائق . فنان . عبد الوهاب فنان . دنيا الفنان هي نفسه . في داخل الفنان يوجد عالمه الخاص إن الشقة التي يعيش فيها عبدالوهاب هي مجرد إطار لعالمه الخاص . داخل الشقة تستطيع أن تجد درجة الحرارة ثابتة دائماً . في الصيف تحتاج الشقة إلى تبريد ، في الشتاء إلى تدفئة . نحن الآن نستمتع بالتدفئة . أما في داخل عبدالوهاب — تحت جلد عبدالوهاب فلن تجد درجة الحرارة ثابتة أبداً . مطلقاً . مستحيل. إنه كان يتحدث في التليفون منذ لحظة ، ربما يتحدث من جديد بعد لحظة . أما الآن — في هذه اللحظة — فإن عبدالوهاب غير موجود . عبد الوهاب اختفى . ملح وذاب . إنه أمامي بدمه ولحمه بجسمه ونظاراته الطبية ، إنه أمامي يرتدي بيجامة مخططة فوقها روب من الصوف . روب أزرق . إن قدميه في شبشب أسود وجورب رمادي . عيناه خلف نظارتين كلتاهما تم إدماجها في نظارة طبية واحدة من الوزن الثقيل . من خلال النظارة ينظر عبدالوهاب إلى الأمام . إلى لاشيء . إلى الفراغ . إنني أجلس بجانبه على بعد نصف متر ولكنه لايراني . إن عيني عبدالوهاب تتجهان الآن نحو جهاز التليفزيون . جهاز مقاسه ٢٣ بوصة. ولكن التليفزيون مطفأ ، وعبد الوهاب لا يراه على أي حال . إن عبدالوهاب — الآن في هذه اللحظة وفي أثناء كتابتي هذه الكلمة — ينظر إلى داخله ، إلى أعماقه ، إنه يهمهم إنه يدندن ، إنه يتمتم ، إن فمه يتحدث بطريقة أتوماتيكية . . ولكن عقله ليس معي . ليس الآن .

إن عبد الوهاب يتكلم ــ كلامه متقطع غير مستمر . يتكلم على سطر ويتمتم على سطر! !

« . . أنا كان عندى عقدة من الستات . همممممم . . عقدة أعرف سببها جيداً وسوف أخبرك تفصيلا. . . م م م م . . . .

« أنا أحب أمى . . م م م م . . كثيراً .

« عندما كنت صغيراً تزوج أبى على أمى بزوجة . .م م م م. . .أخرى. من يومها رأيت فى عينها الحزن ــ من يومها شعرت معها بالتعاطف و . . . ممم . . لابد أن أزور قبرها غداً . أنت اتفقت مع يوسف وهبى؟ يوسف فنان عظيم .. أنا حاكلم رامى . . طبعاً . . م م م . . أحمد رامى شاعر فنان . . هم م م م م . . كثيراً » .

هكذا يسرح عبد الوهاب هكذا يجلس بفم يتكلم وعقل يهمهم . تفسير ؟ إن هذه الهمهمة هى نغمات فى دور التكوين . ألحان فى دور الطفولة . الآن عبدالوهاب حامل . عقل عبد الوهاب حامل . إن الحمل ربما يكون لحناً لأم كلثوم ، ربما لعبد الحليم ، ربما لأى صوت آخر من الأصوات التى يستعيرها عبد الوهاب الآن للتعبير عن عواطفه . حتى سنوات قليلة كان عبد الوهاب يعبر عن عواطفه بنفسه . إنه يحس باللحن ، بالكلمة ، فيغنيها للناس . لكن المطرب عبد الوهاب تراجع الآن ليفسح المكان للملحن عبد الوهاب ، للموسيقار عبدالوهاب. لهذا أصبح عبدالوهاب الآن مضطراً للاقتراض والاستعارة . مضطراً لوضع فلتر على عواطفه. إنه ينفعل، إنه يترجم انفعالاته إلى لحن مسموع إن هذا اللحن يصل إلى أسماع الناس عن طريق صوت آخر غير صوت عبدالوهاب . فلتر . ربما يكون الفلتر ممتازاً ورائعاً ، وربما لايكون . . هذه مسألة اختيار من عبدالوهاب . هذه أيضاً مسألة . . مرة أخرى : التليفون .

مرة أخرى تدخل نهلة — الرقيقة نهلة — لتقول لزوجها : تليفون يا بيبي .

إن عبد الوهاب هو بالنسبة لنا محمد عبد الوهاب . ولكنه بالنسبة لنهلة هو « بيبي » أقولها من جديد : ب ى ب ى . لامعنى ولاشرح ولاتحليل ولاتفسير . مجرد : تدليل . التدليل ينتقل الآن إلى التليفون :

عبد الوهاب يتحدث : جو ؟ مين جو ؟ آه . أهلا يا حبيبي . . أهلا . . هي عندك ؟ طيب أكلمها وحياتك . . أهلا ، أهلا ، أهلا ، أهلا بالكلوب .

جملة اعتراضية : « الكلوب » بالنسبة لعبد الوهاب هي المطربة صباح !

« أهلا بالكلوب . . ! إزيك يانور عيني . . ! لأ . . ده معقول ؟ وصلتي إمتى ياروحي ؟ مش معقول؟ . . ال . . ال . . ال . . . ال . . . ال . . . . البلد عشان كده نورت . ،آه . . أنا ، أنا ، ،أنا ، أقول إيه . . . أقول . . . . . . » .

أنا الذي أقول الآن لنهلة — إلى أن ينتهي عبد الوهاب من أحضانه التليفونية ، أقول لها : مالك ؟ — أبداً . . من خمس دقايق ، دق التليفون ، رديت . . لقيت واحدة قالت لى : ياسم ! . وقفلت السكة » !

نهلة تضحك ! طبعاً هي مسألة تستحق الضحك . إنها تستحق لأنها ليست أول امرة تتعرض فيها نهلة لمثل هذه المضايقات التليفونية . ربما هبطت المضايقات الآن ، ولكنها كانت فى قمتها يوم تزوجت نهلة بعبد الوهاب

نهلة تتذكر : « . . من أول يوم لى مع عبد الوهاب هنا ، كان فيه واحدة — معجبة — معتادة أن تطلب بيبي — عبد الوهاب — كل ليلة ، علشان يقول لها : تصبحى على خير . . وإلا فإنها لاتنام ! (نهلة تشعل سيجارة) . . .

« . . وبعدين كان بيبي لايرد ، ويقول لى اقفلى السكة . لكن ، المعجبة تطلبه ثانى ، وثالث . وعاشر ، وتصمم لازم يقول لها : تصبحى على خير ! هذا وإلا تنتحر . إنها تقول ذلك . ليلة وليلة و . . سنة على هذه الحال ! تصور . . سنة ؟ ! اضطرينا بعدها لتغيير نمرة التليفون » ! مسكينة نهلة . إنها تنوب عن جنس كامل فى الاهتمام بعبد الوهاب ، ولكن بعض بنات جنسها لايعترفن بنيابتها عنهن ، مع أنهن لو يعلمن الحقيقة . . لعلمن أنها تؤدى مهمتها بطريقة مرضية .

ولماذا أذهب بعيداً ؟ أمس – أمس فقط – كان يوسف وهبى يتحدث معى بطريقة « شرف البنت زى عود الكبريت » ويقول : « معقول . هناك تغير كبير فى حياة عبد الوهاب وتصرفاته من يوم زواجه بنهلة. آه . . تمام . . نهلة دى ست عظيمة» .

ولكن . . أنا لا أرى الآن عظمة نهلة . أرى فقط : أناقتها وخفة دمها . أرى أيضاً بضع كلمات سورية اللهجة تتساقط فى حديثها من وقت لآخر . نهلة تقول مثلا : « أول مرة شفت فيها عبد الوهاب كان ملفلف فى بالطو . . يوم ماتجوزنا قالوا له : نهلة دى خروبة . . هايدى إشاعة طبعاً .. لكن لابسة فسطان عليه زنار» .

إن نهلة تتحدث وتتحدث. إن كل شيء فيها يبدو بالفعل ضرورياً بالنسبة لعبد الوهاب . رقتها ، خفة دمها ، ذكاؤها ، دبلوماسيتها ، روحها الاجتماعية ، ذوقها ، ترتيبها ، كل هذا ضرورى لعبد الوهاب من أجل أن يتفرغ لدنياه الخاصة ، لعالمه الخاص فى داخله . . عالم الغناء والموسيقى والألحان! . إنك تستطيع أن تحسب عمر عبد الوهاب بالألحان التى وضعها . إن الألحان هى حياة عبدالوهاب ، هى متعته ، هى فنه ، هى كل ما يحيا من أجله . إن أى لحظة أوساعة من اليوم تضيع بغير عمل – أو دعاية لعمل ! – هى مجرد جملة اعتراضية ، هى ساعة غير محسوبة ، هى لحظة ضائعة . إنه إذا جلس مع صديق ،

إذا استمع إلى برنامج ، إذا تحدث فى التليفون ، إذا رد على تليفون ، إذا قال لك « حياتى .. نور عينى .. روحى .. » أو أى كليشيه آخر يستخدمه عبد الوهاب ، فإنما يفعل ذلك بهدف خدمة عمله ، خدمة فنه ، خدمة طموحه . إذا حدث غير ذلك .. إذا كانت علاقتك بعبد الوهاب لاتخدم عمله ، إذا كان وقتك مع عبدالوهاب لايخدم فنه ، إذا كانت المسألة مجرد وقت ضائع فى أهلا وسهلا وكيف الحال .. فإن عبد الوهاب يعتبر أنك تقاطعه ، تقاطع حياته ، تقاطع انشغاله بفنه .. وانشغاله بنفسه أيضاً .

لهذا أستطيع أن أقول إن حياة عبد الوهاب – حياته كلها – هى سلسلة من المقاطعة المستمرة . إن عبد الوهاب يعمل . وعندما ينشغل عبد الوهاب بشىء آخر فإنه لايستأنف العمل . إنه فقط يعمل من جديد. هذا ضرورى لفهم شخصية عبد الوهاب ، لأنه فى خلال خمسين سنة سابقة كان كل ما يطلبه من الدنيا هو أن تسمح له بالعمل والغناء والتلحين . لقد ظل كذلك بصفة مستمرة ، فى الجو الصحو والجو الممطر .. فى الشارع أوفى المنزل أو على الرصيف .. خلال الحروب والثورات والإضرابات .. خلال الجوع واليأس والهجوم والنقد والسخرية والإذلال والاكتئاب والهزيمة ثم – أخيراً – بعد أن حقق جزءاً كبيراً من أحلامه . إنه – حتى بعد أن حقق أحلامه – أصبح يعمل بحماس أكثر مما كان لديه فى البداية .

إنه الآن يعامل كل نغمة جديدة باعتبارها نغمته الأولى . إنه يخاف من الجمهور عند كل لحن جديد كما لو كان ملحناً تحت الاختبار. إنه يبتهل ويصلى ويقرأ الفاتحة حينما تبدأ إذاعة كل لحن جديد على الجمهور، ولايقول « آمين » إلا مع أول عاصفة تصفيق من الجمهور . إن عبد الوهاب لم يلعن حظه مطلقاً – لم ير فى قلقه عبثاً عليه ، ولا فى خوفه مانعاً له من التقدم – لأن عبد الوهاب لم يساوره الشك قط فى أنه مستمر.

إنه يتحمل مسئولية استمراره مع كل نجاح يحققه غالباً . . أو إخفاق يواجهه أحياناً . إن الموت — الموت وحده — لو قطع برنامج عمله فإن عبد الوهاب سوف يستأنف التلحين والغناء فى العالم الآخر. هذا حقيقى ، هذا — على الأقل — يبدو لى كشيء حقيقى ، لأنك مع عبد الوهاب تحس أنه فنان ٢٥ ساعة فى اليوم . تحس بأنه فنان منذ لحظته الأولى فى الحياة . فنان منذ مولده . فنان حتى وهو فى رحم أمه ، وربما قبل ذلك . لقد كان موجوداً فى أغنياتنا وعواطفنا قبل أن يأتى إلى الدنيا .

ولكن عبد الوهاب يعيش الآن فى دنيا من صنعه هو . دنيا مختلفة كثيراً عن دنيا أى إنسان آخر . إننى أراقبه من بعيد دائماً وهو يتحدث أمامى فى التليفون . إننى لا أستطيع أن أتخيل أن عبد الوهاب هذا — الذى يجلس أمامى — قد غنى أحياناً بدون بنطلون، ولا أوشك مرة أن يعتزل الغناء والتلحين لكى يعمل كاتباً على الدرجة التاسعة فى الحكومة ، ولا عجز مرة عن الحصول على الطعام لمدة أسبوع . لا أستطيع أن أتصور أن الجمهور طرده مرة من فوق المسرح معترضاً على غنائه ، ولا أنه توقف عن الغناء ثلاث سنوات بقرار من حكمدار القاهرة ، ولا أن أباً رفضه مرة كزوج لابنته لأنه يعمل « مغنواتى » إن هذا كله حدث لعبد الوهاب . . ولكنى لا أستطيع تصوره لهذا الإنسان الذى يجلس الآن أمامى متحدثاً فى التليفون .

بعد التليفون وصل زائر لعبد الوهاب . إننى أعلم أن هذا الزائر بالذات هو واحد من الذين تفرضهم الضرورة على عبد الوهاب — ضرورة العمل — ومع ذلك فإن عبد الوهاب بدأ يجامله من جديد « مرسى ياروحى . . هايل ياحياتى . . تمام ياحبيبى » . إن المجاملة هنا زائدة ، إنها بين أهل السينما والغناء والطرب والموسيقى دائماً مجاملة زائدة . إن البعض — حتى —

يسميها نفاقاً وليس مجاملة . ولكن النفاق هنا محتمل مادام كل المشتركين يعلمون مقدماً أنهم يلعبون لعبة واحدة.هذا شيء لايتميز به عبدالوهاب. إن مايتميز به هنا هو أنه يريد أن يحتفظ بين معارفه بكل أنواع الأصدقاء الكاذب والصادق ، الأصفر والأبيض ، الأحمر والأسود ، المجامل والمنافق والنصف نصف . . وحتى بعض « الأرزقية » الذين لايستفيد منهم عبد الوهاب إلا لتسليته . إن القضية بالنسبة لكل هؤلاء بسيطة . فبمجرد أن تعرف عبد الوهاب يأخذ تفكيرك مساراً مختلفاً . إنك سوف تجد نقطة ما تجعلك دائماً تتعلق بعبد الوهاب . فحيث لاتستطيع أن تحترم عبدالوهاب تستطيع أن تحبه . وحيث لاتستطيع أن تحبه ، تستطيع أن تعجب به . وحيث لا تستطيع أن تعجب به تستطيع أن تلعنه . وحيث تستطيع أن تلعنه ، تستطيع دائماً أن تحترمه من جديد ! هذه هي القضية بالنسبة للذين يعرفون عبدالوهاب. أما بالنسبة له هو . . فإن القضية أبسط من ذلك كثيراً . إنه يؤمن بأنه محتاج إلى الناس . كل شخص يستطيع أن يفعل له شيئاً ما ، إن لم يكن اليوم فغداً أو حتى فى العام القادم . ومع ذلك — وبحكم الضرورة والوقت — يقوم عبد الوهاب دائماً بعملية « جرد » مستمرة لحمولاته من الأصدقاء والمعارف . إنه لايريد أن يحتفظ فوق كتفيه بأثقال كثيرة— طبعاً علاقات الإنسان هي أثقال كثيرة — لهذا يتخلص من الحمولات الزائدة أولا بأول. إن بعض الناس قد يعترض على هذا الأسلوب أخلاقياً ، ولكننى هنا أرسم واقعاً— ولا ألقى خطبة . إن عبد الوهاب يفعل ذلك متعمداً . فبالتعمد وسبق الإصرار تستطيع أن تجده يضع الصدأ على العلاقات التى أصبحت زائدة على حاجته . وعند أول فرصة يقوم من جديد « بتلميع » هذه العلاقات وإزالة الصدأ منها . . لتعود العلاقة زاهية من جديد . إنه — على أى حال — ليس الوحيد الذى يفعل ذلك بين فنانينا ، فهناك من يفعلها بشكل أسوأ

منه وأكثر وضوحاً وربما أكثر غباء . بعضهم يسيرون فى الحياة حاملين فى جيوبهم أقنعة جاهزة للارتداء فوراً حسب الطلب ، بحيث يخرجون رداء التواضع المطلق عندما يحتاجون إلى إنسان ورداء العنجهية المطلقة حينما يحتاج إليهم هذا الإنسان نفسه .

أقول إن عبد الوهاب يحتفظ لنفسه على الأقل بمقاييس أكثر أخلاقية من كثيرين من هؤلاء الذين يتجردون من الأخلاقيات بنفس السهولة التى يتجردون فيها من ملابسهم . ولكن عبد الوهاب هو الآخر لديه أقنعته الخاصة . أحد هذه الأقنعة هو الذى يراه الكثيرون فى وجهه وكلماته . إن عبد الوهاب — عندما أفكر فيه من بعيد أفكر فى رجل وجهه مصنوع من الورق المقوى ، يداه مصنوعتان من الجبس ، وابتسامته مرسومة بافتعال ، وكلماته منتقاة فى تكلف ، وتعبيراته مصوغة فى أدب زائد وردوده محددة مقدماً لتعطى تأثيراً سبق تخطيطه . فى هذه الحالة سوف تكتشف فعلا أنك لاتجلس مع عبد الوهاب ، ولكن مع قناع عبد الوهاب ، وسوف تكتشف أن القناع هو الذى يتكلم وليس الشخص . فىهذه الحالة ربما تقبل هذا الأسلوب أو ترفضه . أنا شخصياً أرفضه .

ولكن عبد الوهاب هو من قريب إنسان غير ذلك تماماً . إنه صديق ودود ومجامل ، وإنسان فى مشاعره . إنه أيضاً رقيق فى عواطفه بعض الوقت . إن قناع التكلف الذى يرتديه أحياناً فوق وجهه هو رد فعل للأيام التى تعامل فيها مع الدنيا من موقع الضعيف المحتاج الذى لايحترم المجتمع مهنته . فى خلال تلك الأيام المبكرة من حياته كان « تعاطى الغناء » شيئاً أقل احتراماً من هزّا الوسط . فى تلك الأيام قاسى عبد الوهاب كثيراً من الإذلال والجوع وخيبة الأمل والفقر والحرمان والعذاب والشقاء . إنك تراه فخوراً وطموحاً . . ومع ذلك نرى فىتصرفاته بقايا من المبالغة

فى وضع مسافة بينه وبين الآخرين . إن هذا ربما يكون فى تصوره أسلوباً للاحتفاظ باحترام الناس له . إن عبدالوهاب يريد أن يحترم نفسه أولا حتى يحترمه الناس بعد ذلك . هكذا تصرف عبد الوهاب — ليس الآن — ولكن من ثلاثين وأربعين سنة . لقد ذهب مرة يغنى فى أحد الأفراح بقرية مجاورة لبنها ، وقبل الغناء دعاه صاحب الفرح للعشاء على مائدة المدعوين فى حين اختار لأفراد الفرقة الموسيقية مكاناً فى حظيرة البهائم . لحظتها انصرف عبد الوهاب مع فرقته احتجاجاً على هذا التصرف . وفعلا عاد الجميع ليلتها دون أن يقوموا بإحياء الحفل . إن هذا التصرف كان ضرورياً من وجهة نظر عبد الوهاب ، لأنه يرى أن احترام الناس لأفراد فرقته هو جزء من احترامهم له شخصياً ، واحترامهم له هو بالتالى جزء من احترامهم لمهنته وعمله .

إن التمسك بالشكليات ليس إذن عند عبد الوهاب مجرد تمسك بالشكليات ، ولكنه رد فعل لأيام عاشها وعاصرها · أيام من الفقر والمهانة . إن رد الفعل التالى الذى خلقته تلك الأيام عند عبد الوهاب هو الحرص على الأموال التى يكسبها . إنك مع عبد الوهاب تحس أنك مع مليونير فقد ثروته منذ خمس دقائق ، بالطبع هو لم يفقد ثروته ، ولكن تصرفاته نفسها تعطيك هذا الإحساس . هناك اسم آخر متداول لتلك العادة عند عبد الوهاب : البخل . إن بعض الناس يسمى البخل بخلا ، وبعضهم يسميه احتياطاً للمفاجآت ، وبعضهم يسميه حرصاً . عبد الوهاب من النوع الأخير . وبصرف النظر عن رأى عبد الوهاب فإن المتفق عليه أن الجنيه الذى يدخل جيبه هو عشرة قروش ، ولكنه يخرج من جيبه كعشرة جنيهات ! إن عبد الوهاب هو رجل اشتراكى جداً فى عواطفه ، ولكنه رأسمالى للغاية فى أمواله : أقصى أرباح بأقل ثمن . لهذا فإنك تجد فى عقل عبد الوهاب سؤالا جاهزاً دائماً للانقضاض عليك

كلما تناقشت معه . هذا السؤال هو : كم ؟ كم من الأرباح يحققها هذا المشروع ؟ كم من النقود ؟ كم من الأموال ؟

إن هذا السؤال الموجود دائماً فى عقله الباطن هو رد فعل آخر لأيام الفقر التى بدأ بها حياته . رد فعل لارتفاعه من قاع المجتمع . إن عبد الوهاب خرج من القاع وصعد على السلم وأصبح هناك فى أعلى مكان فوقنا . إن الذين يحدث لهم ذلك يخشون دائماً السقوط ، لأن السقوط فى هذه الحالة سوف يكون مميتاً ، ولأنهم يعرفون كم فى حياة القاع من فقر وذل وحرمان . إن المخيف هنا لايكون الفقر فى حد ذاته ، ولكن الإذلال الذى يترتب دائماً على الفقر . فى مجتمع كمجتمعنا يصبح المال دائماً وسيلة إلى كل شىء ، وممثلا لكل شىء . ممثلا للصحة والقوة والكرم والسلطة والنفوذ والاحترام والجمال . . مثلما يكون الفقر ممثلا للضعف والعار والمهانة والحقارة والحاجة والضياع والعجز والقبح .

وفى الدنيا التى صنعها عبد الوهاب لنفسه كان المال دائماً أحد الضمانين اللذين يستمر بهما فى الحياة . إن الضمان الأول هو فنه والثانى هو أمواله . إن أمواله هى مجرد وسيلة — مع وسائل أخرى كثيرة — للمحافظة على فنه واستمراره .

وعبد الوهاب مازال مستمراً فى الجلوس الآن مع ضيفه غير المرغوب فيه . إن المجاملة الزائدة بينهما متبادلة . إن الضيف يلقى بنكتة باردة لا أدرى كيف يضحك عليها عبد الوهاب . نفاق . إن الأسوأ من ذلك أن عبدالوهاب يتطلع إلى أنا فى استغاثة واضحة لكى أساهم معه فى الضحك على النكتة الباردة التى قيلت منذ لحظة . بالطبع لابد أن أضحك أنا الآخر على النكتة ، أو حتى أبتسم . حسناً . أنا الآن أحاول . والله العظيم . . أحاول . إننى أحاول بصدق ، مع أن وجهى لم يسجل بعد دليلا على الانفعال . لاضحك ، لا ابتسام ، لا استياء ، لافرح ، لا انشراح ، لاسعادة ، لا بهجة .

إنني أحاول من جديد . . ضاغطاً على وجهي لكي يبتسم . لا أمل. إنني لا أجد في داخلي أي انفعال سار مستعد للخروج إلى وجهي . ليس في داخلي الآن سوى مسدس . لو فتحت فمي في هذه الدقيقة فلن تخرج منه ضحكات ولا حتى ابتسامات . سوف تخرج فقط طلقات سريعة . الطيب أحسن . لابد أن أحتفظ بفمي مغلقاً . هذا . . وإلا ! لكن الفم المغلق لايعني مطلقاً أن يكون وجهي أيضاً مغلقاً . لماذا لا أشترك فعلا في – المجاملة ، في النفاق . لماذا لا أبتسم ؟

إنني أقنع نفسي من جديد – إنني أكرر لنفسي ، ابتسم ، ابتسم لعنك الله !

الحمد الله . قبل أن أبتسم استطاع عبد الوهاب أن يجد طريقة أخرى لإنهاء المقابلة مع ضيفه . لقد نادى عبد الوهاب : سعاد . . ! الأكل من فضلك !

مفهوم ! هكذا بدا على الضيف . هكذا نهض بعد لحظتين مصافحاً عبد الوهاب ومتوجهاً إلى باب الشقة . مبروك ، الآن يستطيع عبدالوهاب أن يسترخي من جديد . الآن يستطيع أن يتناقش بحرية ، يتكلم براحة ، أو حتى يأكل بمتعة . إن الأكل عند عبد الوهاب هو شيء ممتع للغاية . عندما يجلس عبد الوهاب إلى مائدة الطعام فإن شيئاً في العالم لايستطيع أن يشغله ، أو يسحب انتباهه من الأطباق أمامه . إن مواعيد الطعام عنده هي – مبدئيا – أكثر انضباطاً من ساعة جامعة القاهرة . العاشرة : إفطار . الثانية : غداء التاسعة والنصف : عشاء . إن إفطار عبد الوهاب هو دائماً نفس الشيء : فنجان نعناع ، مع عيش « توست». النعناع يتضمن دائماً ملعقة عسل أبيض . لابد من العسل الأبيض . تعليمات عبد الوهاب تقول ذلك . بعد الإفطار كل شيء معروف : صلاة الصبح . السرير . التدليك . التليفونات العمل من خلال التليفونات .

عندما تصل الساعة إلى الثانية عشرة والنصف تبدأ المقابلات ثم : الغداء ، ثم : الراحة ، العمل مع الراحة : الراحة من جديد . من السابعة والنصف فى المساء تبدأ مقابلاته وجلساته مع زائريه . فى التاسعة والنصف — الآن — يتناول عبد الوهاب عشاءه .

إن وجبة العشاء أمامى تتكون من زبد ومربى وعيش وفراخ . عبدالوهاب منهمك فى الفراخ . إنه يكرر دعوتى لتناول العشاء معه . لا . أشكرك . إننى اعتدت ألا أتناول طعاماً فى المساء . إننى بدلا من ذلك أستطيع أن أتجول فى شقة عبد الوهاب إلى أن ينتهى هو من تناول عشائه . إن الشقة واسعة — هذا طبيعى ما دام المنزل كله بنى قبل قوانين الإيجارات! وهى أيضاً شقة أنيقة . إن كل ركن فى هذه الشقة له تاريخ . حتى الصالون الذى أتأمل فيه الآن ، أجد فيه على يسارى ، صورة معلقة لمحمد عبد الوهاب مع أمير الشعراء أحمد شوقى . صورة مكتوب عليها « سلم لى على محمد » . على اليمين صورة مجسمة للمسجد الأقصى . على اليمين جدا صورة زيتية لزوجته نهلة القدسى . فى الخلف بيانو . فوق البيانو ألعاب صغيرة تعزف الموسيقى .

وإلى الأمام لوحة زيتية تشدنى دائماً لوحة تصور واحداً من الهنود الحمر بقميص يغطيه الأحمر والأخضر والرمادى . إن الهندى يجلس على الأرض ، بحذاء من جلد الخيل على قدميه ، وبقايا سيجارة تكاد تلتهمها شفتاه لوحة معبرة .

ولكن الشىء المعبر عندى الآن هو عبد الوهاب نفسه بالأمس رأيته يتناقش مع أحد المحررين الفنيين بصحافة القاهرة ، كان الصحفى يسأل ، وعبد الوهاب يجيب إن عبد الوهاب بعد كل سؤال يظل يفكر ويفكر ويفكر ، ويفكر ، ثم لا يقول شيئاً ! تعبير مأثور لصديق ساخر .

إن هذه الكلمات تصبح صحيحة تماماً عندما أقول إن عبد الوهاب فى أحاديثه : لايكذب . . . ولكنه – أيضاً – لايقول الحق .

إن أحداً لايستطيع أبداً أن يورطه فى الهجوم على خصومه . عبد الوهاب لايمكن أن يفعل ذلك ، ولكنه فى الوقت نفسه يفعل ماهو أسوأ من ذلك أسوأ وأذكى .إنه يكتفى بأن يجرد خصومه من ثيابهم . . . ويتركك تحكم عليهم كما تحكم على اللوحة العارية تماماً . إنك فى النهاية تكتشف أنه لم يقل شيئاً مع أنه فى الواقع قال كل شىء .

وبينما يتكلم عبد الوهاب ... فإنك سوف تكتشف أيضاً أنك تستطيع أن تضحك معه ، ولكنك لاتستطيع أن تضحك عليه. وحتى حينما يضحك معك.. فإنه يضحك من صميم جيبه ،لامن صميم قلبه .إنه فى لحظات قليلة مفاجئة – يستطيع أن يكون فى منتهى خفة الدم ، والتعبير أيضاً . إنه –حتى –يستطيع أن يعطيك أحياناً ردوداً تحمل مزيجاً مدهشاً من الوقار التام زائد السخرية المطلقة .

وأنت تستطيع أن تقبل عبد الوهاب أو ترفضه ، تستطيع أن تتفق معه أو تختلف ... ولكنك لاتستطيع أن تمنع نفسك فى النهاية من الإعجاب به . الإعجاب ، ثم الدهشة . الإعجاب ثم الانبهار. الإعاب ثم الرفض الإعجاب ، ثم عدم الرفض . الإعجاب ثم القبول إنك لابد أن تقبل عبد الوهاب فى النهاية على ماهو عليه إنه تشخيص لمجتمع وصورة لعصر إن عبد الوهاب لو ولد فى عصر غير عصره لاختلفت النتيجة تماماً . لو أنه – مثلا – ولد فى عصرنا نحن ، لو أنه كان واحداً من جيلنا نحن ، لما استطاع أن يقترب من القمة ولا حتى أن يتقدم خطوة . لقد تسلم جيلنا عبدالوهاب بعد أن صنع نفسه . ولو أن هذا تم بعد موعده . . فإننا كنا سندوسه ، ونحطمه ، ونعيده إلى مكانه وسط التقطيع هذا طبيعى لأننا الآن نضرب

كل مسمار له رأس . . . ونحطم كل فنان له أسلوب. . . ونشد كل شخص يسبقنا إلى الأمام. إن عبد الوهاب هو ظاهرة . . . وعصر. . . وظروف. . . وفرصة . . . ومجتمع . . . وتسامح من مجتمع . . ودنيا يعيش فيها هذا المجتمع . . .

وعبد الوهاب – كما أراه الآن – هو دنيا داخل دنيا إنه شخص يعيش بشروطه هو ، وسط دنياه . . هذه الدنيا هذه الشقة .

إنى أسير فى الشقة إلى أن أصل إلى غرفة نوم عبد الوهاب . إذا كانت الشقة كلها هى دنياه فإن حجرة النوم هذه هى « معمله » ! معمل تجارب . معمل يلجأ إليه عبد الوهاب عندما يسجل ألحانه وخواطره . إذا دخل عبد الوهاب هذه الحجرة فإن أحداً فى المنزل لايستطيع أن يزعجه . . . إلى أن يدق هو الجرس . بغير الجرس فإن الباب مقفل . . وعبد الوهاب فى الحجرة يسجل ويدندن ويسجل من جديد . إنه يسجل ألحانه فى كراس صغير . المقاس : ١٧ ٢٢سم. الكتابة : بالحبر ، القلم : باركر . الجملة الأولى : بسم الله الرحمن الرحيم .

إن هذا الكراس هو « دفتر مواليد عبد الوهاب . إن المواليد ليست دائماً نغمات وألحاناً ولكنها أحياناً خواطر وأفكار . من الخواطر التى رأيتها مكتوبة بخط عبد الوهاب : « من يعطى فنه كل شىء يأخذ منه كل شىء» خاطر آخر: « ماسمعت صوتاً جميلا من فم قبيح » خاطر أخير كل شىء حى يتحرك وكل شىء يتحرك يعبر . ولذلك أجمل مافى المرأة عيناها ثم فمها ثم يداها

إذا انتهى عبد الوهاب من التسجيل فإنه يغادر حجرة نومه عائداً إلى الشرفة صيفاً وإلى الصالون شتاء : مسافة طويلة. إن عبد الوهاب

يستخدم هذه المسافة يوميا فى السير عدة مرات . عشرين مرة ، ثلاثين مائة ؟ يجوز .

إننى أعود من جديد إلى عبدالوهاب . إنه الآن فى المرحلة الأخيرة من عشائه : بطاطا ! نعم . . بطاطا . عبدالوهاب طلب البطاطا منذ دقيقة وهاهى ذى الآن أمامه إنه يتأمل البطاطا ويلتهمها بنفس الحماس الذى يلتهم به الإنسان امرأة خارقة الجمال. إن كل شىء فى عبد الوهاب مندمج الآن — — ومتفرغ تماماً — للبطاطا. كل شىء ماعدا . . . أذنيه !

إن أذنى عبد الوهاب هما الشىء الوحيد الذى يجلس الآن معى . هذا صحيح فمن بين كل الحواس التى منحنا الله يستخدم عبدالوهاب أولا وأخيراً حاسة السمع .إن أذنيه هما أكبر أرشيف للموسيقى فى مصر إنهما أكثر من ذلك — أرشيف كامل لكل الكلمات الحلوة والتعبيرات العذبة التى يلتقطها عبد الوهاب من أصدقائه . إن هذا هو السر الذى يجعل عبد الوهاب قادراً على أن يناقش معك أى شىء وأى موضوع بنفس الحلاوة التى يناقش بها الغناء والموسيقى . لقد دخل معى عبد الوهاب منذ سنوات فى مناقشة استمرت ساعة كاملة . مناقشة تدور حول النظام البرلمانى والنظام الرئاسى . إننى لو لم أدرس هذا الموضوع فى الجامعة لما استطعت أن أناقشه ، ولكن عبدالوهاب يناقشه بأحسن مما يناقشه خريج الجامعة . إن هذا لايعنى أبداً أن عبد الوهاب قارئ ممتاز ، أو باحث خبير ، أو قانونى متمرس — أبداً أبداً أبداً .

إن عقل عبد الوهاب ليس منطقة مزدحمة السكان . فى الواقع أن ساكناً واحداً فقط يؤجر عقله بصفة مستمرة : الموسيقى . إن الصورة لاتبدو لك بهذا الوضوح إلا بعد أن تعرف عبد الوهاب كثيراً . إذا

لم يحدث ذلك فإن عبد الوهاب يبدو معك فى قالب آخر غير حقيقته . إنه سوف يبدو فقط محمد عبد الوهاب الذى يعرفه الناس . زئبقى ، حذر بالطبيعة ، متحفظ ، ذكى إلى حد الدهاء ، فى تصرفاته الاجتماعية شيء من الحرباء ، فى حديثه عذوبة الفنان وسرعة رجل الأعمال .

وعبد الوهاب ليس كذلك الآن . بالطبع عندما يأكل الإنسان يمثل متعته ، فإنه يبدأ فى العودة إلى طبيعته . إنه يقودنى من جديد لكى ننتقل إلى الصالون الداخلى لنكمل الجلسة. إنه يسير أمامى رشيقاً خفيفاً فى بنائه الجسمانى . ومع أن قامته تميل إلى الطول فإنها أيضاً تميل إلى النحافة ، وهو يسير إلى الأمام بقدمين متمهلتين ويدين مدربتين ودراية كاملة بالطريق . إن ذقنه صلب ، وأنفه كبير مائل للأمام ، وفمه معبر ، وعينيه محتجبتان خلف نظاراته السميكة ، ووجهه مستدير نوعاً ، ورأسه فر منه الشعر هارباً من الذكاء الذى يحتويه . إنه يجلس ، إنه يستأنف الحديث بصوت جازم حازم ، لايتراجع أبداً .

هكذا استمر عبد الوهاب فى جلسته معى وسط دنياه الخاصة تلك الليلة . إن الحديث يتنوع ويزداد جاذبية . إنه من جديد — سوف يتكلم بهمهمة اعتراضية غير مفهومة تتخلل حديثه . إنه يقول مثلا : « نعم ، أنا عرفت تلك المرأة لأسباب كثيرة . . همممممم . . . . أحلى أيامى قضيتها مع نهلة . . . مممممم . . الأسوأ قضيتها مع . . . » تليفون ! إن التليفون يختار دائماً منتصف الجملة للرنين ! شيء غريب ولكنه متوقع . إن المكالمة هذه المرة لاتستغرق سوى دقائق قليلة . دقائق لايقول فيها عبد الوهاب غير التساؤلات المعتادة مع الأصدقاء « هيه . . ؟ . . وإيه أخبارك ؟ . . . الدكتور؟ صحيح ؟ . . . . وقال عندك أنفلونزا . . ؟ يا ساتر ! . . طيب . . مرنى يا حياتى . . آه بكرة

إن شاء الله » ! ولم ينتظر عبد الوهاب إلى أن يأتى « بكرة » . لقد نادى على « سعاد » وطلب دفتر التليفون وأدار رقم تليفون طبيبه فى العيادة . لا إجابة فى العيادة . . غير موجود .

إن عبد الوهاب عصبي للغاية . . إن عصبيته تكاد تفضح نفسها مع زوجته – زوجة الطبيب – عبر أسلاك التليفون : « مش موجود إزاى ؟ . . أبداً . . مش موجود فى العيادة . . هو بيقفل العيادة إمتى ؟ آه . . تمام . . الساعة لسة ماجاتش عشرة . . طيب إزاى ؟ . . آه . . عايزه ضرورى جداً وحالا ، وحياتك يكلمنى بالتليفون أول ما ييجى . . مرسى . . »

ما هى الحكاية ؟ لماذا العصبية ؟ لماذا التعجل ؟ لماذا الطبيب . . فجأة ؟ !

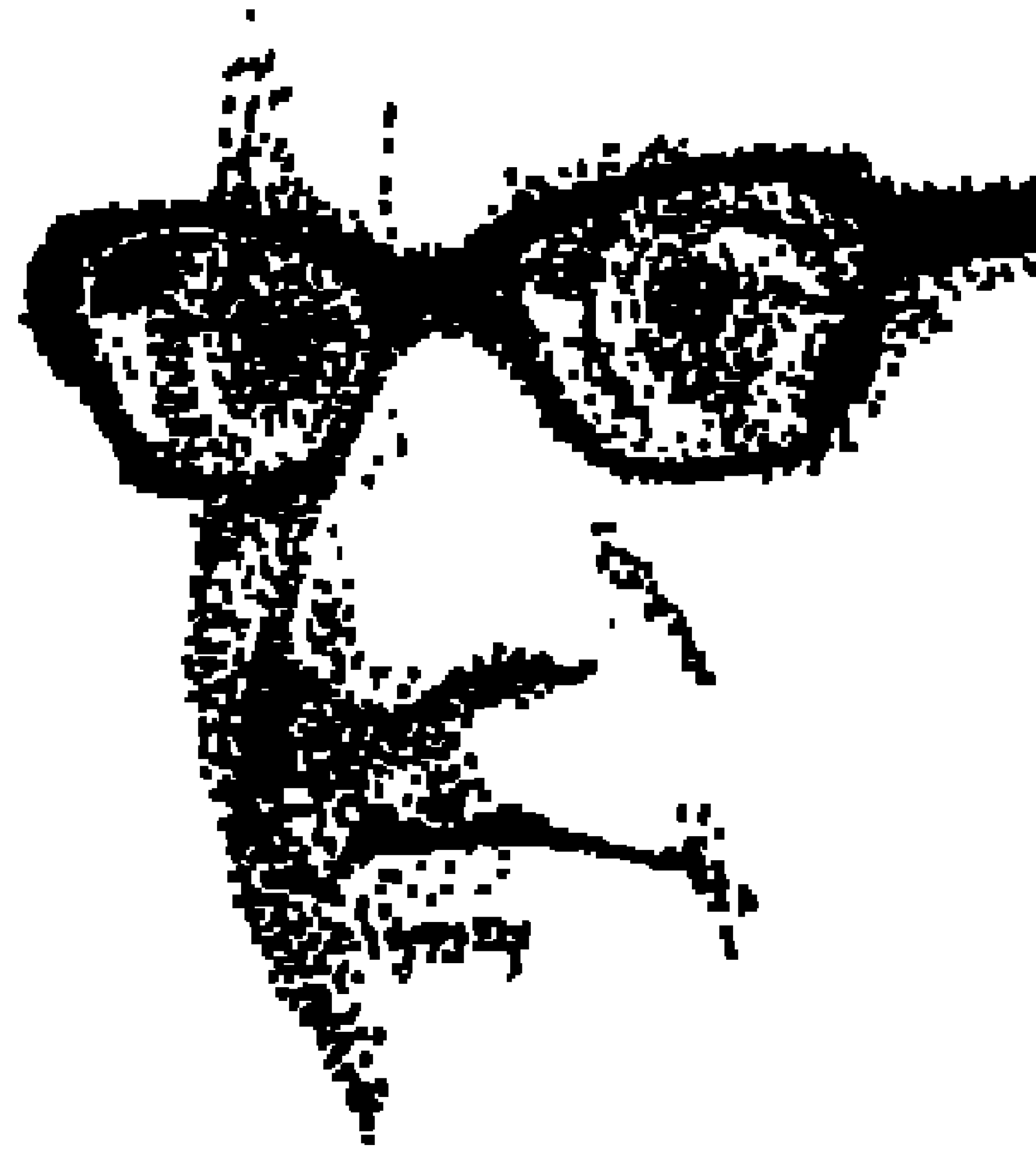
كان التفسير بسيطاً : إن صديق عبد الوهاب الذى تحدث إليه بالتليفون منذ دقيقة أخبره أنه اكتشف إصابته بالأنفلونزا . صديق عبدالوهاب هو المصاب بالأنفولونزا . ولأن هذا الصديق زار عبد الوهاب ظهر اليوم فإنه خشى فوراً أن تكون الأنفلونزا قد انتقلت إليه منذ الظهر . النتيجة : دكتور . . الحقنى !

إن هذه العادة عندعبد الوهاب هى أسوأ عاداته : الوسوسة . الخوف من المرض . الخوف من احتمال المرض . إن الوسوسة إذا سيطرت على عقله تحوك فإنه ينادى الخادم فوراً ليغسل يده بالكولونيا . هذه إحدى العادات التى انتقلت إلى عبد الوهاب من أحمد شوقى . إن عبد الوهاب يحب الحياة . ويحب نفسه أكثر من الحياة . إنه يعتبر أن أى لحظة مرض هى لحظة مخصومة من حياته ، مخصومة من متعته . لهذا فإن كلمة المرض تتساوى فى أذنى عبد الوهاب مع كلمة الإعدام . أسوأ من الإعدام . إنه يخشى من انتقال المرض إليه بالعدوى ، وأنا الآن بدأت أخشى

٣٣

أنا الآخر من عدوى العدوى . إننى أحس فى داخلى الآن برجل آخر يتقمص شخصيتى . رجل — وبالجرأته — يريد أن يسعل ! مستحيل . . ممنوع . لايمكن . لا يمكن أن أسعل فى داخل هذه الدنيا . لابد أن أخرج إلى مسافة عشرين كيلومتراً لكى أسعل ، ثم أعود من جديد . إننى الآن أتحرك ، أسير ، أنصرف . إننى أسرع فى الانصراف ، فى السلام ، فى الخروج .

إننى أسرع — بخوف عبد الوهاب من البرد فى عقلى ، وبكلماته الأخيرة معى فى أذنى : مرثى ياحياتى . . . بكرة إن شاء الله . . يعنى زى النهاردة كده . . . هم م م م م م م م . ماتت الكلمات .



الفصل الثانى

التاريخ

عبدالوهاب فى بدايته

النفروطون . . !

كانت هذه هي كلمة السر في مجتمع القاهرة في تلك الأيام .

إذا كنت تريد نصيحة من صديق . . إذا كنت تسعى لاستشارة مجرب . . إذا كنت تواجه مشكلة . . إذا كنت تريد الاحتفاظ بشبابك . . إذا كنت تريد الاحتفاظ بسمعتك . . إذا كان يهمك رأى أصدقائك . . إذا كنت تريد ألا يبدو وجهك شاحباً . . إذا لم تكن تريد الطلاق من زوجتك . . إذا كنت تريد مزيداً من الأطفال . . إذا كنت تريد أن تذهب إلى « الماخورة » في مصر الجديدة . . أو تقضي الليلة في « نزهة النفوس » بمنطقة « وش البركة » . . إذا كنت من الذين يرتادون شارع الهرم ليلا . . إذا كنت تنوى قضاء ساعة في الشوارع المظلمة بالجزيرة . . فعليك — وهذه خدمة خاصة جداً — أن تحفظ هذه الكلمة جيداً : النفروطون !

هذا الكلمة مهمة لك ، مهمة لمستقبلك ، لصحتك ، لسمعتك ، لكرامتك ، لرجولتك ، إنها أهم كلمة يمكن أن يهمس لك بها صديق . إن الناس يهمسون بها بعضهم لبعض كل مساء . إن عليك أن تحفظها كما هي . . وترددها كما هي . أما إذا كنت مصراً على الحصول على تفسير لها . . فعليك بالانتظار حتى الصباح ، حينما تقرأ في الصحف الإعلان الضخم التالي — إعلان يومى : « النفروطون . . هو الدواء الوحيد الذي شهد بفوائده أعظم أطباء العالم ، وأكدوا أنه يشفي تماماً ضعف الأعصاب ، ويشفي أيضاً أسباب عدم التناسل ، ويحتفظ لك بالشباب ، ويفيد جداً في سائر أمراض المعدة . . ويفيد تماماً في علاج أمراض السيلان والزهرى — ثمن الزجاجة ١٤ قرشاً » .

إن الصحف تنشر هذا الإعلان يومياً عن الدواء العالمي . إن طبيباً

واحداً فى العالم لم يسمع قطعاً باسم هذا الدواء ، ولكن زبائن كثيرين كانوا ينتظرونه فى القاهرة .

إن أشياء كثيرة كانت منتشرة فى القاهرة فى تلك الفترة : القمار ، الخلاعة ، عربات الركوب ، البغاء فى عربات الركوب ، الإنجليز ، الخواجات ، من كل عشرة نراهم فى الشارع هناك واحد أجنبى ، الأزبكية ، ١٣ لقيطاً عثر عليهم البوليس أمس ، الحرام ، حى المعادى بدأ إنشاؤه منذ سنة ، مصر الجديدة افتتحت هذه السنة ، الحجاب ، الغزل برغم الحجاب ، الكرباج ، الحكومة دائماً تحمل الكرباج ، إضراب عمال الترام : نريد العمل ٨ ساعات يومياً بدلا من ١٣ ، الراقصات ، الساق على الساق ، الربا ، الديون ، الفلاحون يشكون من الديون ، المواخير ، عيد الجلوس السلطانى ، البالطو الخديوى ، الحواة ، سعد زغلول فى وزارة المعارف ، ناظر الأشغال يخطب بالفرنسية ، الخديو يرد بالفرنسية ، مسرحية : عدم الرضا ونفاذ القضا ، الأغنياء ، الأغلبية : فقراء ، السلطة : إنجليز ، فدان الأرض فى القاهرة بجنيه ، مرتب المدير الإنجليزى : أربعة آلاف جنيه ، الأزهر ، الكتاب المشهور الآن عنوانه : الرسالة العلمية فى الترامواية الكهربائية ، المعجزة : ترام يسير بالكهرباء فى القاهرة !

إذا سار الترام نهاراً فالكل يستخدمه : التذكرة بأربعة مليمات فى الدرجه الثانية ، بستة مليمات فى الأولى .

لماذا لا نركبه ؟ دعنا نجرب .

إن الترام يستطيع أن ينقلنا من السيدة زينب إلى عمرة : شارع رمسيس . . الأشجار مزروعة على الجانبين ، الأرض مرصوفة بالحصى . هذا إسراف ولكن الإسراف مفهوم ما دام الخديو يستخدم هذا الشارع فى طريقه من قصر عابدين إلى القبة .

والترام يستطيع أن ينقلنا من القبة إلى الجيزة . حى الزمالك غير

موجود بعد ، كوبرى أبو العلا يجرى إنشاؤه .

والترام يستطيع أن ينقلنا من باب الحديد إلى روض الفرج : بيوت على الجانبين ، بيوت تشرب من مياه الآبار وتحلم بمشروع شبكة المجارى التى تفكر الحكومة فى إقامتها لأول مرة .

نستطيع إذن أن نشاهد قاهرة تلك الأيام بوساطة ترامها ، ونستطيع أيضاً أن نشاهد القاهرة داخل ترامها .

فى داخل الترام أمامنا هذه اللافتة المعلقة يميناً ويساراً :

« تعليمات إلى جمهور الركاب :

- إذا ركبت سيدة فأفسح لها مكاناً إذا تيسر . أو قدم لها مكانك بكل أدب ولاتنتظر منها القبول من عدمه .
- لاتبصق فى العربة لأن البصق أولا يدل على نقص فى تربيتك . . وثانياً فهو مضر من الوجهة الصحية .
- لاتضع قدمك على المقعد المجاور لك . . لأنك ربما تلوثه بحذائك .
- إذا وجدت سيدات راكبات معك فى الترام فلا تضايقهن بنظراتك أو إشاراتك . عاملهن كأنهن من عائلتك .
- إذا أردت النزول من الترام فدق الجرس قبل أن تصل إلى المحطة ، بدلا من التصفيق والمناداة للسائق » .

* * *

نحن لن نصفق للسائق . نحن سننزل من الترام فى هدوء . الدنيا ليل . فى الليل تبدو القاهرة مدينة أخرى . الظلام فى أغلبية الشوارع . غاز الاستصباح يضىء بعضها . الكهرباء ما زالت أقلية .

أماكن قليلة سوف تضيئها الكهرباء بعد الثامنة مساء : أماكن السهر .

لكى نسهر فى القاهرة — فى تلك السنوات السابقة على الحرب العالمية

الأولى – أمامنا عدة أماكن . هناك مثلا دور قليلة للسينما . تعرض أفلاماً صامتة على شاشتها . هناك صالة « باتيه » . . صالة « الكازار» . . وجزء من صالة « سانتي » فى الأزبكية . الدخول بخمسة مليمات بشرط أن تشترى أولا شيكولاتة« بولان » . فى داخل السينما سوف تجد شخصاً يقف بجوار الشاشة اسمه « المفهماتى » ! وظيفته شرح الفيلم الصامت للمتفرجين كما يفهمه هو . فى العادة ، هو يفهم شيئاً آخر غير الفيلم المعروض .

هناك أيضاً « قهوة الملذات » التى يملكها الخواجة خريستو فى مصر الجديدة . بعض الناس يسمونها « ماخور الخواجة خريستو » . هناك بعد ذلك حى البغاء فى الأزبكية . يسمونه « الواسعة » بجاوره أيضاً منطقة « وش البركة » بملاهيها ومومساتها وقهوتها الشهيرة : نزهة النفوس .

هناك أيضاً أكثر من تياترو . المسرح يسمونه تياترو : تياترو الأوبرا الخديوية ، تياترو عباس تياترو برنتانيا ، تياترو جورج أبيض ، وتعمل عليه جوقة جورج أبيض . الفرقة المسرحية اسمها « جوقة » .

هناك أخيراً شارع عماد الدين . يبدو أن هذا سوف يكون مقرنا الأخير الليلة .. فهذا شارع الطرب والموسيقى واللهو والغناء . سمعة قديمة .

فى هذا الشارع تستطيع أن تستمع إلى الأغانى المشهورة على لسان أشهر مطربات العصر : الست توحد الشامية ، الحاجة السويسية ، اللاوندية ، الكمسارية ، منيرة المهدية ، محمد أفندى العجوز ، يوسف المنيلاوى ، عبد الحى حلمى ، الست توحيدة المصرية ، الست بهية ، الشيخ سيد الصفتى ، صالح عبد الحى . . سلامة حجازى .

مبدئياً – أغنية الموسم هى : « حرص منى إوعى تزغزغنى . جسمى رقيق مايستحملشى . بخلاف هذه الأغنية تستطيع أن تسمع الليلة كل شىء : طقاطيق ، أدوار ، مونولوجات ، موشحات ، وألف صنف وصنف من الأغانى .

الست بهية مثلا تغنى : « أنا وانت ياروحى . . جوا الدهبية . . نلعب على كيفنا . . ونرخى الناموسية »

اللاوندية تغنى : « طلب وصالى أنا جدت له . . هزر ضحك أنا ملت له . . قبل خدودى قلت له . . والفرح زاد يا أبلتى » .

الكمسارية تصيح فى المستمعين : « إيه العباره إيه العباره . . لسه فى إيدى حرق السيجاره » . مطربة رابعة تغنى — مع استعدادها مقدماً لإعطائك عنوانها — « بلاش هزار يابيه . . أحسن بابا محرج . . إوعى إيدك يابن الإيه . . من بعيد كده واتفرج . . بلاش هزار فى الشارع . . فى البيت مفيش مانع » .

لهواة الغناء التركى — وهم كثيرون — يغنى مطرب خامس : « أمان أمان بغداد لى . . » .

ملاحظة أولى فى كلمات الأغانى : الابتذال والخلاعة . مثلا « ياسبمتيك خالص يامهندم . . تعال زورنى الليله يافندم » . مثل آخر : « يامنعنشة يابتاعة اللوز . . أنا بدى ألاعبك فرد وجوز » .

ملاحظة ثانية : انتشار الخمور والمخدرات فى كلمات الأغانى . مثلا هذه المطربة التى تغنى : « أنا اقابله واقعد وياه . . واسكر واغنى شويه معاه» . مطربة ثانية : «أنا وحبيبى فى شرب الكاس . . » أغنية ثالثة من بقايا طيب الذكر عبده الحمولى : « جانى الجميل والكاس فى إيده» . أغنية أخرى : « الساعة تسعة نتقابل . . يانور عنيه فى البستان . . أسكر أنا وانت الليله . . والورد والياسمين ندمان » .

ملاحظة ثالثة : أن البطل السائد فى الأغانى هو الطبقة المتوسطة . « الأفندى» هو رمز الطبقة المتوسطة . أن تكون « أفنديًّا » فى مجتمع القاهرة فى تلك الأيام معناه أنك ملك . أكثر من ملك . الملك يصبح ملكاً بالوراثة . ولكن الإنسان يستطيع أن يكون أفنديًّا بمجرد شهادة

الابتدائية . بعدها يستطيع أن يضع الطربوش فوق رأسه ، والمنشة فى يده ، والبدلة فوق جسمه ، بعدها يستطيع أن يتزوج من أى فتاة ، ويحصل على أى وظيفة . . بمرتب مضمون آخر الشهر . . ومظهر مغر فى الشارع . . وسمعة منتشرة فى الأغانى . .

إن إحدى المطربات تغنى : « إنت يافندى اختشى . . عاوز تبوسنى فى الشارع ؟ » . . عيب !

أغنية أخرى : « إنت يا اسطى سوق العربية .. الأفندية بيتمحكوا فيه » .

أغنية ثالثة : « الأفندى يانينه أنا حبيته .. حيانى بورده وحييته » .

إن الأغانى تعبر عن ذوق عام فى المجتمع ، والأفندى هو نموذج هذا الذوق العام . إن الرجل عند الناس هو مخلوق له عينان ويدان وعقل وقدمان . ولكنه فى تلك الأيام هو مخلوق له عينان ويحمل منشة . يدان ، ومنشة . عقل . . ومنشة . قدمان . . ومنشة . وقد يمكن التجاوز عن أشياء كثيرة فيه إلا : الطربوش والمنشة .

إن الطربوش والمنشة لم يكونا مجرد أشياء خارجية . كانا رمزاً لمستقبل. وعلامة على سلطة . فحينما يكون الطربوش فوق رأسك والمنشة فى يدك . . فإن هذا معناه : أنك مربوط على درجة . موظف فى الحكومة ، بمرتب ثابت ، وسلطة واضحة . إن الناس ترى فيك السلطة والنفوذ والهيبة والحكومة . أنت الحكومة . حكومة . . بمنشة !

إن الناس لم تكن تعلم بعد أن الموظف هو أول الضحايا فى كل أزمة . كان لابد من قيام الحرب العالمية الأولى لكى يقتنع الناس أن المرتب الثابت هو مشكلة وليس ميزة .

ولكن الحرب لم تبدأ بعد . الغناء فقط .

إننا فى أى صالة من صالات الغناء ، سواء كانت المطربة هى

الكمسارية . . أو كان « الصيت » — المطرب يسمونه الصيت — هو صالح عبد الحى أو سلامة حجازى . فإننا سوف نرى الجمهور والمطرب فى حالة انسجام خاصة يتبادلانها معاً . إن المطرب يدخل ووراءه « السنيده » ، وهم أفراد يغنون من ورائه ، ثم معه أيضاً « المطيباتية » ، وهم المسئولون عن استمرار إعجاب الجمهور ، ثم يجلس المطرب مع أفراد التخت ، الذى يتكون من اثنين غالباً يعزفان على العود والقانون .

وعندما تبدأ السهرة يغنى صالح عبد الحى مثلا : فيك ناس ياليل بتشكى لك مواجعهم .

فى هذه اللحظة يبدأ الجمهور فوراً فى الانقسام إلى أحزاب عديدة . إن « المطيباتية » الذين أحضرهم المطرب معه يصيحون : أعد . . والنبى كمان .

ويعيد صالح عبد الحى : بتشكى لك مواجعهم .

بعد قليل يتحرك حزب العشاق . إنهم جاءوا ليقضوا السهرة فى تأوهات وتنهدات ونظرات وابتسامات ومغازلات وصيحات : والنبى كمان . . .

— تشكى لك مواجعهم .

هنا يتحرك الحزب الثانى — الأغلبية : السكارى . إن عقولهم جمدتها الخمر عند أول جملة غناها المطرب . لهذا يصيحون من جديد : ياعينى عليك .

ويقاطعهم عبد الحى : تشكى لك مواجعهم .

وهنا يتحرك الحزب الثالث — الأقلية : الفتوات . إن عددهم محدود ولكن صوتهم مسموع : كمان والنبى .

ويغنى صالح عبد الحى من جديد : تشكى لك مواجعهم .

إننا نستطيع أن نأكل ونشرب وننهض ونتجول ونجلس وننام . . ثم يخرق الصوت آذاننا من جديد : تشكى لك مواجعهم .

ونستطيع ن نترك الصالة ونذهب إلى الأزبكية أو إلى روض الفرج أو حتى مصر الجديدة ، ثم نعود لنجد الصبيت ما زال يغنى : تشكى لك مواجعهم .

و . . . .

فى تلك الليلة بالقاهرة ، كان هناك بالفعل ناس يشكون مواجعهم. ناس حقيقيون . . وأوجاع حقيقية ، ولكنهم يسكنون بعيداً بعيداً عن دنيا الليل هذه فى القاهرة .

هؤلاء الناس هم : شيخ . . وزوجته .

إن منزلهما يقع فى أحد تلك الأحياء الشعبية بالقاهرة . . التى لاتعرف شيئاً عن حياة الليل هذه ، إنها لاتعرف حياة الليل الصاخب ، ليس لأنها لاتريد ، ولكن لأنها لاتملك . إنها أيضاً أحياء تنتمى إلى مجتمع آخر يعيش فى القاهرة غير كل المجتمع الذى رأيناه حتى الآن . مجتمع حقيقى . مجتمع الأغلبية . مجتمع يعيش فى الحوارى والأزقة والظلام والفقر والشكوى والتدين والعبادة . وينام من الساعة العاشرة .

ولكن الشيخ عبد الوهاب عيسى — شيخنا الذى يشكو مواجعه — لم ينم فى تلك الليلة من الساعة العاشرة كعادته . إنه — مبدئياً — شيخ بسيط متدين لايعرف من الدينا سوى الخمسين متراً التى تقع بين منزله وبين المسجد الذى يعمل فيه فى حارة « برجوان » بحى باب الشعرية . إن المسجد هو مسجد « الشعرانى » والمنزل على بعد أمتار قليلة منه . . والدنيا كلها هى هذه الخمسون متراً التى تقع بين الاثنين ، والحارة يسمونها أحياناً « حارة الشعرانى » نسبة إلى المسجد . إنه منذ جاء مع عائلته من بلدته « أبو كبير » من محافظة الشرقية ، وهو يعمل شيخاً فى مسجد الشعرانى فى حين يعمل أخوه الأكبر إماماً لنفس المسجد ويسكن فى نفس الحارة . إن الشيخ عبد الوهاب لا يريد من الدنيا غير ذلك : المنزل الهادئ . والتعبد إلى الله . إن يومه يبدأ بصلاة

الفجر — فى المسجد صيفاً ، وفى المنزل شتاء . إن يومه ينتهى أيضاً بصلاة العشاء — فى المسجد دائماً — ثم العودة إلى المنزل لينام ليلته حتى الفجر . إنه يحمد الله على أن حاله مستور . إنه ليس غنياً بالطبع ، ولكنه أيضاً ليس فقيراً تماماً . بين بين . إن كل ما يحلم به هو أن يستمر الحال على ما هو عليه : المسجد والمنزل والزوجة والأولاد .

إن الأولاد أصبحوا الآن خمسة : الابن الأكبر حسن ، والأصغر أحمد وابنتان هما عائشة وزينب . . ثم هذا الطفل الذى يسبب كل هذا القلق الليلة : محمد .

إن محمداً — ابن الشيخ عبد الوهاب — مازال طفلا فى الثانية من عمره . إنه بين يدى أمه . إن اسمها الأصلى هو فاطمة ، ولكنهم يسمونها « أم حسن » نسبة إلى ابنها الأكبر .

إن « حسن » يرى فى عينيها الآن كل الدموع التى تحاول أن تحتفظ بها لنفسها . إنه يعلم أن أخاه الصغير — هذا الطفل محمداً — حبيب إلى قلب أمه منذ اللحظة الأولى لولادته . إنها تحفظ ذكريات لحظة ولادته كما لو كانت قد ولدته منذ خمس دقائق وليس منذ سنتين . لحظتها كان الألم والسعادة يتصارعان على وجهها . هكذا قالت لها المولدة — الداية — التى جاءت من طرف الطبيب الشاب نجيب محفوظ — داية اسمها : الست نفيسة .

إن الست نفيسة لاتعلم الآن أن مجهودها ربما يضيع هباء . إن الطفل الصغير «محمد» تبدو عليه منذ ساعات مظاهر غريبة : اللون يتحول ببطء من الأصفر إلى الأزرق ، الوجه شاحب ، الفم مغلق ، والعينان نائمتان إن الأم تتأكد بنفسها كل لحظة من أن الحياة مازالت تدب فى جسم هذا الطفل الصغير .

ولكن الحياة كانت مهددة بالتوقف .

— والعمل يا شيخ عبد الوهاب ؟

ـ نجيب دكتور . .

وعندما جاء الدكتور مرت لحظات قليلة فى انتظار مؤلم لكلماته ومراقبة مريرة لتعبيراته وجهه . تعبيرات غير مشجعة .

قال الطبيب : نزلة معوية حادة . الأمل ضعيف جدًّا فى أن يستمر هذا الطفل حيًّا . فى الواقع أخشى أن أقول : لا أمل .

وعندما اختلى الطبيب بالشيخ عبدالوهاب بعد لحظات قال له الكلمات الحقيقية : هذا الطفل سيموت خلال ساعات . ولأن غداً الجمعة ، وهو إجازة فى الحكومه ، فإننى أرى أن تستخرجوا شهادة وفاة من الآن . . معلهش . شد حيلك .

بعد قليل لاحظت الأم اختفاء زوجها الشيخ عبد الوهاب . لا يهم . إن طفلها ما زال بين يديها . إن مظاهر الحياة فيه غير واضحة ، ولكنه ما زال بين يديها . هذا طفلها هى ، ولن تستطيع قوة فى العالم أن تسحبه من بين يديها .

إن الست فاطمة لاتعلم شيئاً عن العالم ، ولا عن الدنيا : إنها تعلم فقط أن هذا هو بيتها ، وفى داخل البيت توجد كل دنياها . دنيا من ثلاث حجرات . دنيا يستأجرها زوجها بأربعين قرشاً فى الشهر ، ولكنها بالنسبة للست فاطمة لايمكن تقديرها بمال . إن أولادها هم زينة هذه الدنيا . وزوجها هو مركزها . إن الشيخ عبد الوهاب هو فى رأيها رجل ولا كل الرجال . إعندما يخرج فى الفجر ، فإن مهمتها أن تتأكد جيداً من أن ملابسه فى مكانها : العمامة فوق الرأس والجبة والقفطان فوق الجسم والحذاء فى القدم . حذاء بغير رباط ويسمونه وقتها « مز » .

إن الشيخ عبد الوهاب عند استيقاظه فى الفجر يجد كل شىء مرتباً أمامه . وبعد إفطار بسيط يدخن واحدة من سجائره ، ثم ينصرف إلى المسجد . من هناك لايعود إلا ساعة الغداء بعد صلاة الظهر . غداء لابد أن يكون « فتة » مرة واحدة فى الأسبوع على الأقل . بعد ساعتين من

النوم يعود الشيخ عبد الوهاب إلى المسجد ليظل هناك حتى صلاة العشاء . عندما تنتهى الصلاة، يعود ليتناول الوجبة الرئيسية مع الأولاد : العشاء .

ولكن الشيخ عبدالوهاب لم يتناول عشاءه الليلة . لا هو ولا الأولاد ولا زوجته فاطمة . فى الواقع أنها هى — الأم — لم تأكل أى طعام منذ الصباح — عندما رأت بوادر هذه الحاله السيئة فى طفلها الصغير . كيف تأكل أم . . . وطفلها فى حالة خطرة ؟

— السلام عليكم . .

— خير يا شيخ عبد الوهاب . . كنت فين ؟

— أبداً . . كنت بأوصل الدكتور . .

ولكن شيئاً ما لم يكن مقنعاً فى كلمات الشيخ عبد الوهاب . . إنه هو الآخر لايستطيع أن يكتم حزنه وانفعاله وهمومه . وهى — الأم — تحس بنبرة يائسة فى كلماته . إنها — أكثر من ذلك — تراه يحمل أوراقاً فى يده . . .

— ما هذه ؟

— لاشىء !

ولم تكن الأوراق لاشىء . كانت الأوراق تضم بين ثناياها : شهادة وفاة ! وفاة الطفل الصغير : محمد عبد الوهاب .

الآن أصبحت الأوراق الرسمية تقول إن محمد عبد الوهاب . . مات!

و . . . فى هذه الليلة ، لم يكن أقرب إلى الله من دموع هذه الأم التى تبكي فى صمت . . . وتتوسل فى أمل .

* * *

مرت الثوانى فى تلك الليلة على الأم كأنها سنوات . كل ثانية بسنة . كل دقيقة بنهر من الدموع . دقيقة فدقيقة فدقيقة . . ساعة بعد ساعة بعد ساعة بعد ساعة ، ثم — فى اليوم التالى — حدثت المفاجأة : لم يمت محمد عبد الوهاب . إنه لم يمت ، لا فى اليوم التالى ولا التالى ولاالتالى.

الحمد لله. إن هذا الطفل– كما يبدو عليه الآن– سوف يكون بسبعة أرواح !

إنه – مع مرور الوقت – بدأ يتكلم ، ويمرح ، ويمشى ، ويجرى ، ويلعب ، ويذهب إلى « الكتاب » .من سن الخامسة وهو فى « الكتاب ». إننا نكاد نراه هناك صباح كل يوم يتلقى مبادئ العلوم . إن العلوم فى تلك الأيام هى : حفظ القرآن الكريم وبعض دروس اللغة العربية ، والحساب . هذا يكفى بالنسبة لتلميذ فى القاهرة فى تلك الأيام .

وبالرغم من ذلك فإن الصبى الصغير كان تلميذاً بليداً وخصوصاً فى مادة الحساب . إن شيئاً ما فى عقله يجعله ينفر من هذه المادة ويمقتها . إنه – بعقلة الغير المحدود – يتساءل عن الفائدة من إجبار التلاميذ على دراسة مواد لايحبونها . لماذا لايقوم التعلم على تشخيص المواهب والاستعداد الطبيعى واختيار العلوم الملائمة لهذه المواهب ؟

إن المعلم الوحيد فى « الكتاب » هو الشيخ عبد العزيز عاشور . إنه يعلم التلاميذ حفظ القرآن الكريم وتفسيره ويعلمهم اللغة العربية والحساب. لهذا بدأ صبينا يحس بأن معركته شخصية مع الشيخ عاشور. معركة غير متكافئة لأن الشيخ يملك فى يده عصا أكثر طولا من الصبى الصغير نفسه . يسمونها وقتها « الفلقة » .

لقد أصبح محمد زبوناً مستمراً « للفلقة » أكثر من غيره من التلاميذ . وكلما شكا لأبية من ضرب الشيخ عاشور كان ينال « علقة » أخرى من أبيه جزاء الشكوى من معلمه . إن الشكوى من المعلم هى – فى رأى أبيه – ذنب لايغتفر ، ومهما كانت الأسباب فإن الشيخ عاشور هو دائماً على حق فى نظر الشيخ عبد الوهاب عيسى . لهذا أصبح محمد يخفى عقوباته فى « الكتاب » عن أبيه ، حتى لاينال عقوبات منزلية فى المساء تضاف إلى عقوباته المدرسية فى الصباح .

فى تلك الأيام كان الشبح عاشور هو الشبح الأكبر فى حياة الصبى الصغير محمد عبد الوهاب. شبح يفكر طوال الليل فى عذر يهرب به

منه فى الصباح .

وفى أحد الأيام كان محمد يلعب مع باقى الأطفال فى الشارع المجاور . كان الوقت عصراً ، والألعاب مسلية . وبينما هو يلعب رأى من بعيد شبح الشيخ عاشور يسير فى الشارع . إن الأسوأ من ذلك أنه يسير فى اتجاهه هو . إن هذا لم يكن صحيحاً بالطبع ، لكن محمد تصور ذلك . لحظتها أفاق محمد ليجد نفسه يجرى هرباً من شبح الشيخ عاشور القادم من بعيد . وبينما هو يجرى بلا وعى إذا به يصطدم بعربة « حنطور » قادمة من الاتجاه العكسى . لقد اصطدم عمود العربة المدبب فى رأس الصبى فأحدث فيه جرحاً سوف تستمر آثاره فى الجانب الأيمن من رأسه طوال حياته بعد ذلك .

وبرغم هذا الشبح فى حياة التلميذ الصغير فإن شيئاً واحداً كان يشده : القرآن الكريم.إنه لايردد آياته فى « الكتاب » ولكن فى المسجد أيضاً .

إنه — فيما بعد — يعود بذاكرته إلى تلك الأيام فيقول : « كنت أرى وأسمع حلقات الذكر التى كان المصلون يقيمونها فى المسجد بعد صلاة الفجر فى بعض الأحيان ، وبعد صلاة العشاء فى أحيان أخرى . وبرغم أننى كنت فى حوالى السابعة ، فإننى كنت أشعر كلما سمعت إنشاد المصلين فى أنغام الذكر الرتيبة بانقياد عجيب . وكانت أهازيجهم الدينية تطربنى وتبعث فى أعماق نشوة لها مفعول السحر . وهكذا بدأت أتعلق بحضور هذه الحلقات . فكنت أستيقظ كل يوم قبل الفجر ، ثم أنفلت إلى المسجد حيث أروى ظمئى من أناشيد الذكر وأرددها مع المصلين . وكان ثمة شىء لايدركه عقلى الصغير هو الذى يربط إحساسى الداخلى إلى هذه الأنغام الدينية العذبة برباط متين من الإعجاب والتقديس» . وكان ذلك الشىء هو الإيمان . إن الإيمان لايحتاج إلى الحقائق الثابتة ، ولا النظريات المنطقية المقنعة ، ولا العمليات الحسابية التى تتلخص فى أن (واحد زائد واحد يساوى اثنين) . يكفى الإيمان ..

تلك النافذة الصغيرة التى تسمى الإحساس، لكى يدخل منها إلى القلب .

« . . وهكذا كان إيمانى شيئاً لم يدركه عقلى الصغير فى ذلك الوقت، وهو يجذبنى جذباً إلى حلقات الذكر ، لكى أضع إحساسى كله فى عقيرتى ، ثم أطلقه مع أصوات المنشدين . ولست أدرى ما الذى جعل إحساسى يشف فى هذه الفترة من العمر الرهيف ، فأشترك مع الكبار فى إنشاد الذكر بلذة مستساغة ، فربما كان سبب ذلك أنى حفظت كثيراً من آيات القرآن الكريم منذ دخولى " الكتاب " فى الخامسة من عمرى . . أو لعله — وهو الأرجح — تلك الدعوات المؤمنة التى كانت تنطلق من القلب إلى اللسان — والضراعات الخالصة التى تتصاعد مع أنغام الأناشيد الدينية الرتيبة ، فتسرى فى النفس مسرى الكهرباء : الله . . . الله . . يالطيف . . يالطيف . .

« . . لقد كان هناك خيط قوى لا أراه . . يربط بين إيمانى وهذه العبارات الموسيقية المؤمنة ، ويجذبنى إلى حلقات الإنشاد ، وكانت التوسلات المخلصة هى التى كونت عقيدتى وإيمانى منذ الطفولة . . وهو الإيمان العميق ، والشعور بالجوع إلى الموسيقى والغناء ، هو الذى كان يدفع بى إلى التماس المعاذير للهرب من دروس " الكتاب" والانصراف إلى هوايتى المبكرة » .

* * *

هكذا إذن بدأ صبينا الصغير يهرب من « الكتاب » . إنه يدعى فى المرة الأولى أن السبب هو وفاة عمته . فى الثانية وفاة خالته . بعد أسبوع وفاة عمته مرة أخرى . لقد جعل عمته تموت عشرين مرة ، لكى يخرج هو من « الكتاب » . . دون أن يشكوه الشيخ عاشور إلى أبيه .

وحتى الآن كان الصبى الصغير لا يلاحظ فى نفسه شيئاً خاصاً سوى تعلقه بترتيل القرآن الكريم . إن صوت الشيخ محمد رفعت ، وموشحات الشيخ علي محمود ، وحلقات الذكر فى المسجد ، كانت هى كل ما يشغل اهتمامه ومحاولاته فى تقليدهم .

ثم بدأ محمد يقلد أشهر مطربى العصر : الشيخ سلامة حجازى . إن شهرة الشيخ سلامة فى أوجها ، وأغانيه أصبحت على كل لسان . لهذا بدأ محمد يجد لذة كبرى فى غناء ما يحفظه من أغانى الشيخ سلامة لصبيان الحارة . إنه يغنى لهم « عذبينى فهجتى فى يديك . . » ، ويغنى « ويلاه ما حيلتى » . . ويغنى « سمحت بإرسال الدموع محاجرى » . .

وعندما صفق الأطفال الصغار لزميلهم فى أول مرة كان هذا أحلى صوت سمعه محمد فى حياته . إن صدى تصفيقهم سوف يظل فى رأسه طوال حياته بعد ذلك ، باعتبارهم أول جمهور أعطاه لقباً شعبياً : مطرب الحارة .

وبدأ مطرب الحارة يدفع ثمن شهرته !

إنه يخرج فى إحدى المرات من « الكتاب » . . فى طريقه إلى منزله . وفى مقهى الحارة يلاحظ من بعيد أن « أحمد نبلة » يجلس على المقهى مع مجموعة من أصدقائه . إن « أحمد نبلة » هذا هو فتوة الحارة ، والحارات المجاورة . شخص لاعمل له إلا أن يكون « فتوة » طول الوقت ولصاً معظم الوقت . وفوجئ محمد بأحمد نبلة يناديه :

– تعال ياواد . . انت بقى ياسيدى المغنواتى بتاع الحارة ؟

– . . .

– غنى بقى أى حاجة . .

– . . .

– يا واد بقولك غنى . . . !

ولم يغن محمد . إنه بدلا من ذلك بدأ ينصرف . فى هذه اللحظة ، أمسك « أحمد نبلة » به من جلبابه ، وسكب عليه جردل مياه بجانبه . . عقاباً له على جرأته وعصيان أوامر فتوة الحارة !

ويومها عاد محمد إلى المنزل يبكى .

ولكن لم يمر يومان بعدها حتى أصبح « فتوة الحارة » نفسه محل

السخرية . . !

لقد حاول فى الليل أن يسرق غرفة طالب جديد من الأرياف يسكن فوق السطوح ويدرس فى الأزهر .

ولكن الطالب كان هذه المرة أقوى من الفتوة . . فأمسك به وضربه « علقة » ساخنة . . كان الفتوة يستنجد خلالها صائحاً بأعلى صوته : يا شاويش . . يا شاويش !

ويومها أحس محمد بفرحة غامرة داخل نفسه . . فهذه أول مرة يسمع فيها عن لص يستنجد بالبوليس ! عاد محمد يغنى لصبيان الحارة . ويتلقى إعجابهم .

ولكن مطرب الحارة لم يجد من يعترف به بعد، أكثر من هؤلاء الصبيان زملائه .

فى مرة كان يقف على « ناصية » الشارع الرئيسى أمام محل « بقالة » الحارة ، الذى يملكه « حسن حلاوة » وفى أثناء وقوفه سمع أصواتاً فى الشارع تشير إلى عربة « حنطور » مارة فى الطريق ، أصواتاً تقول : صالح عبد الحى أهه . . صالح عبد الحى أهه .

إن صالح عبد الحى ومنيرة المهدية تصل شهرتهما إلى حارة « برجوان » باعتبارهما مجرد إشاعات . الشيخ سلامة حجازى هو الحقيقة الوحيدة ، والباقون إشاعات . الآن أصبح صالح عبد الحى حقيقة أخرى فى داخل هذا « الحنطور » الذى يشير إليه الناس فى الطريق .

وجرى محمد إلى « الحنطور » وظل يجرى بجانبه متطلعاً إلى الرجل الجالس فى « الحنطور » كالبدر .

ثم يتذكر محمد « . . تمكنت من الشعبطة على الحنطور وقلت لصالح أفندى : والنبى يا أستاذ ، ادينى إيدك أبوسها . .

« ولم يرد على المطرب الكبير المشهور ، ولكنه فقط أشار إلى سائق " الحنطور " قائلا : كرباج يا أسطى . . وفى ثانية واحدة ضربنى

الأسطى بالكرباج فسقطت على الأرض والحنطور يسير . ويومها عدت إلى البيت والدماء تسيل من جرح فى جبهتى بسبب الحصى الذى سقطت عليه فجأة » .

إن صالح عبد الحى سوف يعرف عبد الوهاب ويعجب به فيما بعد ، ولكن ليس الآن . . وهو ما يزال صغيراً يهرب من « الكتاب » . . !

ولكن الهروب من « الكتاب » لايمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية . فعندما لاحظ الشيخ عاشور كثرة ادعاء محمد بوفاة عمته طمعاً فى الإجازة . . ذهب يستفسر من والده . وبعد أن عرف الحقيقة كان جزاء محمد عقاباً مزدوجاً صارماً لن ينساه مطلقاً : « علقة » من الشيخ عاشور ، و«علقة » أخرى من والده .

الآن أصبح الهروب من الكتاب مستحيلا صباحاً . لهذا بدأ محمد يشبع هوايته للغناء مساء .

إنه كلما سمع عن فرح أو « مولد » فى أى مكان قريب . . أسرع إلى هناك ليستمع إلى « الصييت » الذى سيغنى فى الفرح . أحد هذه الأفراح كان سيغنى فيه الشيخ سيد الصفتى . وعندما دخل محمد سرادق الفرح خلسة فى انتظار غناء الشيخ ، وعندما اكتشف أصحاب الفرح وجود هذا الصبى الصغير الذى لم يدعه أحد . . طردوه .

هنا يتذكر محمد : « . . وقفت خارج السرادق حزيناً . وبينما أنا أفكر فى طريقة للاستماع إلى الشيخ الصفتى ، رأيت رجلا عجوزاً من خدم السرادق يحمل على رأسه صينية طعام أتى بها من المطابخ التى يقيمونها عادة فى ركن من السرادق فى مثل هذه الأفراح . . فى طريقه إلى داخل السرادق لتقديم الطعام إلى المدعوين . .

« . . وفى الحال اتجهت إلى الرجل وعرضت عليه أن أحمل عنه الطعام إلى الداخل ، فقبل الرجل هذه الأريحية منى شاكراً ، ودعا لى بطول العمر والثواب . .

« . . وبعد أن وضعت صينية الطعام فوق إحدى الموائد داخل السرادق ، خشيت أن يعود أصحاب الفرح إلى طردى لو رأونى . . فأسرعت بالاختباء تحت " الدكة " التى كانت معدة لجلوس الشيخ الصفتى وبطانته . . وظللت أستمع للغناء طيلة الليل وأنا قابع تحت " الدكة" خشية الطرد » .

* * *

وبدأت هواية الصبى الصغير للموسيقى والغناء تكبر وتتبلور مع الأيام ، وأصبح هو يتلقف ما يسمعه من أغانى مشاهير المطربين . . ثم يردده على أسماع صبيان الحارة .

بعد قليل امتدت محاولاته إلى سماع المطربين فى المسارح التى يغنون فيها . إن أرخص وأقرب مسرح من هذا النوع كان مسرح « الكلوب المصرى » فى حى الحسين الذى يعمل عليه فوزى الجزايرلى وفرقته .

إن ثمن تذكرة « الترسو » فى المسرح هو قرش صاغ واحد . وبهذا القرش يقدمون الروايات والغناء بين فصول الروايات . وبعد أن ظل محمد يوفر المليم فوق المليم من مصروفه المحدود . . استطاع أن يذهب ليحقق مغامرته ذات ليلة ، و دخل مسرح الكلوب بقرش صاغ ، ليسهر هناك مبهوراً بهذه الدنيا داخل المسرح حتى الواحدة صباحاً .

وعندما عاد محمد فى تلك الليلة إلى منزله كانت هناك حالة طوارئ : الأب والأم والإخوة . . كلهم فى حالة طوارئ بسبب تأخر هذا الصبى الشقى الذى لابد من تأديبه .

كانت الخطوة العاجلة : علقة ساخنة . أكثر سخونة من أى مرة سابقة . خطوة أخرى : البحث عن عمل له يقضى فيه وقته بعد انتهاء دراسته فى « الكتاب » .

هكذا ألحقوا محمد فى اليوم التالى بالعمل فى محل « محمود شمعون » بحارة قواديس فى عابدين .

الأجر : خمسة مليمات فى اليوم .

الآن أصبح محمد يتلقى عقوبتين كل يوم : عقوبة الذهاب إلى «الكتاب» فى الصباح ، وعقوبة العمل بعد « الكتاب» فى المساء .

ولكن العقوبة الثانية سرعان ماثبت أنها ليست كذلك .

فنى العمل الجديد سرعان ما اكتشف محمد أن شقيق صاحب المحل – واسمه محمد شمعون – يعمل ملحناً فى فرقة الجزايرلى نفسها التى بهرته وسببت له كل هذه المتاعب . إنه على عادة تلك الأيام يعمل ترزياً فى الصباح وملحناً فى المساء . وبحكم عمله الأخير فإن الكثيرين من المطربين « والسنيدة » أصدقاء شمعون كانوا يأتون إليه فى الصباح فى جلسة أو جلستين لابد أن يتخللهما الغناء . هكذا أصبح بطلنا الصغير يستمع إلى الشيخ درويش الحديدى – صييت ، والشيخ حامد المغربى صييت أيضاً ومن « سنيدة » الشيخ سلامة حجازى .

وفى إحدى المرات ضبطوا الصبى وهو يغنى بصوت رفيع فى ركن منعزل بالمحل : البحر بيضحك ليه . . ونادى عليه محمد شمعون . .

وجاء الصبى الصغير متلعثما ومذعوراً ومستعداً للاعتذار عن هذه الجريمة التى ارتكبها . ولكن شمعون فاجأه بقوله : غن تانى . . .

وخلال دقائق قليلة كان الصبى الصغير قد أوشك أن ينفجر من السعادة ، فهذا أول مستمع حقيقى له من دنيا الفن .

وبينما محمد يستعرض صوته غنائياً ، إذا بشمعون يقاطعه فجأة بعد دقيقتين قائلا : تعال معايا . .

– فين . . . . ؟

– تعال معايا . . .

* * *

من هذه اللحظة تغيرت حياة الصبى الصغير . من الآن فصاعداً سوف يكون كل شىء بالنسبة له : مدهشاً ، وعجيباً . . وغريباً !

الفصل الثالث

السيناريو

من القاع إلى القمة

١٩١٧ . حي الحسين . مسرح الكلوب المصرى . المسافة من حي الشعرانى إلى حي الحسين طويلة طويلة . ولكنها فى تلك الليلة من ليالى الصيف كانت قصيرة . الشوارع ضيقة والترام مزدحم والناس كثيرون والأحلام تتوالى . مجموعات من الناس . إعلانات على الحائط . صحف . أمس وجه الجنرال اللنبي ضربة كاسرة إلى الجيوش العثمانية فى فلسطين . إن الناس فى الشارع تتساءل : هل توافق بريطانيا على استقلال مصر إذا انتصرت فى الحرب ؟ ناس أخرى ترد : لاأحد يوافق أبداً على استقلال أحد . إنه يستسلم . . فقط .

الطرابيش فى الشوارع كثيرة والمناقشات مستمرة . إن الوحيد الذى لايبدى اهتماماً بما يراه فى الشارع هو الصبي الذى يسير الآن ممسكاً بيد قائده. صبينا الآن هو : محمد عبدالوهاب . إنه فى طريقه إلى مسرح الكلوب المصرى بحي الحسين . إنه يسير إلى هناك وخلفه عمر لايزيد على العشر سنوات ، نحيل القوام ، شاحب الخدين ، واسع العينين ، عريض الجبهة ، قمحى اللون ، واسع الجلباب . ماذا يهمه من الإنجليز والألمان؟ ماذا يهمه من النقاش ؟ إنه لايفهم شيئاً من هذا كله بعد . إنه الآن فى طريقه إلى فوزى الجزايرلى صاحب الفرقة المشهورة التى تعمل على مسرح « الكلوب المصرى » . مسرح الكلوب . مسرح . . . مسرح . . مسرح . . مسرح . إن الكلمات كلها اختفت من رأسه لكى تبقى فقط كلمة « مسرح » . إنه فى طريقه إلى المسرح . الحياة فى مسرح ! إن كلمة « مسرح » تطلق فى رأسه فيضاناً من الأحلام . المسرح معناه الليل ، الناس ، الجمهور ، سيد درويش ، سلامة حجازى ، الغناء ، ياليل ياعين ، صالح عبد الحى ، منيرة المهدية ، على روحى أنا الجانى ، البحر بيضحك ليه ، الساعة سته وزيادة ، هات الإزازة واقعد لاعبنى ،

التصفيق ، الشهرة . الغناء طريق الشهرة . فى الغناء يستطيع الإنسان أن يحقق أحلامه . يستطيع أن يحلق فوق أجنحة ، يدخل فى قلوب الجميع ، فوق الجميع . الغناء يعنى المتعة ، الفرحة ، السعادة . إنه فى الغناء سوف يسعد بالناس . . ويحاول أن يسعد الناس .

المسرح يقترب . مسرح الكلوب المصرى . الإعلانات على الحائط. الليلة تشاهدون الأستاذ فوزى الجزايرلى وفرقته : التمثيل الرائع والصوت الرخيم والغناء الممتع . . كل هذا بقرش صاغ واحد . يابلاش . إن الصبى محمد عبد الوهاب لايملك فى جيبه هذا القرش الصاغ ، ولكن . . لا يهم . كبار المطربين يدخلون مجاناً . وإذا لم يكن أحد قد سمع عنه بعد . . فإنه على الأقل قادم ليقابل صاحب الفرقة مع صديق صاحب الفرقة :

الأستاذ : محمد يوسف شمعون .

– تفضل يا أستاذ . . الشيخ الجزايرلى على المسرح . . انتظره لما يخلص . . ادخل . .

وعندما دخل صبينا ورفيقه على الأستاذ الجزايرلى كان قد انتهى لتوه من تمثيل الفصل الأول من مسرحية الليلة . . ويستعد الآن للفصل الثانى . أخيراً ، أخيراً . . هذا هو الجزايرلى. هذا هو الأستاذ الجزا . . . لقد انعقد لسان الصبى من فرط المفاجأة والسعادة .

إن الأستاذ شمعون يقدم الصبى عبد الوهاب إلى الجزايرلى مع كثير من التوصيات الضرورية . إن الجزايرلى مشغول . ومع ذلك يقول للصبى :

– بتعرف تغنى إيه يا شاطر ؟

هكذا وجه سؤاله إلى عبد الوهاب بقليل من الاهتمام .

ورد الصبى الصغير على الفور : أغانى الشيخ سلامة حجازى كلها . .

– طيب سمعنى حاجة . .

وتنحنح الصبى متأكداً من صوته قبل أن يغنى « عذبينى فهجتى

فى يديك . . وأمريني فالقلب طوع لديك » . .

وقبل أن ينتهى الصبي الصغير من الغناء ، مد الجزايرلى يده اليمنى إلى جيبه ،فى حين تستقر يده اليسرى على كتف الصبى . بعد قليل خرجت اليد اليمنى من جيب الجزايرلى ومعها قطعة نقود فضية يعطى الصبى إياها . ما هذه ؟ نقود . كم ؟ خمسة قروش ! خمسة قروش . . مرة واحدة ! إنها فى يد عبد الوهاب ليست مجرد قطعة نقود . . إنها رمز . معنى . سحر . إعجاب . ثمرة . نشوة . فرحة . ثروة . الآن يكاد الصبي المليونير – بخمسة قروش هو مليونير – يطير من الفرحة . إنه – حتى – لم يتأكد فى البداية من الكلمات التى قالها له الجزايرلى » . . ابقى تعال هنا كل ليلة » . بالتأكيد سيعود . بالتأكيد سيعود . إنه سيعود من أجل المسرح والغناء والطرب والتمثيل . . والخمسة القروش أيضاً . سيعود الصبي الصغير محمد عبد الوهاب. ولكنه الآن – فى هذه الليلة – لن يخرج من مسرح الكلوب المصرى قبل أن يجلس على مقعد صغير خلف « الكواليس » . هذه فرصة ليشاهد فيها أساطين التمثيل والغناء مجاناً . هذا طبيعى ، فالآن جاء وقت الطرب والغناء على المسرح . لقد انتهى تقديم الفصل الأول من المسرحية ، وبعد قليل يبدأ الفصل الثانى . وحتى لايمل الجمهور . . نقدم لكم مطرب الشرق جميعه . . الشيخ محمد المغربى . . فى أحلى الأدوار والمواويل . الآن سيقدم لكم الصييت العظيم أحلى أدواره . إنه سيبدأ أولا بقصيدة قاضى الغرام .

– ياعينى على الغرام ! هات لنا بيرة ياجدع ! والله يا سيدنا الشيخ شربت لك ربع حشيش الليلة دى . هات ياجدع !

هكذا يصيح واحد من الجمهور عند ظهور الشيخ الصييت على المسرح . إنه سيغنى عن الغرام . إن المنزول والحشيش والبيرة وقذف الطرابيش هى لزوم الغرام . لزوم الغناء . . هات يا جدع !

الآن بدأ السنيدة (الكورس) فى الاستعداد للغناء وبدأ التخت

يعزف ، وبدأ المطرب يغنى : إحم . . إحم . . إحم . . آآآآآآآآآآه . . . ياليل!

– يا سيدى ! والنبي سلفنى بوسة من خدك ! كمان يا سيدنا . . اشجينا اشجينا . . فين المنزول يا جدع . . هات البيرة بسرعة . . والنبي يا سيدنا ، حرص منى إوعى تزغزغنى !

لقد بدأ الجمهور ينسجم مع أول آه قالها الصييت العظيم . إن صبينا – محمد عبد الوهاب – يستطيع من كرسيه وراء الكواليس – أن يشاهد المطرب والمسرح والصالة . . والجمهور . إنه يرى فى الجمهور كل الصياح ، الضحك ، النشوة ، السحر ، الإعجاب ، الرقص طرباً ، الشرب اندماجاً . مزيد من الشرب والاندماج .

واحد من الجمهور يصيح فى نشوة : الله ياسيدى الله . . والنبى تقول كمان آه . . زميل له يقاطعه : إيه يعنى ؟ عاجبك الراجل اللى بيغنى ده ؟ طيب والله لو ماكانش فتوة لقلت له : اسكت!

شخص ثالث يشترك فى المناقشة : يا راجل حرام عليك ! شايف الآه بتاعته . . ؟

– دى آه دى ؟ دى شريط ترماى !

– لا ، والله مالك فى المغنى ! . . دى والله نتيجة خمستاشر سنة من الحشيش ولأفيون والمنزول . . ياشيخ صلى على النبى !

المناقشة تعود للشخص الأول : فعلا . . فعلا . هو ده المغنى والا بلاش. يعنى ده مش أحسن من الغناء الإفرنجى؟ طيب . . بذمتك ياسى فهمى . . آهو الإنجليز محتلين أرضنا ، لكن . . عمرك سمعت واحد إنجليزى بيغنى « ياليل ياعين » ؟ طبعاً لا . . عشان كده والله أمة محمد ما تزال بخير . . . هات البيرة ياسيدى . . بخير والله ياسيدى . . غنى ياسيدى . . . غنى . . . اطربنا وغنى يا سيدنا الشيخ . . .

الشيخ يغنى .

« آه . . ياليل . .
ألا فى سبيل الله ما صنع الهوى . .
بليت بجرح . . ما علمت له دوا . . ».

الجمهور يصيح . هذه ليلة غرام . ليلة ممتعة . تحيا المتعة . إن الجمهور يطلب الإعادة . حاضر . المطرب الصييت يعد الجمهور بأنه سيغنى لهم كل الأدوار. حاضر . حاضر . إنه يلتفت خلفه إلى السنيدة : ياللا يا سيدى .

يبدأ الغناء من جديد .

« آه . . ياليل ! . حاضر . حاضر . حنعيد تانى . ألا . ألا.ألا . . فى سبيل الله ما صنع الهوى . طبعاً حنعيد تانى تانى وتالت كمان. يا . . يا . . يا. . هوى . والله تانى . يا . . يا . . هوى . اضبط العود ياسى حنفى . الهوى ؟ يا سلام ع الهوى . تانى عشان خاطرك والله . الهوى . . هوى . . يا . . . ليل . . . الهوى ! ياهوى . . آه ياهوى . . هوى . . ياسيدى الهوى . . الله ع الهوى. . هوى . . والنبى هوى . . يا هوى. . حاضر ياهوى. . صنع الهوى. . أموت فى الهوى ألا فى سبيل الله . . يا سيدى فى سبيل الله . . فى سبيل الله ما صنع الهوى. . هوى . . يا. . يا . . يا . يا . . يا . . هوى . هوى. ياهوى. ياهوى ياهوى ياهوى الله على الهوى . . ع الهوى . . هو آآآآآآآآ. بليت بجرح . . بجرح. . ما علمت له دوا . . حاضر . طبعاً . حنعيد تانى . يا . . يا . . يا . . يا . . هوى والله علشانك . . قسم ياسى حنفى . . يا . . يا . . يا . . هوى . شايف ياسى حنفى؟ . . شايف الناس مبسوطة ازاى ؟ . . شد حيلك معايا شوية . . كمان شوية وحياة والدك . . الهوى آآآآآآآآآه . . ياليل . كمان ؟ تانى ؟ للصبح ؟ للصبح ياسى حنفى . . سيبك من الفصل التانى . ، الناس عايزانى ياسى حنفى . . آآآآآآآآآه . . . ياليل!

١٩١٧ . مسرح الكلوب المصرى . إعلانات على الحائط .

« الطفل المعجزة . . أعجوبة الزمان الذى سيطربكم بين الفصول : محمد البغدادى » !

لم يكن محمد عبد الوهاب معجزة بعد ، ولا هو أعجوبة ، والأهم من من ذلك أنه ليس « بغدادى » ! إذن . . لماذا تسميه إعلانات الحائط محمد« البغدادى » ؟ السبب بسيط : الخوف ! خوفه هو من معرفة أسرته بأنه يغنى . لهذا يغنى محمد عبد الوهاب متنكراً تحت اسم محمد البغدادى.

إنه منذ أسبوع وهو يغنى لجمهور هذا المسرح بين فصول الروايات التمثيلية . هذه هى المعجزة . أن يغنى الصبى الصغير ، أن يسمعه الجمهور ، أن يصفق له ، هذه هى المعجزة . لقد تحول من صبى منبهر مع الجمهور كما رأيناه منذ شهر . . إلى صبى يغنى لهذا الجمهور نفسه وينبهر به الناس إنه الآن يقف على المسرح ليغنى. صبى نحيل القوام ، رفيع الصوت ، يكاد الطربوش فوق رأسه يتساوى مع نصف طول الجلباب الذى يرتديه . جلباب رقيق . إنه يغنى لهم من كلمات يونس القاضى أنا عندى منجة . . وصوتى كمنجة . . أبيع وادندن . . وآكل منجة »

من وجهة نظر الصبى الصغير : هذه بداية المجد . إن المجد هو أن يغنى الليلة فى مسرح الكلوب المصرى . المجد هو ما كان يغنيه أيضاً — منذ أسبوعين — فى مناسبة تأبين سلامة حجازى ، عندما غنى سلامة « إن حجبت اليوم عنا . . فشخصك فى الفؤاد بلاحجاب » . إن المجد هو أن يغنى الصبى ، وأن يسمعه الجمهور فما بالك وهو يصفق له .

كانت هذه هى بداية الطريق الطويل الذى يريده الصبى . ولكنها كانت بداية العار والعيب عند أخيه الشيخ حسن . إن « حسن » شيخ معمم يدرس فى الأزهر . إنه فى البداية علم باشتغال أخيه محمد بالغناء من شفاه الناس ، وليس من كلماتهم . إن الناس تمصمص شفاهها معلنة أسفها على ضيعة أخلاق الصبى الصغير واشتغاله مع المشخصاتية

والصبيتة : « إزاى تسيبوه يعمل كده ؟ . . دا حتى عيب . . دا حتى ما يصحش» !

فعلا . لايصح . هكذا قرر الشيخ حسن ذات ليلة وشق طريقه إلى مسرح الكلوب المصري . لقد فوجئ محمد ، وهو فى المسرح ، بصوت يصيح فيه وذراع تجذبه وحبل يربطه .

— قلة حيا . . ومسخرة !

هكذا ظل الشيخ حسن يصب غضبه على أخيه الصغير الفاجر وهو « يجرجره » خلفه فى الشارع ، ابتداء من مسرح الكلوب المصرى فى حى الحسين . . إلى منزله فى حارة الشعرانى بحى باب الشعرية .

وفى المنزل بدأت المداولة : ما هو مصير هذا الولد الخاسر الذى ارتكب جريمة الخروج وتعاطى الغناء والمواويل ؟

القرار : علقة ساخنة . قرار ثان : يحرم من الخروج يوميًّا بعد الساعة السادسة مساء . . وحتى الصباح !

* * *

١٩١٨ . دمنهور . سيرك متنقل .

هل يمكن أن يكون هذا هو الصبى محمد عبد الوهاب — محمد البغدادى سابقاً — والمحبوس داخل منزل أسرته فى حارة الشعرانى بحى باب الشعرية فى القاهرة ؟

نعم . هذا هو . نستطيع أن نميزه وسط كل هذا العدد من المهرجين والراقصين والنسانيس والبغال والحمير ! إنه يود أن يكون مثل الكبار . حتى قبل أن يصبح كبيراً مثلهم . لهذا نراه أمامنا سائراً بعصا يتوكأ عليها فى يده وطربوش صغير نصف عمر يخبئ فيه نصف رأسه وخطى متثاقلة يجرها كما لو كان رزيناً بالفعل .

ولكنه فى تلك الليلة لم يكن رزيناً على الإطلاق . إن هذا السيرك كان يعرض ألعابه بالقرب من منزل أسرة عبد الوهاب فى حى باب

الشعرية . وفى حالة مؤقتة من حالات التسامح قررت أسرته الإفراج عنه فى تلك الليلة لكى يذهب إلى السيرك مع باقى الأطفال الذين ذهبوا من الحى . وفى تلك الليلة ذهب هو إلى السيرك — لاليشاهد الحاوى والبيياتشو والراقص كما يفعل الأطفال — ولكن لتنفيذ أمر دبره مع نفسه .

إن الصبى محمد عبد الوهاب ذهب إلى صاحب السيرك يقنعه بقدرته على غناء مواويل الشيخ سلامة حجازى ، ويعرض عليه أن يلحقه بالعمل عنده فى أول يوم يغادر فيه السيرك حى باب الشعرية . ووافق صاحب السيرك دون أن يعلم أن الصبى الصغير سوف يهرب من أسرته .

وعندما ذهب محمد فى اليوم المحدد كان صاحب السيرك قد قرر أن ينتقل بالسيرك إلى دمنهور . إن محمداً لم يتردد لحظة واحدة عندما علم بقرار السفر إلى دمنهور ، بل على العكس ، زاد اطمئنانه . ففى دمنهور لن يستطيع أخوه الشيخ حسن أن يلحق به أو يراقبه أو «يجرجره» مربوطا إلى المنزل . فى دمنهور يستطيع محمد أن يغنى بلاخوف ولاقلق ولا تردد . إن كبار المطربين يصنعون مجدهم فى القاهرة . . لماذالايصنعه هو فى دمنهور ؟ ! إن الناس لاترى صالح عبد الحى ولامنيرة المهدية . . لماذا لا يرون « المطرب الذائع الصيت محمد عبد الوهاب ؟» هل يستطيع أحد أن يثبت العكس ؟ بالطبع لا .

وها هوذا غير الذائع الصيت محمد عبد الوهاب يقضى ليلته الأولى فى دمنهور . ليلته الأولى والثانية والثالثة . . والسابعة . نعم . سبع ليال لم يحصل منها إلا على قروش قليلة أجراً له من صاحب السيرك ، فلقد تحولت الآلاف التى توقعها صاحب السيرك إلى بضع عشرات من الناس يأتون إلى السيرك لمدة نصف ساعة أو ساعة ثم ينصرفون إلى منازلهم .

وفى تلك الليالى السبعة لم يجد محمد من يشكو له خيبة أمله سوى « بغلة » صغيرة . نعم . بغلة صغيرة هى التى استمعت إلى شكاوى

ودموع عبد الوهاب طوال الليالى السبعة التى قضاها فى دمنهور . فمن البداية لم يكن الصبى الصغير يعلم شيئاً عن حياة السيرك . وعندما ذهب فى الليلة الأولى يسأل صاحب السيرك عن المكان الذى سيبيت فيه ، أشار الرجل إلى خيمة معدة كحظيرة لبعض حيوانات السيرك وقال له :

انت عضمك طرى . . نام هنا مع البغلة علشان ما تحسش بالبرد !

هكذا نام محمد لياليه السبع فى دمنهور داخل هذا «الإسطبل النقالى» . فى الليلة الأولى تحمل محمد هذا الشقاء فى سبيل المجد . فى الليلة الثانية تحمله فى سبيل الغناء . فى الليلة الثالثة تحمله فى سبيل الهروب من عصا الشيخ حسن . وقبل أن يصل إلى الليلة الرابعة والخامسة . . كان كل شىء قد طار من رأسه فيما عدا : العودة إلى أسرته .

ولكن . . كيف يعود الآن وجريمته قد أصبحت جريمتين : الغناء ، والهروب من البيت أسبوعاً كاملا ؟ ! فى المرة الأولى كانت النتيجة حبلا وعصاً وعلقة ساخنة . فى هذه المرة لابد أن تكون النتيجة مذبحة! دماء تسيل .

وقبل أن يصل محمد عائداً بالقطار إلى القاهرة كان قد اهتدى إلى فكرة : لماذا لايلجأ فى القاهرة إلى رجل من أصدقاء أبيه لكى يوسطه فى الأمر حقناً للدماء ؟ !

هكذا ذهب محمد فعلا إلى الشيخ أحمد موسى واختبأ فى منزله عدة أيام . . إلى أن ينجح الرجل فى دور حمامة السلام .

النتيجة : عفا الله عما سلف .

١٩١٨ . القاهرة . المنيا. فرقة عبد الرحمن رشدى المحامى . عزيزة .

عدد قليل من الرجال والنساء — مرتدين الحجاب — يحتلون المقاعد الأولى فى مسرح برنتانيا . هؤلاء هم أقرباء صاحب الفرقة وأفرادها . باقى الصفوف للجمهور . إن الجمهور جاء ليشاهد مسرحية « الموت المدنى » . إنه الآن يرى مشهداً مؤثراً فى المسرحية : طفلة فى التاسعة من

عمرها تقف فوق المسرح . . تمثل، تغنى ، ترتدى فستاناً يخفى كل شيء حتى حذاءها . ضفائرها الطويلة تكاد تصل إلى منتصف جسمها . هل هذه طفلة حقاً؟ إن شيئاً ما فى صوتها لايقنع المتفرجين بأنها كذلك . صوتها رفيع –نعم – ولكنه أيضاًرجالى بشكل ما. إنها تشبه شخصاً سمع المتفرجون صوته من قبل . صوت من . . من . . من ؟ آه ، نعم ، صوت محمد عبد الوهاب ، الصبى الذى يغنى أدوارالشيخ سلامة حجازى بين فصول الرواية .

وفعلا . كانت الطفله الصغيرة هى : محمد عبد الوهاب !

لقد أحست عائلته بعد هروبه منذ شهرين إلى دمنهور أنه لافائدة من معارضة تعلق محمد بالغناء. مستحيل .

إن الممكن فقط هو أن يمارس هوايته تحت إشرافهم وفى حدود يتم الاتفاق عليها مقدماً. حدود تضمن للفتى الصغير تنمية هوايته . . وتضمن لأسرته الاحترام . هكذا وافق الجميع على التحاق محمد عبد الوهاب بالفرقة التى ألفها عبد الرحمن رشدى المحامى ، وهاوى التمثيل – سنه١٩١٨ إنها فرقة تقدم بعض المسرحيات الرفيعة . . مع فواصل غنائية بين الفصول– كما هى عادة المسارح كلها .

إن موافقة الأسرة على غنائه امتدت الآن لتشمل سفره مع فرقة عبد الرحمن رشدى إلى المنيا حيث تنوى تقديم عروضها هناك . وقبل أن تسافر إلى المنيا فوجئ محمد عبد الوهاب بالممثلة الأولى فى الفرقة تنادى عليه باهتمام . .

– نعم ياست عزيزة ؟

– تعال يا محمد . تعال ياروحى . عايزاك فى حاجة مهمة .

إن محمد عبد الوهاب – مع صغره – لاحظ فى الأيام الأخيرة اهتمام « عزيزة » به ، اهتماماً متزايداً . إنه لايدرك بعد أنها تحبه جداً. ربما سيدرك ذلك فى اللحظات التالية . .

ـ خد دى يا محمد . . علشانك .

ـ إيه دى ؟

ـ دى هدية منى لك . .

ومدّ محمد يده إلى الهدية لكى يكتشف أنها ساعة ذهبية . هكذا . . مرة واحدة !

وعندما بدأ محمد يجرب وضع الساعة فى يده . . بدت الساعة نشازاً للغاية . إن الساعة فاخرة جداً . . فى حين أن ملابسه متواضعة للغاية ، إنه ــ حتى ــ لايملك غير البدلة الوحيدة التى يرتديها الآن بصفة مستمرة . بدلة رمادية اللون . إن أحداً لا يعرف بالضبط أكان هذا هو اللون الأصلى للبدلة . . أم أنها أصبحت رمادية من كثرة الاستعمال ! إن صاحب الفرقة يلاحظ ذلك ويقول للصبى : « الساعة مش لايقه على البدله يا محمد » ! . . طبعاً هو يعلم ذلك . لكن . . ما العمل ؟ من أين النقود لبدلة جديدة ؟

لم يفكر محمد كثيراً . فنى المساء قدم له عبد الرحمن رشدى ــ صاحب الفرقة ــ بدلة جديدة هدية له . فى هذه المرة يستطيع محمد أن يتأكد أن اللون الأصل للبدلة هو الكحلى . إنه بلاشك سوف يغنى الليلة مستريح البال ، بساعة ذهبية . . وبدلة جديدة . . وصوت رفيع يكاد يتمزق من فرط السعادة !

ولكن السعادة لم تستمر كثيراً . فبعد أيام قليلة من عودة الفرقة إلى القاهرة واستئنافها العمل بدأت الفرقة تقدم رواية « الشمس المشرقة » وفى الليلة الأولى للرواية لاحظ محمد أن الممثلين وراء الكواليس يتهامسون .

ــ من . . من الذى حضر الليلة ؟

ــ شوقى بك ياسيدى . . أمير الشعراء شوقى كله موجود هناك فى هذا البنوار . لقد جاء خصيصاً لكى يشاهد الرواية . .

هكذا لاحظ محمد اهتمام الجميع بتقديم أحسن ما عندهم فى تلك الليلة ، فالجميع يعرفون جيداً شوقى بك ، ونفوذ شوقى بك . ولم يكن محمد استثناء من القاعدة . إن المفروض أنه سيغنى بين الفصول كما هى العادة . . وغنى محمد فى تلك الليلة كما لم يغن من قبل محاولا بذلك أن يلفت إليه نظر شوقى بك .

وفعلا . . استطاع محمد أن يفعل ذلك . إنه لم يتأكد تماماً إلا فى اليوم التالى مباشرة .

ـ تعال يامحمد . .

وجرى الصبى مسرعاً إلى عبد الرحمن رشدى متوقعاً التهنئة الحارة على تفوقه أمس فى الغناء . !

قال عبد الرحمن رشدى : اسمع . سأقول لك شيئاً أرجو أن تتمالك نفسك عند سماعه . المسألة كلها هى أن شوقى بك كان هنا أمس ــ أنت تعرف ذلك طبعاً ــ وسمعك تغنى . واليوم هل تعرف من الذى يجلس الآن فى مكتبى بالداخل ؟ إنه « رسل » باشا حكمدار القاهرة لقد جاء بناء على شكوى نقلها إليه شوقى بك مطالباً فيها بمنعك من الغناء بسبب صغر سنك . إنه ثائر جداً ــ كما نقل إلى « رسل » باشا ــ ويعتبر هذا العمل منافياً لقواعد الأخلاق ، ومن الضرورى مقاومته حماية للنشء . ولأنه لايوجد قانون يمنع مزاولة الصغار للغناء فى المسارح ، فإن رسل باشا جاء إلى الآن لكى يطلب منى بصفة شخصية التدخل فى الأمر . .

وسأله محمد بقلق : والعمل ؟

رد عبد الرحمن رشدى : لاعمل إلا أن تمتنع عن الغناء . إننا هنا نحبك كما تعلم ، وتستطيع أن تحضر فى أى وقت . ولكن لاغناء . أنت تعرف من هو شوقى بك أو رسل باشا . . معلش يامحمد . . كلها سنتين ثلاثة وتبقى كبير فى السن . .

عند هذا الحد لم يرد محمد . إنه لم يجد على لسانه كلمة واحدة يستطيع أن ينطق بها . إن لسانه لم ينطق ، ولكن قلبه فقط هو الذى نطق. فى تلك الليلة عاد محمد إلى منزله . . وفى قلبه كل أحزان الدينا .

* * *

١٩١٩ . مارس . الثورة « ليه يا مصرى كل أحوالك عجب. . تشكى فقرك وانت ماشى فوق دهب » . كل شخص فى مصر ى حالة ثورة . كل شخص وكل شىء: الأشجار ، الترام ، السكة الحديد ، المسرح ، الحكومة ، موظفو الحكومة، البوليس، المدارس ، الطلبة ، لا دراسة . لا عمل . العمل هو الثورة . الإنجليز هم الهدف . يسقط الاحتلال . عاش سعد . سعد زغلول هو الزعيم الاستقلال التام أو الموت الزؤام . الإنجليز وعدوا باستقلال مصر بعد الحرب . انتهت الحرب . لا استقلال . الاحتلال جاء بالقوة . لن يخرج بغير القوة . الإضراب. الغليان . القبض على الزعماء . المظاهرات . الرصاص . الاعتقالات . الغضب . السخط . التمرد . قوم يامصرى مصر دايماً بتناديك . الثورة . الهلال فى حالة ثورة. الصليب فى حالة ثورة. البنادق. النيران. المرأة. حجاب المرأة . الثورة برغم الحجاب . مظاهرة . الموظفون . إضراب الموظفين . « عشرين يوم راحوا علينا . . إن شالله ياخدوا عنينا .. بس المقصود. . يبقى لنا وجود ». الحرية . الاستقلال . جمهورية زفتى . الوفد . الفلاحون. الفن يساهم . مظاهرات . مزيد من المظاهرات . الفنانون فى الشارع . الريحانى . سيد درويش . بديع خيرى . جورج أبيض . عبد الرحمن رشدى . عزيز عيد . طليمات . صبى صغير اسمه محمد عبد الوهاب . مظاهرة تتقدمها عربة حنطور . فى الحنطور ممثلتان تحملان العلم . روز اليوسف ومارى إبراهيم . الإنجليز . الطلبة . دماء تسيل . أصوات . مزيد من الأصوات . الفن . غناء يرتفع . بلادى بلادى . . لك حبى وفؤادى . مصر جنه طول ما فيها أنت يانيل . . عمر ابنك لم يعش أبداً

ذليل . نحفظ كرامة شعبنا . . بعمرنا ، بدمنا . الصدام . القتلى . الضحايا. الشهداء . حظر التجول . الطوارئ . إطفاء الأنوار . الظلام . الصمت. الليل الطويل . النفى . السكوت . الامتصاص . ثم : المفاوضات .

* * *

١٩٢١. مسرح ماجستيك . القاهرة . إلى الغناء من جديد .

الإنجليز بدءوا يمتصون غضب الشعب عن طريق المفاوضات . أضيئت الأنوار . عادت المسارح والكباريهات إلى فتح أبوابها . عاد التمثيل . فشلت فرقة عبد الرحمن رشدى . الآن عاد محمد عبد الوهاب إلى العمل . هذه المرة على مسرح « ماجستيك » مع فرقة على الكسار . الفكاهة . . الخلاعة . هذا رد فعل لهزيمة الثورة . أما من ناحية بطلنا محمد فإنه ليس وحده الذى يغنى الآن بين الفصول فى روايات الفرقة . هناك معه اثنان آخران سيد بهنس ، وعبد القادر فوزى . التنافس . الغيرة . إنهم — حتى — يختصون سيد بهنس بأدوار الضباط فى المسرحيات! فى هذه المعركة لم تكن معركة محمد عبد الوهاب ضد بهنس ، ولكنها ضد البدلة التى يرتديها سيد بهنس . بدلة رسمية . بدلة تحمل نجوماً لامعة على كتفيها وشريطاً أحمر على جانبى بنطلونها وسيفاً براقاً يتدلى من حزامها . . ثم . . . هناك أيضاً نظرات هؤلاء المتفرجات اللائى تشع الحرارة من أعينهن داخل الثقبين المفتوحين فى الحجاب فوق وجوههن . نظرات إعجاب . ربما من أجل هذا اختار محمد عبد الوهاب أن يغنى بين الفصول « ويلاه ما حيلتى . . ويلاه ما عملى » !

ولم يعمل عبد الوهاب شيئاً . شخص آخر هو الذى عمل لعبد الوهاب أشياء كثيرة . رجل لايزيد عمره على الثلاثين سنة ، ولكنه فى ذلك اليوم كان يبدو أكبر من ذلك جداً عندما دخل مسرح ماجستيك . لقد دخل الرجل المسرح — أشم الجسم ، عريض الكتفين ، واسع الجبهة ، لطيف الوجه — كل شىء متناسق فيه ما عدا « البابيون » الأسود الذى

يضعه حول رقبته . دخل الرجل إلى المسرح يسأل عن السيدة فتحية أحمد . . المطربة المشهورة فى الفرقة .

– نقول لها مين حضرتك ؟

– أنا الشيخ سيد . .

– سيد مين ؟

– سيد درويش !

هكذا مرة واحدة – وجد محمد عبد الوهاب نفسه وجهاً لوجه مع العملاق الذى سمع عنه وعشقه طويلا . إن سيد درويش كان بالنسبة للموسيقى فى تلك الفترة هو كولومبوس ، هو المكتشف ، الرائد ، العملاق ، العبقرى . إن الفرق الغنائية تخصص كل ليلة عدداً من أفرادها للتجسس على ألحان سيد درويش ، حيث يقوم بتلحين روايات الأبريت لفرقة نجيب الريحانى . إنها ألحان يتم التجسس عليها ثم تهريبها إلى الفرق الأخرى كما لو كانت مخدرات ممنوعة . المخدرات لم تكن ممنوعة ، وكذلك سرقة الألحان . وبمجرد أن عانق سيد درويش المطربة فتحية أحمد سألها قائلا : من هذا الصبى ؟

– ده أسمه . . محمد عبد الوهاب . . بيغنى فى الفرقة ياشيخ سيد .

– ما شاء الله . . ما شاء الله . . طيب سمعنا حاجة ياسى محمد . .

وعندما أسمعه محمد عبد الوهاب نماذج مما يحفظه تمتم الشيخ سيد قائلا : ما شاء الله . . ما شاء الله . . والله صييت بصحيح . . مستقبل باهر إن شاء الله . .

* * *

١٩٢١ . تصرف مفاجئ . لايقبل التصديق غالباً .

ترك بطلنا فرقة على الكسار ، فى الوقت الذى ترك فيه سيد درويش فرقة الريحانى هو الآخر . . لكى يشكل فرقة تعمل لحسابه الخاص فى

مسرح « برنتانيا» — مكان سينما كايرو فيما بعد — وتقدم أوبريت شهرزاد .

هذا محمد عبد الوهاب يتكلم: « فى أثناء انهماك سيد درويش فى إجراء بروفات أوبريت شهر زاد، قابلنى أحد الزملاء الممثلين — ولعله الأخ فهمى أمان — وعرض على أن أصحبه لسماع بروفات ألحان الرواية، فذهبت معه وفى نفسى سرور لا يوصف بهذه الفرصة الفريدة . وجلست فى صالة المسرح أستمع إلى الألحان . كنت فى هذه اللحظة أجلس فى خشوع وإنصات كما لو كنت فى معبد أصلى فيه صلاة روحية . وكانت الأنغام تصل إلى أذنى كأنها أوامر مقدسة لاترد . . وكنت بالجملة قطعة ترمز إلى الإعجاب والتقديس لهذه الموسيقى التى تهدهد النفس . وهنا حدث لى أمر غريب مازلت لا أدرى له تفسيراً . إنه حادث ربما لايحدث مثله إلا فى دنيا المجاذيب . . ومع ذلك وقع بالضبط كما أرويه . فقد بدأت الفرقة تؤدى بروفة لحن فى رواية شهر زاد مطلعه " أنا المصرى كريم العنصرين " . وجلست أستمع إلى ذلك اللحن ذاهلا عن كل ما حولى . . كما لو كان فيه سر يصل ما بينه وبين إحساسى بشىء يسلب إرادتى . وما إن انتهى اللحن حتى رأيت نفسى أجرى بكل ما أملك من قوة . وظللت أجرى حتى وصلت إلى ميدان باب الحديد ، ثم جلست على أحد الأرصفة ألتقط أنفاسى وأمعن الفكر فى السبب الذى دفعنى إلى هذا التصرف الغريب . لم يكن ثمة سبب واحد أراه معقولا لتفسير ما فعلت . كل ما استطعت أن أصل إليه هو أننى سمعت لحناً خارقاً لم أتعود سماعه ، وأننى جريت بكل قوتى كما لو كان شىء مخيف يطاردنى . أما ما عدا ذلك فلا شىء! هل هو إعجاب شديد كان مكبوتاً فى نفسى ثم انطلق مرة واحدة يعبر عن نفسه ويجعلنى أطلق لساقى العنان بغير سبب وبغير وجهة ؟ هل هى لحظة من لحظات الجنون التى تعترى العقل إزاء مصادفة خارقة أو صدمة

نفسية تتفاعل فى داخل المرء فتدفعه إلى مثل هذا التصرف الشاذ ؟ أو هل هو فى النهاية مجرد جرى . . للجرى فقط ؟ إننى لا أعرف سوى حقيقة واحدة . . هى أننى قطعت المسافة من التياترو حتى باب الحديد جرياً دون توقف ، بعد أن سمعت ذلك اللحن » . . .

* * *

١٩٢١ . القاهرة . تياترو برنتانيا . مرارة الفشل . . أو — هل يسقط الجمهور ؟

من الأفضل التحفظ فى اتهام الجمهور بالسقوط ، فما حدث فى تلك الليلة كان سقوطاً مشتركاً للجمهور ، وسيد درويش ومحمد عبدالوهاب . سقوط مدو .

إن فرقة سيد درويش قدمت على مسرح « برنتانيا » رواية « شهرزاد » . البطل الغنائى هو سيد درويش بنفسه . لم تنجح الرواية . . ولكن الأمل لم يضع بعد . إن رفاق سيد درويش استطاعوا إقناعه بأن الفشل يرجع إلى صوته هو . . الذى لم يتقبله الجمهور . إن الألحان رائعة ، والرواية عظيمة . . لماذا لا نجرب مطرباً آخر من أصحاب الأصوات الرفيعة ؟ مطرب يشترك فى البطولة ؟ . .

— زى مين ؟

— محمد عبد الوهاب . . مثلا . !

واعترض الشيخ سيد درويش قائلا : ولكن صوته ما يزال رفيعاً كالبنات . .

— على العموم يا شيخ سيد الناس ما بتحبش الأصوات التخينه داوقت .

هكذا جاء عبد الوهاب وبدأ فى البروفات التى تنم عن قلة خبرته . بهذا الصوت — صوت محمد عبد الوهاب — وبهذه الألحان ، .

لسيد درويش . . سوف تفتح الرواية منجماً من الذهب . إنها المفاجأة الكبرى التى سيشهدها الجمهور فى ليلة الافتتاح .

وفى ليلة الافتتاح حدثت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد : الفشل . لقد فشلت الرواية فشلا عظيما . لقد وقع الفشل بألحان سيد درويش وصوت محمد عبد الوهاب . كيف حدث ذلك ؟ قال البعض : إن سيد درويش وضع للرواية ألحاناً عظيمة . . ولكنها كانت أيضاً ألحاناً جريئة سكبها بجمهور لم يقدرها . ألحاناً سابقة لأوانها ومتقدمة عن عصرها .

وقال فريق آخر : إن سيد درويش أعد روايته بمنطق الملحن الفنان، وليس بمنطق رجل الأعمال ، وهى خبرة أخرى يفتقدها .

وقال آخرون مستشهدين بالتاريخ : إن هناك عبارة مأثورة قالها بوتشينى عندما فشلت أو براه « حلاق أشبيلية » فى أول حفلة لتمثيلها، عندما قال لأحد النقاد: « لقد نجحت روايتى . . وسقط الجمهور » !

ولكن سيد درويش لم يقل ليلتها شيئاً من ذلك . وبقيت المسألة تحتمل قولين . مسألة أخرى تحتمل قولا واحداً فقط : فشل محمد عبد الوهاب .

إن الجمهور صفق للرواية مرة واحدة فقط : عندما انتهت . كان التصفيق — فى الواقع — يتم إعجاباً بالمشهد الختامى فقط. مشهد يشترك فى الغناء الختامى به كل من حياة صبرى، ومحمد عبد الوهاب . وعندما أسدل الستار صفق الجمهور طويلا للمشهد الختامى . . فرفع الستارة مرة أخرى ليعاد المنظر . هنا رفض الجمهور أن يشترك محمد عبد الوهاب فى الغناء ، وأصر على أن تغنى حياة صبرى وحدها . . . هنا اضطر المطرب الناشئ لترك المسرح . . واستمرت حياة صبرى تغنى بغير عبد الوهاب .

فى تلك الليلة عاد محمد عبد الوهاب إلى منزله وحيداً. إنه ــ على وجه الدقة ــ لم يكن وحيداً تماما . كانت معه : دموعه .

* * *

١٩٢٢ . سيناء . الصباح الباكر . القطار من القاهره إلى بيروت يتوقف فى القنطرة والعريش ورفح وغزة والقدس لإنزال الركاب وأخذ شحنات من الوقود شحنات من الفحم . إن طول الرحلة ــ ٤٨ ساعة ــ يدفع المسافرين إلى قراءة الصحف التى يحملونها فى أيديهم مرة ومرتين ــ وعشرين مرة . . إن الأنباء ــ وحتى الإعلانات ــ هى نفسها فى معظم الصحف :

« الملاكمة الكبرى بين الملاكم الفرنسى الشهير كاربنتيه . والملاكم الإنجليزى الأسترالى كوك . .

« مجلس الوزراء المصرى أذاع بلاغاً بتعيين المستر كيون بويد ــ إنجليزى ــ مديراً عاماً لوزارة الخارجية المصرية . .

« حزب جديد برياسة صاحب الدولة عدلى يكن اسمه حزب الأحرار الدستوريين.

« حضرة محمد أفندى بكرى المهندس فى مصلحة المساحة . . أذاق سليمان أفندى فوزى صاحب مجلة الكشكول علقة تاريخية فى محل الحلوانى صولت رداً على نقد كتبه . .

« أقفلت البورصة أمس إكراما لعيد الصوم عند اليهود . .

« وصول سعد باشا زغلول منفياً إلى جزائر سيشل ومعه الأستاذ وليم مكرم عبيد . .

« الكاتب والشاعر السورى الطائر الصيت أمين الريحانى يزور مصر . .

دواء جديد : حبوب الدكتور كاسل هى أسرع للعلاج من الضعف « العصبى وأمراض المعدة والشلل وأمراض الكلى والخفقان

والأرق والملاريا والدوسنطاريا . الثمن سبعة قروش ونصف » .

انتهت قراءة صحف اليوم . بعض المسافرين يتململون فى كراسيهم. القطار فى طريقه . . من بين المسافرين شخص واحد لايقرأ ولا يسمع ولايضحك ولايندمج . شخص عرفناه من قبل مغنياً فى بعض مسارح القاهرة : محمد عبد الوهاب . إنه دنيا مستقلة وسط هؤلاء المسافرين الذين يعرف بعضهم ولا يعرف معظمهم . إنه يفكر ويحلم ويأمل . إن الغناء فى الشام ليس أمراً سهلا بالنسبة لشخص لم يخرج من القاهرة من قبل إلا لينام داخل « إسطبل متنقل » فى دمنهور .

إن بديع خيرى عندما تحدث إليه أمس قدم له هذا العرض المدهش : أن يسافر إلى فلسطين ولبنان وسوريا فى رحلة فنية مع فرقة نجيب الريحانى . بالطبع وافق محمد عبد الوهاب على الفور . إن العرض مغر . . والجمهور جديد . إنه فى القدس سوف يحاول أن يغنى قصائد عربية فصيحة رزينة . ولكنه فى بيروت . . فى بيروت . . لا ، لا . . بيروت مدينة يشبهونها بالإسكندرية . حسناً . فى بيروت سوف يحاول أن يكون ظريفاً . . عاطفيـاً . . مؤثراً . إنه هناك سوف يقوم بعمل غنائى عظيم . عمل رائع . سوف يجعل الفرقة كلها تتحدث فيما بعد عنه . . وعن تصفيق الجمهور له .

القطار يتحرك فى طريقه . عجلاته تطحن بغير رحمة هذه الأحلام الفجة التى ترتسم فى خيال بطلنا الصغير . إنه — بصعوبة — يلقى بنظرة أو نظرتين على الطريق من نافذة القطار . إن أحلامه ضخمة كهذه الصحراء ، ولكنها أيضاً باهتة اللون كهذه الرمال . إنه — حتى — لايستطيع أن يرسم فى خياله صورة محددة لشكل الحياة فى مدينة القدس أو بيروت أو دمشق . .

مرة أخرى لايتسع عقله للواقع أمامه . . فيلجأ إلى اجترار الأحلام

اختزنها فى رأسه . أحلام بنجاحه فى هذه المرة — فى الشام .

* * *

بعد شهر : القدس ، دمشق ، بيروت . الفشل المطلق .

محمد عبد الوهاب يتذكر : « . . لست فى حاجة لأن أذكر أن رحلتنا هذه قد فشلت فشلا باهراً ، ولم تنجح فكرة الاستعانة بى للغناء بين الفصول فى الأقطار الشقيقة ، بل لعلها كانت من أسباب فشل الرحلة . وعدنا من هناك بخفى طيب الذكر حنين » .

القرار : لاعمل بعد الآن فى فرقة الريحانى .

* * *

١٩٢٤ . القاهرة . الخازندارة . تغيير كبير .

عبد الوهاب يفكر كثيراً فى هذه الأيام . إنه — خلال السنتين الأخيرتين مشغول بأفكار عديدة تحتل رأسه . أفكار تنحصر فى الموسيقى والغناء . إنه حتى الآن ينجح قليلا ويفشل غالباً . إن النجاح لايدوى . . ولكن الفشل يدوى . إنه حتى الآن يقلد ولايبتكر . يغنى لغيره ولايغنى لنفسه . إن الموسيقى بالنسبة له هى أنغام ينفعل بها . . ولكنها ليست دراسة يتعمق فيها . إنه أحياناً يحس بانفعالات كثيرة فى داخله لايستطيع أن يترجمها إلى ألحان يسمعها الناس . القرار : دخول معهد الموسيقى . يسمونه نادى الموسيقى الشرقى .

ولكن الدراسة فى المعهد تحتاج إلى مصروفات . مشكلة . الحل : البحث عن عمل . النتيجة : محمد أفندى عبد الوهاب أصبح مدرساً للأناشيد بمدرسة « الخازندارة » .

ها هو ذا بطلنا يقف فى الفصل مع تلك المجموعة من التلاميذ الأشقياء لكى يدرس لهم الأناشيد . إن سنه الصغيرة سوف تصبح عقبة تمنعه من الحصول على الهيبة اللازمة له فى عمله الجديد . لهذا يقوم المدرس

الصغير يحفظ نشيد « بلادى بلادى بلادى . . » لسيد درويش ، ونشيد « اسلمى يا مصر » اصفر على . إنه يحفظ الأناشيد فى معهد الموسيقى ويستذكرها فى المنزل ليلا . . لكى يفرغ ما يحفظه فى تلاميذ الفصل صباحاً. هذا وإلا . . . .

فى هذه النقطة يتكلم محمد عبد الوهاب . إنه يعترف : « إننى لم أكن تلميذاً فاشلا من قبل فحسب ، بل أصبحت كذلك مدرساً فاشلا. لقد دخلت الفصل لأول مرة كمدرس للأناشيد وفى ذهنى تلك الصورة الجميلة لشخصية الرجل الذى سيصنع من الطلبة الأطفال عباقرة يدينون له بالفضل والولاء فى مستقبل الأيام . وكنت أتخيل شيخ الكتاب وهو ينظر إلى بعينين ناريتين فأشعر بأن جسمي يكاد يتفكك ، ثم أحاول أن أقارن بين موقفى مع تلاميذى وبين موقفى مع شيخ الكتاب ، فأجد الفرق يشبه ما بين السماء والأرض . كان التلاميذ " العفاريت " يرددون الأناشيد كالببغاوات وكأنهم يرددون " فزورة " ، أو يقلدون الحيوانات من قبيل التسلية . وكان أكثر هؤلاء الأولاد شقاوة وأفشلهم فى حفظ الأناشيد هو إحسان عبد القدوس . . الذى أصبح فيما بعد رئيساً لتحرير " روز اليوسف " . ولقد تحققت — بعد قليل من ممارسة عملى كمدرس للأناشيد — أننى لن أستطيع أن أخلق فى أدمغة هؤلاء الشياطين الصغار نفس الأرض الخصبة التى يولد الطفل بها فى رأسه . . وهى الموهبة والاستعداد . وقد تحقق ظنى بعد عشرات الأعوام . إذا لم أجد واحداً من تلاميذى يبرز فى ميدان الموسيقى، بل جعلوا رقبتى " قد السمسمة . . " وخصوصاً صديقى إحسان عبد القدوس » .

مرة أخرى : عبد الوهاب يفكر كثيراً فى هذه الأيام . ما آخرة الغناء والموسيقى ؟ نقود ؟ لانقود . شهرة ؟ لاشهرة . سمعة ؟ لاسمعة . دراسة ؟ لانتيجة . ماذا إذن ؟ لاشىء . إنه لم يحصل بعد إلا على الفقر والضرب والفشل والقلق والصعود والهبوط والمحاولة . . ثم الفشل من جديد .

إن الفشل أصبح هو القاعدة فى حياته . النجاح هو الاستثناء . . .

من أحد هذه الاستثناءات تلك الليلة التى سمعه فيها محمود شاكر باشا مدير المساحة .. عندما جاء مرة إلى نادى الموسيقى الشرقى .

كانت الزيارة صدفة . . ولهذا التقطها عبد الوهاب كعادته مع كل فرصة عابرة . إن الباشا سمعه وهو يغنى فأعجب بصوته وأثنى عليه ثناء كبيراً . . لحظتها قال له محمد عبد الوهاب : « إن كنت شايف سعادتك صحيح أنى أستاهل التقدير ده كله . . شوف لى شغلانه عندك أحسن شغلتنا دى ما بتأكلش عيش !! »

وتلقف مدير المساحة طلب عبد الوهاب سريعاً ، وطلب منه أن يمر به فى مكتبه فى اليوم التالى قبل الساعة الثانية عشرة ظهراً لأنه سيقوم بإجازة بعد ذلك يقضيها فى الإسكندرية .

وأحس عبد الوهاب أن الأيام بدأت تبتسم له ، وأن الله سيتوب عليه أخيراً من الشقاء والفقر ، وأنه سيودع الغناء والموسيقى ، بأسف شديد ولكن بغير رجعة . لهذا قرر أن يدرك المدير قبل سفره ، فاستعار « منبهاً » من أحد أصدقائه ليوقظه فى الصباح . . حيث إنه يخشى أن يتأخر فى نومه . . وطلب من والدته — لأول مرة — أن توقظه إن لم يسعفه رنين جرس المنبه . ولم يكتف بطلنا بهذا أو ذاك وإنما طلب من أحد أصدقائه أن « يقلق منامه » قبل الساعة التاسعة صباحاً .

دخل محمد الفراش وكله أمل فى أن ينعم بالجلوس وراء مكتب ويقف أمامه ساعى المصلحة ليتلقى تعليماته . . ونام قبيل الفجر والأمانى والآمال تعد له أحلاماً لذيذة .

وعندما استيقظ عبد الوهاب فى اليوم التالى ، استيقظ بدون منبه ، وبغير معونة من والدته أومن صديقه . ولكنه استيقظ ليصيح قائلا : « يانهار أبيض . . الساعة واحدة بعد الظهر ؟ يعنى الباشا زمانه فى بنها » !

وبسملت والدته وحوقلت ، وتركت فراش شقيقه الشيخ حسن ـ المريض منذ يومين ـ لتتأكد من أن محمداً لم يصب بمس من أهل الأرض أو السماء . لقد اكتشفت أنه يتحدث إلى نفسه بصوت عال : أن المنبه لايدق لأن جرسه عاطل . . والدته . . شغلها مرض شقيقه حسن عن إيقاظه . صديقه . . وقعت له حادثة فى الترام فضاع الوقت ولم يمر به .

وفى هذه اللحظة كاد عبد الوهاب ينفجر من الغيظ وهو يفكر : إن القدر ساق إليه فرصة العمل بمصلحة المساحة أمس . . ثم عاد وسحبها منه اليوم . إنه فى حيرة شديدة : هل القدر هو الآخر . . صديقه ، أو عدوه ؟

سؤال لابد للأيام أن تجيب عنه . .

• • •

١٩٢٤ . الإسكندرية . يوليو . سان استيفانو .

من وقت لآخر يغنى محمد عبد الوهاب فى الحفلات الخاصة والأفراح. أكل عيش . ولكنه فى هذه المرة يغنى بشكل مختلف . المناسبة : حفلة غنائية قرر نادى الموسيقى الشرقى إقامتها فى كازينو سان استيفانو بالإسكندرية .

من وجهة نظر محمد عبد الوهاب : هذه أول حفلة غنائية حقيقية يشترك فيها . إنه فى هذه المرة ليس مسلياً للجمهور ولا هو استكمال للديكور ـ ولا هو يمثل شيئاً طريفاً قد يستمع إليه الناس . إنه الآن يغنى . من خلفه يعمل تخت موسيقى مدرب ، وأمامه يستمع نخبة من الشخصيات التى دعاها النادى لحضور حفلته . واحد من هذه الشخصيات سوف يكون له فيما بعد تأثير خطير فى حياة عبد الوهاب .

طوال الحفلة غنى طلبة النادى وأعضاؤه قصائد ومواويل كثيرة . محمد عبد الوهاب غنى : « جددى يا نفس حظك » . وبمجرد أن انتهى

من الغناء ، صعد إلى غرفته فى الكازينو . بعد قليل جاء أحد زملائه ليبشره :

ـ تعرف مين سمعك فى الحفلة ؟

ـ مين ؟

ـ شوقى بك . . أمير الشعراء !

ـ يا ساتر ! اللهم اجعله خير !

إن عبد الوهاب أحس عند سماع اسم شوقى كأن ثعباناً قدلدغه . لقد تلعثمت كلماته واختلطت أفكاره واهتزت مشاعره عندما سمع باقى القصة من صديقه : شوقى بك عايز يشوفك . . تعال أعرفك به .

فى البداية لم يرد عبد الوهاب . إنه لم يعترض . ولكنه فى الوقت نفسه لم يوافق . إنه لايستطيع أن يحدد بالضبط حقيقة شعوره نحو أحمد شوقى . أمير الشعراء . إنه معجب به جداً ، ويعشق شعره تماماً ، ويرى أن لقاءه به قد يكون فرصة نادرة . . ولكنه فى الوقت نفسه يحس أن هذا الرجل هو صاحب المصيبة الكبرى فى حياته ، عندما وقف فى طريقه من قبل ومنعه من الغناء . إنه يعلم أن شعر شوقى رقيق عذب ، ولكنه يعلم أيضاً أن تصرفه من قبل يحمل معنى الغطرسة والعجرفة .

لهذا ظل السؤال يتردد فى عقل محمد : أيذهب لأحمد شوقى . . أم لايذهب ؟ يذهب . . أم لايذهب ؟ يذهب . . أملا ؟ يذهب . .

هكذا توجه عبد الوهاب أخيراً إلى مقصورة شوقى بك بمسرح كازينو سان استيفانو . ذهب بمزيج من الغضب والأمل والكراهية والإعجاب والخوف والتمنى و . . . . « أهلا أهلا بالكروان » !

هكذا فوجئ محمد بهذا الاستقبال من شوقى بك . إنها كلمات معسولة وترحيب حار وابتسامة عريضة ، تلك التى يستقبله بها شوقى بك .

إن الرجل إذن ليس متوحشاً ، ولا مستبداً . الرجل أمامه وديع هادئ رقيق مجامل قصير القامة ــ نعم ــ ولكن عينيه لاتستقران فى اتجاه واحد من فرط الخجل .

ــ أنا عارف إنك متضايق منى . . لكن تأكد أنى لم أمنعك من الغناء إلا من أجل مصلحتك !

هكذا بادره شوقى بك بالكلام . إن الرجل لم يعتذر ــ حقاً ــ ولكن الكلمات نفسها تحمل معنى الاعتذار أو ــ على الأقل ــ معنى الاهتمام .

ورد محمد عبد الوهاب بعد أن تلعثم بعض الوقت : على العموم اللى كنت عايزه سعادتك حصل . . لأنى امتنعت عن الغناء ييجى ثلاث سنين! و . . . « أحسست على الفور أننا أصبحنا أصدقاء ، برغم الفارق الواضح بيننا فى السن والبيئة والمركز . وقد عمل شوقى بك نفسه على أن يشعرنى بذلك ، يشعرنى بالاهتمام والصداقة والعطف والحب . وقبل أن نفترق فى تلك الليلة ، طلب منى أن أتصل به فى القاهرة عندما يعود إليها فى نهاية الصيف » .

* * *

القاهرة . ليلة باردة قليلا . أول أكتوبر . شارع حلال. غلطة العمر. منذ التقى عبد الوهاب بأحمدشوقى فى الإسكندرية وهو متردد . . ثلاثة أشهر وهو متردد . لقد سمع أمس أن شوقى بك عاد إلى القاهرة بعد أن انتهى من الاصطياف فى الإسكندرية . أيزوره عبد الوهاب . . أم لايزوره ؟ إن شوقى بك هو نفسه الذى طلب من عبد الوهاب ذلك . أكان هذا الطلب بدافع المجاملة . . أم كان فعلا بدافع رؤية عبدالوهاب؟ وحتى لو كان شوقى يريد حقاً أن يرى المطرب الناشئ . . أفليس من المحتمل أن يكون قد نسى الموضوع كله فى زحمة اهتماماته وانشغالاته ؟

هل يقابله هذه المرة فى القاهرة بنفس الحرارة التى استقبله بها فى الإسكندرية ؟

أسئلة كثيرة تردد محمد عبد الوهاب فى الإجابة عنها طوال الأشهر الثلاثة الماضية . ولكنها أصبحت أكثر إلحاحاً على عقله هذا الصباح بالذات ــ أول أكتوبر ١٩٢٤ ــ بعد أن علم بعودة شوقى بك إلى القاهرة . إن شيئاً عميقاً فى داخله يحرضه على الذهاب ــ ولكنه مع ذلك يستدير إلى كل أصدقائه ليسألهم فى الأمر : أذهب . . أم لا أذهب ؟ إنه فى الحقيقة لايسألهم ، ولكنه يريد أن يسمع منهم كلمة واحدة : اذهب إلى شوقى بك . إنه يريد أن يقنع نفسه بأن أصدقاءه هم السبب فيما لو فشلت المقابلة . لهذا يستدير إلى كل من يثق فيه من بينهم ويسأله : « هل أذهب يا أستاذ على . . يا حامد أفندى. . هل أذهب يا حسن بك ؟ » . .

ورد حسن بك أنورو كيل نادى الموسيقى بصوت مملوء بالدهشة والاستنكار : أنت مجنون ؟ شوقى بك بنفسه يطلب منك الاتصال به ولاتذهب ؟ كيف هذا ؟ اذهب وقابله فوراً !

بالطبع محمد عبد الوهاب سيذهب فوراً ، ولكنه كان يريد فقط أن يسمعها من صديق . لقد خرج من مكتب حسن بك أنور يسير بل يجرى . لقد قطع المسافة بين نادى الموسيقى ــ بجوار حديقة الأزبكية ــ وبين مكتب شوقى فى شارع جلال . . فى خمس دقائق . أقل من خمس دقائق . إنه لم يلتقط أنفاسه إلا أمام شوقى بك شخصياً . إن كلمات الترحيب التى قالها له شوقى هى فقط التى نزعت كل تردد من عقل عبد الوهاب . إن شوقى لم ينس المطرب الناشئ ، وحرارته لم تقل ، وإعجابه لم يتضاءل ، وترحيبه لم يختف. بل إن « . . شوقى بك لم يكتف بهذا الترحيب ، وإنما أصر على أن يدعونى للعشاء ، وصحبنى إلى مطعم الكورسال

الذى كان قد اعتاد أن يتناول عشاءه فيه بشارع الألفى . وفى تلك الليلة تناولت أفخر عشاء فى حياتى مادة ومعنى . ففضلا عن جودة الطعام ولذته كانت أحاديث ذلك العبقرى كأنما تصدر عن لسان المعرفة ، تفتح شهيتى لصداقته . إننى فى تلك الليلة عرفت شوقى بك على حقيقته ، إنه ينبوع من الأدب والعلم والذوق والمحبة ،وحسن الخلق والإحساس العميق بالحياة » .

من هنا بالضبط بدأت تنمو صداقة متينة بين المطرب الناشئ محمد عبد الوهاب ، وأمير الشعراء أحمد شوقى . وخلال أيام قليلة وضع أحمد شوقى أول أغنية من تأليفه ليغنيها عبد الوهاب . لم تكن هذه الأغنية الأولى — كما يظن كثيرون — هى « ياجارة الوادى » ، ولكنها كانت دوراً عامياً بعنوان « شبكت قلبى ياعينى » . فى الأغنية يقول شوقى :

توحشنى وانت ويايا .. واشتاق لك وعنيك فى عنيا
واتذلل والحق معايا .. وأعاتبك ماتهونشى عليا

بهذه الأغنية بدأ غناء محمد عبد الوهاب لشوقى . غناء مارسه عبد الوهاب فى البداية فى الحفلات الخاصه التى كان يكلف بإحيائها. ثم بعد ذلك فى الحفلات والأفراح التى يحييها .

بعدها بقليل بدأ عبد الوهاب يضاعف من مجهوده لدراسة الموسيقى .

لقد تعلم من قبل العزف على العود وامتاز فيه خلال سنة واحدة ، وهى مدة قياسية . والآن أصبحنا نراه مرة فى نادى الموسيقى الشرقى ، وفى المرة التالية نراه فى شارع الشوارىى . يسرع خطاه إلى مدرسة « برجرين» . فى هذه المدرسة يتعلم عبد الوهاب الهارمونى والتوزيع الأوركسترالى . إنه يتعلم على يد موسيقى روسى اسمه « شطالوف » .

بعد قليل يحس عبد الوهاب أنه يضيع وقته . إن الجمهور الذى يغنى له يريد « حبيبى فين داونى يا ناس عليه » . . ولايهمه التوزيع الأوركسترالى فى قليل أو كثير . النتيجة : لم يستمر عبد الوهاب فى دراسة الهارمونى .

و . . . كانت هذه غلطة العمر . وسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يدرك عبد الوهاب فداحة هذه الغلطة .

* * *

١٩٢٥ . القاهرة . نحن داخل المطبخ فى شقة الممثلة المسرحية روزاليوسف؛ إنها الآن زوجة الممثل زكى طليمات . الربيع .

منتصف الليل . الأطباق بدأ غسلها بعد أن انتهى الضيوف من تناول عشائهم . الرجال يصبحون . أصوات صيحاتهم يمكن سماعها من المطبخ . إنهم يشربون الليلة كثيراً . يشربون ويضحكون ويصيحون . من حجرة الاستقبال تصدر نغمات مبدئية ، صوت قهقهة نسائية ، رنين ضحكة رجالية ، ثم كلمات مندهشة : « . . ولكن لا . . هذا سحر»! كلمات تتبعها حركة سخط من الخادمة داخل المطبخ . إن الخادمة تتمتم لنفسها : ماذا جرى لهؤلاء الضيوف ؟ إنهم — حتى — لم يقولوا كلمة شكر واحدة بعد العشاء الذى تناولوه ، برغم المجهود الذى بذلته هى فى إعداده وضبط توابله . إنهم نسوا كل شىء . بمجرد أن بدأ هذا الشاب فى الغناء . إنه شاب لطيف ، مؤدب ، خجول ، مسل ، نحيل القوام ، مرتفع الطربوش ، ولكنه تجاوز الحدود . لقد استحوذ بصوته على اهتمام كل الضيوف . ضيوف تعرف الخادمة بعضهم ، ولكنها لا تعرف الباقين .

من الذين تعرفهم الخادمة كضيوف سابقين : عباس محمود العقاد ، الكاتب المشهور . إبراهيم عبد القادر المازنى . الناقد الفنى بجريدة

« الأخبار » . . أحمد رامى شاعر الشباب . . محمد التابعى ، موظف بسكرتارية مجلس النواب يكتب نقداً فنيًّا فى « الأهرام » بإمضاء « حندس » . . ثم ، هذا الشاب الذى يمسك عوداً فى يده . . محمد عبد الوهاب !

ماذا دفع روزاليوسف إلى دعوة كل هؤلاء معاً فى سهرة واحدة ؟

كان السبب بسيطاً . إن الكاتبين الكبيرين العقاد والمازنى يتزعمان حملة الهجوم على شعر شوقى . فى الواقع أنهما أصدرا لتوهما كتاباً مشتركاً بعنوان « الديوان » . . . تناولا فيه شعر شوقى وتاريخه وحياته بالهجوم . إن الصحف انقسمت بعدها إلى معسكرين ، أحدهما يدافع عن شوقى ضد العقاد والمازنى ، والآخر يهاجم شوقى مع العقاد والمازنى. إن التعصب الشديد هو طابع الخصومة . إن كل ما يكتبه أعداء شوقى — سواء كان أدباً أم فنًّا أم سياسة — هو سخيف تافه مبتذل فى نظر أصدقائه. أما فى نظر أعداء شوقى فإن كل ما يراه هو حسناً يرونه هم قبيحاً ، وكل ما يراه صواباً يرونه هم خطأ .

وبناء على ذلك بدأ المازنى يهاجم المطرب الناشئ محمد عبد الوهاب فى جلساته الخاصة . إنه لم يسمع عبد الوهاب بعد — ومع ذلك يقول إن صدره ضيق ولايصلح أن يكون مغنياً ، ولكن يصلح أن يكون مريضاً . لم يكن الهجوم فى الواقع موجهاً ضد عبد الوهاب ، ولكنه موجه ضد شوقى بمناسبة تبنيه وإعجابه بعبد الوهاب .

هكذا رأت روزاليوسف أن تحمى الصديق عبد الوهاب من هجوم المازنى عليه ؛ فدبرت هذه السهرة لكى يتعرف المدعوون بعبد الوهاب ويستمعون إلى غنائه .

— بماذا نبدأ الحفل ؟

— بالقرآن . . إيه رأيكم ؟

خلال لحظات كان المطرب الشاب الناشئ محمد عبد الوهاب يتلو من آى الذكر الحكيم : « الحاقة . ما الحاقة ،وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . . »

إن التلاوة هادئة ، والصوت رخيم ، والأداء ممتاز .

– إيه رأيك يا عقاد ؟

هكذا غمزت روزاليوسف لعباس العقاد . .

ورد العقاد : الحقيقة . . صوته ممتاز ، قوى عذب ، وجذاب لكن . . .

– لكن إيه . . . ؟

– لكن عيبه الوحيد إعجاب شوقى به !

فى هذه اللحظة ضحك الجميع قبل أن يطلبوا من عبد الوهاب أن يغنى .

ماذا يغنى عبد الوهاب ؟ ماذا ؟ ماذا . . ؟

– آه . . سأغنى لكم كلمات حاولت أن ألحنها بنفسى كتجربة . . تحبو تسمعوها ؟

– طبعاً . . طبعاً . .

أمسك عبد الوهاب بالعود وحنا عليه لحظة . الآن صمت تام يسود المنزل كله . صمت له رنين . بعد لحظة انحنى رأس عبد الوهاب ليصبح قريباً من العود ، كأنما يتبادلان معاً كلمة سر لايعرفها واحد من الحاضرين . فى اللحظة التالية رفع عبد الوهاب رأسه ، وبدأت أنامله الرقيقة تداعب أوتار العود . إنها تنتقل على الأوتار ببطء ، بسرعة ، بمزيد من السرعة ، ثم . . ببطء من جديد . الآن بدأ عبدالوهاب يغنى : « غاير من اللى هواك قبلى ولو كنت جاهله . . مين ده اللى فتح عينيه بالحب قبلى ومال فؤادك له » . . .

إن الجميع فى حيرة ، فى صمت،فى انفعال ، فى تردد بين العذاب

والمتعة ، بين الحب والغيرة ، بين الشوق والألم ، بين السعادة والحسرة . إننا نستطيع أن نرى غناء عبد الوهاب مطبوعاً على وجوه الجالسين وجهاً وجهاً ودمعة دمعة . إن أحمد رامى يستمع إلى كلماته فى انفعال شديد بعد أن جلس فى هدوء على وسادة عند قدمى عبد الوهاب . آخر تفضحه دموعه .. كرد فعل لهذه الرقة الحزينة التى تنبعث من صوت عبد الوهاب . وحتى حينما يسكت صوت عبد الوهاب ، فإن نغماته تصور لهم الفرح والسرور فى هذه اللحظة ، والحب فى اللحظة التالية ، والغيرة بين الاثنين . هذا ليس غناء .. هذه مناجاة . هذه روح تسمو وترتفع وتحلق . .

— إيه رأيك يا عقاد ؟

— والله استعداده الفنى عظيم . عظيم جداً . .

— إذن . . هل تمنعك خصومتك لشوقى من أن تقول كلمة عن عبد الوهاب ؟

— كلا . . . مطلقاً . بل إن وحى الشعر هبط على فى اللحظات القليلة الماضية هل تسمعون ؟ هذا ما أقول :

إيه عبد الوهاب إنك شاد يطرب السمع والحجا والفؤادا
قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهادا
ونفينا الرقاد عنا لأنـا قد حلمنا وما غشينا الرقادا
بارك الله فى حياتك للفن وأبقـاك للمحبين زادا

— ما شاء الله يا عقاد ؛ ما شاء الله ؛ فى أى صحيفة تنوى نشر هذه الأبيات ؟

— فى « البلاغ » إن شاء الله .

— وأنت يا مازنى . . ما هو رأيك بلا مجاملة ؟

— رأيى سأسجله مكتوباً فى هذه الليلة كلها . إن عبد الوهاب أمتعنا بغبطة فى ليلة كانت كلها سحراً . أو لا يسر الإسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد

لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم ليلة واحدة كهذه الليلة التى نعمت فيها ! كأنى لم أسمع بل أسقى من رحيق الجنان . . وكأن غناء عبد الوهاب لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول . .

كلهم إذن بدءوا يقولون رأيهم فى عبد الوهاب تلك الليلة . كلهم – ما عدا محمد التابعى إن التابعى . مبدئيًّا – وقف ليهمس فى أذن محمد عبد الوهاب بصوت نصف مسموع قائلا : « أبقاك الله سلوى وعزاء لساهرى ليل الشوق واللوعة والصبابة » .

هذا ما قاله التابعى ، ثم خرج مع الجميع بعد انتهاء السهرة ، هابطين درجات السلم الطويل – مائة وخمس درجات – خارجين من منزل روزاليوسف . فى الواقع أنه منزل مملوك لأحمد شوقى ، وهى مستأجرة فيه فقط . بالطبع خرج الجميع سعداء ، ولكن أكثرهم سعادة هو بطلنا محمد عبدالوهاب . إن سعادته سوف تتضاعف فى الأيام التالية حينما يقرأ قصيدة العقاد فى « البلاغ » ، وكلمات المازنى فى « الأخبار » ، ثم . . ثم . ثم هذه الكلمات من التابعى فى « الأهرام » :

« . . سمعت به كثيراً قبل أن أراه ، فلما عرفته أيقنت أن مادحيه والمعجبين به ويفنه لم يفوه حقه كاملا ، وأننى لم أسمع عنه إلا قليلا من كثير . ولقد عودت نفسى الحيطة والحذر وألا أتورط فى مديح أو هجو ، ولكنى أقول اليوم عن عبدالوهاب إن له أجمل صوت سمعت ، وإنه أصدق ملحن عرفت » .

قرأ عبد الوهاب هذه الكلمات ثم : بكى . فى هذه المرة كانت دموعه هى . . سعادة متنكرة !

* * *

١٩٢٥ . سبتمبر . القاهرة . هل يكون ملحناً ؟ من الأفضل أن يكون الإنسان عاقلا فى استخدام كلمة « ملحن » بالقاهرة فى تلك الأيام.

إن العصر هو عصر عمالقة . عصر كامل الخلعى وداود حسنى وسيد درويش .

إن سيد درويش هو الذى يردد الناس أغانيه ومسرحياته وأوبراته ، ابتداء من « زورونى كل سنة مرة» . . إلى « شهر زاد» » والبروكة » «والعشرة الطيبة » . إنه هو الذى ألحقه نجيب الريحانى بفرقته ملحناً لها بأجر شهرى بلغ مائة وخمسين جنيهاً . إنه هو أيضاً الذى تسابقت الفرق كلها على ألحانه . . حتى إنه طلب ألف جنيه لكى يوافق على تلحين روايته « شمشون ودليلة » لفرقة أولاد عكاشة على مسرح حديقة الأزبكية .

ولكن ، بعد أن مات سيد درويش فإن . . عفواً ، هل مات سيد درويش ؟ نعم . متى ؟ منذ ستين . مات فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٣. ولكن . . ها نحن أولاء قد نسينا الموسيقار العبقرى بعد موته ، مثلما نسيته مصر هى الأخرى بعض الوقت . وحتى عندما بدأت مصر تحتفل بذكرى سيد درويش ، فإنها كانت تحتفل بذكرى خروجه من الدنيا . . ذكرى موته ، لا ذكرى ولادته !

ما علينا . .

إن محمد عبد الوهاب لحن من قبل عدة مرات ، بعضها كان محل إعجاب شديد ، ولكنه ما زال حتى الآن متردداً فى الإقبال على التلحين تماماً . إن تردده يزيد كلما تذكر حداثته . . وتذكر بعدها ضخامة سيد درويش . إننا نكاد الآن نرى عبد الوهاب وهو يقرأ صحف اليوم : « السياسة » . . « المقطم » . . « الأهرام » . . « البلاغ » . . آه . . « البلاغ » ، هذا مقال هام بلا شك . مقال بقلم عباس محمود العقاد وعنوانه « سيد درويش » . إن العقاد كتب يقول : « فى مثل هذا الشهر منذ عامين مات السيد درويش . وإذا قلت السيد درويش فقد قلت إمام الملحنين ونابغة الموسيقى المفرد فى هذا الزمان . مات والقطر

- كله يصغى إلى صوته . . إن هذه الأمة قد فجعت فى رجل من أفذاذ رجالها المعدودين » .

وعندما طوى عبد الوهاب الصحيفة من يده ، فى تلك الساعة المبكرة من يوم ٢٩ سبتمبر ، كان السؤال أكثر إلحاحاً فى رأسه : أيقبل على التلحين . . أم لا ؟ إن المقارنة سوف تثور دائماً فى عقول الناس بين هذا الملحن وبين العبقرى سيد درويش . مقارنة لابد منها . مشكلة لابد من التفكير فيها .

ولكن التفكير هو وحده الذى غير رأى عبد الوهاب . إن عبقرية سيد درويش هى تحد . . أكثر مما هى مشكلة . اختبار وليست عقبة . وحتى سيد درويش نفسه . . سوف يحكم عليه بالفشل ، إذا لم يلد بعده من يكملون طريقه . هذه هى العبقرية . عبقرية الأفراد وعبقرية المجتمعات .

إن عبد الوهاب واجه المشاكل والتحديات أكثر من مرة حتى الآن . إنه كان يستطيع أن يستسلم لليأس كل مرة . ولكنه لم يفعل . لماذا إذن لايحاول؟ لماذا لايتقدم ؟ و.. قرر عبد الوهاب أن يتقدم فى التلحين .

وقبل أن يمر وقت طويل ، كان قد نجح فى إقناع نجيب الريحانى بإعطائه الفرصة . هكذا قام عبد الوهاب فعلا بتلحين أوبريت « قنصل الوز » لفرقة نجيب الريحانى . المفاجأة : نجح الأوبريت ، ونجح اللحن . المفاجأة الثانية : دعوة من السيدة منيرة المهدية لكى يلحن لها عبد الوهاب أوبريت « المظلومة » .

إن منيرة هى سلطانة الطرب والغناء . لقب رسمى . إنها بلغة الإعلانات المعلقة خارج مسرحها « دكتوراه ممتازة فى الغناء والطرب بين العالم الشرقى جميعه » . إن الذهب يتدفق عليها من العمد والأعيان؛ وحتى مجلس الوزراء كان يجتمع أحياناً فى بيتها . وإذا غضب منها أحد

رؤساء الوزارات . . فإنها تصالحه بأغنية « تعالى يا شاطر نروح القناطر » . ويصطلح رئيس الوزراء . . ويذهب إلى القناطر . وطبعاً . .

طبعاً هذه فرصة جديدة لاتعوض بالنسبة لمحمد عبد الوهاب . لهذا قبل فوراً تلحين أوبريت « المظلومة » التى ألفها الشيخ يونس القاضى . نجحت الأوبريت . النتيجة :

— إيه رأيك لو كملت ألحان « كليوباترا » . . وأخذت فيها دور مارك أنطونيو ؟

هكذا عرضت منيرة المهدية على محمد عبد الوهاب .

— أوبريت إيه ؟

— كليوباترا . .

— هيه ناقصة ؟

— آه . . أنت عارف أن المرحوم الشيخ سيد درويش كان بدأ فى تلحينها لحسابى ، وبعدين اختلفنا فإيه رأيك تكملها ؟

— أنا ؟ . . أعوذ بالله !!

هكذا رد عبد الوهاب بسرعة . . وبخوف . طبعاً بخوف . هو يكمل عملا بدأه سيد درويش ؟

— آه . . ليه لأ ؟ !

— لا . . أبداً ، مفيش حاجة . . ولكن . .

— لكن إيه ؟ على العموم فكر فى الموضوع . . دى فرصة هايلة لك .

طبعاً هى فرصة ، ولكنه ليس من مستوى سيد درويش . ليس بعد . ثم إنها تعرض عليه أن يمثل أمامها دور أنطونيو . إنه لن يكون مجرد ملحن ، ولا مجرد مطرب ، بل سيكون ممثلا أيضاً . إنه سوف يكون محاطاً بسندويتش : سيد درويش بعبقريته خلفه فى اللحن . . ومنيرة المهدية بشهرتها المدوية أمامه على المسرح . .

ــ أنا أنصحك تقبل يا محمد . .

هكذا قال أحمد شوقى لعبد الوهاب عندما روى له تردده فى القبول.

ــ ولكن ، ماذا يحدث لو أنا فشلت . . والفشل متوقع ؟ أنا خايف من حاجات كثيرة ، أهمها حكاية التمثيل دى . .

ــ إذا فشلت . . أولم تنل النجاح المرجو فسيكون شفيعك وعزاؤك أنك فشلت أمام أعظم مغنية فى الشرق . أما إذا نجحت ــ وستنجح إن شاء الله ــ فسوف يكون نجاحك مضاعفاً لأنك ستكون قد نجحت أمام أعظم مغنية فى الشرق .

النتيجة : وافق محمد عبد الوهاب . ربنا يستر !

* * *

١٩٢٦ . فرقة منيرة المهدية . مسرح برنتانيا . المسئولية .

الفرصة تعلم المسئولية . أن تكون موهوباً وعظيماً وعبقرياً . . ثم بلا فرصة : صفر . أقل من صفر . إن الفرصة هى المصفاة . . وهى الامتحان . إنها تقتلك إذا انعدمت الموهبة . . وترفعك إذا وجدت الموهبة . إنها شىء لك وعليك . معك وضدك . لهذا يخشى الموهوبون دائماً كل فرصة عظيمة . إنهم يقبلونها ــ صحيح ــ ولكنهم يقبلون عليها بعقل يشلك، وقلب يرتجف ، ويد ترتعش ، ووجه أصفر اللون . هذه هى المسئولية . مسئولية أمام الضمير . والناس ، والمستقبل .

هكذا كانت المسئولية ثقيلة على كتفى عبد الوهاب ــ الصاعد عبد الوهاب ــ عندما فتح الستار فى تلك الليلة عن مسرحية « كليوباترا » فى مسرح منيرة المهدية . إنه الآن وحده أمام الجمهور . امتحان . إنه امتحان ثلاثى لكل من الملحن، والمطرب والممثل ، فى شخصية عبدالوهاب. إن هذا الجمهور الذى يراه عبدالوهاب أمامه فى الصالة يستطيع أن يصفق له . . ولكنه يستطيع أيضاً أن يحكم عليه بالإعدام . مجرد التجاهل . . هو إعدام . كل شىء يحتمل الوسط . . إلا الفن .

ــ ياسلام على الفن !

هكذا تمتم واحد من الصالة لزميله على المقعد المجاور . ولكن هذا الرجل لم يكن إلا واحداً فقط من الجمهور . الباقون صامتون . دقيقة وأخرى وأخرى . . صامتون . ماذا جرى ؟ الناس صامتون . نائمون مغناطيسياً . بهذه الشهرة من منيرة المهدية ــ وهذا الصوت . . من محمد عبد الوهاب . . وهذا التمثيل ، من أنطونيو عبد الوهاب . . ظل الجمهور فى حيرة بعض الوقت. ثم . . ثم : انفجار من التصفيق !

وقبل أن يغادر الجمهور مقاعده عندما أسدل الستار فى تلك الليلة ، سأل واحد من المتفرجين صديقه : هيه . . ماذا ترى فى هذا المطرب الشاب عبد الوهاب ؟

وجاءت الإجابة : لست أدرى تماماً . . يخيل إلى أنه فى خلال سنتين . . سوف يكون عبد الوهاب فى القمة .

ولم تكن هذه الإجابة دقيقة تماماً . فمن تلك الليلة بالضبط . . . . بدأ عبد الوهاب يرى القمة . . فعلا !

* * *

١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ . بيروت . القاهرة . صداقة عظمية فى قمتها.

الحياة أصبحت أكثر متعة من أى وقت مضى . المستقبل أكثر إشراقاً . الملابس أصبحت أنيقة . بثلاثة جنيهات يستطيع محمد عبدالوهاب أن يكون أنيقاً . البدلة صوف «أو فرسكا» بمائة وتسعين قرشاً قماشاً وتفصيلا القميص وندسور بوبلين حريرى جداً من محل «شيكوريل» بربع جنيه . قميص بياقتين . الكرافته ريفولى بـ ١٥ قرشاً . الحذاء شيك بستين قرشاً . هكذا بأقل من ثلاثة جنيهات ــ أصبح كل ما يرتديه عبد الوهاب جديداً وأنيقاً. الملابس أنيقة ، والطربوش جديد ، والحذاء يلمع والحنجرة تغنى ، والرأس ينحنى رداً لتحيات الجمهور . النقود . . النقود

.. أصبحت متوافرة . لقد أصبح يحصل على عشرة جنيهات كأجر له فى مسرح منيرة المهدية عن الليلة الواحدة . كم هى جميلة .. تلك الورقة ذات العشرة جنيهات . إن أول ورقة منها حصل عليها عبد الوهاب تستحق بلاشك « بروازاً » خاصاً لها فى حجرة الاستقبال . هل يمكن أن يحدث كل هذا لبطلنا خلال تلك المدة القصيرة ؟ إننا لم نعد نستطيع أن نلاحقه فى الحفلات ، فى المسارح ، فى المجتمعات ، ولا فى سهرات القاهرة هذا الأسبوع . إننا نلمح بطلنا مع سعد زغلول مرة ، مع نجيب الريحانى مرة ، مع منيرة المهدية مرة ، ثم بعدها بساعة مع الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة « السياسة » . فى الليل مع محمد التابعى فى « الأهرام » أو فكرى أباظة فى « دار الهلال » . بعدها بليلة مع روز اليوسف ، مع عبد العزيز البشرى ، مع مكرم عبيد ، مع النحاس . . .

هل يمكن أن يكون بطلنا هو القاسم المشترك فى هذه الجلسات والسهرات كلها ؟ نعم . فعندما يكون الإنسان صديقاً مقرباً لأحمد شوقى أمير الشعراء . فإنه يستطيع أن يصل لأى شخص ، ويحقق أى شىء . إننا أصبحنا نرى عبد الوهاب كثيراً ودائماً فى بيت شوقى بحى المطرية بالقاهرة . . بعد قليل نقل شوقى داره التى يسميها « كرمة ابن هانئ » إلى شاطئ النيل بالجيزة . هناك نرى عبد الوهاب يغنى فى حفل زفاف ابن أحمد شوقى « دار البشاير مجلسنا . وليل زفافك مؤنسنا» . حفل حضره سعد زغلول مع شخصيات أخرى كثيرة .

إن صداقة شوقى أصبحت هى جواز المرور إلى هذه الشخصيات. إنها أيضاً مفتاح لدخول المجتمع الأرستقراطى المتعالى ، والمجتمع السياسى المتنازع ، والمجتمع الصحفى المكافح . إن محمد عبد الوهاب لا يواجه مشكلة فى الوصول إلى المجتمع الفقير الكادح . . لأنه هو نفسه واحد منه . واحد من القاع . وعندما يكون الإنسان قادماً من القاع . . فإنه

محتاج مع المجتمع الأرستقراطى إلى أن يبرر نفسه مرتين : مرة كإنسان، ومرة كفنان من حقه أن يشترك فى الحديث. إن القفز فوق الحواجز الطبقية فى تلك الأيام وداخل ذلك المجتمع أمر بالغ الصعوبة . فأن تكون فناناً تغنى . . معناه أن يسمعك الأغنياء من باب التسلية ، أو بالكثير من باب المتعة . إنك سوف تحصل على تصفيقهم لصوتك — مرة أو مرتين أو عشرين — ولكن لن تحصل أبـــداً على احترامهم . إن الاحترام معناه أبوك وأمك . معناه أرضك وثروتك . أصلك وفصلك . حسبك ونسبك . أنت محترم لأن أباك باشا وأمك تركية . أنت محترم بقدر انتظامك فى الحياة داخل الطبقة التى تملك سحب هذا الاحترام منك : الطبقة الغنية الأرستقراطية . إن هناك طريقاً واحداً فقط إلى هذه الطبقة : الثروة . أما إذا لم توجـــد الثروة فعليك إذن أن « تتشعبط » فى واحد منها يشدك إلى الداخل .

وعندما «تشعبط» محمد عبد الوهاب بأحمد «بك» شوقى أمير الشعراء فى تلك الفترة . . « تشعبط » فيه بيديه وأسنانه . بالطبع لم تكن هذه «الشعبطة» من طرف واحد . إن أحمد شوقى هو الآخر يتمسك بمحمد عبد الوهاب لأسباب كثيرة — سوف نعرفها فيما بعد . ولكن المهم الآن — فى هذه السنوات الحاسمة من مستقبل المطرب الناشئ محمد عبدالوهاب — أن صداقته لأحمد شوقى كانت جواز المرور لأشياء كثيرة . إن شوقى لم يكن يقدم عبد الوهاب إلى الناس كمجرد فنان فحسب ، ولكن كصديق أيضاً .

إن محمد عبد الوهاب يقول : « كان شوقى بك يقدمنى إلى أصدقائه من العظماء والكبراء كولد له . . ويفسح لى مكاناً فى مجالسهم . ومن الذين رأيتهم عن طريق شوقى . . المغفور له سعد زغلول . وكان سعد صديقاً لشوقى . . فكانا كثيراً ما يتبادلان الزيارات . وقد أحبنى سعد رحمه الله . . فكان إذا زار شوقى ولم يجدنى استفسر عنى وطلب أن

أحضر ليراني . وقد ذهبت إليه مع شوقي في بيت الأمة ، وفي منزله بمسجد وصيف . وكان سعد يصر على أن يناديني باسم أحمد — لست أدري لماذا . وقد حاول شوقي مراراً تذكيره بأن اسمي محمد وليس أحمد فكان سعد يذكره مرة ، ثم يعود لينا ديني باسم أحمد ثانية .

« ومن الأغاني التي كان يحبها سعد ، أو لعلها الأغنية الوحيدة التي كان يحب دائماً أن يسمعها مني ، أغنية (ياما انت واحشني وروحي فيك) . . وهي من تأليف شوقي بك . وكان يغنيها المرحوم عبده الحمولي ويبدع في غنائها في العهد القديم ، فكنت كلما ذهبت إلى مسجد وصيف لزيارة الزعيم سعد غنيتها له » .

كانت هذه الفترة إذن تشهد نمو صداقة عظيمة بين شوقي وعبد الوهاب يوماً بعد يوم . إننا نكاد نشاهدهما لايفترقان ليلة بعد ليلة . نشاهدهما في المنزل ، في المكتب ، في سينما كوزمو ، في نادي الموسيقى الشرقية ، وفي محل « صولت » . إن محل « الحلواني صولت » هو في تلك الأيام ملتقى الأسماء اللامعة في سماء مصر من ساسة وأدباء وعلماء . إن المحل يشهد يومياً ندوات سياسية وأدبية يحضرها خلاصة شخصيات المجتمع لهذا السبب بالذات يعتبر محمد عبد الوهاب أنه إذا كان « كتاب » باب الشعرية هو مدرسته الأولى ، وعلاقته بأحمد شوقي هي مدرسته الثانية . فإن الندوات التي حضرها بمحل « صولت » هي مدرسته الثالثة . في هذا المحل تعرف محمد عبد الوهاب على شخصيات صحفية وأدبية وسياسية : محجوب ثابت وعبد العزيز البشري وحفني محمود والنقراشي ومحمد حسين هيكل وفكري أباظة وغيرهم . إن عبد الوهاب نفسه يقول : « إن الدروس التي حصلتها من ندوات الأدب والشعر والعلم في صولت هي التي جعلت مني عيناً واسعة ترى الحياة . . وعقلا واسعاً يفهمها » .

إننا في « صولت » — نلمح بطلنا معظم الأحيان صامتاً . . مستمعاً . . لايتكلم ، مع أنه أحياناً ربما يحكي بعض الطرائف التي يصادفها في

مسرح منيرة المهدية . مثلا . . فى المشهد الختامى للرواية « . . منظر تموت فيه كليوباترا » — التى هى منيرة المهدية . وقد شاءت إرادة المؤلف أن يكون موت كليوباترا بين ذراعي حبيبها مارك أنطونيو — الذى هو أنا برضه ! والمفروض أن ترتمى أولا على صدرى وهى تغنى : (حبيبى أنطونيو . أنت جريح ؟) وبينما السيدة منيرة فى أوج اندماجها ، وهى تمثل مشهد الانتحار بين ذراعي ، تركت نفسها فجأة وبلا سابق إنذار . وحيث تعرفون طبعاً أن السيدة منيرة من الوزن الثقيل، وكما ترون طبعاً فإننى من وزن الريشة ، فقد عجز جسمى مرة عن تحمل جسم سلطانة الطرب . . ووقعت على المسرح ومن فوقى السيدة منيرة وهى ما تزال تغنى : أنت جريح ؟ . . ومن تحتها على الأرض كنت أصيح فيها : والله خايف أكون اتعورت صحيح ! » .

مرة أخرى نجد عبد الوهاب مع أحمد شوقى ، فى « صولت » ، فى الإسكندرية ، بل حتى فى لبنان . فى واحدة من هذه المرات يتذكر عبد الوهاب : « نزلنا مرة فى لبنان صيفاً ، وكان معنا الدكتور محجوب ثابت والأستاذ سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول . وكان شوقى بك موضع الحفاوة والتكريم من الزعماء والكبراء وعلية الناس الذين يحبونه ويقدسون شعره . .

« وبينما كنا نجلس عند الأصدقاء من أبناء لبنان قيل لنا إن مغنية جميلة الصوت ستغنى فى إحدى الحفلات ، ولابد أن نستمع إليها . وذهبنا لنستمع إلى تلك المغنية، فقدموها لنا مع زوجها . . وكان رجلا ذرب اللسان ثرثاراً، فراح يروى لنا قصة زواجه من المغنية — وكان اسمها روز — وكيف خطفها من بيت أهلها حباً فيها وفى فنها ، ثم تزوجها برغم أنف الأهل . وظل الرجل يروى قصته معها حتى أنقذتنا هى عندما بدأت تغنى قصيدة (مضناك جفاه مرقده) . إننا جميعاً نعلم أن هذه القصيدة من شعر أحمد شوقى . ولكن سليمان فوزى أراد أن يبعث السرور إلى

نفس شوقى ، فسأل الرجل عمن يكون مؤلف القصيدة فأجاب الرجل على الفور :

ـ الشعر ألى خيّو . . !!

أى أن الشعر لى يا أخى . وهنا قهقه شوقى بك وقال : معلوم . . إذا كنت خطفت مراتك . مش راح تخطف قصيدة ؟ !

* * *

١٩٢٧ . عرض البحر . كيف يأتى الهدوء إلى عبد الوهاب ؟!

إن الباخرة كادت أن تغرق أمس . هكذا قال له أحمد شوقى . إنها الباخرة التى يسافران عليها معاً من الإسكندرية إلى مرسيليا . هدوء! باخرة تغرق ؟ موت ؟ بحــر ؟ ماء وسماء ؟ هدوء ؟ لا . . لا . لن يهدأ محمد عبد الوهاب أبداً قبل أن تلمس قدمه أرض مرسيليا . لحظتها فقط يمكن أن يهدأ . ليس قبل الأرض . الأرض . . والنجاة .

إن محمد عبد الوهاب يرافق أمير الشعراء أحمد شوقى الآن فى رحلتهما إلى فرنسا . أول رحلة يقوم بها عبد الوهاب إلى « بلاد بره ». لقد سافرا معاً من قبل إلى الشام . ولكن الشام ليست « بلاد بره » على الأقل لم تكن كذلك فى سنة ١٩٢٧ . إن الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط هو فقط « بلاد بره » . إنه الآن فى الطريق إلى باريس . مرسيليا أولا . . ثم باريس . النجاة أولا . . ثم باريس . لقد سمع عن باريس كثيراً . ولكن عقله لايستطيع الآن ـ وهو على ظهر الباخرة مع أحمدشوقى ـ أن يركز على شىء محدد مماسمعه عن باريس . إن باريس ـ التى يخيلها من قبل ـ هى الضخامة والنور والجمال والحرية والنساء . . كثير من النساء . إن بعض النساء فى باريس هن قطعاً شابات جميلات رقيقات . . ظريفات . . يشبهن الصورة التى سمعها عن الممثله الفرنسية الشهيرة الراحلة « سارة برنار » عندما كانت فى قمة شبابها . باريس معناها « سارة برنار » ـ كثيرات مثل سارة برنار ـ باريس معناها الحب ،

العاطفة ، الرومانتيكية ، الخيال ، الموسيقى ، الراحة ، الهدوء .

ولكن . . من أين يأتى الهدوء الآن لعبد الوهاب ؟ إنه منذ سمع عما حدث للباخرة أمس وهو عصبى ، قلق ، خائف ، مذعور ، من احتمال الغرق وسط البحر ! كيف تأتى الراحة ؟ صحيح أن شوقى بك هو الذى دفع ثمن التذكرتين من الإسكندرية إلى مرسليا — ١٤ جنيهاً و٦٢٥ مليماً للتذكرة — ولكنه كان يستطيع أيضاً أن يشترى تذكرة بالدرجة السياحية على الباخرة نفسها للمسافة نفسها ، بجنيهين و٩٢٥ مليماً فقط . لماذا إذن يسافر الإنسان بالدرجه الأولى . إن لم يكن للنجاة من الغرق ؟ الغرق ؟ برغم الـ ١٤ جنيها و ٦٢٥ مليماً ؟؟ الغرق ؟ الموت ؟ ثم بعد ذلك : الهدوء ؟ لا . . لا . . لن يهدأ عبد الوهاب أبداً قبل أن ينزل من هذه الباخرة . ولكن المشكله هى أنه لن يستطيع أن ينزل منها قبل مرور يومين آخرين فى عرض البحر . يومان باقيان قبل مرسيليا . يومان من الخطر . . من القلق . . من العذاب . . من الوسوسة . . من احتمال الموت . . من عدم الراحة .

إن البحث عن الراحة دفع عبد الوهاب إلى الغوص فى ماضيه . . إلى اجترار تلك السنوات القليلة الأخيرة التى قطعها من حياته . تلك الرحلة الفنية الطويلة .

لقد أصبح عبد الوهاب مشهوراً كمطرب ، لامعاً كملحن ، معروفاً كممثل ، ممتعاً كصديق . لقد اختلف مع منيرة المهدية — هذا صحيح — ولكنه ما زال يحتفظ بها كصديق . إن الخلاف انحصر فى أربعة جنيهات فقط . ولكنها كانت فى الحقيقه أربع خطوات قطعها عبد الوهاب نحو النجاح . فبعد النجاح الهائل لأوبريت « كليوباترا » . . أصرّ عبد الوهاب على أن يكون أجره عشرة جنيهات فى الليلة ، وأصرت منيرة المهدية على أن تدفع ستة فقط . وبرغم وساطات الأصدقاء ، لم يتزحزح أحـــد الطرفين عن موقفه . وأخيراً حصل عبد الوهاب فعلاً على

الجنيهات العشرة . ولكنه ترك الفرقة بعد شهرين .. لتواجه منيرة بعدها مشكلة البحث عن بديل لعبد الوهاب . وخلال فترة قليلة كانت قد أسندت الدور إلى عبد العزيز خليل – ممثل – ثم إلى صالح عبد الحى – مطرب ، ثم سيد شطا ، ثم عبد الغنى السيد ، وفى النهاية إلى : فتحية أحمد . إن فتحية لم تقم بدور أنطونيو طبعاً ، فهو دور رجالى ، ولكنها قامت بدور كليوباترا . أما انطونيو فقد قام بتمثيله : منيرة المهدية . . . شخصياً !

هكذا تتوالى الأحداث الآن فى رأس عبد الوهاب . إن نجاحه السابق مع منيرة شجعه على أن يضاعف مرات غنائه فى الحفلات العامة . لقد أصبح يغنى فى دار التمثيل العربى – التى شهدت أمجاد المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، ويغنى فى المنصورة ، وفى دمنهور ، وفى الإسكندرية وطنطا ، وكل مكان يمكن أن ينجح فيه . إنه – حتى – أصبح مدعواً ثابتاً فى الحفلات الخاصة التى تقيمها كبار العائلات . إنه يتذكر الآن – على ظهر الباخرة – آخر حفلة منها . حفلة حضرتها الملكة نازلى .

« .. بينما كنت أستعد للغناء جاءنى من يقول لى إن جلالة الملكة تريد أن تسمع دور (الله يصون دولة حسنك) وهو أحد الأدوار المشهورة لعبد الحى حلمى . وحاولت أن أعتذر بأننى لا أحفظ هذا الدور ، ولكن الرسول نظر إلى نظرة ذات مغزى وقال لى وهو يبتسم : دى رغبة جلالة الملكة !

« . . وفهمت من إشارته الخفية أنها ليست مجرد رغبة . . وإنما هى أمر ملكى ، وأن أشياء كثيرة يمكن أن تتوقف على عدم تنفيذ هذا الأمر بلا نقض ولا إبرام . ووقعت فى حيص بيص . ماذا أصنع وأنا لم أكن فعلاً قد حفظت ذلك الدور أورددته من قبل ؟ ثم . . جاء الفرج فى شخص عازف الرق فى تختى – سيد كامل – عندما أسر فى أذنى أنه يحفظ الدور عن ظهر قلب . . حينئذ قلت له : تعال . . إذن

أنت تجلس خلفى مباشرة وتغنى الدور . . بينما أنا أفتح فمى وأغلقه متظاهراً بالغناء . . وربنا يستر بتى » !

هكذا يتوالى شريط الذكريات فى رأس عبد الوهاب . إنه يتذكر أيضاً هذا الرجل الحنون معه فى الرحلة : أحمد شوقى . إن عبد الوهاب — فى هذا الصباح بالذات — أصبح قلقاً للغاية بسبب ما رواه له أحمد شوقى . إن صحة شوقى ليست على ما يرام . لهذا منعه الأطباء من شرب الخمر إطلاقا عدا قيراط واحد من الويسكى يشربه قبل الطعام . ولكن قصة القلق الكبير الذى عاشه عبدالوهاب اليوم بدأت عندما دخل كابينة أحمد شوقى فى الصباح . لقد فوجئ بزجاجة « كونياك » أمامه ولم يبق فيها سوى ربعها . وانزعج عبد الوهاب للغاية . . لأن الكمية التى يبدو أن شوقى قد شربها من الزجاجة معناها انتحار بالنسبة لصحته . ولكن شوقى أسرع يروى القصة كلها لعبد الوهاب . « . . كنت فى فراشى ليلة أمس عندما شعرت فى منتصف الليل بحركة غير عادية فى الباخرة . . وعندما نهضت أستجلى الأمر علمت أن عطباً قد حدث بالباخرة ، وأنها ثقبت من وسطها ، وأن البحارة هرعوا إلى مكان العطب لإصلاحه دون تنبيه الركاب . . حتى لاتحدث حالة ذعر تعرقل عملية الإصلاح . وبمجرد أن سمعت ذلك تراءى لى احتمال الموت غرقاً بطريقة مفزعة . . فأردت أن أثمل حتى أغيب عن وعيى . فلا أدرى شيئاً عن الكارثة ولا أحس بها . لقد أردت أن أموت فى هدوء . هذا كل شىء » .

طبعاً هذا ليس كل شىء — على الأقل بالنسبة لعبد الوهاب . إن الموت بالنسبة له الآن هو شبح يتوقعه فى كل موجة تتتابع أمامه وسط البحر . شبح لايخفف منه إلا وجود هذا الرجل الذى أصبح لايفارقه إلا نادراً . إنه يوسع مداركه ، ويفتح آفاقه ، ويصحبه إلى مجالس الأدب والفن ، ويقدمه فى الصالونات والمجتمعات الراقية ، ويهيئ له فرص الغناء فى الحفلات الخاصة و — حتى — يعلمه مبادئ اللغة

الفرنسية ! إن إعجاب شوقى بعبد الوهاب أصبح يتزايد كل يوم . وكلما غنى عبد الوهاب من شعر شوقى تضاعف الإعجاب ، وزادت الرعاية . لقد غنى له عبد الوهاب « فى الليل لما خلى » . . و « بلبل حيران و « النيل نجاشى » و « ياجارة الوادى » وغيرها كثير . لقد أصبح شوقى يحتفظ لعبد الوهاب بغرفة دائمة فى منزله ، ومسكن دائم فى قلبه .

وها هو ذا عبد الوهاب الآن على ظهر الباخرة مع أحمد شوقى فى طريقه إلى حلم من أحلامه : باريس. مارسيليا أولا ثم باريس . الأرض أولا . . ثم باريس . النجاة أولا . . ثم باريس . النجاة . . النجاة النجاة . . نعم ؟ مين ؟ . . أفاق محمد عبد الوهاب من قلقه على صوت أحمد شوقى يقول له : تعال أقدمك إلى جلالة الملك .

— ملك ؟

— نعم . جلالة الملك فيصل الأول ملك العراق . .

— أين هو ؟

— لقد علمت أنه استقل الباخرة من بيروت ، وهو معنا الآن فى طريقه إلى أوربا .

وخلال ساعات قليلة كان محمد عبد الوهاب قد تعرف بالملك فيصل ، ثم تناول العشاء مع أحمد شوقى على مائدته ، ثم « . . صعدنا إلى ظهر السفينة ، حيث غنيت لهما إحدى قصائد شوقى مرتجلا لها لحناً ، وبغير أية آلة موسيقية . وكان تعرفى بالملك فيصل الأول فى تلك الليلة بداية صداقة كريمة أتاحها لى ، إذ دعانى بعد ذلك لكى أغنى أمامه فى حفلة عيد جلوسه ، ووضع شوقى لهذه المناسبة قصيدة (يا شراعاً وراء دجلة يجرى . .) التى نالت إعجاب الملك تماماً » . .

هذه الليلة لم ينم عبد الوهاب لسببين ؛ سعادته بإعجاب الملك .. وقلقه من احتمال الغرق . لانوم . لا راحة . الأرض أولا .. مرسيليا أولا ، ثم : باريس !

باريس فى أحلى أوقاتها ، الخريف . أريد أن أنصف « تلك المرأة ! . إنها امرأة مظلومة . ظلمها الناس والتاريخ . . وظلمتها سمعتها » هكذا ظل أحمد شوقى يردد لعبد الوهاب طوال شهرين قضاهما الاثنان فى باريس .

إن « الجمال . . » أول كلمة ترد إلى عقل من يزور باريس فى تلك الأيام ، الضخامة .. هذه هى الكلمة الثانية . إن الناس أكثر عدداً والشوارع ازدحاماً . إن تعداد باريس فى تلك الأيام تسعة ملايين قدم . أقدام لايستخدمها كل الناس فى السير . إن الأقدام الوحيدة المنتظمة فى استخدام شوارع باريس هى الأقدام الأربعة القادمة من مصر : أحمد شوقى ومحمد عبدالوهاب . إن عبد الوهاب – بالذات عبدالوهاب – لايملك سوى قدمين اثنتين وعينين اثنتين . . ولكنه فى تلك المرة بدا كأنه يسير بمائة قدم ويرى بمائة عين . إن كل شىء حوله جديد جداً .. مختلف تماماً . مثير للاهتمام دائماً . إننا لانراه فى غرفته بالفندق إلا حين النوم . غرفة متوسطة الحجم مقبولة المستوى داخل فندق نستطيع أن نقرأ لافتته ونحن واقفون فى ميدان السوربون : « فندق سلكت » . إنهما – أحمد شوقى وعبد الوهاب – لم يقيما فى فندق « كلاريدج» أو « الكونتننتال » . . حيث ينزل المصريون عادة بجنيهين فى الليلة الواحدة. إن الإقامة فى فندق « سلكت » ليست فقط أرخص كثيراً – الليلة بثلاثين قرشاً – ولكنها أيضاً تضمن لشوقى أن يكون دائماً فى الحى اللاتينى. هذا هو الحى الذى يذكر شوقى بشبابه ، حينما كان طالباً فى باريس .

ولكننا لانرى شوقى وعبد الوهاب كثيراً فى الحى اللاتينى . فى الواقع أننا نراهما أحيانا أمام تمثال ، وأحياناً داخل سينما ، وأحياناً خارج متحف ، وأحياناً فى جولة للبحث عن أكلة « ملوخية » أو « فول مدمس » ! بسرعة . . أصبح الفول المدمس هو رمزاً لكل الحنين والشوق والمجد الذى يربط عبد الوهاب بالقاهرة . إن الأيام الخمسة التى قضاها فى الباخرة

مرت كخمسة أشهر ، ربما كخمس سنوات . إنه الآن فى شوارع باريس يسرع الخطوة بعد الخطوة ، وينظر إلى اللافتة بعد اللافتة بحثاً عن مطعم يجد فيه الطعام المصرى . آه . . أخيراً . . هذا هو : مطعم « حاجحيان » . . المالك أرمنى . . الموقع بجوار دار الأوبرا . . والطعام شرقى .

— لو سمحت . . لو سمحت . . فول مدمس . . مفيش ؟ طيب ملوخيه . . كمان مفيش ؟ طيب . . فيه إيه ؟ آه . . جميل . . هات لنا الباذنجان المطبوخ !

ثم . . قبل أن تمر ساعات قليلة كان شوقى بك قد أحس بالتعب الشديد للغاية بسبب هذه الوجبة عند الرجل الأرمنى . النتيجة : ثلاثة أيام من المرض . أيام قضاها على سريره بالفندق . ولكن . . لكنهما لم يأتيا إلى باريس للتقوقع داخل فندق . فداخل أربعة جدران تبدو باريس كأى مدينة أخرى فى العالم ، ولكنهما جاءا إلى باريس لأنها ليست كأى مدينة أخرى فى العالم . لهذا بدأ شوقى يطلع عبد الوهاب على الفن الحقيقى فى باريس . إنهما يذهبان إلى الأوبرا ، والأوديون ، والمتاحف ، إنهما يسمعان « الكونسير » فينبهر عبد الوهاب بالفن الفرنسى . إن الفن هنا ليس ترفاً ، ولا كماليات ، ولازينة . إنه غذاء ، قوت ، طعام . . يدخل فى الحياة اليومية للناس . إنه جزء من الجمال داخل الحياة الفرنسية ، والعقل الفرنسى ، وحتى الشارع الفرنسى . فى الشوارع تجد محلات — واجهات محلات — ولكنك تجد فى النهاية تمثالا . إن الشارع يبدو كما لو كان قد أقيم خصيصاً لكى يقودك إلى هذا التمثال . إن الجمال والفن والذوق ليست هنا مجرد كلمات يمضغها الناس . إنها طريقة حياة ، وأسلوب تفكير . إن شوقى معه الحق حينما يقول عن باريس : « . . زعموك دار خلاعة » . إن الخلاعة موجودة فى باريس — صحيح — ولكن الفن موجود أيضاً . الفن ، والجمال ، والموسيقى ، والغناء و . . المصريون !

هذه دفعة منهم يراها الصاحبان فى باريس . إنهما يريان أمامهما محمد صلاح الدين وتوفيق الحكيم اللذين يدرسان الدكتوراه — حصل عليها الأول ولم يحصل عليها الثانى . إنهما يريان أيضاً فكرى أباظة . . ووهيب المصرى . . وأمين يوسف : إن أمين يوسف يدعوهما إلى أكلة مصرية فى مسجد باريس ، أو على الأصح ، فى المطعم الملحق بمسجد باريس . مطعم نظيف أنيق يقدم الطعام الشرقى ، ويديره رجل اسمه « السيد حمودة » .

— تانى. . أكل شرقى تانى ؟!

هكذا يهمس أحمد شوقى متسائلا فى أذن عبد الوهاب ، فهو لم ينس بعد أكلة الباذنجان المطبوخ التى أرقدته فى الفراش ثلاثة أيام .

— معلهش . أصل فيه هناك كمان فنانين من شمال أفريقيا يقدمون الغناء التونسى . هكذا سمعت من صاحب الدعوة . .

هكذا جلس الجميع على المائدة ، هكذا تناولوا الطعام الشرقى، ثم . أمسك عبد الوهاب بالعود وبدأ يغنى . أول مرة يغنى فى « بلاد الإفرنج » وسط جمهور لايزيد على عشرة مصريين وخمسة تونسيين وثلاثة من السائحين الأمريكان .

ومن اليوم التالى مباشرة بدأ شوقى يفكر بصوت عال : « . .أريد أن أنصف تلك المرأة ! »

— أى امرأة ياباشا ؟

— كليوباترا يا محمد . .

— لماذا كليوباترا بالذات ؟

— لأنها امرأة مظلومة . . وأريد أن أنصفها !

لقد بدأ عقل شوقى ينشغل بهذا الموضوع فجأة . . وتماماً . إنه يتردد يومياً على مكتبة السوربون لقراءة كل ما كتب عن الملكة المصرية

الجميلة : كيلوباترا . إنه يعطى عبد الوهاب قصيدة وضعها حالاً كجزء من الرواية . قصيدة « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا . . مالروحينا عن الحب غنى » . إن عبد الوهاب بدأ ينهمك هو الآخر فى تلحين القصيدة الجديدة . وقبل أن يغادر الاثنان باريس عائدين إلى مصر ، كان عبد الوهاب قد انتهى من اللحن ، وبدأ يردده لشوقى . . وكلما سمع شوقى مقطعاً لعبد الوهاب صاح قائلا : برافو يا عبد الوهاب . أنت هايل.. عظيم . . يا محمد !

* * *

١٩٢٨ — ١٩٣١ . القاهرة .

إلى الخلف . ما أعجب هذا ! الشهرة، الأضواء المعجبين ، النساء، التصفيق ، الطرب ، الليالى ، المتعة ، الأموال . . بارك الله كل هذا الشريط المتوالى من الذكريات . الغناء هو أغلى الذكريات . محمد عبد الوهاب هو الآن قمة فى الغناء . منذ ثلاث سنوات وهو يتقدم نحو القمة . إن الإعلانات أصبحت تطلق عليه ألقاب« المطرب النابغة »، و « الموسيقار المجدد » . منذ غنى للملك فيصل أضيف لقب جديد : «مطرب الملوك والأمراء» . إننا نتابع أخباره وصوره على صفحات مجلة « الناقد » ، ومجلة «الممثل »، ومجلة « المصور» ، ومجلة « روز اليوسف» . إننا نستطيع أيضاً أن نسمعه فى الحفلات العامة كل يوم ثلاثاء وكل خميس ، وأحياناً على مسرح رمسيس يوم الأحد ، الأجر عشرون جنيهاً فى الليلة الواحدة . إنه فى كل مرة يقدم أغانى جديدة بصوته ومن تلحينه ، وفى كل أغنية يحاول التجديد .. ببطء ولكن باستمرار. إن الحفلات أصبحت تمثل عنده ترمومتراً لذوق الجمهور وقدرته على تقبل التجديد . إنه يحتفظ بالتخت ككل المطربين ، ويحتفظ بالعود والقانون والكمان، باعتبارها الآلات الموسيقية السائدة ، ولكنه شيئاً فشيئاً يحاول تطوير استخدامها قبل إضافة آلات جديدة إليها .

ولكن تطوير محمد عبد الوهاب للون القديم ليس سهلاً كما ينبغي . إن الصدام يقع مؤخراً بينه وبين المتمسكين باللون القديم . صدام كان ميدانه معهد الموسيقى (نادى الموسيقى الشرقى) الذى ما يزال عبد الوهاب طالباً فيه . فى سنة ١٩٢٨ زار مصر الملك « أمان الله خان » ملك أفغانستان ، وتقرر أن يقيم المعهد حفلة غنائية خاصة كجزء من برامج الاحتفال بالملك الضيف . واقترح عبد الوهاب أن يقدم أغانى ذات ألحان متطورة ، ولكن المعهد أصر على التمسك باللون القديم من الغناء . وبعد أخذ ورد انتهى الصدام لصالح الغناء القديم طبعاً . صدام أجيال : هكذا غنى عبد الوهاب فى الحفل قصيدة : « جددى يانفس حظك » .

ولكن عبد الوهاب يعود إلى الصراع من جديد بعدها بسنتين عندما أقيم فى معهد الموسيقى حفل خاص بمناسبه انعقاد مؤتمر الموسيقى الشرقية فى القاهرة . فى هذه المرة انتصر عبد الوهاب . لقد قدم أغنية « فى الليل لماخلى» من نظم أحمد شوقى . إن الكلمات لاتتحدث صراحة عن العشق والهجر والصد ، ولكنها أغنية وصفية تقدم لوحة فنية رائعة حافلة بالألوان والظلال ، عامرة بالأحاسيس . مشحونة بالانفعالات . إنها لون جديد فى الشعر الغنائى ، ولكن عبد الوهاب جعله لوناً جديداً أيضاً فى التلحين الموسيقى . إن الجديد لم يكن فى قدرة الموسيقى على التعبير عن المعانى ، ولكن الجديد كان أيضاً فى إضافة « الفيلونسيل » و « الكونتر باس » لأول مرة إلى التخت الشرقى التقليدى .

من هذا اليوم بدأ عبد الوهاب يمتص النجاح الهائل لهذه الأغنية — ليضعه فى أغنية تصويرية أخرى من نظم شوقى هى : « بلبل حيران » . ومن هذا اليوم أصبح توليف الآلات الموسيقية الأوربية من التخت الشرقى أمراً عادياً . قبل عبد الوهاب كان بدعة . بعد عبد الوهاب أصبح ضرورة .

إن عبد الوهاب أصبح الآن يحمل صفات كثيرة بالنسبه لجمهوره ،

ولكن الصفة الأولى التى بدأت تلتصق به هى : التجديد والابتكار . إنه ينقل قدرته على الابتكار فى التلحين إلى القصائد أيضاً ، فيقدم لجمهوره أسلوباً جديداً فى تلحين « ياناعماً رقدت جفونه » وفى « ياجارة الوادى » . .

إن شهرته الآن أصبحت ملء الآفاق . . إن المتعهدين أصبحو يستسابقون للتعاقد معه على الغناء فى كل المدن الكبرى التى غنى فيها من قبل : فى الإسكندرية ، فى المنصورة ، فى طنطا ، فى المنيا ، فى فى الإسماعيلية ، فى الزقازيق . .

فى الزقازيق نراه يستعد لإحدى هذه الحفلات . إن عبد الوهاب فى كل مرة يأتى إلى هذه المدينة – أصبح ينزل ضيفاً فى منزل صديقه فكرى أباظة لمدة يوم أو يومين قبل الحفلة ، ولكن عبد الوهاب فى هذه المرة لم يكن الضيف الوحيد . لقد وجد هناك أيضاً صديقه المصور حسن مراد ، ومعه شخص آخر – لايعرفه عبد الوهاب بعد – واسمه : محمد كريم . مخرج سينمائى . إنهما جاءا إلى الزقازيق لتصوير بعض الأفلام التسجيلية لحساب شركة مصر للتمثيل والسينما . شركة أنشأها طلعت حرب .

وبعد التعارف المبدئى فوجئ عبد الوهاب بسؤال من محمد كريم : ليه يا أستاذ ماتعملش فيلم سينمائى؟

فى البداية لم يستطع محمد عبدالوهاب أن يرد . لم يقل نعم ، ولم يقل لا . إنه شاهد بنفسه منذ سنوات الفيلم الصامت « ليلى » كأول فيلم سينمائى مصرى بطلته عزيزة أمير ، ولكنه بدأ يسمع منذ مدة عن قيام شركات سينمائية عديدة فى القاهرة لإنتاج أفلام مصرية ناطقة لأول مرة . لكن . . لكن . . لكنه ليس طرفاً فى هذا كله . ماله هو والسينما ؟ إنه ملحن محترف ، ومطرب ناجح ، وحفلاته مزدحمة ، وجمهوره مستمتع ، وهذا كله يكفى . إنه لم يتصور من قبل أن من الممكن أن تكون له

علاقة بالسينما إلا كمجرد متفرج على أفلامها مع أحمد شوقى .

لهذا جاء سؤال محمد كريم غريباً على أذن عبد الوهاب . لو عرض كريم عليه أن يحترف المصارعة . . لشعر عبد الوهاب بدهشة أقل من سؤاله عن تمثيل فيلم سينمائى.

إنه يسأل كريماً باستغراب شديد : أنا . . أعمل « فيلم » ؟

ــ آه . . ليه لأ ؟ أولا أنت الآن تقابل الجمهور على دفعات ! الحفلة الواحدة يحضرها مئات المستمعين ، ولكن فيلم السينما يراه آلاف من الناس . ثانياً . . الأغنية التى تؤديها يسمعها منك جمهور الحفلة فقط ، لكن الأغنية التى تؤديها فى الفيلم يسمعها منك الجمهور فى كل المدن الكبرى هنا وفى الأقطار العربية . ثالثاً . . الفيلم يضمن لك تخليد أغانيك لسنوات طويلة ، رابعاً . . خامساً . . سادساً . .

لكن محمد عبد الوهاب لم يقتنع يومها بكل الحيثيات التى قدمها له محمد كريم . إنه لم يقتنع . . ولكنه بدأ يفكر !

* * *

١٩٣٢ . أكتوبر ــ ١٤ . كرمة ابن هانئ . الثانية صباحاً .

دخل عبد الوهاب منزعجاً تماما إلى منزل أحمد شوقى على شاطئ النيل بعد أن علم بالخبر منذ دقائق . إنه يسأل :

ــ خير[؟] هل صحيح . . ؟

ــ نعم . نعم . . يا أستاذ عبد الوهاب ، لقد كان يريد أن يراك ، ولكن هذه مشيئة الله . .

ــ ماذا قال ؟

ورد الخادم النوبى أحمد كوشة بدموع تسيل وكلمات قليلة :

ــ أنا كنت نايم ولكنى استيقظت فجأة على رنين جرس متواصل فهرعت إلى غرفة الباشا .

– ماذا قال ؟

– سمعته يقول : «لا فائدة . . انقطع الأمل . . سلم لى على محمد» وخرج محمد عبد الوهاب فى تلك الليلة من البيت الهادئ على شاطئ النيل، ليسير وحده مع أحزانه . « الله يسلمك ياشوقى بك . . الله يسلمك » .

كانت أمنية شوقى أن يراه قبل لقاء ربه . . ولكن الموت كان أسرع إليه . إن الموت أخذ جثمان شوقى فقط ، فسوف يظل اسم أحمد شوقى حياً . هذه مسئولية ملايين كثيرة ومن بينهم هذا الشاب الذى نراه الآن وحيداً على شاطئ النيل : محمد عبد الوهاب .

* * *

١٩٣٣ ، ٤ ديسمبر . الاثنين . سينما رويال . عابدين . هل الإشاعة صحيحة ؟

على شاشة سينما رويال – التى تعتبر أفخم دور العرض السينمائى فى القاهرة – يرى الجمهور الآن المشهد الختامى فى الفيلم : إن بطل الفيلم – محمد جلال – يغادر المسرح قاصداً منزل العروس رجاء . لقد أحبها كثيراً كثيراً ، ولكنهم الآن يزوجونها لغيره . إنه يرى الأنوار تتلألأ فى شرفة المنزل والزغاريد تنطلق منه . إنه لايطيق ، لايصبر ، لايتحمل . . لهذا انطلق لسانه بأغنية هى قطعة من الألم يذوب قلبه فى ثناياها . إنه يولى ظهره للمكان الذى ولد فيه حبه طفلا ثم مات . إنه لايدرى إلى أين يتجه . كل الذى يدريه الآن أنه يغنى : ضحيت غرامى عشان هناكى . . وكان نعيمى كله رضاكى . . لو كنت طاوعت قلبى . . ماغبت عنك يوم . . . النهاية . الستار .

إننا لانستطيع أن نعلم بالضبط أيهما يسبق الآخر الآن : دموع الجمهور . . أم تصفيقه ؟ إن الجمهور ينفجر داخل السينما فى عاصفة من التصفيق . . التصفيق . . التصفيق . . ثم – الآن بدأ انتباه

الجمهور يتحرك من الصالة إلى أعلى ، إلى البلكون . إن الرجال ينهضون من كراسيهم ، السيدات مازلن فى كراسيهن ، الجميع يستديرون بعيونهم نحو هذه المجموعة الواقفة فى مقدمة البلكون . إن الجمهور يبحث عن شخص واحد وسط هؤلاء الناس الواقفين متجاورين فى الصف الأول . أخيراً . . هذا هو الشخص المطلوب : طويلا بعض الشيء ، نحيفاً ، بنظارة طبية فوق عينيه ، بطربوش فوق رأسه ، بمعطف أنيق فوق جسمه ، بسوالف تتدلى قليلا على جانبى صدغيه ، ومنديل يتدلى فى يده ، وعصا تتدلى من يده الأخرى . هذا هو محمد جلال بطل فيلم الليلة . . هذا هو : محمد عبد الوهاب . تصفيق حاد .

إن الجمهور شاهد الليلة مطربه المفضل لأول مرة على شاشة السينما . إن « الوردة البيضاء » هو اسم الفيلم الذى طبعته سينما « رويال » على تذاكر الدخول ، مع صورة عبد الوهاب على جانب التـــذكرة ، وثمن الدخول على الجانب الآخر : فوتيل دى بلكون — ١٣ قرشاً . ثمن مرتفع سنة ١٩٣٣ .

ولكن الجمهور لم يحس فى تلك الليلة أن الثمن مرتفع ، فلقد استمع فى الفيلم إلى ثمان قطع غنائية أكثرها لشاعر الشباب أحمد رامى ، وبعضها للمرحوم أحمد شوقى ، وواحـــدة للشاعر السورى الكبير « بشارة الخورى » إن عبد الوهاب لحن أغانيه لكى ترضى كل الأذواق للجيل القديم يغنى عبد الوهاب « ياللى شجاك الأنين » ، للجيل الجديد يغنى « ضحيت غرامى » . . « جفنه علم الغزل » . . « ياوردة الحب الصافى » « يالوعتى ياشقاى » . . « نادانى قلبى إليك » .

إن بطلنا — محمد عبد الوهاب — خرج من السينما فى تلك الليلة وهو يكاد ينفجر من السعادة . إن سعادته تتزايد كلما رأى نجاح الفيلم وانتشار أغانيه . شهرة وصلت إلى حد اقتباس اسمه عنواناً لنوع جديد من الكولونيا أنتجته إحدى شركات العطور ، وعنواناً لنوع آخر

من القماش أنتجته شركات النسج ؛ وعنواناً للعشرات من محلات الخردوات وصالونات الزينة .

لقد نجحت إذن أول تجربة لعبد الوهاب فى السينما . تجربة كان البطل فيها هو محمد كريم الذى عرض الفكرة من قبل على عبد الوهاب فى الزقازيق ، وظل يقنعه إلى أن تحمس عبد الوهاب فعلا ، فتم اختيار القصة وبدأ محمد كريم يخرجها للسينما . وطوال مدة التحضير للفيلم ، وطوال تصويره فى السنبلاوين والقاهرة ، وتحميضه وتسجيل صوته فى باريس ، عمل الكثيرون فى الفيلم مع عبد الوهاب : ابتداء من الممثلة الجديدة سميرة خلوصى التى قامت بدور البطلة . . إلى دولت أبيض وسليمان نجيب وزكى رستم ومحمد عبد القدوس وتوفيق المردنلى . . كلهم عملوا فى الفيلم ، ولكن أكثرهم قلقاً كان عبد الوهاب نفسه . إن التجربة جديدة عليه ، ليس هذا سبب القلق . . فلقد اعتاد عبد الوهاب من قبل اقتحام الجديد فى جرأة متحفظة . . ولكن السبب هو : الإحساس بالمسئولية .

إن الذين رأوا عبد الوهاب فى الليلة الأولى لعرض الفيلم كانوا يرون فيه وجهاً ممتقع اللون وقلباً يرتجف وشفتين ترتعشان ترددان آيات من القرآن الكريم . إن الخوف لم يذهب واللون لم يعد إلا مع الصوت المدوى لتصفيق الجمهور فى نهاية الفيلم . ساعتها فقط اطمأن عبد الوهاب ، وانتقل اطمئنانه على الفور إلى محمد كريم ، وإلى أسرة الفيلم كلها التى حضرت ليلة الافتتاح .

لقد تحققت كل أمانى عبد الوهاب فى تلك الليلة ، إلا أمنية واحدة : أن يكون معه أحمد شوقى . إن شوقى هو الأب والمعلم والأخ والصديق الذى كان عبدالوهاب يتمنى وجوده الليلة ليقاسمه هذا النجاح . ولكن شوقى مات . إنه لم يمت إلا بعد أن أصبح تلميذه صاحب أسلوب وجمهور وشهرة ونجاح مدو . ومن الآن فصاعداً يستطيع شوقى أن يطمئن

فى سمائه — ونطمئن نحن معه — إلى أن عبد الوهاب سوف ينتقل الآن من قمة إلى قمة . من قمة مرتفعة إلى قمة أكثر ارتفاعاً .

إن عبد الوهاب نفسه لايعلم ذلك بعد . إنه يعلم فقط أن فيلمه الأول قد نجح تماماً فى ليلة افتتاحه . إنه يتجه إلى منزله مع أفكاره الخاصة داخل رأسه . . والجمهور يتجه إلى منازله أيضاً مع أفكار أخرى تشغله . إن الناس فى تلك الليلة بدءوا يتهامسون : هل هذا صحيح ؟

— ماذا ؟

— هذه الإشاعة عن عبد الوهاب ؟

— ما هى ؟

— يقولون إن عبد الوهاب أحب فتاة من أسرة كبيرة . وإن الفتاة كانت تبادله الحب ، ولكن والدها الباشا الكبير رفض الموافقة على الزواج ، وإن أحمد شوقى — رحمه الله — اعتذر لعبد الوهاب عن عدم التوسط فى الأمر . .

— مش معقول . . !

— ليه مش معقول ؟ دول بيقولوا كمان إن أبوها أرغمها على الزواج من رئيس وزراء سابق . . وإن الأغنية الأخيرة فى الفيلم « ضحيت غرامى عشان هناكى » هى رسالة موجهة من عبد الوهاب إلى حبيبته . .

— وتفتكر ده صحيح ؟

— يجوز . . .

* * *

كانت هذه همسات الجمهور فى تلك الليلة . ربما تكون الإشاعة صحيحة . ربما لاتكون . . على أى حال . . سوف نعرف نحن بعد قليل مدى صحة المسألة كلها من عبد الوهاب نفسه . فى الفصل التالى نبدأ بأحمد شوقى ، وبعدها نعرف الحقائق فى حياة عبد الوهاب !

الفصل الرابع

الصـــدام

صدام الشخصيات
بين شوقي وعبد الوهاب

دخلت الجارية غرفة الخديو إسماعيل فى قصره حاملة بيديها طفلا صغيراً — حفيدها — وهى تبكى . .

سألها الخديو إسماعيل : ما الخبر ؟

— هذا الطفل يا مولاى . .

— أحمد ؟ . . ماله ؟

— إنه يا مولاى يرفع عينيه إلى أعلى دائماً ، ولايستطيع أن ينظر إلى أسفل أبداً !

وفكر الخديو قليلاً ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بضعة جنيهات ذهبية . . ثم نثرها على السجادة . وعلى الفور تحولت عين الطفل مع بريق الذهب وهو يتساقط على الأرض ، لأول مرة منذ ولادته . وعندما ابتسمت الجارية من النتيجة قال لها الخديو : كلما نظر الطفل إلى السماء ، انثرى له ذهباً . . حتى يتعود النظر إلى الأرض .

وابتسمت الجارية من جديد قائلة فى نوبة نفاق للخديو الذى يعبد الذهب : هذا دواء لايخرج إلا من صيدلتك يامولاى !

* * *

كان هذا الطفل هو : أحمد شوقى !

وكان هذا البريق الذى شد عينيه إلى الأرض — بريق الذهب — هو أول عادة اكتسبها منه محمد عبد الوهاب !

والواقع أن التأمل فى شخصية أحمد شوقى هو باب خلفى لتحليل

عبدالوهاب نفسه . فى صدام الشخصيات الذى جرى بين عبد الوهاب وبين كثيرين من الذين عرفهم فى حياته ، كان أحمد شوقى هو أعمقهم وأخطرهم تأثيراً فى تشكيل شخصية عبد الوهاب . إن كثيراً من ملامح عبد الوهاب التى نراها اليوم — ملامح شخصية وفنية — تعود فى أصلها إلى نتائج صدام الشخصيات الذى تم بين الاثنين . إن البعض قد يسميه تلاقياً بين الشخصيات ولكننى مازلت عند نفس التعبير : صدام ، وليس تلاقياً . إن التلاقى يوحى بالهدوء والسكينة والراحة وبقاء كل شىء على ما كان عليه ، لم يكن فى علاقة الشخصيتين شىء من هذا كله . كان هناك صدام حقيقى : تغيير يتم ، عادات تسقط ، ملامح جديدة تتكون ، حياة مختلفه تتشكل ، ونهر جديد ينشق مجراه أمام كل من عبد الوهاب وشوقى . ومنذ حدث الصدام . . لم تعد أى من الشخصيتين أبداً إلى ما كانت عليه لا شوقى استمر كما كان قبل عبد الوهاب . . ولا عبد الوهاب استمر كما كان قبل تعرفه بشوقى .

لهذا السبب نستطيع هنا — بدراسة شخصية أحمد شوقى — أن نجد التفسير الكامل لكثير من الملامح الأساسية فى الشخصية المعاصرة لعبد الوهاب .

* * *

كان أحمد شوقى طفلاً مدللا مرفهاً منذ ولادته فى سنة ١٨٦٨ . لقد ولد فى أسرة امتزجت فيها الدماء العربية والتركية والكردية واليونانية . لقد ولد فى عهد الخديو إسماعيل ، وسافر فى بعثة إلى أوربا على حساب الخديو توفيق[1] ، وعاد ليصبح شاعر الخديو عباس[2] ، بل إن الخديو عباساً هو الذى اختار له زوجته ، وقربه إليه وترك له التوسط فى توزيع المرتب والألقاب على كبار الأعيان .

فترة واحدة شعر فيها أحمد شوقى بأنه غير مدلل : عندما تم إبعاده إلى إسبانيا بعد خلع الخديو عباس . لقد ظل فى إسبانيا طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ، ولكنه عاد بعدها إلى مصر ليعيش مدللا من جديد حاملا لقب أمير الشعراء وصاحب نفوذ يحميه وثروة تغنيه عن العمل .

وعندما رأى عبدالوهاب أحمد شوقى لأول مرة ، كانت شهرته قد تجاوزت حدود مصر ، وعمره قد تجاوز الخمسين وعيناه قد اعتادتا التقاط كل جديد حوله . عينان زائغتان متحركتان لاتستقران على مكان واحد أبداً .

إن شوقى الذى أصبح لايكاد يفترق عن عبد الوهاب منذ تعرف عليه ؛ هو شخص نستطيع أن نميزه من بين ألف يسيرون فى الشارع . إنها مهمة سهلة ، لأن أشياء كثيرة فى شكله وملابسه وملامحه تميزه .

إنه قصير القامة كبير الرأس زائغ العين عريض الجبهة مستقيم الأنف صغير القدمين مرتعش اليدين حليق الذقن قصير الطربوش . طربوش صغير . إنه يسير أمامنا فى الشارع بحذاء نستطيع أن نسمع صوت احتكاكه مع الأرض وجورب منسدل فوق حذائه ، ويد تمسك بالعروة العليا من ردائه . واليد الأخرى تمسك بمبسم يضع فيه سيجارته المفضلة . سيجارة اسمها « ديمترينو » .

إن تقسيمه ليومه يكاد يكون روتينياً ، مع أنه ليس كذلك أبداً .

إنه يستيقظ فى الصباح وسط حجرة تناثرت فيها كل الأشياء ، الملابس والأوراق والكتب . إنه لايطيق أن يمسك بكتاب بعد قراءته . . فيقذف به ليسقط فى أى مكان بالحجرة . قلة صبر .

ومع أنه تجاوز الخمسين بكثير فإننا نجد فى منزله خادماً أسود يتلقاه كل صباح ليغسل له وجهه ورأسه ، ثم يديه وقدميه ، بالماء الفاتر والصابون . عادة يومية .

بهذا تكون الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً ، فيقوم ليتناول الإفطار وليست هى الوجبة الكاملة بالنسبة لشوقى . إن وجبته الحقيقية تكون فى الغداء . إن شوقى حريص دائماً على أن يأكل جيداً فى غدائه . وحينما يجلس إلى مائدة الغداء نجد أمامه دائماً أصنافاً عديدة من الطعام. أصنافاً لابد أن يكون من بينها فاصوليا حمراء أو بامية أو كفتة بالصلصة أو بيض . لابد من البيض .

بعد الأكل هناك الفاكهة التى يعشقها شوقى ويشتريها بنفسه من محل « لاباس » .

وإذا كان شوقى يتناول وجبة الغداء فى المنزل ، فإن الإفطار لابد أن يكون فى « جروبى » والعشاء لابد أن يكون فى واحد من المحلات الأخرى الشهيرة بالقاهرة : الحاتى ، أو صولت ، أو « سان جيمس» ، أو« باريزيانا» .

وإذا لم نستطع أن نلحق بشوقى فى أثناء العشاء ، فلابد أن نلحق به بعدها فى السينما . لابد من السينما . إنه يدخل السينما ليجلس دائماً فى واحد من الصفوف الأولى . قصر نظر .

قبل السينما نستطيع أن نرى شوقى متجولا فى الأحياء الشعبية . إننا نراه وحده متأملا ومستمعاً ومراقباً حياة هؤلاء الذين يكتب عنهم ولهم . وحينما يتعب شوقى من السير فإنه يركب الترام ، جالساً فى المقعد الخلفى من العربة المقطورة . إن المقعد الخلفى هو دائماً مكان مناسب للاستماع فى حرية والملاحظة فى صمت .

بعد السينما نستطيع أن نشاهد شوقى من جديد فى أحد المقاهى أو الحانات التى تتجمع فيها الشخصيات الأدبية والسياسية والصحفية : محل « صولت » . . « سان جيمس » . . فى بار اللواء . . أو قهوة الشيشة . وفى معظم هذه الأماكن نستطيع أن نجد شوقى خفيف الروح ،

مضطرب النفس ، مرهف الأعصاب ، سريع الغضب ، سريع الاعتذار عن الغضب ، متوترا أحياناً ، متواضعاً دائماً ، مجاملا ، رقيقاً ، عاشقاً ، متسللا إلى أعماق النفوس ، مستمعاً إلى حوار الناس . وإذا لم يوجد حوار . . فإنه يفتح باب المناقشة . . ثم يجلس ليستمع حتى النهاية . .

إنه سوف يظل يراقب ويستمع ويلاحظ ويرى ويسجل ويتأمل حتى يأوى إلى فراشه فى الثالثة من صباح كل يوم ، ليس قبل الثالثة ، حينما يبدأ يومه التالى على نفس المنوال .

وخلال اليوم كله فإن شوقى هو دائماً نفس الشخص : فنان دائماً ، ملول دائماً ، متجول دائماً ، قلق دائماً ، يخاف من المرض دائما . إنه يحب الحياة ويخشى الموت : إنه — حتى — لا يحب أن يسمع كلمة الموت على لسان أ إنسان . إن الحياة بالنسبة له موجودة لكى يعيشها ، ويستمتع بها ويحرص عليها . إن حرصه عليها يمتد ليشمل تطهير كل شىء أمامه خشية العدوى . حتى مبسم السيجارة ، لابد أن يغسله دائماً بالكحول ، ويديه ، لابد أن يغسلهما بالكولونيا ، وإذا مرض واحد من أولاده فإنه لايسمح لزائر بالدخول إلا بعد أن يغسل يديه ورأسه بالكولونيا . وحتى من غير مرض يلم به أو بأحد أولاده ، فإنه دائماً يتعاطى الدواء وهو غير مريض ، ويشرب الماء قبل الأكل مخلوطاً باليود ظناً منه أنه وقاية من الجراثيم .

إن خوف أحمد شوقى من المرض لم يكن يعادله سوى خوفه من النقد . إن الصحف الكبرى ، والكتاب الكبار يقدرونه تماماً ويعجبون به جداً . . ومع ذلك يخاف ، يرتعد ، يرتعش ، من النقد . إنه يخاف أكثر ويرتعش أكثر من الصحف الصفراء التى كانت تصدر فى زمانه وليس فيها إلا التجريح والتشهير . لهذا كان يغدق على أصحابها

الأموال الجليلة ، ولا يلقاهم إلا بالحفاوة وخلع الألقاب الفخمة عليهم. و » . . قد علم أولئك عنه ذلك ، فإذا قبض يديه عنهم غمزوا شعره فهرول إليهم مسترضياً باذلاً ماله » .

وكان شوقى يقول إنه لايقرأ هذه الصحف « . . الساقطة » ، ولكنه لم يكن صادقاً فى ذلك ، فقد كان يقرؤها ويسرع إلى الكتاب فيها يسترضيهم . إن خوف شوقى كان منصرفاً إلى شعره ، فقد كان لايطيق أن يقرأ سطراً واحداً فى الحط منه .

* * *

وقد وصل خوف شوقى إلى أقصاه يوم ظهر فى السوق كتاب « الديوان » الذى كتبه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى . ربما كانت هناك عوامل شخصية وراء هذا الكتاب — وربما لم تكن — ولكن المؤكد على أى حال هو أنه لم يكن صادراً بدافع الابتزاز أو الاستغلال . إن الكتاب يعبر عن رأى نادى به البعض أيامئذ هجوماً على شوقى .

ولقد كادت علاقة شوقى بعبدالوهاب تتأثر بهذه الحكاية المعقدة، بالرغم من أن عبدالوهاب لم يكن طرفاً أصيلا فيها . فمنذ توثقت علاقة عبد الوهاب شوقى ، أصبح عبد الوهاب محسوباً على شوقى فى نظر خصومه . . مما جعلهم يبدءون هجومهم بالهجوم على عبدالوهاب — شفوياً فى البداية وتحريرياً بعد ذلك .

وعندما دبر أصدقاء عبد الوهاب سهرة له مع العقاد والمازنى ، كان الهدف حمايته من الهجوم المتوقع منهما عليه ضمن الحملة القائمة فى ذلك الوقت ضد شوقى . إنها السهرة التى كتب فيها العقاد قائلا عن عبدالوهاب :

إيه عبد الوهاب إنك شاد يطرب السمع والحجا والفؤادا

فى البداية عد شوقى أن ما كتبه العقاد والمازنى عن عبدالوهاب

هو انتصار شخصي له ، فعبدالوهاب بالنسبة له ليس مجرد صوت يعجبه ، ولكنه أيضاً عاطفة فى قلبه ، وفكرة فى رأسه ، ونور فى عينيه .

ولكن بعد قليل بدأ عبد الوهاب يقرأ مقالاً لحسين شفيق المصرى ينتقد فيه قصيدة العقاد ويتساءل : هل أراد العقاد أن يمدح عبد الوهاب حقاً ، أم أراد أن يذمه ؟ ! إن العقاد قال عن عبد الوهاب :

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهادا

إذن — يقول الكاتب — لم تكن ليلة طرب ، بل كانت ليلة شقاء . إن عبد الوهاب لم يشج الشاعر ، ولكن أشقاه وسامه سوء العذاب ! وكيف يتفق هذا الشقاء والعذاب مع وصف الشاعر للمغنى بأنه أطرب السمع والحجا والفؤادا ؟

وقبل أن تمضى أيام قلائل قرأ عبدالوهاب مقالاً آخر فى جريدة « الكشكول » . مقال بعنوان « هجاء فى مدح » قالت الكشكول : « سأل أعرابى أحد المغنين ما الغناء ؟ فأراد المغنى أن يرى الأعرابى كيف يكون الغناء . . فأخذ يتغنى بأبيات من الشعر ، ويهتز . . ويلقى برأسه إلى الوراء . . ثم يعتدل . . ويتجعد وجهه . . وتلعب عيناه . فقال له الأعرابى : والله يا أخى ما يفعل بنفسه هكذا عاقل .

« . . وقد صدق . ولم نر من استملح هذه البشاعة من المغنين غير المازنى . فقد كتب فصلا عن المغنى النابغة محمد أفندى عبد الوهاب قال فيه : إنه إذا تناول العود وأصلحه واستعد للضرب عليه يرفع رأسه حتى يكاد يمس به ظهر الكرسى ، ويرسل طرفه إلى الفضاء . . وتلك أوصاف مفتراة ظنها المازنى مما يحمد من المغنين فوصف بها عبد الوهاب . . وعبد الوهاب براء منها ... ولا ترى المازنى أخزاه الله — يصف مغنياً ولكنه وصف قرداً ، وخيل إليه أنه يمدح وهو يهجو . ولا شأن لنا به . فلينظر عبد الوهاب كيف جزاء من يطرب الحمقى والجهال فلا يكافئونه إلا

بإلحاقه بالقرود ! »

وقرأ أحمد شوقى هذا المقال مرة أخرى على مسمع من عبد الوهاب ، ثم تساءل أمامه قائلا : — غريب . . ! هذا المقال بلا توقيع ! ولكنه مقال عظيم ! ترى . . من هو كاتبه ؟ إن كاتبه هو بلا شك أديب . إنه ليس أديباً فقط . . ولكن يبدو عليه أنه موسيقى ويفهم فى علم النفس !

ولم يستطع عبدالوهاب يومها أن يعلق ، فهو الآخر لايعلم من الذى كتب هذا المقال .

ولم يكن كاتب المقال سوى نفس الشخص الذى يجلس معه عبد الوهاب : أحمد شوقى !

لماذا ؟

كان السبب بسيطاً : إن شوقى كتب المقال ونشره فى «الكشكول» بلا إمضاء لكى يقصى عبد الوهاب عن العقاد والمازنى . إن بعض أصدقاء شوقى أفهموه أن كتابة العقاد والمازنى عن عبدالوهاب ستجعله ينضم إليهما . وأفهموه أن بلبله الصغير قد بنى لنفسه عشاً فى قلب ألد خصومه : العقاد والمازنى ! بالطبع لم يكن هذا صحيحاً ، فلقد كان العقاد والمازنى معجبين بصوت عبدالوهاب ككثيرين غيرهما . ولكن إعجاب شوقى بعبد الوهاب كان فى النهاية أكبر من الجميع .

وقد نجح شوقى فعلا فى إقصاء عبد الوهاب عن العقاد والمازنى . إن المازنى ظل حانقاً على عبدالوهاب إلى قبيل وفاته بسنتين . أما العقاد فقد نشر قصيدته عن عبد الوهاب فى « البلاغ » .

ولما تغير رأيه فى عبد الوهاب رفض تسجيل القصيدة فى أى ديوان من دواوين شعره .

والسؤال الآن هو : لماذا هذه العلاقة بين شوقى وعبد الوهاب ؟ لماذا هذا الحرص من شوقى على إبعاد عبد الوهاب عن خصومه ؟ هناك بالطبع إعجاب شوقى بصوت عبدالوهاب . هناك الإعجاب والصداقة

والعطف والحب — نعم — ولكن هذا كله لايكفى لتفسير الدرجة التى وصلت إليها هذه الصداقة العظيمة .

ما هو التفسير إذن ؟

إن جزءاً من التفسير يعتمد على شخصية شوقى نفسه كإنسان، ولكن الجزء الأكبر يعتمد على شخصيته كفنان . شاعر فنان . إن شوقى — من البداية — هو شاعر ، وحينما لاتوجد إذاعة ولاتليفزيون ولاسيما أمام الشاعر الفنان ، لايجد أمامه سوى وسائل محدودة لنشر شعره جماهيرياً . أمامه الصحف والكتب والمجالس الشخصية .

أما المجالس الشخصية فلم تكن وسيلة انتشار بالنسبة لشوقى ، حيث لم يكن هو نفسه يجيد إلقاء الشعر ، ولم يسمعه أحد مطلقاً يلقى شعره . وتبقى بعد ذلك الكتب — وهى محدودة التوزيع دائماً — والصحف . . وهى الأخرى محدودة التوزيع فى مجتمع لايقرأ فيه سوى شخص واحد من كل خمسة . فى هذه الظروف يصبح الغناء هو وسيلة الانتشار الحقيقية على المستوى الجماهيرى . إن المطرب يصبح هنا بالنسبة للشاعر بديلا عن ميكروفون الإذاعه وشاشة التليفزيون أو السينما . إن المعانى الشعرية لاتنطلق منه إلى آذان الناس فقط ، بل إلى قلوبهم أيضاً .

وفى حالة أحمد شوقى بالذات فإن محمد عبدالوهاب لم يكن أول مطرب فى حياته . فقبل عبد الوهاب بوقت طويل نظم شوقى كثيراً من الأغانى الدارجة لمطربين آخرين ، منهم مثلا عبده الحامولى ... الذى غنى لشوقى دور « ياما انت واحشنى » . وغنى له أيضاً موال « كل اللى حب اتنصف وأنا اللى وحدى شكيت » .. غناه عبد الوهاب أيضاً فيما بعد.

وبعد الحامولى نظم شوقى مواويل أخرى ليوسف المنيلاوى منها موال يقول . . .

ساهى الجفون ما كفاك الهجر يا ساهى
فرحان بتلعب وعن حال الشجى ساهى

وبعد المنيلاوى كان عبد الحى حلمى من المطربين الذين نظم لهم شوقى ومن الأصدقاء المقربين له . . وقد حزن شوقى كثيراً لوفاته فرثاه بأبيات قال فيها . .

طوى البساط وجفت الأقداح وغدت عواطل بعدك الأفراح
وانفض ناد بالشآم وسامر فى مصر أنت هزاره الصداح

وبالرغم من هذه العلاقات المتتالية ، فإن أحداً من هؤلاء المطربين لم تصل علاقته مع شوقى إلى الدرجة التى وصلت إليها علاقته بعبدالوهاب . إن الفارق الأساسى هو الفارق بين إمكانيات كل منهم الفنية وإمكانيات عبد الوهـــاب . فارق الصوت والأداء واللحن والقدرة والاختيار والمستقبل . إن أحمد شوقى كان يعد عبد الوهاب جزءاً من مستقبله هو ، ووسيلة لتخليده ، وامتداداً لكلماته بالصوت والنغمات .

إن شوقى نفسه يخاطب عبد الوهاب فى إحدى سهراته ، قائلا : « وهب الله لك — عبد الوهاب — أندى الحناجر . . وخلق لها ألين الأوتار ، وخلق منها أرخم الأصوات ، ودلالك على الصوت تنشره وتطويه ، وتميته ثم تحييه ، وتقلبه ثم تنظر فيه ، كأنما صوتك فى يدك . . وكل مغن صوته فى فيه » .

وشوقى نفسه يقول لعبد الوهاب فى أكثر من مرة : أرجوك يا محمد ألا تهمل شعرى بعد أن أموت . . وتبقى دايماً تغنى قصايدى .

وفى مرة أخرى يسأله شوقى : « هل تعرف بأنى قدمت لك شيئاً فى حياتك ؟ »

ويرد عبد الوهاب : أنت ولى نعمتى . .

— حاشالله أن أكون كذلك ، ولكننى أعتقد أننى حاولت أن أبث فيك الثقة . وأن أوجهك نحو المجتمع بقوة ، وأن أدفعك نحو المجد الذى تستحقه . وليس لى من جزاء على هذا الصنيع المتواضع إلا بطلب واحد . .

— ما هو ؟ إن حياتى فداك . .

— أن تغنى شعرى بعد موتى ، وأن تغترف منه ماتشاء ، فإن خلودى

فى أن يردد الشعب شعرى . . وأنت كفيل بأن تجعل الشعب يفهمه ويحبه ويردده .

* * *

إن شوقى لم يكن فى زمانه يفتقد الشهرة ، أو يفتقر إلى السمعة ، أو يشكو من عدم الانتشار . كان مشهوراً ومسموعاً ومنتشراً . . ولكن الشهرة هى كمياه المحيط المالحة . . كلما شربت منها زاد إحساسك بالعطش . إن أكثر الناس سعياً وراء الشهرة هم المشهورون فعلا . إننا نشهد كل يوم فى حياتنا العامة والخاصة صدق هذه الظاهرة وسلامة هذا الاستنتاج . إن الرجل المشهور — فناناً أو مطرباً أو لاعب كرة — هو وحده الذى يعلم أكثر من غيره حلاوة الشهرة . . فهو أيضاً أكثر من غيره سعياً وراءها . ليس هذا ذمًّا ولا مدحاً . هذه حقيقة . إن مزيداً من الشهرة معناه فى النهاية مزيد من الأصوات التى تسمعك والأعين التى تقرؤك ، والقلوب التى تحس بك ، والناس الذين يصل إليهم رأيك ، والجمهور الذى يقدرك . إن قيمة الفنان هى — فى النهاية — قيمة جمهوره. فالفنان لاقيمة له بغير جمهور يسمعه أو يحس بفنه . إن الفنان يكتب للناس ، يرسم للناس ، ولاقيمة له قبل أن يستمع إليه الناس . إن كل عمل جديد للفنان هو بطاقة انتخاب يوزعها على الناس ، هو استفتاء ، لايهمه أن ينجح فيه فقط ، بل أن يحصل على أغلبية الأصوات . . ومعظم الأصوات . . وفى النهاية كل الأصوات . إنه يفرح كطفل من كل صوت يزيد ، ويتجمد كميت من كل صوت ينقص . إن مشكلته لا تحل بالوصول إلى القمة ولكن مسئوليته تتضاعف . مسئوليته عن الاستمرار ، سعيه للبقاء ، حرصه على عدم السقوط ، جوعه للاحتفاظ بكرسيه فوق القمة الجديدة التى يمكن أن يسقط من فوقها فى أى لحظة . إن كل يد جديدة تصفق له هى أمل فى المستقبل ، وكل صوت يغيب عن أذنه هو إنكار للماضى . لهذا نجد أن الفنان يسعى دائماً إلى

الحصول على الاعتراف — تصفيق الناس هو اعتراف — ويسعى إلى الشهرة . وكلما زادت شهرته . . زاد جوعه إلى مزيد من الشهرة . زاد جوعه واشتد عطشه وقويت شهيته وأسرعت خطواته وتهللت أساريره . . بحثاً عن مزيد من الأيدى التى تصفق ، ومزيد من الآذان التى تستمع .

لهذا السبب ، ولأسباب أخرى كثيرة ، كان شوقى يحس أنه يصبح أكبر . . كلما أصبح عبد الوهاب كبيراً . لهذا كان شوقى يقوم بدور بطاقة التوصية بالنسبة لعبد الوهاب . بطاقة توصية حية . . تسير على قدمين وتملك عيناً ترى وعقلا يفكر .

إننا نجد شوقى يصحب عبد الوهاب لزيارة كتاب الصحف ورؤساء تحريرها . مرة نراهما فى مكتب محمد حسين هيكل وطه حسين فى جريدة « السياسة » . . مرة فى مكتب داود بركات رئيس تحرير « الأهرام » . . مرة عند توفيق دياب فى « الجهاد » . . أو سليمان فوزى فى « الكشكول » . مرة مع عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم فى المقهى المطل على سفح الأهرام . وبعد أن كان عبد العزيز البشرى يقول لشوقى : « أما يا باشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الحص أحب أنك تسمعه » . . أصبح شوقى هو الذى يقول للبشرى : « يا عبد العزيز . . عبد الوهاب ده كروان . . ده تحفة . . ده عبقرى » .

إننا نجد أيضاً أن شوقى يسعى دائماً لرفع شأن عبد الوهاب وإقامة الحفلات خصيصاً لتعريفه بكبار شخصيات المجتمع ، حفلات ينفق فيها شوقى من جيبه الكثير ، وشخصيات تروح بين عبد الخالق ثروت ويحيى إبراهيم ومحمد محمود وحسنين هيكل وحفنى محمود وغيرهم من الوزراء والكبراء . حفلات ينظم شوقى فيها الشعر تنويهاً بصوت عبدالوهاب ويدفعه إلى من يحسن الإلقاء ، لكى يسمعه هؤلاء الضيوف فى كل مرة ينتهى فيها عبد الوهاب من الغناء .

وعندما تطورت الصداقة أصبح شوقى يفكر فى بناء مسرح على

حسابه الخاص ، وعندما وجد معارضة للمشروع داخل أسرته أصبح يقوم لعبدالوهاب أحياناً بدور متعهد الحفلات ، وأصبح يشترى له فداناً فى طريق الهرم ليطلق عليه اسم « عش البلبل » — عبد الوهاب هو البلبل طبعاً — وأصبح يتوسط له فى ابتياع منزل خالة أولاده — أولاد شوقى — فى حى العباسية بأقل من ربع الثمن ، وأصبح يكلف طبيبه بالعناية بعبد الوهاب دائماً . بل إن شوقى كان يذهب إلى منزل عبد الوهاب ظهيرة كل يوم ليوقظه من نومه ويصحبه معه إلى الغداء. وفى إحدى المرات مرض عبدالوهاب — وهو ما يزال يسكن فى حى باب الشعرية — فنقله شوقى إلى منزله فى الجيزة وأعد له غرفة هناك لكى يكفل له الغذاء المناسب والعناية الطبية اللازمة تحت إشرافه الشخصى .

وطوال تلك السنوات نجد شوقى يصحب عبد الوهاب إلى مجتمعات القاهرة ومصايف لبنان ومتاحف فرنسا . إنه يفسر له الفن ويبسط له الثقافة ، ويعلمه اللغة الفرنسية ويقرأ له الشعر ويخلق له الفرص .

إن شوقى الذى كان يمل كل شىء وكل شخص ، لم يمل قط صحبة عبد الوهاب . كيف يمله وعبد الوهاب جزء من دفاع شوقى عن نفسه . الفنان دائماً يدافع عن نفسه ، ويبحث عن امتداد لنفسه . وليس غريباً أن نرى أن تمسك شوقى بعبد الوهاب يصل إلى نقطته القصوى فى الفترة التى وصل فيها الهجوم على شعر شوقى إلى القمة أيضاً . إن عبد الوهاب سلاح من أسلحة شوقى . سلاح رئيسى . سلاح يثبت به لخصومه أنه أكثر انتشاراً وأوسع جمهوراً وأكبر إقناعاً للناس .

وإذا كانت هذه مصلحة شوقى فى علاقته بعبد الوهاب .. فإن المصلحة وحدها لاتكفى فى الواقع لتفسير هذه العلاقة . إنها تفسر جزءاً ولكنها تعجز عن تفسير كل شىء . إن الصداقة والإعجاب والحب والانبهار . . كلها فى الواقع تكمل لنا — من هذه النقطة بالضبط — الأجزاء الناقصة فى تفسير هذه العلاقة . إنها صداقة فنان بفنان ، إعجاب قلم بصوت ،

حب شاعر لمطرب ، انبهار حاضر بمستقبل . هذا من ناحية شوقى .
أما من ناحية عبدالوهاب فقد كانت نفس العوامل قائمة ولكن على الطرف الآخر تماماً . إن موقع عبد الوهاب بالنسبة لشوقى هو موقع ناشئ أمام جبل شامخ ، فنان يسعى إلى القمة .. أمام فنان موجود فعلا فى القمة . صوت يبحث عن فرصة ، وشاعر يملك النفوذ ، مطرب يملك الفن . . وعقل لايشغله سوى الفن . . تلميذ يبحث عن معلم ، وأستاذ يستطيع أن يعلم .

إن كل يوم قضاه عبدالوهاب مع شوقى كان يشهد درساً يتعلمه . كل يوم ، وكل لحظة ، وكل أغنية . لقد حدث مرة أن نظم شوقى لعبدالوهاب أغنية « فى الليل لما خلى » . وحيث إن عبد الوهاب يعلم أن شوقى معجب بألوان الغناء القديم الذى كان يغنيه عبده الحمولى وعبد الحى حلمى ، فقد قال لشوقى :

– يا باشا . أنا حاعمل للأغنية لحن يعجبك ويتفق مع اللون اللى تحب تسمعه .

ولكن شوقى تجهم قليلا وهو يسأل عبدالوهاب : يعنى إيه اللحن اللى يعجبنى ؟

– يعنى تلحين قديم زى الطريقة بتاعة عبد الحى حلمى . .

هنا قال شوقى بحسم : اسمع يابنى . . الفنان الأصيل ما يخلقش حاجة على ذوق غيره ، إنما يستلهم ذوقه وإحساسه وحده . . وأنصحك بالابتعاد عن هذه الطريقة لأنى أعتبرها نفاقاً وتملقاً لرغبات الناس . خلى فنك ينبع من ذات نفسك ، لأن ده يخليك تعتز بما تخلقه من الألحان . . وأنا شخصياً أصبحت أعيش فى بيئة غير البيئة اللى تعيش فيها أنت ، وربما يكون ذوقى مختلفاً مع ذوقك . ولكن إذا حاولت أن تسمعنى لحناً تعتز به وتحبه . . فسيكون أفضل لى ، لأنى ساعتها سأسمع فناناً غير زائف أو مصطنع تماماً .

لحظتها خرج عبدالوهاب بالدرس واضحاً أمامه : لا تكن غير

نفسك . الفن هو الصدق ، هو الأمانة ، هو ما تحسه فى قلبك وتراه فى وجدانك وتشعر به فى شرايينك . هذا هو الفن .

مزيد من الدروس : لاسياسة. هناك سياسة وهناك فن . إن شوقى يجامل مرة . إنه يجامل ، ويتملق ، وينافق أحياناً .

إنه يرثى مصطفى كامل ومحمد فريد من الحزب الوطنى ، يمجد سعد زغلول من حزب الوفد ، يمدح عدلى يكن ومحمد محمود وعبد الخالق ثروت من حزب الأحرار الدستوريين. لكنه فى النهاية ليس تابعاً لواحد من هذه الأحزاب .

إنه يمدح الخديو عباساً وينافق الملك فؤاداً ، ولكنه فى النهاية ليس داعية مستمراً للسلطة . إنه يخطئ مرة حينما يهاجم عرابى بعد عودته من المنفى قائلا :

صغار فى الذهاب وفى الإياب
أهذا كل شأنك يا عـــرابى

إنه – حتى – ينقد الشعب الذى ينتسب إليه حينما يقول على لسان أحد الأبطال فى مسرحية « مصرع كليوباترا » عن الشعب المصرى :

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من ببغـــاء عقله فى أذنيـــه
ملاء الجو هتافاً بحيـــاتى قاتليـــه

شوقى يفعل هذا كله ، ولكنه يفعله بمنطق المخطئ الذى يرتد فوراً الى قاعدته العريضة : الشعب . إنه – كأى فنان آخر – ليس معصوماً من الخطأ ، ولكن فنه فى النهاية أقوى من كل عوامل الجذب التى تشده فى الأرض . إن عينيه تنطلقان إلى السماء . . وكذلك عقله وفنه . ليس هذا هو الدرس ، ولكن الدرس هو : أن موقع الفنان مع الشعب وليس مع الأحزاب التى تتقاتل لغير مصلحة الشعب . موقعه هو الشارع .. وليس كواليس حزب من الأحزاب . إن الحزب هو رأى – تعصب لرأى –

والفنان يجب ألا يتعصب لغير الفن . إن أحمد شوقى مدح بشعره زعماء الأحزاب ، ولكن حزباً واحداً منها لايستطيع أن يدعى أن شوقى هو شاعره . لا حزب ، ولاشخص ، ولا سلطة . الفن هو السلطة . إنه السلطة التى يجب أن يعطيها الفنان الكلمة الأخيرة فى عمله .

هكذا كانت تتوالى الدروس التى يتلقاها عبدالوهاب من خلال علاقته بشوقى . إننا نجدهما مرة فى بيروت – قبل سفرهما معاً إلى باريس سنة ١٩٢٧ – وهناك يمسك عبد الوهاب بصحيفة فى القاهرة فيقرأ فيها أسوأ خبر ممكن : وفاة أبيه . إن الصحيفة تصل قبل ساعات قليلة من الحفلة الأولى فى سلسلة حفلات عامة تعاقد عبد الوهاب على إحيائها . لحظتها كان القرار الطبيعى من عبدالوهاب هو : إلغاء الحفلات والاعتذار عن عدم الغناء ، والعودة فوراً إلى القاهرة .

إن شوقى يدرك فى هذه اللحظة كم هى فجيعة كبرى بالنسبة لعبدالوهاب . كم هى إصابة ، صدمة ، كارثة عاطفية. إنه يحتضنه ، يواسيه ، ويخفف عنه ، ثم : يصحبه إلى طه حسين الذى يصطاف هو الآخر فى نفس المدينة اللبنانية « عالية » .

هناك يشترك طه حسين فى مواساته والتسرية عنه . ولكن هناك أيضاً يأتى الدرس على لسان طه حسين : لماذا لاتغنى ؟ . . ولماذا تؤجل حفلتك؟ هل الغناء فرح فقط ؟ إن الفنان هو فن وتعبير . إن الفن يستطيع أن يعبر عن الفرح ، ويعبر عن الحزن أيضاً . فى الفن فرح . . وفيه دموع . وبدلا من أن تعبر عن حزنك بالدموع . . عبر عنه بفنك .

ليلتها نظم شوقى وغنى عبد الوهاب « الليل بدموعه جانى . . ياحمام نوح ويايه . . نوح واشرح أشجانى » . ليلتها لم تكن دموع عبدالوهاب هى فقط التى تحس بفداحة المصاب ، كانت دموع الجمهور أيضاً تشترك فى العزاء .

* * *

ولم تكن هذه هى كل الدروس التى تلقنها عبدالوهاب فى أثناء علاقته بشوقى . إن شوقى فنان . شاعر فنان . إن كل شىء عنده مهم بقدر ما هو يخدم فنه . شعار ربما نتفق عليه بالإجمال ونختلف عليه فى التفاصيل . إن كل الناس يوافقون على أن الفنان يجب أن يكون عبداً لفنه ، ولكن بعض الناس يختلف أخلاقياً مع بعض النتائج التى تترتب على هذا الشعار . لايهم . ليس هذا موضوعنا الآن . موضوعنا هو أن كل شىء فى حياة شوقى كان مسخراً لخدمة فنه . إن وقته ، علاقاته ، قراراته ، ارتباطاته ، أمواله ، صداقاته ، شهرته ، سمعته ، كلها فروع فى حياة شوقى تصب فى النهاية فى نهر واحد : الشعر . الشعر كشكل من أشكال الفن .

إن شوقى كان يحتفظ لنفسه بساعتين يومياً يتأمل فيهما الناس والحياة والشارع . إنك مهما كنت صديقاً ، أو قريباً ، أو أخاً ، أو حتى ابناً . . فإن شوقى سوف يتركك فوراً إذا أشارت عقارب الساعة إلى السادسة مساء . من السادسة شوقى بالنسبة للجميع مفقود ، ضائع ، مختف ، متجول . إن أحداً فى حياته كلها لن يعرف أين يقضى هاتين الساعتين . لا أحد ، ولافائدة !

وفى غير هاتين الساعتين كل يوم فإنه دائماً متأمل ، وملاحظ ، ومستمع ، ومراقب . . فى كل جلسة يشترك فيها أو مناقشة يبدؤها . إنه يفتح المناقشة ثم يأخذ كرسى المستمع إلى النهاية . حينما تنتهى المناقشة يتدخل شوقى لمجرد وضع بداية جديدة لمناقشة جديدة . إن الموضوع ربما يكون جذاباً ، والناس مهمون ، ولكن الفن عند شوقى أهم من الجاذبية والمتعة والناس . لقد فوجئ محمد عبد الوهاب يوماً بأمنية يعبر عنها شوقى .

قال شوقى لعبد الوهاب : أنا أتمنى يا محمد أنك تموت قبلى !

ودهش محمد من هذه الأمنية الغريبة — التى يعلم طبعاً أنها غير حقيقية . إن دهشة محمد لاتعبر عنها هذه الكلمات أعوذ بالله . . أعوذ بالله . . ولكن لماذا ياباشا هذه الأمنية الغريبة ؟

ـ لأن نفسى أرثيك بقصيدة من شعرى !

إن شوقى يحب عبد الوهاب ، ويحب أكثر استمرار عبدالوهاب، ولكنه يحب فنه أكثر من عبدالوهاب . إنه يعلم ويحس ويتصور أى شعر وأى عواطف يمكن أن تخرج منه لو قدر له أن يفجع فى عبدالوهاب . لهذا تصور شوقى خاطره الفنى الغريب لمدة لحظة . ليس أكثر من لحظة .

ولماذا نذهب بعيداً ؟ إن عبدالوهاب كان بالنسبة لشوقى أهم من أشياء كثيرة ، وأقرب من أناس كثيرين — أقرب من أولاده مثلا. إن الأولاد لهم الحب والعطف والاهتمام والرعاية . . ولكن عبدالوهاب هو الفن ، هو المستقبل ، هو الميكروفون الذى سيصل منه شعر شوقى إلى قلوب الناس . إذن : الأولوية لعبد الوهاب .

وخلال معايشة عبد الوهاب لشوقى . . كان يرى أمامه حياة فنان . . وعمل فنان . إنه يرى أن الشعر بالنسبة لشوقى هو عملية ولادة عسرة . عملية فيها آلام الولادة وصرخات الولادة ، والراحة بعد الولادة . إن شوقى يهمهم ويغمغم ويرفع يده ويمسح جبينه ويغيب عن ضيوفه ويطارد أفكاره . . ليعود فى النهاية إلى منزله ناقلا مولوده ـ شعره — من عقله إلى الورق . إنه لايرتاح ولا يهدأ ولايعود إلى الوجود قبل أن يملى قصيدته على كاتبه . وحتى بعد أن يمليها ، فإنه يعيد إملاءها بشكل آخر وآخر . حتى يستطيع فى النهاية أن يختار . الفن هو اختيار .

وكانت لشوقى نزوات كثيرة . إنه يشرب الخمر إلى درجة الثلاثين كأساً كل يوم ، ويشترى ويبيع إلى درجة افتتاح صالون للحلاقة يعمل لحسابه ، ومع ذلك فإنه يدفع مئات الجنيهات للصحف الصفراء خوفاً من هجومها على شعره . إن المال فى يده هو غاية حينما يأخذه ، ولكنه وسيلة حينما يعطيه . إنه وسيلة ـ مع وسائل أخرى كثيرة ـ للدفاع عن فنه وحمايته .

ولقد أخذ عبد الوهاب عن شوقى ملامح شخصية كثيرة تضاف

إلى الملامح الفنية . إننا نجده أيضاً – نجد عبدالوهاب – حريصاً ماله . معظم الناس يسمى هذا بخلا ، ممكن ، ولكن عبد الوهاب لايراه كذلك .

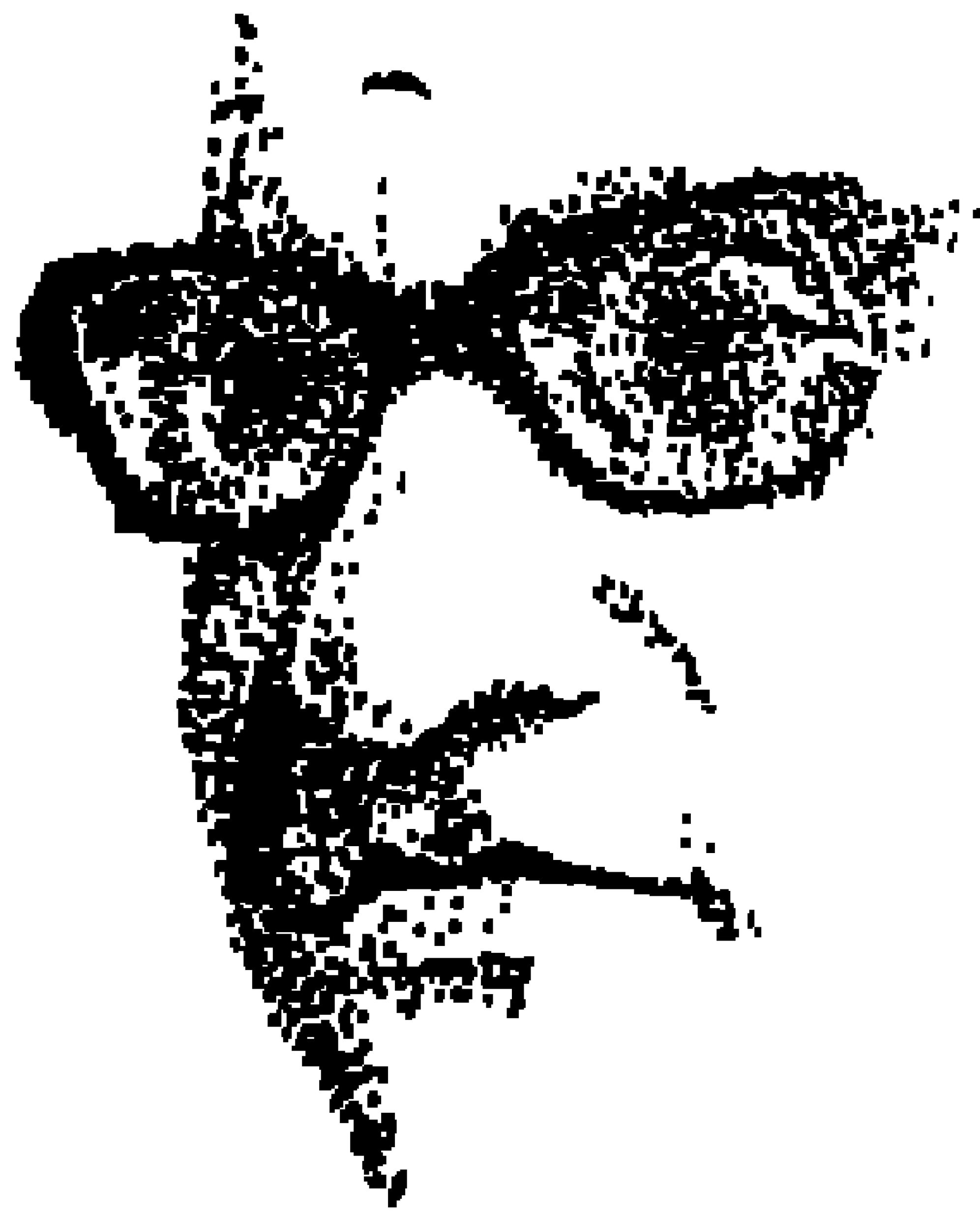
إننا نجد عبدالوهاب أيضاً محبًّا للطعام ، مقبلا عليه ، قلقاً على صحته إلى درجة الوسوسة ، مجاملا إلى درجه النفاق ، مستمعاً دائماً ملولا أحياناً ، يبحث عن التغيير ، يسعى وراء التطور ، بحساب ؛ ولكن بتطور ، يخاف الموت و « يموت » فى الحياة ، لديه عقلية رجل الأعمال بنجاح أكثر من شوقى ، ولديه الخوف من النقد والارتعاش من الهجوم ولكن لديه أيضاً الثقة من النجاح . . والسعى لاستمرار هذا النجاح

إننا نجد أيضاً أن الفن بالنسبة لعبدالوهاب لايعرف مواعيد كما كان الأمر بالنسبه لشوقى . وإذا كان الشعر يولد فى رأس شوقى عندما يتجول فى الشوارع وبين الناس ، فإن الألحان فى رأس عبد الوهاب ، تولد فى السيارة وبين الناس . إن عبد الوهاب لايستطيع أن يتجول فى الشوارع كما كان يفعل شوقى . إنه لايستطيع – على الأقل بحكم شهرته . ولكنه يستطيع أن يستقل سيارة يتفرغ فى داخلها للهمهمة والتمتمة . إن السائق يتجول بالسيارة أو يتجه بها إلى هدف محدد ، ولكن عقل عبدالوهاب فى داخلها مشغول بشىء غير محدد . مشغول بلحن ، بكلمة ، بجملة موسيقية ، مشغول فى النهاية بعمله كفنان .

وعبدالوهاب أخذ من شوقى أيضاً القدرة على تذوق الكلمة . الشعر هو فن الكلمة . الموسيقى أيضاً هى فن تصوير الكلمة . إن الكلمة كانت عند شوقى شيئاً خطيراً يجب التدقيق فيه وتذوقه لكى تعطيك نفس المعنى الذى يتخيله الشاعر . كذلك عند عبدالوهاب . إن عبدالوهاب يحب أن يتذوق الكلمة قبل أن يحس بها . يجب أن يحس بها كفنان قبل أن ينقلها إلى المستمع كصورة . الكلمة عند عبد الوهاب

هى صورة . بعض الصور باهتة ، بعضها معبر . بعضها أقوى تعبيراً ، بعضها أقل تأثيراً . . إنها أقل بدرجة لاتلاحظها إلا عين فنان . كذلك بالنسبة لعبد الوهاب . إن حرفاً زائداً أو حرفاً ناقصاً قد يعنى بالنسبة لعبد الوهاب معنيين مختلفين تماماً . إن كلمة توضع مكان كلمة قد يعنى انتقال المعنى من درجة الصفر إلى نقطة الغليان .

فى الواقع . . أن عبد الوهاب هو فى النهاية : فنان يعيش فى نقطة الغليان .



الفصل الخامس

ثلاث زوجات .. ونصف !

لمدة عشر سنوات كاملة احتفظ محمد عبد الوهاب بسر خطير فى حياته لا يعلمه سوى شخصين اثنين فى القاهرة .

كان السر هو : امرأة !

وبعد أن مات أحمد شوقى أصبح هذا السر محصوراً بين اثنين : توفيق الحكيم ، ومحمد التابعى .

وحتى كتابة هذه السطور لا أحد آخر يعلم السر بالضبط غير اثنين من الخدم ، والأولاد الثلاثة لهذه المرأة !

لا أحد يعلم ، ولا أحد - حتى - يتصور أن من الممكن أن يحدث هذا . . غير عبد الوهاب نفسه ! لم تكن بداية هذا السر ملفتة لأحد . . بما فى ذلك الذين ولد أمامهم السر من اللحظة الأولى ، ولم تلاحظ عيونهم سوى شيء عادى . . مع أن ما حدث فى تلك الليلة كان بداية عادية لشيء غير عادى !

كانت البداية فى حفلة على شاطئ النيل ، عوامة على شاطئ النيل . حفلة دعى عبد الوهاب للغناء فيها وحضرها جمع صغير من الرجال والسيدات . . ذوى الحيثيات الاجتماعية .

إن عبد الوهاب يغنى «كل اللى حب اتنصف . . . وأنا اللى وحدى شكيت» !

إن صوته يصور فى البداية حقيقة مبدئية : كل اللى حب اتنصف . هذا طبيعى . هذا هو العدل ، ولكن الصوت يسقط فجأة من الإحساس بالعدل إلى الشعور بالمرارة : أنا اللى وحدى شكيت .

إن الشكوى مشحونة بالانفعال ، بالضعف ، بالإصرار ، بالقسوة . إن صوته يقول الألفاظ ، ولكن قلبه شاهد على الصدق . تجربة شخصية.

لهذا تخرج الألفاظ من فمه حاملة رقة الصوت وصدق القلب ومرارة الإحساس بالظلم . طبعاً ظلم . أن يتم إنصاف جميع من أحبوا باستثنائك أنت . . هو ظلم . منتهى الظلم . إن أى استثناء من قاعدة عامة هو ظلم ، هو قسوة ، هو انحراف عن العدالة ، هو تحطيم للقاعدة نفسها . قبل أن يغنى عبد الوهاب تم إنصاف كل من أحب . بعد أن غنى عبد الوهاب لم يعد ممكناً أن نقول إن « الكل» تم إنصافهم . هذا واحد من الكل لم ينصفه أحد . هذا واحد من الذين أحبوا .. « وماتوا »حباً .. دون أن ينصفهم أحد !

ولكن أحداً من المستمعين كان على وشك إنصاف عبد الوهاب : امرأة . إنها ترى أمامها شاباً يغنى . . عبد الوهاب يغنى . إنها تسمع صوته. . رقيقاً حزيناً مشحوناً بالانفعالات .. ولكنها ترى فيه أيضاً أكثر من مجرد مطرب يغنى . إنها ترى شاباً طويلا وسيماً ونحيف القوام . ترى أنفه المسحوب إلى الأمام مرتفعاً فى الهواء ، وطربوشه الأحمر مضغوطاً فوق رأسه ، وشعره الأسود متناثراً تحت حزام الطربوش وساقطاً إلى أسفل حسب الموضة المعاصرة ، عبد الوهاب نفسه بدأ يصبح موضة معاصرة . إن عبد الوهاب يغنى ، ولكنها ترى وجهه وهو يغنى . وجه يتحرك فى بطء . . يغطيه غلاف من الوقار المتعمد ، يلتقط مشاعر مستمعيه بهدوء . إن عبد الوهاب يعبر عن شكواه . إن صوته يغنى بنغمات محسوبة ، ممدودة ولكن محسوبة . إن كلماته تثير الأسى ، وصوته يثير اللوعة ، ونبراته تدفع إلى العطف . إنه الآن ينتقل من مقطع إلى مقطع . لهذا يرتفع صوت الموسيقى معه كما لو كانت جزءاً من الصوت نفسه . إن عبد الوهاب يشارك بالعزف على عوده . إن يده اليمنى ترتفع وتنخفض قليلا فوق أوتار العود واليسرى تضبط النغم ، صدره يندفع إلى الأمام بعض الشىء ، ورأسه يميل إلى الخلف ، وقدمه اليمنى متقدمة قليلا . إن صوته يعود إلى الغناء من جديد : كل اللى حب اتنصف ،

وأنا اللى وحدى شكيت . خسارة ! إنه يشكو ولكنه يحرص ، يؤثر ولكنه لا يحطم . يثير الأشجان ولكنه لا يهدم الذكريات . وهى ، هى ترى أمامها كل هذه المعانى مشحونة فى صوت عبد الوهاب . لقد استمعت إلى أغانى كثيرة لعبد الوهاب مسجلة على أسطوانات . لقد قرأت عنه كثيراً فى المجلات ، ولكنها لم تكتشف أن معرفتها به محدودة إلا الليلة . إنها تسمع . أن عبد الوهاب مطرب عصامى ، مطرب من القاع ، ربما من تحت القاع . . تسمع أنه قاسى من الإذلال والجوع وخيبة الأمل والفشل والعذاب خلال السنوات المبكرة من حياته الغنائية إنها سمعت هذا القليل ، ومع ذلك لا تحس فى صوته بالشقاء ، والاستياء. تحس العذاب — نعم — ولكن ليس الشقاء . إن عواطفه حزينة مع أن عينيه يشع منهما الطموح . إن انفعالاته عميقة مع أن صوته يعبر عن قلب جريح .

وطوال انطلاق صوت عبد الوهاب بالمعانى الصادرة من قلبه ، فإنه يحرك رأسه ببطء مستعرضاً هذا الجمهور الصغير من المستمعين . إن عينيه ما زالتا تتجهان إلى الأمام بشكل ما ، ولكنهما أيضاً تتحركان إلى اليمين . إنه ينظر إلى وجوه المستمعين عن يمينه — لا شيء . وببطء يعود وجهه إلى الخلف من جديد ، إلى الأمام ، وفوق أوتار الحزن التى يعزفها بصوته ، تتركز نظراته فى النهاية على هؤلاء المستمعين إلى اليسار — صمت مطبق . لا شيء هناك أيضاً سوى الصمت والانتباه تماماً إلى صوته . كل واحد مشغول بالاستماع . . يدخن أو يشرب فى صمت . صمت طويل لا نهائى . صمت يكسر القلوب ويلغى كل شيء ويفسح كل مكان إلا للانفعالات . إن وجه عبد الوهاب يستدير مرة أخرى قاطعاً المسافة من اليسار إلى اليمين ، ولكن . . لكن . . هذا الوجه . . هذه المرأة .. لا شيء فى وجهها سوى الوقار ، الصمت مع الوقار ، الانتباه مع الوقار . إن عينى عبد الوهاب تتركزان عليها لحظة ، ثم لحظة ،

ثم لحظة أخرى . إن عينى عبد الوهاب قالت لهذه المرأة كلاماً كثيراً فى تلك اللحظات الثلاث . إنه يغنى ، ويغنى ، ويغنى ، ولكن نظراته إلى وجهها تتكرر طوال الغناء . نظرات متبادلة . نظرات يبدو منها أن الاثنين قد اتفقا على إجابة ما لم يسمعها أحد . وخلال دقائق من انتهاء الغناء كان عبد الوهاب قد سأل : من هذه السيدة ؟

ـ هذه « ز » هانم . زوجة المرحوم . . . باشا !

خلال دقائق كان قد تم التعارف المبدئى بينهما . خلال أيام تم التعارف الكامل .

إن عبد الوهاب يحلل عواطفه : ما هى حقيقة شعوره الغامض نحو هذه السيدة ؟ حب ؟ بالطبع لا . إعجاب ؟ نعم . انجذاب ؟ مؤكد . اهتمام ؟ مؤكد جداً . من الطبيعى أن يكون هناك تعارف ، اهتمام ، إعجاب ، ولكن الحب لم يكن بعد عنواناً دقيقاً لهذه العواطف المتبادلة . فى الواقع أن عبد الوهاب يراجع عواطفه مرة ومرة ومرة . إنه لا يصدق أن عواطفه نحو أى امرأة يمكن أن تتغير بهذه السهولة ، إن المرأة عند عبد الوهاب هى جنس بأكمله ، طابور طويل من اللائى تتشابه وجوههن وأجسامهن وأغراضهن . طابور مطبوعة صورته فى ذهنه منذ تلك الليلة التى حاولت فيها امرأة مومس خطفه من الشارع .

إنه الآن يحاول أن يتذكر . آه . . مضبوط . . كان عائداً من نادى الموسيقى الشرقى فى الأزبكية إلى منزله فى باب الشعرية . كان هذا منذ سنوات ، ولكن الحادث أصبح الآن حياً فى ذهنه كما لو كان قد وقع منذ دقائق . لقد اختار ـ بدافع السرعة ـ أقصر طريق إلى منزله . إن أقصر طريق وقتها لابد أن يمر على حى البغاء بجوار الأزبكية . وفى إحدى حارات هذا الحى أفاق على صوت امرأة تناديه فى أثناء سيره : « انت يا افندى! تعال يا فندى . . ! تعال والثمن بسيط . .

ليلة كاملة بخمسة قروش ! . . ليلة كاملة بخمسة قروش » والتفت محمد ليجد امرأة « . . فظيعة فظيعة فظيعة» . هذا تعبيره هو . تعبيره أيضاً : « إن اللون الأحمر فى وجهها طاغ بشكل وقح» . إن كل الشيء فى شكلها ينطق بأنها مومس من بعد عشرين كيلومتراً . إن الوجه دميم والألوان صارخة والملابس مبتذلة والكلمات ممطوطة والشحم فوق جسمها يهتز ، والفريسة فى عينيها تبدو سهلة . إن محمد عبد الوهاب هو الفريسة المنتظرة ، وهى نفسها – المرأة المومس – هي الصائد الذى اقترب منه فأصبح على بعد عشرين سنتميتراً . إن المرأة تكرر من جديد « ده سعر مخصوص عشان انت باين عليك تلميذ . . تعال يا فندى ادخل» .

ولكن محمد لم يحس بأنه يريد أن يدخل . إنه فقط يريد أن يتقيأ ، أن يصرخ ، أن يجرى ، أن يفر هارباً . إن المرأة أمسكت بيده التى كانت تحمل بالصدفة كراسة بها صورة لسيد درويش . صورة ينوى محمد أن يصنع لها إطاراً ويعلقها فى حجرته . إن المرأة المومس تجذب يده . . وهو يعتذر بلطف . إنها تجذب من جديد . . وهو يعتذر . إنها تجذب أكثر . . وهو يصيح . بعد لحظة واحدة لم يعد يصيح ، أصبح يفر ، يجرى . . إنه يجرى متنازلا عن ثروته : صورة سيد درويش . إنه يجرى ويجرى إلى أن يصل إلى منزله . ليلتها لم ينم محمد إلا بعد أن تقيأ . من ليلتها لا يفكر فى المرأة إلا على أنها تكرار لجنس بأكمله تمثله تلك المرأة التى تبحث عن فريسة بأرخص الأسعار . إنه يحس دائماً أنه مع المرأة يحتاج إلى حارس ، إلى أب ، إلى أم ، إلى شيخ « حسن » يقف بجانبه ويحميه .

إن السنوات التى قضاها بعد ذلك تؤكد له هذا الإحساس . إنه خلال عمله مع فرق الريحانى والكسار ومنيرة المهدية لم يكن يسمع إلا عن نماذج أخرى مخففة من تلك المرأة . يسمع عن امرأة وضعت السم لمطرب حتى يفقد صوته ، امرأة حرضت الأرواح والجن ضد

مطرب حتى يصاب بالشلل ، امرأة تستعين بالشياطين لكى تصيب حبيبها الغادر بالجنون . وكلما سمع قصة جديدة – إشاعة جديدة – قفزت إلى ذهنه تلك الصورة القديمة للمرأة التى حاولت خطفه ليلا منذ سنوات .

– ولكن « ز » هانم امرأة لا ككل النساء !

هكذا يسمع عبد الوهاب من كل من استدرجهم للحديث عن (ز . .) هانم . إنها غير كل النساء . . نعم . هو نفسه بدأ يحس ذلك . إن وجهها هادئ ، مريح ، مثير للاطمئنان ، جميل ولكن بهدوء ، ممتع ولكن فى وقار ، معبر ولكن بصمت . إن لديها الجمال والأرستقراطية والهدوء زائد . . زائد . . زائد : خبرة الحياة . إنها فوق ذلك ليست من هؤلاء العاملين فى الفن ، ولا المهتمين بالتمثيل . إنها مهتمة فقط بالغناء بصوت عبد الوهاب . هكذا قالت له هى عندما بدأا يتبادلان المقابلات .

وفى خلال كل مقابلة بينهما يزداد إيمان عبد الوهاب بأن (ز . .) هانم هى غير كل النساء . إنها تتكلم ببطء وأحياناً بانفعال . . ولكن بخبرة . إن خبرتها تنتمى لوسط آخر لايعرفه عبدالوهاب . وسط أرستقراطى . إن أحمد شوقى قدمه لرجال الطبقة الأرستقراطية . . ولكن هذه المرأة سوف تعرفه بنساء الطبقة الأرستقراطية . إنها تفتح له ثقباً فى الحائط السميك الذى يفصله عن تلك الطبقة التى يراها حتى الآن كمتفرج . من هذا الثقب يستطيع عبد الوهاب أن يرى أشياء كثيرة : يرى العطر والماس والإتيكيت وبونجور ومرسى بيكو ومبسوط شيرى وكومونتالى فو ؟

– ترى بيان ! مبسوط . . فرحان . . سعيد جداً كلما رأيتك !

هكذا يرد عليها عبد الوهاب . هكذا تتعدد اللقاءات والأحاديث والعواطف و . . . « تيجى نتجوز ؟ ! » .

– فعلا . . لازم نتجوز . . ما دام بنحب بعض للدرجة دى . . لازم نتجوز . . بس بشرط . . .

– إيه . . ؟

– ألا يعلم أحد بهذا الزواج . . . !

– لماذا ؟

– لأن ثروتى تؤول إلى الأوقاف إذا تزوجت . . هذه وصية زوجى قبل أن يموت . . .

– فعلا . . أنا أيضاً موافق على أن يتم الزواج سرًّا ، حتى لايتصور أحد أننى تزوجتك بسبب ثروتك .

هكذا تم الزواج الأول لمحمد عبد الوهاب فى سنة ١٩٣١ . إن السيدة (ز . .) هانم لديها من زوجها السابق ثلاثة أولاد . إنها تكبره فى العمر بعشرين سنة ، وتكبره فى الثروة بعشرات الألوف من الجنيهات . ولكن لا يهم . هناك عواطف . . هناك حب . . هذا هو المهم . « . . على خيرة الله » . هكذا تمتم محمد عبد الوهاب لنفسه . إنه يردد هذه الكلمات لنفسه ، لأنه لا يستطيع أن يسأل أحداً من أصدقائه عن رأيه فى هذا الموضوع حتى لا يتسرب الخبر – مشكلة واجهته من اللحظة الأولى لعقد القران السرى الذى لا بد له من شهود . ولكن الشهود أمرهم سهل . لقد أحضرت (ز . .) هانم اثنين من خدمها ليكونا شاهدين على هذا الزواج السرى . بعد قليل تذكر عبد الوهاب أن لديه عدداً قليلا من الأصدقاء الذين يستطيع أن يثق فيهم تماماً هناك : أحمد شوقى ، هناك توفيق الحكيم ، هناك محمد التابعى ، هناك . . لا . . ليس هناك من يثق فيهم أكثر من هؤلاء الثلاثة . إذن : هؤلاء فيهم الكفاية . هؤلاء فقط هم الذين يعلمون ، وفيما عداهم ، فإن محمد عبد الوهاب لم يتزوج مطلقاً !

ولكن . . كيف يستطيع عبد الوهاب أن يحتفظ بأمر هذا الزواج سرًّا ؟ إن هناك أسرة زوجته وأسرته ، وأصدقاءها وأصدقاءه ، جيرانها وجيرانه ، إن هناك الصحف التى لابد أن تفضح السر إذا علمته ، والسهرات التى لا بد أن تكشف عن قصر زوجته إذا أقام فيه . ماذا يفعل عبد الوهاب إزاء هذا كله ؟ ماذا يفعل ؟ . .

لا شىء . لا شىء يجب أن يفعله عبدالوهاب . إنه سيعيش حياته بنفس الطريقة ، فى نفس الأماكن ، ومع نفس الأصدقاء . هذا ضرورى إذا كان على الإنسان أن يكتم أمر زواجه . إن الإنسان عندما يفكر فى الزواج يفكر فى شىء علنى ، واضح ، ظاهر للناس — يفكر فى المدعوين و« . . تهانينا للعروسين» ، يفكر فى الشربات والزغاريد والأصوات والأفراح . ولكن عبد الوهاب فى هذا الزواج يفكر فى عكس هذا كله ، ويتصرف بعكس هذا كله .

إنه ينام فى بيت أسرته كالمعتاد ، يذهب إلى معهد الموسيقى ويغنى فى الحفلات العامة كالمعتاد ، يسهر مع أصدقائه كالمعتاد ، مع أحمد شوقى كالمعتاد . ولكنه فقط — فقط — أصبح يستأذن فى الانصراف مبكراً . إنه لم يعد يسهر حتى الثانية أو الثالثة فى الصباح . إنه يسهر فقط حتى العاشرة ، بالكثير العاشرة والنصف ، بعدها يستأذن فى الانصراف . إنه ينصرف ذاهباً — فى تكتم شديد — إلى قصر زوجته . فى القصر تكون السهرة الحقيقية لعبد الوهاب . السهرة مع زوجته . إنه معها كل ليلة فى قصرها ، ولكنه لا بد أن ينصرف فى الصباح المبكر عائداً إلى منزله هو لكى ينام هناك . لا بد أن ينام هناك . ضرورى . بهذا — وبأشياء أخرى كثيرة — يضمن عبد الوهاب أن زواجه سيظل سرًّا لا يعلمه أحد .

إن عبد الوهاب إذا لم يرد على التليفون فى قصر زوجته ، إذا لم يثرثر الخدم ، إذا لم يتكلم توفيق الحكيم ، إذا لم يكتب محمد التابعى ، إذا حرص

شوقى ، إذا سكت الأولاد ، إذا جاء إلى المنزل متأخراً . إذا انصرف فى الصباح مبكراً ، إذا لم تتنبه الصحف ، إذا كانت الكلمات قليلة ، إذا لم تتناثر الإشاعات ، إذا كان الإنكار صريحاً ، إذا كان القلب كتوماً والعقل حريصاً والأصدقاء محل ثقة ، إذا أغمضت أمه عينيها ، وأغلقت زوجته فمها ، إذا لم تسقط كلمة « زوجتى » على لسانه سهواً . . فإن الأمل مستمر فى أن يظل هذا الزواج سراً لا يعلمه أحد !

بهذه المحظورات فى عقله . . كان عبد الوهاب يذهب إلى قصر زوجته كل ليلة . إنه يأتى إلى القصر بعد يوم طويل من العمل الشاق والغناء المستمر والتدريب المتواصل ، يأتى كشبح . . ويخرج كشبح . فى الصباح المبكر حينما نراه خارجاً من القصر . . فإنه يبدو أحياناً مثل قمر قبل أيام قليلة من احتجابه ، غالباً نصف وجهه مغطى خوفاً من البرد ، بشعره المتراجع إلى الوراء فوق رأسه ، ونظارته التى تأخذ دور القناع فوق عينيه ، ووجه لا يبدو منه غير نصف ملامحه . أما الجزء الذى ما يزال منظوراً من وجهه فهو فى الحقيقة شاحب بشكل ما ، ناطق بالإجهاد . . مع أنه لم يفقد شيئاً من لطفه ووداعته المعهودة . إن البالطو المحكم يغطى جسمه من القمة إلى القاع . جواربه مليئة بالتجاعيد ، رباط الرقبة مدلى إلى أسفل . هكذا يتحرك عبد الوهاب خارجاً من قصر زوجته . وبمجرد أن يغادر سور القصر — الذى يقع فى حى الزمالك — فإن عبد الوهاب يعود إلى الأضواء من جديد . إنه يصبح فجأة : عاقلا وطبيعياً وبشوشاً ومقبلا على الحياة بغير تكتم . إن ما كان عبد الوهاب يفعله داخل القصر هو زواج . . لأن الأوراق الرسمية تقول ذلك ، ولأنه لا يوجد اسم آخر يمكن أن نطلقه عليه . إنه فى داخل القصر يعيش فى دنيا مليئة بالأحلام . دنيا دافئة ، حنون ، رقيقة ، مليئة بالعواطف . إنه فى داخل هذا القصر يجد امرأة تعطيه حنان الأم وعواطف الزوجة . وحين يخرج عبد الوهاب من السور

تنتهى الحقيقة ويبدأ التكتم . حيث تنتهى الحقيقة يبدأ الفن ، وحيث ينتهى الفن يبدأ الزواج ، وحيث ينتهى الزواج تنتهى الحقيقة ويبدأ الفن من جديد . تبدأ العلانية ، يبدأ الضوء ، يبدأ الهواء الطلق . . ويختفى التكتم . إن عبد الوهاب زوج سرى . . ولكنه يريد ذلك . إن التكتم قد يسحب من الشخص العادى نصف متعته ، ولكن عبد الوهاب ليس شخصاً عادياً . إنه فنان، إنسان فنان ، وهذه حياته الخاصة التى يجب على أى حال ألا يحشر الناس أنوفهم فيها . إن العواطف والحنان والحب والغرام متبادلان بينه وبين زوجته ، وهذا كل ما يريده .

ولكن . . ليس كل ما يريده الإنسان مضمون التحقيق

لم يكن ما يريده عبد الوهاب مضموناً أكثر من سنوات قليلة . إن كل سنة تمر كانت تضاف إلى رصيد محمد عبد الوهاب الفنان وتخصم من رصيده كزوج . إن المستمعين يستمتعون بأغانيه . والجمهور يضمن النجاح لأفلامه . الآن أصبح عبد الوهاب يملك ميكروفون الإذاعه أمام صوته وعدسة السينما أمام وجهه كوسائل إضافية لإمتاع الجمهور . قبل الإذاعة والسينما كان عبد الوهاب يكسب الجماهير ألفاً ألفاً . بعد الإذاعة والسينما أصبح يكسب الجماهير مليوناً مليوناً . بعد كل أغنية جديدة ، بعد كل فيلم جديد ، أصبح عبد الوهاب يقفز عشرين خطوة إلى الأمام . إنه الآن أصبح غيره منذ خمس سنوات إنه كمطرب أصبح صاحب شهرة . كملحن أصبح صاحب أسلوب ، كنجم أصبح صاحب جمهور ، كرجل أصبحت له معجبات . آلاف من المعجبات . إن كل زيادة فى رصيد معجباته تشهد تطوراً فى عواطف زوجته .

إن الزوجة التى قبلت منذ سنوات أن يكون الزواج سراً .. أصبحت الآن لا تقبل ذلك . إن الحب بدأ يترك مكانه شيئاً فشيئاً لتحل محله

الغيرة . غيرة زائدة . إنه يذهب إلى سهرة مع أصدقائه ليفاجأ بتليفون يسأل عنه ، وصاحب الدعوة ينادى عليه « الهانم تطلبك على التليفون» .

إنه يذهب إلى حفلة ليحييها فيفاجأ قبل انتهائها بسيارة منتظرة على الباب حاملة رجاء زوجته بالإسراع فى العودة إلى القصر . إن الدقائق الخمس التى يتأخرها بدأت تصبح فى نظر زوجته ساعة كاملة . إن الفن الذى كان مستقبلا له أصبح فى نظر زوجته عذراً للسهر مع المعجبات . إن . . إن . . إن . . إن الطلاق أصبح لا مفر منه !!

هكذا قرر عبد الوهاب بعد عشر سنوات من الزواج . لقد وجد فى هذا الزواج إعجاباً وحباً وحناناً وأمومة . . ولكنه أصبح فى النهاية لا يجد غير الغيرة . إن الأسوأ من ذلك أنها غيرة لا علاج لها . إن لها — فى الحقيقة — علاجاً واحداً ، وهو أن يضحى عبد الوهاب بفنه .

إن المشكلة هى أن زوجته تتخذ لنفسها خصماً أكبر منه : الفن . إنها لن تستطيع أن تدخل نفسها فى منافسة مع بنات ١٧ ، ١٨ سنة . منافسة خاسرة . لهذا فإن الحل فى رأيها هو أن تفرض على زوجها « حظر تجول » ! إنها لم تعد تريد أن يكون الفن بالنسبة له دنيا كاملة يعيش فيها ، ولكنها تريد الفن بالنسبة له وظيفة تبدأ فى ساعة محددة وتنتهى فى ساعة أخرى محددة . مستحيل . إن حب عبد الوهاب لزوجته يجعله ينزل عن كل شىء إلا شيئاً واحداً : الفن . فلا الزوجة ، ولا الثروة ، ولا العالم كله . . يستطيع أن يساوى فى نظر عبد الوهاب التضحية بفنه .

لهذا كله — ولأسباب أخرى كثيرة — كان لا بد فى النهاية من النتيجة التى لا مفر منها : الطلاق .

هكذا — بعد عشر سنوات — وضع عبد الوهاب خاتمة الزواج الأول فى حياته .

ومثلما ولد هذا الحب – هذا الزواج – فى صمت . . فإنه أيضاً مات فى صمت . فحتى الآن لا أحد يعلم قصة هذا الزواج غير توفيق الحكيم ومحمد التابعى . .

* * *

وبالرغم من أن الزوجة الثانية فى حياة عبد الوهاب لم تدخل حياته إلا بعد ثلاث سنوات أخرى ، فإنه فى خلال تلك السنوات الثلاث (٤١ – ١٩٤٤) الفاصلة بين طلاقه وزواجه . . دخلت حياته امرأة أخرى من بعيد . من لبنان . لقد أصبحت نصف زوجة ، أوعلى الأصح ، قطعت نصف الطريق فى الزواج بعبد الوهاب ، ولكن شيئاً أكبر من الاثنين حال دون إتمام الزواج فى النهاية .

إن هذه المرأة كانت موجودة فى حياة محمد عبد الوهاب من قبل . . حينما تعرف عليها مع زوجها عند أحمد شوقى قبل وفاته . ولكنها فى تلك الفترة كانت متزوجة ، وأمًّا ، ومسيحية وتعيش فى بلدها لبنان . بالطبع لا الزواج ولا الأمومة ولا الدين ولا لبنان تمنع المرأة من الإعجاب بمطرب تعشق صوته ، لهذا كان الإعجاب يقفز إلى السطح فى كل مرة تحضر فيها هذه السيدة اللبنانية إلى القاهرة مع زوجها الوزير اللبنانى . إن الشعور بالإعجاب بينها وبين عبد الوهاب ينمو ويتطور مع مرور الوقت – إلى عواطف أخرى كثيرة . عواطف مع وقف التنفيذ .

إن أحداً من أصدقاء الطرفين لم يلاحظ ذلك وقتها سوى مكرم عبيد ، الذى كان صديقاً حميماً لعبد الوهاب . . وصديقاً حميماً للوزير زوج السيدة اللبنانية أيضاً .

وعندما طلق عبد الوهاب زوجته الأولى فى سنة ١٩٤١ كان زوج السيدة اللبنانية قد توفى فجأة منذ أشهر بالرغم من أنه لم يكن كبيراً فى السن . هنا وضع مكرم عبيد النقط فوق الحروف قائلا لعبد الوهاب :

لماذا لا تتزوج هذه السيدة اللبنانية ؟ إنها جميلة جداً ، ممتازة جداً وفوق ذلك فهى تحبك جداً ؟ !

– ولكنها مسيحية . . .

– وماله .. ؟ لا شيء يهم سوى مشاعر كل منكما نحو الآخر

ولكن مكرم عبيد كان مخطئاً . فبعد قليل رفضت الكنيسة فى لبنان أن توافق على السماح للسيدة اللبنانية بالزواج من محمد عبد الوهاب . فى الواقع أنه أصبح واضحاً أن هذا الزواج لو تم فسوف تحرم هذه السيدة من حضانة أولادها . النتيجة : لا زواج .

* * *

إن شريط الذكريات فى عقل عبد الوهاب يتتابع . لقد مر شريط الزوجة الأولى . لقد انتهت ذكرى المرأة التى قطع معها نصف الطريق إلى الزواج ، والآن يتذكر قصة زواجه الثانى بالسيدة إقبال نصار . إنه يتذكر أيضاً الفيلا التى استأجرها فى شارع الهرم لتكون بيتاً لزوجته الثانية ، ويتذكر أخيراً ليلة عقد القران نفسها . ليلة حضرها المدعوون دون أن يعلم واحد منهم أن المناسبة هى زواج عبد الوهاب .

فى الواقع أن الجميع انصرفوا تلك الليلة فعلا ، وهم يتصورون أن مناسبة الحفل هى افتتاح البيت الجديد ! لماذا يا عبد الوهاب ؟ لماذا التكتم والسرية هذه المرة ؟

– لأننى فى هذه المرة أيضاً كنت أريد ذلك !

هذا كل شيء . هذا كل شيء من وجهة نظر عبد الوهاب . لقد أصبح بحكم العادة : زوجاً سرياً ! بالطبع هناك منطق دائماً فى الاحتفاظ بالحياة الشخصية بعيداً عن متناول الناس ، ولكن عبد الوهاب ليس واحداً عادياً من الناس . إنه شخصية عامة ، والشخصيات العامة هى

دائماً ملكية عامة . لهذا لم يكن غريباً أن تنفرد جريدة « أخبار اليوم » ذات صباح بنشر القصة الكاملة لزواج عبد الوهاب من السيدة إقبال نصار . . برغم أنف عبد الوهاب ، وبرغم تكتمه الشديد لكل ما يتعلق بزواجه .

ومع مرور السنوات لم يعد الجمهور يعرف فقط أن عبد الوهاب متزوج بإقبال نصار ، وإنما أصبح أيضاً أباً لخمسة أبناء وبنات أنجبهم خلال هذا الزواج الذى استمر اثنتى عشرة سنة . لقد أنجب عبد الوهاب ثلاث بنات وولدين عائشة (إش إش) ، عفت (فت فت) ، عصمت (تم تم) ، محمد ، وأحمد .

لقد حصل عبد الوهاب من زواجه الأول على عاطفة يفتقدها ، وحصل من زواجه الثانى على أولاد يحبهم .

إن عبد الوهاب يحب نفسه ، ويحب أولاده كجزء من نفسه ، ولكنه مع ذلك لم يوفق فى زواجه الثانى؛ لهذا تم الطلاق بعد ١٢ سنة من الزواج والأولاد .

بالطبع نستطيع أن نتصور أن الطلاق ليس أمراً عادياً ، ولا هو أمر يثير السعادة لدى أى إنسان يريد جواً من الاستقرار . عبد الوهاب يريد الاستقرار . لهذا نستطيع مرة أخرى أن نتصور الحالة النفسية التى كان يجتازها عبد الوهاب عقب طلاقه سنة ١٩٥٧ . حالة سيئة .

فى هذه الحالة بالضبط التقى عبد الوهاب بنهلة القدسى ؛ وكانت وقتها زوجة لسفير الأردن فى أمريكا .

إن عبد الوهاب لم يرها فى أمريكا . . رآها أولا فى دمشق ، ثم بعد ذلك فى بيروت . وعندما وقع طلاق نهلة من زوجها لم تكن هناك أية عواطف بعد بينها وبين عبد الوهاب . إن العواطف جاءت فيما بعد ، فى بيروت وفى دمشق وفى القاهرة .

إن أسرة نهلة لم توافق فى البداية . إن الأسرة كلها معجبة بعبد الوهاب كفنان منذ سنوات وسنوات .

الإعجاب نعم . الزواج . . لا .

ولكن نهلة قالت : نعم . بهذه الكلمة بدأ الزواج الثالث فى حياة عبد الوهاب !

إن عبد الوهاب لا يخشى من المقارنة بين الزوجات الثلاث . إن الكلمات تخرج من فمه لتقرر فى بساطة : « . . أن الحب كان موجوداً فى الزيجات الثلاث ، ولكن العنوان المناسب لمشاعرى فى الزواج الأول هو : الابن . فى الزواج الثانى الأب . فى الثالث : الزوج » .

بالطبع . . عبد الوهاب كان زوجاً فى المرات الثلاث . ولكنه يريد أن يقول إن حنان الأم كان أهم عاطفة حصل عليها من زواجه الأول ، وإن عواطف الأب أهم شعور خرج به من الزواج الثانى ، أما عواطف العاشق . . فكلها محجوزة لحساب الزواج الثالث .. الذى يربطه الآن بنهلة القدسى .

إن نهلة القدسى تدخل علينا الآن . إن نظراتها تحمل معنى الاطمئنان : هل كل شخص سعيد ؟ هل كل شخص يتنفس بحرية ، ويجلس بهدوء ؟ هل المدفأة تعمل جيداً ؟ هل درجة الحرارة مناسبة ؟ هل جاءت القهوة لثانى مرة ؟ الآن . . هى اللحظة المناسبة لهذا كله . ما لم توجد نهلة فلن يسألك عبد الوهاب شيئاً من ذلك . إن عبد الهاب ،ريدك ضيفاً له ، وليس عبئاً عليه .

إنه يريد منك أن تتكلم ، تناقش ، تشرك ، تستمع ، ولكن بغير أن تتوقع منه الدعوة لذلك . إن عبد الوهاب مهتم بعبد الوهاب . مشغول بعبد الوهاب . هذا يكفى . إن عبد الوهاب عبء ثقيل على من يهتم به . . فإذا اهتم هو بنفسه فهذا أقصى ما يستطيع . لا تطلب

منه أكثر من ذلك . لا تتوقع منه أيضاً شيئاً غير ذلك . إن عبد الوهاب فنان . والفنان لديه دائماً دنياه الخاصة فى داخله . أنت لست طرفاً فى هذه الدنيا ، ولست ركناً من أركانها . هل هذا مفهوم ؟ هل هذا واضح ؟ هل كل شىء على ما يرام ؟

– طبعاً كل شىء على ما يرام يا حبيبتى . . !

هكذا يتمتم عبد الوهاب لنهلة . إنها تضحك . إنها تفهم . إنها تجلس فى نفس حجرتنا التى يضيئها زوجان من الأباجورات وعدد إضافى من اللمبات الكهربائية المتناثرة فى الصالون . صالون أخذ الآن شكلا مختلفاً منذ جلست فيه نهلة . هذا طبيعى . إن نهلة شخصية اجتماعية . إنها لا تستطيع أن تتنفس إلا وسط مجتمع . نحن الآن – عبد الوهاب وأنا – هما المجتمع . إنها تستقر وسط المجتمع ، وتستقر فى كرسى الصالون المريح ، جالسة فيه بزاوية قائمة تماماً . إن الفساتين الطويلة الضيقة لا تسمح بغير الزاوية القائمة تماماً . إن فستان نهلة طويل ، منقوش ، بسيط ، بلونين اثنين يطغى عليهما لون الرمل . إنها تضع على كتفيها بلوفراً من الصوف ، فجو القاهرة الليلة وصل إلى خمس عشرة درجة مئوية . إن المدفأة فى بيت عبد الوهاب تجعل الحرارة أعلى من ذلك قليلا ، وحديث عبد الوهاب نفسه يجعل الحرارة أكثر ارتفاعاً ، ولكن النشرة الجوية التى قرأتها فى الصباح ما زالت تقول إن درجة الحرارة خمس عشرة فقط . ما زالت نهلة تجلس . ما زالت يداها تتحركان . يد تحمل فى أحد أصابعها خاتم الزواج العريض . خاتم من الذهب اشتراه عبد الوهاب من باريس . إن اليد اليمنى تحمل سيجارة مشتعلة تساعد نهلة فى الحديث . الآن تنهض نهلة لتعيد الولاعة إلى مكانها . إنها حينما تقف – نهلة – تبدو طويلة بعض الشىء ، بيضاء ، بعينين عسليتين ووجه معبر وشعر أسود فاحم مستقيم ممشط إلى الخلف من مكان مركزى فى مؤخرة عنقها – أنشوطة فى رأسها .

إن هذه التسريحة البسيطة لشعرها تشكل منظراً جانبياً لتناسق مدهش . . كلاسيكى غالباً . إن ابتسامتها سخية — أكثر سخاء من عبد الوهاب . ابتسامة تومض فجأة عبر وجهها مؤدية إلى تجعيد حول عينيها الواسعتين . إنها لا تتحدث بسرعة ، ولكن بحيوية ونشاط كبيرين . . بقليل من الإشارات ولكن بحركة طارئة من يديها . ما زالت السيجارة فى إحدى يديها . إنها تضع نقطاً فى حديثها بالضغط صوتياً والتوقف لحظات بين كل جملة وأخرى . عبد الوهاب هادئ جداً . . هكذا تقول نهلة ، ثم تسكت . نقطة . صبور جداً . نقطة . حليم جداً . نقطة . أحياناً أتمنى أن يتشاجر معى مرة . نقطة . هذا لا يحدث أبداً . نقطة . هذه ميزة كبيرة جداً فيه . مجموعة نقط . بعدقليل سوف يتعشى عبد الوهاب .

عبدالوهاب هادئ فى كل شىء . . إلا فى الفن . فاصل . التليفون يدق .

عموماً . . فإن نهلة القدسى — الآن تضحك فى التليفون — هى شخصية مؤثرة . إنها تبدو أنسب الزوجات لفنان طموح . إن حسنها يتركز فى حيويتها المتدفقة ورقتها الظاهرة ودبلوماسيتها أحياناً . لقد انجذبت إلى مطرب فنان منظم دقيق جاد — فى الحقيقة بعض صفاته هى العكس تماماً من صفاتها .

إن نهلة تملك مزيجاً من الظرف وخفة الدم والمرونة والإيجابية والبساطة و — الآن تضحك من جديد . إن من المتكرر بالنسبة لها أن توفق بين الحركة الظريفة ليديها ورقبتها ورأسها الأنيق وتعبيرات وجهها الجذاب . . وبين الكلمات التى تتابع فى حديثها ، مهتزة أحياناً ومتقطعة فى معظم الأحيان .

وبينما حديثها منساب وواضح ، فإنها مع ذلك تقاطع نفسها ، بنوع من الاهتمام العقلى ، بهدف تحسين أو تعديل جملة قالتها فعلا

منذ لحظة « . . أول مرة سمعت عبد الوهاب كان يغنى فى بيروت » . تعديل : « أول مرة رأيت عبد الوهاب يغنى كنت مع عشر سيدات » . إضافة : « كان عبد الوهاب يدندن لنا على العود فى غرفته بالفندق ، الأغنية هى قولى عملك إيه . . قلبى . وكنت أستحثهن على الانصراف . لماذا ؟ لأن لدى ما أشتريه من محلات الأزياء . . » .

هكذا تستمر نهلة فى الحديث عن ذكرياتها الأولى مع عبد الوهاب . إن الذكريات تقاطع بعضها بعضاً أن نهلة تقول الجملة ثم تبدأ من جديد فى التعبير عن نفسها بمزيد من الدقة : « . . شخصية عبد الوهاب هى التى شدتنى إليه قبل غنائه . الآن فنه وشخصيته معاً . . إن عبد الوهاب زوج مثالى . زوج مخلص وفى . . إن الحيوية هى أهم صفات عبد الوهاب . . . الحماس هو صفته الثانية . . إنه متحمس حينما يعمل ، حينما يأكل ، حينما يحب ، وفوق هذا فإنه . . . » . إن نهلة مستمرة فى الحديث فى رشاقة وظرف . إنها خلال حديثها تمسك أحياناً بسؤال أو حتى بكلمة واحدة . . لكى تلتقط منها بداية حديث ممتع ، حديث يتم غالباً فى شكل جمل قصيرة غير متتابعة تفصلها لحظات قليلة من الصمت . لحظات هدفها معرفة رد الفعل على وجهك . إنها — فى لحظات أخرى مثيرة للبهجة غالباً — تكشف عن روح فكاهية تتميز بها المرأة المصرية ، مع أن نهلة نفسها سورية الأصل أردنية التربية مصرية الزواج . الزوج الأول أردنى ، الثانى مصرى . عبد الوهاب هو الزوج الثانى ، ولكن عبد الوهاب بالنسبة لها ليس مجرد زوج . إنه زوج زائد شخصية ، زائد فن ، زائد سعادة .. بفن . إن كل شىء فيه هو انعكاس لفنه ، وعامل مساعد لفنه — حتى حب عبد الوهاب لنهلة هو واحد من العوامل المساعدة لفنه .

إننى أسأل عبد الوهاب : ماذا تحب فى نهلة ؟

وهو يرد : أحب فيها التعاون . .

ــ أنا أسألك عن زوجتك وليس عن شركة مساهمة !

ــ الزواج أيضاً شركة مساهمة !

ــ فلنترك الزواج إذن ونتكلم فى الحب . .

ــ أنا أحب فى نهلة تعاونها معى فى تحقيق سعادة كل منا .

ــ وكيف تتحقق سعادتك أنت فى الحب ؟

ــ تتحقق بشعور كل منا أن وجوده قد تضاعف بوجود الآخر .

* * *

هكذا إجابات عبد الوهاب . بعد بقليل ربما أستمع إلى وجهة نظر نهلة . إن عبد الوهاب ونهلة يصلان أحياناً إلى حد التطابق بين مفاهيم كل منهما للحب والزواج . فى الواقع أن هذا هو ما تسميه نهلة بـ « التفاهم » الضرورى لأى زواج سعيد . إن التفاهم هو فى رأيها أهم شرط فى الزواج ، واختفاء الملل أهم شرط فى الزواج السعيد .

إن الزوجين يعلنان حل مشكلة عويصة تواجه الزواج العصرى . لقد اكتشفا الحل ومارساه وحصلا على نتائجه التى تكشف عنها إجاباتهما المتطابقة . برافو !



الفصل السادس

الحب.. فى أغانى الحب!

أسطورة إغريقية : الإنسان خلق أصلا من جنس واحد . لم يكن هناك رجل . . وامرأة . هناك فقط إنسان واحد : بأربع أقدام ، بأربع أيد ، برأسين وعقلين . . وقلبين .

ولكن هذا المخلوق الضخم عندما أحس بقوته الهائلة بدأ يتمرد على الآلهة . ساعتها غضب الإله الأكبر على الإنسان ، فقرر أن يعاقبه . العقوبة هي أن يقسمه إلى شطرين ، إلى نصفين ، إلى ذكر وأنثى ، رجل وامرأة . . كل منهما بقدمين ويدين ورأس واحد و . . قلب واحد !

قرار آخر من الإله الأكبر : إن كل نصف منهما سوف يظل محتاجاً إلى نصفه الأصلى . . يبحث عنه . . ويسعى إليه . وفى مقابل ذلك قرر الإله الأكبر تعويضاً جديداً . فمن كان مطيعاً للآلهة ولا يتمرد عليها . . فإن الآلهة سوف ترشده إلى نصفه الآخر ، إلى المرأة التى تكمله ، التى كانت فى الأصل نصفه الثانى . . وبذلك – يجد حبه الحقيقى . أما لو تمرد على الآلهة . . فسوف يظل مدى حياته يبحث عن نصفه الضائع . . بلا جدوى !

* * *

والذى تريد هذه الأسطورة الجميلة أن تقوله بسيط : إن الإنسان «محكوم» عليه بالحب . إن البحث عن الحب هو العقاب ، والعثور على الحب هو المكافأة . إن الضعف مستمر . . ما دام النصف الآخر مختفياً ، النصف الأصلى ، الحب الحقيقى . والقوة تبدأ حيث يبدأ التكامل ، حيث يبدأ الحب . وحينما نحب فإننا لا نحب « طرفاً » آخر . . وإنما نحب نصفاً آخر يعيد إلينا نصفنا الضائع .

والذى تقوله الأسطورة أيضاً هو أن الحب ولد مع الإنسان نفسه .

إنه قرار اتخذته الآلهة يوم اختارت أن يكون هناك رجل . . وامرأة . إن الحب هو مكافأة ، هو قوة ، هو رجوع إلى الأصل ، هو نهاية للحرمان والشقاء والبؤس والضياع والضعف والعقاب .

من أجل هذا كان الإنسان يبحث دائماً عن الحب ، يتخيل له آلهة أحياناً ، ويقيم له التماثيل أحياناً ، ويقع فيه باستمرار ، ويتغنى به دائماً ، ويمارسه فى جميع الأحوال .

وحينما نمارس الحب أو نتكلم عنه أو نغنى له : فإننا فى الواقع نعبر عن الدرجة التى وصل إليها تطورنا العقلى نفسه . فلأن الحب هو حصيلة نمو ثقافى . . ولأنه مرآة لنظرة المجتمع إلى علاقة الرجل والمرأة . . فإن أغانى الحب تصبح بدورها مرآة لتطور مفهوم المجتمع لهذه العلاقة فى إحدى صورها الرئيسية .

وإذا اتفقنا على ذلك فإننا سوف نجد على الفور أن تطور أغانينا فى خلال الخمسين سنة الأخيرة . . هو تطور مساو بالضبط لتطور أخلاقياتنا بوجه عام ، ونظرتنا إلى الحب بوجه خاص .

مثلا ، قبل محمد عبد الوهاب ، كانت الأغانى المنتشرة تردد : « بعد العشا . . يحلا الهزار والفرفشة » ، وتردد : « أنا وانت يا روحى جوا الدهبية . . نلعب على كيفنا . . ونرخى الناموسية » . وكانت الأغانى تقول على لسان — أى فتاه : « أوعي إيدك يابن الإيه . . من بعيد كده واتفرج » ، وتقول على لسان امرأة أخرى :

ارخى الستارة اللى فى ريحنا   لا حسن جيرانك تجرحنا
يا فرحانين يا مبسوطين يا مزقططين يا احنا
دلوقت أنا بس اللى ارتحت   لا حد فوق ولا حد تحت
يعرفنى جيت ولا روحت   ولا حدش يقدر يلمحنا

إن هذه الأغانى — وغيرها كثير — لم تكن تتحدث عن حب . كانت تتحدث عن جنس . عن هيستيريا جنسية . عن غريزة . .

لا عن عاطفة . عن شهوة . . وليس عن شعور . إن الفارق بين الاثنين خطير . إن الجنس لا يميز ولا يفرق . . فهو يريد أى امرأة ، بينما الحب يختار . الجنس هو اهتمام « بجسم » آخر . . بينما الحب هو اهتمام « بشخصية » أخرى . والرجل الذى تحكمه غريزته الجنسية يبحث عن امرأة يمتلكها . . بينما فى الحب لا تستطيع أن تمتلك . تستطيع فقط أن تنتمى .

ولأن الجنس غريزة عامة ، بينما الحب عاطفة شخصية . . لأن الجنس شهوة ، والحب عاطفة . . لأن الجنس موجود فى الإنسان والحيوانات . . بينما الحب موجود فى الإنسان فقط . . فإن الأغانى فى أى مجتمع لا تستطيع أن تستبعد الرموز الجنسية إلا إذا كان المجتمع قد وصل إلى درجة كافية من النمو الثقافى . درجة لا يتصرف فيها أفراد المجتمع بغرائزهم . . ولكن بعقولهم ، بقلوبهم ، بعواطفهم .

ولكن المجتمع لا يعبر المسافة بين الجنس والحب فى خطوة واحدة ، ولا يصل إلى فهم ناضج للحب فجأة . لهذا نجد أن أغانينا تعكس هذا الانتقال ببطء ، وأغانى محمد عبد الوهاب — كجزء رئيسى من أغانينا — تعكس هذا التطور واحدة واحدة .

إننا — من البداية — نلاحظ كثرة انتشار أغانى الحب من أول نظرة . محمد عبد الوهاب مثلا يغنى « شبكتنى فى حبك نظرة . . شغلتنى من غير ما ادرى »[1] إنه يتساءل « كل ده كان ليه .. لما شفت عنيه »[2] . وهو يقرر : « أنا اللى طول عمرى ما حبيتش . . حبيت لكن ازاى ما اعرفش »[3] .

---

(١) أغنية « كان أجمل يوم » — كلمات حسين السيد .

(٢) كلمات مأمون الشناوى .

(٣) كلمات حسين السيد .

إن الحب هنا يتم فى شكل حادث يقع فجأة . الحب هنا يبدأ فى بساطة من نظرة شبكت فجأة بين رجل وامرأة . إن العواطف كلها . . المتعة كلها . . تبدأ من نظرة . إن هذا ليس أمراً طبيعياً اليوم . لا هو طبيعى ولا مقبول ولا ممكن الحدوث . ولكنه طبيعى ومقبول وممكن الحدوث فى مجتمعنا منذ سنوات ، ومازال متصوراً حتى الآن فى الأجزاء المتجمدة من مجتمعنا . فنى مجتمع ترتفع فيه الحواجز بين الرجل والمرأة . . ينتشر الحب من أول نظرة . إن المرأة تسير بحجاب فوق وجهها ورقيب فى ذيلها وإشاعة تنتظرها ، والرجل لا يستطيع أن يتحدث إليها أو يتعرف بها فى ظروف عادية . لهذا فإن الخيال كله – خيال الرجل والمرأة – يعتمد على نظرة مختلسة أو حركة طارئة أو صدفة غير متوقعة .

إن الناس يجب أن يقعوا فى الحب بشكل أو بآخر ، وعندما ترتفع الأسوار أمام الحب . . عندما لا يسمح المجتمع أخلاقياً بنمو الحب بطريقة طبيعية . . فإن الحب يبدأ من نظرة ، من كلمة ، من إشارة ، من همسة . إن أى منبه للقلب والعقل والخيال يصبح كافياً . . ما دامت لا تتلوه انطباعات أخرى .

وبالطبع سوف تكون للنظرة الأولى أهميتها العاطفية دائماً فى كل زمان ومكان ، ولكنى لاأتصور أن تؤدى هذه النظرة إلى الحب إلا فى مجتمع مغلق أما فى المجتمع المفتوح فإن المتصور فيه هو – بالكثير – الإعجاب من أول نظرة الإعجاب وليس الحب فحينما يسمح المجتمع بعلاقات سهلة وثابتة وطبيعية بين الجنسين ، وحينما يعترف المجتمع بشرعية التعارف بين الرجل والمرأة فى الظروف العادية . فإن النظرة الأولى تصبح هنا غير كافية لإشعال نيران الحب إن الانطباع الذى تخلقه النظرة الإولى سوف تغطى عليه وتمحوه وتطمسه الانطباعات الأخرى التالية . إن المعرفة تصبح ضرورية للحب حينما تكون ضرورية للذاكرة .

وأنا لاأقول إن الحب من أول نظرة قد اختفى من حياتنا تماماً هذه

الأيام .. ولكننى أقول إنه لم يعد ظاهرة عامة كما كان فى مجتمعنا المغلق منذ ثلاثين أو حتى عشرين سنة . وأقول أيضاً أننى استمعت اليوم إلى أغنية تتحدث عن حب من أول نظرة فإننى أحس بصدقها بالدرجة التى كان يحس بها أبى أوجدى مثلا فى أيامهم . فإذا كان جيلهم مستعداً للوقوع فى الحب من نظرة واحدة ، فإن جيلنا لم تعد تكفيه نظرة ، ولا عشرة ولا مائة إنها لاتكفيه ولا تقنعه لأن الحب لم يعد بركاناً مخزوناً من العواطف التى تنفجر فجأة . . . ولكنه شعور يتراكم ببطء وخلال نموه فلا بد أن تغذيه . المعرفة ، والثقة والمشاركة والتجربة .

ولأن الأغانى هى فى النهاية انعكاس للذوق العام والأخلاقيات العامة السائدة فى المجتمع ، فإن الحب من أول نظرة لم يعد منتشراً فى أغانينا اليوم ، ومن بينها بالطبع أغانى عبد الوهاب . إن أغانى عبد الوهاب تمثل تطوراً فى اتجاه آخر يعكس مفهوماً مختلفاً للحب انتشر فى مجتمعنا طويلا .

فالحب فى أغانى عبدالوهاب هو : « حاكم بأمره وشايل جناحه على قانونه »(١) .

إن الحب فى أغانيه : « غذاء . . فيه القلوب تحتار »(٢) وأهل الحب عنده « مساكين صابرين .. ومش صابرين ، وبيحسدوا الخالى »(٣) .

والعشاق فى أغانى عبدالوهاب لهم مقاييسهم الخاصة بهم . إن قيمة السماء عندهم هى أنها تستمع لشكاواهم ، والقمر عندهم شاهد على تضحياتهم ، والنجوم عالمة بحالهم . إنهم يستمرون فى حبهم برغم الظلم والقسوة والهجر والمرارة والعذاب والإشاعات . فلا كلام الناس ، ولا الإشاعات ولا الأقاويل تؤثر فى مشاعرهم . لهذا يقول لنا الواحد منهم عن حبيبه

---

(١) اللى يحب الجمال — كلمات أحمد شوقى .

(٢) ، (٣) أنا والعذاب وهواك — كلمات عبد المنعم السباعى .

أحبه مهما أشوف منه . . ومهما الناس قالت عنه»(١).

والعاشق منهم لا يستعين بالشرطة ولكنه يستنجد بأصدقائه فيسألنا كطرف ثالث «خي خي. حبيبي ليه قاسي ليه يا خي»(٢) وبعد السؤال يطلب منا خدمة أخرى «أمانه إن كنت تقابله . . تقوله دا الفرح ناسيني . وقوله يشاور عقله . . وينسى يومه ويجيني» . إنه عاشق تسعده كلمة ، وتشقيه كلمة ، إنه يستشهد بالليل على تضحيته ، ويستعين بالحمام على بكائه . إنه يحب رؤية حبيبه دائماً قائلا له «أحب أشوفك كل يوم . . يرتاح فؤادي»(٣) . . وفي مرة أخرى يسأله :

«. . اسمح وقوللي حاشوفك امتى وأقابلك فين»(٤) .

إن الحبيبة عند هذا العاشق هي نور العين أحياناً ، حبيبة القلب أحياناً ، حياته أحياناً ، ومنية النفس دائماً . إن جفنها علمه الغزل ، وحبها علمه البكاء ، وهجرها علمه الشكوى . إنه يحب عينيها عند ما ترعاه . . وصوتها حينما تلاغيه(٥) .

والعاشق في أغاني عبدالوهاب يفكر في من ينساه . . وينسى من يتذكره ، ويهرب ممن يشتريه .. ويبحث عمن يبيعه(٦). أن بينه وبين القمر في كل ليلة ميعاد ، يسهر معه ويشكي له ويطلب منه إن يذهب إلى الحبيب ليقول له : كفى بعاداً .

---

(١) أحبه – كلمات حسين السيد .

(٢) خي – كلمات حسين السيد .

(٣) كلمات حسن أنور .

(٤) اسمح وقولي – كلمات .

(٥) مانيش بحبك – كلمات أحمد رامي .

(٦) بفكر في اللي ناسيني – كلمات حسين السيد .

إنه يخاطب حبيبته «تعالى نفن نفسينا غراماً .. ونخلد بين آلهة الفنون».[١]

إنه يقسم لها عندما يراها .. إنها فى قلبه ، وإن طيفها كان طول الليل سهران بجانبه[٢].

إنه يقول لها : الصبا والجمال ملك يديك .. أى تاج أعز من تاجيك[٣].

ويقول أيضاً : خايف أقول اللى فى قلبى .. تتقل وتعند ويايا .. ولو داريت عنك حبى .. تفضحنى عينى فى هوايا[٤].

إن الحبيبة عنده علموه كيف يجفو .. فجفى . حبيب ظالم ، مسرف فى هجره ، لعبته الهجر والجفاء .

إنه يطلب من حبيبته أن ترد عليه .. تكلمه .. ترى عينيه .. تصدقه[٥].

إن طيفها يزوره فى يومه .. فيزيده طمعاً بالوصال ، ثم يتركه مشغولا .

إن لها عنده أحلى الكلام .. من أجمل رواية .. عن أجمل غرام[٦].

إنه يسألها « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا .. نشكو هوانا فنفنى فى شكاوانا .. تنساب فى همسات الليل أنتنا .. وتستثير شجون النهر نجوانا »[٧].

---

(١) تعالى — كلمات أحمد رامى .

(٢) حايجينى — كلمات حسين السيد .

(٣) الصبا والجمال — كلمات بشارة الخورى .

(٤) كلمات أحمد عبد المجيد .

(٥) ردى على — كلمات حسين السيد.

(٦) قوللى عملك إيه — كلمات حسين السيد .

(٧) همسة حائرة — كلمات عزيز أباظة .

إن هذا العاشق فى أغانى عبد الوهاب تختلف صوره كثيراً من أغنية إلى أغنيـــة ، ولكن إحدى صوره ثابتة غالباً : صورة العاشق الذى يحب الورد « علشان الشوك اللى فى الورد» . إنه — حتى — ينتظر — الجرح وتعذيبه . إنه يرضى بالذل فى عذاب حبيبته ، ويعتبر أن الهوان مع حبيبته معزة . إنه يجد فى دموعه هناء لها وفى عذابه تحية لحبها ، بل إنه عندما يعيش معها يكون العذاب ثالثهما .

هل الحب عذاب إلى هذه الدرجة ؟

البعض سوف يقول إن هذا كلام أغانى — وكلام الأغانى لا يلزم أبداً أن يكون صورة فوتوغرافية للواقع . صحيح . هذا الكلام لا يدل إذن على الواقع ، ولكنه — من ناحية أخرى — يدل على حالة نفسية منتشرة فى المجتمع . حالة تؤمن بأن الحب — لكى يكون حباً — فلا بد له أن يولد وسط الحزن ويستمر وسط الهجر ويترعرع فى أحضان العذاب .

إن الحب بهذا المفهوم — يكون له أحد مصيرين : الموت . . أو الاستسلام ، وعلى الإنسان أن يقبل أحدهما كبديل للآخر ، وأحياناً كثمن للآخر .

وفى ظل هذا المفهوم للحب ، فإن عمل الإنسان أن « يقع» دائماً فى الحب . إن كلمة « يقع» توحى بعمل سلبى تماماً . . غير منظور مقدماً . . ولا هو إرادى أبداً . إنه « وقوع » فى الحب . . إنه حادث مفاجئ ، انهيار كامل للحواجز التى ظلت موجودة بينه وبين طرف آخر كان غريباً عنه تماماً إلى أن « وقع » فى حبه .

وفى مثل هذا النوع من الحب يكون الخيال أكبر من الحقيقة ، والعذاب أكبر من المتعة ، والهجر مبرر لاشتعال العاطفة ، وليس سبباً فى انطفائها ، والأشواك هى دافع للاستمرار . . وليست مبرراً للتراجع .

فى مثل هذا المفهوم للحب يمكن للعاشق أن يقول: « علشان ا اللى فى الورد . . أحب الورد» . ويقول أيضاً: « أدينى صابر مهما هجرنى . . وإن شاء يجافى أخضع لأمره » .

إن هذا هو فى الواقع ليس حباً . إنه عشق . إن العاشق هنا يصل فى عواطفه نحو محبوبته إلى حد العبادة . إنه يواجه العذاب فى الحب ويصطدم بالحواجز فى المجتمع ، وحبه نفسه يعيش على وجود هذا العذاب وتلك الحواجز . فى مثل تلك الحالة لا تعبر لنا الأغانى عن عاشقين يحب بعضهما بعضاً . إنها تعبر عن عاشق يحب : الحب . عاشق يعبد الحب ويصلى له ويعيش عليه . إن الحب عنده هو حب بقدر ما فيه من أوجاع ودموع وعذاب وأنين وشكوى . إن هذا الحب ــ هذا العشق ــ لا ينمو إلا من مسافة ، وعندما لا توجد هذه المسافة فإنه يخترعها . إنه عشق يتحدث دائماً عن الحاسد « والعزول » كطرف ثالث لابد من وجوده دائماً ، ويتوقع العذاب كركن أساسى دائماً ، ويتقبل الهجر كأمر واقع دائماً .

هل هذا طبيعى ؟ منطقى ؟ معقول ؟

نعم . . ولا . نعم ، هو منطقى . . إذا فهمنا أن الشعار هنا هو «الحب للحب» . إن العاشق فى هذه الأغانى المنتشرة شعبياً يعشق الحب فى حد ذاته قبل أى شىء آخر . إن الالتقاء بحبيبته ليس مهماً إلا بقدر العذاب الذى يواجهه هو ، وبقدر العقبات التى ترتفع فى طريقه .

إن هذا يمثل تطوراً عن مفهوم الأغانى المنتشرة فى مجتمعاتنا منذ خمسين سنة . وقتها كان الشعار « الحب للجنس» . بعدها أصبح الشعار هو « الحب للحب » . الآن يجب أن يكون الشعار هو « الحب للحياة » .

إن « الحب للجنس » كان وضعاً استثنائياً لم يستمر كثيراً فى أغانينا ، ولكن « الحب للحب» كان وضعاً دائماً فى أدبنا وفنونا ــ وجزءاً من أغانينا . إن مدرسة الحب للحب أعطتنا فى الأدب أعمالا أدبية رائعة

منذ « قيس وليلى» أو « جميل وبثينة » إلى الآن . إنها أعطتنا فى الأغانى أيضاً أعمالا منتشرة — كمعظم أغانى عبد الوهاب ، السابقة ولكنها فى النهاية بدأت تترك مكانها لمفهوم آخر هو « الحب . . للحياة » . مفهوم الواقعية فى الأدب ، والواقعية فى السينما ، والواقعية أيضاً فى الأغانى .

إن هذا تطور طبيعى وضرورى حتى ولو لم ننتبه إليه . فعندما تكون وظيفة المرأة فى حياتنا هى فقط وظيفة جنسية . . يكون طبيعياً أن تخاطبها كموضوع جنسى . وعندما تكون المشاعر الرومانسية هى وحدها التى تسيطر على الرجل يكون طبيعياً أن تخاطبه كعاشق ، ولكن . . عندما تتطور مفاهيمنا فى كل شىء .. فلا بد لها أن تتطور فى الحب .. ثم فى أغانى الحب أيضاً .

إن المرأة التى تعشق ، ومع ذلك تهجر وتتدلل وتظلم وتعذب . . لم تعد هى نموذج المرأة فى حياتنا . إنها ليست أية امرأة أعرفها أو أسمع عنها أو اراها .

والعاشق الذى يحب ، ومع ذلك يرضى بالذل والهوان والأشواك والعذاب لمجرد العذاب ليس موجوداً أمامى ، ولا هو يسكن فى الشقة المجاورة ، ولا هو واحد من أصدقائى .

هؤلاء العشاق الذين تقدمهم لنا الأغانى لم يعودوا نماذج بشرية معروفة نلقاها ونشاهدها كل يوم . إنهم ليسوا نماذج نحب أن نراها وفضلا على ذلك . . لم نعد نراها .

إن ما أراه اليوم حولى ، وما يراه معى جيل جديد بأكمله — لم يعد حباً من أول نظرة ، ولا هو حب من طرف واحد ، ولا هو حب يغذيه العذاب ، و — الأهم من ذلك — ليس حباً سلبياً « نقع» فيه فجأة . إنه أيضاً لم يعد انجذاباً إلى مظاهر جسمانية خارجية نراها خلسة أو صدفة فى الطريق العام — بالطبع ما زال ممكناً دائماً أن يقع الإعجاب

فى الطريق العام — ولكن الحب أصبح مجموعة عواطف مركبة تفترض وجود مشاعر متراكمة تغذيها المعرفة .

إن ما أراه اليوم — مع الجيل الذى أنتمى إليه — هو حب تلعب الإرادة فيه دوراً قوياً . فالحب ليس معناه مجرد شعور قوى ، ولكن الحب هو وجهة نظر ، هو قرار ، هو موقف ، هو اختيار ، هو قرار بالاختيار . إننى أختار من أحبها ، ربما لا أختار من تعجبنى من أول نظرة ، ولكن إذا أحببتها بعد ذلك فهذا اختيار منى . هذا قرار بالاختيار. إن الاختيار كان موجوداً دائماً — حتى عندما كانت المرأة بالنسبة للرجل هى مجرد موضوع جنسى — ولكن الجديد فى المسألة هو أننا أصبحنا نعرف أننا نختار ، وأن اختيارنا هو حق وواجب ومسئولية . الحب نفسه أصبح مسئولية . فأن تحب معناه أن تهتم ، وأن تعجب ، وأن تعرف ، وأن تعطى ، وأن تكون مسئولا أيضاً . إن الحب فيه اهتمام ، نفس الاهتمام الموجود فى حب الأم لطفلها . . فحينما تعلن لنا الأم أنها تحب طفلها ثم لا تطعمه . . فنحن نحكم بأنها قطعاً لا تحبه . كذلك فى الحب بين الرجل والمرأة . حينما تقول لنا امرأة إنها تحب رجلا ثم لا تهتم به . . فنحن نحكم بأنها لا تحبه . الآن نقول ذلك . منذ خمسين سنة لم تكن نتوقع ذلك ، لأن الحب وقتها كان ممكناً وقوعه من طرف واحد .

ومثلما يبدأ الحب بالاهتمام ، فإنه يتأكد بالإعجاب ، وينمو بالمعرفة ، ويعيش على المسئولية ، ويتضاعف بالعطاء . لم يعد معنى الحب هو أن تأخذ فقط ، ولكن أن تعطى أيضاً . فطالما الرجل والمرأة يتعاملان فى عصرنا كرأسين متساويين — لا كسيد وخادمة — فإن علاقة الحب بين الاثنين هى معادلة متساوية الطرفين ، طريق واحد باتجاهين ، أخذ وعطاء . إننى — فى الحب — يجب أن أعطى بلا مقابل . . بغير ثمن ، بغير جزاء . إننى أعطى من نفسى من عواطفى ، من مشاعرى . فالحب أساساً ليس علاقة بشخص آخر ، بل هو أولا « شعور » نحو

شخص آخر . شخص محدد . فأنا إذا كنت أحب فتاة محددة فإننى فى الواقع أحب فيها كل الناس . وإذا كنت قادراً على أن أقول لها «أنا أحبك» فيجب أن أكون قادراً على أن أقول لها أيضاً «أنا أحب فيك كل الناس . . أحب الدنيا من خلالك . . أحب الحياة . . أحب نفسى أيضاً . لماذا ؟ لأن وجود حالة حب بين طرفين معناه فى الواقع أن كل طرف منهما يرى فى الطرف الآخر امتداداً له واستمراراً له واستكمالا له . الاستكمال هنا بمعنى التكامل . لأن التكامل يتم بين قطبين متساويين . وفى الحب لا بد أن يكون الطرفان متساويين . عندما أكون عبداً فإننى أتمنى أن تكون محبوبتى سيدة علىّ . هى تقودنى وأنا أستسلم لها . عندما أكون طاغية أريدها خادمة لى . أنا فى المقدمة . . وهى ورائى . أما عندما أكون إنساناً . . فيجب أن تكون مساوية لى . مشاركة لى . رأساً برأس . رأيا برأى . حباً بحب .

إن كل هذا طبيعى ، لأن الحب يجعلنا روحاً واحدة فى جسدين اثنين ، وهو الأمر الذى لم نكن نتصوره قبل الحب .

والحب حينما يغنى له المجتمع من أجل الحب . . فإن كل شىء فيه يكون مقبولا : كل حاجز ، كل عقبة ، كل عذاب ، كل دمعة ، كل حاسد . ولكن . . حينما يغنى المجتمع للحب من أجل الحياة فإن المفاهيم تختلف ، ومعنى الأغانى يتغير .

إننى — فى مجتمع مغلق — أجد دائماً ظلاماً حولى ورقيباً خلفى وإشاعات تتعقبنى وعقبات تعترضنى . ولكنى — فى مجتمع مفتوح ناضج ، لا أجد شيئاً من هذا كله ، ولن تعبر لى الأغانى عن شىء من هذا كله . إن أغنيتى المفضلة وقتها لن تتحدث عن شاب يقبل فتاته بشفتين متراجعتين فوق أسنان ترتعش ويدين تتحسسان الطريق وحاسد ينتظر الفرصة .

إننى — فى مجتمع مفتوح وعواطف ناضجة — سوف أبحث فى الأغنية

عن مفهوم آخر للحب . إننى أريد أن أرى فى الأغنية مستوى آخر للعاطفة ، والمتعة ، والحب ، والرقة . أريد أن أرى مستقبلا لمشاعرى ومرآة لعواطفى : إذا كانت الفتاة تحبنى الآن ، فهل ستظل تحبنى حينما يتقوس ظهرى وتتساقط أسنانى ويشيب رأسى وتتباطأ خطواتى ويضعف نظرى . هل ستظل وقتها تغير على وتسألنى لماذا تأخرت وترتدى لى فستاناً مختلفاً وتختار لى كلمات حلوة وتسكب فى أذنى نثراً كالشعر وشعوراً يتساقط رقة ؟

أريد أن أرى فى الأغنية انعكاساً فعليًّا لمفهوم آخر فى الحب . الحب بين رجل وامرأة . الحب بين كائنين متساويين ، بين نصف . . ونصف آخر يكمله ، ينتمى له ، فالحب فى النهاية هو الشعور بالانتماء .

أريد فى الحب السعادة . . قبل الدموع ، الفرصة . . قبل الألم ، المعرفة . . قبل الفراق ، المتعة . . وليس العذاب ، وإذا كان لا بد من العذاب فى الحب أحياناً — فليكن عذاباً مؤقتاً . وعذاباً يعانى منه الطرفين ، وليس طرفاً واحداً لحساب الآخر وبسببه .

و . . هنا أيضاً — مثلما فى أشياء أخرى كثيرة — تقدم عبد الوهاب بأغانيه هذه الموجة الجديدة التى حملها جيلنا معه .

لقد بدأ العاشق فى أغانيه يغنى لأول مرة « لا مش أنا اللى أبكى .. ولا أنا اللى اشكى لو جار على هواك »(١) .

هذا عاشق آخر غير العشاق اللذين كانوا موجودين من قبل . هذا عاشق لم يعد العذاب بالنسبة له يمثل متعة أبداً . إن العذاب عنده هو . . عذاب . . فقط . عاشق لا نراه دائماً مكسور الخاطر دامع العينين جريح القلب يستوقفنا فى الطريق ليشكو إلينا همومه ويحملنا رسائله . هذا عاشق جديد . . وحب مختلف . عاشق يحكى لنا قصته ،

---

(١) كلمات — حسين السيد .

ويروى لنا موقفه ، بعد أن كان يرسم لنا صورة حادة الألوان ، وغالباً لا ألوان فيها غير الأبيض والأسود . الآن أمامنا عاشق يقول : لا تكذبي .. إني رأيتكما معاً . . فدعي البكاء فقد كرهت الأدمعا[1] .

إن هذا العاشق الجديد ما زال أقلية بين العشاق الذين تصورهم أغانينا . ولكنه – بحكم التطور – لا بد أن يصبح أغلبية .

إنها أغلبية تحب بغير هيستريا فى غريزتها أو عاطفتها ، أغلبية تبحث فى الحب عن السعادة والتكامل . . وليس عن الأنين والألم والفراق .

إنها أغلبية لا تستبعد العذاب من حبها تماماً ، ولكنها تكره الدموع فى حبها دائماً !

---

(١) كلمات – كامل الشناوى .

الفصل السابع

هل للغناء مستقبل؟

بالطبع للغناء مستقبل !

ولكن : أى مستقبل ؟ وفى أى اتجاه ؟ وعلى أى أساس ؟

للغناء مستقبل . ولكننا عندما نتحدث عن الأغنية الفردية الشرقية ، فلا بد أن يصبح للسؤال معنى : هل لأغنياتنا الحالية مستقبل ؟

إن عبد الوهاب له تحفظات على إجابة هذا السؤال . وأنا بدورى لى تحفظات أخرى على إجابة عبد الوهاب . إن تحفظاتى سببها أن عبد الوهاب ما زال طرفاً فى الأمر ، طرفاً فى المشكلة كلها . . إذا كانت فى الغناء الشرقى مشكلة ، وطرفاً فى المستقبل . . إذا كان يمكن تصور هذا المستقبل مقدماً .

برغم هذه التحفظات المتبادلة إلا أننا نستطيع أن نناقش مبدئياً ماذا فعل عبد الوهاب نفسه فى الماضى ، حتى يمكن أن نتصور ما يمكن أن يحدث فى المستقبل .

إن ماضى عبد الوهاب معروف للناس كمجموعة من الأغانى التى سمعنا بعضها ولم نسمع البعض الآخر . ولكن ظروف هذه الأغانى ، ظروفها قبل خروجها إلى الناس ، هى التى يجب أن تصبح الآن محل اهتمامنا . إن الشخصية الغنائية لعبد الوهاب هى إذن أهم الآن من أغانى عبد الوهاب نفسها .

فى هذه النقطة لا بد أن نلاحظ مبدئياً : أن عبد الوهاب بدأ حياته للغنائية من الشارع !

إنه غنى بلا إذاعة ، بلا ميكرفون ، وبلا وسيط بينه وبين الناس . غنى بلا تكنولوجيا . غنى بغير قناع . الميكروفون هو قناع . الميكروفون هو ماكياج تصنعه التكنولوجيا على صوتك ، بحيث يتوارى الضعف والتردد وتتوارى الأنفاس المتقطعة ، ويظهر فقط أمام الناس كل شىء جميل وواضح ومسموع .

وحينما يغنى الإنسان بلا ميكروفون ، حينما تصبح الصلة مباشرة بينه وبين آذان مستمعيه ، فإنه يقف وجهاً لوجه أمام جمهوره .

امتحان صعب . امتحان مفيد أيضاً . فأن تغنى بلا إذاعة ، بلا ميكروفون ، معناه أن يسمع الناس صوتك على حقيقته . معناه أن تتعلم من البداية أن تصفيق الناس هو المهم ، وأن جمهورك هو هؤلاء الناس أمامك ، وسوف يبقى تصفيق الناس معك فى أذنيك مدى الحياة . تصفيق الناس ، أنفاسهم ، حرارتهم ، أذواقهم ، همومهم ، عواطفهم ، صيحاتهم ، متعتهم ، إعجابهم ، آهاتهم ، حماسهم . حتى لو انفصلت عن الناس فيما بعد ، وغنيت لهم من خلال ميكروفون أو عن طريق أسطوانة ، فإن صدى إعجابهم سوف يظل معك دائماً قيداً عليك وهدفاً لغنائك .

و. . هذا هو أول مفتاح لفهم شخصية عبد الوهاب الغنائية .

إن الناس عند عبد الوهاب هم الجمهور الذى أحس هو بحرارته مبكراً . إنه يغنى لكى يعجب الناس لا نقاد الموسيقى .

إن أى أغنية ناجحة يغنيها ، هى فى نظره أغنية غير ناجحة ، إلا عندما يصفق الناس لها . بغير هذا تكون الأغنية بالنسبة لعبد الوهاب مجرد كلمات ونغمات لم تتقرر قيمتها بعد .

إن عبد الوهاب إذن يبحث فى أغانيه عن الشعبية ، قبل أن يبحث عن قواعد علمية ترضى عنها معاهد الموسيقى . إنه مستعد لتقديم أية تنازلات ، مستعد للتجاوز عن أية قواعد ، مستعد لأن يقتبس ، مستعد لأن يتأثر ، مستعد لأن يجعلك تطرب وترقص وتستمتع . . إذا لم يكن من ذلك بد لكى تكون سعيداً بالأغنية التى تسمعها منه .

إن تاريخ عبد الوهاب الغنائى كله محكوم بهذه الظاهرة .

إن عبد الوهاب بدأ حياته الغنائية وكل شىء يمكن أن يكون ضده . إنه لا يلحن ، إنه فقير ، إن قدميه تقفان على القاع ، مع أن عينيه

تتطلعان إلى السماء ، إنه يريد أن يفعل أشياء كثيرة ولكنه لا ينجح . إنه يحلم بمستقبل عريض ومع ذلك لا يتقدم . إنه يريد أن يغنى للناس ومع ذلك صوته غير مدرب ، وتعليمه معدوم ، وقدرته محدودة ، وأسرته معترضة ، وهوايته غير محترمة . إن قوة إرادته المدهشة مسجونة ، ولم تنطلق من عقالها إلا بعد سنوات كثيرة تالية .

وخلال السنوات القليلة المبكرة من حياة عبد الوهاب الغنائية كان قد استطاع — برغم الأسرة والفقر والجهل والظروف — أن يضع قدمه على سلم الشهرة ويمسك به . إن العقبات كثيرة ، ومع ذلك بدأ عبد الوهاب حياته الفنية بأربع ميزات عظيمة ، بالرغم من أنها لم تكن جميعاً ظاهرة فى البداية : إن لديه الإصرار والإرادة ، إن صوته سليم ونقى ويعرف كيف يعرض كل مزاياه ، إن لديه قدرة هائلة للضغط على نفسه والعمل الشاق فى سبيل هوايته ، ثم إنه يعرف بالضبط إلى أين يريد أن يتجه . إن هذا ضرورى جداً لإنسان يريد أن يصنع من هوايته مستقبلا . هذا ضرورى ، لأن وجود الهدف واضحاً فى ذهنه من البداية كان بمثابة البوصلة التى تحدد له الطريق الصحيح وسط الأمواج المتلاطمة من حوله .

وبالإضافة إلى هذا كله كانت الظروف وقتها فى حاجة إلى محمد عبد الوهاب . لم تكن الظروف فى حاجة إلى « اسمه » . . ولكنها كانت فى حاجة إلى « لونه » .

إن عبد الوهاب نفسه يعبر عن هذه النقطة عندما يقول مثلا : « إن الظروف هى التى مهدت لظهور عبده الحامولى ، مثلما مهدت بعد ذلك لظهور سلامة حجازى ثم سيد درويش » .

إن ما يقصده بذلك هو أنه لم يكن هناك غناء مصرى حقيقى قبل عبده الحامولى . إن المجتمع — فى قمته المهتمة بالفن — كان مجموعة من العائلات التركية التى تتحدث الفرنسية وتستمع إلى الأغانى

التركية . أما الناس فى الشارع ، أما الشعب نفسه ، فلم يكن له غناء متميز . . إلا بعض أغنيات مبتذلة الكلمات بسيطة التركيب . أغنيات تقول مثلا : « شوفتوش على ياناس . . لا بس قميص ولباس . . وبيلعب البرجاس . . ع القنطرة » . !

إن عبده الحامولى ظهر ليسد الفجوة بين المجتمعين اللذين يعيشان فى مصر . لقد ظهر ليقدم الأغنية المصرية التى يمكن ترديدها شعبياً ، وفى الوقت نفسه يمكن تذوقها فنياً . إن عبدالوهاب يرى أن « . . . عبده الحامولى هو الذى خلق شيئاً اسمه الأغنية المصرية . . إن المجتمع كان لا يعرف قبل الحامولى سوى نوعين : بشارف وأغنيات تركية تردد فى الصالونات . . وموالد تردد فى الحوارى بين عامة الشعب . أما الطبقة المتوسطة فليس لها غناء . لقد جاء الحامولى واستطاع أن يخلق موسيقى تعاشر هذه الطبقة المتوسطة ، وبذلك خلق لنفسه ولأغانيه طبقة جديدة من المستمعين الذين كانوا محتاجين إليه» .

بعد الحامولى بدأت تظهر حاجة الناس إلى الغناء القصصى . . مرة أخرى ، يرى عبد الوهاب أن سلامة حجازى ظهر ليغطى هذا التطور فى أذواق الناس . ومع أن سلامة حجازى — من وجهة نظر عبد الوهاب — لا يمثل تطوراً كبيراً فى الأغنية المصرية ، إلا أنه استطاع أن يكسب جمهوراً ضخماً يحيط به ، وشهرة واسعة يتمتع بها .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى بدأ الناس يحسون بالحاجة إلى أنواع أخرى من الغناء الخفيف والشعبى . أنواع تستطيع أن تخفف الضغط النفسى الذى تتسبب فيه الحرب . هنا ظهر سيد درويش وسط جو مشجع للمسرح الغنائى الاستعراضى .

ومع أننا سنناقش مع عبد الوهاب فيما بعد دور سيد درويش فى الموسيقى العربية ، إلا أننا سنكتفى الآن بأن سيد درويش استطاع أن يحقق قفزة كبيرة فى الأغنية المصرية ، واستطاع أن يجعلها تعبر

بالفعل عن روح الشعب ووجدانه . هنا ظهر صوت عبد الوهاب . صوت ينقصه التدريب . . وإن لم ينقصه الجمال . صوت يفتقر إلى العلم ، وإن لم يفتقر إلى الإحساس بالنغمة الموسيقية . صوت يفسر عبدالوهاب نفسه سر انتشاره فى البداية_بأن « الحاجة إليه هى التى خلقته » . ربما .

ولكن المؤكد الآن أنه فى سنواته المبكرة استطاع — بالرغم من العقبات الكثيرة أمامه — أن يشق طريقه سريعاً إلى القمة .

ولكن الوصول إلى القمة محتاج إلى الاختيار . سلسلة قرارات بالاختيار يتخذها الإنسان على طريقه دون أن يتنبه لها أحياناً .

مثلا : هل يغنى عبدالوهاب كلمات مثل « ارخى الستارة اللى فى ريحنا» . . أو يغنى كلمات مثل « فى الليل لما خلى » ؟ هل يغنى للناس فى كباريهات ، أويغنى لهم فى حفلات غنائية عامة ؟ هل يغنى كمجرد ديكور يستكمل به الناس مستلزمات سهرتهم . . أو يغنى كصوت يتفرغ الناس لسماعه ؟ هل يتعاطى المخدرات والخمور كما كانت الموضة فى عصره . . أو يحافظ على صوته كرأسمال وحيد يواجه به الناس ؟ . .

إن هذه الاختيارات — وغيرها كثير — كانت ضرورية بالنسبة لعبد الوهاب فى بداية حياته ، إذا كان عليه أن يتقدم فعلا نحو القمة ، ثم يستمر فوقها .

قبل محمد عبدالوهاب كان المطرب يغنى لمجموعة من السكارى ، ويقف وسط منشدين بالجلباب والجاكتة ، ويستمر فى الغناء بينما يكون الناس مشغولين عنه بالحديث إلى بعضهم البعض . . أو الصياح طلباً للمشروبات . بعد عبد الوهاب أصبح لا بد له أن يصر على أن يرتدى العازفون بدلة « سموكنج» . وحتى لو كان الغناء فى حفلة نهارية فلا بد من « الأسموكنج» ، وحتى لو كانت الحفلة عامة فلا بد أن يتوقف تقديم المشروبات طوال الغناء ، وحتى لو كانت الحفلة

خاصة فلا بد أن تمتنع الثرثرة بين المدعوين . بل إن عبد الوهاب دعى مرة للغناء فى حفلة خاصة بمنزل أحد أمراء الأسرة المالكة . وبينما هو يغنى ، إذا بالأمير – صاحب الحفل – يتبادل الهمسات الطويلة مع صديقه الجالس بجانبه حول أمور أخرى مشتركة بينهما . فى تلك اللحظة لم يكن أمام عبد الوهاب إلا أن يتوقف عن الغناء ويضع العود بجانبه ويسكت.

إنه لم يفعل شيئاً . لم يحتج . لم يغضب . لم يثر . لم ينصرف . إنه فقط : يسكت . بالطبع أحس الأمير بالحرج الشديد ، أحس بالخطأ ، وبدأ ينصت باهتمام حينما استأنف عبد الوهاب الغناء من جديد .

هل هذه مسألة تافهة ؟

إن بعض الناس قد يراها كذلك ، ولكن ليس هذا رأى عبد الوهاب. إنه يحترم فنه ، وهو يتوقع ممن يستمعون إليه أن يبادلوه هذا الاحترام .

إن هذا الاحترام هو مفتاح آخر لفهم شخصية عبد الوهاب . إن الناس لن تحترم فنك إذا لم تبدأ أنت باحترامه. هكذا يؤمن عبد الوهاب: إنه يؤمن أيضاً بأن الفن بالنسبة له هو كل شىء ، وفوق كل شىء .

إننى عندما سألته : لماذا نجحت ؟ لم يجد شيئاً يجيب به على سوى : « . . إننى أحب فنى وأحترمه » . وعندما أطلب منه أن يفسر إجابته ؛ فإنه يقول على الفور : « إنك لو سألت أى شخص من الذين يتجهون إلى الغناء والطرب هذه الأيام عن سر تعلقه بالفن ، فسوف تجد على الفور أن عقله لا يفكر فى غير سيارة فارهة يركبها ، وشقة أنيقة على شاطئ النيل يسكنها ، وفتيات جميلات يبادلنه نظرات الإعجاب . أما أنا شخصياً فلم يشغلنى شىء من هذا كله . إننى عندما كنت أجلس مع المرحوم الشيخ درويش الحريرى ، أتعلم من صوته فن الموشحات ، لم يكن شىء فى العالم يستطيع أن يصرف انتباهى عنه . إن الشيخ درويش كان ضريراً ، وكان يسعل كثيراً ويتعاطى مشروبات عديدة ، وكانت

ملامحه غير جذابة تماماً ، ومع ذلك هو أستاذ أتعلم منه شيئاً جديداً . لهذا كله كان الجلوس معه أكثر إغراء من الجلوس مع ملكة جمال عارية » .

إن هذه الكلمات التي يقولها عبد الوهاب صحيحة فعلا . إنه يسمى هذا إخلاصاً للعمل . وأنا أسميه إيماناً بالعمل . حينما تؤمن بعملك ، بهوايتك ، بمستقبلك ، يصبح كل شيء آخر بالنسبة لك هو شيء قابل للتأجيل دائماً ، شيء لا تأسف على ضياعه أبداً ولا تسعى إليه مطلقاً .

إن عبد الوهاب قرر منذ لحظة أنه كان يسعى إلى الشيخ درويش الحريري . في الواقع أنه يقول : «كان الشيخ درويش أستاذاً لى فى تعلم التواشيح ، لقد كان من تلاميذه قبلى المرحوم زكريا أحمد ، وكنت أنا أحرص على أن أتعلم من الشيخ درويش أشياء كثيرة لم أكن أستطيع تعلمها من سواه . .

« . . وقبل ذلك كان أستاذى فى العزف على العود هو المرحوم محمد القصبجى ، إن القصبجى كان فى عصره من أوائل المجددين فى العزف على العود ، ولذلك استطعت أن أتعلم منه العزف – والتفوق فى العزف – على العود فى مدة قياسية لم تزد على سنة واحدة .

« . . وتعلمت النوتة الموسيقية والهارمونى فى المعهد الإيطالى (برجرين) الذى كان موجوداً فى القاهرة وقتها . وكان من الذين أعتز بأستاذيتهم لى ، فى المعهد حينئذ ، أستاذ لبنانى اسمه وديع ميشيل ، وأستاذ آخر روسى لا أتذكر اسمه الآن .

« . . وبالإضافة إلى هؤلاء تأثرت أيضاً – فى غير الموسيقى – بأصدقاء آخرين أعتز بهم . تأثرت مثلا بالشاعر الفنان أحمد رامى . لقد تعلمت من رامى اندماج الفنان فى عمله فى أثناء عملية الخلق نفسها . لقد كنت أهيم مع رامى فى شوارع القاهرة وأسهر معه حتى الصباح ،

ثم نعود إلى البيت ليجلس هو تحت سريره ينظم الشعر ، وأنا بجانبه على الأرض أداعب أوتار العود . وإذا كان أحمد شوقى قد كتب فى حياته بعض الأغانى ، فإن رامى هو فى الحقيقة أول الشعراء الفنانين الذين تفرغوا لهذا العمل ورفعوا مستوى كلمات الأغنية فى مصر . .

« . . ولقد تأثرت كذلك بالشاعر على محمود طه . لقد التقيت أولا بشعره ، فى فترة صادفت هوى فى نفسى من نواح كثيرة . إنك تحس فى شعر على محمود طه أنه شاعر عصرى . تحس أنه سافر للخارج وتجول ورأى وقرأ وانفعل ، ثم عاد ليكتب لنا " الجندول " مثلا . إن الشيء الذى تأثرت فيه بعلى محمود طه هو القدرة على أن تكون مثقفاً عصرياً دون أن تنفصل عن ذوق جمهورك وشعبك . .

« هناك أيضاً أحمد عبد المجيد ، الشاعر الرقيق الذى غنيت له فى مطلع حياتى الفنية " خايف أقول اللى فى قلبى " و " يا ترى يا نسمة . . " إلخ . .

« فى أحمد عبد المجيد تستطيع أيضاً أن تخرج بنفس القدرة : الثقافة العصرية ، مع الذوق الفنى البديع ، وهذا ما جعلنى أغنى له من البداية » .

هكذا إذن يتابع عبد الوهاب حديثه عن الذين تعلم منهم والذين تأثر بهم فى حياته الفنية . هكذا نرى أنه كان يسعى إلى أشياء أخرى كثيرة غير رد التمتع بالمباهج العادية التى تغرى كل إنسان بالخروج — ولو مؤقتاً — عن الطريق الذى حدده لنفسه . إنه كان يحلم بأن يتفوق ، بأن يتقدم ، بأن يبتكر . بأن يجدد ، بأن يصنع أسلوباً ويضيف شيئاً . فى الواقع أن عبد الوهاب أضاف أشياء كثيرة .

إننا من البداية نجده يعد أغنية « يا جارة الوادى » أول تطور كبير فى حياته الغنائية . إنها أغنية كتبت كلماتها باللغة العربية الفصحى فى وقت كانت كلمات الأغانى تبتعد فيه عن الفصحى . إنها أيضاً

أغنية أراد بها عبدالوهاب أن يضيف شاعراً كبيراً كأحمد شوقى إلى قائمة مؤلفى الأغانى ، ويضيف فيها لحناً يعبر عن المعنى السامى والغزل الرفيع .

ومن البداية نجد تطوراً فنياً كبيراً من عبد الوهاب فى أغنية « فى الليل لما خلى» . إن هذه الأغنية كانت طفرة فى الانتقال — بتؤدة ولكن بتمهل — من الموسيقى القديمة إلى الموسيقى الحديثة .

إن الجاذبية بدأت تتم بعد ذلك فى قفزات متتابعة بصوت عبدالوهاب فى أغانى أفلامه السينمائية التى قدمها للناس . أفلام مثل « الوردة البيضاء» و« يوم سعيد » و « يحيا الحب» و « دموع للحب» . . إلخ .

ولكن الطفرة الكبرى الجديدة لم يحققها عبدالوهاب إلا ابتداء من أغنية « الجندول » . فى هذه الأغنية التى كتب كلماتها على محمود طه ، تحس أنك أمام قطعة غنائية تكاملت فيها الصورة كلمة وموسيقى وغناء . تكاملت الصورة وتطابقت بين ما يقوله الشاعر ، وما يؤديه المطرب ، وما يحس به المستمتع .

لقد طلبت من عبدالوهاب مرة أن يغنى لى تلك القصيدة بأسلوب عبده الحامولى ، ثم بأسلوب سيد درويش ، ثم بأسلوبه هو . خلال ثوان قليلة ، وبغير عود يعزف عليه ، استطاع عبد الوهاب أن يجعلنى أحس بالفارق الكبير بين الأساليب الثلاثة فى التلحين والغناء .

فلو أن عبده الحامولى هو الذى يلحن ويؤدى « الجندول » فإنه سوف يغنى :

أين أين أين أين أين من عينى هاتيييك المجالى .

إن الصوت الذى يغنى هنا ، يغنى الكلمات حرفاً حرفاً . هذا بالفعل هو أسلوب الغناء كما كان أيام الحامولى . أما فى أيام سيد درويش فإنه لو أدى نفس الأغنية فإنه سوف يغنى :

أين من عينا ا ا ا ا ا ا ا ا ا ا ا ا ا ى هاتيك المجالى . . .

إن اللحن هنا انتقل خطوة إلى الأمام . لم يعد اللحن يتناول الكلمات حرفاً حرفاً ، ولا كلمة كلمة ، وإنما أصبح يحاول أن يصور المعنى إلى كمستمع بأسلوب يختلف عن عبده الحامولى تماماً ، ولكن ما زال هناك انفعال ناقص لا أحسه .

هنا غنى عبد الوهاب نفس الكلمات للمرة الثالثة ، ولكن بطريقته المعروفه فى لحنه المشهور :

أين من عينى هاتيك المجالى

يا عروس البحر ، يا حلم الخيال

الآن أصبح اللحن يتناول الكلمات وحدة وحدة . صورة صورة . معنى معنى . إن اللحن هنا يقف حيث يقف الشاعر نفسه لو كان يقرأ قصيدته . اللحن يقف حيث تنتهى الصورة الشعرية . اللحن يقف ، ثم يبدأ من جديد مع بداية صورة شعرية جديدة . إن الموسيقى هنا تضحك . . حينما تضحك الصورة . إنها تسبح . . حينما تكون الصورة شراعاً يسبح . إنها تتدفق .. حينما يسبح الجندول . إنها تتوه فى الأوهام .. حينما ضيع العاشق فى الأوهام عمره .

إن عبد الوهاب ظل بعد هذه الأغنية يحاول التجديد بصفة مستمرة . إنه يحاول . . ويحاول . يجدد . . ويجدد .

إنه يقدم لنا مفهوماً جديداً « للكورس» فى أغنية « القمح » . الآن لم يعد « الكورس» مجرد « عوالم » ولكنه أصبح يمارس وظيفة فنية لها أهميتها فى الأغنية . إن عبد الوهاب يحاول بعد ذلك أن يخلق الحوار بين آلات الموسيقى فى « مجنون ليلى » التى غناها فى فيلم "يوم سعيد" . إنه يحاول أن يدخل الهارمونى (علم توافق الأصوات) بأوسع معانيه فى أغنية « أنا والعذاب وهواك » .

وإذا كان عبد الوهاب قد استطاع حتى الآن أن يلحن ويغنى الجملة ، والصورة ، والمعنى ، فإنه بدأ بعد ذلك يحاول أن يلحن

اللوحة الشعرية بأكملها . إن هذه المحاولة بدأت بقفزته فى تلحين أغنية « أيظن » ، التى كتب كلماتها نزار قبانى وغنتها نجاة الصغيرة .

إننا جميعا استمعنا إلى هذه الأغنية ، وأستطيع أن أفترض أيضاً أننا أعجبنا بلحنها للغاية . ولكن الشاعر السورى نزار قبانى — مؤلف الأغنية — لديه قصة أخرى للأغنية رواها لى مرة قائلا : « إننى كنت قد أعطيت عبد الوهاب القصيدة بعد أن اختارها لكى يلحنها وتغنيها نجاة . أعطيته القصيدة ثم سافرت إلى مدينة بكين — عاصمة الصين الشعبية — حيث كنت أعمل هناك وقتها سكرتيراً أول فى سفارة الجمهورية العربية المتحدة أيام الوحدة مع سوريا . ومر شهر وشهران ، ثم بدأت أقرأ فى الصحف التى تصلنا فى بكين أن الجمهور قد استمع إلى الأغنية ، وأن الأغنية تمثل ثورة ضخمة وأحدثت صدى كبيراً وتعليقات كثيرة . كل هذا وأنا أتلهف على سماع الأغنية التى كتبت كلماتها ولم أسمعها بعد . ثم وصلنى من القاهرة شريط تم تسجيل الأغنية عليه . وبمنتهى اللهفة ذهبت إلى منزلى لأستمع إلى الأغنية ، وبسرعة وضعت الشريط على جهاز التسجيل فى المنزل . وعندما بدأ الجهاز يعمل وجدت نفسى لا أسمع أغنية ، ولا لحناً ، بل أستمع إلى شىء فظيع فظيع . شىء غير مفهوم بالمرة . بعد قليل أصبح واضحاً أن السرعة التى سجلت بها الأغنية على الشريط تختلف عن السرعتين اللتين يعمل بهما جهازى ، وأصبح واضحاً أننى لا بد أن أستمع إلى الشريط على جهاز يعمل بسرعة ١٥ — وأن هذه السرعة غير متوافرة إلا فى أجهزة الإذاعة الصينية فى بكين . ولأن دخول الإذاعة فى بكين يحتاج إلى تصريح ، ولأننا دبلوماسيون أجانب ، فقد اتصلنا من السفارة بوزارة الخارجية الصينية . بعد قليل سألتنا الوزارة عن المادة المسجلة على الشريط ، فهذا ضرورى لكى يسمحوا لنا بدخول ستوديوهات الإذاعة . لحظتها قلنا لهم — إن الشريط مسجل عليه

النشيد القومى للجمهورية العربية المتحدة ! كذبة بيضاء اضطررنا إليها لكى نستمع إلى أغنيتى التى أتلهف على سماعها . ولولا ذلك لم يكن ممكناً بالطبع أن يسمحوا لى باستخدام أجهزة الإذاعة فى سماع الشريط»!

ليس هذا هو المهم، وإنما المهم ما يقوله نزار بعد ذلك . يقول: « . . .عندما استمعت إلى الأغنية لأول مرة أحسست فعلا أن عبدالوهاب قد أحس لى كشاعر . أحس بالمعانى التى أريد أن أقولها ، والصور التى أريد التعبير عنها . أحس بالكلمات والحروف والصور . . ولى . إن عبد الوهاب استطاع أن يفهمنى تماماً ، وهو واضح من اللحن الذى وضعه للأغنية » .

فى الواقع أننى الآن — وبصرف النظر عن رأى نزار قبانى — عندما أستعيد لحن عبدالوهاب لأغنية « أيظن » أحس فعلا كأن عبد الوهاب هو الشاعر الذى كتبها . إن الموسيقى تسأل . . حينما الشاعر يسأل . عندما تغنى نجاة « أيظن أنى لعبة بيديه ؟» . . أحس أن عبد الوهاب لم ينس علامة الاستفهام هنا . لم ينس التساؤل ، ولا الحزن ، ولا الثورة ، ولا — حتى — الاستياء . لم ينس أن الكلمات تعبر عن موقف . عن عاشقة لها موقف . عاشقة تقرر لنا « أنا لا أفكر فى الرجوع إليه» . عاشقة تحكى لنا أن عاشقها حمل الزهور إليها — الموسيقى هنا تعبر عن زهور — فكيف ترده ؟ ! عاشقة تراجعت عن موقفها بمجرد أن عاد إليها عشيقها . لقد تراجعت فى موقفها ، وفى عواطفها ، وفى قرارها ، تراجع كل شىء فيها . . حتى فساتينها !

هذا إذن ما يسعى إليه عبدالوهاب . إذ كانت الكلمات بسيطة فلا بد أن يكون اللحن أيضاً بسيطاً . إذا كانت الكلمات تحكى قصة ، فلا بد للموسيقى أن تصور القصة ، جو القصة ، معانى القصة ، مواقف القصة . هنا براءة الأطفال . . هنا حب وحيد . . هنا الصبا مرسوم على الشفتين . . هنا الحرائق فى دمى . . هنا طفل أعادوه إلى

أبويه .. هنا رقصت على قدميه . . هنا بكت ساعات على قدميه . . هنا تنام كالعصفور بين يديه . . هنا ما أحلى الرجوع إليه .

ولكن عبد الوهاب يرجع دائماً إليه ، إلى الطرب التقليدى فى الغناء العربى . إننى إذا كنت قد قلت إن عبدالوهاب يجدد ، ويؤمن بأن عليه أن يجدد ، فليس معنى ذلك أن عبدالوهاب يقوم بثورة فى الغناء العربى . عبدالوهاب ليس ثائراً . عبدالوهاب هو فقط : متمرد . وحتى فى تمرده ، فإنه يتمرد نصف الوقت . إنه يتمرد لحظة ، ثم يعود إلى قواعده بعد لحظة . إنه يعبر لنا عن الصورة فى الأغنية ، ولكنه لا ينسى أن من الضرورى أن يقدم لنا بين لحظة وأخرى نغمات راقصة . نغمات نقول عندها : الله . نغمات فيها من الطرب أكثر مما فيها من التعبير . إن عبدالوهاب — كما قلت من قبل — يريد الشعبية . قبل أن يريد إرضاء نقاد الموسيقى. هذه بقايا بدايته الغنائية المبكرة التى كانت فى الشارع ، ووسط أنفاس الناس ، وعلى مسمع من تصفيق أيديهم . إنه يندفع موسيقياً إلى التصوير والتعبير ، ثم يتنبه فجأة إلى أن الناس قد يصيبها الملل . إن الناس لن يصيبها الملل ، ولكن عبد الوهاب يحتاط لذلك على أى حال . لهذا فإنه يقدم لنا فجأة جملة أو جملتين راقصتين . احتياط ضرورى لكى يستمر تصفيق الجمهور له ، لعبد الوهاب . .

أقول إن عبدالوهاب ليس ثائراً . إنه — بالكثير — متمرد . إنه يتقدم إلى الأمام خطوتين . . مرضياً فى نفسه نزعة التجديد ، ولكنه بسرعة يتراجع إلى الوراء خطوة واحدة ، مرضياً فينا نزعة الطرب . ما زال المكسب النهائى واضحاً : خطوة واحدة إلى الأمام !

إن عبدالوهاب تقدم إلى الأمام أكثر من مرة . تقدم أولا بصوته ، ثم بعد ذلك بأصوات الآخرين . إن آخر مرحلة دخلها عبدالوهاب بموسيقاه وأصوات الآخرين هى تلك التى قدم لنا فيها « أيظن » ،

« ولا تكذبى » وغيرها . بعدها قدم لنا عبدالوهاب ألحانه التى غنتها أم كلثوم .

مع أم كلثوم استخدم عبد الوهاب أسلوباً آخر يدل على ذكائه . إن أم كلثوم لم تكن بالنسبة لعبد الوهاب مجرد صوت آخر يغريه بالتفوق على نفسه. إن أم كلثوم ليست « مجرد » صوت ، ولا « مجرد» مطربة . أم كلثوم هى ظاهرة غنائية ، مثلما كان عبد الوهاب من قبل ظاهرة غنائية ، ومثلما هو الآن ظاهرة أخرى موسيقية .

إن أم كلثوم بالنسبة لعبدالوهاب هى تحد . هى امتحان . أصعب امتحان . إن الصعوبة تزيد عندما نتذكر أن الجمهور التقليدى لأم كلثوم هو جمهور صوت وليس جمهور موسيقى . أم كلثوم بالنسبة لجمهورها هى أحلى صوت ، وجمهورها يريد أن يستمع إلى هذا الصوت . إن الصوت وحده يكفيه . الصوت وحده يثير المتعة والسعادة . الصوت وليست الموسيقى . إن الموسيقى بالنسبة لهذا الجمهور كانت دائماً مجرد فرصة لسماع صوت أم كلثوم . مجرد قالب ، مجرد إطار . ولكن الصورة أهم من الإطار . هذا طبيعى مع نجمة فى الغناء العربى كأم كلثوم .

أقول إن صوت أم كلثوم كان بالنسبة لعبد الوهاب تحدياً . . ولكن الأكثر من ذلك أنه كان أيضاً: فرصة . إن عبد الوهاب نفسه يقول : « إن صوت أم كلثوم يتميز بأن قماشه عريض . إن فيه جمال القوة وحلاوة القفلة ورقة الجمال» .

بهذا المفهوم إذن ، بهذا المزيج من الشعور بالتحدى والفرصة ، بدأ عبد الوهاب يقدم لنا ألحانه المعروفة لأم كلثوم التى بدأها فى سنة ١٩٦٤ بأغنية « إنت عمرى » .

والواقع أن ألحان عبدالوهاب لأم كلثوم تمثل مرحلة مختلفة من تاريخها الفنى . إن عبدالوهاب نقل مستوى منافسة الملحنين على صوت أم كلثوم إلى نقطة أكثر ارتفاعاً . بل إن عبدالوهاب كان حريصاً

على أن يجعل المقدمات الموسيقية لأغانى أم كلثوم كعنوان الكتاب ، كخطاب العرش . فى خطاب العرش يتعهد رئيس الوزراء أمام الملك بأن حكومته ستعمل كذا وكذا . إنه يعطى هذه الوعود بعد أن يهاجم كل الحكومات السابقة . إنه خطاب مملوء بالوعود والآمال . ومقدمات عبدالوهاب الموسيقية فى أغانى أم كلثوم هى أيضاً جدول أعمال . قائمة وعود موسيقية طويلة[1] .

ولقد سألت عبد الوهاب مرة : لماذا — فى رأيك — لم يظهر حتى الآن صوت فى مثل جمال وقوة صوت أم كلثوم ؟ هل تعتقد أن هذا الوضع طبيعى؟

ورد عبدالوهاب : نعم . هذا وضع طبيعى . فعندما لا يظهر صوت كأم كلثوم طوال الخمسين أو الستين سنة السابقة ، فإن هذا هو الوضع الطبيعى الذى يجب ألا نقلق عليه . إن الأصوات الممتازة بهذا الشكل ، القوية بهذا الشكل ، العريضة بهذا الشكل ، هى أصوات نادرة بطبيعتها . إنها ليست نادرة عندنا فقط ، ولكنها نادرة فى أى مكان فى العالم . عندك فى أمريكا مثلا . . لماذا لم يظهر صوت فى قوة وتعبير وجمال صوت فرانك سيناترا مثلا ؟ لماذا لم يظهر . . برغم أن المجتمع الأمريكى فيه كل الإمكانيات والظروف والقدرات اللازمة لظهور أصوات كثيرة مثل فرانك سيناترا ؟ إننى أستطيع أن أضرب لك عدة أمثلة فى حياة أى مجتمع وكلها تثبت أنه ليس من المألوف أن تعثر على ذهب كلما حفرت . لا ذهب ، ولا ماس ، ولا معادن نادرة . . فى كل مرة تتجه فيها باحثاً عن أصوات حديثة . وبالإضافة إلى ذلك فإن طبيعة العصر وصفاته تفرض نفسها . قبل الإذاعة والميكروفون كانت الحاجة أساسية للصوت القوى . فما لم يكن الصوت قوياً فإنه

---

(١) " أم كلثوم التى لا يعرفها أحد " — بقلم محمود عوض .

لن يصل إلا إلى الخمسة أو العشرة الصفوف الأولى من المستمعين . لهذا ظهرت أصوات قوية . أصوات تسيطر عليها القوة ، والأنفاس الطويلة والنغمات المتعددة ، والأوتار العريضة . أما الآن — بعد الميكروفون — فإن القوة لم تعد ضرورية . ما زالت القوة مطلوبة . . ولكنها لم تعد ملحة بمثل ما كان الوضع منذ خمسين سنة — مثلا .

هكذا ينطلق عبدالوهاب ليعطى قائمة مبررات طويلة — ولكنها مقنعة — تفسر لك عدم ظهور أصوات كأم كلثوم ، وكصوته هو فى شبابه . وحتى عندما أسأل عبدالوهاب عن مواصفات المطرب الناجح الآن فى رأيه فإنه يذكر صفات كثيرة ، ليست من بينها القوة . إن عبدالوهاب يقول مثلا : « لكى يكون المطرب ناجحاً لا بد أولا من الموهبة ، ولكن لا بد أيضاً من العلم . إن الموهبة هى التى تضمن لك أن يكون الصوت سليماً له أبعاد ومسافات وطبقات متعددة حتى لا يمله المستمعون . ولكن العلم هو الذى يضمن لهذه الصفات الاستمرار . وبالإضافة إلى هذين الشرطين الهامين فإن هناك شرطاً ثالثاً لا يقل أهمية . هذا الشرط هو الهواية وعدم الغرور . إن الهواية هى التى تجعل المطرب يعطى الأولوية لعمله ، وعدم الغرور يجعل إعجاب الناس مستمراً بعمله » .

إن عبدالوهاب نفسه هو أصدق تطبيق لكلماته . إن عمل عبدالوهاب هو الذى يشغل عقله دائماً ، الآن ، ومنذ دقيقة ، وبعد ساعة ، وفى كل وقت . إنك دائماً تخرج بهذا الإحساس فى كل ما ينتجه عبد الوهاب . إن الأغنية بالنسبة له — سواء كانت كلمات أو موسيقى — ليست مجرد أغنية . إنها فى الواقع حياة كاملة يعيشها . إنك تستطيع أن تحسب عمر الشخص العادى بالأيام والسنوات ، ولكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع عبدالوهاب . إنه ليس شخصاً عادياً . إن عمره محسوب — بالنسبة له على الأقل — بعدد الأغانى

الناجحة التي أداها أو لحنها . إنه لا يستطيع أن يتذكر ماذا حدث له فى يوم كذا سنة كذا . . ولكنه يتذكر فوراً ما حدث له عندما غنى أغنية كذا أو كذا .

مثلا عبدالوهاب يتذكر دائماً كيف صاح الجمهور فى وجهه مرة بسبب إحدى أغنياته . إن الحفل تجارى ، والجمهور غنائى ، ومع ذلك فإن عبدالوهاب اختار أن يبدأ غناءه لهم فى تلك الليلة بأغنية وطنية . أغنية « حب الوطن فرض على . . أفديه بروحى وعنيا» . كلمات معقولة ، ولكنها لم تكن أبداً متمشية مع المكان ولا الزمان . المكان حفل جاءه الناس للطرب والمتعة . . وليس للفداء . الزمان هو مطلع ثلاثينات هذا القرن . سنوات لم يكن الوطن فيها مملوكاً لأبنائه . كان مملوكاً للإنجليز و — بالكثير — لطبقة مساعدة من السياسيين الذين يعملون لحساب الإنجليز . كيف إذن يفتدى المستمعون وطنهم بأرواحهم وهم — من الأصل — ليسوا طرفاً يستشيره أحد فى أمور وطنهم ؟ كيف يا عبدالوهاب ؟ ! هه ؟ !

ومع ذلك فإن عبدالوهاب قدم لنا فى الواقع مجموعة من أمتع المعانى الوطنية فى أغنياته . هذا طبيعى ، لأن أغانى عبد الوهاب الوطنية هى عبارة عن تعليقاته على الأحداث الجارية . تعليقات مسموعة وليست مكتوبة . لقد قدم لنا « حب الوطن » ، وقدم « إلام الخلف بينكمو إلا ما » وقدم « النهر الخالد » « ودعاء الشرق » . . إلخ . .

فى دعاء الشرق — التى كتب كلماتها محمود حسن إسماعيل — تحس أن عبدالوهاب يبدأ الأغنية بتصوير رائع من « الكورس» للكلمات « يا سماء الشرق طوفى بالضياء .. وانشرى شمسك فى كل سماء». إنهم يغنون هذه الكلمات بابتهال ، بتوسل ، برجاء ، بدعاء ، بتسبيح كما لو كنا فى مسجد ، بخشوع كما لو كنا فى صلاة . إنها بقايا من الجو الدينى الذى نشأ فيه عبدالوهاب ، وصدى للجو الدينى الذى يعيش فيه

مستمعوه . إنها صلاة للسماء ، وتساؤل من شعب يعيش فى جناته كالغرباء . عبدالوهاب واحد من هذا الشعب . لهذا يحس بهمومه بغربته بثورته ، بـ — حتى — هزيمته .

إن عبدالوهاب كان أيضاً أول صوت انطلق يغنى بعد الهزيمة الأولى فى فلسطين سنة ١٩٤٨ . لقد استمعت إلى أغنية عبدالوهاب « فلسطين » التى غناها من كلمات على محمود طه . . وأنا بعد ما أزال طفلا صغيراً لا أكاد أميز بين معنى هذه الكلمة ، ومعنى الكلمة المجاورة . ومع ذلك فإننى حتى الآن ما زلت أهتز وأنتفض — وأحياناً أرتجف — كلما استمعت إلى صوت عبدالوهاب يغنى : « . . أخى أيها العربى الأبى . . أرى موعدنا اليوم لا الغدا » . وعندما يغنى عبدالوهاب من جديد « أخى جاوز الظالمون المدى . . فحق الجهاد وحق الفدا » أحس فعلا بالكلمات تنساب فى دمائى حرفاً حرفاً ، سكيناً سكيناً ، خنجراً خنجراً . .

قبل أن يغنى عبدالوهاب هذه الكلمات كانت القضية سياسية . بعد أن غناها أصبحت القضية وطنية قومية تخصنى شخصياً ، وتذكرنى بأنى شخصياً طرف فى هذه الكارثة ، هذه الهزيمة ، هذه المأساة .

إننى شخصياً لا أتوقع من المطرب أكثر من هذا . أتوقع أن يجعلنى أحس بالمعانى ، أنتفض بالمشاعر ، وأذوب بالأحاسيس .

ومع ذلك . . فإن عبدالوهاب لم يفعل بعد شيئاً كثيراً للأغنية الشرقية . هذا على الأقل رأى البعض من الذين لا يعجبهم حال الأغنية الشرقية . إن اعتراضاتهم كثيرة — مع أنهم حتى الآن أقلية . إنهم يقولون مثلا — وهذا صحيح بشكل ما : إن الأغنية الشرقية ما زالت تتسم بالطرب ، ما زالت تبتعد عن القواعد العلمية ، ما زالت فردية .

إن عبدالوهاب يوافق على جزء من هذه الاعتراضات ، وهو — حتى — يفسر بعضها . ولكن . . إلى أن نستمع منه إلى تفسيراته فى

الفصل التالى . . فإننى الآن أسأله : هل للأغنية الشرقية مستقبل ؟
وهو يرد : نعم ، وإن كان لا بد لهذا المستقبل أن يتخذ اتجاهاً مختلفاً .
— ماذا تقصد ؟
— أقصد أن المستقبل المتاح للأغنية الشرقية هو أن تكون أغنية قصيرة ذات جمل موسيقية قليلة ، وتخضع للهارمونى ، وللقوالب السهلة الواضحة .
وعندما سألت عبدالوهاب : هل يمكن أن يأتى اليوم الذى نرى فيه الأغنية الشرقية أغنية عالمية ؟ أجابنى هو بقوله : « نعم . ولكن العالمية هنا ليس معناها أن يرددها العالم معنا — فهذا مستحيل . وأن العالمية الممكنة هى أن تكون الأغنية الشرقية قابلة للخضوع للمقاييس العلمية فى الغناء والموسيقى — بمعنى أنه سوف تظل هناك فى النهاية أغنية عربية وأغنية أوربية . ولكن الاختلاف سوف ينحسر ليصبح خلافاً فى الدرجة وليس خلافاً فى النوع . إننا نستطيع أن نجد الآن أغنية أوربية ، ولكن فى داخل هذه الحدود نجد أغنية يونانية متميزة ، وأغنية إسبانية متميزة ، وهكذا . وما أتصوره هو أن تصبح الأغنية الشرقية ممكنة التوزيع عالمياً حينما تتفادى عيوبها التى تمنعها من ذلك حالياً » .
ما هى هذه العيوب ؟
دعنا نرى .

الفصل الثامن

أزمة الموسيقى العربية

ماهى الموسيقى ، على أى حال ؟

إن الموسيقى ، هى التى يقول عنها شكسبير فى مسرحية تاجر البندقية : إن الإنسان الذى لا تحركه الموسيقى . . روحه مظلمة كالليل ، سوداء كالجحيم .

الموسيقى ، كما يقول بتهوفن : يجب أن تشعل النار فى قلب الرجل وتسيل الدموع من عين المرأة .

الموسيقى – كما يقول كارليل – هى حديث الملائكة . . والموسيقى كما تقول خالتى – هى رد تسلية . ولأن جميع الفنانين لايؤمنون برأى خالتى فى « المزيكا » فإننى أقول مع الجميع إن الموسيقى هى فن . إن أجمل تعريف قيل فيها حتى الآن هو أن الموسيقى . . حب يبحث عن كلمات .

إننى عندما أستمع إلى الموسيقى أحس بأنها تعبر لى عن أشياء كثيرة أريدها . إن الموسيقى تعيد إلى الهدوء ، تعيد السكينة ، تعيد راحة البال تعيد العظمة ، تعيد الحب ، تعيد السمو إلى روحى والملائكة إلى خيالى ، تعيد السحر تعيد الذوبان ، المتعة ، الرقة ، الهمسة ، تعيد الجنة ، تعيد الانسجام ، تعيد الصفاء تعيد النقاء ، تعيد النشوة . تعيد الحياة .

ربما من أجل هذا لم أسمع مطلقاً عن شخص مات وهو يستمع إلى الموسيقى . مستحيل . إن الموت هو الآخر لابد أن يستمتع بالموسيقى .
الموت والشياطين والأرواح والملائكة والآلهة والوحوش و – حتى – الأشجار ، لا بد أن تستمتع بالموسيقى .

إن فى الأدب الإغريقى القديم ، أسطورة تحكى عن رجل كان بارعاً فى عزف الموسيقى . رجل اسمه : أورفيوس . إن الموسيقى التى أبدعها أورفيوس – تقول الأسطورة – كانت تذوب رقة . . إلى درجة أنها تطرب الوحوش الضارية فتهدأ ، والصخور الضخمة فتتحرك ، والأشجار

العالية فتنحنى . كانوا جميعاً ينتقلون من أماكنهم ليستمعوا إلى ألحان أورفيوس .

ولم يتوقف حب الموسيقى بسقوط الحضارة الإغريقية ، فلا يوجد أديب أو فنان فى أى مكان فى العالم القديم أو المعاصر لم يقل رأيه فى الموسيقى .

إن الأديب الفرنسى شتندال مثلا يقول : إن الموسيقى توقظ الحب .

برناردشو . الإنجليزى — يقول : إن الجحيم مزدحم بهواة الموسيقى .

تولستوى — الروسى — يقول : إن الموسيقى تغسل القلوب من الطمع والأنانية .

وعندما سألت عبد الوهاب عن رأيه فى الموسيقى قال بعينين متجهتين إلى الأمام كعادته دائماً : إن الموسيقى هى شحنة عواطف ينقلها الفنان إلى الناس .

قلت له : كيف ينجح الفنان فى التعبير عن عواطفه ؟

وهو يرد : هناك نوعان من الفنانين. فنان يعبر عن بيئته المعاصرة، وفنان يعبر عن عصر قادم فى الطريق . إن كليهما فنان ، بشرط أن يكون صادقاً أولا مع نفسه .

قلت : هل لديك أمثلة ؟

قال عبدالوهاب : نعم . خذ مثلا سيد درويش . إن عصره لم يفهمه كما فهمناه نحن . لقد سبق عصره .

قلت : اسمع يا عبد الوهاب . . لو اخترت حياتك من جديد . . فهل تعمل بالموسيقى ؟

— نعم . .

— وتنتج نفس الألحان ؟

— لو عشت نفس العصر فسوف أنتج نفس الألحان .

— لماذا ؟

لأننى مرآة لعصرى . مرآة للمجتمع الذى أعيش فيه . . مرآة للعواطف التى أحس بها .

إن هذه الردود من عبد الوهاب هى ردود صادقة . إن من الضرورى على الآن أن أتذكر – وأنا أستمع إلى ردوده – أن عبدالوهاب ، مثل كثيرين من أبناء عصره وجيله ، تعلم الموسيقى ذاتياً . إنه لم يتعلمها عن اختيار . . ولكن عن ضرورة . ومن الغريب أن العقبات الاجتماعية التى واجهته فى طريقه لتمنعه تعلم الموسيقى علمياً ، كان تأثيرها بالنسبة له هو زيادة عمق وقوة أصالته . بحيث إنه كان من البداية مضطراً إلى أن يرتجل وأن يتعلم. وخلال ارتجاله كان مضطراً من جديد إلى عمل قواعد ذاتية لهذا الارتجال فى أثناء سيره . ومضطراً لكسر تلك القواعد حينما يخبره إحساسه بضرورة ذلك. وبالإضافة إلى هذا كله فإن عبد الوهاب طوال الخمسين سنة الأخيرة – لم يسر مطلقاً بعينين مغلقتين . إنه من البداية يعرف جيداً كم كلفه حاجز الفقر من تأخر ، بعدها أصبح يعرف كم يكلفه حاجز الجهل من صعوبة فى التطور . لهذا حرص عبدالوهاب دائماً على أن يحتفظ بينه وبين الفقر بأكبر مسافة ممكنة . إذا كانت ألف جنيه تكفى لضمان ابتعاده عن حدود الفقر ، فإنه سوف يحتفظ بمائة ألف ، زيادة فى الضمان والاحتياط . وإذا كان تعلم العزف على العود وتعلم الاستماع إلى سيد درويش يكفى لفهم الألحان الموسيقية فإنه يحرص على دخول معهد الموسيقى والاستماع إلى جميع الألحان العربية والأوربية كضمان يتيح له فرصة إجادة الاختيار . عبد الوهاب يختار . إن الأهم من ذلك أنه يتذوق . . ثم يختار . إن عبد الوهاب هو « هيئة أمم متحدة» فى الموسيقى ، كل دولة لها شخصيتها المستقلة وجنسيتها المستقلة ، ولكن القرار الصادر عن الهيئة هو فى النهاية قرار له جنسية جماعية . إن اللحن الصادر عن عبدالوهاب هو فى النهاية يعبر عن ذوق وأسلوب وشخصية عبدالوهاب .

إن شخصية عبدالوهاب : هى حصيلة تفاعل عناصر كثيرة .
تفاعل مشاعر وذوق وعواطف وإحساس . وفنان يتمتع بالإحساس .
بمجتمع ولد هو منه . وعصر عاش هو فيه . وإذا كان الفنان هو فعلا
لعصره ولمجتمعه . فإن عبدالوهاب عاصر ثلاثة أجيال على الأقل
الموسيقى العربية . . عصر عبده الحامولى وسلامة حجازى . . وعصر
درويش . . وعصره هو .

إننى إذا أعفيت عبد الوهاب مؤقتاً من الحديث عن عصره ،
فإننى سوف أسأله : ماذا يميز عصر عبده الحامولى وسلامة حجازى
فى رأيك ــ وأنا أتكلم بطبيعة الحال ــ عن الموسيقى ؟

وعبدالوهاب يرد ، مستريحاً فى كرسيه . شابكاً يديه . . متطلعاً
إلى الأمام : إن عصر الحامولى كان عصر الصوت القوى . الصوت
العنيف . . إنه أيضاً كان عصر الملذات الصوتية . إن الكأس والوجه
الحسن والموسيقى هى شعار ذلك العصر . إن نفس الطابع المميز ــ
القوة ــ كان متوافراً فى صوت سلامة حجازى . . إن سلامة حجازى
لم يقدم شيئاً جديداً فى الموسيقى . . ولكنه كان صاحب الفضل فى
ادخالها إلى المسرح من الباب الخلفى . فعلى يديه أصبح للمسرح الغنائى
رواد يترددون على المسارح من أجل صوت سلامة حجازى ، وهو
إن لم يأت بجديد ، إلا فإنه كان فى أغلب الأحيان يأخذ موسيقى
التواشيح ، ويضع عليها كلاماً يناسب مواقف الروايات التى يمثلها . .
وفى أواخر أيام حياته قام بمحاولات فى التلحين . ولكن ألحانه لم يكتب
لها الخلود . . وفيما عدا ذلك فإن التاريخ لم يسجل له شيئاً من التطور ،
يمكن أن يقال إنه أضافه بعد عبده الحامولى .

أما بالنسبة لعصر سيد درويش فإن عبد الوهاب يرى أنه صنع
أشياء كثيرة تشبه المعجزات . . من هذا مثلا أن سيد درويش« . .
أدخل عنصر التفكير فى الموسيقى . . فقبل سيد درويش كان الغناء

يؤدى بلا فكرة . كان غناء لمجرد الطرب والاستعراض الصوتى . إن درويش هو أول من فكر فى كلمات الأغنية وحاول أن يصورها تصويراً دقيقاً ، وقد بدا هذا واضحاً فى ألحانه التى صنعها عن البيئات المختلفة فعندما كان يلحن عن السقايين مثلا ، فإنه كان يعاشرهم ويستمع إلى لهجاتهم، ونداءاتهم فى الحوارى ، ثم يخرج على الناس باللحن الذى يصور فيه جميع انفعالاته عن هذه الفئة من الناس» .

هكذا إذن يرى عبدالوهاب أن الغناء كان قبل سيد درويش معقداً ومليئاً بالافتعال ، كان خالياً من البساطة والفهم والوعى ، إلى أن استطاع سيد درويش فى عصره أن يتميز بالبساطة والإحساس والوعى . إن عصر سيد درويش هو بداية التفرغ للتعبير الموسيقى وهو بداية تفتح الذهن الموسيقى على نطاق شعبى .

هكذا إذن بدأ عصر عبدالوهاب . هكذا بدأ عبدالوهاب يقود جيلا كاملا أصبح الطريق مفتوحاً أمامه للسير بالتطور الموسيقى نحو أهداف جديدة . إننى عندما أسأل عبدالوهاب عن السمات التى تميز جيله الموسيقى فإنه يقول: إن جيلنا المعاصر يتميز بناحيتين : فأولا هو يستفيد من الإمكانيات التى وضعها العلم الحديث فى خدمة الموسيقى والغناء — الإذاعة والتليفزيون مثلا . الآلات الموسيقية الحديثة مثل ثان . ثم الانتفاع بالعلوم الغربية إلى حد ما — أرجوك لا تنسى الكلمة الأخيرة والخروج عن عزلتنا الموسيقية .

قلت لعبد الوهاب : هل عشنا فى عزلة موسيقية ؟

وتنبه عبد الوهاب وهو يقول : نعم ، هذه هى الناحية الثانية التى تميز بها — وتنبه لها — عصرنا . إن عصرنا أصبح يفتح نوافذه ليعطى العالم الخارجى ويأخذ منه .

قلت : على امتداد هذه الأجيال الثلاثة التى عاصرتها أنت ، هل تعتقد أن الموسيقى عندنا قد تطورت كثيراً ؟

رد عبد الوهاب جازماً : طبعاً تطورت . . موسيقانا تطورت بدرجة جداً . . ولكنه تطور ناقص ، على الأقل من وجهة نظرى .

إن الجملة الأخيرة هى إغراء يقدمه لى عبدالوهاب لسؤاله ، أنذا أفعل وأسأله : لماذا ؟

وعبدالوهاب يرد : لأن موسيقانا كانت تستطيع أن تتطور بدرجة أكبر خلال نفس الفترة . تسألنى عن السبب . إنه ينحصر فى أننا نستطع إنشاء جسر أو « كوبرى » يصل ما بين العلم والموهبة . إن لديه موهبة يستغنى بها عن العلم . ومن لديه العلم يتنكر للموهبة . كانت هناك حالة طلاق مستمرة بين الموهبة والعلم . طبعاً هذا استطاع أن يحد من تطورنا الموسيقى على امتداد الأجيال الثلاثة تكلمت معك عنها .

هكذا يستمر عبدالوهاب فى عرض آرائه الموسيقية . إنه فى البداية يعرضها بهدوء ومنطق . بعد قليل يختفى الهدوء ويبقى المنطق . إن عبدالوهاب يعتبر مثلا أن الموسيقى الشرقية بصفة عامة تواجه أزمة . ما سبب الأزمة ؟ الجهل . ما سبب الجهل ؟

يقول عبد الوهاب : « إن الجهل هو الذى يؤدى مثلا إلى الخلط الذى تستطيع أن تلمسه فى ألحان كثير من الأغانى الشرقية المعاصرة . إنك تستطيع أن تجد فى اللحن الواحد جملة موسيقية كلاسيكية . ثم جملة جاز ، ثم جملة إسبانيول ، ثم جملة من الفولكلور ، ثم جملة تانجو ، ثم موال . إن اللحن الواحد يخلط بغير مسوغ بين القديم والحديث ، بين الشرقى والغربى . إن هذا كله سببه الجهل بالطبع . الجهل بالقالب الأساسى الذى يجب أن تخضع له موسيقى الأغنية . إذا كانت الأغنية راقصة يجب أن يكون اللحن كله راقصاً . إذا كانت كلاسيكية يجب أن يكون اللحن كلاسيكياً . وهكذا » .

كلام معقول ، ولكن ما زلنا لم نتكلم عن سبب هذا الجهل الموسيقى .

إن السبب – كما يقول عبدالوهاب – هو : « إن الذين يتعلمون الموسيقى فى المعاهد العلمية عندنا يتخرجون بعد أن فقدوا إحساسهم الشعبى وارتباطهم المحلى . إن هذا طبيعى لأنهم من الأصل اتجهوا إلى تعلم الموسيقى الأوربية دون أن ترتبط أحاسيسهم بالأرض المصرية والعربية . إن كلا منهم ربما يصبح فيما بعد قائداً ممتازاً للأوركسترا ، ولكنه لا يصبح أبداً ملحناً يردد الشعب ألحانه .

. . إننا نريد أن نكون – موسيقياً – كاليونانيين أو الإسبان مثلا . . إنهم فى اليونان ، أو فى أسبانيا ، يقدمون موسيقى أوربية ، ولكنها موزعة توزيعاً يلائم أذواق جماهيرهم . أنا أريد نفس الشيء للموسيقى عندنا . أريد أن نتعلم الموسيقى حسب أصولها الغربية ، ولكن بشرط أن نخضعها لذوقنا العربى .

« . . إننى لا أتصور أن يحدث هذا إلا إذا كان الذين يتعلمون ، ويسافرون فى بعثات إلى الخارج ، هم الموهوبون ، وليس مجرد الذين أدوا الامتحان فى النوتة الموسيقية وفى التوزيع الموسيقى الغربى .

« إن السبب الأول فى أزمتنا الموسيقية هو إذن وجود الانفصال من البداية بين العلم والموهبة .

« إن السبب الثانى هو أننا لم نستطع أن نحدد فى معاهدنا الموسيقية ماذا نريد منها بالضبط ؟ ماذا نريد من برامج الدراسة فيها ؟ إننا لابد أن نتفق من البداية على أننا نريد طالباً يدرس الموسيقى حسب أصولها العلمية ، طالباً يعطينا (هارمونى) للموسيقى العربية ، وليس (هارمونى) للموسيقى الغربية ، نريد طالباً واسع الصوت عريض المقامات متعدد الطبقات ، ولكن بغير أن نشعر من غنائه أنه غريب عنا لحناً وغناء .

« . . لو استطعنا أن نحل هذه المشكلة ، فسوف يتمكن الملحن الموسيقى عندنا أوتوماتيكياً من الاقتصاد فى الجمل الموسيقية التى يستخدمها فى ألحانه . فبدلا من أن يتضمن اللحن الواحد عشرين أو ثلاثين

جملة موسيقية فإنه سوف يتضمن جملتين فقط أو ثلاثاً — مثلما الحال فى الأغنية الأوربية ، التى تقل جملها ولكن يتنوع توزيعها» .

* * *

الآن انتهى انفعال عبد الوهاب . . وبدأ تفكيرى أنا . فى الواقع أنك تحس بالصدق فى كلمات عبد الوهاب . الانفعال موجود — نعم — ولكن الصدق أيضاً . إننى — حتى فى الفيلم السينمائى الأجنبى — أحس من مقدمته الموسيقية بروح الفيلم ونوع قصته . إن الموسيقى توحى إلى من البداية بأنى مقبل على مشاهدة فيلم عاطفى ، أو بوليسى ، أو حربى ، أو فيلم استعراضى . إن شيئاً من هذا أفتقده فى أحيان كثيرة بالنسبة لكثير من الألحان عندنا . إن من المألوف أن نستمع إلى لحن راقص يعبر عن معان حزينة . أو لحن حزين يعبر عن معان راقصة . . وهكذا . .

إن محمد عبد الوهاب هو واحد من الذين تنبهوا من البداية لهذا العيب المنتشر فى ألحاننا . إنه — حتى — كان متنبهاً أيضاً إلى أن هناك شبه عداء بين الجمهور وبين الموسيقى الخالصة . إن الصوت فى الغناء الشرقى كان دائماً أهم من الموسيقى . إن المطرب أهم ما فى الصوت . والصوت هو أهم ما فى الأغنية .

لهذا نجد أن عبد الوهاب كان على رأس الذين عقدوا « هدنة » بين المستمع وبين الموسيقى . فى البداية هدنة وفى النهاية صداقة ومتعة . لقد لحن عبد الوهاب أكثر من أربعين قطعة موسيقية . . كل قطعة هى عدة دقائق خالصة من الموسيقى . إن بعض هذه القطع الموسيقية استطاع أن ينافس أنجح الأغانى بالنسبة لإقبال الجمهور عليها . إننى أكتب هذا وفى ذهنى مثلا موسيقى « فانتا زى نهاوند » أو « زينة » أو « حياتى » أو « بنت البلد » أو « عزيزة » أو « عش البلبل » أو « الخيام » أو قطع كثيرة غيرها .

إننى هنا بالذات أحس برغبتى فى سؤال عبدالوهاب : كيف تفسر جاذبية موسيقاك ؟

إن عبدالوهاب يفكر قليلا قبل أن يقول : من أجل الإجابة الحقيقية عن هذا السؤال، عليك أن تسأل الناس ، من الذين يشترون أسطواناتى ويستمعون إلى ألحانى المذاعة . .

قلت : أنا أسألك عن رأيك أنت . ولا أسألك عن رأى الناس .

ــ حسناً . هذا هو السؤال إذن ؟ فى هذه الحالة فإن كل ما أستطيعه من تفسير ، هو أننى مخلص فى عملى ، إننى أعطيه كل ما أستطيع . ولكننى أيضاً لا أقول إن هذه هى الإجابة، لأن كثيرين من الموسيقيين الآخرين مجتهدين مثلى تماماً ، ربما أكثر ، ومع ذلك لم يشأ لهم الحظ الوصول . من إذن الذى يعرف السبب ؟ إننى أعتقد أن عواطفى وأفكارى لها شأن كبير بالطريقة التى تولد بها ألحان . على هذا أستطيع أن أفسر جاذبية موسيقاى ــ إذا جاز لى استخدام هذا التعبير ــ بأنها ترجع إلى أنها مشحونة بالإحساس والذكاء .

ــ وهل يحس المستمع بذلك ؟

ــ ليس من الضرورى أن يفسرها المستمع بمثل هذه الكلمات . إننا نستمتع بالموسيقى غالباً لواحد من سببين : أنها مشحونة بالعواطف ، أو مشحونة بالذكاء . . أنا شخصياً حريص على الاثنين .

ــ كيف تفسر التطرف بين الجمهور المعجب بك ، وهم أغلبية . . وبين الذين لا تعجبهم موسيقاك . . وهم أقلية ــ كيف تفسر أن المعجبين بك هم معجبون جداً ، وأن الذين يرفضونك يرفضونك تماماً ؟ كيف تفسر أيضاً أنه بينما يذوب البعض إعجاباً بألحانك القديمة ، فإن هذا البعض نفسه لا يقبل مطلقاً ألحانك الحديثة ؟

ــ مبدئياً ، أنا لا أتصور أنه ما زال هناك مستمعون يرفضوننى تماماً وبالمرة . ومن الناحية الأخرى أستطيع أن أفهم هؤلاء الذين تعجبهم

ألحانى القديمة دون ألحانى العصرية . أنت تعرف طبعاً . . أن الأغنية كانت فى مجتمعنا زمان . . تلعب دوراً أكبر من مجرد كونها أغنية . . فى المجتمع الذى كان موجوداً وقتها . . وفى ظل الحواجز التى كانت قائمة بين الرجل والمرأة . فإن الأغنية كانت تلعب دور الخطاب الغرامى المفتوح بين الحبيب والحبيبة. فحينما يكون الخطاب المكتوب مستحيلا، يصبح ممكناً مثلا لأغنية « امتى الزمان يسمح يا جميل » أن تقوم بالمهمة المطلوبة . . وهكذا. إننى لهذا أتصور أن التمسك بالأغانى القديمة هو فى الواقع تمسك بالذكريات التى تثيرها تلك الأغانى ، وإلا . . فليس هناك ما يبرر مطلقاً أن نتمسك بالقديم ونرفض التطور .

قلت : دعنى أحدثك إذن عن المعجبين بك . إن معظمهم يتطرف فى الإعجاب إلى درجة أنك بالنسبة للكثيرين منهم — بالنسبة لإحسان عبد القدوس ونزار قبانى مثلا — عبقرى ، وأحياناً فإنك « العبقرى الوحيد فى الموسيقى » و « نعمة من نعم القدر » . .

— إننى أقدر فعلا هذه التسميات اللطيفة التى يطلقها على الناس والمعجبون . . خصوصاً أنه فى مقابل ذلك يطلق بعض الناس على أسماء مضادة أيضاً. ولكننى فى الواقع خائف نوعاً ما من مثل هذه التسمية. إن كلمة« العبقرى » معناها فى الحقيقة أنك تقف على قمة الهرم . وفوق قمة الهرم ، إذا لم يتنبه الإنسان ، فإنها يمكن أن تعنى أيضاً سقوط الإنسان من فوقها .

* * *

ولكن عبد الوهاب لم يسقط من فوق القمة . إنه — فى الواقع — مستمر فوقها . إن هوراس كان يقول: لعن الله كل موسيقار يلعب دائماً على نفس الوتر .

ولقد كان من وسائل احتفاظ عبد الوهاب بالقمة أنه لم يلعب كثيراً على نفس الوتر. إن عبد الوهاب كان موجوداً معنا طوال الخمسين سنة

الأخيرة . ومع ذلك فإنك لن نجد صلة قوية بين عبد الوهاب الذى غنى فى العشرينات وعبد الوهاب الذى غنى فى الستينات . لن نجد بينهما صلة . — إلا فى أن الصدفة جعلت الاسم مشتركاً بين الاثنين !

إن عبد الوهاب ظل مستمراً طوال أجيال ثلاثة منذ العشرينات حتى الآن . إن الاستمرار هو حجر الزاوية فى حياة الفنان ، وبالذات فى حياة عبد الوهاب . إن الفنان الناجح هو الفنان المستمر . لأن استمراره دليل على أن عصره لم يرفضه بعد .

إن عبد الوهاب فنان مستمر حتى على مستوى قومى عربى . وعندما قام الأخوان رحبانى منذ سنوات قليلة بإعادة توزيع بعض أغانيه القديمة لتغنيها فيروز . ظلت الألحان بعد توزيعها تحمل بصمات عبد الوهاب الموسيقية بوضوح وشدة .

ولقد حدث مرة أن عبد الوهاب أسمعنى تسجيلا يحتفظ به لفيروز . وظل يتناقش معى وصوت فيروز ينطلق نقياً من شريط التسجيل . إن عبد الوهاب يؤمن بالتخصص : أذن يعطيها لى . وأذن يعطيها صوت فيروز . تقسيم معقول إلى أن نكتشف أيهما الأذن التى تسمع أكثر .

إن عبد الوهاب قدم لفيروز ألحاناً كثيرة . وبالإضافة إلى الألحان التى أعاد الأخوان رحبانى توزيعها له . فإنه ما زال يحتفظ بمشروعات أخرى معها . وعموماً فعبد الوهاب — خلال السنوات الأخيرة — يحاول أن « يتوسط » بيننا وبين لبنان كجزء من محاولة التوسط بيننا وبين الموسيقى العربية عموماً . قبلها توسط بيننا وبين الموسيقى الأوربية .

وبالرغم من أننا نأخذ الآن عن أوربا . فقد سبق أن أثرت موسيقانا على الحضارة الغربية . إن آرثرمور يقول مثلا : « لقد تأثرت أوربا بالموسيقى العربية أكثر مما تأثرت بأى موسيقى شرقية أخرى » .

بل — أكثر من هذا — نجد أن الدوائر الموسيقية الغربية به تعترف

بأن العرب استطاعوا بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين أن يضعوا حوالى مائة مصنف متفرع فى سائر الفنون والعلوم والموسيقى . وتعترف أيضاً بأن أربعة بالذات من هذه المصنفات أثرت بشكل بالغ الأهمية فى الموسيقى الغربية ، وهى : رسالة فى تأليف الألحان للكندى (٧٨٤ م) — كتاب الموسيقى الكبير للفارابى (٩٥٠ م) — النظرية الموسيقية لابن سينا العالم العربى المشهور (١٠٣٧ م) — كتاب الأدوار لصفى الدين (١٢٩٤ م) .

و . . لا داعى للاستطراد . فهذا ماض ذهب وانتهى ، فلنتركه حيث هو . . لنسأل عبد الوهاب : هل تتميز الموسيقى فى الوطن العربى بعضها عن بعض ؟

ويرد عبد الوهاب : طبعاً فالموسيقى المصرية غير الموسيقى فى بلاد الشام إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير . وهذه وتلك غير الموسيقى فى المغرب العربى أو الموسيقى فى شبه الجزيرة العربية . أو السودان مثلا .

قلت له : ماذا يميز الموسيقى المصرية ؟

أجاب عبد الوهاب : الموسيقى المصرية تتميز بالنهاية السعيدة ، النهاية الجميلة لكل جملة موسيقية . إن السبب فى ذلك هو أننا شعب قرآنى . فنحن نولد لنسمع القرآن المجود ونحن صغار . . ثم نتقدم فى العمر . . فمن يصبح فناناً يتولد فيه الإحساس بلذة القفلة الجميلة التى تتميز بها طريقة التجويد فى تلاوة القرآن . هذه ناحية . . ناحية أخرى نتميز بها ، هى أن النطق عندنا أفصح وأجمل. هذا أيضاً سببه تذوقنا للقرآن المجود .

قلت : وماذا يميز الموسيقى الشامية . . حسب تعبيرك ؟

وبعد صمت يجيب عبد الوهاب : الموسيقى الشامية (لبنان وسوريا وفلسطين) تتميز بأنها على الواحدة . فهى موسيقى راقصة . السبب هو أن الحياة هناك اقترنت بالرقص . والأغنية هناك وسيلة للرقص الجماعى .

هذه ناحية . ناحية أخرى أن أصوات المطربين فى الشام قماشها عريض . يعنى أصوات عريضة . هذه ظاهرة صحية طيبة .

صمت جديد ، ثم يكمل عبد الوهاب : أما الموسيقى العراقية فهى تأخذ كثيراً من الموسيقى الإيرانية . إنها تتميز بالأصوات الطويلة الحزينة . وهى تكرر أنغاماً معينة غير موجودة عندنا ، وهى تستقر كثيراً على المقام الواحد ، بأطول مما نتذوق نحن .

« . . أما الموسيقى فى شبه الجزيرة العربية فإن ما يميزها هو العود . إننى أحس أن الناس فى الجزيرة العربية يغنون على العود ويعتبرونه ملك الموسيقى . أحس أن الغناء هناك وسيلة لسماع العود . إن هذه فى حد ذاتها ظاهرة تستحق الاستماع والتمحيص .

« . . أما فى السودان فالطبول هى التى تسيطر على الإيقاعات الموسيقية هناك . لهذا أحس أن الموسيقى السودانية وثابة ، وأن الصوت السودانى يقفز مرة واحدة مقامين أو ثلاثة ، فى حين نفضل ، نحن هنا ، المقامات المتجاورة .

« وفى المغرب ، تستطيع أن تكتشف بسهولة تأثير الموسيقى الإسبانيولية على الإيقاعات المغربية . وفى الغناء تستطيع أن تفرق بصعوبة بين الموال المغربى والموال الإسبانيولى . بالطبع أستطيع أن أتصور أن هذا تأثير متبادل منذ عصر الفتح العربى لإسبانيا » .

قلت لعبد الوهاب : عندما تبادلت أنت التأثير مع الموسيقى اللبنانية هل كنت تتعمد إيجاد نوع من الامتزاج بين الموسيقى المصرية والموسيقى اللبنانية ؟

وهو يرد : لا ، فالتعمد إحساس يفرضه العقل ، والموسيقى عمل تفرضه العاطفة .

قلت : هل تعتقد أن من الممكن تحقيق « وحدة موسيقية عربية » أو شىء ما بهذا المعنى ؟

قال عبد الوهاب : أعتقد أن المستقبل سيحمل درجة أكبر وأكبر من التقارب الموسيقى بين الأجزاء المختلفة من الوطن العربى . . فلا بد أن يحدث ذلك ، وهو حادث فعلا الآن بشكل جزئى .

خلال لحظات كانت ردود عبد الوهاب قد أوحت لى بأن أنتقل به إلى الغناء كامتداد للموسيقى . فبعد كل شىء كان الفيلسوف نيتشه يقول : إذا أردت الحكم على مستوى شعب . . فاستمع إلى موسيقاه . أما برليوز فيقول : أعظم صوت للمدينة . . موسيقاه .

وفى مصر تبدو أغانينا حزينة غالباً . فهى فى حالة حداد مستمرة . إن الدموع تسيل بكثرة من الأغنية المصرية . والضحكات فيها بالقطارة ! وخبراء الموسيقى بدءوا يلاحظون هذه الظاهرة ابتداء من الفترة التالية للحرب العالمية الأولى .

وأسأل عبد الوهاب : ما هو تفسيرك لهذه العباءة الحزينة التى ترتديها الأغنية المصرية ؟

وعبد الوهاب يرانى كالعادة بأذنيه . فى حين يرد بفمه : لا ليست الأغنية المصرية على الدرجة التى تتصورها من الحزن والكآبة . إننى أختلف معك فى ذلك . إن الحزن فى الأغنية المصرية يرجع إلى الكلمات أكثر مما يرجع إلى الموسيقى . الكلمات فعلا عاطفية يكاد يلمسها الحزن ، ولكنه لا يطغى عليها .

قلت : لا أوافقك . قارن مثلا بين الأغنية المصرية والأغنية اللبنانية .

أجاب عبد الوهاب : طبعاً هناك فارق فعلى . فالأغنية اللبنانية أغنية راقصة كما قلت لك . والرقص لا يمكن أن يتم بأنغام حزينة ، وعلى ذلك . فالمسألة نسبية . فلأننا شرقيون عموماً ، تحمل أغانينا شحنة من العواطف أكبر مما تحمل الأغنية الغربية . ورقصة التانجو مثلا تجدها منتشرة فى إيطاليا أكثر من انتشارها فى إنجلترا أو السويد . إن الطبيعة

الجغرافية لها . طبعاً . دخل فى ذلك . . فى المناطق الباردة يحتاجون إلى الأنغام العنيفة : أما فى المناطق الحارة فتحلو الأنغام الهادئة . . الشاعرية .

* * *

لا فائدة !

لقد حول عبد الوهاب الحزن الغنائى المصرى إلى ظاهرة جغرافية !

فلنتنقل إذن إلى موضوع آخر نسمع فيه رأى عبد الوهاب . ليكن اتهاماً هذه المرة !

أقول لعبد الوهاب : لماذا لا ينجح دائماً المطربون الذين تتبناهم ؟

وفوجئ الرجل بالسؤال ! أنقذه التليفون ثم قام ليطلب الغداء . بعد لحظة عاد إلى كرسيه . . نظر إلى ساعته . ساعة مستطيلة لونها أصفر باهت . يده اليمنى الآن على التليفون واليسرى على قدمه اليمنى .

أكرر : لماذا لا ينجح دائماً المطربون الذين تتبناهم ؟

أخيراً يرد عبد الوهاب : زى مين ؟

قلت : أنا الذى أسأل !

قال بعد لحظة : « أولا أنا لم أتبن أحداً . لا توجد فى الفن علاقة تبن بين واحد وآخر . يوجد فقط تعاون مشترك . وليس من مهمتى أن أتبنى أحداً . فالتبنى معناه أن تتفرغ لشخص واحد أو أكثر وتنبهه إلى مواضع الخطأ وتكرر مواضع الصواب . . وهكذا تظل ترعاه » !

* * *

ما علينا . . . !

إن المهم الآن هو عبد الوهاب نفسه . هذا هو محل اهتمامنا هنا . إن عبد الوهاب هو فنان مستمر . إنك لن تجد تفسيراً يبرر استمراره سوى المفتاح الرئيسى الذى أمسكنا به من قبل عندما حاولنا فهم شخصيته الغنائية . إن عبدالوهاب بدأ حياته الفنية من الشارع .

إن أنفاس الناس وهمومهم وتصفيقهم وعواطفهم ظلت نصب عينيه على امتداد خمسين سنة. لا تفسير ولا تبرير ، إذن،لاستمرار عبد الوهاب محلا لإعجاب الناس . سوى أنه كان دائماً يحرص على التعبير عن أذواقهم وعواطفهم . لا تفسير ولا تبرير للمليون أسطوانة التى اشتراها الناس من أغانى عبد الوهاب سوى أنهم كانوا يحسون بأنه يقول بالضبط ما يشتاق كل واحد منهم إلى أن يقوله لفتاته . . ولكنه لا يعرف. لا تفسير ولا تبرير سوى أن أغانى عبد الوهاب وألحانه وأسطواناته قد أصبحت بالنسبة للناس تعويذة يستخدمونها للتعبير عن عواطفهم . تعويذة بسرعة ثلاث وثلاثين لفة فى الدقيقة . تعويذة تجلب الحظ وتثير المتعة وتعبر عن الأسى وتخاطب الوجدان .

إننى لا أجد فى النهاية سوى التبرير أو التفسير الذى أستطيع أن أحس به أنا شخصياً عندما أستمع الآن إلى أغانى وألحان عبد الوهاب. إن أغانى عبد الوهاب لها معان مختلفة عند الناس المختلفة ، ولكنها بالنسبة لى تعنى أشياء محددة . تعنى — حتى — كلمة واحدة : الروح . إنها تخاطب روحي بذكاء ورشاقة . وحينما أتحدث عن موسيقى تخاطب روحى ، فإننى أتحدث عن الدفء . . عن الفهم ، عن الحرارة ، عن العاطفة ، عن القلق ، عن الحزن ، عن السعادة ، عن عدم السعادة ، عن الحب ، عن الإخفاق فى الحب ، عن الحب من جديد ، عن القلب ، عن الحياة ، عن الانفعال ، عن البكاء ، عن البكاء من فرط السعادة ، أو البكاء من شدة الألم . عن حقيقة أصبحت خيالا ، أو خيالا يكاد من إلحاحه أن يصبح حقيقة .

إننى للمرة النهائية أبحث عن حقيقة أخيرة أنتزعها من عبد الوهاب . إننى أفكر له الآن فى سؤال لا يتوقعه . مع أننى أتحفظ بشدة على هذا التعبير . إن هذا التحفظ سببه أنه إذا لم يكن الإنسان يعرف عبد الوهاب جيداً ، أو يقوم باستعدادات كبيرة لردوده مقدماً ، فإن

من عدم الفائدة أن تستجوبه ، مثلما هى الحال مع كل الفنانين والسياسيين المتمرسين . إن السياسى والفنان ، كلاهما له عقل اعتاد الأسئلة من الناس . وبمرور الوقت يكون هذا العقل قد أجاب عن مليون سؤال . أو على الأقل هذا حقيقى إذا كان يمارس فنه لمدة عشرين سنة مثلا ، وأجاب عن متوسط قدره مائة وخمسون من هذه الأسئلة يوميا . هذا رقم عادى ، فأن تفاجئ عبد الوهاب بسؤال هو إذن أمر يتساوى فى صعوبته مع محاولتك توجيه ضربة قاضية وخاطفة لملاكم محترف . لهذا يستطيع الإنسان، بصعوبة أن يخرج بأشياء كثيرة من حديثه مع عبدالوهاب . إن ابتسامته عريضة ، أسلوبه وديع ، كلماته جذابة ، وقدرته على الانزلاق ، فوق الأسئلة ، غير محددة .

ومع ذلك أسأل الآن عبد الوهاب : لماذا تلحن ؟

وعبد الوهاب يندهش : ماذا ؟

أقول : لماذا تلحن ؟

ويفكر عبد الوهاب دقيقة ، ودقيقة . . قبل أن تأتى الإجابة : لأنى . . لأنى . . لأنى لا أحس برغبة فى أى شىء آخر !

* * *

الآن ، ذهبت الكلمات . ذهبت الموسيقى . ذهبت الملائكة !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٥١٢ / ١٩٧١

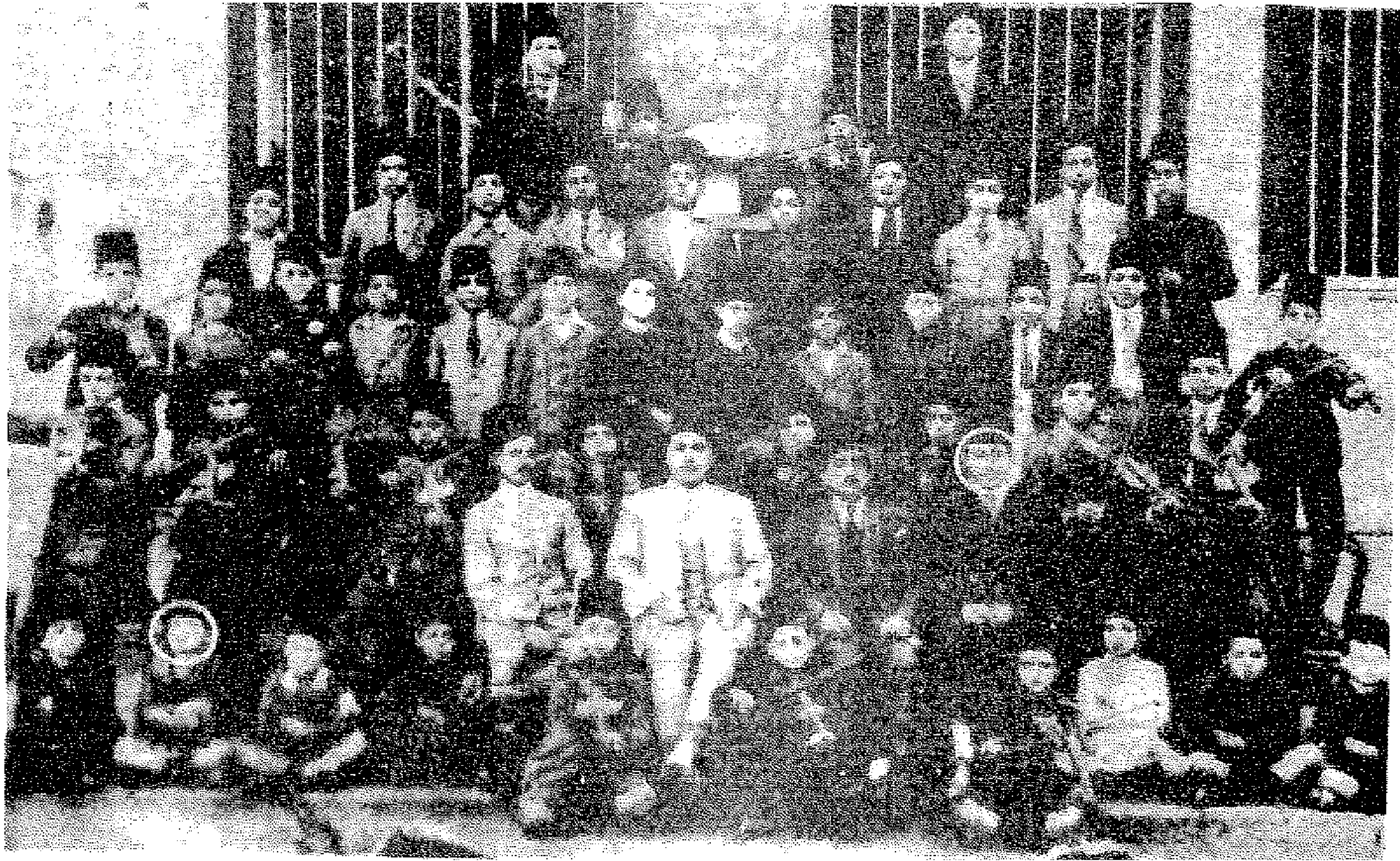
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١



الطفل الصغير محمد عبد الوهاب ، مع فاطمة قدرى فى
أثناء عملهما معاً فى فرقة عبد الرحمن رشدى سنة ١٩١٩ .



محمد عبد الوهاب
بطربوش وعصا ، عند ما
بدأ يغنى بمفرده .



مدرس الموسيقى (محمد عبد الوهاب) فى أثناء عمله فى مدرسة
السلحدار الابتدائية بالقاهرة ، وهو يجلس فى صف المدرسين .





مع شقيقه الأكبر الشيخ حسن ، فوق الباخرة المتجهة
إلى أوربا ، قبل أن يسافر عبد الوهاب إلى باريس لأول

هكذا كان عبد الوهاب عندما بدأ يلمع غنائياً .



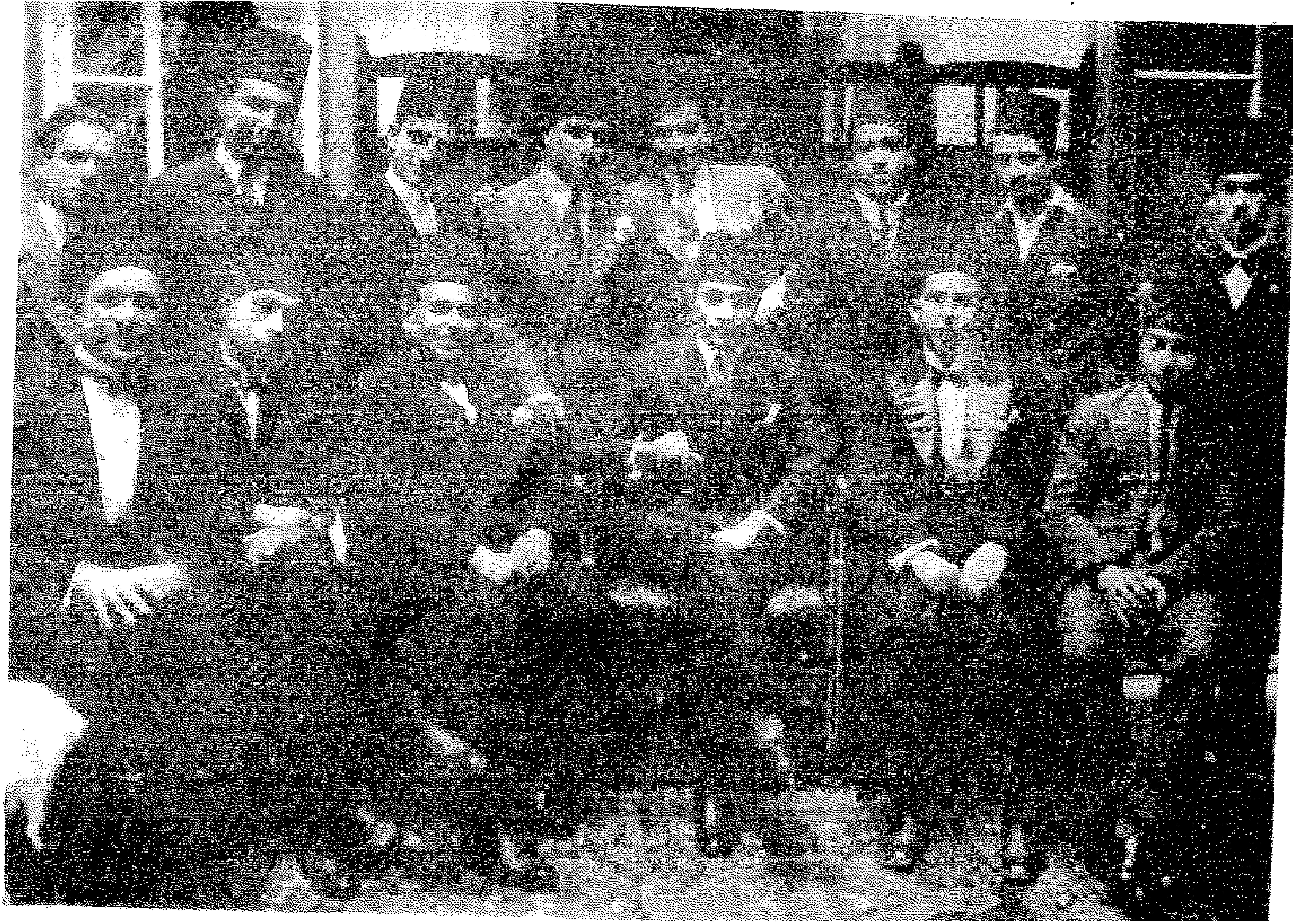
عبد الوهاب فى أثناء تسجيل أغنية "خايف أقول إللى فى قلبى" مع سامى الشوا عازف الكمان ، وصالح الفروجى مذهجى ، وعلى الرشيدى على القانون



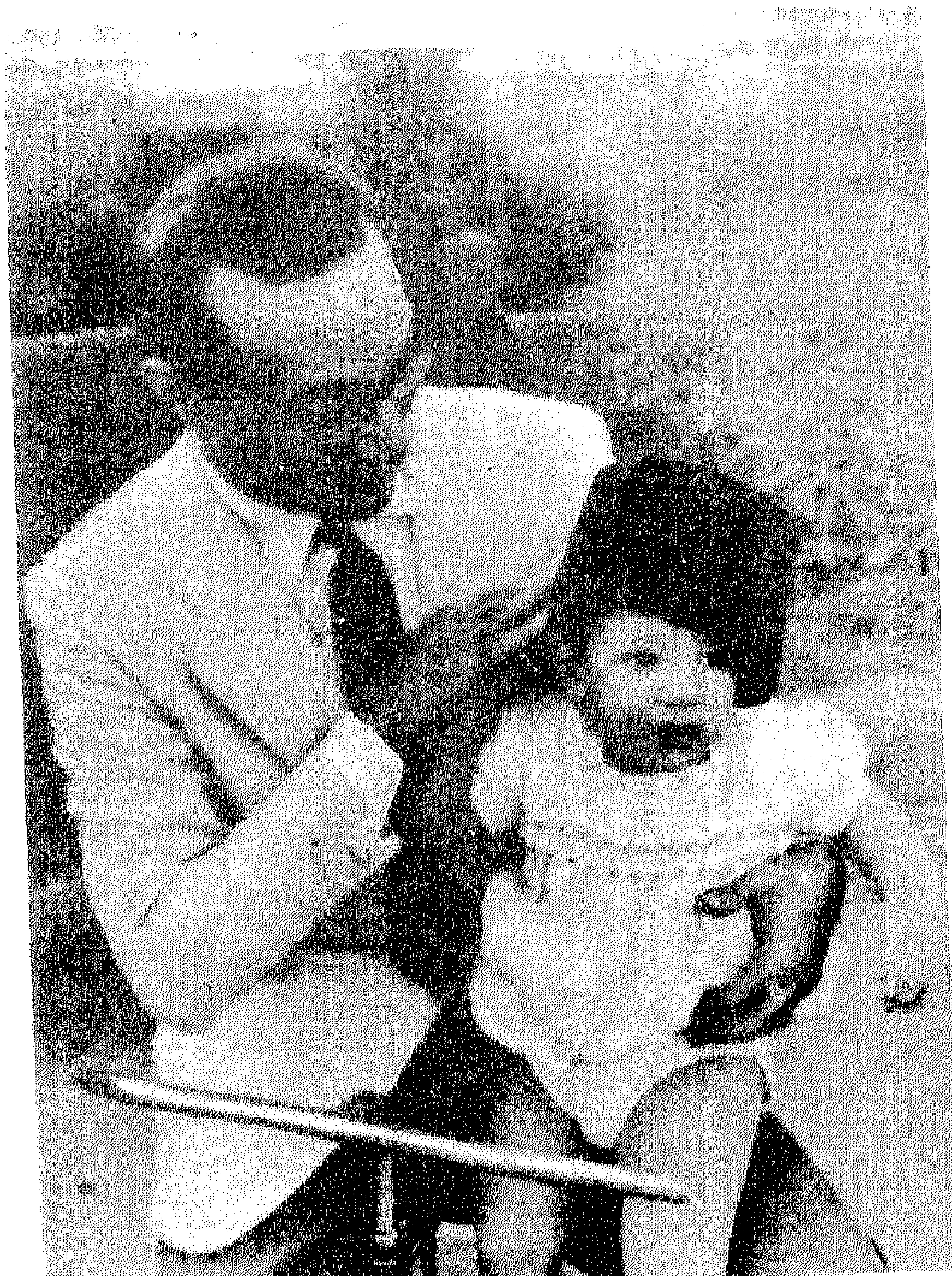
عندما بدأ عبد الوهاب يغنى فى حفلات عامة



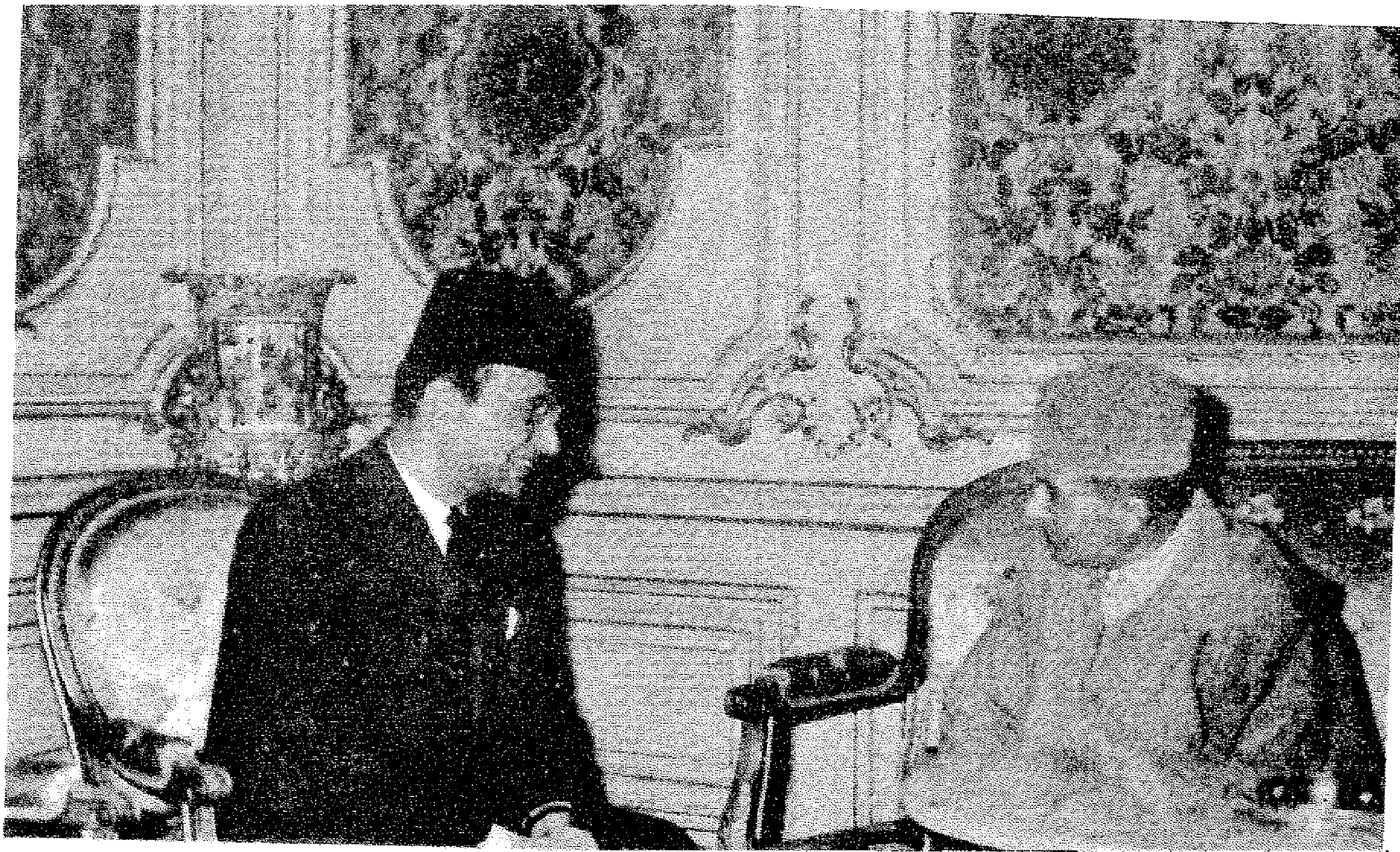
عبد الوهاب مع بطرس بيضا صاحب شركة بيضافون للأسطوانات (على اليمين) ثم المعلم عبد الفتاح ، أشهر مقاول فى مصر سنة ١٩٣٠ ومن المعجبين بعبد الوهاب ، ثم محمد التابعى ، الناقد الفنى وقتها .



عبد الوهاب فى دمشق سنة ١٩٣٧ ، فى أثناء زيارته لمعهد الموسيقى هناك .



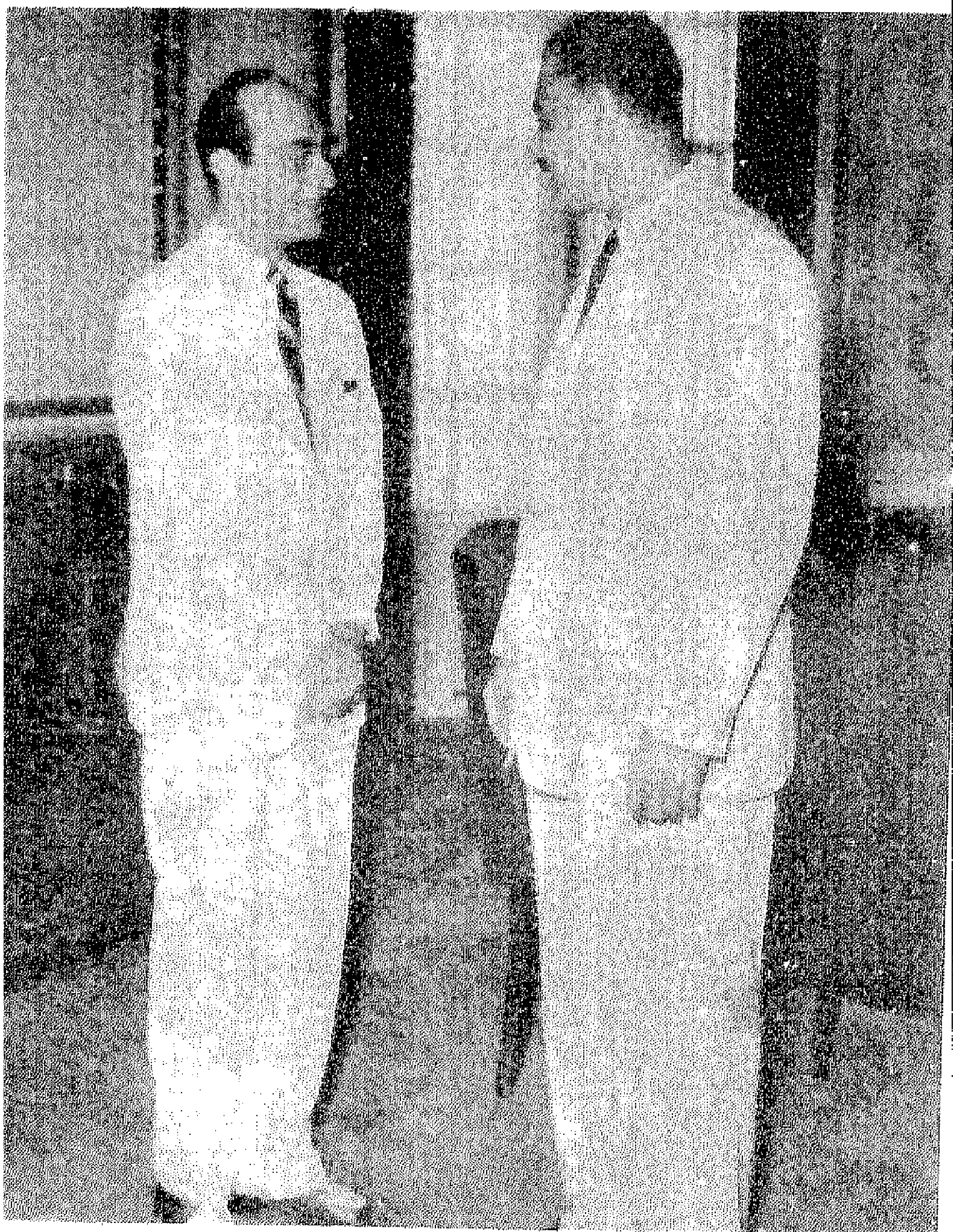
عبد الوهاب يداعب ابنه الصغير محمد ، الذي رزقه
من زواجه الثاني .



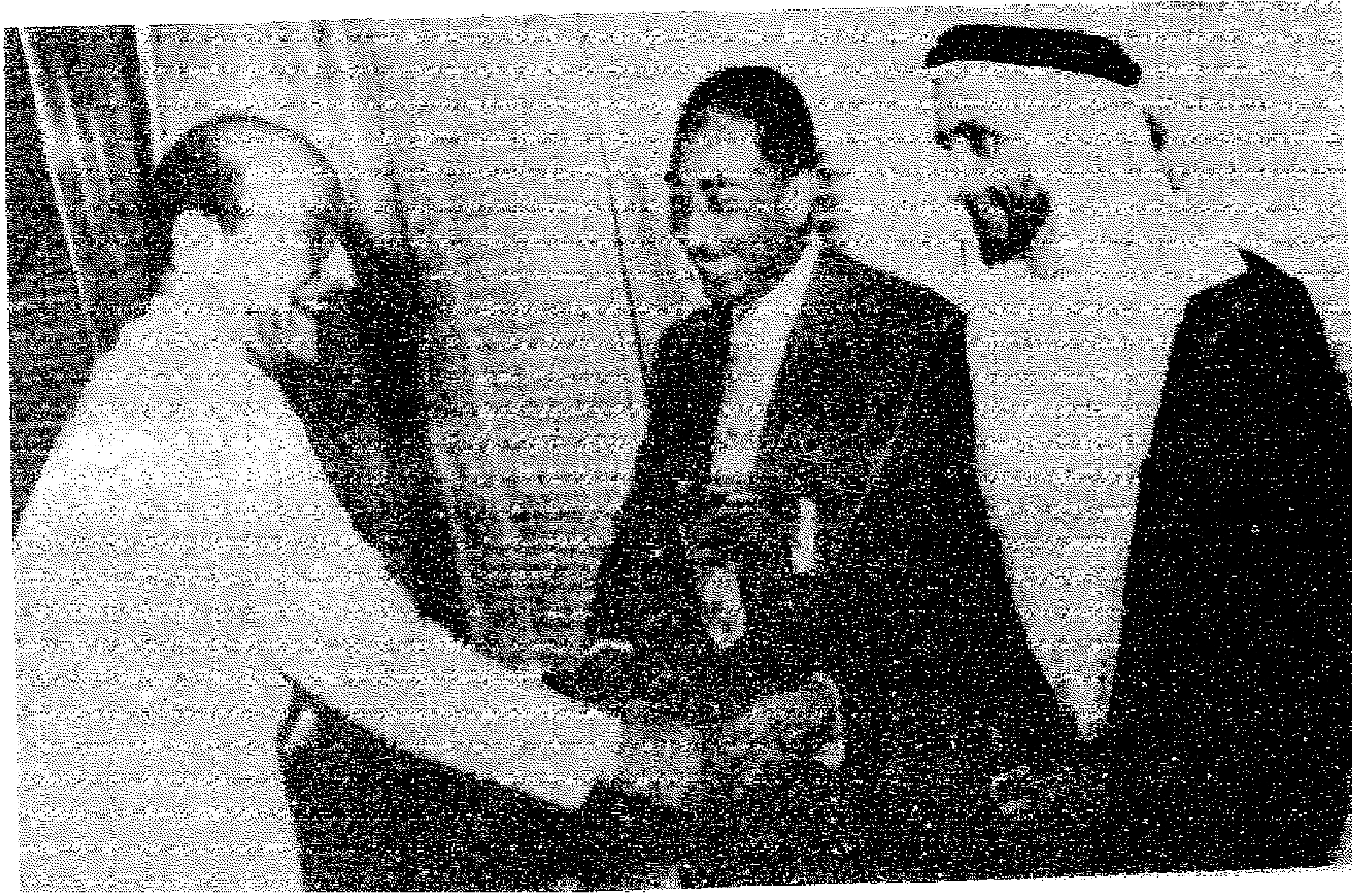
مع الملك الراحل محمد الخامس ، ملك المغرب السابق .



فى لبنان ، يتلقى قلادة من الحكومة اللبنانية تعبيراً عن تكريمه



مع الرئيس جمال عبد الناصر – القاهرة – ١٩٥٥



مع الرئيس أنور السادات ، وهو يصافح حاكم دبي .

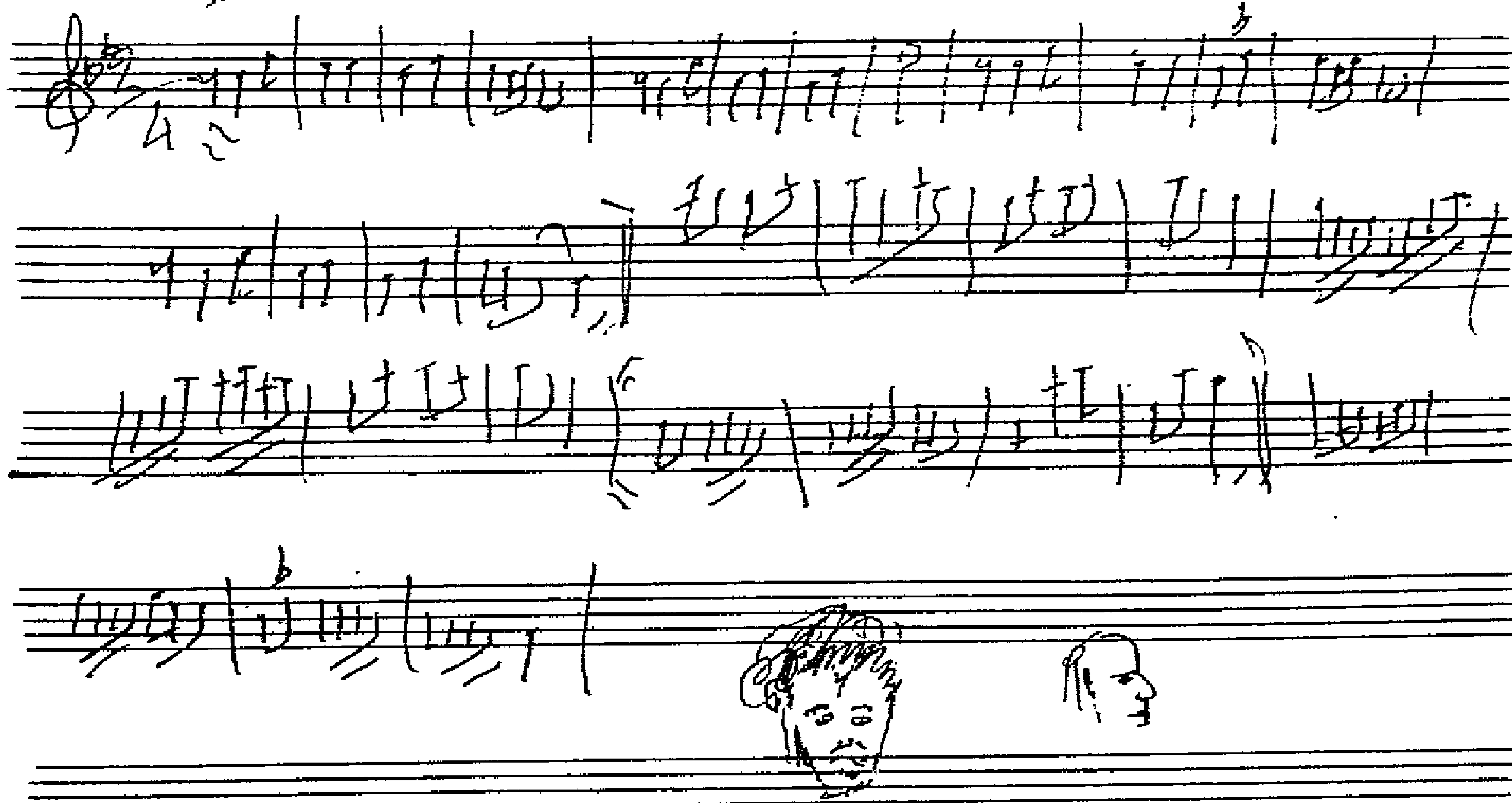


فى حجرة نومه ، لا بد ان تجد هذه الصورة لوالدة عبد الوهاب ، مع برقية عزاء تلقاها صباح وفاتها .



الصورة العليا لنهلة القدسى — زوجة عبد الوهاب — فى قبلة تهنئة له بمناسبة النجاح الهائل لأغنيته الأخيرة لأم كلثوم .

أما الصورة السفلى فهى لنهلة الزوجة الحالية ، مع إقبال نصار الزوجة السابقة .



« غداً ألقاك » .. أحدث لحن وضعه عبد الوهاب لأم كلثوم . .
بعد أن سجله بخط يده فى دفتر مواليده : دفتر ألحانه الموسيقية .

دار المعارف بمصر



هذا الكتاب

- كاد مؤلف هذا الكتاب يفقد صداقته مع محمد عبد الوهاب أكثر من مرة خلال فحصه لكل الأسرار الكبرى فى حياته .
- إن محمد عبد الوهاب يريد من الناس أن تسمع أغانيه وألحانه فقط . ولكن الكاتب الصحفى الشاب محمود عوض يريد أن يرى الناس « الشخصية » التى تقف وراء هذه الأغانى والألحان . إنه يعد الشخصية الناجحة فناً آخر تفوق فيه عبد الوهاب، قبل أن يتفوق فى الموسيقى . وإن أسرار هذه الشخصية ! تستحق الدراسة قبل أسرار أغانيه وألحانه .
- إن الخلاف بين الموسيقار والمؤلف مازال قائماً . وللقارئ وحده أن يقدر أيهما أهم من الآخر : تحليل شخصية عبد الوهاب ، أم تحليل عبد الوهاب لأزمة الموسيقى العربية .

عدد ممتاز